الانصاف

فيما وقع في تاريخ العصر الراشدي من الخلاف

السقيفة - استشهاد عثمان - معركة الجمل - معركة صفين
علي ومعاوية رضي الله عنهما

تأليف
الدكتور حامد محمد الخليفة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــدمـــة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين وعلـــى آلـــه الطيبين الطاهرين ، وأصحابه الغر الميامين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين .

اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبـــادك فيمـــا كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختُلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي مـــن تشـــاء إلـــى صراط مستقيم .

أما بعد: فإن هذا الموضوع يبحث في أهم مرحلة من تاريخ الأمة الإسلامية وهي مرحلة العصر الراشدي ، ولا سيما في الجانب السياسي والقضايا الداخليـــة ويشير إلى محاولات المجوس واليهود اغتيال رسول الله ﷺ في المدينة المنورة .

ثم اختيار الخليفة بعد وفاة الرسول ﷺ بإجماع من المـــهاجرين والأنصـــار وإظهار بيعة علي بن أبي طالب وسعد بن عبادة الأنصاري للخليفة أبي بكـــر ﷺ دون أي تردد أو نزاع ، والإشارة إلى استشهاد عمر الفاروق ﷺ في محرابه على يد الغدر المجوسي ، ومن ثم استشهاد عثمان ﷺ وهو يتلو كتاب الله تعالى، نتيجـة الحقد اليهودي المتحالف مع الغوغاء المنحرفة عن منهاج الراشدين وسيرتهم، والتي أُشربت مكر اليهود وخبثهم ففتقت ذلك الفتق العظيم ، الذي مثـــل أخطـــر حـــدث تعرضت له الأمة بعد وفاة رسول الله ﷺ لما ترتب عليه من نتائج وأخطار .

وبحث هذا الموضوع أيضاً **مكانة الصحابة وحرمتهم** ، والشبهات التي تذرع بها الخوارج لتسويغ ما قاموا به والوقوف على حقيقة تلك الدعاوى والشبهات **والإجابة على سلسلة من التساؤلات التي تثار عمّا جرى في تلك المرحلة ، وعـــن الـــدور الحقيقي لعبد الله بن سبأ وحركته السرية** التي انتشرت في الكوفة والبصرة ومصر

وعن دور غوغاء الكوفة في التعاون مع السبئية ، وما هي سياسة عثمان رضي الله عنه في مواجهة حرب الإشاعات التي كان يثيرها الخوارج السبئية ؟ وما الذي كان يحجبه عن البطش بهم ؟ وكيف تمكن السبئية من المسير من الكوفة والبصرة ومصر والتجمع في المدينة وحصار الخليفة عثمان على مرأى ومسمع من المسلمين ؟ وما موقف الصحابة من ذلك الحصار ؟ وكيف تم استشهاد الخليفة عثمان ؟ ومن هو المسؤول المباشر عن قتله ؟ وما هو موقف الصحابة من الدفاع عنه ؟ ولا سيما علي بن أبي طالب وطلحة والزبير رضي الله عنهم ، وما مسوغ عثمان رضي الله عنه في منع الصحابة من الدفاع عنه ؟ وما عذر الصحابة في الاستجابة له والكف عن قتال الخوارج ؟ وما هو موقف الصحابة بعد استشهاد عثمان رضي الله عنه .

وما الأثر الذي تركه استشهاد عثمان في نفوسهم رضي الله عنهم ؟ وما هي أخلاق أولئك القتلة ؟ وما هو مصيرهم ؟ .

ثم كيف تمت بيعة علي رضي الله عنه ؟ وهل تخلف كبار الصحابة عن بيعته ؟ أم أنهم بايعوه ولم يشاركوا في القتال معه ؟ ولا سيما سعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيدالله والزبير بن العوام رضي الله عنهم ؛ إذ أنهم هم بقية الشورى الذين رشحهم عمر رضي الله عنه للخلافة ، وما هو موقف علي رضي الله عنه من قتلة عثمان بعد بيعته للخلافة ؟ وما موقف طلحة والزبير من ذلك ؟ .

وكيف سارا إلى البصرة ؟ وما هي أهدافهم من ذلك المسير وما الذي دعا أم المؤمنين عائشة للمسير إلى البصرة ؟ ومن الذي أقنعها بذلك ؟ وكيف غادر أمير المؤمنين علي المدينة وسار إلى البصرة ؟ ومن الذين ساروا معه من المدينة ؟.

وما حقيقة ما حصل في البصرة يوم الجمل وكيف استشهد طلحة والزبير رضي الله عنهما ومن الذي قتلهما ؟ وما موقف أمير المؤمنين علي من ذلك ؟ وما موقف أم المؤمنين مما حصل في البصرة يوم الجمل ؟ ولماذا لم يستجب الناس

لدعوتها لوقف القتال ؟ ولماذا استهدفها الخوارج وحاولوا قتلها في ذلك اليوم ؟ وما موقف علي رضي الله عنه من أم المؤمنين بعد يوم الجمل .

ومن بعد ذلك **ما هي حقيقة النزاع بين أمير المؤمنين علي وأمير الشام معاوية** رضي الله عنهما ؟ وما هي حجة كل منهما فيما اتخذه من مواقف ؟ .

وما هي حقيقة أخبار موقعة صفين ؟ وهل كان هناك حماسة للقتال فيها ؟ وكيف استشهد عمار بن ياسر رضي الله عنهما في صفين ؟ .

ولماذا رُفعت المصاحف في صفين ؟ ومن الذي رفعها ؟ وهل كانت خدعة أم حرصاً على دماء المسلمين ؟ وكيف كان موقف الطرفين من ذلك ؟ .

وما موقف أمير المؤمنين علي ومعاوية من **التحكيم** ؟ **وما مدى كفاءة الحكمين** وقدرتهما على التصدي لهذه المهمة؟ وما هي النتيجة التي توصلا إليها ؟ وهل كان هناك احتيال ومكر في إعلان نتيجة التحكيم كما يزعم المبطلون ؟ ولماذا ترك أمير المؤمنين قتال أهل الشام ودعا إلى مسالمتهم بعد صفين ؟ وقاتل الخوارج ودعا إلى مواجهتهم ؟

وما هو رأي أمير المؤمنين علي في أهل الكوفة ؟ وكيف وصف خذلانهم له ؟

وهل هناك فرق بين معاناته ومعاناة أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه من الخوارج ؟ .

ومن ثم **كيف استشهد أمير المؤمنين علي** رضي الله عنه ؟ ولماذا لم تنجح محاولة اغتيال الصحابيين معاوية وعمرو بن العاص رضي الله عنهما وذلك في أكبر مؤامرة تتعرض لها الخلافة الراشدة ؟

وما هي حقيقة العلاقة بين الحسن بن علي رضي الله عنهما ومعاوية رضي الله عنه ؟ **وكيف صالح الحسن معاوية وبايعه على الخلافة وتنازل له عنها** ؟ منهياً بذلك صفحة الفتنة ومغلقاً باب الخلاف ، لتعود الأمة بعد ذلك إلى ما كانت عليه من الوحدة والألفة والمحبة ، ولتنصرف إلى ما كانت عليه من شؤون الفتح ونشر

الإسلام في بقاع الأرض .

وخلاصة مقاصد هذا البحث هو الإجابة على هذه السلسلة من التساؤلات وما يتعلق بها من أحداث في العصر الراشدي ، وبالوجه الذي ينسجم مع ما جاء في الكتاب والسنة عن الصحابة ﷺ وبما أجمع عليه المسلمون من عدالتهم ونزاهتهم وصدقهم ، وبما يتوافق مع عظمة إنجازاتهم الحضارية في ذلك العصر ، تلك الإنجازات التي تدحض أباطيل مبغضي الصحابة وتظهر زيف الروايات التي لفقوها عليهم في كثير من كتب التاريخ والأدب وغيرها .

وتأتي أهمية هذا الموضوع من أهمية المرحلة التي يبحث فيها ومن أهمية الإجابة عن هذه الأسئلة ، إذ أن العصر الراشدي هو العصر الذي شهد الفتح والتوسع في كل مجالات الحياة ، وشهد تطبيق تعاليم ومبادئ الدين الإسلامي على الواقع الذي تبلورت منه الحضارة الإسلامية .

ولما كان لمرحلة العصر الراشدي كل هذه الأهمية في التاريخ الإسلامي **تعرضت لأوسع وأعمق هجمة شعوبية يهودية صليبية استشراقية علمانية** ، عملت على إفساد تلك الصورة المشرقة لذلك العصر الخالد ، إذ أنهم رأوا في تشويهها تحقيقا لأهدافهم في تصديع الصف الإسلامي ، وتقزيم نتاج الحضارة الإسلامية وفتح المعابر لتمرير الشبهات والشكوك والمغالطات التاريخية في كل مفاصل وأحداث تلك الحقبة التي قادها الصحابة ﷺ بكل جدارة وإخلاص ، حتى جعلوا من إنجازاتهم المبدعة وتضحياتهم السخية نموذجا للإقتداء والإتباع والبناء الحضاري المرتكز على فهم العقيدة الإسلامية الصحيحة ، ولتجلية الحقيقة وبلورة رؤية صحيحة لما جرى من أحداث داخلية في العصر الراشدي كانت تتم عن سمو الصحابة عن النزوات والأهواء وتمسكهم بما يقود إلى رضا الله تعالى ضمن ما توصل إليه كل منهم من دليل شرعي اعتقد أن العمل في ظلاله هو المنجى

الوحـيد من الفتـنة .

ولكل هذه الأسباب ولغيرها **تم اختيار الكتابة في هذا الموضـوع** إذ أن تنقيـة تاريخ الصحابة ، وتقديمه على حقيقته نموذجاً رائداً للإنسانية التائهة الحائرة في هذا العصر ؛ الذي تحكم به دعاة الفكر العنصري الإباحي المادي المسقط من حسـاباته الله والدار الآخرة ، والذي يتسابق قادته على امتلاك كل وسائل التدمير والخـراب وما يبيد الحياة ، يظهر ذلك من خلال ما يمتلكه عالم الغرب من أسـلحة الدمـار الشامل والإصرار على إنتاج أكبر قدر منها ، وما يتبع ذلك من الإفسـاد المتعمـد للبيئة والحياة .

واستخدام ذلك السلاح لمحاربة الفضيلة وطمس معالمها وتكميم أفـواه دعاتـها والمتخلقين بها ، والداعين إلى عودة البشرية إلى أخلاق الصحابة وإلـى معـاني حضارتهم التي ضمنت للبشرية الأمن والسلام والاستقرار ، هذه النعم التي يعمـل قادة الحضارة المادية العالمية المعاصرة على حرمان المسلمين منها .

ومن هنا فإن تنقية تاريخ الصحابة وإماطة الزيف عنه يُعد مهمـة حضاريـة وحاجة إنسانية وضرورة شرعية .

ومن ضرورات الكتابة في هذا الموضوع ما رأيت وسمعت في بعض النـدوات والمحاضرات ولا سيما الجامعية منها ، وما قرأت في كثير من الكتب والدراسـات من فقدان الإنصاف في مادة التاريخ الإسلامي بشكل عام والعصر الراشدي بشـكل خاص ، واستهداف عمالقة السياسة والقيادة والفكر الإسلامي ولا سـيما الخليفتيـن عثمان بن عفان ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما ، وذلك لما أظـهرا مـن حسن السياسة وخدمة وحدة الأمة والرفق بالرعية وجميل قيادتها ، ولما حصل فـي عصريهما من الفتوح والرفاه والسيادة للمسلمين ، مما أوغر صدور أعداء الصحابة ودفعهم إلى صناعة الروايات المكذوبة عليهم وإذاعتها بيـن النـاس ، وإلصاقـها بتاريخنا الإسلامي المشرق ورجاله الأفذاذ ، لتشويه سيرة جيل القدوة وفصل الأمـة

عن الارتباط بذلك الماضي المجيد ، دون تحفظ أو تروٍ أو مقارنة أو موازنة مع ما ورد في الكتاب والسنة من نصوص صحيحة صريحة تدحض كل تلك الأباطيل والشبهات ، وذلك في تزوير واضح لما كان عليه أبناء ذلك الجيل .

ونظراً لما يترتب على هذا التزوير في تاريخ الصحابة ، المخالف لإنجازاتهم الحضارية والفكرية على واقع الحياة في عصرهم ، والهادف إلى حرف الأمة عن الإقتداء بذلك الجيل .

ولمرارة ما يجده الباحث المنصف من عمق الافتراء والبهتان على أولئك الرجال العظام من الصحابة الكرام رضي الله عنهم ولا سيما في مرحلة الفتنة ، مما يوجب التفرغ لدراسة تلك المرحلة وإظهار حقيقة ما حصل بين الصحابة والوقوف على مسوغاتهم في كل ما اتخذوه من مواقف ؛ وإن تفاوت الدليل عند كل منهم بين الصحيح والأصح .

ولدرء الشبهات عن تلك المرحلة وتقديم الصورة الحقيقية لها ، كان لابد من الإسهام في الكتابة عنها والتأكيد على أن الأمة لا يمكن أن تخرج مما هي فيه الآن إلا بالعودة إلى المنهاج الذي كان عليه الصحابة ، ذلك المنهاج الذي لبى طموحاتها حتى اقترن نجاحها وفلاحها وعزها ونصرها به ، واقترن شتاتها وهوانها وتبعيتها للأجنبي بانحرافها عنه ، وليس تحقيق ذلك بالأمر السهل إذ واجهت الباحث **كثير من الصعوبات** منها كثرة الروايات المدسوسة والحكايات الموضوعة على الصحابة رضي الله عنهم ؛ والتي لا يكاد يخلو منها كتاب من كتب الأدب والتاريخ ، وإن كان أخطر هذه الكتب هو تاريخ محمد بن جرير الطبري وذلك لعدالة كاتبه وغزارة معلوماته وسعتها ، ولجمع الطبري كل ما وقع له وما سمعه من أخبار دون تحقيق أو تدقيق أو تنبيه ، وإذا كان مما يشفع له أنه يورد أخباراً لرواة عدة في المسألة الواحدة ؛ فإنه في أخبار معركة صفين يكاد يعتمد على روايات أبي مخنف لوط بن

يحيى إذ **يورد له أكثر من تسعين رواية من حوالي مائة رواية** مما يؤدي إلى إرباك كبير للباحث في هذه المرحلة ؛ وذلك لتناقض عامة هذه الروايات مع عدالة الصحابة ودينهم وعقيدتهم .

ولما كان هذا الراوي مبغضاً للصحابة ؛ فإنه لا يتورع عن إلصاق التهم بهم مما يزيد في طمس الحقيقة وتشويه ما حصل ، كما أن اعتماد الطبري على روايات أبي مخنف في أخبار صفين ، وغياب روايات سيف بن عمر مخالف لمنهجية الطبري ، الذي غالباً ما يعتمد كل ما يقع تحت يديه من روايات في تغطية المسائل الخلافية ، **مما يبعث على التساؤل** عن مدى صحة نسبة أخبار هذه المرحلة إلى الطبري ذاته ، وهل هناك أيد خفية عبثت بروايات هذا الكتاب سعياً وراء تشويه سيرة الصحابة ؟ وهل للبويهيين أثر في ذلك ؟

ومن الصعوبات أيضاً اختلاط الحقيقة بالباطل في كثير من الروايات التي تتحدث عن تاريخ العصر الراشدي ، مما يوجب على الباحث في تاريخ الصحابة أن يستل الحقائق من تلك الروايات كما تستل الشعرة من العجين ، وكما كان حسان ابن ثابت رضي الله عنه يستل رسول الله ﷺ من قريش عندما كان يهجو مشركيها .

وكذلك هذا المنحى الخطير في منهجية أعداء الصحابة ، والذي يعمل على تأصيل العداوة بين المسلمين ، لشق الصف وتمزيق الأمة وتنمية الخلاف والتركيز على روايات الفتن وتهويلها والإضافة إليها ، وإثارة النعرات الإقليمية والطائفية حتى يخيل لقارئ التاريخ الإسلامي أن ذلك كان حقائق دائمة ، ومن الصعوبات الأخرى في هذا الموضوع ضرورة تتبع الأدلة التي اعتمدها الصحابة فيما اتخذوه من مواقف وصعوبة التمييز بينها نظراً لدقتها وشدة تمسكهم بها .

ومن قواعد المنهج في كتابة هذا الموضوع الإهتداء بالآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التي شهدت بعدالة الصحابة ونزاهتهم ، فقد مثلت هذه

القاعدة **النور** الذي يُهتدى به في كل منعطفات هذه المرحلة والمرجعية التي يُرد إليها الحكم في كل مسألة أو رواية تطعن أو تنال من الصحابة .

ومن المنهجية أيضاً النظر في تصور الصحابة للفتنة ، ومحاولة إظهار الدليل الذي بنى عليه كل منهم موقفه وبيان عذرهم في ذلك .

وتتبع الروايات التاريخية والأدبية المتعلقة بهذا الموضوع ، وتدوينها وجمعها في بطاقات ثم فرزها وتصنيفها في مواضعها من الفصول والمباحث ، لتكوّن بمجملها السيرة الحقيقية لتاريخ الصحابة ﷺ في تلك المرحلة ، ولتمثل بذاتها الرد على مفتريات وأباطيل أهل الزيغ من المبتدعة والمرتدين ومن يأخذ عنهم من المستشرقين والعلمانيين ، دون الترويج للروايات الباطلة التي صنعت لصرف المسلمين عن حقيقة وجوهر تاريخ الصحابة ولإشغالهم بالرد عليها والإسهام بنشرها من خلال ذلك .

مثل الانشغال بالرد على شخصية عبد الله بن سبأ هل هي حقيقة أم خيال ؟ والانصراف عن تشخيص الدور التخريبي الهدام الذي قام به بحقد وباطنية ، ذلك الدور اليهودي المتكرر في كثير من صفحات التاريخ الإسلامي في المشرق والمغرب والأندلس والذي يتوجب على كل مسلم أن يَعيَ خطورته ولا سيما في هذا العصر الذي تمكن فيه اليهود وحلفاؤهم من الغوغاء أن يسقطوا الخلافة الإسلامية ، وأن يتحولوا إلى سهم مسدد إلى قلب الأمة الإسلامية يستخدمه كل حاقد أو طامع أو موتور ، يسره هوان المسلمين وذلهم ويتشفى بقتلهم وإبادتهم وإقصاء عقيدتهم عن واقع الحياة .

وبالتالي فإن من يشكك بما قام به عبد الله بن سبأ في صدر الإسلام ، هو كمن يشكك بما يقوم به اليهود في هذا العصر ولا سيما في فلسطين من سلب وقتل وتدمير فضلاً عن اغتصاب الأرض وتمزيق أواصر الأمة الإسلامية والتحالف مع كل طامع في خيراتها وأراضيها حاقد على فكرها وعقيدتها .

كما أن التشكيك في شخصية ابن سبأ هو مؤشر على الغل الذي يحمله المشككون

على قادة هذه الأمة وبناة حضارتها ، وعملهم على تبرئة اليهود والخوارج السبئية من الغدر والنكث وحب الفتنة ، ومحاولة إلصاق ذلك بالصحابة الكرام ، لهذا فإن الأولوية في هذا الموضوع هي معالجة المسائل المستعصية في مراجعنا التاريخية والأدبية وغيرها ، وتقديم ما حصل من مسائل خلافية من وجهة النظر الواثقة بالصحابة ﷺ ودينهم وعقيدتهم ، والمتشككة بكل طروحات أعدائهم ومبغضيهم وذلك لتجفيف موارد الشبهات التي يستقي منها الخصوم .

ومما شجع على الكتابة في هذا الموضوع أن النصوص الصحيحة التي تنتشر في كتب الصحاح والسنن والمسانيد وكتب الصحابة ، تقدم صورة حقيقية لتاريخ الصحابة تنسجم مع ما قدموه من جهاد وعطاء وتضحيات وفكر وثقافة ومنهج حياة سارت عليه الأمة قروناً عديدة ظهرت فيها حقيقة مفاهيم الإسلام وتعاليمه التي ضمنت للبشرية كل ما تطمح إليه من أمن وسلام واستقرار ، ولبّت حاجة الناس إلى الشعور بالمساواة والطمأنينه التي ضمنها عدل الإسلام ، بعيداً عن الشعارات الكاذبة التي يرفعها الغرب في هذا العصر التي لا تهتم إلا بالإنسان الغربي أو امتداداته الصليبية أو اليهودية أو العلمانية والإلحادية .

والتي تعمل بجد على تجريد المسلمين من كل حقوق الإنسان بما في ذلك حق الحياة والأمن ، قال تعالى: ﴿ لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة وأولئك هم المعتدون﴾[1]

وقد جاء هذا الكتاب في **مقدمة وسبعة فصول وخاتمة** وكل فصل في ثلاثة مباحث يمثل **الفصل الأول** مدخلاً للكتاب أظهر عدالة الصحابة ، وأشار إلى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تؤكد ذلك ، وبيّن حرمتهم وحكم من ينال منهم وأوضح تصورهم للفتنة ، وأشار إلى أخلاق أعدائهم .

---

[1] سورة التوبة ، الآية (١٠) .

وتناول **الفصل الثاني** نجاة الصحابة من الفتنة بعد وفاة النبي ﷺ ؛ والحوار الذي دار في السقيفة بين المهاجرين والأنصار وحديث الأئمة من قريش ، وإجماع الصحابة على بيعة أبي بكر الصديق بما فيهم علي بن أبي طالب وسعد بن عبادة رضي الله عنهما ، والرد على بعض الشبهات التي تثار حول بعض الصحابة والخلفاء الراشدين .

وجاء في **الفصل الثالث** الحديث عن بدايات الفتنة وأسبابها ودور ابن سبأ وأثر غوغاء أهل الكوفة ومن تعاون معهم في ذلك ، وبيان سياسة الخليفة عثمان في مواجهة الخوارج وإسقاط مسوغاتهم التي تذرعوا بها للخروج عليه ، وبيان موقف الصحابة من دخول الخوارج إلى المدينة .

أما **الفصل الرابع** فقد تحدث عن حصار الخوارج للخليفة عثمان ثم استشهاده رضي الله عنه وتاريخ ذلك ، ومسوغ الخليفة في منع الصحابة من الدفاع عنه ، وعذر الصحابة في الكف عن قتال الخوارج ومصير القتلة بعد ذلك .

وتناول **الفصل الخامس** بيعة الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وبيعة أهل المدينة له ولا سيما طلحة والزبير رضي الله عنهما ثم خروج أمير المؤمنين من المدينة ، ومعركة الجمل في البصرة ، وموقف أم المؤمنين من ذلك ، واستشهاد طلحة والزبير رضي الله عنهما ، واتخاذ أمير المؤمنين علي الكوفة عاصمةً لخلافته .

وفي **الفصل السادس** تم الحديث عن بدايات النزاع بين أمير المؤمنين علي ومعاوية رضي الله عنهما ، وولاية قيس بن سعد بن عبادة على مصر ، ودور الخوارج في عزله وتولية محمد بن أبي بكر عليها ، وخروج أمير المؤمنين إلى صفين ، وما تم هناك من سفارات بين أهل الكوفة وأهل الشام ، ثم أمر القتال في صفين ، واستشهاد عمار بن ياسر رضي الله عنه ورفع المصاحف والتداعي إلى الصلح .

أما **الفصل السابع** فقد تحدث عن التحكيم ونتائجه ، ودحض الشـــبهات التـــي ألصقت بالحكمين ، وما حصل بعد ذلك بين أمير المؤمنين علي والخـــوارج فـــي حروراء والنهروان واستيلاء عمرو بن العاص على مصرومقتل محمد بن أبي بكر ثم المهادنة بين أمير المؤمنين ومعاوية رضي الله عنـــهما ، وضجـــر أمـــير المؤمنين من أهل الكوفة وبعض خطبه التي يذمهم فيها لتقاعســـهم عـــن نصرتـــه وخذلانهم له .

والحديث عن الجانب المشرق في العلاقة ما بيـــن أمـــير المؤمنيـــن علـــي ومعاوية رضي الله عنهما ثم استشهاد أمير المؤمنين علي رضي الله عنه عام ٤٠ هـــ .

وبيعة الحسن بن علي رضي الله عنهما بالخلافة ، ثـــم صلحـــه مع معاويـــة وتنازله له عن الخلافة وبيعته لمعاوية ، ثم **الخاتمة وقائمة المصادر والمراجع .**

وفي ختام هذه المقدمة فإن هذا جهد المقل أدخره عند الله تعالى لظلمة القـــبر ويوم الحساب يوم لا ينفع مال ولا بنون، فإن أحسنت فمن توفيق الله وفضله ، وإن كانت الأخرى فمن نفسي ومن الشيطان ، وحسبي أني أفرغت الوسع وبذلت الجهد وأستغفر الله تعالى من كل خطأ أو زلل أو شطط ، والله من وراء القصد وحســـبي الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

د . حامد محمد الخليفة .

٢٣ ربيع الأخر ١٤٢٣هـــ تموز ٢٠٠٢ م.

الفصل الأول

بين يدي البحث

في الصحبة

الصحبة: هي الملازمة والانقياد . وصحابي مشتق من الصحبة ، وليس مشتقاً من قدر منها مخصوص ، بل هو جار على كل من صحب غيره قليلاً كان أو كثيراً كما أن القول ، مكلم ومخاطب وضارب ، مشتق من المكالمة والمخاطبة والضرب وجار على كل من وقع منه ذلك قليلاً كان أو كثيراً ، ويقال صحبت فلاناً حولاً أو دهراً أو سنة أو شهراً أو يوماً أو ساعة ، فيقع اسم المصاحبة بقليل ما يقع منها وكثيره وذلك في حكم اللغة ، ومع ذلك فقد تقرر للأمة عُرف في أنهم لا يستعملون هذه التسمية إلا فيمن كثرت صحبته ، واتصل لقاؤه ومع هذا فإن خبر الثقة الأمين عنه ، مقبول ومعمول به وإن لم تطل صحبته ولا سمع منه إلا حديثاً واحداً[1]. والصاحب: اسم فاعل من صحبه يصحبه وذلك يقع على قليل الصحبة وكثيرها ، لأنه يقول: صحبته ساعة ، وصحبته شهراً ، وصحبته سنة ، قال الله تعالى : ﴿والصاحب بالجنب﴾[2]. وقال رسول الله ﷺ: « خير الأصحاب عند الله

---

(١) الخطيب البغدادي ، الكفاية في علم الرواية ، ٥١ ، وينظر ابن الأثير ، أسد الغابة ٨/١ فما بعدها مقدمة المحقق ، إلا أنّ كلامه عن بدايات الفتنة فيه نظر وتخليط ، لأنه لم يكن من مقاصد أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها القتال ، وإنما كان مقصدها الإصلاح بين الناس ، وكذلك بقية الصحابة ، وأيضاً في كلامه عن موقف علي ﷺ عن رفع المصاحف، وأنّ رأيه كان عدم الإجابة . والصحيح أنه قال: « نعم بيننا وبينكم كتاب الله أنا أولى به منكم » ينظر : ابن أبي شيبة ، المصنف ، ٣٣٦/٨ . الساعاتي ، الفتح الرباني ٤٥٣/٨ .

(٢) سورة النساء ، من الآية (٣٦) .

خيرهم لصاحبه »[1] . وقد دخل في ذلك قليل الصحبة وكثيرها[2] .

وقال الإمام البخاري: « كل من صحب النبي ﷺ أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه »[3] قال ابن حجر: وهذا الذي ذكره البخاري ، هو الراجح ، إلا أنّه هل يُشترط في الرائي أن يكون بحيث يميز ما رآه أو يُكتفى بمجرد حصول الرؤية ؟ محل نظر[4] .

وقال الإمام أحمد وغيره: « كل من صحب النبي ﷺ سنة أو شهراً أو يوماً ، أو رآه مؤمناً به فهو من أصحابه ، له من الصحبة بقدر ذلك »[5] .

وتُعرف صحبة الصحابي: تارة بالتواتر ، وتارة بأخبار مستفيضة ، وتارة بشهادة غيره من الصحابة له ، وتارة بروايته عن النبي ﷺ سماعاً أو مشاهدة مع المعاصرة ، وتارة بقوله وإخباره عن نفسه بعد ثبوت عدالته بأنه صحابي ، ولكن أصحابه على طبقاتهم وتقدمهم في الإسلام [6]

---

(١) الترمذي: السنن ، ك ، البر والصلاة عن رسول الله ﷺ ، باب ما جاء في حق الجوار ، ح (١٨٦٧) ، ابن حنبل ، فضائل الصحابة ، ١/ ١١ . ينظر: ابن تيمية الصارم المسلول ، ٥٧٨.

(٢) ينظر: ابن تيمية ، ، الصارم المسلول ، ٥٧٧ ، النووي ، تهذيب الأسماء واللغات ، ١/ ١٤ .

(٣) البخاري ، مع شرحه فتح الباري ، ك ، فضائل أصحاب النبي ﷺ ، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ وأتم العنوان بالنص المذكور .

(٤) المصدر نفسه ، شرح قول البخاري في تعريف الصحبة ، وفيه تفصيل واسع عن تعاريف الصحبة .

(٥) ابن تيمية ، الصارم المسلول ، ٥٧٩ ، . ابن كثير ، الباعث الحثيث ، ١٧٤ .

(٦) ينظر: العراقي ، التقييد والإيضاح ، ٢٩٩ ، ابن كثير ، الباعث الحثيث ، ١٨٥ ، الخطيب البغدادي ، الكفاية ، ٥١ .

عدالة الصحابة [١]

عدالة الصحابة ﷺ ثابتة معلومة لكل مسلم بنصوص القرآن الصريحة بتعديل الله لهم ، وإخباره عن طهارتهم ، واختياره لهم في آيات كثيرة وأحاديث شهيرة يكثر تعدادها ، وجميع ذلك يقتضي القطع بتعديلهم ، ولا يحتاج أحد منهم مع تعديل الله تعالى له إلى تعديل أحد من الخلق ، ولقد كانت الحال التي كانوا عليها من الهجرة والجهاد ونصرة الإسلام وبذل المهج والأموال ، وقتل الآباء والأبناء والمناصحة في الدين وقوة الإيمان واليقين ، توجب القطع بتعديلهم والاعتقاد بنزاهتهم ، وأنهم كافة أفضل من جميع الخالفين بعدهم والمُعدّلين الذين جاؤوا من بعدهم أبد الآبدين ، وهذا مذهب كافة العلماء ومن يُعتدّ بقوله من الفقهاء [٢].

وكل حديث اتصل إسناده بين من رواه وبين النبي ﷺ ، لم يلزم العمل به إلا بعد ثبوت عدالة رجاله ، ويجب النظر في أحوالهم ، سوى الصحابي الذي رفعه إلى رسول الله ﷺ ، لأن عدالة الصحابة ثابتة معلومة بتعديل الله لهم وإخباره عن طهارتهم ، واختياره لهم في نص القرآن الكريم[٣] ، الذي تكفل بحفظه ورعايته . ولما كان الصحابة الكرام هم رواة السُّنّة المطهرة ، فإن من أهم الأمور المؤدية إلى حفظها ، والمعينة على فهمها ، معرفة الذين نقلوها عن نبيّهم ﷺ ، إلى الناس كافة وحفظوها عليه ، وبلّغوها عنه ، وهم صحابته الحواريّون ، الذين وعوها وأدّوها

---

(١) العدالة هي الاستقامة في الدين ، والعدل ما قام في النفوس أنه مستقيم ، والعدالة محافظة دينية تحمل على ملازمة التقوى والمروءة ليس لها معها بدعة ، وتتحقق باجتناب الكبائر وترك الإصرار على الصغائر ، وبعض الصغائر ، وبعض المباح ، ينظر : ابن الأثير ، أسد الغاية ، ١٦/١ والعدل لغة : هو الذي لا يميل به الهوى فيجور في الحكم . والعدل من الناس ، المرضي قوله وحكمه قال تعالى: ﴿ وأشهدوا ذوي عدل منكم ﴾ الطلاق (٢٠) ، ينظر: ابن منظور، لسان العرب ٤٣٠/١ ، ابن حنبل فضائل الصحابة ، ١٢ .

(٢) الخطيب البغدادي ، الكفاية ، ٤٧ ، التباني ، إتحاف ذوي النجابة ، ٦ .

(٣) الخطيب البغدادي ، الكفاية ، ٤٦ ،ابن حنبل ، فضائل الصحابة، ١٣، النسائي، فضائل الصحابة، ١٢.

ناصحين محسنين ، حتى كمل بما نقلوه الدين وثبتت بهم حجة الله تعالى على المسلمين ، فهم خير القرون وخير أمة أخرجت للناس ، تأكد ذلك بثناء الله عزوجل عليهم ، وثناء رسول ﷺ [(١)] .

ومن هنا تأتي خطورة الطاعنين عليهم ، المنتقصين لهم ، إذ أنهم يشككون بعدالة الصحابة ﷺ ، للغمز في نص القرآن الكريم الذي أثبت عدالتهم ، واللمز في السّنة المطهرة التي شهدت بصدقهم ونزاهتهم .

ولا أعدل ممن ارتضاه الله تعالى لصحبة نبيه ﷺ ونصرته ، ولا تزكية أفضل من ذلك ، والآيات القرآنية التي تثني على الصحابة كثيرة ومواضيعها متعددة ومتنوعة ، تشمل جميع نواحي الحياة ، وتقف سداً منيعاً وسوراً حصيناً ، تتبدد عند عتباته كل أمواج التشكيك والتضليل التي يطلقها أعداء الصحابة ، وتتبخر كل أساطيرهم التي واظبوا على نسجها وصناعتها ، منذ أيام الماكر الزنديق عبد الله ابن سبأ ، فهذه الآيات ملاذٌ يحتمي به المؤمنون ، ونورٌ يهتدي به المسلمون ، فلا يتلوها أحد نقي القلب سليم العقل مخلص الإيمان لله تعالى ، إلا ويصبح لسان حاله يقول: « إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق وذلك أن الرسول حق والقرآن حق وما جاء به حق ، وإنما أدى إلينا ذلك كله الصحابة ، وهؤلاء يُريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة ، والجرح بهم أولى وهم زنادقة »[(٢)].

---

(١) ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ١/٢ .

(٢) الخطيب البغدادي ، الكفاية ، ٤٩ ، الهيتمي ، الصواعق المحرقة ، ٣١٨ .

من الآيات القرآنية التي تشهد بعدالة الصحابة وتدعو إلى حبهم واتباعهم رضي الله عنهم

مدح القرآن الكريم الصحابة رضي الله عنهم في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾[1] .

والجوهرة التي توضع في وسط العقد تكون هي أفضله وأحسنه ، وكذلك مكان الصحابة في عقد الأمة فهم أفضلها وأعدلها ، فلا يطعن بهم إلا من يريد فرط هذا العقد وتمزيق هذه الأمة .

وقال تبارك وتعالى: ﴿ كنتم خير أمة أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾[2] .

وبما أن الصحابة رضي الله عنهم قد آمنوا بالله تعالى وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، فقد تحقق فيهم هذا الوصف فهم خير الخلق بعد الأنبياء ، وهم خير الناس بين الأمم ، بذلوا دماءهم وأموالهم في سبيل الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فكل من سار على طريقهم واتبع منهجهم تتحقق فيه الخيرية بقدر تحقق تلك الصفات فيه .

وقال عز وجل مادحاً صبرهم ، قابلاً طاعتهم ، واصفاً حالهم وما كانوا عليه من التضحية والشجاعة ، ومبيناً عميق إيمانهم وجميل احتسابهم: ﴿ الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم ۞ الذين قال لهم الناسُ إنّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾[3] وقال عز وجل مبيناً حال الصحابة ومن تبعهم بإحسان ، أنهم متواضعون للمؤمنين ، ولا يداهنون في الدين ، وأنّ الله تعالى قد آتاهم الفضل لما صح من

---

(١) سورة البقرة ، من الآية (١٤٣) .

(٢) سورة آل عمران ، من الآية (١١٠) .

(٣) سورة آل عمران ، من الآية (١٧٣) .

إيمانهم ، واجتباهم لما ظهر من صدق جهادهم: ﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ﴾[1] . وقال تعالى: ﴿ فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذي أُنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾[2].

وقال تعالى شاهداً للصحابة بنصرة النبي ﷺ وبالألفة والوحدة بينهم: ﴿ هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألّفت بين قلوبهم ولكن الله ألّف بينهم إنه عزيز حكيم ﴾[3] .

وبيّن الله تعالى أنه هو الناصر للنبي ﷺ ولأصحابه ﷺ فقال: ﴿يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ﴾[4] .

وبيّن سبحانه وتعالى وحدة حالهم وولاية بعضهم بعضاً فقال: ﴿ إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض ﴾[5].

وشهد الله تعالى للمهاجرين والأنصار ، بالإيمان الحق فقال سبحانه وتعالى : ﴿ والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً ﴾[6] .

وبيّن الله تعالى سبق المهاجرين والأنصار ، وتقدمهم على من سواهم من المؤمنين السابقين واللاحقين ، لما قدّموا من تضحيات واتصفوا بصفات ، رضي

---

(١) سورة المائدة ، الآية ، (٥٤) .

(٢) سورة الأعراف ، الآية (١٥٧) .

(٣) سورة الأنفال ، الآية (٦٣) .

(٤) سورة الأنفال ، الآية (٦٤) .

(٥) سورة الأنفال ، الآية (٧٢) .

(٦) سورة الأنفال ، الآية (٧٤) .

الله تعالى بها عنهم وأرضاهم عنه سبحانه وتعالى فقال: ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم ﴾(١) .

ووصفهم الله تعالى بالصدق ، وأمر كل مؤمن أن يكون معهم قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾(٢)

وأنهم خرجوا من ديارهم نصرة لله ورسوله وابتغاء لفضل الله تعالى ورضوانه قال تعالى: ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ﴾(٣).

وشهد لهم بالوفاء بالعهد في قوله تعالى: ﴿ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً ﴾(٤) .

وإن الله سبحانه وتعالى وعدهم بالاستخلاف في الأرض والتمكين لهم ونشر دينهم الذي ارتضاه لهم ، وتحويل الحال التي مرت بهم من الفقر والجوع إلى الغنى والأمن والسيادة ، وقد تم ذلك منطبقاً على الصحابة ﷺ ، فكان ذلك خيراً معجزاً مما يؤكد صحته وصدقه ، قال تعالى: ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ﴾(٥). وإخبار الله تعالى لنبيه ﷺ أنه قد رضي عن المؤمنين من الصحابة الذين بايعوه تحت الشجرة ، والذين كان في مقدمتهم العشرةُ المبشرون بالجنة ، وبشرهم بالفتح والمغانم الكثيرة ، وأن السبب المباشر لتلك البيعة غضب النبي ﷺ على المشركين ، عندما أُشيع أن سفير

---

(١) سورة التوبة ، الآية (١٠٠) .

(٢) سورة التوبة ، الآية (١١٩) .

(٣) سورة الحشر ، الآية (٨) .

(٤) سورة الأحزاب ، الآية (٢٣) .

(٥) سورة النور ، الآية (٥٥) .

المسلمين إلى مكة ، عثمان بن عفان رضي الله عنه قد قتل ، فبايع أهل الحديبية الذين كانوا هم « **خير أهل الأرض** »[1] رسول الله ﷺ « **على الموت** »[2] قصاصاً لسفيرهم عثمان رضي الله عنه مما يوضح استعدادهم للتضحية في سبيل الله تعالى وقوة ترابطهم وحميتهم للإسلام والمسلمين ، كما يبين مكانة عثمان عند رسول الله ﷺ وعند أصحابه الذين كانوا هم خير أهل الأرض بشهادة رسول الله ﷺ . قال تعالى: ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ، ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾[3].

ولعل ما روي عن عمر بن عبد العزيز وشيخه عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أحد فقهاء المدينة ، مفيداً في تفسير هذه الآية ، حيث كان عمر بن عبد العزيز يتردد على شيخه هذا ، فأتاه يوماً فأعرض عنه الشيخ ، فقال له عمر : يا سيدي لم تعرض عني ؟ فقال له: أَبَلَغَكَ أن الله غضب على أهل بيعة الرضوان بعد أن رضي عنهم ؟! قال: لا ، فقال له الشيخ: ما شيء بلغني عنك في علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فقال: يا سيدي أتوب إلى الله تعالى[4]. وهذا هو خُلق المؤمن إذا بدر منه خطأ أو تقصير يسارع إلى الاستغفار والتوبة .

ومما وصف به الله تعالى الصحابة الكرام ، حب الجهاد وحب المؤمنين وحب العبادة ، وأن أثر ذلك ظاهر على وجوههم بالبشر والنور والأمل وبموازرة النبي ﷺ وإعانته حتى استوى الإسلام وظهر الدين ، ففرح المؤمنون واغتاظ الكافرون والمنافقون ـ ليغيظ بهم الكفار ـ فأصبح كل من ينال أو ينتقص أحداً من الصحابة أو يغتاظ من ذكرهم ، ولا يسرّه ذلك ولا يفرحه ولا يبعث في قلبه الإكبار لهم

---

(١) البخاري ، مع شرحه فتح الباري ، ك المغازي ، باب غزوة الحديبية ، ح (٤١٥٤) .

(٢) المصدر نفسه ، ح (٤١٦٩) .

(٣) سورة الفتح ، الآيتان (١٨ ــ ١٩) .

(٤) التباني ، عدالة الصحابة ، ٤٩ .

والاعتزاز بهم ، يناله لونٌ من ألوان الكفر إن لم يكن مرتداً عن دينه خارجاً من ملته ، قال تعالى: ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداءُ على الكفار رحماءُ بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهُمْ في وجوهِهم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراةِ ومثلُهم في الإنجيل كزرعٍ أخرج شطئهُ فآزرَهُ فاستغلظَ فاستوى على سوقهِ يعجبُ الزرّاع ليغيظَ بهمُ الكفار وعد اللهُ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ منهم مغفرةً وأجراً عظيماً﴾[1] .

وأشاد القرآن الكريم بكرم الصحابة وجودهم وإيثارهم قال تعالى: ﴿والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾[2] .

فالذين توطنوا المدينة هم الأنصار يحبون إخوانهم الذين هاجروا إليهم ويؤثرونهم على أنفسهم في كل شئ بالسلم والحرب ، والإيثار هو تقديم الغير على النفس وحظوظها ، وذلك لقوة اليقين وعمق الإيمان وتأكد المحبة .

والخصاصة: هي الحاجة الشديدة والفاقة وأصلها من الاختصاص ، أي ولو كان بهم فاقة وحاجة فإنهم يؤثرون على أنفسهم[3] .

وهذه شهادة الله تعالى في العلاقة ما بين المهاجرين والأنصار ، فأي معنى يعود لمن يروي ما يناقض قول الله تعالى في ذلك ، وكم هو موغل في السوء من ينال من أعراض أصحاب محمد ﷺ .

ثم بيّن الله تعالى صفات المؤمنين الذين جاؤوا من بعد الصحابة ، أنهم محبون لهم معترفون بفضلهم ، ويدعون لهم ويسألون الله تعالى أن يغفر لهم وأن يجعل قلوبهم نقية لا تحمل لأصحاب محمد ﷺ إلا الودّ والحب والوفاء ، لما فازوا به من

---

(١) سورة الفتح ، الآية (٢٩) .

(٢) سورة الحشر ، الآية (٩) .

(٣) ينظر: القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ٩/ ٤٩٧٧ ، تفسير الآية ، (٩) من سورة الحشر .

السبق في الفضائل والتضحيات ، قال تعالى: ﴿والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم﴾[٢] .

فهذه بعض نصوص القرآن الكريم التي تثني على الصحابة إما بصيغ الخصوص أو بصيغ العموم ، وتشهد لهم بالسبق والفضل والصدق والإيثار وأنهم أمة وسط ، يحبهم الله ويحبونه ، ورضي عنهم ورضوا عنه ، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، آمنوا وهاجروا وآووا ونصروا ، واتبعوا النور الذي أنزل على رسول الله فهم الصادقون المفلحون المتقون التائبون العابدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، والفائزون بالجنة والنعيم المقيم ، فهذه بعض الآيات القرآنية التي تزكي الصحابة وتشهد لهم بالعدالة وتبشرهم بالجنة ، فهل يؤمن أعداء الصحابة بالقرآن الكريم ؟! وإذا زعموا الإيمان به فكيف يردون نصوصه في مدح الصحابة والثناء عليهم ؟! ويجترئون على النيل منهم وإلصاق التهم الباطلة بهم ، بعد أن برّأهم الله تعالى من التهم والريب .

واستناداً إلى هذه النصوص وغيرها يمكن القول: أن الطعن المتعمد بالصحابة يناقض آيات القرآن الكريم ؛ وأن الطاعنين بالصحابة متعمدين الإساءة إليهم مقصدهم أكبر من ذلك بكثير ، ففضلاً عن مناقضتهم للقرآن الكريم ونصوص السنة الصحيحة ؛ فإنهم يريدون القول أنّ كل شيء جاء عن طريقهم فهو باطل ، فالقرآن والنبوة والشريعة باطلة ، لأنها رويت ودونّت على أيدي الصحابة ﷺ ، والفرائض والأحكام في الصيام والصلاة والنكاح والطلاق والحدود وغير ذلك كله مردود غير مقبول .

وبذلك يتضح المقصد الخطير لأعداء الصحابة المتمثل في العمل على طمس دين الإسلام وتشكيك الناس بحملته وحُماته ﷺ .

---

(١) سورة الحشر ، الآية (١٠) .

من الأحاديث النبوية

مما سبق في الآيات الكريمة اتضح أن شأن الصحبة ومقامها لا يعدله شيء من الأعمال مهما بلغت أهميته ، وقد ثبت ذلك في الصحيحين والسنن من قوله ﷺ: « لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه »[١]، وقال ﷺ: « إذا رأيتم الذين يسبون أصحابي فقولوا: لعنة الله على شركم »[٢]. وكان عبد الله بن عمر يقول: « لا تسبوا أصحاب محمد ﷺ فلمقام أحدهم ساعة خير من عمل أحدكم عمره »[٣] .

وبيّن ﷺ أن خير الأمة هم أصحابه الذين عاشوا في زمانه فقال: « خير أمتي قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم »[٤] وأظهر ﷺ مكانة أصحابه رضي الله عنهم وأنهم مفاتيح خير لهذه الأمة مغاليق شرّ ، ببركاتهم وحسن صلتهم بالله تعالى يُنصرون ، وبإخلاصهم وعاطر سيَرهم يهتدون فقال ﷺ: « يأتي على الناس زمان فيغزو فِئام من الناس ، فيقولون: فيكم من صاحَبَ رسول الله ﷺ ؟ فيقولون لهم: نعم ، فيُفتح لهم . ثم يأتي على الناس زمان فيغزو فئامٌ من الناس فيقال : هل فيكم من صاحَبَ أصحاب رسول الله ﷺ ؟ فيقولون : نعم ، فيُفتح لهم . ثم يأتي على الناس زمان فيغزو فئام من الناس فيقال: هل فيكم من صاحَبَ من صاحَبَ أصحاب رسول الله ﷺ ؟ فيقولون: نعم ، فيُفتح لهم »[٥] . وأوصى ﷺ بأصحابه لأنهم أفضل الأمة فقال: « إحفظوني في أصحابي فإنهم خيار أمتي »[٦] . وشبه أصحابه موضحاً مكانتهم في المجتمع الإسلامي فقال ﷺ:

---

(١) البخاري ، مع شرحه فتح الباري ، ك فضائل أصحاب النبي ح (٣٦٧٣) . مسلم ، صحيح مسلم ، ك فضائل الصحابة ، باب تحريم سب الصحابة (٤٦١٠) (٢) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٩/٤٩٨٦ .

(٣) ابن ماجة ، السنن ، ك المقدمة ، باب فضائل أهل بدر (١٥٨) ، وقيل أنه حديث ضعيف .

(٤)البخاري، ك فضائل أصحاب النبي (٣٦٥٠)(٣٦٥١) أبو داود السنن، مع شرحها عون المعبود(٤٦٣٢)

(٥)البخاري، مع شرحه فتح الباري، ك فضائل الصحابة (٣٦٤٩)ابن حبان، صحيح ابن حبان، ح(٦٦٣١).

(٦) الشهاب ، مسند الشهاب ، فضائل الصحابة ، ح (٤٧٣) .

« إن مثل أصحابي في أمتي ، كالملح في الطعام ، لا يصلُح الطعام إلا بـــالملح»[1] خطب عمر بن الخطاب ﷺ المسلمين فقال: « إنّ رسول الله ﷺ قام فينـــا مثــل مقامي فيكم فقال: احفظوني في أصحابي ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ثم يفشو الكذب ، حتى يشهد الرجل وما يُستشهد ، ويحلف وما يُستحلف »[2] فكان للصحابـــة مكانة عظيمة عند عمر ﷺ ، يُقدّمهم ويُكرمهم ويحرص عليـــهم ، وقـــد روي أن أعرابياً هجا الأنصار ، فجيء به إلى عمر ﷺ فقال لهم: « لولا أنّ له صحبة مـن رسول الله ﷺ ما أدري ما قال فيها لكفيتكموه »[3] . فعمر مع شدته على المخـــالفين توقف عن معاتبته فضلاً عن معاقبته في مثل هذه المسألة ، لكونه صحب النبي ﷺ مما يؤكد مكانة الصحبة ومقامها في نفوس المؤمنين . وكان رسول الله ﷺ يؤكـــد على التمسك بسنّته المطهرة ويحذّر من الإنحراف عنها ، ولا ســيما فـــي أوقـــات الخلاف والفتن ، وأنّ ما يقوم به الخلفاء الراشدون أو يُقرّونه هـــو امتـــداد لســنّته التي تقود إلى الهدى والفلاح ، قال العرباض بن سارية ﷺ : « قام فينا رســول الله ﷺ ذات يوم فوعظنا موعظة بليغة ، وجلت منها القلوب وذرفـــت منـــها العيـــون فقيل يا رسول الله وعظتنا موعظة مودع فاعهد إلينا بعهد فقال: عليكم بتقـــوى الله والسمع والطاعة وإن عبداً حبشياً ، وسترون من بعدي اختلافاً شديداً فعليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الراشدين المهديين عَضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم والأمور المحدثـــات فإنّ كل بدعة ضلالة »[4] .

---

(١) الشهاب ، مسند الشهاب ، فضائل الصحابة ، ح (٨٣٨) .

(٢) ابن ماجة ، السنن ، ك ، الأحكام ، باب كراهية الشهادة لمن لم يستشهد ، ح (٢٣٥٤)
ابن حنبل ، المسند ، مسند العشرة المبشرين بالجنة ، ح (١٧٢) .

(٣) الهيتمي ، الصواعق المحرقة ، ٣١٩ .

(٤) ابن ماجة ، السنن ، ك المقدمة ، باب سنة الخلفاء الراشدين المهديين ، ح (٤٢) .
الترمذي ، السنن ، ك العلم ، ح (٢٦٠٠) ، أبو داود ، السنن ، ك السنة ، ح (٣٩٩١) .

وسيتبيّن في الفصول اللاحقة ، أن الخلفاء الراشدين كانوا يسيرون على هدي النبي ﷺ لم يغيروا ولم يبدلوا ، وأن كل ما قاموا به كان مستلهماً من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فأصبح اتباعهم سُنَّة ومخالفتهم بدعة والخروج عليهم ضلالة ، ولم يكن من بين المؤمنين « أيسر سيرة ولا أقل تشديداً منهم »[١] إذ أنهم كانوا على الحنيفية السمحاء لا يحملون في نفوسهم إلا الودّ والخير والوفاء « لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق ، ومن أحبهم أحبه الله ، ومن أبغضهم أبغضه الله »[٢].

وكان رسول الله ﷺ يدعو لهم فيقول: « اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فأكرم الأنصار والمهاجرة »[٣].

ويبشرهم بالجنة والسلامة من النار ، في مثل قوله ﷺ: « لا تمس النار مسلماً رآني أو رأى من رآني »[٤] وقوله ﷺ: « لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة »[٥]

فالصحابة اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ ، فأكرمهم بالقرب من نبيه ﷺ ووصل حبالهم بحبله وأرحامهم برحمة ﷺ ، قال ﷺ: « إن الله اختارني واختار لي أصحاباً وجعل منهم أصهاراً وأنصاراً ووزراء ، فمن سبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منهم يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً »[٦].

وهم قادة الأمة ونورها في الدنيا والآخرة قال ﷺ: « ما من أحد من أصحابي يموت بأرض إلا بُعث قائداً ونوراً لهم يوم القيامة »[٧].

---

(١) الدارمي ، مسند الدارمي ، ك المقدمة ، باب كراهية الفتيا ، ح (١٣٦) .

(٢) ابن أبي شيبه ، المصنف ، ٧/٥٤٠ ، ٧/٥٤١ .

(٣) الترمذي ، السنن مع شرحها عارضة الأحوذي ، ١٣/٢٤٢ . (٤) المصدر نفسه .

(٥) المصدر نفسه .

(٦) أبو نعيم ، حلية الأولياء ، ٢/ ١١ ، ابن الجعد ، مسند ابن الجعد ، ح (٢٠٩٥) .
ابن تيمية ، الصارم المسلول ، ٥٧٩ .

(٧) الترمذي ، السنن ، ك المناقب عن رسول الله ﷺ ، الباب ، فيمن سب أصحاب النبي ﷺ ح (٣٨٠٠) .

ولقد تاب الله تعالى على النبي والمهاجرين والأنصار ومن تبعهم بإحسان في قوله تعالى : ﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة ﴾ (١) .

وكان ذلك بعد غزوة تبوك وهي آخر غزواته ﷺ ، مما يبين شمولية تلك التوبة لجميع الصحابة ، وجمعهم مع النبي ﷺ يُعد توبة عظيمة تظهر فيها مكانتهم عند الله تعالى الذي جمعهم مع رسوله ﷺ ولم يستثن منهم أحداً ، ولهذا فإن كل دعوة تفرّق بين أصحابه ﷺ أو تتهم أحداً منهم فهي دعوة مردودة على أصحابها لأنها علامة أهل الزيغ والزندقة والنفاق . إذ أن مكانة الصحابة عظيمة عند الله وعند رسوله ﷺ وعند المؤمنين الذين يتقربون إلى الله تعالى بحب الصحابة وخدمتهم ، عن أنس بن مالك ﷺ قال: كان جرير بن عبد الله البجلي معي في سفر فكان يخدمني فقال: « إني رأيت الأنصار تصنع برسول الله ﷺ شيئاً فلا أرى أحداً منهم إلا خدمته »(٢) .

وفعل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، بأبي أيوب الأنصاري خالد بن زيد ﷺ ما هو أكثر من ذلك ، وأبو أيوب هو الذي نزل عنده رسول الله ﷺ لما هاجر ، حتى بنى مسجده وحُجَرَه وانتقل إليها ، فاستفاد من جواره هذا آداباً وعلوماً ، وأصبحت له منزلة عالية في نفوس المسلمين ، ومن ذلك أنه زار ابن عباس ، عندما كان أميراً على البصرة ، في خلافة علي ﷺ ، فأكرمه إكراماً فائقاً وقال له: «أريد أن أخرج لك عن مسكني كما خرجت لرسول الله ﷺ عن مسكنك وأمر أهله فخرجوا ، وأعطاه كل شيء أغلق عليه بابه »(٣) .
مما يوضح المكانة السامية للصحابة، في نفوس المؤمنين منذ عصر رسول الله ﷺ

---

(١) سورة التوبة ، الآية (١١٧) ، وينظر: القرطبي ، الجامع للأحكام القرآن ، ٤/ ٢٤٢٦ .
(٢) ابن الجعد ، مسند ابن الجعد ، ١/ ٦٠٧ .
(٣) ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ٤/ ١٦٠٦ ، ابن الأثير ، أسد الغابة ، ٢/ ٨٥ .

وإلى هذا العصر وإلى قيام الساعة ، فحبهم واتباعهم علامة الإيمان والحرص على وحدة الأمة الإسلامية ، وبغضهم وعداوتهم علامة النفاق ، والعمل على طمس عوامل وحدة الأمة ورقيّها وقوتها .

الإمساك عمّا شجر بين الصحابة رضي الله عنهم

إن مذهب أهل السُّنة والجماعة هو الإمساك عما شجر في بعض الفترات بين أصحاب النبي ﷺ ، وذلك صفحاً عن الأخبار التي دوّنها أكثر المؤرخين بما رووه عن أعداء الصحابة ، الذين كانوا يكتبون الكتب المزوّرة على ألسنة الصحابة منذ عصر عثمان وعلي رضي الله عنهما ــ كما سيتضح ذلك في مواضعه من هذا البحث ــ وواصل خَلْفُ أعداء الصحابة ما بدأه أجدادهم في اختلاق الأخبار وتلفيق التهم ، حتى لم يعد بين الأيدي كتاب واحد من كتب التاريخ نقياً من روايات الإفك والبهتان على الصحابة الكرام رضي الله عنهم إلا ما رحم الله ، فمن كان من الكتّاب سليم النيّة فإنه يقع في الشراك التي نصبها المغرضون ، وبثوها في عامة كتب التاريخ والأدب وغيرها .

ولهذا أوصى سلف هذه الأمة بالإمساك عمّا شجر بين الصحابة رضي الله عنهم لأننا لا نُسأل عن ذلك ، **لكن إذا ظهر مبتدع أو زنديق يقدح** فيهم بالباطل فلا بد من الذب عنهم ، وإظهار فضائلهم ، وذكر ما يبطل حجته بعلم وعدل ، حرصاً على سلامة العقيدة ، ومكانة حملتها في نفوس المؤمنين ، وأن يُفهم أن مقتل الخليفة عثمان رضي الله عنه لم يكن بسبب خلاف بين الصحابة ، وإنما نتيجة لمكر السبئية والغوغاء وأعداء الأمة ، وأن الخلاف الذي وقع بين بعض الصحابة ؛ لم يزد على ساعات من يوم الجمل ، ويومين أو ثلاثة في صفين ، وما سوى ذلك كان خلافاً في الدليل وعدم توافق في التأويل ، فمن أراد أن يجعل من ذلك معول هدم في سيَر بُناة حضارة هذه الأمة وحماة عقيدتها ، لا بد أن يُدحر بغيه ، ويُكشف زيفه ، ويهتك ستره

وغالباً ما يكون هذا من أعداء الصحابة ، الذين لا تُعد فرقهم لكثرتها وشدة خلافاتها فلا تربطهم عقيدة ولا تشملهم جماعة ، وإنما زنادقة يلعن بعضهم بعضاً ، ولا يجمعهم سوى العداء للصحابة الذين حطموا عروشهم ، وأبطلوا عقائدهم الفاسدة .

فهم لا يغفرون للصحابة وقوع الخلاف بين أفراد منهم وفي مسألة واحدة ، قُتل فيها خليفة ، عادل حليم وفاتح كريم ، ولفترة وجيزة ولم يتعرض أحد منهم لدين أو عرض من خالفه منهم ، بل كانت تجمعهم العقيدة ، ويملأ قلوبهم حسن الظن بإخوانهم والتماس الأعذار لما يخالف به بعضهم بعضاً .

ولا يقفون عند العمل على ترويج ذلك الخلاف وتضخيمه وتهويله ، بل يجعلون من ذلك عقيدة لهم وديناً يدينون به ، يقيمون له الأعياد والاجتماعات ، ويقرؤون فيه الأساطير والخرافات ، التي نسجها دهاقينهم ، ولفقتها شياطينهم ، وغذتها أحقادهم ، ورضعتها أجيالهم ، دون أن يقفوا أمامها وقفة تفكّر وتحرر من التبعية العمياء التي حُشيت بها أذهانهم ، فصمّت آذانهم عن سماع صوت القرآن والإيمان وطمست قلوبهم بما تلقوه من الزيغ والبهتان ، فلا يعون ولا يسمعون وهم في غيهم وبغيهم على الصحابة يعمهون .

فيتلقف ذلك العلمانيون والمستشرقون ، ويعملون بكل الوسائل على نشره وتعميقه لقطع الأمة المسلمة وأجيالها عن ماضيها المجيد .

بينما يمجدون حضارة الغرب ويغطون عوراتها ، ويصمتون عن الخلافات المتأصلة في نفوس بُناتها ، فيروّجون ليوم الجمل ، ليجعلوا منه وصمة في التاريخ الإسلامي ، ويسكتون عن حرب المائة عام ، التي دارت في أراضي ومياه أوروبا بين الإنكليز والفرنسيين ، والحرب العالمية الأولى والثانية التي أباد بها الصليبيون بعضهم بعضاً ، بسبب الطمع والجشع والصراع على مناطق النفوذ السياسي والإقتصادي ، فضلاً عن الأحقاد الطائفية والنزاعات الدينية .

ولذلك يتوجب على من يذكر شيئاً مما حدث بين بعض الصحابة ، أن يبين جريان الأحداث على قواعد أهل السنة والجماعة ، حتى لا يتمسك مبتدع أو

جاهل بها ، أو يضرّ بفهم بعض عامة المسلمين ، ممن لا علم لهم ولا اطلاع وينبغي على الباحث في هذا الجانب أن يتأمل ويظهر ما كان عليه الصحابة من الصفاء والإنصاف والمبالغة في تعظيم بعضهم لبعض ، وأن يذكر قول الله تعالى فيهم :﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين ﴾[١] .

لكي لا يتمادى جاهل أو مبتدع أو عدو ، في انتقاص أحد منهم ، وأنّ ما وقع بين بعضهم من خلاف هو كما يقع مثله بين الإخوة والأحباب ، ولا يُفسّر إلا بهذا الاتجاه وكل من أوّله على غير هذا ، فهو المتهم في أمانته المشكوك في عقيدته.

روي أنّ نزاعاً وقع بين اثنين من الصحابة رضي الله عنهما ، فأراد إنسان أن يذكر أحدهما عند الآخر فقال له الآخر: «مه إن ما بيننا لم يبلغ ديننا»[٢] ، وكذلك جرى في يومٍ ملاحاة بين اثنين من الصحابة الكرام رضي الله عنهما « فلما كانا من الغد رآهما الناس وكل واحد آخذ بيد صاحبه وهما يتحادثان »[٣] فتأمل ذلك لتعلم نزاهة الصحابة عن كل ما نسبه إليهم المبتدعون ، وتقوّل عليهم الوضاعون وانتقصهم بسببه المفترون من السبئية والعلمانيين .

فمن لم يمدح الصحابة بما أثنى الله تعالى عليهم ، فهو غير منصف ، بل مخالف للقرآن والسنة ، والإنصاف في هذه المسائل لا يوجد إلا عند أهل السنة لأنهم لا يبخسون الناس أشياءهم ، ويخافون يوم الحساب ، قال ابن الوزير واصفاً إنصاف أهل السنة وأمانتهم: « وكم في الصحيحين من رافضيّ سَبّاب للصحابة غال في الرفض ... وهم يعلمون ذلك ، ويذكرون مذهبه في كُتبهم في الرجال ويُصرّحون بأنه ثقة حجة مأمون في الحديث ، **والعدلُ على العدو من أبلغ أمارات الإنصاف**»[٤]ووصف حال أعداء الصحابة في أمانتهم وشهادتهم ، فقال: « وأما

---

(١) سورة الحجر ، الآية (٤٧) .

(٢ -٣) ينظر: الهيتمي ، تطهير الجنان ، ٥٨ .

(٤) ابن الوزير ، العواصم والقواصم ، ٢/ ٤٠١ .

الزنادقة فتراهم إذا ذكروا واحداً من أئمة الإسلام الذين تملأ محاسنهم الدواوين وتملّ حسناتهم الكاتبون ، لم يذكروا له إلا ما لم يصح من المساوئ والمثالب والفواحش المفتراة والمعايب ، وليس العجب ممن يقدح في الأكابر من هؤلاء الأسافل ، ولله القائل :

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني فاضل

وإنما العجب من بلادة من يسبق إلى عقله صدق أخس الناس ، ومَنْ خير أحواله أن يكون مجهولاً ، في ذم خير الناس بنص كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومَنْ أدنى أحواله أن يكون على من جرحه من الأراذل مقدماً مقبولاً ،(١) وقد صرح القرآن الكريم برضوان الله تعالى على أصحاب محمد ﷺ وتكرر ذلك في أكثر من آية كما سبق في استعراض الآيات القرآنية التي تثني على الصحابة ، والتي علم منها تكذيب وردّ أي شبهة يفتريها جاحد بالقرآن كافر بآياته ، إذ يلزم الإيمان بالقرآن الإيمان بما فيه ، ومن رضي الله تعالى عنه لا يمكن موته على الكفر ، لأن العبرة بالوفاة على الإسلام ، فلا يقع الرضى منه تعالى إلا على من علم موته على الإسلام ، فأين يكون بعد ذلك موقع الطاعنين بأنبل البشر بعد الأنبياء من أصحاب رسول الله ﷺ معلوم ، سوى مع من كفر بالقرآن وكذب بما فيه ، وشتان بين عقائد أعداء الصحابة التي قادتهم إلى مخالفة القرآن الكريم وتكذيب نصوص الحديث الصحيح فيما جاء عن الصحابة، فلم يعُد لأقوالهم أي قيمة شرعية أو حقيقة علمية . وبين أصول أهل السنة والجماعة التي منها: الإمساك عما شجر بين الصحابة، وأن أكثر المنقول عنهم في ذلك كذب وافتراء ، وهم كانوا مجتهدين مأجورين مثابين وأنهم أفضل قرون هذه الأمة . وصفاء صدورهم وسلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله ﷺ ، كما وصفهم الله تعالى في قوله: ﴿ والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا

---

(١) ابن الوزير ، العواصم والقواصم ، ٢/ ٤٠١ .

ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾[1] .وقوله ﷺ : « لا تسبوا أصحابي »[2] .

وأن الله تعالى قد فضّل أهل بدر على من جاء من بعدهم ، وأن الذين بايعوا تحت الشجرة لا يدخل أحد منهم النار كما سبق ذلك في الحديث الصحيح . ويحبون أهل البيت ويتولونهم ويحفظون فيهم وصيّة رسول الله ﷺ ، ويتولون أزواج النبي ﷺ أمهات المؤمنين الطاهرات رضي الله عنهن ، ويتبرءون ممن يبغض الصحابة من المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بإحسان رضي الله عنهم ، ويتبعون سُنّة الخلفاء الراشدين الهادين المهديين ويدينون بالنصيحة لجميع الأمة[3] .

وأن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، خرج عليه بعض شيعته فقاتلوه فقتلهم[4] ، وغالى فيه آخرون من شيعته فحرّقهم بالنار [5].

وأنه أمر بجلد من يفضله على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما حدّ المفتري[6]

عن علقمة بن قيس قال: خطبنا علي رضي الله عنه فقال: « إنه بلغني أن قوماً يفضلونني على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، ولو كنت تقدمت في هذا لعاقبت فيه ولكني أكره العقوبة قبل التقدم ، ومن قال شيئاً من ذلك فهو مفترٍ ، عليه ما على المفتري . **خير الناس كان بعد رسول الله** ﷺ ، **أبو بكر ثم عمر رضي الله عنهما** »[7].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « أبو بكر خير الناس بعد رسول الله ﷺ ... من قال غير هذا أقمنا عليه ما نُقيم على المفتري » [8] .

---

(١) سورة الحشر ، الآية (١٠) .

(٢) سبق نصحه وتخريجه .

(٣) ابن تيمية ، الفتاوى ، ٣/ ١٥٢ ، ٣/ ٤١٥ .

(٤) ابن حزم ، الفصل ، ٤/ ١٥٥ ، فما بعدها .

(٥) ابن حزم ، الفصل ، ٤/ ١٨٦ ، ابن تيمية ، منهاج السنة ، ١/ ٢٣ ، ١/ ٢٩ .

(٦) ابن تيمية ، الفتاوى ، ٣/ ٢٧٩ ، ابن تيمية الصارم المسلول ، ٥٨٩ .

(٧) ابن تيمية الصارم المسلول ، ٥٨٩ .

(٨) المصدر نفسه ، وقال إسناده صحيح .

فإذا كان عمر وعلي رضي الله عنهما يجلدان من يُفضل علياً على أبي بكر وعمر ، أو من يُفضل عمر على أبي بكر ، مع أن مجرد التفضيل ليس سباً ولا عيباً ، عُلم أن عقوبة السب عندهما فوق هذا بكثير .
وأن من صلح إسلامه من العجم فهو يُحب الصحابة ﷺ ، ويتشبه بهم ، كما جاء ذلك في الأثر « خيار عجمكم المتشبهون بعربكم ، وشرار عربكم المتشبهون بعجمكم »[1]. لهذا نجد العجمي المتشبه بالعرب هو من خيار العجم وأعلم بمخاطبة قومه الأعاجم من العرب ، كما يكون العربي المتشبه بالعجم وهو من أدنى العرب أعلم بمخاطبة العرب من العجمي[2].

فأهل السنة متفقون على عدالة الصحابة[3] ، وانهم مثابون على قدر إصابتهم أو قربهم من الحق ، وإنّ الإمساك عما شجر بينهم هو الأفضل ، إلا إذا كان ذلك للدفاع عنهم ، في إثبات الحقائق ورد الشبهات ، ونشر الفضائل المطويات ومن أقوالهم في ذلك أن: « من قال الحسنى في أصحاب رسول الله ﷺ فقد بريء من النفاق »[4] قال الحُسنى فيهم وأتبع قوله عملاً مطابقاً لما كانوا عليه من التمسك بالكتاب والسنة واتباع الرسول ﷺ .

---

(١) ابن تيمية ، الصارم المسلول ، ٤/ ١٠٧ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) ينظر: ابن تيمية ، الفتاوى ، ٣٥/ ٥٠ .

(٤) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٧/ ٣٨٩ .

حُرمة الصحابة ومحبّتهم

إن قوماً افتدوا الإسلام ورسول الله ﷺ بأموالهم ودمائهم ، وجاهدوا في سبيل الله حق جهاده ، جديرون بالإجلال والتقدير والمحبة والإتباع .

وهذا ما سار عليه المؤمنون منذ عهد الرسول ﷺ ، إذ أن الصحابة هم أعلم هذه الأمة وأفقهها وأدينها ، قال الإمام الشافعي: هم فوقنا في كل علم وفقه ودين وهدى ، وفي كل سبب ينال به علم وهدى ، ورأيهم لنا خير من رأينا لأنفسنا .وقال الإمام أحمد بن حنبل: أصول السنة عندنا ، التمسك بما كان عليه أصحاب الرسول ﷺ وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أيها الناس من كان مستناً فليستن بمن قد مات فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا أفضل هذه الأمة وأبرها قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ، وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم في آثارهم وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم ودينهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم .

وقال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: يا معشر القراء استقيموا وخذوا طريق من كان قبلكم ، فوالله لئن استقمتم لقد سبقتم سبقاً بعيداً ، وإن أخذتم يميناً وشمالاً ، لقد ضللتم ضلالاً بعيداً[١] .

وفي قوله تعالى: ﴿ قل الحمد لله وسلامٌ على عباده الذين اصطفى ﴾ [٢] قال طائفة من السلف: هم أصحاب محمد ﷺ ولا ريب أنهم أفضل المصطفين من هذه الأمة[٣] التي قال الله تعالى فيها: ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾[٤].

---

(١) ينظر: ابن تيمية ، منهاج السنة ، ٦/ ٨٠ ، ٦/ ١٨ ، الفتاوى ، ٤/ ١٥٥ .

(٢) سورة النمل ، الآية (٥٩) .

(٣) ابن تيمية ، منهاج السنة ، ٢/ ٣٤ .

(٤) سورة فاطر ، من الآية (٣٢) .

وكفى الصحابة ﷺ فخراً أن الله تعالى شهد لهم بأنهم خير الناس حيث قال ﷻ: ﴿ كنتم خير أمة أُخرجت للناس ﴾ [1] وكذلك شهد لهم رسول الله ﷺ بقوله: « خير القرون قرني » ولا مقام أعظم من مقام قوم ارتضاهم الله عز وجل لصحبة نبيه ﷺ ونصرته ، لأنهم هم الأشداء على الكفار ، وهم السابقون الأولون ، فمن تأمل ذلك نجا من قبيح ما اختلقه أعداء الصحابة عليهم ، مما هم بريئون منه فالحذر الحذر من اعتقاد أدنى شائبة من شوائب النقص فيهم ، معاذ الله ، لم يختر الله لأكمل أنبيائه إلا أكمل من عداهم من بقية الأمم ، وكل ما نسبه أعداء الصحابة إليهم هو كذب عليهم ، وكذلك أنهم لم ينقلوا شيئاً منه بالإسناد عُرفت رجاله أو عُدّلت نَقَلَته ، وإنما اختلاق من إفكهم وحمقهم وجهلهم وافترائهم على الله سبحانه وتعالى .

فلا ينتقص من أصحاب محمد ﷺ ، إلا من هو فاسد الإيمان سقيم الفهم ، مائل إلى الهوى والعصبية .

وإن من أكثر الناس تعظيماً لأبي بكر وعمر وعثمان ، هم علي وأهل بيته وقد تواتر ذلك عن علي ﷺ [2] .

و أعداء الصحابة ، عمدوا إلى خيار أهل الأرض من الأولين والآخرين بعد النبيين والمرسلين ، وإلى خيار أُمة أُخرجت للناس فجعلوهم شرار النّاس ، وافتروا عليهم العظائم ، وجعلوا حسناتهم سيئات وجاؤوا إلى شرّ من انتسب إلى الإسلام ممن ناصب الصحابة العداء ، من أهل الأهواء والبدع ، والله يعلم وكفى به عليماً. ليس في جميع الطوائف المنتسبة إلى الإسلام ، مع بدعة وضلالة ، شرّ ممن ناصب الصحابة العداء ، ولا أجهل ولا أكذب ولا أظلم ، ولا أقرب إلى الكفر والفُسوق والعصيان ، وأبعد عن حقائق الإيمان منهم « فزعموا أن هؤلاء هم صفوة الله من

---

(١) سورة فاطر ، الآية (٣٢) .

(٢) ينظر: الهيتمي ، الصواعق المحرقة ، ١٤ .

عباده »[1] وذلك زيادة في التلبيس والإيهام ، فكانوا بذلك أساس كل فتنة وشر يفاخرون بقتل عثمان ﷺ ، مثل فخر اليهود بما يزعمون من قتل عيسى بن مريم عليه السلام قال تعالى: ﴿ وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا ﴾[2] لذلك فإن شرار الخلق ، هم أجراؤهم على أصحاب محمد ﷺ ، وخيارهم من ألقي في قلوبهم حب الصحابة ﷺ[3].

وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما ، قوله ﷺ: إذا رأيتم الذين يسبون أصحابي فقولوا: « **لعنة الله على شركم** »[4] . وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: الناس على ثلاث منازل ، مضت منزلتان وبقيت واحدة ، فأحسن ما أنتم عليه كائنون بهذه المنزلة التي بقيت ، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا ﴾[5] فقال: هؤلاء المهاجرون وهذه منزلة قد مضت ، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾[6] .

ثم قال: هؤلاء الأنصار ، وهذه منزلة قد مضت ، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل

---

(١) ابن تيمية منهاج السنة ٥/١٦٠ .

(٢) سورة النساء الآية (١٥٧) .

(٣) ينظر: الهيتمي الصواعق المحرقة ١٢ .

(٤) الترمذي ، ك ، المناقب ، باب فيمن سب أصحاب النبي ﷺ ، ح (٣٨٠١) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٩/ ٤٩٨٦ . وقيل هذا حديث ضعيف .

(٥) سورة الحشر ، من الآية (٨) .

(٦) سورة الحشر ، الآية (٩) .

في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾[1] فقال: مضت هاتان وبقيت هذه المنزلة، فأحسن ما أنتم عليه كائنون أن تكونوا بهذه المنزلة ، أن تستغفروا لهم.

وهذه الآيات تتضمن الثناء على المهاجرين والأنصار ، والذين جاؤوا من بعدهم يستغفرون لهم ، ويسألون الله تعالى أن لا يجعل في قلوبهم غلاً لهم .

ولا ريب أن أعداء الصحابة الرافضين لمكانتهم المخالفين لعقيدتهم خارجون من هذه الأصناف الثلاثة ، فإنهم لم يستغفروا للسابقين الأولين ، وفي قلوبهم غلٌّ عليهم ، وفي الآيتين الثناء على الصحابة ﷺ وعلى أهل السنة الذين يتولونهم[2] ويستغفرون الله ويدعونه لهم .

وإخراج لأعدائهم من هذه المنزلة ، التي وصف الله تعالى بها حال عباده الذين جاؤوا من بعْد نبيه ﷺ وأصحابه الكرام ﷺ .

فاتضح أن المؤمنين ثلاث منازل وهم: المهاجرون ، والأنصار ، والذين جاؤوا من بعدهم من المؤمنين المحبين لهم السائرين على دربهم[3] ، وإنّ من عرف السيرة وأيام الرسول ﷺ لا يملك إلا أن يحب الصحابة أنصار الله ورسوله ﷺ وأن المنافق لا يملك إلا أن يبغضهم ، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله ﴾[4]فبُغض من نصر الله ورسوله ﷺ وهم الصحابة نفاق ؛ وهذا كان حال المنافقين في عصر النبي ﷺ . قال ﷺ: «آية الإيمان حب الأنصار وآية النفاق بغض الأنصار »[5] ولا سيما الذين تبوءوا الدار والإيمان من الأوس والخزرج وحلفائهم ، الذين قدّموا الدماء والأموال وكل شيء لنصرة الله ورسوله ﷺ . وكان

---

(١) سورة الحشر الآية (١٠) .

(٢) ابن تيمية ، منهاج السنة ، ٢/ ١٨ ، ٢/ ١٩ .

(٣) ينظر سورة الحشر الآيات (٨-٩-١٠) ابن تميمة .منهاج السنة .١٨/٢ الهيتمي . الصواعق المحرقة ٣٧٥ .

(٤) سورة الصف ، من الآية (١٤) .

(٥) البخاري ، مع شرحه فتح الباري ، ك ، الإيمان ، باب علامة الإيمان حب الأنصار ، ح (١٧) .

يقال: « بغض بني هاشم نفاق وبغض أبي بكر وعمر نفاق والشاك في أبي بكر كالشاك في السنة »[1] .

فمن شك في الصحابة رضي الله عنهم وأبغضهم فهو منافق ومن سبهم فقد زاد على بغضهم فيجب أن يكون منافقاً لا يؤمن بالله واليوم الآخر[2] .

قال ابن عباس رضي الله عنه: « أمر الله تعالى بالإستغفار لأصحاب محمد ﷺ وهو يعلم أنهم سيقتتلون »[3]. فمحبة الصحابة والدعاء لهم من صفات المؤمنين وعلامات صدقهم وعندما قيل لأم المؤمنين الطاهرة عائشة رضي الله عنها أنَّ ناساً يتناولون أصحاب رسول ﷺ حتى أبا بكر و عمر رضي الله عنهما ، قالت: « ما تعجبون من هذا انقطع عنهم العمل فأحب الله تعالى أن لا يقطع عنهم الأجر »[4] فالإستغفار لهم وطهارة القلب من الغل عليهم ، يحبه الله تعالى ويرضاه ويثني على فاعله كما أمر الله تعالى به رسوله ﷺ في قوله تعالى: ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾[5]وقوله عز وجل : ﴿ فاعف عنهم واستغفر لهم﴾[6] وقوله تعالى: ﴿ والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ﴾[7] وقوله تعالى:﴿ وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم ﴾ [8] .

كل هذه الآيات تدعو إلى محبة أصحاب محمد ﷺ ، الذين أحبهم وأحبوه وقادهم فاتبعوه وأطاعوه ونصروه ، ففازوا بصلاته عليهم ودعائه لهم ،الذي

---

(١) ابن تيمية ، الصارم المسلول ، ٥٨٤ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) ابن تيمية ، منهاج السنة ، ٢/ ٢٠ ، ٢/ ٢٢ .

(٤) ابن تيمية ، منهاج السنة ، ٢/ ٢٠ ، ٢/ ٢٢ .

(٥) سورة محمد من الآية (١٩) .

(٦) سورة آل عمران ، من الآية (١٥٩) .

(٧) سورة الحشر ، من الآية (١٠) .

(٨) سورة التوبة ، من الآية (١٠٣) .

استجاب لهم رضوان الله تعالى الذي هو غاية كل مؤمن، ورضى الله تعـــالى صفة قديمة ، فلا يرضى إلا عن عبد علم أنه سيلقاه ، وهو متمسك بموجبـــات ذلك الرضى ، ومن رضي الله عنه لا يسخط عليه أبدا . قـــال تعـــالى: ﴿ لقــد رضي الله عن المؤمنين ﴾[1] .

ومن هنا يفهم أنه من جاز الإستغفار له لا يجوز شتمه ، ومن يجز شتمه لا يجوز الإستغفار له ، قال تعالى: ﴿ ما كان للنبي والذين آمنـــوا أن يســـتغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى ﴾ [2].

---

(٦) سورة الفتح ، من الآية (١٨) .

(٧) سورة التوبة ، من الآية (١١٣) .

حُكم شاتم الصحابة رضي الله عنهم

قال الله تعالى مخاطباً المؤمنين: ﴿ ولا يغتب بعضكم بعضاً ﴾ [1] وأدنى أحوال الشاتم أنّه سيكون مخالفاً لأمر الله تعالى في ارتكاب الغيبة . ونهى الله تعالى المؤمنين عن الهمز واللمز ، وحذّر مَن يفعل ذلك ، قال تعالى: ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب ﴾ [2] وقال تعالى: ﴿ ويل لكل همزة لُمزة ﴾ [3] وقال تعالى: ﴿ والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً ﴾ [4].

والأحاديث النبوية التي تنهى عن الغيبة والبهتان ، في الصحاح والسنن كثيرة ومعلوم أكثرها عند المؤمنين ، لكنّ أعداء الصحابة تجاوزوا كل هذه النواهي والتحذيرات الربانيّة ، فشتموا أصحاب النبي ﷺ وأعوانه وأنصاره ، وجعلوا من ذلك الشتم والإنتقاص ديناً لهم ، وأوراداً يتلونها في سفرهم وإقامتهم ، في صباحهم ومسائهم ، وأفراحهم وأحزانهم ، وفي زياراتهم لأوثانهم التي اتخذوها من دون الله تعالى ، فيما يُسمى بزيارات الأئمة [5] .

ولم يشفع للصحابة الكرام الآيات القرآنية التي بشرتهم برضوان الله تعالى عليهم ، ولا استغفار الرسول ﷺ لهم ولا صلاته عليهم ، ولا سابقتهم ولا جهادهم ولا هجرتهم ولا نصرتهم ولا توبة الله تعالى عليهم[6] .

فأيّ قلوب يحمل أعداء الصحابة ؟ بل كيف يجترئون على شتم أصحاب

---

(١) سورة الحجرات ، من الآية (١٢) .

(٢) سورة الحجرات ، من الآية (١١) .

(٣) سورة الهُمزة ، الآية (١) .

(٤) سورة الأحزاب ، الآية (٥٨) .

(٥) ينظر: البرقعي ، كسر الصنم ، ١٤٠ ، فما بعدها .

(٦) ينظر: سورة التوبة ، الآية (١١٧) .

محمد ﷺ والنيل منهم ، ويصرّون على ذلك ولا يتفكرون في خطورة ما يقومــون به على أنفسهم ، في الدنيا بحرمانهم من سُبل السّعادة والطمأنينة التي لا تتحقـق إلا باتباع محمد ﷺ ومحبته ومحبة أصحابه الذين آزروه ونصروه ، وفي الآخرة مـن التعرض لعذاب الله تعالى ، الذي تكفل لأوليائه بأن لا يخافوا ولا يحزنوا ، وكيـف يتعاملون مع كل هذا الكم الهائل من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، التي تثنـي علَى الصحابة رضي الله عنهم وتحذر من عداوتهم ؟ .

ولكن الذين ناصبوا الصحابة رضي الله عنهم ﴿ نسوا الله فأنساهم أنفســهم أولئـك هـم الفاسقون ﴾ [١]

لأنّ المتأمل لما وصف الله تعالى به الصحابة في الآيات الكـريمة ، يتـبين له ضلال من طعن فيهم ، و شذوذ من رماهم بما هم بريئون منه .

إذ أن صفاتهم من الرحمة على المؤمنين ، والشدة علـى الكـافرين ، وكـثرة أعمالهم الصالحة ، التي كانت آثارها تظهر على وجوههم ، حتى أصبح من ينظـر إليهم يبهره حسن سَمْتهم وهديهم ، قد جاء ذكرها في الكتب السماوية فيمـا سـوى القرآن الكريم قال تعالى: ﴿ ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم فـي الإنجيـل ﴾ [٢] أي وصفهم في العبادة والنصرة ، واتباع الأنبياء ومؤازرتهم تلك العلامات التي يحبـها الله تعالى في المؤمنين ﴿ ليغيظ بهم الكفار ﴾ [٣].

ومن هذه الآية أخذ الإمام مالك ،والإمام الشافعي ، بكفر مبغضـي الصحابـة لأن من غاظه الصحابة فهو كافر لقوله تعالى: ﴿ ليغظ بهم الكفار ﴾ .

لهذا قال الإمام أحمد بن حنبل: « إذا رأيـت أحداً يذكـر أصـحاب رسـول الـله ﷺ بسـوء فاتـهـمه على الإسـلام » وقـال أيضـاً : « مـا أراه علـى

---

(١) سورة الحشر ، من الآية (١٩) .

(٢) سورة محمد ، من الآية (٢٩) .

(٣) سورة محمد ، من الآية (٢٩) .

الإسلام »[1] فيحتمل في قول الإمام أحمد الأول ، أن من سبّ الصحابة فيما لا يطعن بدينهم فهو موضع تهمة غيرُ ثقة يُحذر منه على الإسلام والمسلمين ، لكن لا يصل إلى حد الكفر ، أما من طعن في عدالتهم نحو قوله: ظلموا أو فسقوا أو ارتدوا واستحل شتمهم فهو كافر بلا خلاف[2] .

ومن اقترن بسبه للصحابة ﷺ، اعتقاده أنّ علياً إله أو أنّه كان هو النبي ﷺ وإنما غلط جبريل في الرسالة ، أو من زعم أن القرآن الكريم نقص منه آيات وكتمت أو زعم أن له تأويلات باطنة تُسقط الأعمال المشروعة ، أو من زعم أن الصحابة الكرام ارتدوا بعد رسول الله ﷺ ، فمن قال بهذه الأقوال أو ببعضها وردّ ثناء الله تعالى على الصحابة ورضاءه عنهم في أكثر من موضع من كتابه ووصفه لهم بأنهم « خير أمة أُخرجت للناس » . « فهذا لا شك في كفره »[3].

ومن نظر في كتب مبغضي الصحابة يجد العجب لما يرى من البهتان ، ففي قوله تعالى: ﴿ إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم ﴾[4] قالوا: هذه نزلت في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.[5] ولعل هذا يُعد من أقوالهم المخففة فيمن يسمونهما « صنمي قريش »[6] وإذا كان هذا حالهم مع الصديق

---

(١) ابن تيمية ، الصارم المسلول ,٥٧٠ ، وينظر : الخلال ، السنة، ٥٥٧ .

(٢) ابن تيمية ، الصارم المسلول ، ٥٧٣ ، ٥٨٢ . الهيتمي ، الصواعق المحرقة ، ٣٧٧ .

(٣) ابن تيمية ، الصارم المسلول ، ٥٩٠ ، وقال: بل لاشك في كفر من توقف عن تكفيره .

(٤) سورة آل عمران من الآية (٩٠) .

(٥) ينظر: الكليني ، الكافي ، ك الحجة ، ١/٤٢٠ ، الصافي شرح الكافي في بيان المقصود من « فلان ».

(٦) العاملي ، المصباح ، ٥٥٢ ، ودعاء صنمي قريش يقنتون به ، ويقولون: إن الداعي به، كالرامي مع النبي ﷺ في بدر وأحد وحنين بألف سهم ، وكله شتم على أبي بكر وعمر وأمي المؤمنين عائشة وحفصة ﷺ وينظر: المجلسي ، بحار الأنوار ، ك الصلاة ج ٨٥/ ٢٤٠ .

وينظر: محمد ، انتصار الحق ، ٣٠٠ ، فما بعدها

وينظر : البرقعي ، كسر الصنم ، ك ، الحجة ، ١٢١ فما بعدها .

الآلوسي: مختصر التحفة ، ٢٨٥ ، فما بعدها .

والفاروق رضي الله عنهما ، فاعتقادهم فيما سواهما أكثر سوء ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

والحقيقة أنّ النظر في مثل هذه المسائل في كتب وعقائد مَنْ رفض الصحابة رضي الله عنهم وناصبهم العداء ، مضحك مبك ، ومؤلم محزن ، على ما وصل إليه هؤلاء من الجهل والتناقض والإسفاف ، إلى الحد الذي يدعو إلى التساؤل ، أنّ من يدوّن تلك الأدعية والمعتقدات الفاسدة هل سمع بشيء اسمه القرآن ؟ وهل سمع بنبي اسمه محمد صلى الله عليه وسلم ، بُعث للناس كافة وتبعه المهاجرون والأنصار ، فحطّم بهم أوثان العرب وأطفأ نار المجوس ، وكسر صُلبان الروم وغيرهم !؟ ونشر التوحيد والعدل والأخوّة وتساوى عنده العرب والعجم و الروم وغيرهم !؟ أم أنهم يعرفون كل هذا وأنّ هذا هو الذي أغضبهم ، وهم يثأرون للأصنام التي حُطمت ، والنار التي أطفئت ، ويفعلون كل هذا لإعادة تلك الأساطير والخرافات !؟ ويخترعون كل هذه الأباطيل، ليخدعوا بها عوام النّاس وجهلتهم،سوى المنتفعين والإنتهازيين فضلاً عن الأفاكين !؟ وإذا كان بالإمكان فعل كل هذا في هذه الحياة الدنيا ، فماذا أعدَّ هؤلاء لظُلمة القبر ويوم الحساب ؟ أم أنّ ذلك ساقط من حساباتهم !؟ .

فلكل ما سبق تظهر خطورة الطعن في الصحابة رضي الله عنهم ، وهذا ما كان يُحذِّر منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويعمل به أصحابه الكرام رضي الله عنهم ، ومن ذلك موقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، عندما وقع بين عبيد الله بن عمر وبين المقداد بن الأسود ، كلام فشتم عبيد الله المقداد ، فقال عمر: عليّ بالحداد أقطع لسانه لا يجترئ أحد بعده يشتم أحداً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم . ولكنّ الصحابة تشفعوا فيه ، وهم أصحاب الحق ولعل المقداد كان فيهم(١).وقال عبد الله بن مسعود: اعتبروا النّاس بأخدانهم ، وقالوا:

عن المرء لا تسل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي(٢) .

---

(١) ابن تيمية ، الصارم المسلول ، ٥٨٨ ، الهيتمي ، الصواعق المحرقة ، ٣٨٣ .

(٢) ابن تيمية ، الصارم المسول ، ٥٨٣ ، الفتاوى ، ٤/ ٤٢٨ .

ولهذا قال الإمام مالك واصفًا حال مبغضي الصحابة ، ومبيّناً معتقدهم: إنما هؤلاء أقوام أرادوا القدح في النبي ﷺ ، فلم يمكنهم ذلك ، فقدحوا في أصحابه حتى يقال: رجل سوء ولو كان رجلاً صالحاً لكان أصحابه صالحين ، وذلك أنّه ما كان منهم رجل إلا كان ينصر الله ورسوله ، ويذب عن رسول الله ﷺ بنفسه وماله ويُعينه على إظهار دين الله وإعلاء كلمته ، وتبليغ رسالاته وقت الحاجة ، وهو حينئذ لم يستقر أمره ولم تنتشر دعوته ، ومعلوم أن رجلاً لو عمل به بعض الناس نحو هذا ، ثم آذاه أحد لغضب له صاحبه ، وعدّ ذلك أذىً له.[١] فكيف بمن يتخذ إيذاء أصحاب رسول الله ﷺ ديناً له ، فيستحل لعن الصحابة ولا سيما الشيخان أبي بكر وعمر رضي الله عنهما . ولمّا عُلم حُسن إسلامهما وأفعالهما التي أقاما بها وبمن معهما من الصحابة الدين بعد وفاة النبي ﷺ ولما تواتر عنهما من المناقب والفضائل التي جاءت بالرواية الصحيحة ، أصبح الطعن فهما طعناً في الدين والنيلُ منهما ومن الصحابة هو إيذاء لرسول الله ﷺ ، الذي يتأذى بما يؤذي المؤمنين مثلما حصل لكعب بن الأشرف اليهودي ، عندما قال بعض الأشعار ينال فيها من المسلمين ويُحرض عليهم ، فقال ﷺ ، من لكعب بن الأشرف ، فقد آذى الله ورسوله ، فقام بعض الصحابة بقتله[٢]. وعندما ينتقص أعداء الصحابة من شيخي الصحابة وإمامي الأمة الإسلامية بعد رسول الله ﷺ ، ومن جمهور الصحابة ، فإن هذا إيذاء ليس كأي إيذاء ، وإنما هو مشتمل على الطعن في صاحب الرسالة وفيما جاء به[٣]، فمن قال: إنّ أبا بكر ليس بصاحب رسول الله ﷺ فهو كافر

---

(١) ابن تيمية ، الصارم المسلول ، ٥٨٣ ، الفتاوى ، ٤/ ٤٢٨ .

(٢) ينظر: ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٣/ ٣٢١ ، ابن سعد ، الطبقات ، ٢/ ٢٦٥ ، وكعب بن الأشرف أحد زعماء يهود بني النضير ، انتقل إلى مكة بعد معركة بدر ، وأخذ يهجوا المسلمين ، ويقول الأشعار يشبب بنسائهم ، ينظر: ابن شبة ، تاريخ المدينة ، ١/ ٢٥٠ .

(٣) الهيتمي ، الصواعق المحرقة ، ٣٧٥ و ٣٨٠ و ٣٨٧ ، قال: وهو كافر عند أهل المذاهب الأربعة .

لإنكاره نص القرآن الكريم ، قال تعالى: ﴿ إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقولُ لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾[1] ومن يلعن أحداً من الصحابة ﭭ فإنه مستحق للعقوبة البليغة باتفاق أئمة الدين ، وتنازع العلماء هل يعاقب بالقتل أو ما دون القتل ؟! [2] .

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: سألت أبي عمّن شتم أصحاب النبي ﷺ قال: أرى أن يُضرب ، قلت: له حداً ؟ فلم يقف على الحد ، إلا أنه قال: يُضرب، وقال: ما أراه على الإسلام . قال: وسألته مَنْ الرّافضة ؟ قال: الذين يشتمون أبا بكر وعمر رضي الله عنهما . وقال: خير هذه الأمة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي ، وهم خلفاء راشدون مهديون ، ثم أصحاب رسول الله ﷺ بعد هؤلاء الأربعة ، وهم خير الناس لا يجوز لأحد أن يطعن بأحد منهم ، بعيب ولا نقص ، فمن فعل ذلك فقد وجب تأديبه وعقوبته ، **ليس له أن يعفو عنه** ، بل يعاقبه ويستتيبه ، فإن تاب قبِل منه ، وإن ثبت أعاد عليه العقوبة ، وخلّده في الحبس حتى يموت أو يرجع [3].

وعن سعيد بن عبد الرحمن بن أبزى ، قال: قلت لأبي ، لو أُتيت برجل يسُب أبا بكر ما كنت صانعاً ؟ قال: أضرب عنقه ، قلت فعمر؟ قال: أضرب عنقه[4] وما ضَرَب عمر بن عبد العزيز إنساناً قط إلا رجلاً شتم معاوية ﷺ وذلك أنه أراد أن يُشعره بخطورة مثل هذا العمل الشنيع ، وبمكانة الصحابة ﭭ في نفوس المؤمنين [5].

---

(١) سورة التوبة ، من الآية (٤٠) .

(٢) ابن تيمية ، الفتاوى ، ٣٥/ ٥٨ .

(٣) ابن تيمية الصارم المسلول ، ٥٧٠ ، الفتاوى ، ٤/ ٤٣٥ .

(٤) ابن تيمية الصارم المسلول ، ٥٨٧ ، وعبد الرحمن بن أبزى صحابي أقره عمر عاملاً على مكة وقال: هو ممن رفعه الله بالقرآن ، واستعمله علي على خراسان ، ٥٨٨ .

(٥) ابن تيمية ، الصارم المسلول ، ٥٧١ ، منهاج السنة ٤/ ٤٨٨ .

ومن قذف أم المؤمنين الطاهرة عائشة رضي الله عنها ، بما برّأها الله منه كفر بلا خلاف ، وقال الإمام مالك: من سبّ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، قُتل قيل له لِمَ ؟ قال: من رماها خالف القرآن ، لأن الله تعالى يقول: ﴿ يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين ﴾ [١] فماذا يقول الذين لا تزال ألسنتهم تلوك أعراض أهل بيت النبوة من أمهات المؤمنين رضي الله عنهن .

وأُتي المأمون برجلين شتم أحدُهما فاطمة ، والآخر عائشة رضي الله عنهما فأمر بقتل الذي شتم فاطمة وترك الآخر ، فقيل له: ما حكمهما إلا أن يقتلا لأن الذي شتم عائشة ردَّ القرآن وعلى هذا مضت سيرة أهل الفقه والعلم من أهل البيت وغيرهم [٢].

وكان الحسن بن زيد الداعي بطبرستان ، يلبس الصوف ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وينفق الأموال على الفقراء ، وكان بحضرته رجل فذكر عائشة رضي الله عنها بذكر قبيح من الفاحشة ، فقال: يا غلام اضرب عنقه ، فقال له العَلَويّون: هذا رجل من شيعتنا ، فقال معاذ الله ، هذا رجل طعن على النبي ﷺ قال تعالى: ﴿ الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرؤون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم ﴾ [٣]. فإن كانت أم المؤمنين خبيثة -حاشاها - فالنبي ﷺ خبيث -حاشاه - فهو كافر فاضربوا عنقه فضربوا عنقه [٤].

ومن قذف واحدة من أمهات المؤمنين الطاهرات رضي الله عنهن ، فهو كقذف أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، وذلك لأن هذا فيه عار وغضاضة على رسول الله ﷺ وأذى ، والله سبحانه وتعالى قال : ﴿ إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله

---

(١) سورة النور ، من الآية (١٧) ، ابن تيمية ، الصارم المسول ، ٥٦٨ .

(٢) ابن تيمية ، الصارم المسلول ، ٥٦٨ .

(٣) سورة النور ، الآية (٢٦) .

(٤) ابن تيمية ، الصارم المسلول ، ٥٦٨ .

في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مُهيناً ﴾ [١].

وعن عمر بن عبد العزيز: أنّ من سبّ السلف ﷺ ، ليس بكفؤ ولا يزوج ومن رمى عائشة رضي الله عنها ، بما برأها الله منه فقد مرق من الدين ، ولم ينعقد له نكاح على مسلمة ، إلا أن يتوب ويُظهر توبته [٢].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما ، لبعض أعداء الصحابة: أفتَسُبون أمكم عائشة فوالله لئن قلتم ليست بأمنا لقد خرجتم من الإسلام ، والله لئن قلتم لنسبينّها ونستحل منها ما نستحل من غيرها ، لقد خرجتم من الإسلام ، فأنتم بين ضلالتين لأن الله تعالى يقول: ﴿ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم ﴾ [٣]. وبهذا تظهر حرمة الصحابة وأمهات المؤمنين ، ومكانتهم العظيمة في الدين وخطورة عداوتهم أو بغضهم أو مخالفتهم .

ولما علم أعداء الإسلام بذلك ، جعلوهم غرضاً لهم ، وواصلوا العمل على طمس فضائلهم ، وتحويلها إلى نقائص ، يخادعون بذلك الجهلة والغوغاء ومن لا علم لهم بالدين ، مستخدمين في ذلك كل الوسائل ، بما فيها الاستعانة بالكافرين وموالاة الظالمين .

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية (٥٧) .

(٢) ابن تيمية الصارم المسلول ، ٥٧١ .

(٣) سورة الأحزاب ، من الآية (٦) ، ابن الجوزي ، تلبيس إبليس ، ١٣٦ .

مُخادعة أعداء الصحابة للمسلمين وموالاتهم الكافرين

ومما يزيد في خطورة أعداء الصحابة على الإسلام والمسلمين ومصير الأمة أن « سبيل دعوتهم ليس بمتعين في فن واحد ، بل يخاطبون كل فريق بما يوافق رأيه بعد أن يظفروا منهم بالإنقياد لهم ، والموالاة لإمامهم ، فيوافقون اليهود والنصارى والمجوس ، على جملة معتقداتهم ويقرونهم عليها »[١] .

وغرضهم من ذلك ، انتزاع المعتقدات الظاهرة من نفوس الخلق ، حتى تبطل الرغبة بما عند الله ، والرهبة من عذاب الله ، وغرضهم من ذلك إبطال قوانين الشرع ، فيُخادعون كل ضعيف في الدين والعلم بطريق يغويه ويليق به ، فيُكذبون القرآن ونصوص السنة ، ويزعمون « أن ما في القرآن ظواهر هي رموز إلى بواطن لم يفهموها ، وقد فهمها الإمام المعصوم »[٢].

ومن مكائدهم التي يروّجون بها مذاهبهم الباطلة لتضليل العباد ، نسبة الكتب الباطلة إلى أهل السنة ، أو الفتاوى أو زيادة بعض الأشعار وغيرها[٣].وهذا ما سيتضح عند الحديث عن استشهاد الخليفة عثمان رضي الله عنه .

والذي ابتدع مذهب رفض قيادة الصحابة رضي الله عنهم للأمة بعد الرسول ﷺ إنما كان مقصوده إفساد دين الإسلام ونقض عراه ، وهذا ما عُرف به ابن سبأ ، الذي ابتدع الوصاية في خلافة علي رضي الله عنه ، وأنه معصوم ، وأظهر النُسك ، ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ثم غالى في عقائده ، حتى بلغ ذلك الخليفة علي رضي الله عنه فطلب قتله لِما نَسب إليه من البدع والأكاذيب ، فأورث هذا الزنديق أتباعه من المرتدين وغلمان الملحدين وورثة المنافقين القدح في السابقين الأولين ، مما يُعد

---

(١) الغزالي ، فضائح الباطنية ، ٤٣ ، وستتضح وسائل دعوتهم بعد قليل .

(٢) المصدر نفسه ، ٥١ .

(٣) الآلوسي ، مختصر التحفة ، ٢٥ ، فما بعدها .

قدحاً في نقل الرسالة أو في فهمها أو في إتباعها ، وكل ذلك يُحال على آل البيت وعلى الإمام المعصوم الذي ليس له وجود في الوجود[١] .

ومن معتقداتهم التي جعلوها من طقوس دينهم ، لتغذية الحقد وتجديد الفتنة وتأصيل الطائفية ، وتمزيق المجتمع الإسلامي ، إقامة حفلات العزاء والنياحة وإحياء المصائب التي يتألم لها المسلمون ، وتعميمها ونشرها بغير الصورة التي حصلت بها ، وإضافة الأشعار التي تُثير الكراهية والضغائن ، وتصوير الصور وإقامة التماثيل على هيئات بعض الصحابة ﷺ ولا سيما الشيخان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، فهم يجعلون من الدقيق شبح إنسان ، ويملأون جوفه دبساً أو عسلاً ويسمونه باسم عمر ، ثم يُمثلون حادث قتله ، ويشربون ما فيه من عسل بزعم أنه دم عمر رضي الله عنه[٢]الخليفة الذي أزال بجهاده دولة المجوس وأطفأ نارهم ونشر نور الإسلام في ربوعهم. « ومثل اتخاذهم نعجة ، وقد تكون نعجة حمراء لكون عائشة رضي الله عنها تسمى الحميراء ، يجعلونها عائشة ويُعذبونها بنتف شعرها وغير ذلك، ويرون أن ذلك عقوبة لعائشة رضي الله عنها »[٣]وهم يتشاءمون من يوم الإثنين لأنه يُذكرهم بقوله تعالى: ﴿ ثاني اثنين إذ هما في الغار ﴾[٤] وكذلك من عدد الأربعة ، لئلا يذهب الوهم أنّ الخلفاء أربعة، وأيضاً عدد العشرة ، تشاؤماً من عدد العشرة المبشرين بالجنة ﷺ ، ويغالون بعدد الإثني عشر ، يُشيرون بذلك إلى ما يُسمى بالأئمة الإثني عشر[٥].

ويغالون في أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ، الذي يزعمون أنه هو الذي حفظ الإسلام ، في مثل قول ابن أبي الحديد :

---

(١) ينظر: ابن تيمية ، الفتاوى ، ٤/ ١٠٢ ، ٤/ ١٨٤ ، منهاج السنة ، ٧/ ٢٢٠ ، ٨/ ٤٧٨ .

(٢) الآلوسي ، مختصر التحفة ، ٢٨٣ ، ابن تيمية ، منهاج السنة ، ١/ ٤٩ .

(٣) ابن تيمية ، منهاج السنة ، ١/ ٤٩ .

(٤) سورة التوبة ، من الآية (٤٠) ، الآلوسي ، مختصر التحفة ، ٢٨٢ .

(٥) المصدر السابق ، ٩ .

ألا إنما الإســـلام لولا حســـامه كعفطة عنز أو قُلامة ظافر

وقوله:

يُجلّ عن الأعراض والأين والمتى ويكبر عن تشبيهه بالعناصر [(١)]

والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ [(٢)]

ومن الفرق التي تدين بعداء أصحاب محمد ﷺ طوائف منها:

الغالية: وهم الذين أحرق بعضهم أمير المؤمنين علي رضي الله عنه بالنار ، وذلك أنه كـــان خارجاً يوماً من باب كِندة ، فسجد له أقوام ، فقـــال: ما هذا ؟ فقـــالوا: أنت هو الله ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ فاستتابهم ثلاثاً فلم يرجعوا ، فأمر فـــي اليـــوم الثالث بأخاديد فخدت في الأرض ، وأضرم فيها النار ثم قذفهم فيها ، وقال:

لما رأيت الأمر أمراً منكراً أججت ناري ودعوت قنبراً

وقنبر: هو غلام أمير المؤمنين علي رضي الله عنه . ومنهم:

السبَّابة: وهم الذين يسبون الصحابة الكرام ، ولا سيما الصدّيق والفاروق رضي الله عنهما ، فلما بلغ أمير المؤمنين علي مَنْ سبّ أبا بكر وعمر طلبه يريد قتله، ومنهم:

المُفضّلة: التي تُفضّل علياً على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، فلما بلغ ذلك علياً رضي الله عنه، قـــال: لا أُوتى بأحد يُفضلني على أبي بكر وعمر إلا جلدتة حدَّ المفـــتري ، وروي عنـــه من أكثر من ثمانين وجهاً أنه قال: خير هذه الأمة بعد نبيها ﷺ أبو بكـــر وعمـــر رضي الله عنهما[(٣)] .

ولعل المُفَضّلة من أخطر هذه الفرق ، إذ أنها لم تُفصح عن مقصدها الحقيقـــي المتمثل في العمل على إبطال وهدم نظام الخلافة الإسلامية ، وإنما اتـــخذوا مبـــدأ التفضيل ليكون مفتاحاً لما بعده ، ومما قاله بعض شعرائهم في التفضيل ورأيهم في

---

(١) الآلوسي ، مختصر التحفة ، ٩ ، وابن أبي الحديد هو عبد الحميد بن هبة الله بن محمد أبو حامد توفي (٦٥٦ ، ١٢٥٨ م) (٢) سورة الحجر ، الآية (٩) .

(٣) ينظر: ابن تيمية ، الفتاوى ، ٣٥/ ١٨٤ ، ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ٣/ ١١٤٩ .

الخلفاء ، قول أبي القاسم علي بن الحسين المغربي :

وتداولتها أربع لـولا أبو حسنٍ لقلت لؤمـت من أستار[1]

هو كالنبي فضيلة لكنَّ ذا من حظّه كـاسٍ وهذا عـارِ[2]

وأعداء الصحابة « تعددت آراؤهم بحسب تعدد أهوائهم »[3] وهذه الصفة التـي لا يتخلّق بها طالب حق أو مريدٌ لوجه الله تعالى ، تنطبق تماماً على مـن نـاصب الصحابة العداء ، لكنهم لموت قلوبهم يصفون الصحابة الأطهار في كتبـهم بـهذه الصفة ،[4] فيردّون تزكية الله تعالى ورسوله ﷺ للصحابة ﷺ ، فيكون بذلك لـهم نصيب من قوله تعالى: ﴿ فمن أظلم ممن كذب على الله وكذّب بالصدق إذ جاءه﴾[5]

وفي الوقت الذي ينتقص فيه هؤلاء ، الصحابة ﷺ ، يُغالون فـي علـي ﷺ فيقولون: إنّ علياً أميرٌ على ذريّة آدم كلهم ، وأدم بين الروح والجسد[6] .

ولما كان علي ﷺ قد ولد بعد آدم بألوف السنين ، فإن مَثَل قولهم هذا كمثـل من يقول:« خرّ عليكم السقف من تحتكم » . قال ابن تيمية: إن هذا الحمار هو أحمر من عُقلاء اليهود الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ مثل الـذين حمّلـوا التـوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً ﴾[7] وعامة المسلمين معذورون في قولهم لشاتم الصحابة ﷺ: الرافضي حمار اليهودي ، لا عقل ولا قرآن [8].

ومن وسائل الدعوة المتفق عليها عند مبغضي الصحابة ، والتي يجب علـى دعاتهم التقيد بها قولهم للداعي: إذا وجدت من تدعوه مسلماً ، أن تجعـل المدخـل

---

(١) الإستار ، أربعة في العدد ، ويقصد هنا الخلفاء الراشدين .

(٢) ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ٦/ ١٥ .

(٣) ابن تيمية ، منهاج السنة ، ٢/ ١٧ .

(٤) ابن تيمية ، منهاج السنة ، ٢/ ١٧ .

(٥) المصدر السابق ، ٨/ ٣١٨ ، ٨/ ٣٢٠ .

(٦) ينظر: ابن تيمية ، منهاج السنة ، ٢٨٩ .

(٧) سورة الجمعة ، من الآية (٥) .

(٨) ابن تيمية ، منهاج السنة ، ٧/ ٢٨٦ ، ٧/ ٢٩٠ .

عليه من جهة ظلم السلف وقتل الحسين بن علي رضي الله عنهما ، والتبرؤ من بني تيّم وبني عدي إشارة إلى التبرؤ من أبي بكر و عمر رضي الله عنهما ، ومن بني أميّة وبني العباس ، وأن تقول: بتناسخ الأرواح ، والرجعة والغلو وإنّ علياً إله يعلم الغيب مفوض إليه خلق العالم ... حتى إذا آنست من بعضهم استجابة وتشيعاً لك أوقفته على مثالب عليّ وولده ، وباطل بطلان كل ما عليه أهل ملة محمد ﷺ وغيره من الرسل .

ومن وجدته صابئاً فداخله من جهة تعظيم الكواكب وما شابه ذلك . من وجدته مجوسياً اتفقت معه في الأصل ، من تعظيم النار والنور والشمس والقمر فإنهم مع الصابئة من أقرب الناس إلينا .

وإن وجدته يهودياً ، فادخل عليه من جهة انتظار المسيح وأنه هو المهدي المنتظر ، وعظّم السبت عندهم ، وتقرّب إليهم بذلك .

وتقرب إلى قلوبهم بالطعن على النصارى والمسلمين ، الجّهال الحيارى ، الذين يزعمون أن عيسى ولد من غير أب ، وقوّ في نفوسهم أن أباه يوسف النجار وأمه مريم ، فإنهم لن يلبثوا أن يتبعوك .

ومن وجدته نصرانياً ، فادخل عليه بالطعن على اليهود والمسلمين جميعاً . وعظّم الصليب عندهم ، وصحة قولهم في الثالوث ، وعرّفهم تأويله[١] .

ومتى ما وقع إليك فيلسوف فقد علمت أن الفلاسفة هم العمدة لنا ، وقد اجمعنا نحن وإياهم على إبطال نواميس الأنبياء .

وإذا وقع لك ثنوي منهم فبخٍ بخٍ ، قد ظَفِرت يداك بمن يقلّ معه تعبك والمدخل عليه بإبطال التوحيد ... ونسخ شريعة محمد ﷺ وأن علياً كان سواساً لمحمد ﷺ ... ثم إبطال أمر الملائكة في السماء ، والجن في الأرض ، وأنه كان قبل آدم بشر كثير .

---

(١) ابن تيمية ، منهاج السنة ، ٨/ ٤٨٠ ، ٨/ ٤٨٢ .

قال القاضي أبو بكر بن الطيب: فهذه وصيتهم جميعاً للداعي إلى مذهبهم وفيه التصريح بتكذيب الملائكة والرسل ، وجحد المعاد والثواب والعقاب[١] .

ومبغضو الصحابة أبعد الناس عن الإنصاف والصدق ، ومنهم من يجمع فضائل الشيخين رضي الله عنهما في البخاري ومسلم وينسبها لغيرهما[٢].

والنبوة عندهم مكتسبة ، والشرائع من جنس سياسة الملوك ، فيجوزون أن تنسخ شريعة النبي بشريعة يضعها أحد أئمتهم ويقولون إنما الشريعة هي للعامة ، فأما الخاصة إذا علموا باطنها فإنه تسقط عنهم الواجبات ، وتُباح لهم المحظورات[٣].

ولم يكتف هؤلاء ببغض الصحابة وشتمهم والإنتقاص منهم ، وابتكار هذه الأساطير ونشرها ، لمضاهاة عقيدة الإسلام التي حملها الصحابة رضي الله عنهم وبلغوها للعالمين بأمانة وصدق ، وللعمل على إبطال رسالة محمد ﷺ .

بل قادهم ذلك البغض وتلك العداوة لأصحاب رسول الله ﷺ **إلى الدفاع عن المرتدين** ، والانتصار لمسيلمة الكذاب وأتباعه من بني حنيفة فهم يقولون: إن أبا بكر ظلمهم وسباهم وقتلهم ، وبنو حنيفة قد علم الخاص والعام أنهم آمنوا بمسيلمة الكذاب الذي ادعى النبوة باليمامة ، وادعى أنه شريك النبي ﷺ ، فقُتل هناك جزاء كذبه وافترائه [٤].

وقرآنه الذي ابتدعه قد حفظ الناس منه كلاماً إلى اليوم مثل قوله: « يا ضفدع بنت ضفدعين نقّي كم تنقين لا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين ، رأسك في الماء وذنبك في الطين »[٥] وكان مؤذنه يقول: «أشهد أن محمداً ومسيلمة رسولا الله »[٦].

---

(١) ابن تيمية ، منهاج السنة ، ٨/ ٤٨٤ ، ٨/ ٤٨٥ ، وفيه أن الباقلاني قد نقل هذه الألفاظ من كتبهم دون زيادة أو نقصان ، ٨/ ٤٨٠ .

(٢) المصدر السابق ، ٧/ ٩ ، ٧/ ١٩٠ ، ٧/ ٢١٤ .

(٣) المصدر نفسه ، ٤/ ٥٢٠ .

(٤) ينظر: الخليفة ، الأنصار في العصر الراشدي ، ١٩١ ، مقتل مسيلمة الكذاب .

(٥ - ٦) ابن تيمية ، منهاج السنة ، ٨/ ٣١٨ ، ٨/ ٣٢١ ، ٨/ ٣٢٣ ، ٦/ ٣٦٨ .

قال ابن تيمية: تعليقا على **دفاع أعداء الصحابة عن المرتدين**: الحمد لله الذي أظهر من أمر هؤلاء ما تحقق به عند الخاص والعام أنهم إخوان المرتدين حقا وكشف أسرارهم وهتك أستارهم بألسنتهم ، فإن الله تعالى لا يزال يطلع على خائنة منهم ، تبين عداوتهم لله ورسوله ﷺ . ولخيار عباد الله وأوليائه المتقين ، ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا [١].

بل إنهم ينتصرون لأبي لؤلؤة المجوسي الغادر الذي اغتال عمر رضي الله عنه [٢] ومنهم من يقول اللهم احشرني معه ، ومنهم من يقول في حرب أهل السنة والجماعة واثارات أبي لؤلؤة !! كما يفعلونه في الصورة التي يقدرون فيها صورة عمر أو غيره من الصحابة رضي الله عنهم ، وأبو لؤلؤة كافر باتفاق أهل الإسلام ، كان مجوسيا من عباد النيران ، وقتل عمر رضي الله عنه ، بغضا في الإسلام وأهله ، وحبا للمجوس وانتقاما للكفار[٢]. « ومن العجب أن دم الهرمزان المتهم بالنفاق والمحاربة لله ولرسوله ﷺ والسعي في الأرض بالفساد ، تقام فيه القيامة –عند أعداء الصحابة – ودم الفاروق ودم عثمان لا يجعل له حرمة وهو إمام المسلمين المشهود له بالجنة ، الذي هو وإخوانه أفضل الخلق بعد النبيين[٤] .

ولكن مبغضي الصحابة من المطففين، يرى أحدهم القذاة في عيون الصالحين المؤمنين ولا يرى الجذع المعترض في عيون الزنادقة والمنافقين من المنحرفين عن الكتاب والسنة وسيرة الصحابة رضي الله عنهم . قال تعالى: ﴿ ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم خالدا فيها ذلك الخزي العظيم ﴾[٥] **وهم** « **يستعينون بالكفار على المسلمين** ، فقد رأينا ورأى المسلمون أنه إذا ابتلي

---

(١) ابن تيمية ، منهاج السنة ، ٨/ ٣١٨ .

(٢) يأتي الحديث عنه أكثر تفصيلا عند التعرض لمقتل عمر رضي الله عنه في هذا البحث .

(٣) ابن تيمية ، منهاج السنة ، ٦/ ٣٧١ ، ٧/ ١٥٣ .

(٤) المصدر نفسه ، ٦/ ٢٧٦ .

(٥) سورة التوبة ، الآية (٦٣) .

المسلمون بعدو كافر كانوا معه على المسلمين ، كما جرى لجنكيز خان ملك التتر الكفار... وأما إعانتهم لهولاكو ابن ابنه لما جاء إلى خراسان والعراق والشام فهذا أظهر وأشهر من أن يخفى على أحد ... وكان **وزير الخليفة في بغداد الذي يقال له ابن العلقمي**(١) منهم ، فلم يزل يمكر بالخليفة والمسلمين ويسعى في قطع أرزاق عسكر المسلمين وضعفهم وينهي العامة عن قتالهم ويكيد أنواعاً من الكيد حتى دخلوا بغداد ... ولم يُر في الإسلام ملحمة مثل ملحمة الترك الكفار المُسَمَّيْن بالتتر ، وقتلوا الهاشميين وسبوا نساءهم من العباسيين وغير العباسيين .

فهل يكون موالياً لآل رسول الله ﷺ من يسلط الكفار على قتلهم وسبيهم وعلى سائر المسلمين ؟(٢) أم أن نار الحقد المجوسي لا زالت تتأجج في صدره منذ أن أطفأها الفاتحون الأوائل أصحاب محمد ﷺ ، فهو يتحين الفرصة للإنتقام بأي وسيلة كانت حتى لو استعان بالوثني التتري أو غيره ، وحتى لو أتى ذلك على الأطفال والنساء والشيوخ والأبرياء .

ولم يكن ما فعله ابن العلقمي تصرفاً فردياً ، وإنما هذا خُلق ثابت في نفوس أعداء الصحابة ، ولو كان التقريب والإكرام يُجدي نفعاً ويُطفئ الحقد الذي تغلي به صدور هؤلاء على المسلمين ظلماً وعدواناً ، لأجدى تقريب ابن العلقمي وتوليته الوزارة ، التي تجعل منه الآمر الناهي في كل أرض الخلافة ، لكن ذلك لم يُجدِ بلى استغل كل طاقاته لمساندة هولاكو وإسقاط الخلافة . ولم يكن ذلك في مكان محدد بل هو في كل أرض يتزامن فيه دخول الكفار أرضاً إسلامية ، فيها قوم من أعداء الصحابة . «وقد شاهد الناس لمّا دخل هولاكو ملك الكفار الترك ، الشام سنة

---

(١) ابن العلقمي محمد بن احمد بن علي أبو طالب الوزير ، مالأ على الإسلام وأهله الكفار وهولاكو خان حتى فعل ما فعل بالإسلام وأهله ثم حصل له من الذل والهوان على أيدي التتار الذين أعانهم ، فزال عنه ستر الله وذاق الخزي في الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ، توفي عام ٦٥٦ هجري وكان خبيثاً مبغضاً للصحابة . ينظر: ابن كثير البداية والنهاية ١٣/٢١٤

(٢) ابن تيمية ، منهاج السنة ، ٤/ ١٥٥ ، ٦/ ٣٧٤ .

ثمان وخمسين وستمائة ، فإنّ الرافضة الذين كانوا بالشام ، بالمدائن والعواصم من أهل حلب وما حولها ، ومن أهل دمشق وما حولها ، وغيرهم كانوا من أعظم الناس أنصاراً وأعواناً على إقامة ملكه ؛ وتنفيذ أمره في زوال ملك المسلمين ، ومعلوم ما كان في العراق لما قدم هولاكو وقتل الخليفة العباسي ... وقد رآهم المسلمون بسواحل الشام وغيرها إذا اقتتل المسلمون والنصارى هواهم مع النصارى ينصرونهم بحسب الإمكان ويكرهون فتح مدائنهم كما كرهوا فتح عكا وغيرها ، ولما انكسر المسلمون سنة غازان[1] (٦٩٩) هـ وخلت الشام من جيش المسلمين عاثوا في البلاد ، وسعوا في أنواع الفساد من القتل: وأخذ الأموال وحمل راية الصليب وتفضيل النصارى على المسلمين ، وحمل السبي والأموال والسلاح من المسلمين إلى النصارى أهل الحرب بقبرص وغيرها – قال ابن تيمية – ولو ذكرت أنا ما سمعته ورأيته من آثار ذلك لطال الكتاب ... ومعاونتهم للكفار ، واختيارهم لظهورهم على المسلمين أمر مشهود »[2] .

وقال أيضاً: « كان بساحل الشام جبل كبير فيه ألوان من الرافضة يسفكون دماء الناس ويأخذون أموالهم ، وقتلوا خلقاً عظيماً وأخذوا أموالهم ، ولما انكسر المسلمون سنة غازان أخذوا الخيل والسلاح والأسرى وباعوهم للكفار بقبرص وأخذوا مَنْ مرَّ بهم من الجند ، وكانوا أضرّ على المسلمين من جميع الأعداء وحمل بعض أمرائهم راية النصارى وقالوا له: أيما خير المسلمون أو النصارى ؟ فقال بل النصارى ، فقالوا له: مع من تحشر يوم القيامة ؟ فقال: مع النصارى .

---

(١) غازان أو قازان بن أرغون بن أبغا بن هولاكو ، أحد ملوك الدولة الإلخانية تولى الحكم (٦٩٤) فأسلم وأظهر الإسلام ، وتسمى محمود ، وشهد الجمعة ورد المظالم ، والتقى عام ٦٩٩هـ مع التتار عند سلمية لكنه هُزم وهرب ، واستمر حكمه ٨ سنين إلى أن توفي عام٧٠٣ هـ ويقال أنه مات مسموماً . ينظر: ابن كثير ، البداية والنهاية ن ١٤٠/٧ ، ٣١/١٤ ، ابن تيمية ، منهاج السنة ٩٦/١ .

(٢) ابن تيمية ، منهاج السنة ، ٦/ ٣٧٥ .

وسلّموا إليهم بعض بلاد المسلمين ... فلما فتح المسلمون بلدهم وتمكنوا منهم نهيتهم عن قتلهم وعن سبيهم ، وأنزلناهم في بلاد المسلمين متفرقين لئلا يجتمعوا»[١] واستقصاء مثل هذه الأمثلة أمر يطول ، وهو ليس من مقاصد هذا البحث ، وفي كتب التاريخ ما يوضح كل تلك المراحل .

وبعد هذا العرض الذي يُرتجى منه أن يوفر أرضية صلبة يقف عليها القارئ بثبات وثقة ، فيُدرك أن الله تعالى قد أثنى على الصحابة الكرام ورضي عنهم وبشرهم ، وأن الله تعالى أنبتهم ورعاهم ليؤازروا رسوله ﷺ ، وينشروا دعوته ويجاهدوا في سبيله ، فكانوا كلهم وفاء وتضحية وإخلاصٌ ، حتى استقام بهم الدين ورسخت جذوره ، ففرح المؤمنون وانتكس الكافرون وأغاظهم جهاد الصحابة في سبيل الله ، فأورثوا ذلك الغيظ إلى أحفادهم الذين اندرج أكثرهم في زمرة المنافقين ، فواصلوا صَدّهم عن سبيل الله ، واختلقوا الأكاذيب وروّجوا البهتان على الصحابة وسلف الأمة ، حتى أصبح القارئ على مفترق خطير لا وسطية فيه ، فإما أن يأخذ بكتاب الله تعالى وما ورد في السّنة من الأحاديث الصحيحة التي تشهد للصحابة بموالاة الله والرسول ﷺ والمؤمنين ، وإما أن يأخذ بالجانب الآخر ، الذي يعمل جاداً على هدم الإسلام ، وطمس معالم القرآن الذي هو رمز وحدة هذه الأمة ومعاداة حملته وحُماته ودعاته من الصحابة الأكرمين ومن سار على دربهم وموالاة كل من يعادي الإسلام ، كما يفعل مُبغضو الصحابة بالترضي على بعض اليهود ، لمجرد أنه أشار في قصيدة له بالوصيّة إلى علي رضي الله عنه [٢]. لهذا وبعد

---

(١) ابن تيمية ، منهاج السنة ، ٥/ ١٥٨ .

(٢) ذلك هو ابن فضلون اليهودي الذي قال مخادعاً مبغضي الصحابة لينال ثقتهم وهو يزعم أنه يناجي ربه: واسقني شربة بكف علي سيد الأوصياء بعل البتول ، ينظر: الآلوسي: مختصر التحفة ٢٨٥ ، ومعلوم لو أن هذا اليهودي صادق في مدحه للخليفة علي رضي الله عنه ، لدخل في دين الإسلام ، ولكن مقصده في هذا الشعر الترويج لفكرة الوصيّة لأنها عقيدة يهودية ، دعا لها من قبل ابن سبأ ، الذي كان له باع في التغرير بمجاميع من الغوغاء الذين أسهموا في الفتن التي جرت في صدر الإسلام ، حتى وجد=

الإطلاع على كل هذه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة ، التي توجب محبة الصحابة وموالاتهم واتباعهم ، وحكم الشرع في من يشتمهم أو ينتقص منهم وبيان وسائل أعدائهم في دعوتهم ومحاولاتهم حرف المسلمين عن دينهم ومخادعتهم لهم في كل تعاملهم معهم ، وكل ذلك تحت شعار التُقية ، التي يزعمون أنها هي تفسير قوله تعالى: ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[1] أي أكثركم تقية[2]. والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ الذين يبلّغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً ﴾ [3] ومع تعمدهم مخالفة القرآن الكريم ، في الأمر والنهي والتفسير فإنهم يوالون الكافرين وبما لا يدع مجالاً في النفس للإطمئنان إلى قول أو وعد يصدر عنهم .

وما تُخفي صدورهم من البغض لأمة محمد ﷺ ، لا يدركه إلا من تمكن من فهم أسباب اغتيالهم لعمر الفاروق ، وعثمان ذي النورين ، وعلي أبو الحسنين رضي الله عنهم أجمعين ، تلك الأسباب التي ستتضح بشكل جليّ في صفحات هذا البحث وبما لا يدع مكاناً للشك ، من أنَّ كلَّ من يكن في نفسه ذرَّة بُغض لأصحاب محمد ﷺ فهو مبتدع خبيث أو منافق زنديق ، إذ أنه قد تبيّن « أن حبهم سُنّة ، والدعاء لهم قُربة ، والإقتداء بهم وسيلة ، والأخذ بآثارهم فضيلة »[4] .

وأنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ، وأنه ظهر في هذا البحث **أنّ الصحابة** رضي الله عنهم ، **كانوا على حق في كل ما قاموا به** ولله الحمد ، وأنّ القارئ فيه لا يملك إلا أن يُحبهم جميعاً ولا يُفرّق بين أحد منهم ، كل على مرتبته وقربه من

= من بينهم من يُسمي الأمة المحمدية ، الأمة الملعونة ، راداً لقوله تعالى : : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾.

(١) سورة الحجرات ، من الآية (١٣) .

(٢) الآلوسي ، مختصر التحفة ، ٢٩٠ .

(٣) سورة الأحزاب ، الآية (٣٩) .

(٤) ابن القيم ، حادي الأرواح ، ٣٩٣ .

رسول الله ﷺ وسابقته وجهاده ، أما ما كُتب عنهم في التاريخ مما لا يليق بهم فهو من المبغضين والأعداء لهم ولإنجازاتهم ، وهذا ليس غريباً إذ أنه ما من مصلح أو فاتح أو نبيٍ إلا وله مبغضون وخصوم وأعداء ، قال تعالى: ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً ﴾[1] وأما الأباطيل التي يعمل أعداء الإسلام على إلصاقها بالصحابة ﷺ فهي مردودة بسيَر وأخلاق الصحابة وإنجازاتهم الإيمانية والحضارية ، قال تعالى: ﴿ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً ﴾[2] أما السبئية والغوغاء التي سارت بركابها فناصبت الصحابة العداء ، فلم يجنوا من حقدهم وكراهيّتهم ، إلا الخزي والذل والبُعد عن الإسلام والفضائل والحُب والخير ، ولن يحصدوا إلا الندامة والحسرة والضلالة ، قال تعالى: ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً ﴾[3] وأما الصحابة الأكرمون وعباد الله الصالحون فإنهم في كنف الله تعالى ورعايته وحمايته ، قال تعالى: ﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يُحب كلّ خوّان كفور ﴾ [4] وقال سبحانه وتعالى: ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ [5] وقال ﷺ في الحديث القدسي : « من عادى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب »[6] .

---

(١) سورة ، الفرقان ، الآية (٣١) .

(٢) سورة ، الفرقان ، الآية (٣٣) .

(٣) سورة ، الفرقان ، الآية (٢٧ -٢٩) .

(٤) سورة ، الحج ، الآية (٣٨) .

(٥) سورة ، يونس ، الآية (٦٢) .

(٦) البخاري ، مع شرحه فتح الباري ، ك ، الرقاق ، باب التواضع ، ح (٦٥٠٢) .

تصور الصحابة للفتنة

قال الله تعالى: ﴿واتقوا فتنة لا تُصيبَنّ الذين ظلموا منكم خاصة ﴾[1] وقال ﷻ :﴿ ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾[2] وحذّر رسول الله ﷺ من الفتن ، وبيّن العلاج الشافي لكل مسلم يُبتلى بشيء منها ، فها هي كتب الحديث النبوي الشريف ، لا يكاد يخلو كتاب منها ، إلا وفيه باب للأحاديث التي تُشير إلى الفتن وتحذّر من الوقوع فيها ، وتبين وسائل للنجاة منها لمن تمسك بها وسار على هديها ، حتى أصبح من الممكن القول: أنه ما من صحابي إلا ولديه تصور ما عن مجريات وحوادث قادمة نبّه رسول الله ﷺ إلى كيفية التعامل معها في مثل قوله ﷺ فيما يرويه النعمان بن بشير[3] قال: « صحبنا رسول الله ﷺ فسمعناه يقول إن بين يدي الساعة فتناً كقطع الليل المظلم يُصبح الرجل فيها مؤمناً ويُمسي كافراً ، أو يُمسي مؤمناً ويُصبح كافراً يبيع أقوام خَلاقهم فيها بعَرَض من الدنيا يسير » .

قال الحسن [4]: والله لقد رأيناهم صُوراً بلا عقول ، أجسامًا بلا أحلام فراش نار وذبان طمع يغدون بدرهمين ؛ ويروحون بدرهمين ، يبيع أحدُهم دينه بثمن

---

(١) سورة الأنفال ، من الآية (٢٥) .

(٢) سورة الزمر ، الآية (٣١) .

(٣) النعمان بن بشير بن سعد من بني كعب بن الحارث بن الخزرج ، وأمه عمرة بنت رواحه ، أخت عبد الله بن رواحه ﵁ شهيد مُؤتة ، وهو أول مولود للأنصار بعد الهجرة ، عمل لمعاوية والياً على الكوفة وكذلك على حمص ، ينظر ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ١٤٩٦/٤ .

(٤) الحسن البصري: هو الحسن بن يسار أبوه من سبي ميسان ، وقع إلى المدينة ، وولد الحسن في المدينة لسنتين بقيتا من خلافة عمر ﵁ وتوفي سنة عشرة ومائة .

ينظر: ابن سعد ، الطبقات ، ٧٩/٧.

العنز »[1] هذه أجواء الفتن لا يظهر فيها إلا من ضعُف دينه أو أَسقط من حِساباته الله والدار الآخرة ، وكما جاء وصفهم في كلام الحسن البصري ، يُباعون ويُشرون لاهَمّ لهم سوى الدرهم والدينار ، وتحصيل موقعٍ ما ، يُذكرون فيه بين النّاس يسيرون وراء كل ناعق ، ويفعلون كل شيء لبلوغ أهدافهم .

تصور حُذيفة بن اليمان رضي الله عنه للفتنة

من المعلوم لدى المُطالع لحياة الصحابة رضي الله عنهم ، أن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه كان هو المستشار في مثل هذه المسائل ، وذلك نظراً لاهتمامه المبكر في مسائل الفتن ، فمما يروى عن عامر بن مطر[2] أنه قال: « كنت مع حذيفة فقال: يوشك أن تراهم ينفرجون عن دينهم كما تنفرج المرأة عن قُبلها ، فأمسك بما أنت عليه اليوم فإنها الطريق الواضح ، كيف أنت يا عامر بن مطر ، إذا أخذ الناس طريقاً والقرآن طريقاً، مع أيهما تكون ؟ قلت: مع القرآن أحيا ومعه أموت، قال: فأنت إذاً أنت »[3].

وقال رضي الله عنه: « إن أصحابي تعلموا الخير ، وإني تعلمت الشرّ ، قالوا : وما حملك على ذلك ؟ قال: إنّه من يعلم مكان الشرّ يتقه »[4].

وقال رضي الله عنه: « كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير ، وكنت أسأله عن الشرّ مخافة أن يدركني ، فقلت: يا رسول الله إنّا كنّا في جاهلية وشرّ ، فجاءنا الله بهذا الخير ، فهل بعد هذا الخير من شرّ ؟ قال: نعم ، قلت : وهل بعد ذلك الشرّ من خير ؟ قال: نعم ، وفيه دَخَن ، قلت: وما دَخَنُه ؟ قال: قوم يهدون بغير هديّ

---

(١) الحاكم ، المستدرك ، ٣/ ٥٣١ .

(٢) عامر بن مطر الشيباني: روى عن عمر وعبد الله بن مسعود وحذيفة رضي الله عنهم وكان قليل الحديث، ينظر: ابن سعد ، الطبقات ، ٦ / ٤٢٣ .

(٣ - ٤) ابن أبي شيبة ، المصنف ، ٨/ ٦٤٢ .

تعرف منهم وتنكر ، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شرّ ؟ قال: نعم دعاة على أبواب جهنم ، من أجابهم إليها قذفوه فيها ، قلت: يا رسول الله صفهم لنا ، قال هم: من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا ، قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك ، قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم ، قلت: فإن لم يكن جماعة ولا إمام ؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها ، ولو أن تعض بأصل شجرة ، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك »[١] .

في هذا الحديث تظهر حكمة الله تعالى في عباده وكيف أقام كلاً منهم فيما شاء فحبب إلى أكثر الصحابة السؤال عن وجوه الخير ، ليعملوا بها ويبلّغوها غيرهم وحبب لحذيفة السؤال عن الشرّ ، ليجتنبه ويكون سبباً في دفعه عمّن أراد الله له النجاة ، كما أنّ هذا الحديث يبيّن دقة حذيفة في توجيه أسئلته ، وعدم الإكتفاء بما سمعه من الإجابات النبوية الواضحة ، حتى استشرف مستقبل الأمة ، واستوضح عن أسلم المسالك في حالة غياب الإمام ، واشتعال الفتن ، وتبّين له أنّه إذا افترق الناس أحزاباً ، فلا يتبع أحداً في الفُرقة ، ويعتزل الجميع إن استطاع ذلك خشية من الوقوع في الشرّ ، ويؤخذ من هذا الحديث أن حذيفة كان يستقي هذا العلم الفريد المختص بمستقبل الأمة في أوقات المحن من رسول الله ﷺ ، وبذلك فاق غيره من الصحابة في هذا الباب حتى أصبح مرجعاً لهم ، ومن ثم كان « صاحب السرّ الذي لا يعلمه غيره ، حتى خُص بمعرفة أسماء المنافقين ، وبكثير من الأمور الآتية »[٢] .

قال ابن حجر: والذي يظهر أنّ المراد بالشرّ الأول ما أشار إليه من الفتن الأولى ، وبالخير ما وقع من الاجتماع مع علي ومعاوية ، ومن الدَخن ما كان في زمانهما من بعض الأمراء كزياد بالعراق ، وخلاف من خالف عليه من الخوارج وبالدعاة على أبواب جهنم من قام في طلب الملك من الخوارج وغيرهم ، وإلى

---

(١) البخاري ، مع شرحه فتح الباري ، ك الفتن ، باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة ، ح (٧٠٨٤) .

(٢) ابن حجر ، فتح الباري ، شرح الحديث (٧٠٨٤) .

ذلك الإشارة بقوله: « الزم جماعة المسلمين وإمامهم »يعني ولو جار ، وضرب ظهرك وأخذ مالك ، وكان مثل ذلك كثيراً في إمارة الحجاج ونحوه .

والمعنى إذا لم يكن في الأرض خليفة فعليك بالعزلة والصبر على تحمل شدة الزمان[1] .

لاشك أن هذه السلسلة من التساؤلات التي أثارها حذيفة أمام رسول الله ﷺ لتؤكد سبق حذيفة في هذا المضمار ، وعمق إدراكه وسعة اطلاعه ، وهذا ما يظهر أكثر في الأحاديث الأخرى ، التي تؤكد متابعاته لهذا الجانب من العلوم منذ زمن مبكر ، فقد روى أنّ رسول الله ﷺ قال: « أحصوا لي كم يلفظ الإسلام ، قلنا يا رسول الله أتخاف علينا ونحن ما بين الستمائة إلى السبعمائة ؟ فقال: إنكم لا تدرون لعلكم أن تُبتلوا ، قال : فابتُلينا حتى جعل الرجل منا لا يُصلي إلا سراً »[2].

وبهذه المتابعة لأحاديث الابتلاء والفتن ، ومنذ ذلك الزمن المبكر ، أصبح موجهاً ومرشداً لا ينافس ولا يعجز عن تقديم الإجابات السديدة لكل ما يوجه إليه من أسئلة في هذا الباب ، قال رجل لحذيفة: كيف أصنع إذا اقتتل المصلّون ؟ قال: تدخل بيتك قال: قلت كيف أصنع إن دُخل بيتي ؟ قال: قل لن أقتلك إني أخاف الله رب العالمين ــ ولا يكتفي حذيفه بالإجابة ، بل يتوسع فيها ويبيّن لهم أن الفتن قادمة ويشرح لهم الحال التي سيكونون عليها ــ قال حذيفه: كيف أنتم إذا بركت تجرّ خطامها ، فأتتكم من هاهنا ومن هاهنا ، قالوا لا ندري والله ، قال: لكني والله أدري أنتم يومئذ كالعبد وسيده ، إن سبّه السيد لم يستطع العبد أن يسبّه ، وإن ضربه لم يستطع العبد أن يضربه [3].

وقد انطبق هذا الوصف على أهل المدينة تماماً ، عندما هيمن عليها الغوغاء

---

(١) ابن حجر ، فتح الباري ، شرح الحديث (٧٠٨٤) .

(٢) ابن حنبل ، المسند ، ك باقي مسند الأنصار ، باب حديث حذيفه بن اليمان ، ح (٢٢١٧٣) .

(٣) ابن أبي شيبة ، المصنف ، ٨/ ٥٩٦ .

الخارجون أيام إستشهاد عثمان رضي الله عنه وقبل أن تتم بيعة الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهذا شاهد على صدق حدس حذيفة ، وصحة علمه وقوته في قضايا الفتن ولم يكن يتأخر عن تقديم النصح ، إن رأى موقعا له ، قبل أن يباشره أحد بالسؤال فقد دخل المسجد يوما: « فمر على قوم يقرئ بعضهم بعضا فقال: إن تكونوا على الطريق لقد سبقتم سبقا بعيدا ، وإن تدعوه فقد ضللتم ، قال: ثم جلس إلى حلقة فقال: إنا كنا قوما آمنا قبل أن نقرأ ، وإن قوما سيقرؤون قبل أن يؤمنوا فقال: رجل من القوم تلك الفتنة ، قال: أجل قد أتتكم من أمامكم ، حيث تسوء وجوهكم ثم لتأتينكم ديما ديما إن الرجل ليرجع فيؤمر الأمرين: أحدهما عجز والآخر فجور، قال خرشة ـ راوي الحديث ـ فما برحت إلا قليلا حتى رأيت الرجل يخرج بسيفه يستعرض الناس »[1] .

مما يدل على سعة علم حذيفه ودقة تقديراته ، إذ أن أحد شهود ذلك المجلس ممن سمع كلام حذيفة ، رأى ما يصدقه بعد قليل من الزمن .

ويبدو أن حذيفة يرى الناس بحاجة لما يحمله من علوم عن الفتن ، ويود أن يحدث بها منذرا ومحذرا ، لكنه كان يخشى ألا يستوعب الناس كلامه ، لذلك قال: « لو حدثتكم ما أعلم ؛ لا فترقتم على ثلاث فرق ، فرقة تقاتلني ، وفرقة لا تنصرني وفرقة تكذبني »[2] وهذا صحيح فلو حدث حذيفة ، أن المسلمين سيقتل بعضهم بعضا ، وهم في زمانه يدا واحدة متحابين متعاونين ، فلن يصدقوه ، ولو حدثهم أنهم سيقتلون خليفتهم ، فسيكذبوه ، فكان يتمنى لو يجد ممن حوله ، من يفقه علمه ويتلقى عنه ذلك ، وهذا ما يوضحه هذا الحديث ، عن زر بن حبيش عن حذيفة قال: «وددت أن عندي مائة رجل قلوبهم من ذهب فأصعد على صخرة

---

(١) ابن أبي شيبة ، المصنف ، ٨ /٥٩٧ .

(٢) ابن أبي شيبة ، المصنف ، ٨/ ٦٠٦ .

فأحدثهم حديثاً لا تضرهم فتنة بعده أبداً ، ثم أذهب قليلاً قليلاً ، فلا أراهم ولا يرونني »[1] .

والحقيقة أن المتتبع لتصور حذيفة لأحداث الفتنة ، ولما أصدره من أحكام يجد أنّه كان على بصيرة ، وأنّ توجيهاته كانت في غاية الدقة ، ولكن مع وجود كبار الصحابة ، ووحدة الصف وقوة الأخوّة التي كان عليها المسلمون ، لا تدع مجالاً واسعاً لقبول أحاديث حذيفة ، حتى ظهرت علامات الفتن فاحتاجه الناس ورجعوا إلى علمه ، فاتضح منهجه وتجلى فهمه وصدّق الناس حدسه ، ولم يكن حذيفة يدّعي العلم لاجتهاده ، وإنما كان ينسبه لرسول الله ﷺ قال أبو إدريس الخولاني: سمعت حذيفة يقول: « والله إني لأعلم الناس بكل فتنة هي كائنة فيما بيني وبين الساعة، وما ذلك شيئاً أسرّه إليّ،لم يكن حدّث به غيري، ولكنّ رسول الله ﷺ قال: وهو يحدّث مجلساً أنا فيه، سُئل عن الفتن وهو يعدّ فيهن، ثلاث لا يذرن شيئاً منهن كرياح الصيف منها صغار ومنها كبار، قال حذيفة: فذهب أولئك الرهط غيري »[2].

وبهذا أصبح المعوّل عليه في هذه المسائل لانفراده بهذا العلم من بين الصحابة وأصبح موضع السؤال والاستفسار عن المعضلات من الفتن ، فعن أبي صالح الحنفي[3] قال: « جاء رجل إلى حذيفة وإلى أبي مسعود البدري[4]، وهما جالسان

---

(١) المصدر نفسه ، ٨/ ٦٠١ .

(٢) الساعاتي ، الفتح الرباني ، ك الفتن ، ح (٩٨) ٢٤/ ٣٧ ، الهندي ، كنز العمال ، ك الفتن ح ، ١١/ ٣١٢٧٨ .

(٣) أبو صالح الحنفي : يقال عبد الرحمن بن قيس ، روى عن علي وأبي مسعود وأبي هريرة وثّقه ابن معين، ينظر ،البخاري، التاريخ الكبير، ٥/٣٣٨ ، الذهبي، سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٨.

(٤) أبو مسعود البدري : هو عقبه بن عمرو بن ثعلبه من بني الخزرج يعرف بالبدري لأنه نزل ماء بدر وقيل لأنه شهد بدراً ، وسكن الكوفة توفي (٤١ أو ٤٢) هـ ، ابن عبد البر الاستيعاب ٤/ ١٧٥٦ .

في المسجد وقد طرد أهل الكوفة سعيد بن العاص[١]، فقال: ما يحبسكم وقد خرج الناس ؟ فوالله إنا لعلى السُّنة ، فقالا : وكيف تكونون على السُّنة وقد طردتم إمامكم والله لا تكونون على السُّنة حتى يُشفق الراعي ؛ وتنصح الرعية ، قال: فقال له رجل: فإن لم يشفق الراعي وتنصح الرعية !! فما تأمرنا ؟ قال: نخرج وندعكم»[٢].

إذاً من تصور الصحابة عن الفتنة ، ضعف رحمة ولاة الأمر وانعدام الشفقة على رعيتهم ، وكذلك عدم إخلاص الرعية للولاة ، مما يوجد أجواء من انعدام الثقة تكون سبباً فيما يحصل من فتن تحرف المجتمع عن السُّنة ؛ التي تسير به إلى الوحدة والألفة والجماعة ، ولما أبدت الفتن عن وجهها ؛ وكثرت الأسئلة على حذيفة تستطلع آراءه فيها ، قال: « والله ما أدري أنسي أصحابي أم تناسوا ، والله ما ترك رسول الله ﷺ من قائد فتنة إلى أن تنقضي الدنيا ، يبلغ من معه ثلاثمائة فصاعداً ، إلا قد سماه لنا باسمه واسم أبيه واسم قبيلته »[٣] ومن هنا يمكن القول أن الصحابة ﷺ ، كان لديهم تصور عن الفتن والإضطرابات ، التي ستحصل في المجتمع الإسلامي آنذاك ، وأنهم كانوا جديرين بتقديم الرؤية الواضحة في المواقف الحرجة إن استشيروا واعتُمدت توجيهاتهم .

فعن أبي واقد الليثي[٤] قال: « إن رسول الله ﷺ قال: ونحن جلوس على بساط: « إنها ستكون فتنة »قالوا وكيف نفعل يا رسول الله ؟ فرد يده إلى البساط فأمسك به فقال: « تفعلون هكذا » .

---

(١) سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية ، ولد عام الهجرة وقيل سنة إحدى ، قتل أبوه يوم بدر كافراً ، وهو أحد أشراف قريش ممن جمع السخاء والفصاحة وهو أحد الذين كتبوا المصحف لعثمان ولي الكوفة ، وتوفي سنة (٥٩) هـ . ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ٦٢١/٢.

(٢) ابن أبي شيبة . المصنف ، ٨ / ٥٩٩ .

(٣) أبو داود ، عون المعبود ، شرح سنن أبي داود . كتاب الفتن ، ح (٤٢٢٢) .

(٤) أبو واقد الليثي: اختلف في اسمه ، فقيل الحارث بن عوف ، وقيل عوف بن الحارث ، قيل إنه شهد بدراً مع النبي ﷺ، وكان قديم الإسلام، وكان معه لواء بني ليث وضمرة وسعد بن بكر يوم الفتح، مات=

وذكر لهم رسول الله ﷺ يوماً أنها ستكون فتنة فلم يسمعه كثير من النـــاس فقال معاذ بن جبل: ألا تسمعون ما يقول رسول الله ﷺ ؟ فقالوا ما قال ؟ قـــال: إنها ستكون فتنة ، فقالوا: فكيف لنا يا رسول الله ؟ وكيف نصنع ؟ قال: ترجعـــون إلى أمركم الأول »[1] أي تعودون إلى الجماعة ، وإلى ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه من تحكيم كتاب الله ومنهج الحق والعدل في كل جوانب الحياة .

ومن الإشارات التي جاءت في كثير من أحاديث الفتن ، يتبين ميل الصحابـة إلى اعتزال الأحوال المؤدية إليها ، فلما قدم حذيفة إلى جوخا[2] أتى أبـــو مســـعود يسلم عليه ، فقال: « ما شأن سيفك هذا يا أبا عبد الله قال: أمّرني عثمان على جوخا فقال: يا أبا عبد الله أتخشى أن تكون هذه فتنة ، حين طرد الناس سعيد بن العـــاص عن الكوفة ؟ قال له حذيفة: ألا تعرف دينك يا أبا مسعود ؟ قال: بلى ، قال: فإنها لا تضرك الفتنة ما عرفت دينك ، إنما الفتنـــة إذا اشتبه عليـــك الحـــق والباطل ، فلم تدري أيهما تتبع ، فتلك الفتنة »[3] .

فمن هذا النص يتضح أن حذيفة ؛ لم يكن يخشى على مـــن يمتلـــك الرؤيـــة الواضحة ، والقادرة على التفريق بين الحق والباطل ، وإنما الخوف يـــأتي علـــى صنف آخر من الناس يلتبس عليهم الحق والباطل فلا يميزون بينهما ، فيرتكـــبون المنكر وهم يحسبون أنه معروفٌ .

= بمكة ودفن في مقبرة المهاجرين سنة ثمان وستين ، ابن عبد الـــبر ، الاســـتيعاب ، ٤/ ١٧٧٤ ، ابـــن الأثير أسد الغابة ، ٥/ ١٢٤ .

(١) الطبراني ، المعجم الكبير ، ٣/ ٢٤٩ .

(٢) جوخا : أسم نهر عليه كوره واسعة في سواد بغداد بالجانب الشرقي ، بين خانقين وخوزستان قالـــوا ولم يكن ببغداد مثل كورة جوخا ، كان خراجها ثمانين ألف ألف درهم حتى صرفت دجلة عنها فخربـــت وقال زياد بن خليفة الغنوي: وقالوا عليكم حبَّ جوخا وسوقها   وما أنا أم ماحبّ جوخا وسوقها
ياقوت ، معجم البلدان ٣/ ٨٨ .

(٣) ابن أبي شيبة ، المصنف ، ٨/ ٦٢٠ .

ولكن مع كل ما كان يمتلكه حذيفة ﷺ من عمق في الرؤية ، ورصيد من التوجيهات النبوية ، تمكنه من خلال فهمها التمسك دائماً بالمنهج الصحيح والطريق المستقيم ، فإنه كان يحذر كل الحذر من أن يدركه زمن تلك الفتن التي حذر منها رسول الله ﷺ ، يتضح ذلك من رده على أبي مسعود الذي دخل عليه في مرضه الذي مات فيه ، فاعتنقه وقال له: « الفراق !! فقال: نعم ، حبيب جاء على فاقة ، لا أفلح من ندم ، أليس بعدي ما أعلم من الفتن »[١] ومن خلال هذا النص ، يتبين عمق الرؤية التي يمتلكها حذيفة وأمثاله من الصحابة ﷺ وحرصهم على سلامة جهادهم مع رسول الله ﷺ ، وكذلك وضوح الرؤية المستقبلية ، لما ينتظر الأمة من مخاض عسير ، وأحداث جسام .

ولم يكن ذلك يعتمد على الشفافية الروحية التي اتسمت بها تحليلات كثير من الصحابة ﷺ لمجريات الأمور ، أو على الخبرة السياسية فقط ، بل لما يرون من تغير في واقع الحياة ، ومن تطور هائل في الإمكانيات المادية ، التي أدت إلى تحولات اجتماعية ، ضعف أمامها كثير ممن لم تصقله التربية النبوية ، ولم يمر بالمراحل التي مَّر بها السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، وهذا وأمثاله جعل حذيفة يرى في الموت منقذاً وعاصماً لما اتضح لديه من أسباب الفتن ومهيجاتها ، حتى أخذ ينصح بالعمل بقناعته وتقديراته هذه ، فكان يقول:
« إن للفتنة وقفات وبعثات فإن استطعت أن تموت في وقفاتها فافعل »[٢] فقيل لحذيفة ما وقفات الفتنة وما بعثاتها ؟ قال:
« بعثاتها سلّ السيف ووقفاتها إغماده »[٣]. ويقول أيضاً: «أتتكم الفتن

(١) الهندي ، كنز العمال ، ح ١٣/ ٣٦٩٧٤ و ١٣/ ٣٦٩٧٥ .
(٢) ابن ابي شيبة ، المصنف ، ك الفتن ٨/ ٥٩٣ .
(٣) المصدر نفسه .

مثل قطع الليل المظلم »[1]. ولم ينفــرد حذيفة ﷺ عــن عامة الصحابة بموقفه هذا ، وإنما اجتناب الفتنة والاعتزال أثناء انتشارها ، كان هو المنهج الأوسع ، الذي سلكه أكثر الصحابة[2] وما ذلك إلا لتمسكهم بهدي النبي ﷺ ، عن أبي ذر الغفـاري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: كيف أنت يا أبا ذر وقتلاً يصيب الناس حتى تغــرق حجارة الزيت[3] بالدم قلت: ما خار الله ورسوله ، قال: إلحق بمن أنت منه ، قـال: قلت: يا رسول الله أفلا آخذ بسيفي فأضرب به من فعل ذلك ؟ قال: شاركت القـــوم إذاً ، ولكن ادخل بيتك قلت: يا رسول الله فإن دخل بيتي ؟ قـــال: إن خشــيت أن يبهرك شعاع السيف فألق طرف ردائك على وجهك فيبوء بإثمه وإثمك ، فيكون من أصحاب النار[4] .

كل ذلك التضييق من رسول الله ﷺ، في البعد عن الفتن وأسبابها ، لكي يُبقي للمجتمع الإسلامي وحدته وأخوّته ، إذ أن الخلاف والشقاق داخل الصف الواحـد لا يأتي بخير ولا ينتج إلا شراً ، وأن نتائج الصبر مهما كانت مرّة ومؤلمـــة ، فإنــها وبكل معطياتها ونتائجها ؛ أخف من عواقب الإنسياق وراء دعاة الفتن ، الذين غالباً ما يرفعون شعارات الإصلاح والتغيير ، فيوقدون الفتن التي يفتـــح أبوابــها أهــل الغايات والأهواء وضعاف النفوس والضمائر ، ويصطلي بنارها الغوغاء والمغفلون ومن خَلْفَهم من قليلي التجربة من أصـــحاب النـــوايا السلـــيمة ، والضمائر النقـــية وأنصارهم ، الذين كثيراً ما تخدعهم المظاهر ، وتقـــودهم الرايات ، التي يستجيبون

---

(١) ابن ابي شيبة ، المصنف ، ك الفتن ٨/ ٥٩٣ .

(٢) عــن الشعبي قال: بالله الذي لا إله إلا هو ما نهض في تلك الفتنة إلا ستة بدريين ما لهم سابع ، أو سبعة مالهم ثامن . ينظر ، الطبري ، تاريخ ، ٤/ ٤٤٧ .

(٣) موضع بالمدينة قريب من الزوراء ، وهو موضع صلاة الاستسقاء ، ياقوت ، ومعجم البلدان ، ١/٩٥.

(٤) ابن ماجة ، سنن ابن ماجة ، ك الفتن ، باب التثبت في الفتنة ، ح (٣٩٤٨) .

أبو داود ، سنن أبي داود ، ك الفتن والملاحم ، ح (٣٧١٧) .

لها قبل أن يستخيروا الله ويمعنوا النظر في العواقب .

ولم يكن هذا المنهج بدعاً في حياة رسول الله ﷺ ، فكم صبر على الأذى وأعرض عن الجاهلين متناسياً أذاهم ، حتى شهد له القرآن بحسن الخلق ، فقال تعالى: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾[1] وقال تعالى: ﴿ ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾[2] والشواهد في هذا الجانب من سيرة الرسول الله ﷺ أكثر من أن تحصر في مثل هذا الموضع .

بل إن القرآن الكريم ، أشار إلى هذا المنهج ، في قصة ابني آدم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسطٍ يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين ﴾[3].

محمد بن مسلمة رضي الله عنه

وفيما روي عن محمد بن مسلمة الأنصاري[4] رضي الله عنه ، في هذا الباب ما يؤكد وضوح الدعوة إلى الإعتزال في أجواء الفتن ، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: أعطى رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة سيفا ، وقال له: « قاتل به المشركين ما قاتلوكم،فإذا اقتتل المسلمون فأت بهذا السيف أحدا؛ فاضرب به حتى ينثلم وينقطع ثم ارجع إلى بيتك فكن حلسا من أحلاس بيتك حتى تأتيك يد خاطئة أو منية قاضية»[5].

---

(١) سورة القلم الآية (٤) .

(٢) سورة آل عمران الآية (١٥٩).

(٣) سورة المائدة الآية (٢٨) .

(٤) محمد بن مسلمة الأنصاري: من بني حارثة من الأوس ، أسلم على يد مصعب بن عمير ، وآخى الرسول ﷺ بينه وبين أبي عبيدة شهد بدرا والمشاهد ، وهو أحد الذين قتلوا كعب بن الأشرف ، فقال لهم رسول الله ﷺ أفلحت الوجوه ، وروي أنه قتل مرحب اليهودي في خيبر اعتزل الفتنة و توفي بالمدينة سنة (٤٣) هـ وقيل (٤٧) هـ / تهذيب الكمال ١/ ٩٢. البخاري ، التاريخ الكبير ١/ ١١ الحاكم المستدرك ، ٣/ ٤٣٣ . ابن عبد البر ، ، الاستيعاب ، ٣/ ١٣٧٧ .

(٥) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ٥٥/ ٢٨٣.

وهذا ما فعله محمد بن مسلمة وتمسك به طوال حياته ، على الرغم من كثرة من راوده على الخروج من عزلته ومشاركة المسلمين واقعهم آنذاك ، فلما استشهد عثمان ﷺ وكان من أمر الناس ما كان ، خرج إلى صخرة في فنائه فضرب الصخرة بسيفه حتى كسره [١]، وكان يقال له فارس نبي الله ﷺ ، فاتخذ سيفاً من عود قد نحته وصيره في الجفن معلقاً في البيت ، وقال : إنما علقته أُهيب به ذاعراً[٢].

ويبدو أنه خرج من المدينة ؛ لكي يبعد أكثر عن موطن قد يكون موطناً للفتنة وهذا ما رواه أبو بردة عندما قال: مررنا بالرّبَذة [٣]، وإذا فسطاط قلت: لمن هذا ؟ قيل لمحمد بن مسلمة ، فدخلت عليه ، فقلت: رحمك الله إنك في هذا الأمر بمكان فلو خرجت إلى الناس ، فأمرت ونهيت ، فقال: إن رسول الله ﷺ قال: « يا محمد ابن مسلمة إنها ستكون فتنة وفرقة واختلاف ، فإذا كان ذلك ، فاكسر سيفك، واكسر نبلك ، واقطع وترك ، واجلس في بيتك »[٤] .

وقد وقعت الفتنة ، وفعلت الذي أمرني به رسول الله ﷺ ، فالتفت فإذا السيف معلق بعمود الفسطاط ، فانتصلته ، فإذا سيف من خشب قال: قد فعلت ما أمرني به النبي ﷺ ، واتخذت هذا أهيب به الناس[٥]. ولم يشارك بأي نشاط سياسي

---

(١) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ٢/ ٢٣٥ .

(٢) ابن سعد الطبقات الكبرى ٢/ ٢٣٦.

(٣) الرَّبذة: من قرى المدينة على ثلاثة أميال قريبة من ذات عرق على طريق الحجاز وفيها قبر أبو ذر الغفاري ﷺ المتوفى(٣٢)هـ وكانت من أحسن المنازل في طريق مكة،ينظر :ياقوت معجم البلدان٤/ ٣٨٨.

(٤) البخاري ، التاريخ الكبير ، ١/ ١١ .

(٥) البخاري ، التاريخ الكبير، ١/ ١١. وقال فيه: قال شعبة وابن ضبيعة: فأتينا المدينة فإذا فسطاط مضروب ، وإذا هو محمد بن مسلمة فسألناه فقال: لا يشتمل على شيء من أمصارهم حتى ينجلي الأمر عما ينجلي . و ينظر: التاريخ الصغير ، ١/١٠٥. الطبراني ، المعجم الكبير ، ٢٣٣/٩. ابن أبي شيبة المصنف ٨/ ٦٠٥. الهندي ، كنز العمال ، ح ٣٠٨٢٠/١١ .

ولا غيره بعد مقتل عثمان ، ولم يكن مسلكه هذا مستنكراً ، بل أقـرّه حذيفـة بـن اليمان وشهد له بصحة ذلك المنهج ، فقال: إني لأعلم رجلاً ، لا تنقصه الفتنة شيئاً فقلنا من هو ؟ قال محمد بن مسلمة الأنصاري[1] وما موقف محمد بن مسلمة هـذا إلا تطبيق حرفي لما أوصاه به رسول الله ﷺ وهو ما ينسجم مع عمـوم وصيتـه لأمته ، وإرشاداته لها في ساعات الفتن ، فقد روى البخاري ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم ، والقائم فيها خير من الماشي ، والماشي خير من الساعي ، من تشرف لها تستشرفه ، فمن وجد فيها ملجأ أو معاذاً فليَعُذْ به »[2] وقوله: « والقاعد فيها خير من القائم » أي القـاعد فـي زمانها عنها ، والمراد بالقائم الذي لا يستشرفها ، وبالماشي ، من يمشي في أسبابه لأمر سواها ، وقيل المراد بذلك أن بعضهم أشد من بعض ، فـأعلاهم فـي ذلـك الساعي فيها بحيث يكون سبباً لإثارتها ، ثم من يكون قائماً بأسبابها وهو الماشـي ثم من يكون مباشراً لها وهو القائم ، ثم من يكون من النظـارة ولا يقـاتل وهـو القاعد ، ثم من يكون مجتنباً لها ولا يباشر ولا ينظر ، ثم من لا يقع منه شيء مـن ذلك ولكنه راض وهو قائم ، والمراد بهذه الأفضلية في هذه الخيرية من يكون هـو أقل شراً ممن فوقه على التفصيل المذكور .

وقوله: « من تشرف لها » أي تصدى وتعرض لها ، ولا يعرض عنها . وقـوله: « تستشرفه » أي تهلكه ، ومن طلع فيها بشخصه قابلته بشرها .

وقوله: « فليعذ به » أي ليعتزل فيه ليسلم من شر الفتنة، وفي رواية قال ﷺ: « فإذا

---

(١) ينظر: ابن عساكر ، تاريخ دمشق، ٢٥١/٥٥ ، وفي الطبقات ، قال أبو بردة: فأتيته فإذا هـو شـيخ فقلت له: يرحمك الله أراك رجلا من خيار المسلمين تركت بلدك ودارك واهلك وجـيرتك قـال: تركتـه كراهية الشر ما في نفسي أن تشتمل على مصر من أمصارهم حتى تتجلي عما انجلت. ينظر: ابن سـعد الطبقات الكبرى ، ٢/ ٢٣٥. البلاذري ، أنساب الأشراف ٩/٣ .

(٢) البخاري ، فتح الباري ، ك الفتن ، باب تكون فتنة القاعد فيها خير من القائم ، ح (٧٠٨١) .

نزلت فمن كان له إبل فليلحق بإبله ــ وذكر الغنم والأرض ــ قال رجل: يا رسول الله ، أرأيت من لم يكــن له ؟ قال: يعــمد إلى ســيفه فيــدق على حده بحجر ثــم لينج إن استطاع » وفــي ذلــك التحــذير من الفتــنة والحــث علــى اجتــناب الدخــول فيــها ، وأنّ شرها يكون بحسب التعلق بها [١].

وهذا ما يوضح الأسباب التي حدت بمحمد بن مسلمة ومن سار على منهجــه إلى البعد الكامل عن كل ما يتعلق بالفتنة حتى المكان الذي حصلت فيه ولــو كــان موطنه ومسقط رأسه ، وملتقى أهله وعشيرته .

ومــمن سار على هذا المنهج من كبار الصحابة رضي الله عنهم حذيفة بــن اليمــان رضــي الله عنــه ، إلا أنــه تــوفي بعــد عثــمان بأربعــين يومــاً [٢] وعبد الله بن عمر [٣]، وأبو بكره [٤]، وسلمة بن الأكوع ، فقد روى البخاري عن سلمة أنه دخل على الحجاج فقال: « يا ابن الأكوع ارتددت على عقبيك تعربــت ؟ قال : لا ولكن رسول الله ﷺ أذن لي في البدو » . ولما قتل عثمان بن عفــان رضي الله عنه خرج سلمة بن الأكوع إلى الرَّبَذة ، وتزوج هناك امرأة وولدت له أولاداً ، فلم يزل بها حتى قبل أن يموت بليال ، نزل المدينة [٥] .

---

(١) ينظر: فتح الباري،ك الفتن،شرح الحديث (٧٠٨٢)وذكر ابن حجر أقوالاً للسلف في خصوص أو عموم مثل التحذير،وأن المراد في الفتنة هنا ما ينشأ من الإختلاف في طلب الملك حيث لايعلم المحق من المبطل

(٢) البخاري ، التاريخ الكبير ، ١/١٢ .

(٣) ينظر ، فتح الباري ، ك الفتن ، شرح الحديث (٧٠٨٢) وهو عبد الله بن عمر بن الخطاب توفي فــي مكة بعد مقتل ابن الزبير بثلاثة أشهر سنة (٧٣)هــ وكان قد اعتزل الفتنة ولم يشارك بشيء من أحداثها ينظر ابن عبد البر ، الإستيعاب ، ٣/ ٩٥٠.

(٤) فتح الباري ، ك الفتن ، شرح الحديث (٧٠٨٢) . وأبو بكره اسمه نُفَيع بن مســروح وقيــل ابــن الحارث ، وأمه سمية جارية الحارث بن كلدة وكان يقول: أنا مولى رسول الله ﷺ عام الطائف ، تعلــق ببكرة من حصن الطائف فنزل إلى رسول الله ﷺ توفي بالبصرة سنة أحد أو اثنين وخمسيــن . ينظــر: ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ٤/ ١٦١٤ .

(٥) البخاري ، مع فتح الباري ، ك الفتن ، باب التعرب في الفتنة ، ح (٧٠٨٧) .

ميل كثير من الصحابة إلى اعتزال أحداث الفتنة

من هذه المواقف يتبين أن التوجه إلى العزلة وعدم المشاركة في الأحداث التي تحسب على أحداث الفتن ، كان توجهاً قوياً بين أصحاب النبي ﷺ ، وأن لهم ما يؤيدهم في ذلك في مثل قوله ﷺ: « يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ، ومواقع القطر يفرّ بدينه من الفتن »[١]. وهذا الحديث يدل على فضيلة العزلة لمن خاف على دينه ، وقد اختلف السلف في أصل العزلة ، فقال الجمهور: الإختلاط أولى لما فيه من اكتساب الفوائد الدينية ، والقيام بشعائر الإسلام وتكثير سواد المسلمين ، وإيصال أنواع الخير إليهم من إعانة وإغاثة وعبادة وغير ذلك . وقال آخرون هذا أفضل ، إذا غلب على الظن ، السلامة من الوقوع في الخطأ ، وإلا فالعزلة هي الأولى لتحقق السلامة . وذلك يختلف باختلاف الأشخاص والأوقات[٢]. وهذا ما يسوغ الإختلاف الظاهر فيما اتخذه الصحابة من مواقف من أحداث الفتن التي عاصروها . فمن لابس القتال ، اتضح له الدليل لثبوت الأمر بقتال الفئة الباغية وله القدرة على ذلك ، ومن اعتزل لم يتضح له أي الفئتين هي الباغية[٣]، أو أنه لا قدرة له على القتال .

والدارس لأحوال الذين اعتزلوا الفتن ، يجد أنهم من كل طبقات المسلمين من المهاجرين والأنصار ، وأهل البادية ، وأهل الحاضرة .

وكذلك من العلماء ومن العامة ، عن سعيد بن جبير قال: خرج علينا عبد الله ابن عمر فرجونا أن يحدثنا حديثاً حسناً ، فبادرنا إليه رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن حدثنا عن القتال في الفتنة والله يقول: ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ﴾ فقال هل

---

(١) البخاري ، مع شرحه فتح الباري ، ك الفتن ، باب التعرب في الفتنة ، ح (٧٠٨٨) .

(٢) البخاري ، مع شرحه فتح الباري ، ك الفتن ، باب التعرب في الفتنة ١٤/ ٥٤١ .

(٣) المصدر نفسه .

تدري ما الفتنة ثكلتك أمك ؟ إنما كان محمد ﷺ يقاتل المشركين ، وكان الدخــول في دينهم فتنة ، وليس كقتالكم على الملك [١].

وهذا السؤال كان في أيام عبد الله بن الزبيــر ، ومــروان بن الحكم ثم عبـد الملــك بن مــروان وما أشبه ذلــك ، وكان رأي ابن عمر ترك القتال في الفتنـــة ولو ظــهر أن إحــدى الطائفتيــن محقــة والأخــرى مبطــلة.

ســعد بن أبي وقــاص: وممن اعتزل في الفتنة من الأعلام ، سعد بن أبي وقــاص

عن عامر بن سعد ، أن أخاه عمر بن سعد انطلق إلى سعد في غنم له خارجاً من المدينة ، فلما رآه سعد قال: أعوذ بالله من شر هذا الراكب ، فلما أتاه قال: أرضيت أن تكون أعرابياً في غنمك ، والناس يتنازعون في الملك بالمدينة ؟ فضــرب سـعد صدر عمر **وقال:** أسكت فإني سمــعت رســول الله صلى الله عليه وسلم يقــول: «إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي »[٢] .

وفي رواية أنه قال: يا بني أفي الفــتنة تأمرني أكون رأساً لا والله حتى أعطى سيفاً إن ضربت به مؤمــناً نبا عنه ، وإن ضربت به كافراً قتلته ، وكان ابنه يشير عليه أن يحضر أمر التحكيم لعلهم يعدلون عن علي ومعاوية ، ويولونه فامتنع سعد من ذلك وأباه أشد الإباء ، وقنع بما هو فيه ، من الكفاية والخفاء [٣] .

وقال **أبو بكرة:** لو دخلوا علي داري ما رفعــت عليهم قصبة ، لأنـي لا أرى قتال المسلمين ، فكيف أن أقاتلهم بسلاح [٤]

ويبدو أنه لا يوجد أحد من الصحابة إلا وقد حدث نفسه بالاعتزال ، خشيةً على

---

(١) ابن حجر ، فتح الباري ، ك الفتن ، باب الفتنة من قبل المشرق ، شرح الحديث (٧٠٩٢) .

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٧/ ٢٩٦ .

مسلم ، صحيح مسلم ، ك الزهد والرقائق ح (٥٢٦٦) .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) البخاري، مع شرحه فتح الباري، ك الفتن، باب لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض شرح الحديث (٧٠٨٠) ١٤/ ٥٥٣ . وأبو بكرة هو نُفيع بن مسروح ، أخو زياد بن أبي سفيان لأمه .

سلامة جهاده ، مع رسول الله ﷺ ، وزهداً بالإمارة لما يترتب عليها من مسؤولية كبرى ، فمنهم من لم يرَ ما يلزمه بالمشاركة في صفحات الفتنة ، فوجد متسعاً فاعتزل خوفاً من الوقوع في الشر ، ومنهم من لم يجد لنفسه عذراً مما اضطره إلى خوض غمار الأحداث إلى نهايتها ، فهذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: « عدا الناس على هذا الرجل فقتلوه وأنا معتزل عنهم ثم ولوني ولولا الخشية على الدين لم أُجبهم »[1]. أي أنه لم يجد لنفسه عذراً من الإعتزال ، ورأى أنه ملزم بالعمل وبذل الجهد لسلامة الدين .

وكان عمر رضي الله عنه يحذر من الفتن ويسأل عنها ، وذلك قبل وقوعها ، وما ذلك إلا لما يحمله من تصور عن خطورتها وسعة انتشارها وخطورة نتائجها على الدين والدنيا ، عن حذيفة قال: « بينا نحن جلوس عند عمر إذ قال أَيُكم يحفظ قول النبي ﷺ في الفتنة ؟ ... التي تموج كموج البحر؟ فقال: ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين ، إن بينك وبينها باباً مغلقاً ، قال عمر: أيكسر الباب أم يفتح ؟ قال: لا بل يكسر، قال عمر: إذن لا يغلق أبداً قلت: أجل . قلنا لحذيفة: أكان عمر يعلم الباب ؟ قال: كما يعلم أن دون غد الليلة ، وذلك أني حدثته حديثاً ليس بالأغاليط فهبنا نسأله من الباب ، فأمرنا مسروقاً فسأله فقال: من الباب ؟ قال عمر »[2] فمن هذا النص يتبين أن عمر رضي الله عنه كان عنده تصور واسع عن الفتنة حتى بما يتعلق منها بشأنه وما ذلك إلا لما سمعه من رسول الله ﷺ عن أنواع من الفتن الخاصة والعامة ، والتي منها ما هو كموج البحر يدفع بعضها بعضاً ، وإذا كان عمر وعلي رضي الله عنهما لديهم هذا التصور فإن عثمان رضي الله عنه كان شريكاً لهما في أكثر ما سمعا من رسول الله ﷺ بل إن عثمان كان لديه من الإشارات النبوية والإرشادات

---

(١) ابن حجر ، فتح الباري ، ك الفتن ، شرح الحديث (٧١٠٧) .

(٢) البخاري ، مع شرحه فتح الباري، ك الفتن ، باب الفتنة التي تموج موج البحر ، ح (٧٠٩٦) .

والتوصيات أكثر مما عند غيره حول الفتنة ، لذلك كان أكثر حذراً وأشد حرصـــاً على أن لا يحرك أي ساكن يؤدي إلى هياجها ، ظهر ذلك فيما كان يوصـــي بـــه ولاته ، وفيما كان يتعامل به مع الغوغاء الخارجين عليه ، وفيما سنه من ســياسة الكف عن الناس إلا إذا ارتكبوا محرماً ، أو تجاوزوا حداً شرعياً ، فجعل من نفسه دريئة لحماية أمته ورعيته ؛ من الفتنة الداخلية فكان يعزم على كل من حَمِلَ سلاحه لمواجهة الغوغاء والدفاع عنه ، أن يلقي سلاحه ، ويكف يده ، وأنه لن يكـون أول من يخلف محمداً ﷺ في أمته بسفك الدماء ، ويقول « إنما تـــراد نفســي وســأقي المؤمنين بنفسي »[1] فأثبت بسياسته تلك أنه في منتهى الإدراك لأبعاد تلك الفتنـــة فتمكن بحسن سياسته ووضوح رؤيته ، لما يدبر له وللأمة من محاولة جره إلـــى فتنة داخلية عمياء تأتي على كل شيء ، تمكن من إسقاط كل الحجج التــي رفعــها الغوغاء ، ومن يرددها من ورائهم ، اتضح كل ذلك من خلال قوله « والله لا نجعل لأحد عذراً ولا نترك لهم حجة ، ولنصبرنَّ كما أُمرنا حتى نبلغ ما يريدون[2]» .

وستتضح هذه السياسة أكثر ، في أثناء الحديث عمّا تعرض له الخليفة عثمـان من مؤامرة كبرى كان لليهود فيها من خلال ابن سبأ يــد طولـــى وتدبـــير واســع وسيتأكد من خلال استعراض ما اتخذه الخليفة علي رضي الله عنه من إجراءات وتدابير فـــي فترة خلافته ؛ أن ما كان يقوم به الخليفة عثمان من العمل بسياسة الكف هو السياسة الموافقة لمصلحة الأمة ، في المراحل التي قادها فيها . وسيتضح ذلك أكثر أثنـــاء الحديث عن مقتل عثمان رضي الله عنه ، وبيعة علي رضي الله عنه ثم معركتي الجمل وصفيــن ومـــا أفرزتا من نتائج خطيرة تعطل فيهما الجهاد ، وتصدع الصف ، وتكـدرت النفوس وضعفت بعدهما السياسة الراشدة ، التي كانت تقود الأمـــة ، بشـــريعة الله تعـــالى وتؤدب بالسوط والدرة ، وكان السلاح مسلطاً على المشركين .

---

(١) ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ٣/ ١٠٤٦ .

(٢) الطبري ، تاريخ ، ٤/ ٣٣٢ . ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ٣/ ١٠٤٦ .

ومعلوم أن المقصود بالفتنة هو النزاع على كيفية قيادة الأمة ، ولم يكن النزاع على موقع القيادة ، إذ لا يوجد ما يثبت أن قادة موقعة الجمل رضي الله عنهم كانوا ينازعون الخليفة علي رضي الله عنه خلافته ، وكذلك في صفين ، وإنما الأمر كان مقصوراً على كيفية التعامل مع الغوغاء الخارجة عن قيم المسلمين وتقاليدهم في الاحتكام إلى الله ورسوله ﷺ في حالة النزاع ، والرضا بما يحكم به الشرع الذي يمثله الخليفة والقضاة والولاة في كل أقاليم الدولة الإسلامية ، ولكن لما كان الخوارج على عثمان رضي الله عنه ، يسيرون وراء كل ناعق ، وليس فيهم من أهل الفضل أو الدين أو السابقة أحد والحمد لله ، استغلوا حالة كانت تنفرد فيها الأمة المسلمة ، وهي أن المتهم بريء حتى تثبت إدانته ، وإن لهم حرية القول والعمل والمخاصمة والمعارضة ، دون أي خوف من عواقب ذلك ، فتمكنوا من نشر أباطيلهم والتلبيس على بعض المسلمين على أنهم إنما يطالبون ببعض حقوقهم ، وتساندهم في كل ذلك الخبرة اليهودية الطويلة والتي تمتد إلى أيام نبي الله موسى عليه السلام ، خبرة التآمر على الصلاح والرشد ، والعدل والأمن والخير ، خبرة هدم الطهر والعفاف ، وقتل الأنبياء ونبذ الأتقياء قال تعالى: ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾[1]وقال عز وجل: ﴿ وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسولُ الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ أفكلما جاءكم رسولٌ بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقاً تقتلون ﴾[3] فتمكن فيه هؤلاء المتآمرون الذين يسيرون بتخطيط اليهودي الماكر ابن سبأ و إيحاءاته التي يدغدغ

---

(١) سورة الصف ، الآية (٥) .

(٢) سورة الصف ، الآية (٦) .

(٣) سورة البقرة ، الآية (٨٧).

بها مشاعرهم ويهيّج كوامنهم كما يفعلون اليوم تماماً ، بقتل دعاة الأمن والسلام والعدل باسم الإرهاب ، وتشريد المؤمنين وسجنهم وتجويعهم ، باسم الحرية والتقدم والرقي ، وتدمير البلاد على أهلها ، وهدم البيوت واقتلاع الأشجار ، وقطع الجسور وإتلاف شبكات المياه والإنارة والطرق ، وهدم خيام البدو وتدمير المدارس والمساجد والمعامل والأسواق العامرة الآمنة ، بدعوى توفير الأمن ومتطلبات الناس بأباطيل لن تنتهي مادام هناك صراع بين الحق والباطل ، ولا أحسب أن هذا يخفى على أحد [1]، وإنما المراد التنبيه عليه هنا ، أنه مثلما نجحت الباطنية اليهودية في صدر الإسلام في ترويج أباطيلها إلى حين وتمكنت من استجرار بعض الغوغاء من العبيد ونُزّاع القبائل وبعض الأعراب والأغبياء والمخدوعين ، وعبيد الشهوات والمعاصي والآثام في ذلك الزمان ، نجحت في هذا العصر وبجنودها ذاتهم من تحطيم الخلافة الإسلامية في الأرض وتعطيل أحكام الشرع والعمل على طمس معالمه ، وإذلال أهله ، المنهج ذاته والجنود أنفسهم .

ولعمق التمويه والبعد الشاسع بين الغاية والوسيلة ، التي اتبعها الخوارج تداخلت كثير من الأمور، واختلطت الأباطيل بالحقائق ، حتى شكا كثير من الصحابة الكرام

عدم وضوح الرؤية : فيما يجري من أحداث ، وذلك لأنهم لا يعملون بالظن ولا يأخذون بالشبهات ، بل إنهم لم يكونوا يعتقدون أن هناك من يكذب ويغش ويتآمر ويثير الفتن ويبعث الضغائن .

ومن هنا كان **الزبير** ﷺ يُبدي استغرابه ويُظهر تعجبه لما يجري وهو أنه إذا اندفع إلى الأمام كما هو خُلُقه في الإقدام والتضحية ، يجد كثيراً من المعوقات وإذا أحجم وتأخر وليس هذا من شيمه وعاداته ، يرى ويسمع كثيراً من المحفزات

---

(١) ينظر : الخليفة ، يوسف بن تاشفين ، المقدمة ومأساة مدينة بربشتر الأندلسية عام ٤٥٦ هـ ١٠٦٤ م .

التي لا تسمح له بالابتعاد والعزلة ، لذلك كان يقول: « إنا نبصر ولا نبصر ما كلن أمر قط إلا علمت موضع قدمي فيه غير هذا الأمر ، فإني لا أدري أمقبل أنا فيه أم مدبر »[1] .

ويبدو أن أصحاب النبي ﷺ الذين عاشوا حياتهم في زمن رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، على مبادئ الصدق والوفاء والإيثار والتضحية ، ما كانوا يتصورون أنهم سيعايشون في أخر خلافة عثمان رضي الله عنه صنفاً من البشر ، يعتنق الفتنة ويدعو لها ، ويظلم ويفتري ويكذب ويشيع كل ذلك ، وفي الوقت ذاته يزعم أنه مصلح ويدعو إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، هذهِ الازدواجية الباطنية في الهدم والإفساد والبهتان ، والتظاهر بالبناء والإصلاح هي التي جعلت الزبير رضي الله عنه في مثل هذا الموقف المحير ، قال تعالى: ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ۞ الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون﴾[2].

فيظهر من مجريات أحداث الفتنة ، أن تصور الصحابة لم يكن واحداً لما يجري ، ولهذا اختلفت مواقفهم ، وكل منهم بنى موقفه على خلاصة ما توصل إليه من اجتهاد ، فمنهم من اعتزل كل شيء حتى موطنه الذي نشأ فيه ، وفي مقدمة هؤلاء يأتي محمد بن مسلمة الأنصاري رضي الله عنه ، الذي قال فيه حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: « ما أحد تدركه الفتنة إلا وأخافها عليه إلا محمد بن مسلمة فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول له:« لا تضرك الفتنة »[3] لهذا انطلق إلى ما توصل إليه من قناعة بكل عزيمة وإصرار وكذلك سعد بن أبي وقاص لم يتزحزح عن عزلته قيد أنملة ، لأنه

---

(1) الطبري ، تاريخ ، ٣/٣٧٦ .

(2) سورة البقرة ، الآيتان (١٤-١٥) .

(3) ابن عساكر، تاريخ دمشق ٥٥/٢٥١، ابن سعد،الطبقات الكبرى ، ٢/٢٣٥ ، البلاذري ، أنساب الأشراف ، ٣/٩ .

بنى موقفه على ما توصل إليه من علم من رسول الله ﷺ ، لذلك رد على ابنه كما سلف بأنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي »[1]

وأبو موسى الأشعري: اتخذ موقف العزلة من خلال فهمه للحديث الذي سمعه من رسول الله ﷺ بأنه: « ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم ... »[2] كما سبق هذا الحديث بتمامه . فلما رأى أن أحداث الفتنة لا تستقر على حال وصفها بقوله: « إن هذه الفتنة باقرة كداء البطن تجري بها الشمال والجنوب ، والصبا والدبور فتسكن أحياناً فلا يدرى من أين تؤتى ، تذر الحليم كابن أمس »[3] وهكذا من اعتزل الفتنة من الصحابة ، كلٌ بنى موقفه على ما قاده إليه فهمه وعلمه من تصور الأحداث ومجريات الأمور.

أما الخليفة علي رضي الله عنه فإنه لما حدّث نفسه بالاعتزال ، لم يجد لها المسوغ الذي يبيح له ذلك ، يتبين هذا من الحوار الذي دار بين علي وابنه الحسن رضي الله عنهما عندما خرج علي رضي الله عنه من المدينة قال الحسن:« فلو أقمت بدارك التي أنت بها ، فإني أخاف عليك أن تقتل بحال مضيعة لا ناصر لك ، فقال علي: اجلس فإنما تحن كما تحن الجارية فوالله لا أجلس في المدينة كالضبُع يستمتع اللدم – الضرب بشيء ثقيل يسمع وقعه – لقد ضربت هذا الأمر ظهره وبطنه ورأسه وعينه فما وجدت إلا السيف أو الكفر »[4] ولهذا خاض غمار الأحداث بناء على ما لديه من علم وتصور لها حتى أُخذت أكثر أحكام قتال أهل القبلة من فقهه وفتاويه . إذ أنه أول من سن أحكام هذا القتال .

وهناك من لم تبلغه كثيرٌ من تحذيرات رسول الله ﷺ ، من الإنسياق وراء الفتن فظن أن أي اعتزال عن الإشتراك فيما يجري من أحداث هو تقصير

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٩٦/٧ ،مسلم ، صحيح مسلم ، ك الزهد والرقائق ، ح (٥٢٦٦) .

(٢) البخاري، مع شرحه فتح الباري ، ك الفتن، باب إنه ستكون فتنة القاعد فبها خير من القائم ح(٧٠٨١).

(٣) الطبري ، تاريخ ٢٨٤/٤ .

(٤) ابن شبة ، تاريخ المدينة ، ٢/ ٢٧٣ .

سيحاسب عليه أمام الله تعالى ، فانخرط في أحداث الفتنة دون أي تردد لأن تصوره عنها أنه على حق ولا عذر له في التقصير عن مساندة الحق ولعل ذلك ينطبق على ما كان يقوله ويقوم به **قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري** ، الذي وقف مع الخليفة علي ﷺ في كل ما اتخذه من إجراءات ، وبلغ إيمانه بشرعية موقفه ، أنه يطلب الشهادة ويخرج حاسراً عن رأسه وهو ينشد :

أنا ابن سعد وأبي عبادة   والخزرجيون رجال سادة

ليس فراري بالوغى بعادة   إن الفرار للفتى قلادة

ياذا الجلال لقني الشهادة   شهادة تتبعها سعادة[١]

وآخرون من الصحابة كان لديهم علم عن رسول الله ﷺ ، ولكن ذلك مقرون بعلامات ، منهم من ينظر إلى ظهور تلك العلامات ، لكي يتم تصورهم ، وتتضح رؤيتهم .

وهذا ما جرى **لخزيمة بن ثابت الأنصاري** الذي شهد معركة الجمل في جنب الخليفة علي ﷺ ، لكن لم يشارك في القتال فحضرها «وهو لا يسلّ سيفاً»[٢] .

ولم يتغير موقف **خزيمة بن ثابت** ﷺ هذا في حرب صفين ، فهو لم يعتزل ولكنه لا يقاتل إلا عن بيّنة ، فكان يقول: أنا لا أضل بقتل عمار بن ياسر ، فإني

---

(١) ينظر : ابن الأثير ، الكامل ، ٣/ ١٠٥ .

(٢) ينظر : الحاكم ، المستدرك ، ٣/ ٣٨٥ ، ابن الأثير ، أُسد الغابة ٢/ ١١٩، وسمي خزيمة بذي الشهادتين ، لان رسول الله ﷺ جعل شهادته بشهادة رجلين ، وذلك أن رسول الله اشترى فرساً من أعرابي ، فجحده الأعرابي ، فشهد خزيمة ولم يكن حاضراً فقال رسول الله ﷺ: « ما حملك على الشهادة ولم تكن معنا حاضراً » قال: صدّقتك بما جئت به وعلمت أنك لا تقول إلا حقاً فقال ﷺ :« من شهد له خزيمة أو عليه فحسبه » وقيل أن ذلك الرجل كان يهودياً جاء يتقاضى رسول الله ﷺ ، فقال قد قضيتك فقال اليهودي : بيّنتك فشهد خزيمة. ينظر: الهندي كنز العمال ، ح (٣٧٠٣٦) و (٣٧٠٣٩) .

سمعت رسول الله ﷺ يقول: « تقتلك الفئة الباغية »[١] قال: فلما قُتل عمار بانت له الأمور واتضح له تصوره عن الأحداث فسلّ سيفه وقاتل حتى قتل رضي الله عنه»[٢]

ولم يكن **سهل بن حُنيف بن العكيم الحارثي الأنصاري** بعيداً عن هذا التصور ، إلا أنّ ثقته الكبرى بقيادة الخليفة علي رضي الله عنه جعلته ينطلق مشاركاً له فيما يتخذه من مواقف وقرارات ، وقد يكون لرابطة المؤاخاة[٣] بين علي وسهل رضي الله عنهما أثر في ذلك إذ أن كلاً منهما يعرف أخاه عن قرب ، ولم يعهد عنه إلا خيراً ، قد تكون وراء انقياد سهل لكل ما يوكل إليه ، على الرغم مما في نفسه من تساؤلات تضعف قوة الإقدام التي كان يتصف بها ويعهدها عنه الخليفة علي في بدر وأُحد وغيرهما والتي كانت وراء تمسكه به ، فقد استخلفه على المدينة حين خرج إلى البصرة وأسند إليه ولاية الشام في بداية خلافته ، لكنّ خيل الشام ردته عنها قبل أن يصل إليها ثم ولاه فارس لكنّ أهلها أخرجوه منها[٤] ، وشهد صفين مع الخليفة وكان على خيل أهل البصرة [٥].

إلا أنّ اللافت للنظر في أداء سهل بن حُنيف إنعدام الحماس والإقدام المعهود عنه ، وما ذلك إلا لميله للصلح الذي اتضح في خطبه ، التي ألقاها في مواقف يصعب فيها الاختيار . فلما عزم الخليفة على المسير إلى صفين استشار أصحابه فقام سهل بن حنيف فقال: « يا أمير المؤمنين نحن سلم لمن سالمت وحرب لمن حاربت ، ورأينا رأيك ، متى دعوتنا أجبناك ، ومتى أمرتنا أطعناك ، وليس منا

---

(١) البخاري ، التاريخ الصغير ، ٣/ ٣٨٥ ، ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ١٦/ ٣٦٩ ، الذهبي ، دول الإسلام ، ١/٩ .

(٢) البخاري ، التاريخ الصغير ، ٣/ ٣٨٥ ، ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ١٦/ ٣٦٩ ، الذهبي ، دول الإسلام ، ١/٩ .

(٣) الذهبي ، عهد الخلفاء الراشدون ، ٥٩٦ .

(٤) ينظر : ابن سعد ، الطبقات ، ٢/ ٢٤٧ ، ابن الأثير ، أسد الغابة ، ٢/ ٢٨٩ .

(٥) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ٣/ ٨٥ ، الطبري ، تاريخ ، ٥/ ١١ .

خلاف »[1] وهذا النص يوضح أن سهلاً لا يريد أن يتحمل أية مسؤولية في الإقــدام أو الإحجام وإنما الأمر للخليفة ، وهو سامع مطيع ، ولن يدعو للخلاف ، وهذا مــا يتفق مع ما اتخذه سهل من مواقف مسالمة ، عندما رُدّ عن ولاية الشام ، وعندمــا فشل في تثبيت ولايته على إقليم فارس حيث أُخرج منها [2]. والأكثر من ذلك تغلب مروان بن الحكم وأبو البختري بن هشام على المدينة ، وسهل فيها [3]. حتى خــوج منها مع قيس بن سعد إلى الخليفة في الكوفة [4].

هذه الأمور تدعو إلى التساؤل عما كان سهل يتخذه من مواقف وهل كان ذلــك لضعف سياسته وقدراته . والذي يمكن قوله هنا: إنه لم يُعهد عن سهل ضعف فــي سياسته أو إقدامه قبل الفتنة ، وإنما لم يكن يمتلك التصور الواضح ، ولم تتكشف له السبل بشكل قطعي ، فكان ما يتخذه من مواقف التقريب والتســديد تصب في هــذه الرؤية، فثقته بالخليفة علي وحبه له تزيد من تعلقه به ، ورؤيته لما يجري على أنه فتنة ، تنزع من حماسته وإقدامه الذي عهده فيه الخليفة. فكان ينشد السلامة بين هذه المواقف ، ولا أدل على ما يعبر عن هذه الرؤية مما أخرجه البخاري عن أبي وائل شقيق بن سلمة الأسدي قال: « **لما قدم سهل بن حنيف من صفين ،. أتينــــاه نســتخبره فقال: اتهموا الرأي فلقد رأيتني يوم أبي جندل [5] ـ أي يوم الحديبية ـ ولو أستطيع أن أرد على رسول الله ﷺ أمرا أمره لرددت ، والله ورسوله أعلم ، وما وضعنا أســـيافنا**

---

(١) ابن أعثم ، الفتوح ، ٢/ ٤٤٢ ، المنقري ، وقعة صفين ٩٣ .

(٢) ابن سعد ، الطبقات ، ٢/ ٢٤٧ ، ابن الأثير ، أسد الغابة ، ٢/ ٣٨٩ .

(٣) ابن العماد ، شذرات الذهب ، ١/ ٤٨ .

(٤) الطبري ، تاريخ ، ٥/ ٩٥ ، الذهبي ، سير أعلام النبلاء ٣/ ١١٠ .

(٥) أبو جندل: قيل اسمه العاص بن سهيل بن عمرو ، أسلم بمكة فطرحه أبوه في حديد فلمــا كــان يــوم الحديبية جاء يرسف في الحديد إلى رسول الله ﷺ ، فأخذه أبوه ثم أفلت فلحق بأبي بصير الثقفي ، ولــم يزل هو وأبوه بعد أن أسلم مجاهدين بالشام حتى ماتا . ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ٤/ ١٦٢١.
ابن الأثير ، أسد الغابة ٤/٤٠٤ .

على عواتقنا إلا أسهلن بنا إلى أمر نعرفه قبل هذا الأمر؛ ما نسد منها خُصمًا إلا تفجر علينا خُصم ، ما ندري كيف نأتي له »[1]، وسُئل أبو وائل شقيق بن سلمة هل شهدت صفين ؟ فقال نعم وسمعت سهل بن حنيف يقول: فذكر الحديث ، ثم قال: « **شهدت صفين وبئست صفين** »[2] مما ينبي عن الحال التي كان عليها كثير من المشاركين في صفين والأسى الذي كان يُحسّ به من كان يشارك سهل بن حنيف للحال الذي كانت تمر به الأمة آنذاك .

فمن هذه المواقف وهذا التصور يُستنتج أن أحداث صدر الإسلام ولا سيما موقعة صفين ، لم يشارك فيها أحد من الصحابة ، إلا بعد تفكير ودراسة وتروٍ وذلك لحرصهم على سلامة جهادهم مع رسول الله ﷺ وأنها لم تكن حرب منافسة على السلطة والخلافة ، وما يتبع ذلك من منافع ومصالح للفائزين بالنصر ، بل إنها كانت حرب مبادئ وقناعات بُنيت على أسس عميقة بعد اجتهاد طويل وتفكير دقيق بل كانت حرب مسؤولة ، كل يعمل على نجاة نفسه ، ولهذا والحمد لله لم يسمع فيها عن أي تجاوز أخلاقي أو عسكري ، كما يجري في حروب المصالح السياسية والاقتصادية ، أو العنصرية والإقليمية ، وما يتبعها من انتهاكات أخلاقية ، ونهب وسلب ، وتمثيل في القتلى وتشف في الأسرى والضعفاء والأطفال ...

وهذا ما يفسر التفاوت في مواقف الصحابة من تلك الأحداث ، إذ كان كل منهم يراها من الزاوية التي توصل إليها اجتهاده ، فمن برئت ذاته من أهوائها ورأى الإقدام أقدم وقاتل وقَتل وقُتل ، وهو لا يبتغي من ذلك إلا رضا الله تعالى ونصرة الحق الذي آمن به من خلال تصوره له ، ومن لم يستطع أن يُبصر خفايا تلك المحنة في ذاته ، فهو لن يُبصرها في ساحة القتال ، فلا يرى إلا الإحجام عن المشاركة أو

---

(١) البخاري ، مع شرحه فتح الباري ، ك الفتن ، ح (٤١٨٩) ، الساعاتي ، الفتح الرباني ، ٧/ ٥٢٣ .
ابن أبي شيبة ، المصنف ، ٨/ ٧٢٧ ، البلاذري ، أنساب الأشراف ٣/ ٨٥ .

(٢) البخاري ، فتح الباري ، ك الاعتصام بالكتاب والسنة ح (٧٠٣٨) .

الاعتزال ، ومنهم من كان يتصور الجمع بين الحياة مع الجماعة فيحقق الطاعة لولي الأمر ، وبين السلامة من أوزار الفتن ، فيتمنى العافية له وللمسلمين [١].

ولعل من هذا الصنف أبا مسعود البدري عقبة بن عمرو بن ثعلبة الحارثي الأنصاري الذي كان حريصاً على التعاون مع الخليفة علي رضي الله عنه ، لكنه لم يكن يرى قتال المسلمين ، تجلى موقفه هذا في خُطبته في الكوفة ، عندما استخلفه أمير المؤمنين علي رضي الله عنه على الكوفة لمّا سار إلى صفين ، ويبدو أن بعض أهل الكوفة تخلف عن المسير مع الخليفة ، وأن أبا مسعود كان على علم بتخلف هؤلاء فأعطاهم الأمان وقال: « أيها الناس اخرجوا فمن خرج فهو آمن ، إنا والله نعلم أن منكم الكاره لهذا الوجه والمتثاقل عنه ، إنا والله ما نعدها عافية أن يلتقي هذان الغاران يتقي أحدهما صاحبه ولكننا نعدها عافية أن يصلح الله أُمة محمد صلى الله عليه وسلم ويجمع أُلفتها »[٢].

فإذا كان هذا هو تصور نائب الخليفة ، للمسير إلى صفين ، وأن أُمنيته أن يصلح الله بين أهل الشام وأهل العراق ، وأنه لا يرى معاقبة من تخلف عن المسير دون إذن من الخليفة أو عذر رسمي فإن هذا يعني أن تصوره مخالف لكل المنهجية المتبعة لحل المسائل العالقة بالقوة ، وأنه يشارك الخليفة عثمان في رؤيته للتعامل مع المشاكل الداخلية بسياسة الكف ، والاحتكام إلى العقل والحكمة ، وضبط اليد واللسان ، فبدلاً من أن يحمل أبو مسعود البدري على المتخلفين عن أمير المؤمنين علي ، حمل على الغوغاء الذين خرجوا على الخليفة عثمان فقال: « إنهم لم يدعوه وذنبه حتى يكون الله يعذبه أو يعفو عنه ، ولم يدركوا الذي طلبوه ، إذ حسدوه ما آتاه الله إياه »[٣]. وبالطبع فإن ما قام به أبو مسعود من إقرار المتخلفين ، وتوجيه

---

(١) ينظر: الخليفة ، الأنصار في العصر الراشدي ، ٢٣١ .

(٢) ابن أبي شيبة ، المصنف ، ٨/ ٦٨٣ .

(٣) الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ٢/ ٤٩٥ .

النقد إلى الخارجين على الخليفة عثمان ، الذين أعلن أهل الشام أن حربهم التي يخوضونها في صفين هي ضدهم ، جعله في موقف حرج وعرّضه للعزل بعد عودة الخليفة لهذه الأسباب ولأنه « كان لا يرى الحرب »[١].

فترك عمله وعزم على المسير إلى المدينة ، لكنه بقي متمسكاً بالجماعة داعياً إليها. وحين عزم على الرحيل قال له ناس أوصنا، قال: « **عليكم بالجماعة ، فإن الله لن يجمع الأمة على ضلالة** »[٢] وأعادوا عليه فأعاد عليهم وصيته ، بالتمسك بالجماعة ووحدة الصف ، ولم يكن أبو مسعود البدري شاذاً في موقفه هذا ، وإنما يكاد أن يكون هذا هو خط الأغلبية ، في جندي الشام والعراق ، وما المطاولة التي تمت قُبيل موقعة صفين ، وكثرة الوفود والسفارات ، إلا مؤشراً على عمق التداخل في أحداث الفتنة ، ودليلاً على الرغبة في تجنب المواجهة ، والعمل على النجاة من أخطارها ، وأهوال الإنسياق وراء دعاتها .

وممن يشارك أبا مسعود البدري رؤيته وتصوره لما يجري ، أبو أيوب خالد بن زيد بن كليب النجاري الخزرجي ،[٣] فهو لم يشارك في صفين ، بينما شارك في الحرب ضد الخوارج ، عن شعبة قال: قلت للحجاج بن عيينة: أشَهد أبو أيوب صفين ؟ قال: « لا ولكن شهد معه قتال أهل النهروان »[٤]وكان « ولاه الخليفة علي رضي الله عنه على المدينة ، فاستخلف رجلاً من الأنصار عليها حتى قتل علي ، ولم يشهد معه صفين ولكنه شهد يوم النهر »[٥] ولما خرج بُسر بن أبي أرطأة في جيش من دمشق ، خرج أبو أيوب من المدينة

(١) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ٣/ ١٠٥ .

(٢) ابن أبي شيبة ، المصنف ، ٨/ ٦٨٣ ، الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ٢/ ٤٩٥ .

(٣) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ٢/ ٨٥ .

(٤) الخطيب ، تاريخ بغداد ، ١/ ١٦٤ .

(٥) بدران ، تهذيب تاريخ دمشق ، ٥/ ٤٤ .

« هاربا خوفا على نفسه »[1]. وهذا ما يدعو إلى التساؤل عن كفاءة أبي أيوب فالمعروف عنه أنه رجل جهاد وغزو« وأنه لم يتخلف عن غزاة إلا هو في أخرى إلا عاما واحدا ، فإنه استعمل على الجيش رجل شاب ، فقعد ذلك العام فجعل بعد ذلك يتلهف ويقول ما علي من استعمل علي يكررها »[2] وقال: قال الله تعالى: ﴿ إنفروا خفافا وثقالا ﴾ [3] فلا أجدني إلا خفيفا أو ثقيلا فلزم الجهاد ، فإذا كانت هذه سيرة أبي أيوب في ممارسة الجهاد ، فكيف انسحب من أمام بسر بهذه السهولة ؟ وأين إعداده واليا للمدينة في مرحلة تموج بالصراع ؟ وأين محاولاته لحمايتها ؟ فالذي يبدو أن انسحاب أبي أيوب لم يكن عجزا أو هلعا ، وأن ابن أعثم أو الواقدي الذي روى عنه ابن أعثم ، لم يكن منصفا عندما صور خروج أبي أيوب من المدينة « خوفا على نفسه » وأن هذا القول لم يعبر عن الحدث إلا من زاوية واحدة ، ولم ينظر إلى أسباب ذلك وإلى تصور أبي أيوب لأحداث الفتنة فالذي أخرجه من المدينة هو اعتقاده وتصوره للقتال في تلك المرحلة ، وخوفه من إراقة دماء بريئة ، وهذا ما يفسر عدم مشاركته في حرب صفين ، فلو كان يمتلك قناعة وتصورا للمواجهة لما انسحب من أمام بسر الذي لا يقاس به في كل الموازين .

ومن هنا يمكن القول : إن تصور الصحابة لم يكن موحدا لأحداث الفتنة وإنما مواقفهم مبنية على ما يوصلهم إليه اجتهادهم ، ومن ثم فإن إصدار الأحكام على مواقفهم في الفتنة ليس بهذه السهولة ، وأن كل من وقع في تخطئة الصحابة سيكون متسرعا وغير دقيق وأن الفتنة أوسع من أن يحاط بها في دراسة تقتصر على جانب واحد ، وأنه لا يمكن إصدار حكم واحد على جميع الصحابة ، إذ أن مواقفهم في تلك المرحلة تستند إلى فهمهم للأحداث وتصورهم لأسبابها ونتائجها .

---

(١) ابن أعثم ، ألفتوح ، ٤/ ٥٧ .

(٢) بدران ، تهذيب تاريخ دمشق ، ٥/ ٤٦ .

(٣) سورة التوبة ، من الآية (٤١) .

وهذا هو الذي يُفسر اعتزال بعضهم ، وإقدام بعض ، وتردد آخرين .

ويكاد ينفرد عن هذه الأصناف الثلاثة ، حذيفة بن اليمان لما يمتلك من رؤية في مسائل الفتن مبنية على أصول علمية استقاها من رسول الله ﷺ ، وقد ظهر صدقها ودقتها ، فيما كان يُدلي به من توصيات ونصائح وإجابات ، عمّا يوجه إليه من أسئلة في هذا الشأن .

وقد تم استعراض بعضها في هذا التحليل عن تصور الصحابة للفتنة وسيتضح ما يؤكد ذلك أيضاً عند الحديث عن مقتل عثمان .

وقد كان من سياسة حذيفة أنّه ينهى عن مخالطة السلاطين والأمراء والتهافت على نيل مودتهم ،واستجلاب رضاهم ، لما يجرّ ذلك من تعلق بالدنيا أو التنافس بين أهل الأهواء والتسبب في شحن صدور الأمراء على الأبرياء من رعاياهم وبالتالي إفساد النفوس ، وإضعاف الذمم ، وإثارة القلاقل ، فمن نصائحه في هذا الباب قوله: « إتقوا أبواب الأمراء فإنها مواقف الفتن ألا إنّ الفتنة شبيهة مقبلة وتبين مدبرة »[1] أي أن ما يلتبس على الناس في بداية الفتن ، يظهر بعد نهايتها مما يوجب التفكير في العواقب والتروي في الأمور .

---

(١) ابن أبي شيبة ، المصنف ، ك الفتن ، ح ٨/ ٦٩٨ .

كيفية التعامل مع الأمراء الظلمة

وقبل الإنتقال من هذا التحليل عن تصور الصحابة للفتنة ، لعله من المفيد الإشارة إلى بعض الأحاديث النبوية ، التي تشير إلى أن بعض الصحابة ﷺ سأل رسول الله ﷺ عن كيفية التعامل مع بعض الأمراء الذين يظلمون ولا يعدلون ويكذبون ولا يصدقون ، فيكونون سببا في خروج الناس عن طاعتهم ، مما يقود إلى الفتن ، ومن ذلك ما رواه أنس بن مالك: « أن معاذا قال: يا رسول الله أرأيت إن كان علينا أمراء لا يستنون بسنتك ، ولا يأخذون بأمرك ، فما تأمرني في أمرهم ؟ فقال رسول الله ﷺ: لا طاعة لمن لم يطع الله عزوجل »[١] وقريبا من هذا ما رواه النعمان بن بشير قال: « خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن في المسجد بعد صلاة العشاء ، فرفع بصره إلى السماء ، ثم خفضه حتى ظننا أنه قد حدث في السماء شيء فقال: ألا إنه سيكون بعدي أمراء يكذبون ويظلمون فمن صدقهم بكذبهم ومالأهم على ظلمهم فليس مني ولا أنا منه ، ومن لم يصدقهم بكذبهم ، ولم يمالئهم على ظلمهم ، فهو مني وأنا منه ، ألا وإن دم المسلم كفارة ، ألا وإن سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر هن الباقيات الصالحات »[٢].

فيستنتج من هذه الأحاديث أن رسول الله ﷺ ذم الأمراء الظلمة ، وحذر من ولائهم وطاعتهم ، بل إنه تبرأ منهم ، لكنه لم يدع إلى محاربتهم والخروج عليهم لما يجر ذلك من فساد أكبر ، وظلم أوسع ، وفتن لا تنقطع ، قد تؤدي إلى ضياع العباد وخراب البلاد .

لذلك لم يكن الصحابة ، يقرون الخروج على ولاة الأمر ، بل يحذرون من

---

(١) المسند الجامع ، ك الإمارة ، ح ٢/ ١١١١ ، ١٥/ ١١٩٠١ .

(٢) الساعاتي ، الفتح الرباني ، ك الإمارة ، ح (٥٧) ٢٣/ ٢٧ .

ذلك ويمقتونه ؛ فعن حذيفة بن اليمان قال: « لا يمشين رجل منكم شبرا إلى ذي سلطان ليذله ، فلا والله ، لا يزال قوم أذلوا السلطان ، أذلاء إلى يوم القيامة »[1] وعن الزبير بن عدي قال: أتينا أنس بن مالك فشكونا إليه ما يلقونه من الحجاج فقال: « إصبروا فإنه لا يأتي عليكم ، زمان إلا والذي بعده أشر منه حتى تلقوا ربكم سمعته من نبيكم »[2] .

ويوضح هذه المسألة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بقوله: « لا يأتي عليكم زمان إلا وهو أشر مما قبله ، أما إني لا أعني أميرا خيرا من أمير ولا عاما خيرا من عام ولكن علماؤكم وفقهاؤكم ، يذهبون ثم لا تجدون منهم خلفا ، ويجيء قوم يفتون برأيهم »[3].

ومن هنا يتضح أن أسباب الفتن كثيرة ، فقد تكون سياسية ، وقد تكون بسبب الجهل في أحكام الدين، لقلة العلماء، وجهل الأمراء، وهذا ما حصل في الفتنة إذ أن أكثر الخوارج على الخليفة عثمان رضي الله عنه كانوا من الغوغاء والجهلة والسفهاء والعبيد لم تكن لهم غاية ولا هدف يأتي عليهم بخير ، وإنما تبعوا دعاة الفتنة المغرضين دون أي ترو أو مشاورة لأهل العلم والدين في أمصارهم ، ولو استفتوا العلماء لما جرؤا على الخروج والخوض في الفتنة ، ولا سيما أن الصحابة رضي الله عنهم ، كانوا يحفظون عن رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة ، يدعوهم فيها إلى الصبر والإحتساب والسمع والطاعة ، فمما قاله ﷺ لعبادة بن الصامت رضي الله عنه : « يا عبادة اسمع وأطع في عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك ، وأثرة عليك ، وإن أكلوا مالك وضربوا ظهرك إلا أن تكون معصية الله بواحا »[4] .

---

(١) ابن أبي شيبة ، المصنف ، ٨/ ٦٤٥ ، الهندي ، كنز العمال ، ح (١٤٣٧١) .

(٢) البخاري، مع شرحه فتح الباري، ك الفتن ، باب لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه، ح (٧٠٦٨) .

(٣) ابن ، حجر ، فتح الباري ، ١٣/ ٢٤ .

(٤) الهندي ، كنز العمال ، ك أحكام البيعة ، ح (٤٦٨) ١/ ١٠٤ .

فهل أمر عثمان رضي الله عنه بغير طاعة الله تعالى ؟ هل كلفهم ما لا يطيقون ؟ هل أخذ من حقوقهم شيئا ؛ أو أكل من أموالهم ، أم جلد ظهورهم ؟ ، كل ذلك لم يفعله الخليفة ، وحاشاه من ذلك ، وكل ما يروج في كتب التاريخ في هذا الباب ما هو إلا أباطيل ، اختلقها الخوارج عليه وأشاعوها افتراء عليه ، ثم رددتها الغوغاء من بعدهم ، فلم يجنوا من سعيهم في الفتنة إلا الخزي في الدنيا ، وجلب الدمار على الأمة وسفك الدماء ، وتعطيل الفتوح ، وتكدير القلوب ، ولعذاب الآخرة أكبر والله يعلم ما يصنعون .

وكان أنس بن مالك رضي الله عنه يحذر من الفتن السياسية التي لا تجلب إلا الشر على العباد والبلاد فيقول: « نهانا كبراؤنا من أصحاب محمد ﷺ قال: لا تسبوا أمراءكم، ولا تغشوهم ولا تعصوهم ، واتقوا الله واصبروا ، فإن الأمر قريب »[1] .

ومن المعلوم أن الأمراء في صدر الإسلام ، كانوا يحكمون بشرع الله تعالى ولم يكونوا علمانيين ولا ملحدين ، وإنما كانوا مؤمنين .

(١) الهندي ، كنز العمال ، الأمارة ، ح (١٤٣٧٠) .

خلاصة تصور الصحابة للفتنة

ومما سبق يمكن القول: إن الصحابة رضي الله عنهم كانوا في منتهى الدقة والصدق مع أنفسهم ومع أمتهم عندما اختاروا مواقعهم في العزلة ، أو الإقتصار على مساعي الإصلاح والسعي لجمع الكلمة ، أو الذين خاضوا غمار الأحداث التي جرت في نهاية العصر الراشدي ، فلم تكن المواقف التي وقفوها في تلك المرحلة منبثقة من وراء شهوات ورغبات ، أو لتحقيق أهداف ومطالب دنيوية ، وإنما اتخذت بعد تشاور واستخارة لله تعالى وتنقية للقلوب والضمائر ، تحت ظلال من استشعار الرقابة الإلهية والمسؤولية الربانية ، في أجواء من التنافس على التمسك بهدي النبي ﷺ والاحتجاج بأحاديثه ، فلم يتزعزعوا عن مواقفهم ولم يغيروا مواقعهم لأنهم اتخذوا تلك المواقف واختاروا تلك المواقع بعد دراسة وترو وإمعان نظر عميق .

فكانت مواقفهم ، بين الصحيح والأصح ، والحسن والأحسن ، كل له حجته وعذره ودليله ، الذي يخشى إن خالفه أن تنقطع به السبل ، ويفقد البرهان والحجة التي لا تشوبها شائبة بين يدي الله تعالى الذي لا يقبل إلا طيبا ، فكان إعدادهم لذلك اليوم وتنافسهم للفوز في ذلك اللقاء . أما ما يردده خوالف الغوغاء الذين خلفوا من بعدهم فإنه مبني على الأكاذيب والافتراءات ، تنبع من نفوس مريضة وأمزجة غليظة لا تعرف معروفا ولا تنكر منكرا ولا ترى إلا ما تحت أقدامها ، لا تمتلك الإيمان الذي يعصمها عن الكذب ، ولا المكارم التي تقودها إلى المواقف السامية .

قياساتهم فاسدة ، ومناظراتهم باطلة ، لأنها تنطلق من تصوراتهم التي لا تتجاوز شهواتهم ، فتأتي غريبة عن قيم الصالحين ، ومطالب المتقين ، تتراوح بين الكذب والزور ، والشك والبهتان ، تعبر عن تطلعات الأراذل من الناس ، والجهلة

من البشر ، والأغبياء من المَتكلمين فتدور محاورها ، بين العطاء والحرمان من متاع الدنيا ، وبين التقديم والتأخير في المناصب والمواقع الدنيوية ، التي سعر لهيبها مجوس هذه الأمة من الخوارج عن طاعة الخلفاء الهداة المهديين ، لعلهم يصلون إلى بعضها ، فيوسعون أملاكهم ، ويملأون بطونهم ويشبعون غرائزهم بالسحت والحرام ، ولكن لله در الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله ، فحرم أعداء الصحابة في هذه الدنيا من كل فضيلة ففقدوا طمأنينة المؤمنين وأخوة المسلمين يناطحون حقائق القرآن بقرون من طين ، وصروحا من حقائق الإنتاج الحضاري والعطاء الإنساني الذي أنجزه جيل الصحابة ، بافتراءات المبطلين ودسائس الباطنيين ومكر اليهود والصليبيين . فترى وتسمع من الأشقياء منهم ، من ينصب نفسه نائبا عن هذا الصحابي وخصما لذاك ، فيصوب هذا ويخطئ الآخر ، ويبرئ هذا ويتهم ذاك يكذب الله تعالى في ثنائه على أصحاب نبيه ﷺ ، ويرد أحاديث الرسول ﷺ التي يفوح مسكها في كتب الصحاح بالثناء العاطر على الصحابة الكرام ، ولعل رسول الله ﷺ لا يسلم من أباطيلهم وافتراءاتهم ، ويقدمون على ذلك حججهم المزورة ، وأقوالهم المنتنة بالإفك والبهتان ، والرجس ، والظلم والشرك والعدوان . متناسين أن الصحابة كلهم عدول بتعديل الله ورسوله ﷺ فهم وإن وقع بينهم الخلاف ، فإنه لم يخرجهم عن أخلاقهم وضوابط إيمانهم ، وبقي نقدهم لبعضهم حول معاني رحم الله امرأ قال خيرا فغنم أو سكت فسلم ، فلا انتقاص للكرامة ولا ثلم للأعراض ولا طمس للحقائق ، ويشهد بعضهم لبعض بالفضائل والسابقة والقرب من رسول الله ﷺ ، تشفع لهم نواياهم السليمة وألسنتهم الصادقة وقد شهد النبي ﷺ بالجنة ، لمن هو دون الصحابة ولمن وقع متعمدا في أكثر مما وقع فيه بعض الصحابة متأولين ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « يضحك الله لرجلين يقتل أحدهما الآخر ، كلاهما يدخل الجنة ، قالوا كيف يا

رسول الله ؟ قال: يُقتل هذا فيلج الجنة ، ثم يتوب الله على الآخر ، فيهديه إلى الإسلام ، ثم يجاهد في سبيل الله فيُستشهد »[1] فإذا كان هذا في شأن القتلة إذا تابوا فكيف بالتائبين إذا اجتهدوا وعملوا جادين بما يرونه يخدم دينهم ، وينصر عقيدتهم فلا شك أن اجتهادهم مقبول ، وسعيهم مشكور ، وأنهم هم الفائزون بأعظم الأجور من الله تعالى ، وأن أعداءهم من المجوس واليهود والصليبيين هم الأخسرون . قال تعالى: ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون ﴾[2] .

(١) مسلم ، ك الإمارة ، باب بيان الرجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة ، ح (٣٥٠٤) .

(٢) سورة السجدة ، الآية (١٨) .

الفَصْلُ الثَّانِي

نجاة الصحابة من الفتنة بعد وفاة النبي ﷺ

إن أشد محنة وأعظم مصيبة مرت بالمسلمين ، بعد هجرتهم وتأسيس دولتـــهم فقدان قائدهم الذي استولى حبه على سويداء قلوبهم ، فـــتركوا الأهــل والعشـــيرة والوطن والمال والمقام والدعة والراحة ، والآمال والأماني وزهرةالدنيـــا ، ومـــا يركن إليه القلب وتميل إليه النفس ويهواه البصر ، خلفوا كل ذلك وراءهم ظـــهرياً وأقبلوا بكل أحاسيسهم ومشاعرهم وأرواحهم وأجسادهم ، إلى ما يبهر العقل ويأسر القلب من جمال الطلقة وبهاء المحيا ، وفصاحة المنطق وانوار الـــهدي وعضمـــة المقصد وسمو المطلب ، وسماحة الأداء ، وعذوبة التبليغ ، وكرم الجـــزاء وســـعة العطاء وطيب المعاد ، لمن آمن وصدق وصبر واحتسب ، وهول الوعيـــد وســـوء المصير لمن خالف وكذب . هذا الذي ما ساء قط، وما توانى أو اختلف عن مكرمة قط ، ومن جعل الله له الحسنى فقد ألف الله به القلوب ونور به العقول ، وأحيا بـــه الأمة بعد موتتها وأيقظها من رقدتها ، وانتشلها من جاهليتها ، وهيأ لها كل ســـبل القوة والفضيلة والبقاء ، فأصبح للقلوب طبـــاً ودواء ، للأبصـــار نـــوراً وضيـــاء وللأبدان عافية وشفاء. هذا الرسول ﷺ الذي مهما حاول البشر التحدث عن شمائله وخصائصه لعادت إليهم كلمات حسيره ، وتعابيرهم كليلة ، لأهنا تتضاءل أمام آيات القرآن الكريم ، الذي مدح هذا النبيﷺ وأثنى عليه .

وبعدَ أن حقق الله به للأمة كل أمانيها ولأصحابه كل آمالـــهم ، فـــأصبح هـــو المؤنس والمواسي والمعيل والمعين بعد الله تعالى .

وبعد كل هذا يصبح الصحابة على يوم ، هو أمرّ يوم يواجهونه ، جلب لـــهم أقسى نبأ ، تصدعت له القلوب وطاشت له العقول ، ذلك نبأ وفاة رسول الله ﷺ.

قـــال أنس بن مالك رضي الله عنه : « لقد رأيته يوم دخل المدينة ، ويوم قبض فلـــم أرَ

يومين مشبها بهما »[1] أي في السرور والفرح والإشراف يوم قدومه ، والحزن والكمد والألم والظلمة يوم وفاته ﷺ .

فأصبحوا أمام الواقع وجهاً لوجه ، فقد غاب وجه رسول الله ﷺ عنهم وانقطع الوحي الذي كان يأتيهم بحلٍ لكل معضلة ، وجوابٍ فصل لكل مسألة وخضعوا لامتحان لا ميثيل له ، في مسألة لم يسبق لهم أن عالجوا مثلها في زمان رسول الله ﷺ وهي مسألة الخلافة ، التي بلغ من أهميتها أن رسول الله جعل من نجا منها ومن تبعاتها فقد نجاً وذلك في قوله ﷺ: « من نجا من ثلاث فقد نجا قالوا: ماذا يا رسول الله ؟ قال: موتي وقتل خليفة مصطبر بالحق يعطيه ، والدجال »[2] .

فبعد وفاة رسول الله ﷺ ، أصبح الصحابة أمام أول محك خطير بكل أبعاده عدّه الرسول ﷺ فتنة ، من وفق فيها وسدد ونزع ولاء القبيلة ووالى الله ورسوله ونزع هوى النفس وحب الدنيا ، وآثر الله ورسوله والدار الآخرة ، فقد فاز ونجا من الهلاك في أول اختبار عملي شامل لكل أفراد المجتمع ، عنوانه اختيار خليفة رسول الله ﷺ .

الخلافة:

قال ابن حزم: ومعنى الخليفة في اللغة: هو الذي يستخلفه ؛ لا الذي يخلفه دون أن يستخلفه هو لا يجوز غير هذا البتة في اللغة ، بلا خلاف تقول: استخلاف فلان فلاناً يستخلفه فهو خليفته ومستخلفه ، فإن قام دون أن يستخلفه هو ، لم يقل إلا خلاف فلان فلاناً فهو خالف[3] . ولما كانت الخلافة هي نظام حكم المسلمين فقد استمدت أصولها من القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ ، ويطلق على منصب

---

(١) ابن سعد ، الطبقات ، ١/ ١١٢ ، الصالحي ، سبل الهدى ، ٣/ ٣٨٥.

(٢) الحاكم ، المستدرك ، ٣/ ١٠١ ، ابن شبه ، تاريخ المدينة ، ح ٢/ ١٨٨٢ .

(٣) ينظر : ابن حزم ، الفصل ، ٤/ ١٠٧ .

الخلافة أحياناً اسم الإمامة أو الإمارة ، وقد أجمع المسلمون على وجوب الخلافة وأن تعيين الخليفة فرض على المسلمين ليرعى شؤون الأمة ، ويقيم الحدود ويعمل على نشر الدعوة الإسلامية وعلى حماية الدين والأمة بالجهاد ، وعلى تطبيق الشريعة وحماية حقوق الناس ، ورفع المظالم وتوفير الحاجات الضرورية لكل فرد ، وهذا ثابت بالقرآن والسنة والإجماع[1] قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمرِ منكم ﴾[2] وقال ﷻ : ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلّك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾[3] .

وقال ﷺ : « من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له ومن مات وليس في عنقه بيعة ، مات ميتة جاهلية »[4] .

أما الإجماع فهو ما قام به الصحابة ﷺ ، من الإتفاق على بيعة أبي بكر رضي الله عنه خليفة عن صاحب الشرع ﷺ في حراسة الدين وسياسة الدنيا [5]، وما عمل به المسلمون على مر العصور إلى أن تم سقوط الخلافة عام ١٩٢٤م بتعاون العلمانيين مع اليهود والصليبيين ، فانفرط بذلك عقد الوحدة الإسلامية التي نسأل الله تعالى أن يعيدها على الأمة بكرمه ورحمته .

---

(١) ينظر : الصلابي ، أبو بكر الصديق ، ١٦٠ ، النبراوي ، عصر الخلفاء الراشدين ، ٢٢.

(٢) سورة النساء ، من الآية (٥٩) .

(٣) سورة ص ، من الآية (٢٦) .

(٤) مسلم صحيح مسلم ، ك الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن ،ح (٣٤٤١).

(٥) ابن خلدون ، المقدمة ، ١٩١ .

خلافة أبي بكر رضي الله عنه

إن اتفاق المهاجرين والأنصار على اختيار أبي بكر الصديق خليفة لرسول الله ﷺ ، أنقذت المجتمع الإسلامي من تمزق محتم، وخطر ماحق، يتمثلان في خطورة انقسام المجتمع الإسلامي إلى مهاجرين وأنصار ، والذي لم يحصل في يـــوم مــن الأيام ، وخطر المرتدين الذين كـــانوا يحيطـــون بالمســلمين تســاندهم اليهوديـــة والنصرانية والنفاق ، الذي اشرأب بعد وفاة رسول الله ، وقد كان اختيـــار خليفـــة لرسول الله ﷺ مهمة شاقة ، ومخاضاً عسيراً ، لولا اعتصام الصحابـــة بكتابـــهم وسنة نبيهم ، وما فيها من إشارات وإرشادات انطبقت بمجملها علـــى أبـــي بكـــر وتاريخه الإيماني ، وارتضاها الصحابة وأقروها وقبلوها ، يساعدهم على تحقيـــق ذلك شدة تواضع الصديق ، ومحبته للمسلمين ومحبتهم له وأنه لا خصومة له مـــع أحد منهم ، فضلاً عن زهده وسنّه وسابقته وعلمه ، وأنه كـــان أقـــرب الصحابـــة لرسول الله ﷺ ، وأكثرهم ملازمة له، فهو لم يفارقه في مكة ولا يوم الهجرة ، ولا في المدينة ، مما مكنه من الاقتباس من هدي النبوة ، لمواجهة المعضلات ، وتفريج الملمّات وسياسة البلاد وقيادة العباد ، على المنهج الذي ارتضاه لـــها الله ســبحانه وتعالى .

وبذلك كان أكثر الصحابة أهليه للخلافة ، والسير بالمسلمين على خطى رسول الله وسَمْته ، ومما يؤهل أبو بكر للخلافة سوى قربه من رسول الله وعميق فهمـــه وتلقيه عنه ، ما جاء في بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية من إرشـــاد إلـــى مواصفات وافقها أبو بكر رضي الله عنه ، بسيرته وشخصيته ، فاق بها غيره من الصحابـــة رضي الله عنهم ، وجعلته في مقدمة المرشحين لمنصب الخلافة دون منازع .

الآيات القرآنية التي تشير إلى مواصفات تؤهل من اتصف بها لقيادة المؤمنين

قال ابن تيمية: وقد ثبتت خلافة أبي بكر رضي الله عنه « بالكتاب والسنة والإجماع » وتم ذلك بالإختيار ، وهو قول الجمهور ، وهناك أقوال أخرى [1]. **والتحقيق في خلافة أبي بكر أنها انعقدت باختيار الصحابة ومبايعتهم له .**

وأن النبي ﷺ أخبر بوقوعها ، على سبيل الحمد لها والرضا بها ، وأنه أمر بطاعته وتفويض الأمر إليه ، وأنه دلّ الأمة وأرشدهم إلى بيعته .

فهذه الأوجه الثلاثة ، الخبر ، والأمر ، والإرشاد : ثابت من النبي ﷺ [2]. ثم قال: هذه الوجوه الثلاثة الثابتة بالسُنة دلّ عليها القرآن الكريم .

فالأول: في قوله تعالى: ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض ﴾[3] وهذه منطبقة على خلافة الصديق والخلفاء الراشدين من بعده .

وقوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ﴾[4] وهذه الصفات المذكورة في هذه الآية ، تنطبق على أبي بكر وجيوشه التي حاربت الذين ارتدوا عن دين الله بعد وفاة الرسول ﷺ ، حتى ظهر الحق وزهق الباطل ، فصار ذلك تصديقاً لوعد الله بعد وفاة نبيه ﷺ ، ودلالة على صحة خلافة الصديق .

---

(١) ينظر: ابن تيمية ، الخلافة والملك ، ٥٥ . والقول الثاني بالنص الخفي وهو قول: طوائف من أهل الحديث والمتكلمين ، ويروى عن الحسن البصري ، وبعض أهل هذا القول يقولون **بالنص الجلي** ، قال ابن حزم وبهذا نقول . ينظر : ابن حزم ، الفصل ، ٤/ ١٠٧ .

(٢) المصدر نفسه . وذكر ابن تيميه ، الأحاديث التي تدل على خلافته وفيها الدليل على الخبر والأمر والإرشاد . وستذكر في مواضعها من البحث .

(٣) سورة النور ، الآية ، (٥٥) .

(٤) سورة المائدة ، الآية ، (٥٤) .

قال تعالى: ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين ﴾[١]

وهذا ما حصل من قيادة أبي بكر رضي الله عنه للصحابة ومن تبعهم لجهاد المرتدين ومن ساندهم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والثاني: كقوله تعالى: ﴿ ستدعون إلى قوم أُولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون ﴾[٢] وقد جاهد أبو بكر والصحابة رضي الله عنهم ، عتاة المرتدين ثم الفرس والروم .

والثالث: كقوله تعالى: ﴿ وسيجنبها الأتقى ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ﴾[٤] ودلالة هذه الآية أن أبا بكر « صدّيق » فهو أولى بخلافة النبي صلى الله عليه وسلم .

وهناك آيات أخرى يستدل بها على أولوية الصدّيق بالخلافة كقوله تعالى: ﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم ﴾[٥] .

ووجه الدلالة في هذه الآية قوله تعالى: ﴿ثاني اثنين إذ هما في الغار﴾ أن الخليفة من بعده أبو بكر لأن الخليفة لا يكون إلا ثانياً ، وإنما استحق أن يقال ثاني اثنين لقيامه بعد النبي صلى الله عليه وسلم بالأمر كقيام النبي صلى الله عليه وسلم به أولاً ، وذلك أنه لما مات النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) سورة آل عمران ، الآية (١٤٤) .

(٢) سورة الفتح من الآية (١٦) .

(٣) سورة الليل ، الآية (١٧) .

(٤) سورة النساء من الآية (٦٩) .

(٥) سورة التوبة ، الآية (٤٠) .

ارتدت العرب ، فقام أبو بكر يدعو الناس إلى الإسلام ويقاتلهم على الدخول في الدين كما فعل النبي ﷺ فاستحق من هذه الجهة ، أن يقال في حقه ثاني اثنين[١]

وقوله تعالى: ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنت تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم ﴾[٢] .

ودلالة هذه الآية على أحقية الصديق بالخلافة ، أن الهجرة فعل شاق على النفس ومخالف للطبع ، فمن أقدم عليه أولاً صار قدوة لغيره في هذه الطاعة وكان مقوياً لقلب الرسول ﷺ ، وسبباً لزوال الوحشة عن خاطره ، وكذلك السبق في النصرة الذي يؤدي إلى الفوز بمقام عظيم ، وإذا ثبت هذا ، فإن أسبق الناس إلى الهجرة أبو بكر فإنه كان ملازماً ومصاحباً لرسول الله في كل موضع ، فكان نصيبه من هذا المنصب أعلى من نصيب غيره ، وإذا ثبت هذا وجب أن يكون إماماً حقاً بعد رسول الله ﷺ ، فصارت هذه الآية من أدل الدلائل على فضل أبي بكر وعمر وصحة إمامتهما [٣].

وقوله تعالى: ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ﴾[٤] وفي هذه الآية أن الله سمّاهم (صادقين) وشهد لهم عز وجل بالصدق فإنه لا يقع في الكذب ولا يتخذه خلقاً بحال ، وقد أطبق هؤلاء الموصوفون بالصدق على تسمية الصدّيق رضي الله عنه « خليفة رسول الله ﷺ » ، ولم يستحق أحد ممن استخلفهم رسول الله ﷺ على البلاد في حياته ، أن يسمى « خليفة رسول الله ﷺ » على الإطلاق ، إلا

---

(١) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ٨/ ١٤٧، الصلابي ، أبو بكر الصديق ، ١٤٩ .

(٢) سورة التوبة الآية (١٠٠) .

(٣) الرازي ، تفسير الرازي ، (١٦ / ١٦٨) . الصلابي ، أبو بكر الصديق ، ١٥٠ .

(٤) سورة الحشر ، الآية (٨) .

الصدّيق الذي استمر الصحابة يدعونه بخليفة رسول الله منذُ أن بويـع بالخلافـة[1] بينما سُمي الآخرون بأمير المؤمنين ، ومن هنا كانت هذه الآية دالة على خلافة أبي بكر رضي الله عنه .

وهناك آية أخرى أمر الله تعالى بها المؤمنين أن يكونوا مع الصادقين ، قـال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾[2] .

وعن الحسن البصري ، في قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكـم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ﴾[3] قال: هو والله أبو بكر وأصحابه لما ارتدت العرب جاهدهم أبو بكر وأصحابه حتى ردوهم إلى الإسلام [4].

وبالجملة فإن الآيات التي فيها ثناء على الصحابة رضي الله عنهم ، سواء كان ذلك فـي السابقة أو الإنفاق أو الجهاد أو الزهد ، أو العلم أو في الحلم والصفح وحب أعمـال الخير والدعوة إلى الله ، والبّر والإعتـاق والعبـادة والتـلاوة وحـب المؤمنيـن والإعداد والمرابطة ، إلى غير ذلك من وجوه الأعمال التي يحبها الله ورسـوله إلا وتجد لأبي بكر الحظ والأوفر فيها ، مقرون كل ذلك بالإخلاص والتواضع ، والثناء العطر من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) ينظر: ابن حزم ، الفصل ، ٤/ ١٠٧ ، الصلابي ، أبو بكر الصديق ، ١٥١ .

(٢) سورة التوبة ، الآية (١١٩) .

(٣) سورة المائدة الآية (٥٤) .

(٤) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، (٦٥) .

الأحاديث

وفي الحديث النبوي الشريف إشارات واضحة وإرشادات بيّنة إلى مكان أبي بكر من بعد الرسول ﷺ وذلك على سبيل الإخبار والأمر والإرشاد .

فالأول: كقوله ﷺ: « بينا أنا نائم رأيتني على قليب عليها دلو ، فنزعت منها ما شاء الله ثم أخذها ابن أبي قحافة ، فنزع بها ذنوباً أو ذنوبين وفي نزعه ضعف والله يغفر له ــ قال ابن حجر: أي أنه على مهل ورفق ــ ثم استحالت غرباً فأخذها ابن الخطاب ، فلم أر عبقرياً من الناس ينزع نزع عمر ، حتى ضرب الناس بعطن »[1] وقوله ﷺ ذات يوم: « من رأى منكم رؤيا فقال رجل: أنا رأيت كأن ميزاناً نزل من السماء ، فوزنت أنت وأبو بكر فرجحت أنت بأبي بكر ووزن عمر فرجح أبو بكر ووزن عمر وعثمان ، فرجح عمر ثم رُفع الميزان ، فرأينا الكراهية في وجه رسول الله ﷺ »[2]وكقوله ﷺ : « ادعي لي أباكِ، وأخاكِ حتى أكتب لأبي بكر كتاباً لا يختلف عليه الناس بعدي » ثم قال: « يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر »[3]وهذا في رواية مسلم وقوله ﷺ في رواية البخاري: « لقد هممت أو أردت أن أرسل إلى أبي بكر وابنه فأعْهَد ، أن يقول القائلون ، أو يتمنى المتمنون » ثم قلت: يأبى الله ويدفع المؤمنون أو يدفع الله ويأبى المؤمنون »[4]. وفي رواية « معاذ الله أن يختلف المؤمنون في أبي بكر »[5] .

---

(١) البخاري ، ك فضائل الصحابة ، باب فضائل أبي بكر ، ح (٣٦٦٤) و (٣٦٧٦) .
مسلم ، صحيح مسلم ، ك فضائل الصحابة ، باب فضائل عمر ، ح (٤٤٠٥) .

(٢)أبو داود، السنن، ك السنة،باب في الخلفاء ح (٤٠١٩) الترمذي، ك الرؤيا،باب الميزان والدلو (٢٢١١)

(٣) مسلم ، صحيح مسلم ، ك فضائل الصحابة باب فضائل أبي بكر (٤٣٩٩) .

(٤) البخاري ، ك الأحكام ، باب الاستخلاف ، ح (٧٢١٧) . أبو داود ، ك السنة ، باب استخلاف أبي بكر (٤٠٤١) .

(٥) أبو داود الطيالسي ، المسند ، ٢١٠ ، ٢١١ . وفيه: ثم قال: دعيه معاذ الله ...

فهذا إخبار منه أن الله تعالى والمؤمنون: لا يعتقدون الخلافة إلا لأبي بكر. وقوله ﷺ : « أُرِيَ الليلة رجل صالح أن أبا بكر نيط برسول الله ﷺ ونيط عمر بأبي بكر ونيط عثمان بعمر ، قال جابر: فلما قمنا من عند رسول الله ﷺ قلنا أما الرجل الصالح فرسول الله ﷺ ، وأما تنوط بعضهم ببعض فهم ولاة هذا الأمر الذي بعث الله به نبيه ﷺ »[1]

وأما الأمر ، كقوله ﷺ : « اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر »[2] .

وقوله ﷺ : « عليكم بسنتي وسنّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي »[3] .

وقوله ﷺ : « للمرأة التي سألته أرأيت إن لم أجدك ؟ قال: « إن لم تجديني فأتي أبا بكر »[4]. قال الشافعي: في هذا الحديث دليل على أن الخليفة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر [5].

وقال ﷺ : « اقتدوا بالذين من بعدي ـ وأشار إلى أبي بكر وعمر »[6] .

والإرشاد: تقديمه له في الصلاة .

وقوله ﷺ : « سدوا عني كلّ خوخة في هذا المسجد غير خوخة أبي بكر » [7]

وهذا في مرض النبي ﷺ ، ومدلوله إغلاق جميع الأبواب الداخلة إلى المسجد إلا الباب الذي يدخل منه الإمام الذي سيخلفه في الصلاة والذي كان أبو بكر رضي الله عنه .

وهذه الوجوه الثلاثة الثابتة بالسُنة ، دلّ عليها القرآن الكريم كما تقدم ذلك .

---

(١) أبو داود ، ك السنة ، باب في الخلفاء ، ح (٤٠١٨) ، ابن تيميه ، منهاج السنة ١/ ٤٩١ .

(٢) الألباني ، الأحاديث الصحيحة (٣/ ٢٣٣ ـ ٢٣٦) الصلابي ، أبو بكر الصديق (١٥٢) .

(٣) أبو داود ، ك السنة ، باب في لزوم السنة ٥/ ١٣ـ١٧ ، الترمذي ، ك العلم ، باب ما جاء بالأخذ بالسنة واجتناب البدع ٥/ ٤٤ ـ ٤٥ فقال هذا الحديث حسن صحيح .

(٤) البخاري ، فتح الباري ، ك فضائل الصحابة ، باب لو كنت متخذا خليلاً ، ح (٣٦٥٩) .

(٥ ـ٦) ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ٩٦٩/٣ ، ٩٧١/٣.

(٧) البخاري، ك الصلاة ، باب الخوخة (٤٤٦) مسلم، ك فضائل الصحابة، باب فضائل أبي بكر (٤٣٩٠).

والأحاديث في هذا الباب كثيرة ، وكذلك أقوال الفقهاء والمحدثين والمفكرين من علماء المسلمين [١]، التي تثبت خلافة الصديق وتنفي عنها كل شبهة وذلك بالإستناد إلى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية .

والتي يُستنتج منها أنّ الصحابة الكرام ﵃ ، تجاوزوا محنة فقدانهم لرسول الله ﷺ بتوفيق الله لهم ، ومن ثم باعتصامهم بكتاب الله وسنّة رسول الله ﷺ .

وأنّ ما حصل من حوار في السقيفة بين بعض المهاجرين والأنصار لم يخرج عن هذين الأصلين .

---

(١) البخاري ، ك الصلاة ، باب الخوخة والملك (٥٦) ك فضائل الصحابة ، باب فضائل أبي بكر (٤٣٩٠) .

الحوار الذي جرى في سقيفة بني ساعدة(١)

وبيعة(٢)أبي بكر الصديق رضي الله عنه

بعد أن أعلن أبو بكر وفاة رسول الله ﷺ في قوله: « من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت »(٣) أيقن المسلمون جميعاً بهذه الحقيقة التي لا يريدون تصديقها ، فاضطرب الصحابة فمنهم من دُهش فخولط ومنهم من أُقعد فلم يطق القيام ، ومنهم من أُعتقل لسانه فلم يطق الكلام ، ومنهم من أنكر موته بالكلية (٤).

وبهذا الموقف العظيم من أبي بكر استيقظ الناس من هول الفاجعة ، ولا سيما بعد أن تلا عليهم قوله تعالى: « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين »(٥)فانطلق المسلمون يتلمسون مهامهم وواجباتهم، فعلموا أنه لا بد من غسل رسول الله ﷺ وتجهيزه ودفنه ﷺ يجري عليه ما يجري على البشر في شأن

---

(١) (سقيفة بني ساعدة) بالمدينة وهي ظُلة كانوا يجلسون تحتها ، والسقيفة كل بناء سُقّف. ينظر: ياقوت معجم البلدان ، ٣/ ٢٢٨ . وهي في منازل أبي خزيمة بن ثعلبة بن طريف بن الخزرج بن ساعدة ؛ في دار جرار سعد التي كان يسقي الناس فيها الماء بعد موت أمه . قال ابن زبالة: عرض سوق المدينة ما بين المصلى إلى جرار سعد بن عبادة التي فيها سقيفة بن ساعدة .

ينظر : السمهودي ، وفاء الوفاء ، ١/ ٢١٠ و ٣/ ٢٦٠ .

(٢) البيعة : لها عدة تعاريف منها: « العهد على الطاعة لولي الأمر » ابن خلدون ، المقدمة (٢٠٩) وكذلك هي : العهد والميثاق والمعاقدة على إحياء ما أحياه الكتاب والسُنّة وإقامة ما أقامه . أبو عيد ، نظام الحكم في الإسلام (٢٤٨).

(٣) ينظر: القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن تفسير الآية (١٤٤) من آل عمران .

(٤) ابن رجب ، لطائف المعارف ، ١١٤ .

(٥) سورة آل عمران الآية (١٤٤) .

الحياة والموت.وعلموا أنه لا بد من اختيار خليفة لرسول الله ﷺ ، ومتابعة ما بدأ به ﷺ .فانشغل بعضهم بتجهيز رسول الله ﷺ ، وبعضهم جلس في المسجد فما بين مصلٍ وداعٍ وتالٍ لكتاب الله ، وما بين باك ومتألم . ووافق ذلك أن كان سعد بن عبادة الخزرجي مريضاً يرقد في سقيفة بني ساعدة التي هي في العادة ملتقى للأنصار وغيرهم من المسلمين ، فتحدثوا بمسألة خلافة رسول الله ﷺ ، وهذا من البديهي ، إذ أن ذلك يشغل بال جميع المسلمين ، وخلال ذلك الحديث اقترح البعض ترشيح سعد بن عبادة سيد الخزرج لهذا المنصب .

فلما علم المهاجرون بهذا ، جاءهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح فتحاوروا مع الأنصار في هذه المسألة الهامة ، والتي تعني الجميع بكل أبعادها فتبين من خلال الحوار أن الأنصار ليس لديهم أي موقف مسبق ، والمقصود بالأنصار هنا من كان موجوداً في السقيفة ، وأدلى كل منهم ، بما لديه من أفكار ولم يكن هناك قيمة للأفكار التي طرحت في السقيفة لأنها عارية من الأدلة الشرعية ومن هذه الزاوية كان القبول التام لكل ما طرحه أبو بكر رضي الله عنه لقوة حجته وصدق منطقه ونبل غايته وشمول مقاصده ، وبما أن هذا اللقاء له ما بعده من نتائج ، وأن من نجا منه فقد نجا من أول فتنة حذر منها رسول الله ﷺ ، اتخذها أعداء السُنة والجماعة من القدماء والمحدثين [١]. غرضاً لسهامهم وميداناً لأباطيلهم ، يقذفون

---

(١) ينظر: الواقدي ، الردة ، وابن أعثم ، الفتوح ، اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي، والمسعودي، مروج الذهب وفي تاريخ الطبري ، روايات أبي مخنَفٍ والواقدي وغيرهما ، ومن المحدثين ، هشام جعيط ، الفتنة طه حسين ، الفتنة الكبرى ، وغيرهم . أما كتب الرافضة والمستشرقين والعلمانيين فلا يستثنى منها أحد في الطعن على الصحابة ، لكن ما أسهل كشف أباطيلهم ، عند كل ذي عقل وإيمان ، إذ أن أخلاق وقيم الصحابة سطروها في سيرهم واقعاً زاهراً مشرقاً ، مدعماً بثناء الله في الآيات التي تتحدث عن الصحابة وفي الأحاديث النبوية الشريفة التي تشيد بجهادهم وفضائلهم ومناقبهم وهذه الآيات والأحاديث تشكل صخرة تتكسر عليها كل السهام التي تصوّب إلى أحد من الصحابة وتشكل نوراً مشرقاً ، يكشف زيف=

أهل السقيفة ، بما يدور في أدمغتهم من خيالات ، وبما في قلوبهم مـــن وســاوس يطعنون بحملة الدين وحماته وأنصاره ، ليهدموا كيانه ويدمروا بنيانه ، ولكــن الله حائل بينهم وبين ما يشتهون ، فلا يطعن أحد بأصحاب محمــد ﷺ ، إلا ومقصـده الطعن بالنبوة والرسالة وبالإسلام ، فالعلامة بين صحة العقيدة وبين الزندقة هـــي حب أصحاب محمد ﷺ ، من الأنصار والمهاجرين . فكل من لــم يــرضَ عنــهم ويستغفر لهم ، ويُشيدْ بمكارمهم وأخوتهم وتآزرهم وتعاونهم وتناصحــهم ، فليــس على منهجهم ، ولا ينتمي لعقيدتهم ، ولا يسير على طريقتهم قال تعالى: ﴿ والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعــل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾[1] .

وقال ﷺ: « علامة الإيمان حب الأنصار ، وعلامة النفاق بغض الأنصار »[2].
وفي السقيفة تبلور للأنصار اتجاهان، **أحدهما:** يدعو لمبايعة سعد بن عبادة **والآخر:** يرى أن المهاجرين هم أولى بخلافة النبي ﷺ ، ولعلّ في هذين الموقفين رداً علـــى المغرضين الذين لا يدعون فرصة فيها مجال للطعن في الإســـلام إلا واهتبلوهـــا وفي الطعن في الصحابة طعن في الإسلام لأنهم هم حملتـــه ، فـــهم يُروّجـــون أن المسلمين انقسموا على أنفسهم بعد وفاة رسول الله ﷺ إلى مهاجرين وأنصار وهذه الفرية يردها الواقع الذي كانوا عليه ، ففي مسألة الخلافة كان أعلامـــهم من أهـــل

= كل الزنادقة الذين يقودهم ظلام حقدهم ، وزيف بحثهم للتشويش أو التزوير أو البهتان على أحـــد مـــن تلامذة محمد ﷺ وجنده الأوفياء ، فهم الميزان المستقيم ، الذي يكشف الأدعياء الذين يزعمـــون الإســـلام ويقذفون حملته ، ويدّعون حب القرآن ويبهتون حفظته ، وحب آل البيت ويكفرون إخوانـــهم وأنصـــارهم وما علموا أن القرآن ومحمداً ﷺ وآل البيت والصحابة ﷺ يمثلون كلاً لا يتجـــزأ ؛ وكيانـــاً لا يتمـــزق يؤخذ كله أو يترك كله .

(١) سورة الحشر ، الآية (١٠) .

(٢) البخاري ، ك ، الإيمان ، باب علامة حب الأنصار ، ح (١٦) .

العلم والفقه ، يدعون إلى ترك أمر الخلافة بأيدي المهاجرين . وآخرون دعوا لبيعة سيدهم مسوغين ذلك بأعذار وحجج كانوا يعتقدون صحتها ، فتبين لهم أن ما قدمه الصدّيق في السقيفة هو الأولى بالإتباع فاتبعوه ، وهذا ما سيتضح من خلال هذين الموقفين .

أولاً : الدعوة لبيعة سعد بن عبادة :

استندت هذه الدعوة إلى عدة محاور منها قولهم: « إن الله تعالى نقل النبي ﷺ من داره فكنا أنصاره ، وكانت أرضنا مهاجره وقراره ، وإنا قاسمناكم الأموال وكفيناكم الأعمال ، وأنزلناكم الديار ، نحن أنصار الرسول ﷺ وكتيبة الإسلام ولنا من الفضائل ما أنتم به أعلم ، فنحن أنصار الله ولنا الإمامة في الناس »[1] .

وهذه الرواية أوردها الواقدي وهو معلوم بميوله وأساطيره وأنه متروك الحديث ولكن لعل إيرادها هنا يلجم حملتها والمروجين لها .

وقولهم يا معشر الأنصار: « ما عُبد الله علانية إلا في بلادكم ، ولا اجتمعت الصلاة إلا في مساجدكم ، ولا دانت العرب بالإيمان إلا بأسيافكم ، فأنتم أحق الناس بالأمر »[2] .

وهذا النص أورده ابن أبي الحديد وهو معتزلي رافضي ، وإن هذا النص لا يحمل مغالطات كثيرة ، ولكن لماذا طمس دور المهاجرين ؟ والمعروف عن الأنصار الإنصاف والإيثار فهم لا يغمطون أحداً حقه،ولا يعني هذا أن الصحابة معصومون ولكنهم أقل الناس خطأ وأكثرهم إنصافاً ، وكل نص لا يتفق مع خلق الصحابة وسَمْتهم وصدقهم ، هو موضع رِيبة وتهمة حتى تثبت صحته .

ومنهم من قال: « يا معشر المهاجرين: إن رسول الله ﷺ ، كان إذا استعمل رجلاً

---

(١) الواقدي ، الردة ، ٣٨ ، ومحمد بن عمر الواقدي متروك الحديث قال عنه الإمام أحمد: كذاب يقلب الحديث ، واستقر الإجماع على وهن الواقدي . ينظر: الذهبي ، ميزان الاعتدال ٣/ ٦٦٢ .

(٢) ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ٦/ ٨٠ .

منكم قرن معه رجلاً منا ، فنرى أن يلي هذا الأمر رجلان » وقال آخر: « فإن أبى هؤلاء ما نقول فمنا أمير ومنهم أمير »[١] وتشدد رجل من الأنصار في موقفه فقال: « أنا جُذيلها المحكك وعُذيقها المرجب... والله إن شئتم لنعيدنها جذعة »[٢] أي نعيدها فتية ويقصد بذلك الحرب ، وهذا ما يشير إلى ضعف هذه الرواية وبطلانها إذ لم يكن هناك في يوم من الأيام حرب أو خلاف بين الأنصار والمهاجرين فكيف يريد إعادة شيء لم يكن !؟ وزعم الواقدي، أن رجلاً آخر من الأنصار قال: « وأنتم يا معشر الأنصار: إن قدّمتم قريشاً على أنفسكم يتقدمونكم إلى يوم القيامة »[٣] .

وهذه أهم الآراء والتوجيهات ، التي طرحها طائفة من الأنصار لكي يسوغوا مطالبتهم بخلافة رسول الله ﷺ ، وهي فضلا عن ضعف رواتها وغرابة طرحها عن أخلاق الصحابة الذين عرف عنهم الزهد في جانب الإمارة والمسؤولية ، لما يترتب على ذلك من الخوف من الوقوع في التقصير بحق الرعية وما يتبع ذلك من آثام هم يفرون عنها ، لتنافسهم على الدرجات في الآخرة وعلى الفوز بالقرب من رسول الله ﷺ الذي تعلقت به قلوبهم وأرواحهم ، مما يؤكد غرابتها عن أريحية الأنصار وإيثارهم وحبهم للمهاجرين .

وفضلا عن هذا فهي عارية من أي تأصيل شرعي، فلا تحمل في طياتها مصالح نشر الإسلام وحمايته ، ولا الجهاد في سبيل الله من أجل تبليغه ، ولا تستند إلى أدلة علمية تنبثق من آيات الله تعالى في القرآن الكريم أو من أحاديث رسول الله ﷺ .

---

(١) الطبري ، تاريخ ٣/ ٢١٨ ، الذهبي ، الخلفاء الراشدون ، ٦، ابن كثير ، مسند الفاروق ، ٢/ ٥٣٢ .

(٢) الطبري ، تاريخ ٣/ ٢٠٦ ، ابن أبي حديد ، شرح نهج البلاغة ، ٢/ ٣٨ ، ابن عبد البر، الاستيعاب ١/ ٣١٦ . وقوله: أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب: قال مالك: كأنه يقول: أنا داهيتها ، ابن حنبل المسند مع شرح الفتح الرباني ، ١٣/ ٥٨ ، ابن منظور ، لسان العرب، مادة (رجب) وقال: أي أن لي عشيرة تمنعني وترفدني ، والجذيل عود ينصب للإبل لتحتك به ، أراد أن رأيه يستشفى به والعذيق تصغير عذق وهو النخلة .

(٣) الواقدي ، الردة ، ٣٢ .

وهي أغفلت دور المهاجرين، وصوّر الحدث من زاوية المصلحة الذاتية فقط فهم يريدون الحكم والخلافة أو المشاركة على قدم المساواة مع المهاجرين مناصفة أو العودة إلى أحكام الجاهلية ، يعيدها جذعة ليس من أجل الدين والعقيدة ، وإنما من أجل المصلحة ، وهذا ما يُفقِد هذه النصوص الثقة بها ، ويؤدي إلى اتهامها والحكم عليها بالغرابة والنكارة وعدم الصحة .

ثانياً : حجة الأنصار الذين دعوا لمبايعة المهاجرين:

إذا كان بعض الأنصار ، رأى أن الخلافة من الممكن أن تكون فيهم ، فإن هناك فريقاً آخر منهم ، كان يرى أن الخلافة في المهاجرين ، وأن هذا الأمر في قريش مما يوحي بأن لديهم تصوراً عن هذه المسألة ، اتضح ذلك فيما قاله بشير بن سعد الحارثي الخزرجي ، الذي ذكر فضائل الأنصار وعظيم ما قدموه من جهاد وتضحيات ، وأنهم لا يبتغون من ذلك سوى رضاء الله تعالى وطاعة النبي ﷺ وأكّد تلاحم الأنصار والمهاجرين ، وأن لو كانت مطالبة بعض الأنصار حقاً لما عارضها ، وقال: « ألا إن محمداً ﷺ من قريش وقومه أولى به ، وأيم الله لا يراني الله أُنازعهم هذا الأمر أبداً ، فاتقوا الله ولا تخالفوهم ، ولا تنازعوهم »[1] .

وأضاف مطالباً الأنصار المطالبين بالخلافة: « لو كان ما تدعون حقاً لم أعرض عليكم فيه ، فإن قلتم بأنّا آوينا ونصرنا فما أعطاهم الله خير مما أُعطيتم[2] فلا تكونوا كالذين ﴿ بدلوا نِعمة الله كفراً وأحلّوا قومهم دار البوار ﴾[3]. وأكد ذلك أُسيد بن حُضير الأشهلي فقال: « إن هذا الأمر في قريش دونكم ، فمن قدموه قدموه ومن أخروه فأخروه »[4] وتابعهم عويم بن ساعدة العَمْري الأوسي ، مخاطباً

---

(١) ابن أعثم ، الفتوح ، ١/ ٤ . ابن الأثير ، الكامل ، ٢/ ٢٢٤. بدران ، تهذيب تاريخ دمشق ، ٣/ ٢٦٥.

(٢) ينظر: السويطي ، خلفاء رسول الله ﷺ ، ٦٠ .

(٣) سورة ابراهيم ، من الآية (٢٨) .

(٤) الواقدي ، الرده ، ٣٣ ، ابن أعثم ، الفتوح ، ١/ ٣ .

الأنصار فقال: « إن الخلافة لا تكون إلا لأهل النبوة ، فاجعلوها حيث جعلها الله عزوجل »[1] وقال معن بن عدي منكراً على الأنصار الذين دعوا إلى أن تكون الخلافة فيهم: « والله ما مات رسول الله ﷺ حتى صلّى بنا أبو بكر ، فعلمنا أنه قد رضيه لنا لأن الصلاة عماد الدين »[2] .

وحسم زيد بن ثابت النجاري الأنصاري ، موقف الأنصار في السقيفة فقال : « إن رسول الله ﷺ كان من المهاجرين ، وإنما الإمام يكون من المهاجرين ونحن أنصارهم ، كما كنا أنصار رسول الله ﷺ ، ثم أخذ بيد أبي بكر وقال: هذا صاحبكم ، فبايعه عمر ، ثم بايعه المهاجرون والأنصار »[3] .

ومن هذه النصوص التي أدلى بها علماء من الأنصار وسادة في قبائلهم يتضح الموقف الحقيقي لهؤلاء القوم الذين لا يُعرف عنهم سوى العطاء والإيثار والاستعداد الدائم للتضحية من أجل سلامة الدين وأن وحدة وأخوة الأنصار والمهاجرين ، كانت تمثل السند المتين الذي استند إليها الدعاة والمجاهدون في ساعات المحن والشدة ، فكانت الملجأ الأمين من كل خطر ، والمنجا من كل فتنة واتضح في هذه النصوص أيضاً المنطق السليم المعبرّ عن وشائج الأخوّة والمودة الموافقة لأخلاق الصحابة ومتانة أخوّتهم .

كما تبين إدراكهم لمفهوم « الأئمة من قريش » فيما طرحوه من آراء ، وما قدموه من أفكار .

---

(١) الواقدي ، الرده ، ٣٣ ، ابن أعثم ، الفتوح ، ١/ ٣ .

(٢) ابن أعثم ، الفتوح ٤/٣ ، ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ٤/ ١٤٤١ .

(٣) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ٣٠/ ٢٨٨ . السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ٦٧ .
ابن أبي شيبة ، المصنف ، ٤/ ٥٦١ .

ثالثاً: ما احتج به المهاجرون في أمر الخلافة :

لما علم المهاجرون باجتماع الأنصار في السقيفة قالوا: « انطلقوا بنا إلى إخواننا من الأنصار ، فإنّ لهم في هذا الحق نصيباً »[1] .

واللافت في هذا النص أن المهاجرين لم يستنكروا اجتماع الأنصار في السقيفة ولم ينتقصوهم حقهم ، فتكلم أبو بكر فلم يترك شيئاً أُنزل في الأنصار ، ولا ذكره رسول الله ﷺ من شأنهم إلا ذكره [2].

وتلخصت حجج المهاجرين في السقيفة ، بالتأكيد على سابقتهم وقربهم من رسول الله ﷺ وأنهم عشيرة الرسول ﷺ ، وأوسط العرب نسباً ، كما نوّه أبو بكر بمكانة قريش بين العرب وأن: « ليس من قبائل العرب إلا ولقريش فيها ولادة نسب[3]، وأنّ العرب لا تُقرّ إلا على رجل من قريش لأنهم أفصح الناس ألسنة وأوسط العرب داراً ، وأكثر الناس سجية في العرب[4] ، وهذا ماصدّقه الواقع الذي قام في الدولة الإسلامية ، فكم حصل فيها من التنازع والتخاصم على أمر الخلافة فلم يقُم أحد من غير قريش ، يدعوا لنفسه بالخلافة وإنما يحصل الخلاف بين رجال من قريش ، فتنقسم قبائل العرب إلى أقسام كل منها يدعو ويعمل ويقاتل فيقتل ويُقتل لنصرة رجل من قريش ، وهذا ما حصل لعلي ومعاوية رضي الله عنهما وعبد الله بن الزبير ، ومروان بن الحكم وابنه عبد الملك ، وغير هؤلاء مما يُصدّق مقولة الصديق رضي الله عنه ، ويوضح ثقل قريش وأثرها الفاعل آنذاك . ثم استدل أبو بكر بأدلة أخرى من الكتاب والسنة ، وهما المرجعية لكل مسلم ، وأنّ الله تعالى قدّم

---

(١) الواقدي ، الردة ، ٣٥ ، ابن أعثم ، الفتوح ، ٣/ ٤ .

(٢) ابن حنبل ، المسند ، ١/ ٥ ، الساعاتي ، الفتح الرباني ، ٧/ ٣٧ ، العمري ، الخلافة الراشدة ١٧٨ .

(٣) الطبري ، تاريخ ، ٣/ ٢١٨ ، ابن الأثير ، الكامل ٢/ ٢٢٤ ، ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ٦/ ٧ .

(٤) الصنعاني ، المصنف ، ٥/ ٤٤٠ ، ابن أبي شيبة ، المصنف ، ٨/ ٥٣٧ .

المهاجرين على الأنصار فيما ذكرهم فيه من القرآن الكريم[١] وأنهم أول من عبد الله ، وآمن بالله ورسوله ﷺ ، فلم يستوحشوا لقلة عددهم ، وإجماع قومهم عليهم وإيذائهم لهم . وقال: سماكم الله « المفلحين » [٢] وسمانا « الصادقين » [٣] ثم أمركم أن تكونوا معنا [٤]، قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾[٥]. واستدل بحديث « الأئمة من قريش »[٦] .

وكان أبو بكر يُدلي بأدلته هذه مقرونة بالثناء على الأنصار واعتراف بفضلهم فقال: « يا معشر الأنصار إننا لا نُنكر حقكم ولا ينكر حقكم مؤمن وإنّا والله ما أصبنا خيراً إلا شاركتمونا فيه »[٧] وأبدى لهم عن مشاعر المهاجرين تجاههم ومكانة الأنصار عندهم فقال: « فأنتم أحب الناس إلينا ، وأكرمهم علينا ، وأنتم المؤثرون على أنفسهم حين الخصاصة وأنتم أنصار الله ورسوله ، وأنتم إخواننا في كتاب الله وشركاؤنا في الدين »[٨] .

ثم ختم حواره ذلك بالإفصاح عن مكانة المهاجرين والأنصار فقال: « نحن الأمراء

---

(١) ينظر ، سورة الأنفال ، الآيتان (٧٢) و (٧٤) وسورة التوبة ، الآيتان (١٠٠) (١١٧) .

(٢) ينظر: سورة الحشر ، الآية (٩) قال تعالى: ﴿ والذين تبوءا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ .

(٣) سورة الحشر ، الآية (٨) قال تعالى: ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ﴾ .

(٤) الطبري ، تاريخ ، ٣/ ٢٢١ .

(٥) سورة التوبة ، الآية (١١٩) .

(٦) ابن حنبل ، المسند ، ح ٥/ ٣٧٦٥، ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ٣/ ٩٧٠ . ابن عساكر تاريخ دمشق ٣٠ / ٢٨٦ . ٣/ ٢٧٢ ، ينظر: الخليفة ، الأنصار في العصر الراشدي ، ١٠٩

(٧) ابن أبي شيبة ، المصنف ، ٨/ ٥٧٣ .

(٨) الطبري ، تاريخ ، ٣/ ٢٢٠ ، ابن أبي حديد ، شرح نهج البلاغة ، ٦/٧ و ١٠/ ٢٧١.

وأنتم الوزراء ، لا نفتات عليكم بمشورة ، ولا نقضي دونكم الأمور »[1] .

وبهذا العرض والإستدلال والاحتجاج الواضح أقام أبو بكر البيّنة في مسألة الخلافة ، وبمنطقه العذب وفصاحته وإنصافه ، ورفقه وحرصه على وحدة المسلمين ، أوجد لهذه الحجة التي أقامها القبول الكامل في قلوب ونفوس إخوانه من الأنصار في السقيفة .

وقد شارك عمر رضي الله عنه في ذلك الحوار مع الأنصار فقال: ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: « الأئمة من قريش » قالوا بلى: قال: أولستم تعلمون أنّه أمر أبا بكر أن يُصلي بالناس ، قالوا بلى ، قال: فأيكم يتقدم أبا بكر ؟ قالوا لا أحد: فسلّمت لهم الأنصار وقالوا نعوذ بالله أنّ نتقدم أبا بكر ، نستغفر الله ، نستغفر الله »[2].

وأكد للأنصار على موقفه ، هذا ، بالإستدلال بكتاب الله تعالى فقال: من له هذه الثلاث:«ثاني اثنين إذ هما في الغار» منْ هما ؟و« إذ يقول لصاحبه لا تحزن » و « إن الله معنا »[3] مع من ؟ ثم بسط يده إلى أبي بكر ، فبايعه الناس أحسن بيعة وأجملها [4]. ومما سبق يظهر ما احتج به أبو بكر على من دعا للخلافة من الأنصار وأنه خاطبهم بما كانوا يتحدثون به ، ليكون أقطع للشغب وأسرع للقبول فكأن أبا بكر قال: « إن كان هذا الأمر معشر الأنصار ، إنما يُستحق ، بالحسب ويُستوجب بالقرابة ، فقريش أكرم حسباً وأقرب قرابة ، وإن كان إنما يستحق بالفضل في الدين ، فالسابقون الأولون من المهاجرين ، المقدمون عليكم في جميع

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٣/ ٢٠٣ . ابن أبي حديد ، وكيع ، أخبار القضاة ، ٢٣ .

(٢) ابن حنبل ، المسند ، ٥/ ٣٧٦٥ . ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ٣ / ٩٧٠ ، ابن عساكر تاريخ دمشق ، ٣٠/ ٢٨٦ و ٣٠/ ٢٧٢ .

(٣) التوبة ، من الآية (٤٠) .

(٤) الساعاتي ، الفتح الرباني ،٢/١٦٢ . وينظر ،ابن حجر ، فتح الباري ، باب الاستخلاف ح (٧٢١٩) .

القرآن أولى به »[1] فلما أبصر الأنصار الداعون للخلافة، وجه الحق لحقوا بالطاعة وأعطوا المقادة ، بعد أن تذكر من كان ناسياً ، ورضي من كان طامعاً ، واقتنعوا بأهلية المهاجرين للخلافة ، ولا سيما بعد أن دعّم المهاجرون حججهم بنصوص من القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف: « فلا يستطيع أحدٌ أن يقول: إن أحداً منهم رد على أبي بكر كلمة واحدة »[2] . مما يؤكد فقه أبي بكر وقوة حجته وأيضاً مكانته بين المهاجرين والأنصار ، المنبثقة من المواصفات التي جُبل عليها ولما يعلمون من مقامه من رسول الله ﷺ الذي نوّه بمكانته ، وأشار إليها وأرشد المسلمين إلى تقديمها ، كما اتضح ذلك في الأحاديث النبوية السابقة ، والتي منها قوله ﷺ للمرأة التي كلمته: « إن لم تجديني فأتي أبا بكر »[3].

وقد ورد فيما احتج به بعض الأنصار والمهاجرين ، في السقيفة ، بعض الجمل والكلمات ، التي يمكن أن تقتطع من سياق الحوار، ويُساء تفسيرها ويستغلها المغرضون من أعداء الصحابة ﷺ ، فيشيعونها بكتاباتهم وأحاديثهم ويدعون ما سواها من أخلاقهم الحميدة وألفاظهم الراقية ، إذا لم توضع في مواضعها وتبين حال قائليها ، وتوضح أعذارهم ، ومن ذلك أن بعض الروايات ذكرت كلمات فيها غلظة ، فيما ألقي من خطب في السقيفة فبعد أن ازدحم الأنصار ومن في السقيفة على بيعة أبي بكر ، وسعد بن عبادة مريض فيها قال أحدهم:« اتقوا سعداً لا تطؤوه»[4] فقال عمر: « اقتلوه قتله الله »[5] فهذا القول وعلى فرض صحته لم يترك أي بعد في حينه ؛ وقد اعتذر عمر عنه وأوضح أنه كان مغضباً على سعد فقال :

---

(١) الجاحظ ، العثمانية ، ١٧٧ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) البخاري ، ك الأحكام ، باب الاستخلاف ، ح (٧٢٢٠) .

(٤) الطبري ، التاريخ ، ٣/ ٢٢٢ .

(٥) الطبري ، التاريخ ، ٣/ ٢٢٢ .

« وقلت وأنا مغضب قتل الله سعداً »[١] مما يؤكد اعتذاره عما بدر منه فـــي حالـــة غضبه ، ومعلوم أن هذه الكلمة يرددها العرب آنذاك على ألسنتهم ، دون أن تـــترك في نفوسهم شيئاً .

أما ما يروى عن تنازع في السقيفة بين عمر وبين الحُبَاب بن المنذر[٢] ، فـــالراجح أنه غير صحيح ، وأن عمر لم يُغضب الحباب بن المنذر في يوم الســـقيفة ، لمـــا روي عن عمر أنه قال: « لما كان الحُباب بن المنذر هو الذي يُجيبني ، لم يكن معه كلام ، لأنه كان بيني وبينه منازعة في حياة رسول الله ﷺ فنهاني عنه ، فحلفـــت أن لا أكلمه كلمة تسوؤه أبداً »[٣]

وهذا هو المعروف عن الصحابة الكرام من خلال سيرهم ، التنصل من الذنـــب والاعتذار عن الخطأ ، والتخلق بأحسن الفضائل ، ويزيدهم سمواً في ذلك ما رأوه وسمعوه من الرسول ﷺ ، في العفو والصفح وصدق المودة وجميل المعاملة .

وهذا ما يعمل أعداؤهم على هدمه أو تشويشه والانتقاص منه .

كما أن ما يروى عن الحُباب في هذه المنازعة ، مخالف لما عُهد عنه من حكمة وحسن الرأي وصدق المشوره، إذ كان يُلقب« بذي الرأي »[٤] في عهد الرسول ﷺ وقبول الرسول ﷺ لرأيه ومشورته في بدر وفي خيبر ، وأما ما يُنسب إلى الحُباب من قول: « منا أمير ومنكم أمير »[٥] .

---

(١) ينظر: ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ٣٠/ ٣٨٥ .

(٢) الحباب بن المنذر نب الجموح السلمي الأنصاري ، شهد بدر وهو ابن ثلاث وثلاثين ، وكان يقال له ذو الرأي ، وهو الذي أشار على رسول الله ﷺ أن ينزل على ماء بدر للقاء المشركين ، توفي في خلافة عمر ، ينظر : ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ٣/ ٣١٦ .

(٣) الإمامة والسياسة ، ١/ ١٢ ، المنسوب لابن قتيبة .

(٤) ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ٣/٣١٦ .

(٥) المصدر نفســـه . الطبري ، تاريخ ، ٣/ ٣١٦ .

فقد سوغه وأضح أنه لا يقصد بذلك الوصول لمنصب الخلافة فقال: « فإنـــا والله لا ننفس عليكم هذا الأمر ولكنا نخاف أن يليه أقوام ، قتلنا آباءهم وإخوانهم »[1] فقيـــل المهاجرون قوله وأقروا عذره ، وأعلموا أنهم شركاء في دمــــاء مـــن قتـــل مـــن المشركين ، وأن أي خطر التعرض له المسلمون ، ســـيكون مســـتهدفاً الأنصـــار والمهاجرين على حد سواء .

وغني عن القول أنه لم يشهد السقيفة ، سوى ثلاثة من المهاجرين ، وهذا يؤكد أنه لا معنى لأي قول يفسر ما حدث بغير الحوار والتشاور أو يصور حوار السقيفة على أنه صراع بين الأنصار والهاجرون ، الذين لم يحضر منـــهم ســـوى هـــؤلاء الثلاثة .

ولما كان حديث « الأئمة من قريش » أو « إن هذا الأمر في قريش » له أثـــر واضح في الاستدلال على الأولية في مسألة الخلافة ، فمن المناسب النظر في هـــذا الدليل والوقوف عنده ، وِقْفة تزيل عنه الإبهام وتظهر أبعاده ومقـــاصده وموقـــف الأنصار منه ، وآراء أعلام الفقهاء والمحدثين ، وبعض المفكرين المعاصرين فـــي هذه المسألة .

---

(١) ابن حجر ، فتح الباري ، ٧/ ٣٨ .

حديث الأئمة من قريش وموقف الأنصار منه

لهذا الحديث بألفاظه المتعددة ، أهمية كبيرة في إيجاد الرؤية الأولى لمسألة الخلافة ، وتكوين الفهم المشترك لها بين المهاجرين والأنصار ضمن الضوابط التي قيدت مطلق هذا الحديث .

ولكن اللافت للنظر أن هذا الحديث تعرض لحملات من التشكيك بصحته وزُعم أنه شعار رفعته قريش لاستلاب الخلافة من الأنصار أو أنه « رأي لأبي بكر وليس حديثاً رواه عن الرسول »[1] وإنما كان « فكراً سياسياً قرشياً ، كان شائعاً في ذلك العصر يعكس ثقل قريش في المجتمع العربي في ذلك الحين »[2] وأن عبارات « الأئمة من قريش » و « والناس تبع لقريش » ما هي إلامن ذلك الفكر [3].

ولا يخفى ما يرمي إليه هذا التشكيك من إصرار على الحديث عن صراع بين المهاجرين والأنصار ، والطعن في متانة الأساس الذي بُنيت عليه وحدة هذه الأمة والغمز بموقف الأنصار المؤيد والموالي للخلفاء الراشدين القرشيين .

مما تطلب التفصيل في هذه المسألة بما يوضحها على حقيقتها ، من خلال عرض نصوص هذا الحديث ثم ذكر الشروط التي قيدته ، ثم ذكر من قال بإجماع الأمة على صحته والعمل به ، ثم ذكر المشككين بصحته أو النافين له .

فهذا الحديث ورد في الصحيحين وكتب الحديث الأخرى ، بألفاظ متعددة ، ففي صحيح البخاري عن معاوية قال: قال رسول الله ﷺ : « إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلاّ أكبه الله في النار على وجهه ما أقاموا الدين»[4]وفي رواية أخرى

---

(١) ينظر: بيضون ، الأنصار والرسول ، ٥٨ . عمارة ، الإسلام وفلسفة الحكم ٣٩٠ .

(٢) عمارة ، الإسلام وفلسفة الحكم ، ٣٩٣ . (٣) المصدر نفسه .

(٤) البخاري ، صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ، ك الأحكام ، باب الأئمة من قريش ، ح (٧١٣٩).
مسلم ، صحيح مسلم بشرح النووي ، ك الإمارة ح (٦٦٢٧) .

لا يزال الإسلام عزيزاً بخلفاء « كلهم من قريش »[١] . وعن عبد الله بن عمر قـال: قال ﷺ : « لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان »[٢].

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: « الأئمة من قريـش »[٣]. وقـال ﷺ : « الناس تبع لقريش في هذا الشأن مسلمهم لمسلمهم وكافرهم لكافرهم »[٤] .

وعن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ :« الناس تبع لقريش في الخير والشر »[٥] وعن أبي موسى الأشعري قال: قال رسـول الله ﷺ : « إنّ هذا الأمر في قريش »[٦] وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ لقريش: « إنّ هذا الأمر فيكم وأنتم ولاته »[٧].

وقوله ﷺ : « قدموا قريشٍ ولا تَقَدَّمُوها »[٨]. وعن بكير بن وهـب الجـزري قال: قال لي أنس بن مالك الأنصاري رضي الله عنه : أحدثك حديثاً ما أُ حدثه كـل أحد ، كنّا في بيت من بيوت الأنصار ، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم حتى وقف

---

(١) البخاري ، صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ، ك الأحكام باب الأئمة من قريش ، ح (٧٢٢٣) و (١٨٢١) ، وينظر التبريزي ، مشكاة المصابيح ، باب المناقب ، ٣/ ٥٩٧٩ . ابن حبان ، الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ، ح ٧/ ٦٦٢٧ .

(٢) البخاري ، صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ، ك الأحكام باب الأئمة من قريش ، ح ١٣/ ٧١٤٠ ابن أبي شيبة ، المصنف ، ٧/ ٥٤٤ .

(٣) ابن أبي شيبة ، المصنف ، ٧/ ٥٤٤ ، وينظر : ابن ججر ، فتح الباري ، شرح الحديث (٦٨٣٠) وقوله: « منا أمير ومنكم أمير » كأنه لم يبلغه حكم الإمارة في الإسلام واختصاص ذلـك بقريـش فلما بلغه أمسك عن قوله وبايع هو وقومه أبا بكر .

(٤) مسلم ، صحيح مسلم بشرح النووي ك الإمارة ، ح (١٨١٨) .

(٥) مسلم ، صحيح مسلم بشرح النووي ك الإمارة ، ٢/٢٠٠ .

(٦) ابن أبي شيبة ، المصنف ، ٥/ ٥٤٤ .

(٧) المصدر نفسـه .

(٨) الألباني ، ، إرواء الغليل تخريج أحاديث منار السبيل ، وينظر : ابن أبي عاصم ، السنة ٢/ ٦٧٣ .

فأخذ بعضادتي الباب [١] فقال: « الأئمة من قريش إنّ لهم عليكم حقاً ، ولكم عليهم حقاً مثل ذلك ، ما إن استرحموا فرحموا ، وإن عاهدوا أوفوا ، وإن حكموا عدلوا »[٢] .

وفي فتح الباري ، أورد ابن حجر أحاديث كثيرة تحت باب الأمراء من قريش أسندها إلى كتب السنن والمسانيد والمصنفات مثل حديث « ألا إنّ الأمراء من قريش» و « إن الملك في قريش »[٣] وغيرها والأحاديث في هذا الباب كثيرة لا يكاد يخلو منها كتاب من كتب الحديث ، وقد رويت بألفاظ متعددة ، إلا أنها متقاربة تؤكد جميعها أنّ الإمرة المشروعة في قريش ، ويقصد بالإمرة الخلافة فقط أما ما سوى ذلك فتساوى فيه جميع المسلمين [٤].

أما القيود التي حددت الإمارة في قريش ، فإنها حذرت من الإنقياد الأعمى لهم وأنّ هذا الأمر فيهم ما أقاموا الدين كما سلف في حديث معاوية ، ومن القيود على صحة الإمامة في قريش ما جاء في حديث أنس : « ما إن استرحموا رحموا وإن عاهدوا أوفوا ، وإن حكموا عدلوا ، فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين »[٥].

وبهذا تُحذر الأحاديث من اتباع قريش إن زاغوا عن الحكم ، بما أنزل الله قال تعالى: « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون »[٦] فإن لم يفوا بمثل هذه الشروط ، فإنهم سيصبحون خطراً على الأمة وحذّرت الأحاديث الشريفة من اتباعهم على غير ما أنزل الله ودعت إلى اجتنابهم والبعد عنهم واعتزالهم ، لما

---

(١) ابن أبي شيبة ، المصنف ، ٥/ ٥٤٤ ، الساعاتي ، الفتح الرباني ، باب الخلافة ح ٥ ، ٢٣/ ٦٥ .

(٢) ابن أبي شيبة ، المصنف ، ٥/ ٥٤٤ ، عواد وآخرون ، المسند الجامع ، باب الإمارة ، ح ٢/ ١١١٢.

(٣) ابن حجر ، فتح الباري ، كتاب الأحكام ، باب الأمراء من قريش شرح الحديث (٧١٣٩) و (٧١٤٠).

(٤) المصدر نفسه .

(٥) ابن أبي شيبة ، المصنف ، ٥/ ٥٤٤ ، عواد وآخرون ، المسند الجامع ، باب الأمارة، ح ٢/١١١٢١.

(٦) سورة المائدة ، آية (٤٤) .

سيترتب على مؤازرتهم آنذاك من مخاطر على مصير الأمة، قال رسول الله ﷺ: « إن هلاك أمتي أو فساد أمتي رؤوس أغيلمة سفهاء من قريش »[1]وعندما سئل ﷺ « فما تأمرنا قال ﷺ : لو أن الناس اعتزلوهم »[2] .

ومن هذه النصوص تتضح الصورة كاملة لمسألة الأئمة من قريش ، وأن الأنصار انقادوا لقريش ضمن هذه الضوابط وعلى هذه الأسس ، وهذا ما أكدوه في بيعاتهم لرسول الله ﷺ على السمع والطاعة ، والصبر على الأثرة ، وأن لا ينازعوا الأمر أهله ، إلا أن يروا كفرا بواحا عندهم من الله فيه برهان [3].

من قال بالإجماع على حديث الأئمة من قريش

قال الإمام النووي: وعلى هذا انعقد الإجماع في زمن الصحابة فكذلك بعدهم ومن خالف فيه من أهل البدع أو عرض بخلاف من غيرهم فهو محجوج ، بإجماع الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم بالأحاديث الصحيحة . قال القاضي عياض: اشتراط كونه قرشيا ، هو مذهب العلماء كافة ، قال: واحتج به أبو بكر وعمر على الأنصار يوم السقيفة فلم ينكره أحد ، قال القاضي: وقد عدها العلماء في مسائل الإجماع ولم ينقل عن السلف فيها قول ولا نقل يخالف ما ذكرنا ، وكذلك من بعدهم في جميع الأعصار [4]. وقال ابن حزم تعليقا على قول أنس بن مالك الأنصاري السالف الذكر « الأئمة من قريش » وهذه الرواية ، جاءت مجيء التواتر رواها أنس

---

(١) ابن حنبل ، المسند ، باب الإمارة ، ح ١٥/ ٧٩٦١ .

(٢) الهندي ، كنز العمال ، باب الإمارة ، ح ١١/ ٣٠٨٣٣ . ابن حبان ، الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ، ح ٦٦٢٦/٧ .

(٣) البخاري مع شرحه فتح الباري ، ك الفتن ، ح (٧٠٥٥) و (٧٠٥٧) .

(٤) مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي ١٢/ ٢٠٠.ابن حجر ، فتح الباري، شرح الحديث (٧١٤٠).

ابن مالك الأنصاري ، وجابر بن عبد الله الأنصاري ، وجابر بن سمرة وعُبادة بن الصامت الأنصاريين ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وعبد الله بن عمر القرشيين[١].
وتعدد طرق هذه الروايات يعطيها قوة الرواية المتواترة .

وقال ابن حجر : قد جمعت طرقه عن نحو أربعين صحابياً لما بلغني أن بعض فضلاء العصر ، ذكر أنّه لم يرد إلا عن أبي بكر الصديق [٢].

وقال أبو بكر الباقلاني: « ويجب أن يعلم أن الإمامة لا تصلح إلا لمن تجتمع فيه شرائط منها: « أن يكون قرشياً »[٣] وعمل المسلمون به قرناً بعد قرن ، وانعقد الإجماع على اعتبار ذلك قبل أن يقع الخلاف بين المسلمين .

وبعد أن تبين عمل الأنصار والمهاجرين بهذا الحديث ومن بعدهم عامة الصحابة والتابعين ، فإن الأئمة الأربعة قالوا به أيضاً .

فقد روي ذلك عن أبي حنيفة النعمان بن ثابت[٤] . وقال الإمام مالك بن أنس « ولا يكون الإمام إلا قرشياً وغيره لا حكم له إلا أن يدعو إلى الإمام القرشي »[٥] وروي ذلك عن محمد بن إدريس الشافعي [٦]. وقال أحمد بن حنبل: والخليفة يجب أن: « يعرف للعرب حقها وفضلها وسابقتها ويحبهم لحديث « حبهم إيمان وبغضهم نفاق » ولا يقول بقول الشعوبية، وأراذل الموالي الذين لا يحبون العرب ولا يقرون

---

(١) ابن حزم ، الفصل ٤/ ٨٩ ، وينظر: عمارة ، الإسلام وفلسفة الحكم ، ٣٩٢ ، وقال: لم يزعموا لهذا الحديث تواتراً .

(٢) ابن حجر ، فتح الباري ، باب الأمراء من قريش ، شرح الحديث ١٣/ ٧١٤٠ ، وينظر : الدميجي الإمامة العظمى ، عند أهل السنة والجماعة ، ٢٦٥ .

(٣) ابن حجر ، المصدر ، السابق ، الباقلاني ، الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به ٦٩ الدميجي ، لإمامة العظمى ، ٢٧٥ .

(٤) ينظر: البغدادي ، أصول الدين ، ٢٧٥ .

(٥) ابن العربي ، أحكام القرآن ، ٤/ ١٧٢١ .

(٦) الشافعي ، كتاب الأم ، ١/ ١٤٣ .

لهم بفضل فإن لهم بدعاً ونفاقاً وخلافاً »[1] وقال: « الخلافة في قريش ما بقي من الناس اثنان ليس لأحد من الناس أن ينازعهم فيها ولا يخرج عليهم ولا نُقرّ لغيرهم إلى قيام الساعة » وقال ابن حزم: « لا يستحق الخلافة إلا قرشي »[2] وممن قال بذلك من أعلام المسلمين: الإيجي[3] والماوردي[4] وأبو حامد الغزالي[5] وابن خلدون[6]. ومن المحدثين محمد رشيد رضا قال: « أما الإجماع على اشتراط القرشية فقد ثبت بالنقل والعقل ، رواه ثقات المحدثين واستدل به المتكلمون وفقهاء مذاهب السنة كلهم، وجرى عليه العمل بتسليم الأنصار وإذعانهم لقريش ، ثم إذعان السواد الأعظم من الأمة عدة قرون »[7] .

وفي النظم السياسية في الإسلام: « اشتراط النسب القرشي ، ثابت بالشرع عن طريقين السُنّة والإجماع »[8] .

من يرى الإمامة في قريش من غير أهل السنة والجماعة : وممن يرى أنّ الإمامة لا تصح إلا في قريش ، الإمامية ، إلا أنهم زعموا أنها لا تكون إلا في علي ابن أبي طالب وأولاده وأنها تسلسلت من أمير المؤمنين علي إلى الحسن ثم إلى الحسين ثم إلى أبنائهم ثم إلى محمد بن الحسن العسكري المنتظر [9].

الراوندية: وهم أتباع أبي هريرة الراوندي من فرقة الكيسانية إلا أنهم يرون أنها

---

(١) ابن أبي يعلى ، طبقات الحنابلة ، وذيله لابن رجب ، ١/ ٣٠ .

(٢) ابن حزم ، الفصل ، ٤/ ١٠٩ .

(٣) الإيجي ، المواقف في علم الكلام ، ٣٣٨ .

(٤) الماوردي ، الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، ٦ .

(٥) الغزالي ، فضائح الباطنية ، ١٥٠ .

(٦) ابن خلدون ، المقدمة ، ١٩٤ .

(٧) رضا ، الخلافة أو الإمامة العظمى ١٩ .

(٨) ينظر: أبو فارس: النظام السياسي في الإسلام ١٩٣ .

(٩) الرازي ، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ٩٥ .

لا تصح إلا في ولد العباس بن عبد المطلب ثم أولاد المنصور أبي جعفر الخليفة العباسي الثاني [١].

وأتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي كان من مذهبهم جواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل ، وهم يرون أن الخلافة في علي ثم ولده من فاطمة سواء كان حسنياً أم حسينياً [٢].

وهناك بعض الفرق الغالية التي تتعلق بآل البيت رضي الله عنهم ، ترى أن الخلافة لا تتجاوز واحداً منهم ، وعامتهم يحصرونها في ذرية علي بن أبي طالب ولا سيما من أبناء فاطمة رضي الله عنها [٣].

من يرى عدم اشتراط القرشية في الخلافة: أول هؤلاء الخوارج ، وهم كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه ، سواء كان في زمن الخلفاء الراشدين أو من جاء بعدهم [٤]، ويأتي في مقدمتهم الخوارج الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، والخوارج أجازوا أن تكون الإمامة في غير قريش ، وأجازوا أن لا يكون في العالم إمام أصلاً ، وإن احتيج إليه فيجوز أن يكون عبداً أو حراً أو نبطياً أو قرشياً [٥].

وبعض المعتزلة يُجيزون الإمامة في غير قريش ، إلا أنهم لا يجيزون تقديم النبطي على قريش ، أما جمهور المعتزلة ، فيشترط النسب القرشي [٦].

وممن قال بعدم اشتراط القرشية من الكتاب المحدثين: العقاد ، في الديمقراطية

---

(١) الأشعري ، مقالات الإسلاميين ، ١/ ٩٦ .

(٢) الشهرستاني ، الملل والنحل ، ١٠/ ١١٢ .

(٣) المصدر نفسه ، / ١٢٧ . فما بعدها .

(٤) المصدر نفسه ، ١/ ٨٤ .

(٥) المصدر نفسه ، ١/ ٦٤ .

(٦) المصدر نفسه ، ١/ ٨٥ ، وينظر: عمارة ، الإسلام وفلسفة الحكم ٣٩٣ .

في الإسلام[1] والدكتور الخربوطلي ، في الإسلام والخلافة[2] والدكتور صلاح الدين دبوس ، في الخليفة توليته وعزله[3]، ومحمد عمارة ، في المعتزلة وأصول الحكم والدكتور إبراهيم بيضون ، في الأنصار والرسول قال: وما لبث المهاجرون أن سيطروا على الموقف في ظل شعارهم « الأئمة من قريش ... وانفض جمع الأنصار »[4] وقال عمارة: روى الطبري وغيره خبر السقيفة بطرق متعددة خالية كلها من ذكر الإحتجاج بالخبر المروي « الأئمة من قريش » فهو رأي لأبي بكر وليس حديثاً رواه عن رسول الله ﷺ [5].

ولعل في هذا الجهل بهذا الحديث الذي تبينت طرق روايته وتعددت نصوصه ومصادره ، ما يبين عن عمق العلاقة فيما بين التاريخ الإسلامي والحديث النبوي الشريف ، إذ لو اعتمد هذا الكاتب على كتب الحديث لما جعل من تاريخ الطبري مصدراً للحكم على إثبات الحديث أو نفيه ، وعلى هذا يتضح بطلان وضعف ، هذا الرأي الذي لا يستند إلى دليل نقلي ولا إلى شاهد عقلي إذ إن النقل الصحيح أثبت هذا الحديث ، وواقع الأمة التي قدمت قريشاً يؤكد عملها به ، ومن ثم لا حجة بأقوال الشواذ ، عن إجماع الأمة من الخوارج أو ممن ينكر النص الصحيح ويقول بهواه ، تحقيقاً لأغراض في نفسه ، أو تأكيداً لأحكام مسبقة .

ومما سبق يتضح أن للأنصار تصوراً تاماً عن مسألة الخلافة ، وأنها لم تكن مجهولة عندهم ، وأن حديث « الأئمة من قريش » كان يرويه كثير منهم ، وأن الذين لا يعلمونه سكتوا عندما رواه لهم أبو بكر الصديق[6] ولهذا لم يراجعه أحد من

---

(١) العقاد ، الديمقراطية في الإسلام ٦٩ .

(٢) الخربوطلي ، الإسلام والخلافة ، ٨ .

(٣) دبوس ، الخليفة توليته وعزله ٢٧٠ .

(٤) بيضون ، الأنصار والرسول ٥٨ ، بيضون ، الحجاز والدولة الإسلامية ، ١٠ .

(٥) عمارة،المعتزلة وأصول الحكم، ١٧٦فما بعدها.هادي، دور الأنصار السياسي في الدولة الإسلامية ١٨٦

(٦) مسلم ، صحيح مسلم بشرح النووي ، ١٢/ ٢٠٠ ، رضا ، الخلافة أو الإمامة العظمى ، ١٩ .

الأنصار عندما استشهد به . فأمر الخلافة تم بالتشاور والاحتكام إلى النصوص الشرعية والعقلية ، التي أثبتت أحقية قريش بها ، ولم يُسمع عن أحد من الأنصار بعد بيعة السقيفة أنه دعا لنفسه بالخلافة ، مما يؤكد اقتناع الأنصار وتصديقهم لما تم التوصل إليه من نتائج .

فليس من المقبول أن تُجهل كل هذه الحقائق أو تتجاهل ، وينكر وجود الأحاديث الصحيحة سنداً ومتناً أو يُزعم أنها شعار رفعته قريش لاستلاب الخلافة من الأنصار ، فيُغمز بذلك برابطة الأخوة بين المهاجرين والأنصار ، ويُطعن في وحدة هذه الأمة ، وتقدم المسوغات الزائفة لهدم الأساس الذي بُنيت عليه وحدتها في دعوة تشوبها السمات الشعوبية ، التي يُعميها حقدها على العرب والمسلمين عن كل حقيقة .

قال الإمام أحمد بن حنبل: إن على الخليفة « أن يعرف للعرب حقها وفضلها وسابقتها ويُحبهم ، ولا يقول بقول الشعوبية وأراذل الموالي ، الذين لا يُحبون العرب ولا يُقرون لهم بفضل »[1] .

وعلى هذا فإن نسبة هذه الأحاديث إلى أبي بكر أو أنها شعار لقريش ، ما هي إلا صورة من صور التشويه التي يتعرض لها تاريخ العصر الراشدي وصدر الإسلام الذي قام أساساً على جهود المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بإحسان .

وما سبق يؤكد إجماع الأنصار على بيعة أبي بكر ومن جاء من بعده من الخلفاء الراشدين ، ولا سيما أن لديهم كثيراً من الدلائل التي تشير إلى صحة المسار القادم بعد رسول الله ﷺ في مثل قوله: « خلافة النبوة ثلاثون سنة ثم يؤتي الله الملك من شاء »[2] .

وإن السمع والطاعة والصبر على الأثرة والوفاء وعدم منازعة الأمر أهله كلها

---

(١) ابن أبي يعلى ، طبقات الحنابلة ، ١/ ٣٠ .

(٢) العظيم آبادي ، عون المعبود في شرح سنن أبي داود ، باب الخلافة ، ح ٢/ ٤٦٢٢ .

معان تضمنتها بيعة الأنصار لرسول الله ﷺ [١] وثبتوا عليها ، فأثنى عليها رسول الله ﷺ ، وأثنى عليها المهاجرون من بعده ، وأسهمت في ترسيخ مكانة للأنصار عند المسلمين قل نظيرها .

قال ﷺ: « إنكم ما علمت تكثرون عند الفزع ، وتقلون عند الطمع »[٢] . وقال الخليفة أبو بكر ، نحن والأنصار كما قال القائل:

أبو أن يملونا ولو أن أمنا　　　تلاقي الذي يلقون منا لملت[٣]

وقال عمر بن الخطاب: « والله ما وفينا لهم كما عاهدناهم عليه إنا قلنا لهم: نحن الأمراء وأنتم الوزراء ، ولئن بقيت إلى رأس الحول لا يبقى لي عامل إلا أنصاري » [٤].

ولكن عمر توفي قبل ذلك ، وبقي الأنصار على منهجهم الثابت في العمل على الوفاء بما في ضمائرهم من شروط البيعة ونصرة الإسلام وبناء دولته دون أي تعكير أو التفات إلى الدنيا وحطامها الزائل .

---

(١) ينظر: البخاري مع شرحه فتح الباري ، ك الفتن ، ح (٧٠٥٥) و (٧٠٥٦) .

(٢) البلاذري ، فتوح البلدان ٣١ ، الكاندهلوي ، حياة الصحابة ، ١/ ٣٧٦ .

(٣) الكاندهلوي ، حياة الصحابة ، ١/ ٣٥٣ .

(٤) المصدر نفسه .

بيعة أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه بالخلافة

تاريخها : بويع أبو بكر بالخلافة يوم قُبض رسول الله ﷺ ، يوم الإثنين في ربيع الأول سنة إحدى عشرة في سقيفة بني ساعدة ، وبويع على المنبر بيعة العامة يوم الثلاثاء من غد ذلك اليوم [١].

وقيل لسعيد بن زيد[٢]: « متى بويع أبو بكر ؟ قال: « يوم مات رسول الله ﷺ كرهوا أن يبقوا بعض يوم وليسوا في جماعة »[٣] فلما بويع أبو بكر أقبل الناس على جهاز رسول الله ﷺ ، ودُفن يوم الثلاثاء [٤].

ومما سبق يتضح سرعة انعقاد بيعة أبي بكر في السقيفة ، وذلك ما يؤكد ضعف الروايات التي تتحدث عن الخلاف والتنافس على الخلافة ، وأن الأمر لم يكن على ما صوره بعض الإخباريين ، وأن الذي حصل في السقيفة ما هو إلا وجهات نظر تم تداولها في ذلك اللقاء، الذي تمخض عن قرار مصيري، سارت الأحداث في آخر حياة النبي ﷺ ، على التوطئة له منذ أن قُدّم أبو بكر لإمامة المسلمين في صلاتهم إذ صلّى بهم في حياة رسول الله ﷺ « ثلاثة أيام »[٥] وبهذا فإن اختيار أبي بكر خليفة لم يستغرق أكثر من ذلك اللقاء ، الذي تم في سقيفة بني ساعدة ، ثم أُكد في بيعة العامة من اليوم الثاني لوفاة رسول الله ﷺ ، وقد كان في السقيفة سباق

---

(١) المحب الطبري ، الرياض النضرة ، ١/ ١٩٩ .

(٢) سعيد بن زيد بن عمرو العدوي القرشي ، ابن عمّ عمر بن الخطاب وصهره على أخته فاطمة بنت الخطاب من المهاجرين الأولين أسلم قبل عمر شهد بدراً وما بعدها ، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة أقطعه عثمان أرضاً بالكوفة ، فنزلها ، توفي بالعقيق ودفن بالمدينة عام (٥٠ أو ٥١) ينظر: ابن عبد البر الاستيعاب ، ٢/ ٦٢٠ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ٢/ ٢٢٤ .

(٤) ابن سعد الطبقات ، ٢/ ٤٠١ ، ٢/ ٣٨٦ .، القضاعي ، عيون الأخبار ، ١٢٩ .

(٥) الطبري ، تاريخ ، ٣/ ١٩٧ .

بين المهاجرين والأنصار على الفوز بفضل أول مبايع لخليفة رسول الله ﷺ حتى اختلفت الروايات في تحديد ذلك أهو من المهاجرين أم من الأنصار .

أول من بايع الخليفة أبا بكر: قال عمر بن الخطاب : « كنت أول الناس أخذ بيده فبايعته إلا رجلاً من الأنصار أدخل يده من خلفي ، بين يدي ويده ، فبايعه قبلي»[(١)] يعني بذلك بشير بن سعد [(٢)]، وقال: فضرب على يده قبل أن أضرب على يده ثم ضربت علىٰ يده فتتابع الناس»[(٣)]«فبايع الناس وأولهم بشير بن سعد والد النعمان »[(٤)] وروي أيضاً « فلما بسط يده ليبايعاه ـ أبو عبيدة وعمر ـ سبقهما إليه البشير بن سعد فبايعه »[(٥)] وفي رواية أخرى ، أنهما بايعا معاً ، ومعهم أُسيد بن حُضير الأشهلي[(٦)]، « فبايعه الناس أحسن بيعة وأجملها »[(٧)] .

وبايعه سعد بن عبادة بن دليم الساعدي الخزرجي: وهو ممن شهد بيعة العقبة فكان نقيباً ؛ وسيداً جواداً مُقدما وجيهاً في الأنصار ، له رياسة وسيادة يعترف قومه بها ، وكان يحمل راية رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح ، ثم نزعها منه لما خشيَ شدته على مشركي قريش ، وجعلها بيد قيس بن سعد ابنه ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّها لم تخرج عنه إذ صارت إلى

---

(١) ابن كثير ، مسند الفاروق ، ٢/ ٥٣٣ ، وقال إسناده جيد .

(٢) بشير بن سعد بن ثعلبة الخزرجي الأنصاري ، شهد العقبة ، ثم شهد بدراً وأحداً والمشاهد بعدها أول من بايع الصديق من الأنصار ، قتل مع خالد بن الوليد بعين التمر في خلافة أبي بكر رضي الله عنه .
ينظر: ابن عبد البر الإستيعاب ، ١/ ١٧٢ .

(٣) الساعاتي ، الفتح الرباني ، ١٢/ ١٥٩ .

(٤) المصدر السابق ، ابن بكار ، الأخبار المفوقيات (٦٠٣) .

(٥) ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ١/ ١٧٢ ، ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ٢/ ٨٣ .

(٦) أُسيد بن حُضير بن سماك الأشهلي ، أسلم قبل سعد بن معاذ على يدي مصعب بن عمير ، شهد العقبة الثانية وهو أحد النقباء أختلف في شهوده بدراً شهد أحد وما بعدها ، آخى النبي ﷺ بينه وبين زيد بن حارثة توفي في المدينة سنة عشرين وقيل إحدى وعشرين ، وصلى عليه عمر بن الخطاب .

(٧) ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ١/ ٩٤ .

ابنه [١]، كان كثير الاهتمام والاحتفاء برسول الله ﷺ ، وقد روي أن رسول الله ﷺ قال: « جزى الله الأنصار عنا خيراً ، ولا سيما عبد الله بن عمرو بن حرام ، وسعد ابن عبادة »[٢] وذلك لما امتازا به في باب البذل والمساعدة .

ولمّا عاد رسول الله ﷺ من تبوك ، وأشرف على المدينة ، عند الثنية قال: « الله أكبر فلما نظر إلى أحد قال: هذا جبل يُحبنا ونُحبه ، ثم التفت فقال: هل تُحبون أن أخبركم بخير دور الأنصار ، خير دور الأنصار بنو النجار ثم بنو عبد الأشهل ، ثم بنو الحارث بن الخزرج ثم بنو ساعدة، وفي كل دور الأنصار خير»[٣] فقال سعد بن عبادة: ما أرى رسول الله ﷺ إلا قد فضّل علينا ، فقيل له قد فضّلكم على كثير[٤] ، ولم تكن مواقف سعد مجهولة عند أبي بكر الصدّيق ، عندما كان يحاور الأنصار في السقيفة .

بل كانت مكارمه معلومة عند أبي بكر ، وعامة المهاجرين ، فهو ذو فضل لا يُنكر ، وهذا ما أكده أبو بكر للأنصار في تقريراته أمامهم ، حتى قال: ولقد علمتم أن رسول الله ﷺ قال: « لو سلك الناس وادياً ، وسلكت الأنصار وادياً أو شعباً لسلكت وادي الأنصار أو شعب الأنصار »[٥] وقوله:« إنكم ما علمت أعفّة صبر »[٦] وشروط بيعة العقبة التي أُخذت على الأنصار من: السمع والطاعة في المنشط والمكره ، والعسر واليسر ، وأن لا ينازعوا الأمر أهله ، إلا أن يروا كفراً بواحاً عندهم من الله فيه برهان [٧].

(١) ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ٢/ ٥٩٥ .

(٢) ابن حمزة ، البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث ، ٢/ ٢٦٣ .

(٣) الطبراني،المعجم الكبير ، ٦/ ١٢٤،الصنعاني، المصنف،١١/ ٦٠، مع خلاف في ترتيب دور الأنصار.

(٤) ابن حجر ، فتح الباري، مناقب الأنصار ، ٧/ ٣٧٩١ ، ابن العربي ، عارضة الأحوذي ، ١٣/ ٢٧٠.

(٥) البخاري ، فتح الباري ، باب ما يجوز من « اللوح » ح (٧٢٤٤) .

(٦) النّسائي، السنن الكبرى ، ح (٨٣٤٥) ابن حبان ، الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ، ح (٧٢٣٣) .

(٧) البخاري ، فتح الباري ، ك الفتن ، ح (٧٠٥٦) .

ثم ذَكّر سعد بن عُبادة بقول فصل وحجة لا ترد فقال: « ولقد علمت يا سعد أن رسول الله ﷺ قال وأنت قاعد: قريش ولاة هذا الأمر فبرّ الناس تبع لبرهم وفاجرهم تبع لفاجرهم ، قال سعد: صدقت نحن الوزراء وأنتم الأمراء »[1] « فتتابع القوم على البيعة وبايع سعد »[2] وروى ابن الجوزي بإسناده عن السلمي قال: « قام سعد بن عبادة يوم السقيفة فبايع »[3] .

وهناك رواية أخرى تذكر أن سعداً بايع لكن بعد شيء من الممانعة والمحاورة وأنّ أبا بكر والأنصار ألحوا عليه حتى بايع ، قال سعد: « إنك وقومي أجبرتموني على البيعة فقالوا: إنا لو أجبرناكَ على الفرقة فصرت إلى الجماعة كنت في سعة ولكنّا أجبرناك على الجماعة »[4] .

وبهذا تثبت بيعة سعد بن عبادة ، وبها يتحقق إجماع الأنصار على بيعة الخليفة أبي بكر ، ولا يعود أي معنى للترويج لرواية باطلة أو ما يدور في معناها من الروايات التي تصطدم مع سيَر هؤلاء القوم الذين منهم سعد بن عبادة ، والذين فازوا بثناء الله في الآيات القرآنية التي رضي الله فيها عنهم وأرضاهم ، وبرضاء الرسول ودعائه لأصحابه من المهاجرين والأنصار ، وكل ما يخالف كتاب الله فهو مردود ومنبوذ ، وهو اتهام خطير لصحابي عُرف بكرمه وجوده وسيادته وقربه من رسول الله ﷺ وشدة غيرته على المسلمين وجهاده وصبره وثباته ، وبعد كلّ هذا يُنسب له وهو سيد الأنصار في زمانه ، العمل على شق عصا المسلمين ، والطعن بإسلامه من خلال ما يُنسب إليه من قول: « لا أُبايعكم حتى أرميكم بما في كنانتي

---

(١) الساعاتي ، الفتح الرباني ، ح ٢٣/ ١٢٩ ، ابن تيمية ، منهاج السنة ، ١/٥٣٦ السيوطي ، تاريخ ٧٠ ، وينظر: مسلم ، صحيح مسلم بشرح النووي ، ك الإمارة ، ح (١٨١٨) الهيثمي ، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، باب الخلافة في قريش ٥/ ١٩١ ، وينظر: الخليفة الأنصار في العصر الراشدي ، ١٠٢ .

(٢) الطبري ، تاريخ ، ٣/ ٢٢٣ ، ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ٢/ ٤٠ و ٦/ ١٠ .

(٣) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٣/ ١٦ .

(٤) الطبري ، تاريخ ، ٣/ ٢٢٣ ، ابن الجوزي ، المنتظم ، ٣/ ٢١٦ .

وأخضب سنان رمحي ، وأضرب بسيفي ، فكان لا يُصلي بصلاتهم ولا يجمع بجماعتهم ولا يقضي بقضائهم ولا يُفيض بإفاضتهم »[١] أي بالحج وهل فعل المرتدون الذين قاتلهم الأنصار والمهاجرون أكثر من هذا الذي يُنسب إلى سعد بن عبادة زوراً وبهتاناً .

إن هذه الرواية التي استغلت للطعن في وحدة المهاجرين والأنصار وصدق أخوّتهم ما هي إلا رواية باطلة للأسباب التالية :

ـ مخالفتها لنصوص القرآن الكريم التي تثني على الصحابة ، وسعد من كبارهم وفي مقدمتهم .

ـ مخالفتها لنصوص الحديث الشريف الذي يثني على سعد بن عبادة والذي ذُكر آنفاً .

ـ وأنّ الراوي : « إخباري تالف لا يوثق به ، شيعي محترق صاحب أخبارهم »[٢] لا يؤخذ بأخباره في المسائل الخلافية ، قال الذهبي عن هذه الرواية : « إسنادها كما ترى »[٣] أي في غاية الضعف ، أمّا متنها فهو يُناقض سيرة سعد ، وما في عنقه من بيعة على السمع والطاعة ، ولماضي جهاده ونصرته ، إذ كان هو حامل راية الأنصار في عهد رسول الله ﷺ فإذا استحر القتل « كان رسول الله ﷺ ، مما يكون تحت راية الأنصار »[٤] .

وبلغ من غيرته أن قال رسول الله ﷺ « اسمعوا إلى ما يقول سيدكم »[٥] ولم يذكر عن سعد أنه نزع يداً من طاعة ، أو نازع الأمر أهله ، فمن غير الموضوعية

---

(١) الطبري ، تاريخ ٣/ ٢٢٣ ، ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ٢/ ٤٠ و ٦/ ١٠ .

(٢) الذهبي ، ميزان الاعتدال ، ٤/ ٤٩٢ .

(٣) الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ١/ ٢٠٠ و ١/ ٢٧٦٠ .

(٤) ابن حنبل ، المسند ، مناقب الأنصار ، ح ٥/ ٣٤٨٦ .

(٥) النسائي ، السنن ، فضائل ، ح (٨٢٢٦) .

التركيز على الروايات الباطلة ، وإذاعتها والتشكيك بمتانة الأساس الذي بنيت عليه وحدة الأمة بعد وفاة رسول الله ﷺ فهناك من الباحثين ، من لا يزال يروّج لمثل هذه الأباطيل ، ويعمل على مد جذور ذلك الخلاف إلى عصر الرسول ﷺ ، وأنه كان مطروحاً « قبل ثلاث سنوات على الأقل ، إبان اعتراض قريش على حمل سعد ابن عبادة راية الفتح »[1] ويستطرد هذا الباحث ، ودون الإشارة إلى أي مصدر فيجعل من تحويل الراية من سعد إلى ابنه قيس ، قضية ذات خطر يُؤثِر لأجلها سعد « المنفى وربما الموت بعد ذلك على أن يُبايع لقريش »[2] « فخرج ملتجئاً إلى الشام ، حيث قُتل في عهد الخليفة عمر ، نتيجة لهذا الموقف المتشدد »[3]

وبهذه البساطة يمحو هذا الكاتب إيمان سيد الخزرج وولائه لله ولرسوله ﷺ وللمؤمنين ويغمز ويطعن في أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعدالته وأمانته ويوحي أنه كان شريكاً في مقتل سعد الذي توفي بحوران من أرض الشام ، وبعد إثارة هذه الشكوك وأنّ سعداً استمر على موقفه المتشدد ، تناقض الكاتب في روايته فذكر أن سعداً: « رضخ للأمر الواقع ... إذ وجد أنّ الرياح مالت إلى المهاجرين وشيخهم أبي بكر »[4] وبذلك يفقد الصدق ، ويرد كلام الله تعالى وشهادته عزوجل للأنصار والمهاجرين بصدق الإيمان وإخلاص الجهاد وبالأخوّة والمودة في قوله تعالى:﴿ إنّ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض ﴾[5] وقوله تعالى: ﴿ والذين ءامنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم ﴾[6] ومع ذلك يأبى أعداء الأنصار والمهاجرين من مجوس

---

(١) ينظر: بيضون ، الأنصار والرسول ﷺ ، ٥٣ فما بعدها .

(٢ ، ٣ ، ٤) المصدر نفسه . وينظر : الخليفة ، الأنصار في العصر الراشدي ، ١٠٢ .

(٥) الأنفال من الآية (٧٢) .

(٦) الأنفال الآية (٧٤) .

هذه الأمة إلا أنّ يعملوا على وصم الصحابة الكرام ببعض أخلاق الجاهلية التي طهرهم الله منها ، فيصورون ولاء هذا قرشياً وذاك خزرجياً ، أو مكياً ويثربياً والله سبحانه وتعالى سماهم مهاجرين وأنصاراً .

قيل لأنس بن مالك الأنصاري رضي الله عنه: « أرأيت اسم الأنصار كنتم تسمون به أم سماكم الله ؟ قال: بل سمانا الله »[١] وعن قتادة في قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين أمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله ﴾[2] . قال: كان ذلك بحمد الله جاءه سبعون رجلاً من الأنصار فبايعوه في العقبة ونصروه وآووه حتى أظهر الله دينه ، قال ولم يُسمّ حي من الناس باسم لم يكن لهم إلا هم[٣] قال تعالى: ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه ﴾[٤] ومعلوم أنّ رضاء الله تعالى لا يحصل إلا لمن صلح عمله وصدق جهاده ، ولهذا فإن أي باحث أو فرقة أو طائفة من الناس ينتقصون أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أو يرتعون في حماهم أو يحومون حوله ، فهم الناقصون وهم المتهمون ، الناقصون في الرؤية والبحث والصدق والأمانة المتهمون بالزندقة والعمل على هدم الدين ، يدعون الناس إلى تكذيب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وتصديق أباطيلهم ومع ذلك تجدهم يتحدثون عن شيء اسمه الموضوعية والبحث العلمي والإنصاف ، وكيف يتحدث هؤلاء عن هذه المواصفات وهم يعملون بضدها ، فهل من الموضوعية والعلمية والإنصاف أن يُردّ قول الله تعالى ؟ ويؤخذ بتخيلاتهم !! أم أنْ تُنكر إنجازات المهاجرين والأنصار ، في الفكر والحضارة والوحدة والفتوح وغيرها ؟ .

---

(١) البخاري ، فتح الباري ، ك مناقب الأنصار ، ح (٣٧٧٦) ، ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ١/١٥ .

(٢) صورة الصف من الآية (١٤) .

(٣) ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ١/ ١٤ .

(٤) سورة التوبة من الآية (١٠٠) .

إن الإنصاف والموضوعية لا توجد إلا عند المؤمنين ، الذين يحاسبون أنفسهم ويخافون يوم الحساب ، وإنّ من الإنصاف والعلمية والموضوعية أن يُتهم كل من يطعن بأحد من الصحابة الكرام ، وأن يكون ذلك مؤشراً على عقوقه لعقيدته وحَمَلتها ، ولأمته وبُناتها وحماتها وأن هؤلاء الطاعنين بالصحابة ، مقاصدهم أخطر وأكبر مما يُفصحون عنه ، مقصدهم العمل على هدم الإسلام ، وانتزاع الثقة من عقول المؤمنين بهذا الدين ، ولما لم يجرؤا على الإفصاح عن تكذيب القرآن الكريم والطعن بالرسول الأمين ﷺ ، جعلوا من الصحابة غرضاً لهم وهدفاً لنشر سمومهم لأنهم علموا أن الطعن فهم طعن في الوحي وطعن في النبوة ، لأنهم هم حملة الوحي وورثة النبوة بعد رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿ لقد تاب الله على النبّي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة ﴾ [1] ولكن الزنادقة والمجوس والعلمانيين الذين تحللوا من عقيدتهم لم يتوبوا ، وبدلاً من أن ينظروا إلى ما أصاب الأمة المسلمة من الهوان والتمزق والضياع والتبعية ، عندما تخلت عن منهجية وعقيدة وأخلاق المهاجرين والأنصار ،ويبحثوا ويحللوا ذلك بموضوعية ويستخرجوا من ذلك العبرة والعظة ، بدلاً من ذلك اتخذوا تاريخ صدر الإسلام العزيز المشرق عصر الفتح والفكر والحضارة ، مسرحاً لأوهامهم ، ومرتعاً لأمانيهم الباطلة .

بينما يُمجّدون هذا العصر ، **عصر الإنحراف والتبعية ، عصر الهزيمة وفقدان الهوية ، وضياع الوحدة ونكران الأخوّة وحقوق الجوار ، زمن التقليد والبطالة ويُمجدون الذين يعملون على قيادة الأمة ، بالمنهجية والأخلاقية التي يريدها لها أعداؤها ، بعيداً عن سيرة الصحابة ومنهجهم الذي ساروا عليه .**

فكم يتوجب بعد كل هذا على المنصفين وعلى المؤمنين ، أن يتعلقوا بمعالم عصر الصحابة وعقيدته وثوابته ، وكم يتوجب عليهم من العمل والصبر والإحتساب ، حتى تعود الأمة إلى منهجها ومسارها الصحيح ، وكم يتوجب على

---

(١) سورة التوبة من الآية (١١٧) .

الغوغاء والمغفلين والجهلة والذين خُدعوا وغُرّر بهم ، حتى تشككوا في عقيدتـــهم وخرجوا من ملتهم فأصبحوا هائمين على وجوههم في هذا الوجود ، يتبعون كـــل ناعق ، يُستخدمون ضد أنفسهم وضد بلدانهم وأمتهم ثم يُلفظون هياكل بـــلا أرواح وكم يجب على هؤلاء من التنبه والحذر ، ممن يدعوهم إلى غير منهج الصحابـــة وعقيدتهم ، وكم عليهم من واجب العمل والدراسة حتى يعودوا إلى موقعهم الطبيعي في ظلال عقيدتهم ، التي تُعلمنّا أنه لا يُصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

بيعة علي بن أبي طالب للخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنهما

كثيرة هي المصادر التي تشكك في علاقة علي بن أبي طالب بإخوانه من الخلفاء الراشدين ، فتارة يزعُمون أنّه لم يبايع ، وتارة أنّه تأخر في البيعة[١] ، وأخرى أنّـه بحث عمن يُناصره فلم يجده ، حتى زعم أعداء الصحابة الكرام أن علياً استعان في ذلك بالسيدة فاطمة بنت محمد رسول الله ﷺ ، وأخذ يدور بها على بيوت الأنصار يطلب مساندتهم [٢]، وهم يقولون لو لم نبايع أبا بكر لبايعناك .

وقولهم: إن جماعة من الصحابة ومعهم عمر رضي الله عنه « هجموا على الدار ، وخرج علي ومعه السيف ، فلقيه عمر ، فصارعه عمر فصرعه ، وكسر سيفه ، ودخلـــوا الدار فخرجت فاطمة ، فقالت: والله لتخرجن أو لأكشفن شـــعري ، ولأعجّن إلـــى الله تعالى ! »[٣]. إلى غير ذلك من الأقوال الفاسدة ، والروايات التي يُكذّبها واقـــع هؤلاء القوم ، وأخلاقهم وإيمانهم .

---

(١) ينظر: المحب الطبري ، الرياض النضرة ، ١/ ٢٤٢ .

(٢) الآلوسي ، التحفة الإثني عشرية ، ٢٩٨ .

(٣) اليعقوبي ، تاريخ ، ١٢٦/٢ . المسعودي ، مروج الذهب ٢/ ٣٠٨ .

وعلى الرغم من أن هناك روايات جيدة الأسانيد تذكر تأخر علي عن بيعة الصديق رضي الله عنهما لمدة ستة أشهر ، لكن الأخطار التي أحدقت بالمسلمين بعد وفاة رسول الله ﷺ ، وأنه نجم النفاق ، واشرأبت اليهود والنصارى وأصبح المسلمون كالغنم في الليلة المطيرة الشاتية ، لفقد نبيهم وقلتهم وكثرة عدوهم[١] وكذلك ظهور المتنبئين والطامعين[٢] وأنّ كل تلك الأخطار كانت تستهدف المسلمين في المدينة أنصاراً ومهاجرين ، **أبا بكر وعلياً** وسعد بن عبادة وغيرهم وأنّ الفتنة التي كان يُحذّر منها رسول الله ﷺ ، ظهرت من هذه القوى **وأما الأنصار والمهاجرون** ، وأبو بكر وعلي رضي الله عنهما فلم يكن أمامهم إلى التعاون على دحر الردة والمنافقين ، وأنّ تلك المرحلة لا تسمح بقبول أي رواية تذكر تخلُّف علي رضي الله عنه ومن هم بمقامه ولو لساعة واحدة ، فضلاً عن ستة أشهر ، إذ أنّ الموقف كان حرجاً والأحداث مصيرية ، ولم تكن الخلافة وموقعها في تلك المرحلة مكسباً أو مغنماً ليتنافسوا عليه ، وإنّما كانت مغرماً وعبئاً ثقيلاً ، ولم يكن فيها ولا حولها إلا السهر والنصب والتضحية، ولم يكن بإمكان أي خليفة مهما بلغت عظمته أن يقف في وجه عاصفة الردة وتداخلاتها وتبِعاتها إن لم يكن عن يمينه وشماله أمثال عمر وعثمان وعلي وإخوانهم رضي الله عنهم ، وإنّ القول بتخلف علي الذي لم يتخلف عن موقف حميد منذ أن أسلم رضي الله عنه ، هو اتهام خطير له ، يُشكك في إخلاصه لدينه ، وفي حرصه عليه وفي شيمه وشجاعته ، إذ أنّ هذه الروايات تريد القول ، بأنّ الخليفة ومن خلفه من المهاجرين والأنصار ، كانوا مشتبكين مع المرتدين ، في كل الجبهات الداخلية والخارجية ، وأبو بكر بشيبته وسنّه ، وأمثاله من شيوخ الصحابة معه ، يقاتلون ويجاهدون لردع أعداء الدين وكف أخطارهم وأطماعهم عن المدينة وعليّ والزبير

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٣/ ٢٢٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ٣/ ٢٢٧ .

وأقرانهما بشبابهما وعنفوانهما ، يقبعون في المدينة ـ حاشاهم ـ من ذلك ويسـألون عن أخبار إخوانهم المجاهدين ، فهل يقبل هذا المنطق عاقل أو منصف عارف بحب علي للجهاد ، وشغفه به ؟ فإن قيل إنّه لم يتخلف عن الجهاد ومواجهة المرتدين، فيقال لمن جاء بتلك الروايات، تحت راية من كان يقاتل؟ وإلى من يدعو؟ ولماذا لم يُذكر جهاده ذلك في روايتكم ؟ ويقال أيضاً هل كان يُصلي في المسجد النبوي أم لا ؟ وجدار داره مجاور للمسجد ، وإن صلىّ فيه خلال شهور تخلفه عن البيعة كما يزعمون فمن إمامة ؟ ما دام الخليفة هو الذي يصليّ بالمسلمين ، وإذا كان يُصلي خلفة ويثق به على الدين ــ وهو كذلك ــ فكيف لا يأتمنه على الدنيا ؟ أم أنه كان يسمع الأذان في جوار بيته ولا يلبي ذلك ؟ مع علمه بتغليظ العقوبة[١] لمن يتخلف عن إجابة النداء دون عذر ، فضلاً عن أنّه لم يكن في ذلك العهد من يتخلف عن صلاة الجماعة ، إلا من هو متهم بالنفاق أو التخلف عن رسول الله ﷺ وحاشا لعلي رضي الله عنه أن يكون من هذه الأصناف ، أو ممن يسالمها ويهادنها ولو لحين.

إلى غير ذلك من التساؤلات التي يثيرها قبول مثل تلك الروايات التي تشير إلا تخلف علي عن البيعة .

وإنّما الذي يمكن قبوله ، ما ينطبق على فهم علي رضي الله عنه وعلمه وإيمانه وإخلاصه في جهاده ، وفي علاقاته مع إخوانه من المهاجرين والأنصار ، وأنّه لم يتخلف عن البيعة ، ولا عن مؤازرة الخليفة في جهاده ضد المرتدين وكما يؤكد ذلك كثير من النصوص ، والتي منها : سُئل سعيد بن زيد: « هل تخلف أحد على أبي بكر في البيعة ؟ قال: لا ، إلا مرتد أو من كاد أن يرتد » وقال : وتتابع المهاجرون

---

(١) قال ﷺ : « والذي نفسي بيده لقد هممت أن آمر بحطب يُحتطب ، ثم آمر بالصلاة فيؤذن لها، ثم آمر رجلاً فيؤم الناس ، ثم أُخالف إلى رجال فأحرّق عليهم بيوتهم ، والذي نفسي بيده لو يعلم أحدهم أنه يجدعَرقاً سميناً أو مرماتين حسنتين لشهد العِشاء » البخاري ، فتح الباري ، ك الأحكام ، باب إخراج الخصوم وأهل الريب من البيوت ، ح (٧٢٢٤) .

على بيعته من غير أن يدعوهم [١]. ومما يُصوّر الحماسة لإقامة خليفة للمسلمين آنذاك ، وسرعة استجابة المهاجرين والأنصار لذلك ، لسد الفراغ الكبير الذي تركه رحيل رسول الله ﷺ ـ أنّ علياً رضي الله عنه كان في بيته:

« إذ أُتي فقيل له: قد جلس أبو بكر للبيعة ، فخرج بقميص ما عليه إزار ولا رداء عجلاً كراهية أن يبطئ عنها حتى بايعه ، ثم جلس إليه ، وبعث إلى ثوبه فأتاه فتجلله ولزم مجلسه »[٢] .

وهذا هو الأمر الطبيعي ، الذي لم يكن للمهاجرين والأنصار خيار غيره ، إذ بغتتهم الأحداث الجسام كما وصفت ذلك أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: « قبض رسول الله وارتدت العرب واشرأب النفاق ، ونزل بأبي ما لو نزل على الجبال الراسيات لهاضها ، قالت: فما اختلفوا في نقطة إلا طار أبي بحطها وثنائها »[٣] قالت :

« فلما قبض رسول الله ﷺ، نصب الشيطان رواقه ومدَّ طنبه ونصب حبائله وظن رجال أن قد تحققت أطماعهم ، ولات حين يظنون »[٤] ومع كل تلك الأحوال العصيبة ، يخرج منادي الخليفة « من بعد الغد من متوفى رسول الله ﷺ ، ليتم بعث أسامة ، ألا لا يبقين بالمدينة أحد من جند أُسامة إلا خرج إلى عسكره »[٥] فلو لم تكن مؤازرة المهاجرين والأنصار وفي مقدمتهم علي بن أبي طالب وسعد بن عبادة رضي الله عنهما ، هل كان بإمكان الخليفة أن يُرسل ذلك الجيش بعد يوم واحد من أعظم حدث في تاريخ الإسلام ؟ وإذا كان هناك خلاف

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٣/ ٢٠٧ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المحب الطبري ، الرياض النضرة ، ١/٢١١ .

(٤) المصدر نفسه ١/ ٢١٢ .

(٥) المحب الطبري ، الرياض النضرة ، ١/ ١٤٩ .

في السقيفة أو تَخلّف من علي رضي الله عنه ، فمتى تم إصلاح الأمـــور وترتيـــب الخطـــط لبعـــث جيش أسامة ، ومن ثم قيادة الصدّيق لمن بقي من المـــهاجرين والأنصـــار لمواجهة الأعراب المرتدين من حول المدينة ، وإلــــى ذي القَصـــة[١]. وقـــالت أم المؤمنين عائشة: « لما خرج أبي شاهراً سيفه راكباً راحلته، يعني يوم الردة ، فجاء علي بن أبي طالب فأخذ بزمام راحلته فقال له: أين يا خليفة رسول الله ﷺ ؟ أقول لك ما قال رسول الله ﷺ يوم أحد شم سيفك لا تفجعنا بنفسك ، وارجع إلى المدينـــة والله لئن أُصبنا بك لا يكون بعدك نظام أبداً »[٢] وقال ابن كثير: « وقد قدمنـــا فـــي سيرة الصديق أنه بايعه يومئذ المهاجرون والأنصار حتى علي بن أبي طـــالب »[٣]. وقال: « وكان بين يدي الصديق كغيره من أمراء الصحابة ، يرى طاعته فرضـــاً عليه وأحب الأشياء إليه »[٤] .

وقد جاء في الصحيح أن بيعة الصديق كانت « فلتة »[٥] قال ابن كثير: وإنمـــا كانت فلتة لأنهم لم يحتاجوا إلى تفكير وترو في الصدّيق ، إذ هم حازمون قاطعون

---

(١) ينظر: الكـــلاعي ، الإكتفاء، ٣/ ١٦ ، و« ذي القصة »موضع على طريق الربّـــذة وهو على بريد من المـــدينة تلقاء نجد ، وإليها خرج الخليفة أبو بكر ، وفيها عقد الألوية وقطع الجـــنود ووجه الأمراء لحرب المرتدين . ياقوت ، معجم البلدان ، ٧/ ٦٤ .

(٢) المحب الطبري ، الرياض النضرة ، ١/ ١٤٨ .

(٣) الحاكم ، المستدرك ، ٣/ ٧٦ . وقال عن الحديث الذي ذكر بيعة علي لأبي بكر هذا حديث صحيح على شرط الشيخين . ينظر: السيوطي ، تاريخ ، ٦٧ .

(٤) ابن كثير ، البداية والنهاية ٧/ ٢٣٧ .

(٥) الفلتة: هي البغتة وما وقع فجأة ، من غير ترو ولا مشارة . ينظر: شرح نهج البلاغة ٢/ ٢٧ ابن كثير، مسند الفاروق،٢/ ٥٣٣ وقال طه حسين: « فلتة » « لأن المسلمين لم ينكروا هذه البيعة ولم يجادل فيها مجادل منهم ولا تردد متردد » كتاب الشيخان ، ٤١ـــ ٤٧ ـــ قال عمر: بلغني أن رجالاً يقولون في خلافة أبي بكر أنها كانت فلتة ... ولكن الله أعطى خيرها ووقى شرها » ينظر: الجاحظ العثمانية ، ١٩٨ ، وقال هذا دليل تصويبها لأن المراد بذلك دفع شر الإختلاف . ينظر: ابن أبي شيبة المصنف ، ٨/ ٥٧٠ ، ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ٢/ ٤٠ .

بأنه أفضلهم وخيرهم بعد رسول الله ﷺ [١]. وهذا ما يوافق مكانته عند رسول الله وما ثبت من أحاديث صحيحة في هذا الشأن .

وقال أيضا: « قدمنا في سيرة الصديق أنه بايعه يومئذ المهاجرون والأنصار حتى علي والزبير ، قال: وهذا إسناد صحيح ارتضاه مسلم بن الحجاج وابن خزيمة»[٢]وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول : « سبق رسول الله ﷺ ، وثنى أبو بكر ، وثلث عمر ، ثم كنا قوما بعد خبطتنا فتنة ما شاء الله ، وفي رواية ، يعفو الله عمن يشاء »[٣]. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : « قدم رسول الله ﷺ ، أبا بكر يصلي بالناس وأنا حاضر غير غائب وصحيح غير مريض ، ولو شاء أن يقدمني لقدمني فرضينا لدنيانا من رضيه الله ورسوله لديننا »[٤] . وعن الحاكم بن حجل قال: سمعت عليا رضي الله عنه يقول: « لا يفضلني أحد على أبي بكر وعمر ، إلا جلدته حد المفتري »[٥]. وعن قيس بن عبادة قال: قال لي علي رضي الله عنه : « إن رسول الله ﷺ مرض ليالي وأياما ينادي بالصلاة فيقول: « مروا أبا بكر فليصل بالناس » فلما قبض رسول الله ﷺ ، نظرت فإذا الصلاة علم الإسلام وقوام الدين فرضينا لدنيانا من رضيه لنا رسول الله ﷺ لديننا فبايعنا أبا بكر »[٦] وقال علي رضي الله عنه عند استشهاده

---

(١) ينظر: ابن كثير ، مسند الفاروق ، ٢/ ٥٣٣ ، الباعث الحثيث ، ١٧٨ وجاء قوله تعليقا على أحاديث في صحيح البخاري ، با ب الاستخلاف ، ح (٧٢٠٧) وقال ذكرت سيرته وفتاواه في مجلد ، لكن هذا المجلد مازال مفقودا .

(٢) النووي ، تهذيب الأسماء واللغات ، ٢/ ١٩١ .

(٣) ابن أحمد ، السنة ، ٢٢٩ ، ح (١٢٤١) و (١٢٤٩) .

(٤) ابن الجوزي ، صفة الصفوة ، ١/ ٢٥٥ ، ابن حبان ، الثقات ، ٢/ ١٥٦ .
النووي ، تهذيب الأسماء واللغات ، ٢/ ١٩١ .

(٥) ابن أحمد ، السنة ، ٢٢٩ . ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ٣/ ٩٧٣ .

(٦) المحب الطبري ، الرياض النضرة ، ١/ ٢١٩ . ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ٣/ ٩٧٣ .

وقيل له ألا تستخلف ، فقال : أتركتكم فإن يرد الله بكم خيرا يجمعكم على خـــيركم كما جمعنا بعد رسول الله ﷺ على خيرنا ... وكان دعاؤه لأبي بكر: يـــا خليفــة رسول الله [(١)] وقد كان أرضاهم بأبي بكر خليفة ، استدلالهم بإمامته لهم في الصــلاة على الخلافة [(٢)].

وعن أبي الجلاس قال: سمعت عليا رضي الله عنه يقول لعبد الله بن سبأ: ويلك ما أفضى إلي رسول الله ﷺ شيئا كتمه أحدا من الناس ، ولقد سمعته يقول: « إن بين يـــدي الساعة ثلاثين كذابا وإنك لأحدهم »[(٣)] ولما اجتمع الأنصار في سقيفة بني ســـاعدة ومعهم أبو بكر وعمر ، قام خطيب الأنصار فقال: أتعلمون أنا أنصار رســول الله ﷺ فنحن أنصار خليفته ، كما كنا أنصاره ، فقام عمر فقال: صدق قائلكم ولو قلتـم غير هذا لم نبايعكم فأخذ بيد أبي بكر ، وقال: هذا صاحبكم ، فبايعوه ، فبايعه عمـر وبايعه المهاجرون والأنصار [(٤)].

وكل ذلك القول لأبي بكر ، والإنقياد لخلافته دون معارضة جاء بنـــاء علـى الإرشادات النبوية التي أظهرها ﷺ في آخر أيامه فأشار إلى تقديم أبي بكـــر فـي أكثر من مناسبة ، فلم يكن تقديمه مستغربا عند المهاجرين والأنصار ، قال حذيـــفة بن اليمان: كنا جلوسا عند النبي ﷺ فقال: « لا أدري ما قدر بقائي فيكم ، فـــاقتدوا باللذين من بعدي وأشار إلى أبي بكــر وعمـــر رضي الله عنهما »[(٥)] وقولـه ﷺ : « لقد هممت أو أردت أن أرسل ، إلى أبي بكر وابنه فأعهد أن يقــول القـــائلون أو يتمنى المتمنون » ثم قلت: « يأبى الله ويدفــــع المؤمنـــون ، أو يدفـــع الله ويـــأبى

---

(١) المحب الطبري ، الرياض النضرة ، ١/ ٢١٩ . ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ٣/ ٩٧٣ .

(٢) المصدر ، نفسه .

(٣) ابن أحمد ، السنة ، ٢٣١ .

(٤) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٣/ ٣٠٦ .

(٥) ابن أبي شيبة ، المصنف ، ٢/ ٣٠٦ .

المؤمنون»[١] وقوله ﷺ للمرأة التي كلمته في شيء فأمرها أن ترجع إليه قالت: يا رسول الله أرأيت إن جئت فلم أجدك ، كأنها تريد الموت ، قال: « إن لم تجديني فأتي أبا بكر »[٢] فلم يكن مقامه مجهولا بين الصحابة ، وما ينسب إلى علي رضي الله عنه من أنه بايع تقية كما يزعم الروافض ، فهذا باطل عريق في البطلان ، لأن مقتضى ذلك ضعفا إما في الدين أو في الحال وكلاهما باطل [٣].

وقد كان علي رضي الله عنه يقول: « لو كان عندي عهد من النبي ﷺ في ذلك ما تركت أخا بني تيم بن مرة وعمر بن الخطاب ، يقومان على منبره ولقاتلتهما بيدي ، ولو لم أجد إلا بردتي هذه »[٤]. وهذا دليل على بطلان القول بأنه سكت تقية ، بل إنه بايع الصديق لأنه كان أهلا لخلافة رسول الله ﷺ .

وهذا ما رد به الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، حيث قال لبعض الروافض: « لو كان الأمر كما تقولون أن النبي ﷺ ، اختار عليا لهذا الأمر والقيام بعده فإن عليا أعظم الناس خطية وجرما إذ ترك أمر رسول الله ﷺ ، فقال له الرافضي: ألم يقل النبي ﷺ « **من كنت مولاه فعلي مولاه** » فقال : **أما والله لو يعني بها رسول الله ﷺ الأمر والسلطان لأفصح به كما أفصح بالصلاة والزكاة والحج والصيام ، وقال أيها الناس إنه الوالي بعدي فاسمعوا له وأطيعوا** »[٥].

---

(١) البخاري ، فتح الباري ، ك الأحكام ن باب الاستخلاف ، ح (٧٢١٧) . وينظر: الساعاتي ، الفتح الرباني ، ٢١/ ٢٢٧ .

(٢) البخاري ، فتح الباري ، ك الأحكام ، ح (٧٢٢٠) .

(٣) المحب الطبري ، الرياض النضرة ، ١/ ٢٤٦ ،ولا يتحدث الروافض في كتبهم عن عصر الصحابة بعلم ، وإنما بالافتراء والبهتان ولا حرمة للصحابة عندهم لذلك لا فائدة من متابعتهم على أباطيلهم في هذا البحث، فضلا عن أن هناك علماء تصدوا لكل معتقداتهم فاظهروا فسادها وبطلانها وفي مقدمة هؤلاء ابن تيميه رحمه الله تعالى في كتابه الجامع « منهاج السنة » .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) المصدر نفسه ، ١/ ٢٤٧ .

فلم يكن بين الصحابة من يقبل أن يتقدم على أبي بكر ، وعندما التبس الأمر على بعض الأنصار في السقيفة ، قال لهم عمر ﷺ : يا معشر الأنصار: « ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ ، قد أمر أبا بكر أن يؤم الناس ؟ فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر ؟ فقالت الأنصار: نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر »[١] وفي الاستيعاب: « فأيكم تطيب نفسه أن يزيله عن مقام أقامه فيه رسول الله ﷺ ، فقالوا: كلنا لا تطيب نفسه ، ونستغفر الله »[٢].

فمكانة الصديق كانت معلومة عند جميع الصحابة ، قال عبد الله بن مسعود : « اجعلوا إمامكم خيركم ، فإن رسول الله ﷺ ، جعل إمامنا خيرنا بعده »[٣].

وهذا ما قاله علي ﷺ لأبي سفيان بن حرب ، عندما بويع لأبي بكر بالخلافة فقال لعلي: غلبكم على هذا الأمر أذل بيت في قريش ... فقال له علي ﷺ: « إنا رأينا أبا بكر لها أهلا »[٤] وفي هذا دليل على أن عليا لم يتخلف عن البيعة لعلمه بمقام أبي بكر ﷺ ووضح الإشارات والإرشادات النبوية، التي تدل عليه وعلى وجوب تقديمه ، وعلي ﷺ لا تفوته مثل تلك الإرشادات ، وما ثناؤه على أبي بكر وتمسكه بطاعته في خلافته إلا حجة على سرعة إجابته للصديق ، وعمله على إنجاح البيعة لأبي بكر إذ بها ينتظم شمل المسلمين ويشغل الفراغ الذي خلفه غياب رسول الله ﷺ فكان علي أشد المسلمين تمسكا بأبي بكر عندما اعتذر لهم عن الخلافة وطلب منهم الإقامة ، عن أبي الحجاف قال: قام أبو بكر بعدما بويع له وبايع علي وأصحابه ، فأقام ثلاثا يقول: أيها الناس قد أقلتكم بيعتكم هل من

---

(١) السيوطي ، تاريخ ، ٦٨ ، العمري ، الخلافة الراشدة ، ١٨٤ .

(٢) ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ٣/ ٩٧١ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ٣/ ٩٧٤ .

كاره ؟ قال: فيقوم علي في أوائل الناس يقول لا والله لا نقيلك ولا نستقيلك قدمك رسول الله ﷺ فمن ذا يؤخرك ؟[١] .

ومن هذه النصوص يظهر إجماع المسلمين من المهاجرين والأنصار على بيعة أبي بكر ، قال: قال عبد الله: « ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن وما رآه المسلمون سيئا فهو عند الله سيء ، وقد رأى الصحابة جميعا أن يستخلفوا أبا بكر »[٢].

وقول علي لمن قال له: « ألا تستخلف علينا قال: ما استخلف رسول الله ﷺ فأستخلف ، ولكن إن يرد الله بالناس خيرا ، فسيجمعهم بعدي على خيرهم كما جمعهم بعد نبيهم على خيرهم »[٣] فأجمع المهاجرون والأنصار على بيعة أبي بكر « على ملأ منهم ورضا »[٤]واستمر ذلك طوال فترة خلافته قال علي رضي الله عنه: « استخلف أبو بكر فعمل بعمل رسول الله ﷺ وسنته ، ثم قبض على خير ما قبض عليه أحد »[٥]« وعلى الجملة لا خلاف بين طوائف المسلمين على أن أبا بكر توفي يوم توفي ولا مخالف عليه من أهل الإسلام »[٦] .

وسيتوسع البحث في توضيح العلاقة فيما بين أبي بكر الصديق وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما عند الحديث عن خلافة علي في إطار ما يتعلق بهذا البحث ، وبما يشير إلى أن بيعة أبي بكر جنبت المسلمين فتنة كبرى كان من الممكن أن تعقبها ردة أوسع أو هيمنة أهل الردة على الجزيرة العربية ، وهذا ما

---

(١) المحب الطبري ، الرياض النضرة ، ١/ ٢١٦ . وابن الحجاف هو أبو داود بن عوف البرجمي التميمي مولاهم وهو (ثقة) .

(٢) الحاكم ، المستدرك ، ٣/ ٧٨ ، وقال صحيح الاسناد على شرط الشيخين .

(٣) المصدر السابق ، ٣/ ٧٩ ، وقال هذا حديث صحيح الإسناد .

(٤) ابن عبد البر ، الدرر في اختصار المغازي والسير ، ٢٧٢ .

(٥) ابن أبي شيبة ، المصنف ، ٢/ ٥٧٢ .

(٦)المحب الطبري،الرياض النضرة،١/ ٢٠٨،وينظر:الخليفة،الأنصار في العصر الراشدي ١٠٤ فما بعدها

وقى الله شره بفضله أولا ومن ثم بما كان عليه الصحابة ﷺ من الفهم والتعاون والترابط. وفي مقدمتهم الصديق وعلي وسعد بن عبادة والمهاجرون والأنصار ﷺ.



اعتذار أبي بكر للمهاجرين والأنصار عن تولي الخلافة

إن إنجاز المهاجرين والأنصار ، المتمثل باختيار أبي بكر خليفة للمسلمين في لقاء عفوي واحد ، يعد عملاً حضارياً رائعاً ، يشهد لهم بالإشراق الروحي والوعي الحضاري ، والترابط الأخوي ، والإحساس الكبير بالمسؤولية الملقاة على عواتقهم ، تجاه دينهم وأمتهم ، فأثبتوا وبجدارة عالية أنهم تلامذة محمد ﷺ المخلصون ، وورثته المؤتمنون ، والرجال الصادقون ، الموفون بعهدهم مع الله تعالى المتمثل في قوله ﷻ : ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾[1] . فلم يثنهم عن المضي قدماً ، وفاة نبيهم ﷺ ، التي صدّعت القلوب وأدهشت العقول ، لعظيم أثرها وشدة وقعها على نفوسهم فأتموا ترتيب شأنهم الداخلي ، قبل أن يدفنوا رسول الله ﷺ وكأنهم يستأنسون به وهم يستمدون من تعاليمه وإرشاداته الثبات في المواقف الحرجة ، وحسن التدبير في الأوقات العصيبة .

وقد كان على الخليفة في تلك المرحلة ، أن يتصدى لأخطار محدقة ومسؤوليات جسام فضلاً عن شعوره بالمسؤولية أمام الله تعالى ، وأنّه يخضع لرقابة الأمة ، بين أبناء جيل من الأنصار والمهاجرين ، لا يخافون في الله لومة لائم[2] .

فلا غرابة أن نجد أبا بكر يحاول الإعتذار عن تولي الخلافة ، ولا سيما بعد

---

(١) سورة التوبة ، الآية (١١١) .

(٢) ينظر : مسلم ، صحيح مسلم ، باب الاستخلاف ح (١٢١٢) قال ﷺ: « اللهم من ولي من أمر أمتي فشق عليهم شقّ الله عليه » .

أن أمِن على المسلمين من الفتنة[1]، مما يؤكد سمو علي بن أبي طالب وسعد بن عبادة رضي الله عنهما ، عن إثارة أي حدث ، يتنافى مع المصلحة العامة للمسلمين ، واللافت للنظر كيف اختير هذان السيدان علي وسعد بن عبادة رضي الله عنهما لتنسج حولهما أساطير وليجعل منهما أعداء ا لصحابة ، موطئاً لبهتانهم فمتى أرادوا دسيسة على المسلمين في التشكيك أو إثارة المشاعر والضغائن فيما بينهم ، نسبوا فرية إلى أحدهما رضي الله عنهما حتى جعلا منهما قادة فتن ودعاة فوضى[2]حاشاهما رضي الله عنهما .

فلو كان هؤلاء المصرون على تأخر هذين السيدين عن البيعة صادقين لوجدوا أثراً على واقع الحياة آنذاك يصدق تلك الدعاوى .

فهذا الخليفة الصدّيق ﷺ ، ينادي ثلاثة أيام هل من كاره ؟ هل من مخالف ؟ فلماذا لا يغتنمها علي وسعد رضي الله عنهما ، فرصة لإعلان رفضهما لخلافة الصديق ؟ ثم لماذا لا يقيما تحالفاً بينهما ، حتى يحققا ما يريدان من أمر الخلافة لا سيما وأنهما سيدان في قومهما وهما القائدان المجربان الخبيران بكل شؤون الحرب ؟ حملة ألوية ورايات المسلمين في أكثر المشاهد وأهمها .

فإذا لم يكن شيء من هذا والحمد لله ، فلماذا الإصرار على الحديث عن صراع وانشقاق يوم السقيفة ؟ ، وتشاور وتجمع وتخلف عن البيعة في بيت فاطمة الزهراء رضي الله عنها [3] ؟ لا يكاد يخلو من ذلك كتاب يتطرق إلى الحديث عن هذه المرحلة ، إلا من رحمه الله بفهم تطلعات هؤلاء القوم وآمالهم

---

(١) المحب الطبري ، الرياض النضرة ، ١/ ٢٣٥ .

(٢) ينظر: الكشي ، رجال الكشي ، ٤١ ، الطبري ، تاريخ ، ٣/ ٢٢٢ .
ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ٢/ ٤٠ ، و ٦/ ١٠ ، محمد ، انتصار الحق ، ٧٩ .

(٣) ينظر: الكلاعي ، الإكتفاء ، ٢/ ٤٢٥ ، المحب الطبري ، الرياض النضرة ، ١/ ٢٠٨ .
ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ٢/ ٥٤ .

الكبرى المتمثلة في العمل على نيل الشهادة ، والتنافس في ميدان الأعمال الصالحة والعلم والعبادة وغير ذلك من المكارم .

فهذا الخليفة الذي بويع بإجماع الأنصار والمهاجرين ، يتفلت من هذا العبء وهذه المسؤولية الجسيمة في الدنيا والآخرة ، فيقول: « وددت أني يوم سقيفة بني ساعدة كنت قذفت الأمر في عنق أحد الرجلين ، أبي عبيدة أو عمر ، فكان أمير المؤمنين وكنت وزيراً »[1] واعتذر أبو بكر للناس عن الخلافة فقال: « والله ما كنت حريصاً على الإمارة يوماً ولا ليلة قط ، ولا كنت راغباً فيها ولا سألتها الله في سر ولا علانية ، ولكني أشفقت من الفتنة ، ومالي في الإمارة من راحة ولكن قُلدت أمراً عظيماً مالي به من طاقة ولا يد إلا بتقوية الله عز وجل ، ولوددت أنّ أقوى الناس عليها مكاني اليوم »[2] .

وقد تكررت خطب الخليفة الصديق رضي الله عنه في هذا المعنى يعتذر ويستقيل والمهاجرون والأنصار لا يعذرونه ولا يقيلونه ، فقد قام خطيباً بعد خطبته الأولى فحمد الله وأثنى عليه ، ووعظ وذكّر ، ثم قال: « أيها الناس إنّ الذي رأيتم مني لم يكن على حرص على ولايتكم ولكني خفت الفتنة والاختلاف فدخلت فيها ... وهذا أمركم إليكم تولوا من أحببتم من الناس ، وأنا أُجيبكم على ذلك وأكون كأحدكم ، فأجابه الناس رضينا بك قسماً وحظاً ، إذ أنت ثاني اثنين مع رسول الله ﷺ »[3]ولم يكتف بهذه العروض ، بل بالغ في استبراء النفوس من أية معارضة لخلافته حتى استحلف على ذلك فقال: « أيها الناس أُذكّر الله أيما رجل ندم على بيعتي لما قام على رجليه قال: فقام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومعه السيف فدنا منه حتى وضع رجلاً على عتبة المنبر والأخرى على الحصى وقال والله لا نقيلك

---

(١) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ٣٠ / ٤٢٣ ، وينظر: السيوطي ، خلفاء رسول الله ﷺ ، ٧٠ .

(٢) المحب الطبري ، الرياض النضرة ، ١/ ٢٤٢ ، الكلاعي الإكتفاء ، ٢/ ٤٤٦ .

(٣) المصدر نفسه .

ولا نستقيلك ، قدمك رسول الله ﷺ فمن ذا يؤخرك »[1] .

وعن زيد بن أسلم قال: دخل عمر على أبي بكر رضي الله عنه وهو آخذ بطرف لسانه وهو يقول: إن هذا أوردني الموارد ، ثم قال : يا عمر لا حاجة لي في إمارتكم ، قال عمر: والله لا نقيلك ولا نستقليك »[2].

وعن جعفر عن أبيه قال: « لما استخلف أبو بكر خير الناس سبعة أيام فلما كان في السابع ، جاءه علي بن أبي طالب ، فقال: لا نقليك ولا نستقليك ، ولولا أنا رأيناك أهلا ما بايعناك »[3] .

وعن الحسن قال: لما بويع أبو بكر قام دون مقام رسول الله ﷺ وقال: « أيها الناس إني شيخ كبير فاستعملوا عليكم من هو أقوى مني على هذا الأمر وأضبط له ، فضحكوا وقالوا: لا نفعل أنت صاحب رسول الله ﷺ في المواطن وأحق بهذا الأمر »[4] وعن الحسن البصري قال: خطب أبو بكر على منبر رسول الله ﷺ ... فقال: يا أيها الناس إني ما جعلت بهذا المكان أن أكون خيركم قال الحسن: «وهو والله خيرهم غير مدافع ولكن المسلم يهضم نفسه أبدا» ولوددت أني كفاني هذا الأمر بعضكم ، قال الحسن: والله إنه صادق ... [5].

وقد كان من مسوغات أبي بكر للزهد في الخلافة، فضلا عن الأعباء والأخطار المحيطة بالمسلمين آنذاك ، أمور أخرى منها قوله: إنه من يك أميراً فإنّه من أطول الناس حساباً وأغلظهم عذاباً ، ومن لا يكن أميراً فإنه أيسر الناس حساباً

---

(١) المحب الطبري ، الرياض النضرة ، ١/ ٢٥٢ ، وقال هو أسند حديث روي في هذا المعنى عن سويد بن غفلة الذي أدرك الجاهلية والإسلام .

(٢) المحب الطبري ، الرياض النضرة ، ١/ ٢٥١ .

(٣) المصدر نفسه ، ١/ ٢٥٢ .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) المصدر نفسه ، ١/ ٢٥٣ .

وأهونهم عذابا لأن الأمراء أقرب من ظلم المؤمنين ، ومن يظلم المؤمنين فإنه يخفر الله وهم جيران الله وعواذ الله ، وإن الله أحق أن يغضب لجيرانه وأنه قبل بالخلافة في بداية الأمر تخوفا من الفتنة ، أما وقد استقامت الأمور فإنه كاره لها ويود لو كفاه بعضهم [١]، كما تقدم في خطبه وأعذاره ومن هذا الفهم وهذه الرؤية لتبعات الإمارة ، كان أبو بكر يلوم نفسه ويلح في اعتذاره عن قبول الخلافة .

وفضلا عن كل هذا فإنها أصبحت سببا في حرمانه وحرمان أهله من توفير الحاجات الأساسية ، إذ أن ما خصصه لهم المسلمون من عطاء لا يكفي الحد الأدنى من متطلباتهم ووسائل عيشهم البسيط ، قالوا: وقد كان ألقى ماله في مال الله حين استخلف ، فخرج إلى البقيع يتصافق ــ أي في التجارة ــ ولما لحق به عمر ، والتقى به علي في السوق قال لهما: « لا حاجة لي في إمارتكم رزقتموني ما لا يكفيني ولا عيالي » فلما عرضا عليه زيادة لم يقبلها قبل إعلام المسلمين ورضاهم بذلك ، فصعد المنبر وقال: أيها الناس إن عمر وعليا زادا لي في رزقي أفرضيتم ؟ قالوا: اللهم نعم قد رضينا [٢].

وذلك حين قال أصحاب رسول الله ﷺ : افرضوا لخليفة رسول الله ﷺ ما يغنيه قالوا نعم: برداه إذا أخلقهما وضعهما وأخذ مثلهما ، وظهره ــ مطيته ــ إذا سافر ونفقته على أهله كما كان ينفق قبل أن يستخلف [٣].

فكل هذه الأمور تدعو إلى الزهد في الخلافة ، يضاف إلى ذلك روح العصر الذي كانوا فيه من الزهد والحرص على الشهادة في سبيل الله حتى كان التنافس في ذلك قائما بين الآباء والأبناء [٤]. فهذا أبو بكر رضي الله عنه بعد أن خرج بمن معه من

---

(١) المحب الطبري ، الرياض النضرة ، ٢/ ٢٥٤ .

(٢) المحب الطبري ، الرياض النضرة ، ١/ ٢٥٥ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) عمرو بن الجموح بن زيد السلمي الأنصاري من بني جشم بن الخزرج،يمثل هذا النوع من المؤمنين=

المهاجرين والأنصار إلى ذي القصة ـ كما سبق ذلك قبل قليل ـ لمواجهة المرتدين وطلب المسلمون من الخليفة العودة إلى المدينة ، طلب من يقبل إمارة الجيش فلم يجبه أحد ، فدعا زيد بن الخطاب لذلك فقال له زيد: يا خليفة رسول الله قد كنت أرجو أن أرزق الشهادة مع رسول الله ﷺ فلم أرزقها ، وأنا أرجو أن أرزقها في هذا الوجه ، وإن أمير الجيش لا ينبغي له أن يباشر القتال بنفسه فدعا أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة فعرض عليه ذلك فقال مثلما قال زيد ، فدعا سالما مولى أبي حذيفة ليستعمله فأبى عليه ، فدعا خالد بن الوليد فأمره على الناس [1].

ومن هذه النصوص التي تم ذكرها يمكن القول أن بيعة أبي بكر رضي الله عنه كانت بالإجماع ، من المهاجرين والأنصار ، وأن أبا بكر كان من أزهد الناس في الخلافة، بل إن جميع جيل الصحابة كان لا يرغب في تحمل أية مسؤولية وراءها محاسبة الله تعالى ، ثم محاسبة المهاجزين والأنصار الذين يقيسون أداء الأمراء على ما كان عليه رسول الله ﷺ وهذا ما لا يستطيعه أحد ، إلا أن أبا بكر كان يبذل قصارى جهده أن لا يحيد عما كان عليه رسول الله ﷺ ، فأعانه على ذلك طول صحبته لرسول الله ﷺ وشدة قربه منه في جميع المشاهد ، وقرب العهد برسول الله ﷺ أيضا ، ومعايشة الصحابة للحال ، التي كان عليها رسول الله ﷺ ورغبة الجميع في السير على المنهاج ذاته ، كل ذلك ساعد الصديق على

= قال ﷺ لبني سلمة: « سيدكم الجعد الأبيض عمرو بن الجموح » ولما كان يوم أحد منعه أولاده من الخروج لشدة عرجه ، فقال: يا رسول الله إن بني يحبسوني عن الخروج معك ، وكان له أربعة من البنين ، والله لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه في الجنة فأذن له رسول الله ﷺ فاستشهد يومئذ رضي الله عنه .
ينظر: ابن عبد البر الاستيعاب ن ٣/ ١١٦٨ ابن الأثير ، أسد الغابة ، ٣/ ٣٦٠ .

(١) الكلاعي ، الإكتفاء ، ٣/ ١٦ .

النهوض بالمهام الجسام التي واجهت خلافته ، إضافة إلى ما تمتع به الصديق من قدرات قيادية ومزايا شخصية اجتمع عليها المسلمون ، فسارت الأمة في زمانه على منهاج النبوة ، فسحقوا حركة الردة في كل بلاد العرب ، وطمسوا النفاق ، ونشروا الإيمان مصحوبا بالعدل والرحمة .

فنصبوا راياتهم على تيجان القياصرة والأكاسرة ، واندفعوا فاتحين تستقبلهم الأمم ، وتتفتح لهم القلوب قبل الحصون ، وكانوا في كل ذلك يدا واحدة ، فلم يقف أمامهم شيء ، مما جعل أعداءهم يبتكرون وسائل باطنية ، وأساليب شيطانية للتشويش على إنجازات الخلافة الراشدة ، ولتغطية هزائمهم وللتعتيم على المعالم الحضارية ، والجوانب الإنسانية ، والأفكار والسلوكيات الواقعية ، التي اتسمت بها حركة الفتح الإسلامي ، فساهمت في إزالة الأفكار والتقاليد التسلطية والوثنية والشركية في العالم ، فانبعث من تحت رماد المجوسية واليهودية والوثنية حركات باطنية سرية في مقدمتها الحركة السبئية ، التي اهتمت بالإعلام وإفشاء الشائعات والأكاذيب والمغالطات ، التي استهدفت الخلفاء والأمراء والقادة والعلماء وبأساليب متعددة ، منها كيل المديح لبعض أعلام المسلمين ، وإظهارهم بمظهر المظلومين والمهضومي الحقوق ، وأن هؤلاء الأعلام لديهم قدرات فائقة وإمكانيات خارقة ، وأنه لا يمكن لعامة الناس إدراك تلك الصفات إلا عن طريق نواب عنهم ودعاة لهم ، فجعلت السبئية ، من أتباعها وكلاء عن آل بيت النبوة الطاهر ، يتلقون عنهم ويدعون لهم ، ولا يمكن الوصول إليهم إلى عن طريق أبوابهم المعصومين(١) .

وهذا ما اتبع فيما يخص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وآل بيته الطيبين المكرمين ، ولكن لا يمكن التلقي عنه إلا إذا فسرت كل مواقفه الأخوية

---

(١) ينظر: البرقعي ، كسر الصنم ، ك الحجة ، أبواب الأئمة نور الله ، الأئمة هم أركان الأرض وغيرها ١٥٠ ، فما بعدها ، وينظر: محمد ، انتصار الحق ، ٦٥ ، فما بعدها .

وحياته الجهادية مع الخلفاء الراشدين على أنها دين خاص لا يفقهه العامة ــ أي أهل السنة ــ وهو دين « التقية » وهي عندهم تسعة أعشار الدين بل « لا دين لمن لا تقية له »[١].

وأن كل ثنائه على إخوانه من الصحابة والخلفاء الراشدين ، هو بعكس ذلك وهكذا تحت مظلة حب علي وآل البيت ، وحب عمار بن ياسر وسلمان الفارسي وأبو ذر الغفاري ﷺ ، يكفر بقية الصحابة[٢] ويحكم عليهم بالردة[٣] ، إلى غير ذلك من البهتان والأباطيل التي تمثل أسس فكر وعقيدة أعداء الصحابة ، فيرفع شعار الحب من أجل التغطية على الكراهية والهدم ، أما عدل عمر وإنصافه وزهده ، فقد حولوه إلى غلظة وجبروت ومظالم وسطو على الناس .

ومن الأساليب الأخرى في منهجية ابن سبأ في قوله: « **إبدؤوا بالطعن على أمرائكم ، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، تستميلوا الناس ... وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيوب ولاتهم** »[٤] وهذا ما

---

(١) ينظر: محمد ، انتصار الحق ، ٥٠ ، عن ابن بابوية ، اكمال الدين لابن بابوية ، ٣٥٥ ، الكليني أصول الكافي ، ١/ ٢٢٢ .

(٢)ينظر: تفسير قوله تعالى: « يوم تبيض وجوه، وتسود وجوه » في تفسير القمي، ٢/ ١١٣، وكيف يسمى الخلفاء الثلاثة ﷺ الصديق ، عجل هذه الأمة ، والفاروق، فرعون هذه الأمة ، وذي النورين، سامري هذه الأمة، وكيف أن هؤلاء الأطهار الأخيار قد حرفوا القرآن حاشاهم من ذلك ، والله وحده هو حسيب الذين يعملون على تحريف القرآن، الذي تكفل الله بحفظه. ينظر: محمد، انتصار الحق ٤٣٦ و ٤٧.

(٣) ينظر: محمد ، انتصار الحق ، ٧٦ و ٧٩ ، تفسير القمي ، ٢/ ١١٣ ، وهؤلاء الذين يتهمون الصحابة بالردة، ببهتانهم يجعلون عليا «عند أكثرهم إله خالق وعند بعضهم نبي ناطق وعند سائرهم إمام معصوم » ينظر : ابن حزم ، الفصل ، ٢/ ٨٠ .

قال ابن تيمية: وفضلت اليهود والنصارى على الرافضة بخصلتين ، سئل اليهود من خير أهل ملتكم ؟ قالوا أصحاب موسى وسئلت النصارى من خير أهل ملتكم ، فقالوا: حواري عيسى ، وسئلت الرافضة من شر أهل ملتكم ؟ قالوا أصحاب محمد ﷺ . وأمروا بالاستغفار لهم فسبوهم ، منهاج السنة ١/ ٢٦ .

(٤) الطبري ، تاريخ ، ٤/ ٢٤٠ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٧/ ٢٣٦ .

نفذته السبئية فيما يخص سياسة أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه وعماله في أقاليم الدولة الإسلامية ، فأذاعوا الأكاذيب ونشروا البهتان .

وأيضا جهاد خالد بن الوليد والقادة الآخرين ، فهو لتلبية الشهوات والرغائب والحصول على الغنائم وما إلى ذلك وليس لإعلاء كلمة الله تعالى .

وذكاء عمرو بن العاص وحكمة معاوية هما مكر وخداع ، وحنكة المغيرة بن شعبة غدر واحتيال ، وتواضع وسكينة أبي موسى الأشعري غباء وغفلة .

وهكذا لكل علم من أعلام المسلمين ما يناسب قدراته وينطبق على إمكاناته ولكن بشكل معكوس ، يجعل علمه جهلا وخيره شرا وذكاؤه خداعا وحلمه عجزا .

ولا غرابة فيما يفعله هؤلاء لأنهم يعتقدون أنهم بهذه الوسائل الرخيصة من البهتان والتزوير ، والكذب والإختلاق وغيرها ، يثأرون لمجدهم البائد ويعيدون ماضيهم المقبور . وإنما الغرابة من الذين يسخرون أنفسهم لخدمة هؤلاء ممن يحسبون على الإسلام وأهل السنة والجماعة فيجترون ما يفتريه أعداء الصحابة ، و يرددون ما يسمعون كأنهم صدى لهم ، وغوغاء يتبعون كل ناعق ضد أمتهم وعقيدتهم . لا يبالون إن كان ضحيتهم من الصحابة أو من التابعيين ، من العلماء أو المجاهدين ، من الأتقياء أو الزاهدين .

فهم يعدون أبا لؤلؤة المجوسي الغادر قاتل الفاروق عمر رضي الله عنه بطلا منقذا والسبئية الغوغاء من قتلة ذي النورين ثائرين مجددين ، والغادر قاتل علي رضي الله عنه تقيا زاهدا ، حتى قالوا في ذلك شعرا منه قول حطان الخارجي :

يا ضربة من تقي ما أراد بها ... إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا

فعارضه بكر بن حماد التاهرتي فقال :

بل ضربة من غوي أوردته لظى ... فسوف يلقى بها الرحمن غضبانا

كأنــه لم يــرد قصــدا بضــربته　　　إلا ليصلى عــذاب الخــلد نيرانا [1]

وهكذا يصبح المنكر معروفا والمعروف منكرا ، وأعداء الصــحابة يحــولون محبتهم وتبجيلهم لبعضهم البعض ، عداوات وخصــومات ، وهم سيبــقون هكذا لا يحملون على المسلمين إلا الغل والحقد . ولا ينفكون عن التشويش والبهتان ومن لم يخش الله ويتقه في عباده أصحاب محمد ﷺ ، فإنه لن يخاف الله فيمن جاء مــن بعدهم من المسلمين .

أما الصحابة فكانوا أخوة متحابين وفي مقدمتهم أبو بكر وعلــي رضــي الله عنهما ، ولا يشك في ذلك إلا من في إيمانه دغل وغشْ ، أو جهل وقصور ، فــهذا علي بين يدي الصديق ومعه في كل مشاهده وزيرا ومشيرا ، اتضح ذلك من خلال حرصه على تنفيذ سياسة الخلافة • وأن أخوتهم أكبر من تخيلات الذين ســطروا روايات الخلاف بينهم [2]، وأن أمر الخلافة لم يكن مغالبة وكان للصحابــة فيمــا شاهــدوه من زهد وخشــونة في حياة رســول الله ﷺ الذي توفــي ولم يــدع : « دينارا ولا درهما ولا عبدا ولا أمة ولا شاة ولا بعيرا »[3] كان لهم في ذلك الأســوة الحسنة والمثل الأكمل للإقتداء والإتباع والثبات على النهج والطريق ذاتــه ، وقــد استمرت أخوة الصديق وعلي رضي الله عنهما إلى ما بعد وفاة أبي بكر حيث وقف علي رضي الله عنه ، يثني عليه وهو مسجى أمامه قبل أن يدفن ، فقال: « اليــوم انقطعــت خلافة النبوة ... يرحمك الله يا أبا بكــر ، كنــت إلــف رســول الله ﷺ وأنســه ومستراحه وثقته وموضع سره ومشاورته ، كنت أول القوم إســلاما ، وأخلصــهم إيمانا ، وأشدهم يقينا وأخوفهم لله ، وأعظمهم غناء في دين الله وأحوطــهم علــى رسول الله ﷺ وأحدبهم على الإسلام ... وأشبههم برسول الله ﷺ هديــا وســمتا

(١) ينظر: ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ٣/ ١١٢٨ .

(٢) ينظر: الخليفة ، الأنصار في العصر الراشدي ، ١٠٩ .

(٣) ابن سعد ، الطبقات ، ٢/ ٤٠٧ .

ورحمة وفضلا... كنت عنده بمنزلة السمع والبصر ، صدقت رسول الله ﷺ حين كذبه الناس ، فسماك الله صديقا فقال: ﴿ والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون ﴾[1] الذي جاء بالصدق محمد ﷺ وصدق به أبو بكر ... كنت خليفته حقا لم تنازع ، ولم تصدع بزعم المنافقين وكبت الكافرين وكره الحاسدين وغيظ الباغين ، وقمت بالأمر حين فشلوا ، وثبت إذ تتعتعوا ومضيت بنور الله إذ وقفوا فاتبعوك فهدوا ... اعتدل بك الدين ، وقوي بك الإيمان ، وثبت الإسلام والمسلمون وظهر أمر الله ولو كره الكافرون ، فسبقت والله سبقا بعيدا ... فوالله لن يصاب المسلمون بعد رسول الله ﷺ . بمثلك أبدا كنت للدين عزا وحرزا وكهفا و فئة وحصنا وغيثا ، وعلى المنافقين غلظة وغيظا ، فألحقك بنبيك ﷺ ولا حرمنا أجرك ولا أضلنا بعدك فإنا لله وإنا إليه راجعون »[2].

هذه هي مكانتهم في قلوب بعضهم بعضا ، وهذه شهادة علي في الصديق رضي الله عنهما ، فهل قام علي رضي الله عنه بعد رسول الله ﷺ مثل هذا المقام على أحد ؟ ، إذا فكم هي مغرضة وموغلة في الإفك والزور الروايات والأخبار ، التي تشكك بأخوة ومودة أصحاب رسول الله ﷺ ؟ فتنطق بالبهتان ، وتدعو إلى الشنآن ، وتعمل على هدم البنيان ، الذي شيده الصحابة وأسسوه على التقوى والرضوان ، فساروا بذلك على طريق نبيهم ﷺ ، فبوأهم الله في الدنيا حسنة ﴿ ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ۞ الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ﴾[3] .

---

(١) سورة الزمر ، الآية (٣٣) .

(٢) المحب الطبري ، الرياض النضرة ١/ ٢٦٣ .

(٣) سورة النحل ، (٤١ ــ ٤٢) .

الرد على بعض الشبهات التي تثار حول الصحابة والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم وتسوغ ما قام به السبئيون والغوغاء ضدهم

سبق ذكر الحديث الشريف القائل: « من نجا من ثلاث فقد نجا ، قالوا: ماذا يا رسول الله ؟ قال: موتي ، وقتل خليفة مصطبر بالحق يعطيه ، والدجال »[١] فاتضح من خلال متابعة أحداث بيعة أبي بكر الصديق واجتماع السقيفة أن المهاجرين والأنصار ، قد نجوا من الفتنة الأولى ، من خلال اجتماعهم على خليفة رسول الله ﷺ ، وتعاونهم في الجهاد ضد المرتدين .

أما الذين وقعوا في الفتنة واصطلوا بنارها ، فهم الذين خرجوا على الخليفة وخرقوا إجماع المهاجرين والأنصار ، الذين هم أهل الحل والعقد في الأمة وتبعوا المتنبئين الكاذبين من أمثال: مسيلمة الكذاب [٢]، وسجاح [٣]، وطليحة بن خويلد الأسدي [٤]، والأسود العنسي[٥] هؤلاء الذين تسببوا في إعاقة حركة الفتوح

---

(١) الحاكم ، المستدرك ، ٣/ ١٠١ ، وقال حديث حسن صحيح الإسناد ، ابن أبي شيبة ، تاريخ المدينة ح ٢/ ١٨٨٢، وينظر: مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي، ك الفتن، باب ذكر الدجال وأشراط الساعة

(٢) مسيلمة الكذاب بن حبيب اليماني ، وفد مع قومه إلى النبي ﷺ ثم زعم أن رسول الله أشركه في النبوة وشهد له الرجال بن عنفوه وكان قد أسلم ثم ارتد مع مسيلمة ، أبن الأثير ، الكامل ٢/ ٢٤٤ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٦/ ٣٥٩ .

(٣) سجاح بنت الحارث بن عقفان التميمية ، تنبأت فتبعها بنو تغلب والنمر ، وإياد وشيبان ، ثم تحالفت مع مسيلمة ثم تزوجها ، وبعد مقتله كانت في بني تغلب فأسلمت وحسن إسلامها ، ابن الأثير، الكامل ٢/ ٢٣٩ .

(٤) طليحة بن خويلد من بني أسد بن خزيمة ، تنبأ في حياة النبي ﷺ وكان يأمر قومه بترك السجود في الصلاة هزمهم خالد في بزاخة ، فهرب طليحة إلى الشام ثم أسلم ، ابن الأثير، الكامل ، ٢/ ٢٣٥، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ، ٦/ ٣٣٦ .

(٥) قيل أن أول ردة في الإسلام كانت باليمن على عهد رسول الله ﷺ على يدي ذي الخمار ، عبهله بن كعب، وهو الأسود، خرج بعد حجة الوداع وكان كاهنا وسمي ذي الخمار لأنه كان معتما متخمرا أبدا=

إلى حين من الزمن ، حتى تمكن الصديق ومن خلفه المهاجرون والأنصار ومن تبعهم بإحسان ﷺ من إخماد فتنتهم وإبطال دعوتهم، ومن ثم مواصلة عملية الفتوح على أوسع نطاق والاشتباك مع أعتى قوتين في العالم آنذاك ، وهما دولتا الفرس والروم حتى تم احتواء الدولة الفارسية المجوسية وإزالتها من الوجود ، وهزيمة الدولة الرومية ، في جميع المعارك التي تصدت بها لعملية نشر الإسلام وفتوح البلاد، فجردت من جميع مستعمراتها في المشرق وحوض البحر الأبيض المتوسط.

ولما هزم هؤلاء وغلبوا عسكريا وفكريا وعقيديا منهم من دخل الإسلام وحسن إسلامه وتفقه في الدين وتعلم وعلم ، ومنهم من انتهج سبيلا آخر فدخل الإسلام ظاهريا وأبطن النفاق والزندقة ، وأخذ يكيد للإسلام وأهله ، ولا سيما من المجوس واليهود ، فكان نتيجة مكر هؤلاء ودسائسهم وكيدهم ، أن وسوسوا لبعض الغوغاء من الأغبياء والمغفلين فأغروهم وغرروا بهم للخروج على الولاة وإشاعة الأباطيل ، والأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ، والعمل على إثارة الفتن وبعث الأحقاد والضغائن ، ونشر أفكار جديدة مفادها تحقيق المساواة المطلقة بين الناس ، وما يترتب على ذلك من إسقاط الناس عن منازلهم ، وجعل أهل الرذيلة وأهل الفضيلة سواء ، وأهل السابقة والمرتدين سواء أيضا ، وهذا ما دغدغ مشاعر كثير من الجهلة وذوي الأهواء والمرتدين الذين حاربوا الله ورسوله ﷺ ، في أيام الردة فقهرهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، وجندهما من المهاجرين والأنصار ﷺ وقد تكون هذه الأفكار والمفاهيم ، امتدادا للأفكار المجوسية المزدكيه[1] التي يبثها الزنادقة ، الذين تظاهروا بالدخول في الإسلام خوفا ونفاقا .

= ابن الأثير ، الكامل ، ٢/ ٢٢٧ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٦/ ٣٢٦ .

(١) وعن أفكار هذه الديانة قال الطبري: « قالوا إن الله إنما جعل الأرزاق في الأرض ليقسمها العباد بينهم بالتآسي ولكن الناس تظالموا فيها ، وزعموا أنهم يأخذون للفقراء من الأغنياء ، ويردون من المكثرين على المقلين ، وأنه من كان عنده فضل من الأموال والنساء والأمتعة فليس هو بأولى به من غيره =

فكانت النتيجة إثارة الفتنة الكبرى « وقتل الخليفة المصطبر بالحق يعطيه » الذي قال لهم قبيل أن يقتل : ﴿ ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد ، واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود ﴾[١].

ولكن الغوغاء التي خرجت على الخليفة عثمان رضي الله عنه ، لا تعقل القرآن ولا تسمع له فسارت وراء أباطيل وإشاعات لا أصل لها من الحقيقة ، وإنما كانت تلك الإشاعات أشبه بربطة الجزر التي يضعها راكب الحمار على رأس عصاه ، ثم يضعها أمام حماره فيسرع الحمار لعله يلتقم الجزر الذي أمامه ، فيصل الراكب إلى المكان الذي يريد وقد لا يحصل الحمار على ربطة الجزر التي كان يراها أمامه ، فالسبئية استحمرت الغوغاء للوصول إلى غاياتها ، ولم تحقق لهم أي مكسب ، يقدمونهم للمغارم فيثيرون بهم الشغب ، ويحملونهم الشائعات ويعرضونهم للمخاطر ، حتى يخرجوهم عن الجماعة، دون أن يشاركوهم في تحمل أية مسؤولية ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين ﴾[٢] .

لهذا فإن الفتنة في عهد الخليفة عثمان كانت متشعبه الأهداف ، متداخلة الخيوط خفيت على كثير من الناس ، فاستغواهم اليهود فأفرغوا فيهم كل أحقادهم وعداوتهم لهذا الدين وأهله ،قال تعالى: ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود ﴾[٣] .

= فافترص السفلة ذلك واغتنموه ، وكانفوا مزدك وأصحابه وشايعوهم ، فابتلى الناس بهم ، وقوي أمرهم حتى كانوا يدخلون على الرجل في داره ، فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله ، لا يستطيع الإمتناع عنهم ... فلم يلبثوا إلا قليلا حتى صاروا لا يعرف الرجل منهم ولده ، ولا المولود أباه ، ولا يملك الرجل ما يتسع به » ينظر: الطبري ، تاريخ ، ١/ ٩٢ .

(١) سورة هود الآيتان (٨٩ ــ ٩٠) .

(٢) سورة الحشر ، الآية (١٦) .

(٣) سورة المائدة ، الآية (٨٢) .

وقال تعالى: ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى﴾(١) فساندهم المجوس ، واستجابت لهم الغوغاء ، التي لا زال كثير من دعاتها يعملون ويرددون الشعارات ذاتها ، التي افتريت على الخليفة الراشدي عثمان رضي الله عنه وكأن هذه الفتنة أريد لها أن تبقى محكا وفتنة يمتحن عليها الناس في عصرها وفيما بعده ، فهذا هشام جعيط على سبيل المثال لا يزال يردد في كتابه الفتنة ، الأباطيل ذاتها ، بل يزيد عليها ويسبغ عليها تنظيرات ومقاييس معاصرة غير مبال بما يسمى بالموضوعية والبحث العلمي، لذلك أسرف في النيل من الخليفة عثمان رضي الله عنه ، مرددا الشائعات التي كان يجترها ابن سبأ ، ويكتب بها سرا إلى أعوانه في الأمصار ليذيعوا بها ، فيتلقفها الغوغاء ، ليجعلوا من الباطل حقا ، وهذا المنهج الإعلامي الذي يشن الحرب على أهل التوحيد ، قائم في هذا الزمان بكل وضوح ، والبهتان وتلفيق التهم الذي يدار اليوم ضد الإسلام والمسلمين أوسع بكثير عما كان عليه من قبل ، إذ أصبح الآن علما له هيئات ومؤسسات تديرها دول وتتابع أداءها .

وتحت ذريعة الخروج من التقليد والجمود والرجعية ، يحمل بعض المدبرين ولا سيما ممن درس العلوم الإنسانية على يد المستشرقين أو في بلاد الصليبية يحملون معاولهم لهدم مجد هذه الأمة ، المنبثق من عقيدتها وعلى أيدي حملة وحماة تلك العقيدة ، فيصبح بذلك بعض من كتب عن الفتنة (٢)، قاضيا على الخلفاء

---

(١) سورة البقرة ، الآية (١٢٠) .

(٢) من هؤلاء على سبيل المثال، طه حسين ، الفتنة الكبرى . هشام جعيط ، الفتنة ، جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر، إبراهيم بيضون الحجاز والدولة الإسلامية، نبيل فياض يوم انحدر الجمل من السقيفة وعامة من كتب عن مرحلة صدر الإسلام ولم يكن له ثوابت من القرآن والسنة ، انحدر إلى ما انحدر إليه المستشرقون والرافضة ، الذين لا جدوى من الإنشغال بالرد عليهم ، لأن الجانب العلمي عندهم مفقود فهم لا يحتكمون ، إلى ثوابت وإنما يسيرون وراء غايات مرسومة،وهنا تكون الجدوى في تحصين الفكر الإسلامي مدعما بضوابط الكتاب والسنة ، وبذلك تتحول شبهاتهم إلى أساطير بينة الكذب.

الراشدين رضي الله عنهم ، فيبرئ هذا ويتهم ذاك ، ولا يشفع للخلفاء الراشــدين رضي الله عنهم ، ثنــاء القرآن عليهم وشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم ، وواقعهم الإيماني والحضاري الذي لــم تصل إليه قيادة أخرى على وجه الأرض ، تطبق كل ما تقوله وتدعو إليه ، علــى نفسها أولاً وعلى ولاتها ، ويشمل ذلك جميع رعاياها من المسلمين وأهــل الذمــة ولكن المهزومين عقيدياً ، اهتزت الثوابت الإسلامية في ضمائرهم ، ووهنت القيــم الإسلامية في نفوسهم ، فأصبحوا تحت تلك المؤثرات يمارسون عملية هدم البنــاء الحضاري ، وتشويه المثل الأعلى فيه، المتمثل في رجال العدالة وعمالقة القيادة في هذه الأمة ، الذين يأتي في مقدمتهم الخلفاء الراشــدون ، فباســم النقــد والتنظــير والتجديد والترشيد ، تحولوا إلى نواب عن أساتذتهم المستشرقين الذين هــم علــى الغالب من اليهود والصليبيين ، إلى خَلْف يعمل على طمــس الثوابــت الإســلامية وعزلها ، وتهيئة النفوس لقبول إفرازات المفكرين اليهود والصليبيين ، على حساب خصائص الحضارة والثقافة الإسلامية .

ولعل هذا النص لأحد المفكرين المعاصرين ، الذي يصف من خلاله أعمــال الخليفة الراشدي عثمان رضي الله عنه ، يوضح ما سبقت الإشارة إلية فيقول: « إنّ عثمــان مزّق أواصر التكافل التي كانت تربط بين الصحابة ، و تطــاول علــى ســابقتهم وحصانتهم بأعمال تعسفية اعتباطية ، أعمال جور خارجة عــن تقــاليد الإســلام وآداب السياسة ، عقلية ملكية ، محاباة الأقارب ، تبديد مال الجماعة اســتبداد »[١] فهل مثل هذا الكاتب مؤمن بمثل هذا الحُكم الذي أصدره ؟ أم أنه باب من أبــواب النفاق دخله ، لعله يُثبت من خلاله ولاءه للغزو الفكري الذي يعمل على عزل الأمة المسلمة عن عقيدتها وحملة تلك العقيدة ولا سيما الخلفاء الراشدون ؟ فماذا يقال عن مثل هذا النص عندما يوضع أمام النصوص القرآنيــة التــي تمــدح المــهاجرين

---

(١) جعيط ، الفتنة ، ٦٧ ، وينظر: بيضون ، الحجاز والدولة والإسلامية ، ١١ .

والأنصار ، أو الأحاديث النبوية التي تشهد لهم بالصدق والخلق والأمانة ، وهل يبقى له موضع في الحقيقة ؟ وهل يقبل به باحث أمين فضلاً عن مؤمن غيور على أمته وعقيدتها، ولو كانت الأحكام عند هذا الباحث هداه الله وأضرابه ، تقتصر على موقف واحد أو خليفة واحد ، لأمكن السكوت والتغاضي ، ولكنها منهجية ثابتة وبإصرار فيصف اختيار الخليفة عثمان رضي الله عنه بقوله: « لقد جدد انتخاب عثمان وسياسته الأسروية أمل الأرستقراطية ، الأموية المتناهية مع قريش القديمة التي جبّها الإسلام ، وهي سياسة خرقاء ، لأنها أتت لتدمر النظام الإسلامي »[1] .

أبهذه الصلافة وانعدام الحياء يوصف أمير المؤمنين ، الذي تستحي منه الملائكة ؟ والذي ضحى بدمه وماله من أجل أمته وعقيدته . أم أن هذه متطلبات البحث العلمي والذوق الحضاري ، الذي يحاكيه الباحث !؟ وقد يكون وراء حُكمه النهائي على الخليفة المُبَشّر بالجنة ، المصطبر على الحق يعطيه ، دافع من دوافع حقوق الإنسان التي نراها ونسمع بها !!؟ هذا إن لم يكن هناك دوافع أخرى وراء ذلك الحُكم الذي جاء فيه قوله: « كان عثمان ينتهج سياسة مكابرة ملكية وعائلية، إنّ الإسلام هو الذي قتل عثمان ، **فمقتل عثمان انتصار كامل للإسلام** »[2] .

ولو سُئل هذا الباحث عمّا جنته الأمة من مقتل عثمان ، لانعكست عنده الإجابة وقال: إن مقتلاً عظيماً أصاب الإسلام والمسلمين بمقتل الخليفة الراشدي عثمان رضي الله عنه ، وهل ما أصاب الأمة المسلمة من الشقاق والإقتتال ، وما أصابها في يوم الجمل ومقتل الصحابيين المبشرين بالجنة طلحة والزبير رضي الله عنهما ، ويوم صفين وما تلاه من خروج الخوارج ، ويوم النهر [3]، ومن ثم مقتل الخليفة

---

(١) جعيط ، الفتنة ، ١٨٠ .　　(٢) جعيط ، الفتنة ، ٦٧ .

(٣) النهر: أو النهروان وهو كوره واسعة بين بغداد وواسط من الجانب الشرقي وفيها عدة بلاد متوسطة منها ، اسكاف وجرجرايا والصافية ، ياقوت ، معجم البلدان ، ٨/ ٤١٨، وفيها جرت المواجهة بين علي والخوارج (٣٧هـ) ، ابن الأثير ، الكامل ، ٣/ ١٧٤ .

الراشدي الرابع علي رضي الله عنه ، إلا ثمرة من ثمار مقتل عثمان رضي الله عنه ، وهل الذي ينال من عثمان ويفتري عليه يجل أحدا بعده ؟ إن الصحابة رضي الله عنهم أمة واحدة قال تعالى: ﴿والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم﴾[1] .

فالذي ينال من أحدهم ينال من إخوانه، ولعله من المفيد التذكير هنا أن الصحابة رضي الله عنهم ، وإن اختلفوا أو اقتتلوا ، فإنهم لم يخرجوا عن أخلاقياتهم وإنصافهم ، فبقي بعضهم يثني على بعض ويشهد بعضهم لبعض بالإيمان ، أما تصورهم عن الفتنة فقد اختلف لاختلاف الدليل الذي لدى كل منهم ، ولهذا فإن هذا الباحث لم يقتصر في اتهاماته على عثمان رضي الله عنه ، فها هو يتهم الجميع ويصمهم بالتآمر والحقد فقال: « **والتقى كبار الصحابة بأهل الأمصار في المدينة يعضدهم أكثر من في المدينة لا سيما الأنصار ويقوم على رأسهم علي وطلحة والزبير رضي الله عنهم أجمعين ، يؤيدونهم في حقدهم على عصابة عثمان رضي الله عنه** »[2].

فهؤلاء كبار الصحابة رضي الله عنهم في تنظير هذا المثقف وأمثاله ، يسقط عليهم هذا الحكم ويعطيهم هذه المرتبة ! وهم الذين أفنوا شبابهم مجاهدين لنشر الإسلام بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ، وأتموا حياتهم حراسا أمناء عليه بعد وفاة نبيهم صلى الله عليه وسلم ، فهل هناك في قواميس هؤلاء الباحثين ، من هم أفضل من النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم ، في فهم الإسلام وتطبيقه ؟ الذي يبدو أن السبئية وأذناب المجوسية والغوغاء الذين اشتركوا في التآمر على الإسلام ، وإمام المسلمين عثمان رضي الله عنه ، وبعث الفتنة وتمزيق الصف

---

(١) الانفال ، الآية (٧٤) .

(٢) جعيط ، الفتنة ، ٤٢ . سيتضح من خلال موقف الصحابة من مقتل عثمان رضي الله عنه أن كلام الباحث هنا محض افتراء ، وأن موقف كبار الصحابة وصغارهم هو عكس ذلك تماما ، لما كانوا عليه من الولاء والمحبة للخليفة عثمان رضي الله عنه .

الإسلامي، هم كذلك عند هذا الباحث ومدرسته ، **لأن الجميع متهم بما فيهم رسول الله** ﷺ ، والظاهر أن التطاول على شخص النبي ﷺ [١] يأتي عند هذا الصنف من الباحثين تتويجا لمنهجيتهم الغريبة وانغماسهم فيها ، ليتأكد لمن يكتبون لهم أو عنهم أنه لا توجد عندهم حصانة لأحد ، لا للصحابة ولا لنبيهم ﷺ ولا لكتابهم الذي يزكيهم ويثني عليهم ، وإلا كيف يوفق بين قول الله تعالى: « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم »[٢] وبين النصوص السابقة ، وهذه النصوص التي يهاجم فيها أكثر الإجراءات التي إتخذها الرسول ﷺ لتأليف القلوب وتوحيد الصفوف ، وفيما يدخل ضمن أبواب التربية أو الإرشاد المنبثق من مصلحة نشر الدعوة الإسلامية ، فيتحدث عن تقسيم غنائم هوازن بعد معركة حنين فيرى أنه تم « وفقا لحسابات سياسية ... أدى إلى توترات مع الأنصار القاعدة التي أبعدت أو أخذت المرتبة الثانية وقدمت قريش لأنها قبيلة النبي ﷺ ، ولأن أواصر الدم ستفوق الولاء الديني المحض ... وعلى هذا النحو مرت السلطة بنزعات باطنية ... يمكن ردها إلى **منظومات قيم جاهلية** ترسبية قوية وبإظهار النبي ﷺ بوادر عودة كثيفة إلى الوطن وروابط الدم ، فإنه أفقد الرسالة الإسلامية هالة الصمود والصفاء »[٣] أما إسلام القبائل العربية وطاعتها لرسول الله ﷺ فذلك جاء بحثا عن الغنائم فقال: « الطريق الوحيدة لجمع القبائل في اتحاد تكمن في تقديم هدف مألوف لديها ، هدف البحث عن الغنائم المتكرر دائما وأبدا ، من بدر إلى حنين وتبوك ، مرورا بالإستيلاء على الواحات اليهودية ، لم

---

(١) ينظر: ابن تيميه ، الصارم المسلول على شاتم الرسول ﷺ ، وكيف أن حكم القتل هو جزاء من يصر على النيل أو الانتقاص ، من رسول الله ﷺ .   (٢) سورة التوبة (١٠٠) .

(٣) جعيط ، الفتنة ، ١١ .

تقم الدولة النبوية بغير متابعة الهدف نفسه »[1] فدولة النبي ﷺ عند صاحب كتاب الفتنة لم تقم إلا بفضل الغنائم ولا يعرف أطلع هذا الباحث على ما غنمه المسلمون في معركة أحد؟ بالتأكيد إنه لا يعلم أن عامة الأنصار والمهاجرين لم يقبلوا التحصن في المدينة على الرغم من أن ذلك يمثل رغبة رسول الله ﷺ ، وذلك طمعا في الغنيمة ولكن أية غنيمة ، أهي الغنيمة التي يتحدث عنها هذا الباحث ؟ وهل يقدم سبعون[2] من الصحابة أرواحهم بين يدي رسول الله ﷺ من أجل غنيمة من هذا النوع ؟ أم أنها غنيمة أكبر لا يدركها هؤلاء وقد لا يؤمنون بوجودها ، تتمثل في جنة ﴿عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾[3] وإذا كان الصحابة الذين اتبعوا رسول الله ﷺ يقدمون أرواحهم وأموالهم فذلك في سبيل الله تعالى فهم أزهد الناس في الغنائم التي يفكر بها أمثال هذا الباحث، الذي جعل من نفسه مطية لترويج أفكار معادية للأمة في تاريخها وفي هويتها ووجودها وعقيدتها ، وهل تنازل الأنصار في حنين وغيرها عن غنائمهم إلا طلبا لما هو أعظم منها، من رضاء الله تعالى ورسوله ﷺ وإذا كان الأنصار فعلوا هذا فهل يتمسك المهاجرون بحظوظهم منها إن رسول الله ﷺ إن كان آثر المؤلفة قلوبهم بلعاعة من الدنيا ، فإنه آثر الأنصار بنفسه الشريفة وقال لهم: المحيا محياكم والممات مماتكم ، لو سلك الناس شعبا وسلكت الأنصار شعبا آخر لسلكت شعب الأنصار »[4]فبقيت لهم هذه المنقبة النبوية تزين تاريخهم كلما ذكروا إلى اليوم وستبقى ما دام الإسلام والمسلمون وإن كان الأمر كذلك فهل ظن هذا الباحث ، أن رسول الله ادخر الغنائم لنفسه أو للمهاجرين

---

(١) جعيط ، الفتنة ٣١ .

(٢) ينظر: ابن هشام ، السيرة النبوية ٢/ ١٢٣ .

(٣) سورة الحديد ، من الآية (٢١) .

(٤) البخاري ، شرح صحيح البخاري فتح الباري ، باب ما يجوز من (اللو) ح (٧٢٤٤) .

حاشاه ﷺ من ذلك ، فهو لن يجد ما يؤيد به باطله ، إذ أن رسول الله ﷺ ، لم يعط المهاجرين من تلك الغنائم ولم يدخرها لنفسه ، وإنما بذلها لإنقاذ الناس من النار فأعطاها لكي يعلم الناس أجمعين ، أن رسول الله ﷺ والمهاجرين والأنصار لم يكن هدفهم في يوم من الأيام ، الدنيا وغنائمها وإنما هدفهم ، إنقاذ الناس من النار ونشر دين الإسلام ، دين الرحمة والأخوة والمواساة في العالمين .

ومع كل ما قدمه رسول الله ﷺ من البراهين على صدق توجههم إلى الله تعالى وأنهم لا يبغون إلا نشر الإسلام والأجر من الله تعالى فإن المغرضين يأبون عليهم ذلك فيعارضون قول الله تعالى: ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا ﴾[1] . ويقولون: إن سماحة النبي التي اتبعها في مكة ما كانت إلا ميلا لعشيرته وأن التسامح ليس هو السمة التي رافقت جميع انتصاراته ﷺ ، فهذا أحد المغرورين يتهم رسول الله ﷺ والمهاجرين والأنصار: « وجاء العفو عن أبي سفيان رغم تحجيمه لبعض الشرعية القرشية في الزعامة، امتدادا في البيت الأموي منذ ذلك الوقت ، كما تكرس في ظل هذه المعادلة سقوط الأنصار من دون المدينة التي ظلت عاصمة الدولة الإسلامية بينما تقلص نفوذهم وتضاءلت قوتهم المادية والمعنوية بعد وفاة النبي ﷺ ، دون أن يفارقهم الشعور بالنقص وتحولهم إلى أقلية أمام المهاجرين الذين دخلوا المدينة ، ومعهم الزعامة والثراء والخبرة التجارية **وكانت ذروة الفشل في الصراع الجديد بين الأنصار والمهاجرين في السقيفة** ، التي جاء اختيارها كمكان لطرح مشكلة الخلافة ، معبرا عن العصبية الأنصارية الجديدة »[2].

ويقول آخر واصفا الأنصار بعد كل الذي قدموه في الجهاد: « ولم يساهموا في الحروب التي شنت في سبيل الدعوة إلا كارهين ، بل لم يشترك واحد منهم قط في

---

(١) سورة الفرقان ، الآية (٥٧) .

(٢) جعيط ، الفتنة ، ١١ .

الحروب الأولى التي وجهت إلى مكة »[1] وبهذا الجحـــود والنكـــران ، والتمويـــه والتشويش، يعامل بعض الكتاب المنظرين والمرشدين العلمانيين، تضحيات الأنصار وإيثارهم وكرمهم ، فمن متهم لهم أنهم يحملون في أنفسهم الشعور بالنقص ، ومتهم لهم بالجبن وعدم المشاركة في حركة الجهاد ضد قريش وأهل مكة ، وكأنه لم يطلع على بيعة العقبة [2]، التي تمت قبل الهجرة والتي أظهر فيها الأنصـــار اســـتعدادهم للجهاد منذ ذلك اليوم ، وقول العباس بن نضلة الأنصاري[3] لرسول الله ﷺ : « إن شـــئت لنميلن عليهم بأسيافنا »[4] فإذا كان الأنصار وهم في مكة وفي الساعة التـــي بايعوا فيها رسول الله ﷺ يعرضون عليه مواجهة المشركين في ديارهم ، فهل مـــن المعقول أن يتأخروا عن الجهاد معه بعد هجرته إليهم .

وليس هذا موضع استقصاء أباطيل وشبهات المستشرقين والرافضة والعلمانيين الذين تجردوا من عقيدتهم، ومن ناصب الصحابة ﷺ العداء دون وجه حـق ، ورد نصوص القرآن الكريم ، ونصوص الأحاديث الصحيحة ، واتبع هواه .

وإنما المقصود أن أعداء الصـــحابة ﷺ من الذين تجاوزوا حرمتـــهم التـــي أقرها الكتاب والسنة ، ليس هدفهم من تسليط أضواء التشويش علـــى حيـــاة هـــذا الصحابي أو ذاك إلا إيجاد مســـوغ لقبول بعض رواياتـــهم ، ثـــم توســـيع دائـــرة الإتـــهام على بقيـــة الصـــحابة ﷺ، وبالتالي فإن الذين يطـــعنون في الصـــحابة « إنـــما يريـــدون أن يجـــرحوا شهـــودنا ليبـــطلوا الكتـــاب والسنـــة والجـــرح

---

(١) بيضون ، الحجاز والدولة الإسلامية ، ٩ .

(٢) بيعة العقبة ، ينظر ، ابن سعد ، الطبقات ، ٢/ ١٠٧ .

(٣) العبـــاس بن عبادة بن نضـــلة بن مالك بن العجلان، كان ممن خرج إلى رسول الله ﷺ وهو بمكة وأقام مع رسول الله ﷺ حتى هاجر إلى المدينة، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين عثمان بن مظعون لم يشهد بدرا وقتل يوم أحد شهيدا، ابن عبد البر، الاستيعاب ٢/ ٨١٠، ابن سعد، الطبقات ، ٢/ ١٠٧ .

(٤) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٣/ ١٣٦ ، ابن سعد ، الطبقات ، ٢/ ٢٥١ .

بهم أولى ، وهم زنادقة »[١]. فهم وجهوا اتهاماتهم إلى ذي النورين رضي الله عنه ثم تجاوزوه إلى رسول الله ﷺ ويتهمون أبا بكر وعمر رضي الله عنهما على الخلافة « وعهد أبو بكر إليه ـ عمر ـ بالخلافة بوصية أوصاها ، على أن ذلك كان تثبيتا لأمر تمت الموافقة عليه من ذي قبل »[٢] وبعد ذلك فإن عمر رضي الله عنه استبعد الأنصار وحصر الخلافة في حفنة من رجال ستة نفر ، مستبعدا الأنصار وفئات أخرى من أهل السابقة [٣]. وأما علي رضي الله عنه فإن شرعيته مبتورة[٤]، لرفض أغلب كبار الصحابة بيعته ، فقد كانت تلك الشرعية تقوم على إجماع المدنيين أي جمهور الأنصار[٥].

وهذا كلام باطل ، إذ أن شرعية علي رضي الله عنه في الخلافة كاملة فقد بايعه كافة المهاجرين والأنصار في المدينة [٦]، لكن البعض منهم اعتزل القتال لأنه عده قتال فتنة ، إلا أن هؤلاء الباحثين ، لا يفتشون إلا عن الجوانب السلبية إن وجدت فيضيفون إليها ما يؤصل الخلاف ثم ينشرونها على أنها حقائق ، وإلا فإن صاحب هذا النص ، لو كان هدفه البحث عن الحقيقة ، لعلم أنه لم يتخلف أحد من الصحابة في المدينة ، عن بيعة علي رضي الله عنه ولما فرق بين من بايع واعتزل المشاركة السياسية والعسكرية وبين من بايع وشارك فيهما .

وفي كتاب الفتنة عنده « علي مدشن الفتنة »[٧] وعنده ، علي مكروه من قريش من أثار حربه في بداية الإسلام والجمل وصفين [٨].

---

(١) الخطيب البغدادي ، الكفاية ، ٩٧ ، وينظر التليدي ، فضائل الصحابة ، ٢٤ .

(٢) ولهاوزن ، الدولة العربية وسقوطها ، ٣٤ .

(٣) جعيط ، الفتنة ، ٣٤ .

(٤) المصدر نفسه ١٧٩ .

(٥) جعيط ، الفتنة ، ١٤١ .

(٦) ينظر: الخليفة ، الأنصار في العصر الراشدي ، ١٥٦ .

(٧) جعيط ، الفتنة ، (٣٠٨) .

(٨) المصدر نفسه ، (١٧١) .

وأما الخطب الرائعة البيان والبلاغة والمنسوبة إلى علي ﷺ فموضوعة برمتها[1] ولهذا لم يكن علي ﷺ قادرا على تجييش أكثر من سبعمائة وقراء الكوفة[2] . « وعلى الرغم من القاسم المشترك الذي شد الأنصار إلى جبهة علي ﷺ ، **والتحالف المصلحي** بين الطرفين فإن خروج هذا الأخير من المدينة ... قلل حماستهم له مما فسر بقاء أكثرية الأنصار في المدينة [3].

وعند صاحب كتاب الفتنة الأنصار ، « وسط فقد المبادرة التاريخية وكل مشاركة حقيقية في القيادة ، بحيث إن المصادر حتى الأكثر ميلا إلى علي ﷺ التي تصر على تظخيم عددهم ، تجعلنا نشعر في معرض كلامها عن الأنصار أنهم فئة سلبية منقادة وراء علي لا تفيد إلا في الشهادة على استمرار علاقة حية مع إرث رسول الله ﷺ وسنته »[4].

وأما أم المؤمنين عائشة الصديقة رضي الله عنها فإنها شهدت قتال الجمل بما يسميه « **جنون عائشة الإنتقامي** »[5] وهي تصيح في أهل الكوفة « مطلقة هذه الصرخة الجاهلية البقية البقية »[6] و « **الثالوث المنشق** » عائشة وطلحة والزبير ﷺ وبعد رمي خيار الصحابة بالتهم ، وفساد النوايا والسلبية والإنقياد ، دون أن يستثني أحدا منهم ، مما يثير التساؤلات عن هدفه من البحث في مثل هذه المسائل وهل ذلك لخدمة البحث العلمي !؟ وإذا كان الأمر كذلك ألا يوجد أحد من المسلمين بريئة نيته صادقة أهدافه ؟ وإن لم يوجد أحد من هذا الصنف ، ألا يمكن تبرئة نوايا

---

(١) المصدر نفسه ، (٢٥٦) .

(٢) المصدر نفسه ، (١٤٩) .

(٣) بيضون ، الحجاز ، ١١ .

(٤) جعيط ، الفتنة ، ١٥٥ .

(٥) المصدر نفسه ، ١٦٥ .

(٦) المصدر نفسه ، ١٦٧ .

رسول الله ﷺ وسلامة مقصده في توزيع غنائم هوازن في حنين وكذلك الموقف في فتح مكة ، لا شك أن ما قام به رسول الله ﷺ هو الحق الذي يخدم الإسلام والمسلمين وأن كل ما قام به الصحابة ﷺ يدور في فلك خدمة الحقيقة ، وأن من يتحدث بغير ذلك مفتون لا يدري ما يقول ، وضع أمته وعقيدته ومصالحها وراء ظهره ، وأنه منساق وراء الأفكار المعادية للإسلام وأهله ، ويحاول أن يثبت انتماءه لتلك التيارات ، تحت أية ذريعة ، لذلك ابتكر مصطلحات غريبة عن مفاهيمنا وعباراتنا في كتاباتنا التاريخية والأدبية الإسلامية ، فهو يسمي أمهات المؤمنين « أرامل النبي ﷺ »[١] ومنهج النبي ﷺ « صورة النبي المؤمثلة »[٢] ومصطلحات أخرى منها الديماغوجية والشعبوية[٣] والميتاتاريخية[٤].

فهل مثل هذه الوسائل في تحليل الأحداث ، وبهذا المنهج التشكيكي التأليبي التأجيجي للخلافات ، وتعميمها على أنقى فترات التاريخ الإسلامي ورجاله على أنها حقائق لا ترد ـ نوع من أنواع البحث العلمي ؟ أم أنها نوع من الغزو الداخلي الذي استنبت في بيئة العالم الإسلامي وزرع في كيانه ؟ ليعمل على هدم وتوهين عوامل الإرتباط بين أمتنا وبين الجوانب المشرقة في تاريخها ؟ .

ومثل هذه الهجمات الغادرة على تاريخنا ، والتي يقودها أناس من جلدتنا ويزعمون أنهم يمارسون البحث العلمي المجرد ، إنما نقيسها على ثوابتنا الحضارية وقيمنا السلوكية ، فإن وافقت وإلا نعتصم من شرورها بملاذنا الآمن ، المتمثل في الكتاب والسنة، وفي الاهتداء بأنوارهما وهديهما الذي تصدر عنه الأحكام الصائبة السديدة المنصفة ، هذان المصدران اللذان يمثلان للأمة المسلمة عواصم من السقوط

---

(١) جعيط الفتنة ، ٥٠ ، ١٠١ .

(٢) المصدر نفسه ، ٧٧ .

(٣) المصدر نفسه ، ٨٢ .

(٤) المصدر نفسه ، ٩٢ .

وذخيرة للنهوض واستعادة الهوية. وبعد هذه الوقفة التي لابد منها ، وذلك لبيان أن الصحابة ﷺ يمثلون هدفا للحاقدين على الأمة المسلمة ، إذ إنهم جيل القدوة الذي تربى برعاية الوحي وأخلاق النبوة ، والذي قدم الأمثلة الحية والناجحة في أبواب التضحية والبناء والقيادة ، فاتباع منهجهم في إعادة البناء ، وإصلاح الخلل ومواجهة الخطر ، يعد عملا جدا مضمون النتائج ، مثلما أن الإنحراف عنه، عمل خطير هدام أكيد النتائج أيضا .

إن أي بحث يهدف إلى تشويه سيرة بعض الصحابة ، هو عمل متعمد تكمن وراءه غايات خطيرة ، هدفها عزل الأمة عن ماضيها والتشكيك بحاضرها وإمكانية إصلاحه .

ومن هنا يتبين أن الباحثين ، الذين كتبوا عن الفتنة ، وأسقطوا عليها المفاهيم التي عايشوها في عصورهم هذه ، ولم يهتدوا بكتاب الله ولا سنة رسول الله ﷺ انحرفوا انحرافا بعيدا خطيرا ، فبدلا من أن يستقوا العبرة من مواقف الصحابة ﷺ وينظروا كيف كانوا لا تأخذهم في الله لومة لائم ، ويكتبوا عن وفائهم وإخلاصهم لعقيدتهم ، وشدة تمسكهم بكتاب الله وهدي نبيهم ﷺ ، وعن عدلهم الذي نشروه على جميع رعاياهم من مسلمين وغيرهم ، وعن زهدهم وتقشفهم ، وعن الأمن والحرية والسلام والعلم والحق والنظام والنظافة ، وحقوق الجوار وحقوق الزوجية وتربية النشيء وتزكية النفوس ، وعلو الهمم والإيثار والكرم ، وعن جميع الفضائل التي هم فيها موطن القدوة والصدارة ، بدلا من إشاعة هذه الفضائل وما يضاف إليها من الإنجازات التي تمت في مواطن الجهاد ، والتحول الإقتصادي الهائل والأنظمة الاجتماعية والعلاقات الأخوية التي اتسم بها المجتمع الإسلامي في العصر الراشدي إلى غير ذلك من وجوه الفلاح والنجاح والخير ، بدلا من كل هذا يسخر المبطلون من أعداء الصحابة ألسنتهم وأقلامهم متآزرين مع اليهود والمجوس

والمستشرقين[١] وتلاميذهم ممن ليس لهم أمانة ولا صدق فيما يتعلق بالتاريخ الإسلامي ، ورجاله الذين صنعوه ، متجردين من كل معاني الخير والإنسانية ومتعاونين معهم لاختلاق الأباطيل وصناعة الإفك وإلصاق التهم ، بأنبل البشر وأشرف الخلق بعد الأنبياء ، بأصحاب رسول الله ﷺ ، الذين يُعلّمون البشرية وفي كل عصورها كيف تُطبق المبادئ على واقع الحياة ، وكيف يكون الوفاء لها ومقدار التضحية من أجلها ، وكيف يكون الصبر والاحتساب وضبط النزوات البشرية ، ولا سيما مع القدرة على البطش والانتقام ، من شرار الخلق الذين باشروا قتل عثمان رضي الله عنه من تلامذة المكر اليهودي من السبئية والغوغاء التي تسير بأذيالهم حتى أصبحوا مضرب المثل في السوء والغدر والبغي ، لما جلبوا على الأمة من الفتن والمحن والبلاء ، فكان المسلمون في صدر الإسلام إذا أرادوا أن يبالغوا في وصف سوء شبهوه بفعل قتلة عثمان رضي الله عنه « فأتى على الناس زمان إذا كان بين رجلين منازعة قال: أنا إذاً شرٌ من قاتل عثمان »[٢] .

ولعل خير من يمثل الصورة المعاكسة لما جبلت عليه نفوس هؤلاء الأشرار ويتمسك بكل الفضائل ومعاني الخير ، في ساعات المحنة والشدة ، وكيف يضحي بروحه الطاهرة صابراً محتسباً ، تحت ضربات السيوف الغادرة الظالمة الباغية هو الخليفة الراشدي ذو النورين عثمان بن عفان في ساعات محنته رضي الله عنه وأرضاه .

---

(١) لا يُستثنى أحد من هؤلاء في العمل على تشويه التاريخ الإسلامي وقلب الحقائق سواء كان ذلك عن جهل أو تعمد إلا من أسلم منهم وتخلى عن أباطيله .

ينظر مزاعمهم عن رسول الله ﷺ في ، لوبون ، حضارة العرب ، ٢٧ ، وكيف يفترون في مثل زعمهم الباطل « أن محمداً ﷺ متهوس مصاباً بالصرع » حاشاه ﷺ ، وينظر: موسكابي، الحضارات السامية القديمة، ٢٠٨، وكيف ألّف رسول الله ﷺ «من اليهودية والجاهلية ديناً هو الإسلام»وينظر: ديورانت ، قصة الحضارة، ١١/ ١٢٤.وأن عيسى عليه السلام « لم يولد من أم عذراء » وغيرهم كثير

(٢) ابن شبة ، تاريخ المدينة ، ٢/ ٢٩٧ .

الفَصْلُ الثَّالِث

بدايات الفتنة وأسبابها وأثر غوغاء أهل الكوفة فيها

إن من أهم أسباب الخروج على الخليفة عثمان ﷺ ، أمرين أحدهما: بطـــر النعمة التي أصبح فيها كثير من الناس ، نعمة الأمن ونعمة العطاء والخير الذي عمّ جميع المسلمين ، فكان فيهم كثيرٌ من أهل الجهل وممن لا يشكر النعم .

والأمر الآخر: المكر والدهاء اللذان مارسهما ابن سبأ ومنظمته السرّية التي تقـــوم بالتشويش على الخلفاء ، والتغرير بعوام الناس وتشجيعهم على الخروج على ولاتهم وكانت الكوفة أرضاً خصبة للفتن وترويج الشائعات والأباطيل ولا سيما ممن طُبـق عليه حد في السرقة أو القتل أو على أحد من أقاربه [١]، ممـــن لازالـــت جلافـــة الجاهلية وأخلاقها تحكمه .

وكان عثمان قد أمر بتطبيق حد القتل على بعض القتلة آنذاك ، حتى قال فـــي ذلك الشاعر الفارس المجاهد عاصم بن عمرو التميمي :[٢]

إن ابن عفـــان الذي جربتـــم	فطم اللصوص بمحكم الفرقـــان
ما زال يعمل بالكتاب مهيـــمناً	في كـــل عنـــق منهـــم وبنـــان[٣]

ولكن أهل الكوفة في أواخر عهد عثمان ﷺ « قد اضطرب أمرهم ، وغُلب أهل الشرف منهم والبيوتات والسابقة والقدمة ، والغالب على تلك البلاد روادف ردفـــت وأعراب لحقت ، حتى ما ينظر إلى ذي شرف ولا بلاء من نازلتها ولا نابتتها »[٤]

---

(١) ينظر: الطبري ، تاريخ ٤/ ٢٧١ .

(٢) عاصم بن عمرو التميمي: أخو القعقاع بن عمرو أدرك النبي ﷺ قال ابن عبد البر : ولا يصح لهما صحبة عند أهل الحديث ولا لقاء ولا رواية والله أعلم ، وكان لهما بالقادسية مشاهد كريمة ومقامات محمودة وبلاء حسن ، ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ٢/ ٧٨٢. وقال الطبـــري: (كان القعـــقاع مـــن أصحاب النبي ﷺ) تاريخ ، ٥/ ٢٤٦ .

(٣) الطبري ، تاريخ ، ٤/ ٢٧١ .

(٤) المصدر نفسه ، ٤/ ٢٧٨ .

وكان منهم من لا يتورع عن ممارسة « التحسس والبحث »[١] و« لم يبق موتور في نفسه إلا أتاهم فاجتمعوا على رأي فأصدروه »[٢] وهو متابعة التجسس على أمير الكوفة وتتبع سقطات الوليد بن عقبة حتى تم عزله ، وعُيــن مكانــه سـعيد بـن العاص[٣] الذي خطب في الكوفة فقال: « والله لقد بعثت إليكم وإني لكــاره ، ... ألا إن الفتنة قد أطلعت خطمها وعينيها ، ووالله لأضربن وجهها حتى أقمعها أو تُعْيِيني وإني لرائد نفسي اليوم »[٤]ولما قدّم سعيد أهل السابقة وأهل الدين ومن شارك فــي الفتوح ، وأدخل معهم بعض اللواحق والروادف وجالس القــراء « فكأنمــا كــانت الكوفة يبساً شملته نار فانقطع إلى ذلك الضرب ضربهم وفشت القالة والإذاعة »[٥].

فكتب سعيد إلى الخليفة بحال أهل الكوفة ، فقال عثمان ﷺ: « يا أهل المدينــة استعدوا واستمسكوا ، فقد دبت إليكم الفتن »[٦] .

ومن هنا حدد عثمان بداية الفتنة التي رصدها والي الكوفة أيضاً مما يشير إلى معرفة الصحابة ﷺ بعلامات الفتنة ، ويروى أن عثمان ﷺ تمثــل مَثَلــه ومَثَــل هؤلاء الذين شرعوا في الخلاف بقول القائل :

أبني عبيد قد أتى أشياعكم	عنكم مقالتكم وشعر الشاعر
فإذا أتتكم هــذه فتلبســوا	إن الرماح بصيرة بالحاسر[٧]

(١) المصدر نفسه ، ٤/ ٢٧٨ ، أي التجسس والبحث عن العورات والسقطات .

(٢) الطبري ، تاريخ ، ٤/ ٢٧٤ .

(٣) سعيد بن العاص بن أمية ، نشأ سعيد في حجر عثمان ، وكان عمره يوم وفاة رسول الله ﷺ تسع سنين وكان من سادات المسلمين والأجواد المشهورين وكان أشبه الناس لحية برسول الله ﷺ ، ولاه عثمان الكوفة بعد عزل الوليد، وكان أحد الذين كتبــوا القرآن في عهد عثمان ، وولاه معاوية على المدينة توفي سنة ثمان وخمسين للهجرة ، ينظر: ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٨/ ٨٠ .

(٤) الطبري ، تاريخ ، ٤/ ٢٧٨ .

(٥) المصدر نفســه .

(٦) المصدر نفســه . (٧) المصدر نفســه .

وهذه الأحداث كانت في سنة ثلاثين من الهجرة ، وكان غوغاء الكوفة منذ ذلك التاريخ ينقمون على والي الكوفة سعيد بن العاص مجالسته في خلواته لوجوه الناس ومن شهد القادسية والقراء وأهل الخير ، أما إذا جلس للناس فإنه يدخل كل أحد فجلس للناس يوما ، فدخلوا عليه ، فبينما هم جلوس يتحدثون قال خنيس بن فلان الأسدي [١]، ما أجود طلحة بن عبيد الله: فقال سعيد: إن من له مثل النشاستج لحقيق أن يكون جوادا ، والله لو أن لي مثله لأعاشكم الله عيشا رغدا ، فقال عبد الرحمن ابن خنيس وهو حدث: والله لوددت أن هذا الملطاط[٢] لك، يعني ما كان لآل كسرى على جانب الفرات الذي يلي الكوفة ، قالوا: فض الله فاك ! والله لقد هممنا بك فقال خنيس : غلام فلا تجازوه ، فقالوا : يتمنى له من سوادنا [٣]، قال : ويتمنى لكم أضعافه ، قالوا : لا يتمنى لنا ولا له ، قال: ما هذا بكم ! قالوا: أنت والله أمرته بها فثاروا إليه ، الأشتر[٤]، وابن ذي الحبكة ،[٥] وجندب ، وصعصعه[٦]

---

(١) ابن سعد ، الطبقات ، ٦/ ٢٠٩ ، وكان رسول سعد بن أبي وقاص إلى عمر رضي الله عنهما يبشره بفتح المدائن . الطبري ، ٤/ ٢٢ .

(٢) الملطاط : هو ساحل الكوفة على نهر الفرات ، ياقوت ، معجم البلدان ، ٥/ ١٩٢ .

(٣) السواد : يطلق على المنطقة بين نهري دجلة والفرات من جهة الجنوب، ينظر: ياقوت، معجم البلدان ٣/ ٢٧٢ .

(٤) الأشتر: هو مالك بن الحارث النخعي ، روى عن عمر وخالد وشهد اليرموك وقلعت عينه يومئذ وكان ممن ألب على عثمان ، سار إليه وأبلى شرا، وشهد صفين مع علي، **وكان علي** رضي الله عنه **يتبرم به ويكرهه** لأنه كان صعب المراس ، بعثه علي على مصر واليا فمات بالطريق مسموما ، فلما بلغه موته قال: للمنخرين والفم ، وذلك سنة (٣٨ هـ) . الذهبي ، الخلفاء الراشدون ، ٥٩٣ .

(٥) وهو كعب بن ذي الحبكة النهدي ، كان يمارس أشياء تشبه السحر فعزره الوليد بن عقبة والي الكوفة ونفاه عن الكوفة ، فلما ولي سعيد بن العاص ، أعاده وأحسن إليه واستصلحه ، فلم يزدد إلا فسادا . ينظر: الطبري ، تاريخ ، ٥/ ١٨٨ . وقيل صلح وتاب وحسن حاله ، ينظر: المحب الطبري الرياض النضرة ٢/ ٩٨ .

(٦)صعصعه بن صوحان العبدي، نزيل الكوفة، تابعي مخضرم، فصيح ثقة،مات في خلافة معاوية رضي الله عنه أخرج له أبو داود والنسائي . ينظر: ابن حجر ، التقريب ٢٧٦ .

وابن الكواء [١]، وكميل بن زياد [٢]، وعمير بن ضابيء [٣]، فأخذوه فذهب أبوه ليمنع منه فضربوهما حتى غشي عليهما وجعل سعيد يناشدهم ويأبون ، حتى قضوا منهما وطرا فسمعت بذلك بنو أسد ، فجاءوا وفيهم طليحة ، فأحاطوا بالقصر وركبت القبائل ، فعاذوا بسعيد ، وقالوا: أفلتنا وخلصنا ـ وهذه هي شيم الغوغاء منزوعة منهم القيم إن ظفروا بالضعيف لا يرحموه ، والكريم لا يوقروه ، وإن رأوا القوة التي تقهر كبرياءهم الفارغة ، فإنهم أذلاء يستغيثون ويطلبون النجاة بأية وسيلة كانت ـ فخرج سعيد إلى الناس فأخبرهم ، لكنه لم يعد يأذن لهم في دخول مجلسه فلما انقطع أملهم في مجالس الأمير ، قعدوا في بيوتهم وأقبلوا على الإذاعة حتى لامه أهل الكوفة في أمرهم ، فقال: هذا أميركم وقد نهاني أن أحرك شيئا فمن أراد منكم أن يحرك شيئا فليحركه [٤].

وفي هذا النص تتضح تعليمات الخليفة إلى الولاة أن لا يحركوا ساكنا تجنبا لهيجان الفتنة ، وتظهر أخلاقيات رجال الفتنة ومن سار في ركابهم ، وحنقهم على أمرائهم ، وحقدهم على من يقيم الحدود ، وينزل الناس منازلهم فهم لا يبالون بأهل

---

(١) عبد الله بن الكواء اليشكري وهو أحد الذين شاغبوا على الولاة في الكوفة ، وكان من المسيرين من الكوفة إلى الشام شارك في صفين مع علي رضي الله عنه ، ثم كان أحد الخوارج بعد صفين ، الطبري ، تاريخ ٤/ ٣٢٩ .

(٢) كميل بن زياد: من أهل الكوفة تعاهد مع عمير بن ضابيء على اغتيال أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه فاكتشف أمره لكن الخليفة عفا عنه ، إلا أنه دعا عليه، فقتله الحجاج في ولايته على العراق ، الطبري تاريخ ، ٥/ ١٨٩ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٩/ ١٠ .

(٣) عمير بن ضابيء: قال الطبري: صار عمير بن ضابيء سبيئا ، عاش إلى زمان الحجاج ، فلما أمر الحجاج الناس بالالتحاق بجيش المسلمين لمقاتلة الخوارج ، قام إليه عمير وقال: إني شيخ كبير ضعيف ولي ابنان قويان فأخرج أحدهما مكاني أو كليهما فقال من أنت ؟ قال أنا عمير بن ضابيء فقال: والله لقد عصيت الله منذ أربعين سنة ، وإنك هممت باغتيال أمير المؤمنين عثمان ، ووالله لأنكلن بك المسلمين ، فضرب عنقه ، الطبري ، تاريخ ، ٥/ ١٨٩ .

(٤) الطبري ، تاريخ ، ٤/ ٣١٩ .

السابقة ، ويستكثرون عليهم سهمانهم التي نالوها بجهادهم وسابقتهم ، ثم استخدامهم الشائعات ونشرها بين الناس ولا سيما أن هناك الكثير من الأعراب والروادف الذين نزلوا الكوفة فأصبحوا امتداداً للمتمردين على قيم وأخلاقيات العصر الراشدي التي يتمسك بها الخليفة عثمان رضي الله عنه وولاته وأهل السابقة من المسلمين ، والتي أعطت الغوغاء مجالاً شاسعاً ، ليتحدثوا بما يريدون ويراسلوا من يشاؤون دون خوف من الرقيب أو المحاسبة .

وفيه يظهر تذمر سكان الكوفة وأشرافها من أفعالهم ورغبتهم في إبعادهم عن بلدتهم. حتى كتبوا إلى الخليفة عثمان رضي الله عنه في إخراجهم عنهم . فكتب إليهم عثمان: إذا اجتمع ملؤكم على ذلك فألحقوهم بمعاوية . فأخرجوهم فذلوا وانقادوا حتى أتوه ــ وهم بضعة عشر ــ فكتبوا بذلك إلى عثمان . وكتب عثمان إلى معاوية: إن أهل الكوفة قد أخرجوا إليك نفراً خُلقوا للفتنة ، فرعهم ــ من الرعاية ــ وقم عليهم فإن آنست منهم رشداً فاقبل منهم ، وإن أعيوك فارددهم عليهم فلما قدموا على معاوية رحب بهم وأنزلهم كنيسة تسمى مريم ، وأجرى عليهم بأمر الخليفة ما كان يجري عليهم بالعراق ، وجعل لا يزال يتغدى ويتعشى معهم: ثم حادثهم يوماً فبين لهم فضل الإسلام على العرب وفضل قريش على العرب وإن أئمتهم يصبرون لهم على الجور ويتحملون المؤونة ، وقال: والله لتنتهين أو ليبتلينكم الله بمن يسومكم ، ثم لا يحمدكم على الصبر ، ثم تكونون شركاءهم فيما جررتم على الرعية في حياتكم وبعد موتكم .

فردوا عليه بما ينتقص من قريش ومن الأئمة ، فقال: معاوية عرفتكم الآن علمت أن الذي أغراكم على هذا قلة العقول ، افقهوا ولا أظنكم تفقهون ، أن قريشاً لم تعز في جاهلية ولا في إسلام إلا بالله عز وجل الذي لا يُستذل من أعز ، ولن يضر ذلك قريشاً ، ولن يمنعهم من تأدية ما عليهم ، إن الشيطان عنكم غير غافل قد عرفكم بالشرّ من بين أمتكم فأغرى بكم الناس وهو صارعكم ، ولا تدركوا

بالشرّ أمراً أبداً إلا فتح الله عليكم شراً منه وأخزى ، فتحادثوا فيما بينهم وتلاوموا فتقاصرت إليهم أنفسهم . وحادثهم مرة أخرى فنصحهم وقال: ألزموا جماعتكم ولا يبطرنكم الإنعام .

ويروى أن معاوية قال لهم: اصنعوا وقولوا ما شئتم ما تدعوا شيئاً من أمر الله فإن كل شيء يحتمل لكم إلا معصيته ، فأما فيما بيننا وبينكم فأنتم أمراء أنفسكم فرآهم بعد وهم يصلون ويقرئ بعضهم بعضاً ، فقال: إن في هذا لخلفاً مما قدمتم به عليّ من النزاع إلى أمر الجاهلية ، إنكم إن لزمتم جماعتكم سعدتم ، وإن لم تلزموها شقيتم فجزوه خيراً وأثنوا عليه .

ويروى أن معاوية قال لهم: اذهبوا حيث شئتم . فلما خرجوا دعاهم فقال: إني معيد عليكم ، إن رسول الله ﷺ كان معصوماً فولاني ، وأدخلني في أمره ثم استخلف أبو بكر رضي الله عنه فولاني ، ثم استخلف عمر فولاني ، ثم استخلف عثمان فولاني ، فلم آلُ لأحد منهم ولم يولني إلا وهو راضٍ عني ، وإنما طلب رسول الله ﷺ أهل الجزاء عن المسلمين والغناء ، ولم يطلب لها أهل الاجتهاد والجهل بها والضعف عنها ، **وإن الله ذو سطوات ونقمات يمكر بمن مكر به ، فلا تعرضوا لأمر وأنتم تعلمون من أنفسكم غير ما تظهرون** ، فإن الله غير تارككم حتى يختبركم ويُبدي للناس سرائركم ، وقد قال عز وجل : ﴿ آلم ۝ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ﴾[1] .

وكتب معاوية رضي الله عنه إلى الخليفة: إنه قدم عليَّ أقوام ليست لهم عقول ولا أديان أثقلهم الإسلام ، وأضجرهم العدل لا يريدون الله بشيء ، ولا يتكلمون بحجة ، إنما همهم الفتنة ، وأموال أهل الذمة ، والله مبتليهم ومختبرهم ، ثم فاضحهم ومخزيهم . وليسوا بالذين ينكون أحداً إلا مع غيرهم ، فانْهَ سعيداً ومن قِبَله عنهم ، فإنهم ليسوا

---

(١) سورة العنكبوت ، الآيتان (١ــ٢) .

لأكثر من شغب أو نكير . فخرجوا من دمشق ، ولم يرجعوا إلى الكوفة ، لكي لا يشمتوا بهم ، فذهبوا إلى الجزيرة وكانت تحت ولاية ، عبد الرحمن بن خالد بن الوليد رضي الله عنه ، فدعا بهم فقال: يا آلة الشيطان ، لا مرحباً بكم ولا أهلاً ! قد رجع الشيطان محسوراً وأنتم بعد نشاط ، خسّر الله عبد الرحمن إن لم يؤدبكم حتى يحسركم ، يا معشر من لا أدري أعرب أم عجم ، لكي لا تقولوا لي ما يبلغني أنكم تقولون لمعاوية ، أنا ابن خالد بن الوليد ، أنا ابن من عجمته العاجمات ، أنا ابن فاقئ عين الردة ، والله لئن بلغني يا صعصعة بن ذل أن أحداً ممن معي دقّ أنفك ثم أمصّك ــ أي نال منك ــ لأطيرن بك طيرة بعيدة المهوى ، فأقامهم أشهراً كلما ركب أمشاهم ، فإذا مرّ به صعصعة قال: يا ابن الحطيئة ، **أعلمت أن من لم يصلحه الخير أصلحه الشرّ !؟** مالك لا تقول كما كان يبلغني أنك تقول لسعيد ومعاوية !؟ فيقول ويقولون: نتوب إلى الله أقلنا أقالك الله ! فما زالوا به حتى قال: تاب الله عليكم .

فخرج الأشتر ، فأتى عثمان رضي الله عنه بالتوبة والندم والنزوع عنه وعن أصحابه . فقال له عثمان رضي الله عنه: احلل حيث شئت ، فقال مع عبد الرحمن بن خالد ؟ وذكر من فضله ، فقال عثمان: ذاك إليكم ، فرجع إلى عبد الرحمن .(١)ــ ولكنه سرعان ما استفزته السبئية ، فامتطوه في الفتنة يسيرون به حيث شاؤوا ، حتى سعّر الأرض فتنة ــ وفي هذا النص تتجلى معرفة معاوية رضي الله عنه بالرجال ، وعميق نظره بالسياسة وحسن معالجته للمعضلات ، كما يتضح مدى حرص الخلافة على أداء حقوق الرعية من أي صنف كانوا ومهما بلغت معارضتهم .

فالخليفة لا يقر إخراج دعاة الفتنة ومثيري الشغب في الكوفة حتى أصبح ذلك مطلباً للناس في الكوفة وكتبوا به إليه .

---

(١) ينظر: الطبري ، تاريخ ، ٤/ ٣١٧ فما بعدها .

فأوكل إخراجهم لأشراف الناس فيها ، لذلك لم يعد بإمكان زعماء الغوغاء من دعاة الفتنة إبداء أية معارضة ، وذلت أنفسهم وانقادوا للأمر صاغرين .

ومع كل الذي فعلوه في الكوفة من الإستهانة بأمرائها ونشر الشائعات المشوشة على الخلافة ، فإن عثمان ﷺ يوصي واليه بالشام بأن يجري عليهم العطاء الذي كان يأتيهم في العراق ، وهذا يؤكد رعاية الخلافة الراشدة للناس على كل الأحوال التي هم عليها ، وأنهم لا يحاربون الناس بلقمة العيش كما يلاحظ في هذا العصر وبعد أن يجالسهم والي الشام قاصدا استصلاحهم وتربيتهم على محبة الدين والانقياد للخلافة الرؤوفة الرحيمة بهم ، ويبين لهم فضل الإسلام على العرب وفضل قريش بنبيها ﷺ ، والخلفاء الراشدين الذين اتبعوا خطواته ﷺ .

ويسمع ردهم بقياس الأمور على الجاهلية وما قبل الإسلام ، يبين لهم أنهم أتوا من قبل أنفسهم لجهلهم وقلة عقولهم ، التي لا زالت تقيس بمقاييس الجاهلية فيبين لهم أنه لم يكن عزا لقريش إلا بالله تعالى لا في جاهلية ولا في إسلام ، فعليكم التمسك بحبل الله تعالى لتنالوا عزه .

وأعلمهم أن طلب الخير عن طريق الشر غير صحيح ، لأن الشر لا يأتي بخير أبدا وأن لزوم الجماعة والحرص على الوحدة من متطلبات الإيمان ، وأن الخروج عن الصف وتحت أية ذريعة كانت هو من مكائد الشيطان .

ثم أخبرهم بأن شغبهم هذا لن يعود عليهم بفائدة ، وأنه قد رفع عنهم أي قيد بقوله افعلوا ما شئتم ، إلا قيدا واحدا لا يشفع لهم فيه شافع وهو أن لا يعصوا الله تعالى ، وفي هذا بيان لحرمة الدين ومكانته في نفوس الولاة آنذاك ، إذ أن الخارجين عن الجماعة قد يرتكبون أية مخالفة ، حتى لو كان فيها شتم للولاة ، أو انتقاص للخليفة ، لكن ليس لهم تحت أي ذريعة أن يأتوا بما يخالف الشرع أو ينتقص من مشاعر المسلمين إذ أنهم لن يشفع لهم شافع هناك ، ومما يفسر أسباب النجاحات التي حققها الراشدون من الفتوح ، والرفاه الإقتصادي وقوة

رابطة الوحدة والأخوة ، التي جاءت كنتيجة لاحترام المبادئ وإجلال القيم والتضحية من أجل الدين وشعائره لا من أجل السلطان وأوامره . وأوضح معاوية رضي الله عنه نقطة أخرى لرجال الفتنة يبدو أنهم أسمعوه بعض الاعتراض عليه ، فرد عليهم بما يسكتهم عندما قال: إن رسول الله ﷺ قد استعمله ، ومن بعده أبو بكر ثم عمر ثم عثمان وكلهم كان مقرا له راضيا عنه ، وبهذا فإن كل من يعترض على سلطانه ، اعتراضه غير صحيح ، وقد يجلب عليه شبهة الاعتراض على اختيار رسول الله ﷺ وخلفائه الهداة المهديين رضي الله عنهم .

أما عبد الرحمن بن خالد والي حمص ، فإنه عاملهم بطريقة يبدو أنها هي الأصلح والأنفع لهم ، إذ أنه عدهم من أدوات الشيطان ، وهدفهم زعزعة الاستقرار في بلاد المسلمين وفي نفوسهم ، فعاملهم بما يتناسب مع عظيم جريمتهم ، فكان العلاج ناجحا وشافيا ، فأظهروا التوبة والانقياد للطاعة بل إن بعضهم لم يخف إعجابه الشديد بهذا الوالي، وهذا ما يؤكد قلة عقولهم، الأمر أشار إليها معاوية رضي الله عنه إذ أنهم كانوا يتطاولون على الولاة الذين يكفون أيديهم وألسنتهم عنهم ، ويجلون من أهانهم وأسمعهم وأذلهم ، ويفيضون بذكر فضائله ! . ويبدو أن آثار تربية عبد الرحمن فيهم أخذت فعلها ، حتى ظهر ابن السوداء عبد الله بن سبأ ونفخ فيهم روح الخلاف والشغب من جديد ، وذلك عن طريق أتباعه الذين كان يكاتبهم ويراسلهم في الكوفة [١]، إذ أن حال الكوفة قد أسعف ابن سبأ وأعوانه ووافقهم على أتم حال .

فقد كان والي الكوفة سعيد بن العاص وفد إلى المدينة ، في سنة إحدى عشرة من إمارة عثمان رضي الله عنه (٣٤ هـ) .

وكان قبل خروجه من الكوفة ، قد فرق وجوه الناس هناك وأهل الفضل والطاعة فيهم عمالا على الأمصار الكثيرة التابعة لوالي الكوفة مثل الموصل

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٤/ ٣٣١ .

وأذربيجان[١] والري[٢] وهمذان[٣] وأصفهان[٤] وقرقيسياء[٥] والباب[٦] وحلوان[٧] وغيرها « وخلت الكوفة من الرؤساء إلا منزوعاً أو مفتوناً »[٨] .

وهنا خلا الجو لزعماء الفتنة ، وكان منهم يزيد بن قيس الأرحبي « وهو يريد خلع عثمان ، فدخل المسجد فجلس فيه ، وثاب إليه الذين كان فيه ابن السوداء يكاتبهم ، فانقض عليه القعقاع ــ وكان على الحرب في الكوفة ــ فأخذ يزيد بن قيس ، فقال: إنما نستعفي من سعيد ، قال: هذا لا يعرض لكم فيه لا تجلس لهذا ولا يجتمعن إليك واطلب حاجتك فلعمري لتعطينها ، فرجع إلى بيته واستأجر رجلاً وأعطاه دراهم وبغلاً على أن يأتي المسيرين ــ الأشتر وأصحابه ــ وكتب إليهم: لا

---

(١) أذربيجان: هي إقليم واسع ومن أشهر مدنها تبريز وهي قصبتها وكانت قصبتها قديماً المراغه وفيه قلاع كثيرة وخيرات واسعة ، كثيرة البساتين والمياه ، ياقوت ، معجم البلدان ١/ ١٠٩ .

(٢) الري: وهي مدينة مشهورة وقصبة بلاد الجبال وقيل لم يكن بالشرق بعد بغداد أعمر منها ، قال الشاعر: رضينا بريف الري والري بلدة لها زينة في عيشها المتواتر .
ياقوت ، معجم البلدان ، ٤/ ٤٥٩ .

(٣) همذان: قال الشاعر: ولقد أقول تيامني وتشاءمي وتواصلي ربما على همدان ، وهي من أحسن البلاد وأطيبها وقيل هي أعتق مدينة بالجبل ، ينظر: ياقوت ، معجم البلدان ، ٨/ ٤٨٢ .

(٤) أصفهان: وهي من نواح الجبل ، وهي اسم للإقليم وكانت مدينتها أولاً جيًا ، قال الشاعر:
لست آسى من أصبهان على شيء سوى مائها الرحيق الزلال ، المصدر السابق ، ٢/ ١٦٩ .

(٥) قرقيسياء: بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن طوق وعندها مصب الخابور في الفرات ، قال الشاعر: وسرنا على عمل نريد مدينة بقرقيسيا سير الكماة المساعر، ياقوت، معجم البلدان ٣٥/٧.

(٦) الباب : ويقال لها باب الأبواب مدينة ربما أصاب ماء البحر حائطها وفي وسطها مرسى السفن وباب الأبواب على بحر طبرستان وهو بحر الخزر ، ولها زروع كثيرة وثمار قليلة ، ياقوت ، معجم البلدان ١/ ١٤٣ .

(٧) حلوان: في عدة مواضع وهي بالعراق ، مدينة عامرة واكثر ثمارها التين ، وهي بقرب الجبل وربما يسقط بها الثلج ، قال الشاعر: تلفتُ من حلوان والدمع غالب إلى روض نجد أين حلوان من نجد المصدر السابق ، ٣/ ١٧٣ .

(٨) الطبري ، تاريخ ، ٤/ ٣٣١ .

تضعوا كتابي من أيديكم حتى تجيئوا ، فإن أهل المصر قد جامعونا »[١]. ومن هذا النص تتضح باطنية زعماء الفتنة ونقضهم ، إذ أنهم يقسمون الأيمان أنهم على الطاعة ، وفي الوقت ذاته يجتمعون لمباشرة العمل للخروج على الخلافة ، يزعمون أنهم إنما يتحدثون بالإستعفاء من سعيد بن العاص والي الكوفة ، وهم يخططون للإطاحة بالخليفة أو قتله ، ثم وافتهم الفرصة للتجمع من جديد وإعادة تنظيم أنفسهم بإعادة المعاقبين على ما جنوا من الشغب على ولاة الكوفة ، وبث الشائعات والأكاذيب عليهم بين الناس ، وبعد أن أعلن الأشتر ومن معه توبتهم واستقامتهم وأعطوا العهود على أن لا ينزعوا يداً من طاعة ، إذا بهم وفي أول اختبار يحنثون بأيمانهم ، وينقضون عهودهم ويسارعون إلى العودة [٢] إلى الكوفة مستغلين غيلب القيادات البارزة فيها ، لكي يظهروا على السطح هناك ، متسترين تحت باطنيتهم التي يحتمون بها من الولاة الذين لا يُسمح لهم باتخاذ أي إجراء للوصول إلى الحقائق ، يتجاوز حدود الظاهر من أحوال الناس وأعذارهم التي يعتذرون بها .

وهناك نقطة أخرى جاءت في صالح دعاة الفتنة ، وهي التحالف بينهم وبين أتباع ابن السوداء عبد الله بن سبأ الذين كان يكاتبهم في الكوفة ـــ وهذا ما يوضح معنى **السبئية** ـــ وهم الذين كانوا على صلة مباشرة بابن سبأ . **والغوغاء** هم الذين كانوا على صلة بأتباع ابن سبأ دون أن يعلموا ذلك على الأغلب ، ولعل ذلك أعطاهم بعداً جديداً وهو وجود أنصار جدد خارج الكوفة ، يساهمون في إشاعة أباطيلهم ونشر بهتانهم كما سيتضح ذلك .

ويبدو أن أبرز مظاهر الصراع الذي يعمل الخوارج على تأجيجه، هو الإلتزام الكامل من قبل الخليفة والولاة بكف اليد واللسان عن الخوارج ما لم يرتكبوا حداً أو يُظهروا معصية لله تعالى ، وإعطاء هؤلاء كافة حقوقهم ولا سيما المالية والسياسية

---

(١) المصدر نفسه ، ٤/ ٣٣٢ .

(٢) الطبري ، تاريخ ، ٤/ ٣٣٢ .

وهذا ما ساعد الخوارج على حرية الحركة ونشر الشائعات المغرضة ، يُعينهم على ذلك ما يأخذونه من عطاء من الخلافة ، دون أن يكفوا أيديهم أو ألسنتهم وهذه مفارقة واسعة ، كانت لصالح الخوارج وأتباعهم من الغوغاء في الحسابات الدنيوية ، بينما هي عليهم في الحسابات الوجدانية والشرعية ، والعاقبة للمتقين .

أثر ابن سبأ ودوره في الفتنة

عبد الله بن سبأ الهمداني المعروف بابن السوداء ، كان يهودياً من أهل صنعاء أمه سوداء ، أسلم زمان عثمان ﷺ ثم تنقل في بلدان المسلمين يريد ضلالتهم وهو أول من وضع مبدأ الرجعة الذي تؤمن به الرافضة ، وأن محمداً ﷺ أحق بالرجوع من عيسى عليه السلام ، وهو أول من قال بالوصية وأن لكل نبي[1] وصياً وعلي ﷺ وصي محمد ﷺ ثم قال: محمد ﷺ خاتم الأنبياء وعلي خاتم الأوصياء فمن أظلم ممن لم يُجز وصية رسول الله ﷺ ووثب على وصي رسول الله ﷺ وأخذ يتدخل في أمور المسلمين ، وتناول أمر الأمة ! ثم قال لهم بعد ذلك: إن عثمان أخذها بغير حق، وهذا وصي رسول الله ﷺ فانهضوا في هذا الأمر فحركوه وابدؤوا بالطعن على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم إلى هذا الأمر ، فبث دعاته ، وكاتب من كان قد استفسد

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٤/ ٢٤٠ ، ابن كثير: البداية والنهاية ، ٧/ ٢٣٦ ، وقال ابن كثير: وأما ما يفتريه كثير من الجهلة الرافضة ، والقصاص الأغبياء من أنه أوصى إلى علي بالخلافة فكذب وبهتان وافتراء عظيم يلزم منه خطأ كبير من تخوين الصحابة وممالأتهم بعده على ترك انفاذ وصيته وإيصالها إلى من أوصى إليه وصرفهم إياها إلى غيره لا لمعنى ولا لسبب وكل مؤمن بالله ورسوله يتحقق أن الإسلام هو الحق ، سيعلم بطلان هذا الإفتراء لأن الصحابة كانوا خير الخلق بعد الأنبياء وهم خير قرون هذه الأمة ، ويذكر بعض الوصايا لعلي ثم يقول: كل ذلك من الهذيانات فلا أصل لشيء منه بل هو اختلاق بعض السفلة الجهلة ولا يعوّل على ذلك ولا يغتر به إلا غبي عييّ .

في الأمصار وكاتبوه ، ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهم ، وأظهرا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيوب ولاتهم [(١)]، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك ، ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون ، فيقرؤه أولئك في أمصارهم وهؤلاء في أمصارهم حتى تناولوا بذلك المدينة ، وأوسعوا الأرض إذاعة ، وهم يريدون غير ما يظهرون ويسرون غير ما يبدون فيقول أهل كل مصر: إنا لفي عافية مما ابْتلي به هؤلاء إلا أهل المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار ، فقالوا : إنا لفي عافية مما فيه الناس [(٢)].

وفي هذا النص تتجلى المخططات والتدابير السبئية ، المستفادة من خبرات اليهود في الكيد والمكر ، إذ أن عدو اليهود الأول هو الدين وأهله ، ومهمتهم الأولى التعاون مع الشيطان على نزع الدين من نفوس الناس وإفساده بالبدع ، ثم إثارة الشكوك والريبة بين المسلمين ولا سيما العلماء والحكام والدعاة ، وهذا ظاهر ومتبع في وسائلهم التخريبية سابقاً ولاحقاً ، وفي كل خطواتهم المتبعة ضد الإسلام والمسلمين قال تعالى: ﴿ وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ﴾[(٣)] .

ثم استهداف الولاة الصالحين ، واختلاق التهم لهم ورميهم بها لتجريدهم من الأنصار ، وتنصيب أنفسهم أنهم يعملون لمصلحة الأمة وذلك في إعلامهم ، أما هدفهم الحقيقي فهو تدمير الأمة ونزع الثقة من النفوس ، ولكن لا يتم استمالة الناس إلا بالشعارات ، وهذا ما هو متبع في هذا العصر أكثر من أي وقت مضى ، ومن أوكد وسائلهم لتنفيذ مخططاتهم ضد الخلافة هو مكاتبة من هو على مثل رأيهم

---

(١) المصدر السابق .

(٢) الطبري ، تاريخ ، ٤/ ٢٤١ .

(٣) سورة البقرة الآيتان (١١ ـ ١٢) .

لتوسيع دائرة التشويش وتقوية وسائل الإرباك ، وللإيحاء بصدق ما يُنشر ، لأنه يأتي من أكثر من جهة وأكثر من بلد ، ولكن في الحقيقة المصدر واحد .

ويتناولون في ذلك الولاة « بكتب يضعونها في عيوب ولاتهم » والتأكيد على تبادل هذه الكتب بين شبكات من الأتباع الذين يقومون بدورهم في نشرها على أساس أنهم سمعوها وهي لا تتعلق بمصرهم ، ثم يقومون بكتابة كتب يضعونها في عيوب ولاتهم ويرسلون بها إلا أمصار أخرى. فيتحدث بها أعوانهم هناك على أنها أخبار سمعوها عن أمصار أخرى . وهكذا يتكون لديهم شبكة في الإعلام ونشر الأباطيل لا مثيل لها ، تماماً كما هو في هذا العصر ، إذ أن الإعلام اليهودي هو المهيمن وهو الذي يغطي أخبار الأحداث العالمية وبالوسيلة التي تتوافق مع مصالحهم .

وبهذا الجهد وهذه الوسائل وبتعاون الغوغاء من دعاة الفتن والمنتفعين منها والذين يجعلون من أنفسهم مطايا لكل حاقد على الإسلام والمسلمين ، دون أي نظر للعواقب ، تمكن ابن سبأ من تكوين منظمة سرّية يمتد أعضاؤها على كثير من أقاليم الدولة الإسلامية المهمة ، وبذلك أخذ يقود حملات منظمته ، تحت ستار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، الذي يستهوي الناس آنذاك أشبه بشعارات حقوق الإنسان في هذا العصر ، والذي يُنفذ بحسب المصلحة وبحسب عقيدة وهوية صاحب القضية ! .

ولعل من أخطر ما قام به هو وأعوانه تحت هذا الستار ، السعي المستمر لتشكيك قيادات المسلمين آنذاك بعضهم في البعض الآخر ، فضلاً عن تشكيك الناس في الخلافة والولاة،ومن ذلك ما قاموا به ضد الصحابي القائد عمرو بن العاص رضي الله عنه فاتح مصر وواليها ، وذلك: « لما قدم ابن السوداء مصر ، عجمهم واستخلاهم واستخلوه ، وعرّض لهم بالكفر فأبعدوه ، وعرّض لهم بالشقاق فأطمعوه ، فبدأ فطعن على عمرو بن العاص وقال: ما باله أكثركم عطاء ورزقاً ، ألا سنصيب

رجلا من قريش يسوي بيننا » ثم « قال: لا ،عليكم بناب العرب وحجرهم ولسنا من رجاله ، فأروه أنكم تزرعون ولا تزرعوا العام شيئا حتى تنكسر مصر فنشـــــكوه إلى عثمان فيعزله عنكم ، ونسأله من هو أضعف منه ونخلو بما نريــــد ، ونظـــهر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ... ففعلوا ما أمرهم به ابن السوداء ، ثم إنهم خرجوا ومن شاء الله منهم ، وشكوا عمرا واستعفوا منه وكلما نهنه ـ كفكـــف ـ عثمان عن عمرو قوما وسكتهم انبعث أخرون بشيء آخر ، وكلهم يطلب عبـــد الله ابن سعد بن أبي سرح [١]. « وذلك أن الخوارج من المصريين كانوا محصوريـــن من عمرو بن العاص ، مقهورين معه ، لا يستطيعون أن يتكلموا بسوء في خليفـــة ولا أمير ، فما زالوا حتى شكوه إلى عثمان لينزعه عنهم ويولي عليهم من هو ألين منه فلم يزل ذلك دأبهم »[٢] حتى قال لهم عثمان: أما عمرو فسننزعه عنكم ونقـــره على الحرب ، ثم ولي ابن أبي سرح خراجهم وترك عمرا على الصلاة فمشى فـــي ذلك ـ أي في النميمة بين عمرو وعبد الله بن أبي سرح ـ سودان [٣]، وكنانة بـــن بشر[٤] وخارجة ، فيما بين عبد الله بن سعد وعمرو بن العاص ، وأغروا بينـــهما حتى تكاتبا على قدر ما أبلغوا كل واحد وكتبا إلى عثمان ، فكتب ابن أبي ســـرح : أن خراجي لا يستقيم ما دام عمرو على الصلاة ، فخرجوا فصدقوه ، واستعفوا مـــن

---

(١) الذهبي ، تاريخ الإسلام ، الخلفاء الراشدون ، ١٦٠ ، وعبد الله بن ابي سرح هو: من بني عامر بن لؤي أسلم قبل الفتح وهاجر ثم ارتد وكان أخا عثمان من الرضاعة ، فأسلم أيام الفتح وحسن إسلامه وهو أحد النجباء العقلاء من قريش فتح الله على يديه أفريقية سنة سبع وعشرين هجرية ، ابن عبد البر الاستيعاب ، ٣/ ٩١٩ .

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٦/ ١٦٩ .

(٣) سودان بن حمران الكوفي المرادي ، أحد الذين خرجوا على الخليفة عثمان ﷺ وسعى في قتله . ينظر: الطبري ، تاريخ ، ٤/ ٣٩١ .

(٤) كنانه بن بشر بن عتاب التجيبي ، ، أحد الذين خرجوا على الخليفة عثمان ﷺ قتل في مصر ســـنة (٣٨) هـــ ، الطبري ، تاريخ ، ٤/ ٣٤٩ .

عمرو ، وسألوا ابن أبي سرح ، فكتب عثمان إلى عمرو أن لاخير لك في صحبة من يكرهك فأقبل ، ثم جمع مصر لابن أبي سرح »[1] وسيتضح في معالجة عثمان للفتنة ، عندما يلتقي بعمرو رضي الله عنه أنه مدرك لكل ما تقوم به وتخطط له السبئية وبهذا تظهر الخطة المتقنة والمدروسة ،التي تستهدف رجلا من أكبر ولاة وقادة الدولة الإسلامية ، من استخدمه رسول الله ﷺ ، ومن بعده أبو بكر ثم عمر ثم عثمان رضي الله عنه وجميعهم كان راضيا عنه ، لما اتصف به من حكمة وقوة وحسن تدبير فكان النجاح حليفه في عامة ما قام به طوال حياته ، ولهذا استثقله الخوارج ، لأنهم لا يريدون الإستقرار والنجاح .

تلك الأجواء التي تنشر الثقة بين الناس ، فينصرف كل منهم إلى هدفه وعمله وهذا ما لا يخدم الغوغاء الذين لا يعيشون إلى في أجواء البلبلة والبطالة أجواء النميمة والتشاحن ، ولما كانت مصر من آخر الأمصار الإسلامية القريبة من الحجاز فتحا ، ولما كان لا يوجد فيها إلا القليل من الصحابة ، لم يترسخ عندهم في تلك الفترة الفقه وحدود الحلال والحرام كما هو الحال في المدينة والشام مثلا ، لهذا كانت الأجواء ملائمة لأباطيل السبئية الباطنية التي لم تنتشر دائرتها إلى بعد دراسة وترو ، فلما كانت الضوابط الشرعية من الحلال والحرام تمثل سدا أمام المكر اليهودي ، فإن همهم الأول أصبح العمل على هدم الدين في نفوس الناس ، لذلك فإن ابن سبأ وبما يتوافق مع ما يستقيه من خبرات في الكيد والدس والتخريب من إرثه التاريخي المملوء بالمؤامرات على الأنبياء والصالحين ، فإن أول ما راود من التقى بهم من غوغاء أهل مصر على الكفر فلم يقبلوا منه ذلك ، فدعاهم إلى الفتنة

---

(١) الذهبي، تاريخ الإسلام ، الخلفاء الراشدون ، ١٦٠ .

وعندما يقبل عمرو إلى المدينة ويقابل الخليفة يجده ملما بكل ما وقع ومدركا لكل مخططات الفتنة ينظر : ذلك اللقاء بعد استشارة الخليفة للولاة وإدخاله لعمرو معهم في معالجة عثمان للفتنة ، من هذا البحث .

والشغب فأجابوه ، فلما أرادوا البدء بمهامهم ، وجدوا أمامهم سدا منيعا يرصد أي تحرك مشبوه أو معاد يتمثل ذلك في عمرو بن العاص ، وصحبته وعلمه وقيادته وخبرته ، فاستهدفوه ، ولما لم يكونوا أهلا للمواجهة في وضح النهار ، استظلوا بظلال الباطنية اليهودية المترعة بكل وسائل التآمر والكيد ، فأخذ ابن سبأ يدغدغ عواطف الغوغاء بما هو حبيب إلى النفوس من المال والرزق والعطاء ، فأنكر على فاتح مصر بجهاده ومشاركاته وسهمانه أن يكون لديه شيء من المال ، فدعاهم إلى استبداله ولكن لا ليأتوا بمن هو أفضل منه وإنما قال: « نسأله من هو أضعف منه » وهذا ما يؤكد وصف معاوية رضي الله عنه للغوغاء أنهم لا عقول لهم ولا يفكرون ولا يتدبرون ما يفعلون ، فكيف يستبدل قائدا يمتلك كل الكفاءات بآخر أضعف منه ويرتجون من وراء ذلك نفعا ، فساروا في ركب ابن سبأ المتآمر الذي أعضله ما عليه عمرو رضي الله عنه من القدرة القيادية والسياسية وما هو عليه من الفقه والعلم والدين ولما لم يجدوا عليه مأخذا يعيبونه به اختلقوا له العيوب ولفقوا له التهم ، ثم انطلقوا إلى الخليفة يشهد بعضهم لبعض زورا وبهتانا على هذا القائد الكبير، وكما هو واضح في النص من الإنتقال من خطوة إلى خطوة ، فيذهب وفد إلى المدينة ويعود آخر، يحملون معهم الزور ويجترون البهتان ، حتى حققوا هدفهم فزال من أمامهم ذلك الطود الشامخ والسد المنيع ، فدخلوا بعد ذلك من أوسع أبواب الفتنة التي انكووا بنيرانها فيما بعد .

ولعل من المفارقات العجيبة أن هؤلاء الذين استجاب الخليفة لكل طلباتهم كانوا هم في مقدمة الخارجين عليه والمشاركين بقتله رضي الله عنه ، ولكن لما كانت العاقبة للمتقين لم تمض إلا سنين قليلة وإذا بعمرو رضي الله عنه يعود فاتحا لمصر من جديد منقيا لها من زعانف اليهودية ، ومرسخا الإسلام فيها إلى الأبد بإذن الله تعالى . وبهذا المكر والغدر والكيد ، الذي اختص به اليهود وعلى مر العصور ومن سار

في ركابهم ولا سيما الفكرية منها ، من الذين انسلخوا من الدين الإسلامي واعتنقوا العلمانية الفوضوية ، والمادية الشهوانية ، والانحلالية الباطنية تمكنوا مما يمكن عده الخطوة الثانية ، في مجال العمل على تجريد الأمة من كبار قادتها فبعد أن نجح المجوس في اغتيال الفاروق عمر ﷺ على يد أبي لؤلؤة المجوسي تمكن ابن السوداء اليهودي الباطني الذي يتظاهر بالإسلام ، ومعه الغوغاء من عزل فاتح مصر وواليها عمرو بن العاص ﷺ ، فضلا عما أنجزه في الكوفة من التحالف مع الغوغاء المشاغبة على ولاة الكوفة ، مستفيدين في كل ذلك من أجواء الحرية في الرأي والحركة التي لا توجد في حقيقتها إلا في الدولة الإسلامية .

وهنا قد يتساءل البعض ، كيف يتمكن هذا اليهودي من كل ما قام به ، دون أن يتنبه له الصحابة الكرام ، فأين فطنتهم وأين فراستهم ؟ إلى غير ذلك من تساؤلات بريئة أحيانا ومريبة أحيانا أخرى ، وفي الإجابة على ذلك تظهر عظمة أصحاب النبي ﷺ ، وأنهم أول من عمل بحرية الرأي ، وأول من طبق ذلك عمليا وأول من عمل بمبدأ المتهم بريء حتى تثبت إدانته ، وإلا فإن حال ابن السوداء اليهودي الماكر ، كانت مكشوفة لهم منذ بدايتها الأولى ، إلا أنه كان يحتمي بادعائه الدخول في الإسلام، فقد سمع به عبد الله بن عامر والي البصرة، وذلك في السنة الثالثة من إمارته حيث « بلغه أن في عبد القيس رجلا نازلا على حكيم بن جبلة[1] وكان ابن جبلة لصا ، إذا قفلت الجيوش خنس عنهم ، فسعى في أرض فارس ، فيغير على أهل الذمة ، ويتنكر لهم ويفسد في الأرض ، ويصيب ما شاء ثم يرجع فشكاه أهل الذمة وأهل القبلة إلى عثمان ﷺ ، فكتب إلى عبد الله بن عامر أن احبسه ومن كان مثله فلا يخرجن من البصرة حتى تأنسوا منه رشدا ، فحبسه فكان لا يستطيع أن

---

(١) حكيم بن جبلة العبدي ، كان ممن يعيب عثمان ﷺ وقد أثنى عليه ابن عبد البر كثيرا ، فقد يكون هو أو غيره ، علما أن أبن عبد البر في كتاب الإستيعاب يخوض كثيرا فيما شجر بين الصحابة ﷺ وميوله إلى ذلك ظاهرة فيه ، ينظر ، الاستيعاب ، ١/ ٣٦٦ .

يخرج منها ، فلما قدم ابن السوداء نزل عليه ، واجتمع إليه نفر فطرح لـــهم ابــن السوداء ولم يصرح ، فقبلوا منه واستعظموه ، وأرسل إليه ابن عامر ، فسأله: مـــا أنت ؟ فأخبره أنه رجل من أهل الكتاب رغب في الإسلام ورغب فــــي جــوارك فقال: ما يبلغني ذلك ، أخرج عني ، فخرج حتى أتى الكوفة فأُخرج منها فاســـتقر بمصر وجعل يكاتبهم ويكاتبوه ، ويختلف الرجال بينهم »[1] .

فقد كان ابن سبأ ومن خلال ميراثه في المكر وإثارة الفتن ، يتصيد الرجال من أصحاب الطموح ، ومن الجهلة ومحبي الظهور والتقدم في أقوامهم ومن اللصوص وقطاع الطرق وأهل الريب ، فيستأنس بهم فيجالسهم ويحادثهم فينفث فيهم ســمومه مستغلاً رفض المجتمع الإسلامي لمثل هذه الأصناف من البشـــر ، فيصغـــون لـــه ويتتلمذون على يديه في المكر وإثارة الشغب ، حيـــث لا ديـــن يمنعـــهم ولا ورع يحجزهم ، فينطلقون للعمل في توصيات هذا الباطني الماكر ، فكان يتولـــى كـــبر الفتنة بالتلميح والتلويح والإيحاء والإلقاء دون التصريح بالأسماء والوسائل بشــكل مباشر ، فعندما استشعر عبد الله بن عامر الريبة منه وسأله ما أنت ؟ تستر بباطنيته وأنه رجل يرغب في الإسلام ويرغب في جوارك ! .

ولكنّ ابن عـــامر لم يقبله ولم يقبل أن يكون في جواره فطرده مـــن البصـــرة فقدم الكوفة فطُرد منها .

لكن بعد أن ترك بيضاً من الغوغاء هناك يوشك أن يفرخ ، يردد شبهات ابــن السوداء الذي وجد فيهم حب النزوة إلى المعاصي والخروج من الطاعة ، فنفخ فـــي كل منهم ما يناسب هوجه الذي أخذ يكبر فيه ، متحيناً الفرصة لإفراغه فـــي فتنـــة يُترك فيها ذكر له ، أي ذكر كان حتى لو كان باللعن على مدى الدهر .

ولما كان ابن السوداء يُطرد من كل بلد يحل فيه لسوء أخلاقـــه وســـعيه فـــي النميـــمة بيـــن النـــاس .

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٤/ ٣٢٦ .

فقدم الشام وهناك التقى بأبي الدرداء[1] رضي الله عنه فكلمه يريد إفساده وتأليبه على معاوية رضي الله عنه ، لكن أبا الدرداء سمع كلامه بوعي وبصيرة وإيمان ، فشمَّ منه رائحة المكر اليهودي ، ولا سيما أن الأنصار في المدينة من أخبر الناس بأخلاق اليهود المشبعة بالمكر والكيد والافتراء والبهتان وغير ذلك من مصطلحات تنطبق مواصفاتها على أخلاقهم. فقال له: **من أنت؟ والله ما أنت يا ابن السوداء إلا يهودياً!!**.

ولم يزد أبو الدرداء على طرده وتوبيخه وإعلامه بأن حاله مكشوف لديه ، وقد يكون نصحه ودعاه للتوبة ، فتستر في الباطنية وأظهر القبول وقام من عنده وهو يلتقط أنفاسه ، ويجر أذيال الخيبة ، ولعل أبا الدرداء اكتفى بذلك ظناً منه أنه لن يجد بين المسلمين من يُصغي إليه ، ولكن إذا كان ذلك ينطبق على الشام التي فيها الكثير من الصحابة رضي الله عنهم يُعلّمون ويرشدون فإن ذلك لا ينطبق على مصر حينذاك .

ويبدو أن ابن سبأ لا يتعلم من تجاربه ولا يكف عن لغطه ، فتكلم بما كان يهذي به ويدندن به حول ما يثير النفوس ويكدر القلوب في مجلس كان فيه عبادة بن الصامت الأنصاري رضي الله عنه ، فعندما سمعه عبادة رضي الله عنه اكتشف خبثه ويهوديته ، فساقه وأخذه إلى معاوية مخفوراً ، وقال له: يا معاوية خذ هذا اليهودي عليك به ، فهو الذي هيج عليك أبا ذر[2] ، فكتب معاوية إلى عثمان بالأمر فقال له رضي الله عنه : إن الفتنة

---

(١) أبو الدرداء : عويمر بن عامر وقيل في أبيه غير هذا الاسم ، كان فقيهاً عاقلاً حكيماً ، آخى رسول الله ﷺ بينه وبين سلمان الفارسي ، روي أنّ النبي ﷺ قال: عويمر حكيم أمتي ، ولي القضاء لمعاوية في خلافة عثمان رضي الله عنه ، توفي بالشام ما بين إحدى وثلاثين وأربع وثلاثين ، ابن عبد البر ، الاستيعاب ٤/ ١٦٤٦ .

(٢) أبو ذر هو جندب بن جنادة الغفاري صاحب رسول الله ﷺ ، كان مذهبه ألا يدّخر شيئاً من المال روى البخاري في صحيحة عن أبي ذر قال: « قال رسول الله ﷺ يا أبا ذر أتبصر أحداً ؟ قال: فنظرت إلى الشمس ما بقي من النهار وأنا أرى أن رسول الله ﷺ يرسلني في حاجة له قلت: نعم قال: ما أحب أن لي مثل أحد ذهباً أنفقه كله إلا ثلاثة دنانير » ينظر: البخاري ، مع شرحه فتح الباري ، ك الزكاة باب إثم مانع الزكاة ، ح (١٤٠٨) . =

قد أخرجت أنفها وعينها وأطلت برأسها ولم يبق إلا أن تثب وتثور فلا تنكأ الجراح وكفكف الناس ونفسك ما استطعت [١] . وبهذا نجى ابن سبأ من محاسبة أكيدة بطلب من عبادة بن الصامت ﷺ لو تمت لحفظت للأمة الإسلامية وحدتها ولحمتها من كثير من المكائد اليهودية اللاحقة ، وأمام توجيهات الخليفة هذه لوالي الشام اكتفى معاوية ﷺ بإبعاد هذا الماكر الحاقد عن دمشق وطرده من بلاد الشام .

والمتمعن في هذه الأحداث يجد أن اليهود والمجوس ناصبوا الإسلام والمسلمين العداء منذ أن بُعث رسول الله ﷺ ، وقد حاولوا قتل رسول الله ﷺ مراراً ، منها محاولة اغتياله في يهود بني النضير[٢] ، عندما هموا بإلقاء الصخرة عليه وهو مستند إلى الجدار ، ومشاركة المشركين في غزوة الخندق[٣] لاستئصال

= والظاهر أن ابن سبأ استغل ما كان يدعو إليه أبو ذر من إنفاق المال وعدم كنزه فأخذ يردد ما كان يسمعه ولتأكيد موافقته لأبي ذر أخذ يتقرب منه بالسؤال حول هذه الأمور حتى قال له: يا أبا ذر ألا تعجب إلى معاوية يقول:المال مال الله ثم أكملها مثير الفتنة ابن سبأ وهو يعلم أن مذهب أبا ذر هو الزهد والإنفاق فقال: كأنه يريد أن يحتجنه دون المسلمين ؟ فسأل أبو ذر معاوية رضي الله عنهما عن ذلك فقال معاوية: يرحمك الله يا أبا ذر ألسنا عباد الله والمال ماله والخلق خلقه والأمر أمره ! قال: فلا تقله ، قال: فإني لا أقول: إنه ليس لله ، ولكن سأقول مال المسلمين . وبعدها تحدث ابن السوداء أمام عباده ﷺ الخبير بمكائد اليهود ومكرهم إذا كانوا حلفاءه ، فأمسك به وقاده مخفوراً إلى معاوية، ثم طُرد من الشام. على أنه يجب ألا يفهم أن أبا ذر تأثر بابن السوداء إذ العكس هو الذي حصل وكان ابن السوداء يريد استغلال ذلك لإثارة الفتنة أما مذهب أبو ذر في الزهد فهو معروف منذ عهد رسول الله ﷺ، ينظر: الطبري، تاريخ، ٤/ ٢٣٨.

(١) المصدر نفسه .

(٢) غزوة بني النضير كانت في السنة الرابعة من الهجرة ، عندما ذهب رسول الله ومعه بعض المهاجرين والأنصار إلى بني النضير فكلمهم أن يعينوه في دية الكلابيين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري ، ، فهَمّوا بإلقاء الصخرة عليه وهو مستند إلى الجدار فكان ذلك بسبب تلك الغزوة ، ينظر: ابن سعد الطبقات ، ٢/ ٢٧٨ ، الصالحي ، سبل الهدى ، ٤/ ٥٢٧ .

(٣) غزوة الخندق في السنة الخامسة من الهجرة ، وكان سببها أن يهود بني النضير بعد إجلائهم إلى خيبر خرج وفد منهم إلى قريش وحرضوهم على غزو المدينة ، ينظر: الواقدي ، المغازي ، ٢/ ٤١٥ . ابن سعد الطبقات ، ٢/ ٢٨٣ .

المسلمين وقتل رسول الله ﷺ فنقض بنو قريظة العهد[1] مع رسول الله ﷺ وأعانوا المشركين ، ولكنَّ الله حال بينهم وبين ما يشتهون قال تعالى: ﴿ وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً ﴾[2]

فأصبح الأعداء يحيطون بالمدينة من الداخل « اليهود » ومن الخارج المشركون وهنالك ابتلي المؤمنون وامتحنوا قال تعالى: ﴿ إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك أبتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً ﴾[3] كما حاولوا قتل رسول الله عندما قدّموا له الطعام المسموم في خيبر[4] ولم يتوانوا عن التآمر على رسول الله ﷺ حتى أخرجهم من المدينة نهائياً . هذا فضلاً عن إيذائهم لرسول الله ﷺ بسحرهم وبألسنتهم ، قال تعالى: ﴿ ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذىً كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴾[5] وأما المجوس فقد حاولوا القضاء على رسول الله ﷺ ، عندما أرسل إليهم كتاباً مع عبد الله بن حذافة السهمي[6] يدعوهم إلى الإسلام وترك عبادة النار ، فغضب كسرى ومزق

---

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٤/ ١٧٨ ، ابن سعد الطبقات ، ٢/ ٣٨٣ ، الصالحي ، سبل الهدى ٥٢٧/٤ .

(٢) سورة الأحزاب من الآية (٢٦) .

(٣) سورة الأحزاب الآيتان (١٠ ــ ١١) .

(٤) غزوة خيبر كانت في السنة السابعة للهجرة ، ينظر: البخاري ، مع شرحه فتح الباري ، ك المغازي باب الشاه التي سُمت للنبي ﷺ بخيبر ، ح (٤٢٤٩) ، ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٤/ ٢٩٨ ، ابن سعد الطبقات ، ٢/ ٣٠٢ ، الساعاتي ، الفتح الرباني ، باب هزيمة الأحزاب ، ٢١/ ٢٨٩ .

(٥) سورة آل عمران من الآية (١٨٦) وعن سحر اليهود ، ينظر: ابن سعد الطبقات ٢/ ٣٤٨ .

(٦) عبد الله بن حذافة بن قيس السهمي القرشي ، هاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية توفي في خلافة عثمان ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ٣/ ٨٨٨ .

كتاب رسول الله ﷺ وكتب إلى باذان حاكم اليمن أن يبعث برجلين جلدين ليأتيانه برسول الله ﷺ أسيراً كما هو معلوم في كتب السير[١] ثم جاءت **غدرة المجوس الكبرى بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ في محرابه** ، لتمثل مدى عمق مستنقع الحقد الذي يغرق به المجوس ضد الإسلام والمسلمين ، إذ لم يشفع للفاروق زهده وعدله وإنصافه من نفسه ومن عماله ، ولم يكفهم قتل الخليفة العادل ﷺ بل تواصوا بتشويه سيرته العطرة الطيبة المباركة ، ببهتانهم الذي أترعوا به كتبهم من الكذب والتزوير ، والشتم والسباب بأقذع الألفاظ سوى اللعن وما إلى ذلك من ألفاظ يتسامى الكرام وأهل الدين والمنصفون عن النطق بها [٢] . وزادوا على ذلك أن أقاموا في مدينة « كاشان ... في منطقة تسمى (باغي فين) مشهداً على غرار الجندي المجهول ، فيه قبر وهمي لأبي لؤلؤة فيروز ... المجوسي قاتل الخليفة العادل الفاتح عمر ﷺ ، حيث أطلقوا عليه ما معناه بالعربية « مرقد بابا شجاع الدين[٣] » وبذلك التقى كيد المجوس بمكر اليهود ، واتضح من خلال محاولاتهم

---

(١) ينظر: ابن الأثير ، الكامل ، ٢/ ١٤٥ .

(٢) إن الشتائم التي يجترئون على التفوه بها ، دليل دامغ على مناصبتهم العداء للإسلام والمسلمين وإن نشرها لا يخدم البحث المنصف ، لانحطاط قائليها وبذاءة ألفاظها ، ومخالفتها للقرآن والسنة ، ولأنها إفك ينال أعراض الصحابة وآل البيت ، ولأن غاية أعداء الصحابة نشر مثل هذه التفاهات لإشغال المصلحين بها ، بدلاً من تجلية الحقائق وأخذ العبر منها . على أن إفكهم لم يستثن أحداً من أهل الدين والإيمان بدءاً برسول الله ﷺ وفاطمة الزهراء رضي الله عنها وعلي ﷺ وبقية الخلفاء الراشدين وكبار الصحابة وأمهات المؤمنين ﷺ أجمعين وأخزى أعداءهم إلى يوم الدين .
ينظر: الكليني ، أصول الكافي ، ١/ ٢٣٧ و ١/ ٢٥٣ ، المجلسي ، بحار الأنوار ، ٣/ ٤٠ ، ٤/ ٢٩٣ ٤/ ٣٠٣ ، القمي ، ٢/ ٣٣٦ . الكشي ، رجال الكشي ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ وبالجملة لا يخلو كتاب من كتبهم إلا وفيه انتقاص للصحابة الكرام ﷺ ، إذ أن ذلك دين يدينون به .

(٣) وبابا شجاع الدين هو لقب أطلقوه على أبي لؤلؤة لقتله عمر ﷺ ، وله مشهد يزار في أحد البلدان الإسلامية وتقدم له التبرعات والأموال حتى أصبحت تطبع صورة ذلك المشهد على كارتات تستخدم لإرسال الرسائل والمكاتيب ينظر: الموسوي ، لله ثم للتاريخ ، ٩٤ .

اغتيال رسول الله ﷺ وقتلهم عمر رضي الله عنه أنهم أي اليهود والمجوس لن يتوانوا عن قتل أحد من أعلام المسلمين أبداً ، وهذا ما ثبت في مقتل عثمان رضي الله عنه الذي كفّ يده ولسانه وصبر وأعطى الحقوق ، ومن بعده علي رضي الله عنه ، ثم إيقادهم نار الفتنة ،يوم البصرة في معركة الجمل ومن بعدها صفين ، كما سيتضح ذلك في مواضعه من البحث ، ولا زالوا في غيهم يعمهون ، ويمعنون في العداء لهذه الأمة ودينها الذي يحمل في طياته النور والهدى والعدل والمحبة ، هذه المعاني التي يمقتها اليهود والمجوس لأنهم لا يجيدون سوى صنعة الفتن وإفساد الذمم ، وبعث الأحقاد التي يغذونها ويعمقونها في عباداتهم ، وفي لقاءاتهم وأعيادهم وندوا تهم . وهذا ما رسمه ابن سبأ لأتباعه ، من أعداء الصحابة وأعداء الإسلام على مر السنين ، فقد كان يجوب البلاد جاداً ، ينشر الشك ويزرع الشرَّ في النفوس ويحرّض على الفتن فكان أكثر من تلقّى أباطيله وسمومه المجوس الذين اتبعوه وقبلوا أفكاره وآمنوا بها لمشابهتها في كثير من نواحيها لعقائدهم ، التي دانوا بها زماناً طويلاً .

ولما تهيأ لابن سبأ الأتباع والأعوان ، كثرت الشكاوى المختلفة على الولاة والأمراء المخلصين ، فمن وجدوا له عيباً أذاعوه ، ومن لم يجدوا له ، لفقوا له العيوب التي لا علم له بها ، وأشاعوها عليه كما فعلوا مع عمرو بن العاص رضي الله عنه .

ولما انتشرت الإذاعات والأباطيل التي كان يطلقها ابن سبأ ، وترددها الغوغاء في الأمصار التي يكتب بها لهم ، اتخذ الخليفة خطوة موفقة تنم عن معرفة عامة وإحاطة شاملة بالأوضاع السياسية التي كانت تمر بها الخلافة ، فكتب إلى أهل الأمصار: « أما بعد ، فإني آخذ العمال بموافاتي في كل موسم ، وقد سلطت الأمة منذ وليت على الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فلا يرفع علي شيء ولا على أحد من عمالي إلا أعطيته ، وليس لي ولعمالي حق قبل الرعية إلا متروك لهم وقد رفع إلي أهل المدينة أن أقواما يشتمون ، وآخرون يضربون ، فيا من ضرب سرا وشتم سرا ، من ادعى شيئا من ذلك فليواف الموسم فليأخذ بحقه حيث كان مني أو من عمالي ، أو تصدقوا ، فإن الله يجزي المتصدقين . فلما قرئ في الأمصار أبكى الناس ، ودعوا لعثمان وقالوا : إن الأمة لتمخض بشر »[1] .

وبهذا الكتاب أسقط الخليفة كل الذرائع التي كان يتستر بها السبئية والغوغاء إذ أنه كشف أستارهم ، فلم يعد للكلام والشائعة أي موقع ، ما دام المجال مفتوحا لكل مدع أن يثبت دعواه ويأخذ بحقه من أي شخص في الخلافة بدءا بالخليفة وانتهاء بأي عامل من عماله ، **وهذا هو خلق عثمان ﷺ ، بل خلق أصحاب محمد ﷺ في صيانة حقوق الرعية ، في السر والعلن ، إذ هم أول من يضحي بحقوق عياله من أجل مصلحة الأمة ، وأول من يحاسب الخليفة وولاته وأعوانه ، وأي دعوة تقام عليهم ، لابد من النظر فيها وإنصافها وتنفيذها ، فهل سار على وجه البسيطة من يحفظ الكرامة ويرعى الأمة ويعطي الحقوق كأصحاب رسول الله ﷺ** ؟ وهل يمكن لمتشدق ظالم أن ينال من سيرهم الطاهرة ؟ ، وهل يوجد في قواميس حقوق الإنسان

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٤/ ٢٤٢ .

المعاصرة مثل هذه المعاني أو قريب منها ؟ وهل بإمكان ملل الكفر بجميع ألوانها أن تخدش وجه الحضارة الإسلامية التي رعاها الراشدون وجندهم .

من من الناس لم يشاهد أخلاقيات حضارة هذا القرن ؟ التي يسير وراءها الغوغاء من العرب والمسلمين ، على الشاشات ، ويسمعها في الإذاعات ، وماذا فعلت ؟ في فلسطين والبوسنة وكوسوفا والشيشان وكشمير والعراق وأفغانستان وغيرها من بقاع الأرض ، من القتل والهتك والنهب ، فماذا قالت هذه الحضارة وماذا فعلت ؟ إن الحق والعدل المطلقان لا يوجدان إلا في الحضارة الإسلامية المنبثقة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾[١] .

ومن وصايا الخلفاء ما قاله أبو بكر يوصي جيش أسامة المتوجه إلى الشام ، لا تخونوا ولاتغلوا ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا صغيرا ، ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا ثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكلة[٢]، فهل يؤمن أبناء الحضارة المعاصرة بمثل هذه المعاني؟ وهل تفرق القنابل الذرية والجرثومية وغيرها بين شيخ وطفل وامرأة وأين هذه المعاني من أبناء الحضارة المعاصرة من العلمانيين أو اليهود أو الصليبيين أو الوثنيين ، وقد أسقطوا من حساباتهم الله والدار الآخرة ،فأين الرحمة بالأطفال والنساء والشيوخ ، بل أين هي في المرضى والجرحى ، والمساجد والمخازن والجسور وشبكات المياه والإنارة ، إن أسلحة قادة الحضارة المعاصرة لم تفرق بين الشجر والبشر والحجر ، ولا سيما في بلاد المسلمين مما ينم عن النزعة العدوانية وحب التدمير والتخريب عند الذين لا يخافون الله ، ممن لا دين لهم يحجزهم عن

---

(١) سورة المائدة ، الآية (٨) .

(٢) الطبري ، تاريخ ، ط ، د ، ف ، ٤/ ٢٦٨ .

إيذاء الآخرين دون وجه حق ، قال تعالى : ﴿ كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون ﴾[1] وقال ﷻ: ﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾[2] ولا يخفى على أحد كيف تحول دعاة حرية الرأي وحرية الاختيار ، إلى متطرفين متعصبين بأخلاقهم الصليبية الأولى كأنهم في أيام القرون الوسطى عندما كان الجهل والظلم والظلام يلف عالم الغرب ، وذلك عندما اختار الناس في الجزائر وتركيا المسلمين لقيادة بلادهم ، وكيف يحشدون المساندة والمعاونة لكل من يحارب شرع الله في الأرض ، ويقرون كل ما يقوم به من أعمال وحشية إجرامية ما دامت ضد المسلمين ، فهل يوجد في غير العقيدة والفكر الإسلامي حضارة نزيهة مجردة ؟ وهل في غير الحضارة الإسلامية من يقول: « فيا من ضرب سرا وشتم سرا يا من ادعى شيئا من ذلك فليواف الموسم، فليأخذ بحقه حيث كان،مني أو من عمالي »[3]؟ بالتأكيد لا يوجد مثل هذه المعاني إلا عند جيل الراشدين ﷺ ، ومن سار على منهجهم واهتدى بهديهم . فيا شقاء من ناصب أحدا منهم العداء ، وحاد عن مسيرتهم أو اقتدى بغيرهم .

ولما أثبتت سياسة عثمان ﷺ نجاحها واتضح قبول الناس لها ، أسقط في أيدي الخوارج من السبئية والغوغاء « وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيوب ولاتهم ، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك ... **وأوسعوا الأرض إذاعة وهم يريدون غير ما يظهرون ويسرون غير ما يبدون** »[4] حتى وصلت الشائعات إلى المدينة عاصمة الخلافة ، فاستشار الخليفة أهلها وقال: أنتم شركائي وشهود المؤمنين

---

(١) سورة التوبة ، الآية (٨) .

(٢) سورة البقرة ، من الآية (٢٣) .

(٣) الطبري ، تاريخ ، ٤/ ٢٤٠ .

(٤) المصدر نفسه .

فأشيروا علي ، قالوا: نشير عليك أن تبعث رجالا ممن تثق بهم إلى الأمصار، حتى يرجعوا إليك بأخبارهم[1] فأرسل محمد بن مسلمة الأنصاري وهو الذي كان يحاسب الولاة في خلافة عمر[2] ﷺ وأرسل أسامة بن زيد إلى البصرة ، وعمار بن ياسر إلى مصر ، وعبد الله بن عمر إلى الشام ، وفرق رجالا سواهم ، فرجعوا جميعا قبل عمار ، فقالوا جميعا ما أنكرنا شيئا ، ولا أنكره أعلام المسلمين ولا عوامهم وقالوا جميعا: الأمر أمر المسلمين ، والولاة يعدلون ويقومون على الرعية [3].

وبعد هذه الجولة التفقدية الميدانية ، اتضح للجميع أن كل شيء في إدارة الخلافة على ما يرام ، ولا يوجد على أرض الواقع شيء مما يشاع فلم تقدم أية شكوى للمفتشين الذين أرسلهم الخليفة إلى الأمصار . سوى ما حصل من عمار الذي استبطأه الناس: « حتى ظنوا أنه اغتيل ، فلم يفجأهم إلا كتاب من عبد الله بن أبي سرح يخبرهم أن عمارا[4] قد استماله قوم بمصر وقد انقطعوا إليه ، منهم

(١) الطبري ، تاريخ ، ٤/ ٢٤٠ .

(٢) وقد أرسله عمر إلى الكوفة ومصر وغيرهما ، ينظر: الخليفة ، الأنصار في العصر الراشدي ، ١٢٣ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) عن حذيفه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: (أبو اليقظان ،على الفطرة (ثلاثا) ولن يدعها حتى يموت أو ينسيه الهرم) البخاري ، التاريخ الكبير ، ٣/ ٩٦ ، وقد استشهد عمار في صفين وعمره تسعون سنة ، الحاكم المستدرك ، ٣/ ٣٩٣ ، الذهبي ، عهد الخلفاء الراشدين، ٥٧٦ . وعن محمد بن سعد بن أبي وقاص قال: قدم عمار بن ياسر من مصر،وأبي شاك فبلغه فبعثني إليه أدعوه فقام معي وعليه عمامة وسخة وجبة فراء فلما دخل على سعد قال له: ويحك يا أبا اليقظان ، إن كنت لمن أهل الخير فما الذي بلغني عنك في فساد بين المسلمين والتأليب على أمير المؤمنين ؟ أمعك عقلك أم لا ؟ فأهوى عمار إلى عمامتة وغضب فنزعها وقال: خلعت عثمان كما خلعت عمامتي هذه ، فقال سعد: إنا لله وإنا إليه راجعون ، ويحك حين كبرت سنك ورق عظمك ونفذ عمرك خلعت ربقة الإسلام من عنقك وخرجت من الدين عريانا ، فقام عمار مغضبا موليا وهو يقول: أعوذ بربي من فتنة سعد ، فقال سعد: ألا في الفتنة سقطوا ، اللهم زد عثمان بعفوه وحلمه عندك درجات ، حتى خرج عمار من الباب =

عبد الله بن السوداء ــ ابن سبأ ــ وخالد بن ملجم[1] وسودان بن حمران ، وكنانة بن بشر»[2] ولما لم تنقطع الشائعات ، على الرغم من بيان كذبها وصناعتها فإن الخليفة ﷺ قام بخطوة أخرى على طريق مواجهة الدعاية المغرضة المفتعلة بحقائق صادقة بينة ، وأن يباشر التأكد من ذلك بنفسه ﷺ ، فكتب إلى الأمصار « أن يوافيه العمال في كل موسم ومن يشكونهم ، وكتب إلى الناس في الأمصار أن ائتمروا بالمعروف ، وتناهوا عن المنكر ، ولا يذل المؤمن نفسه فإني مع الضعيف على القوي ما دام مظلوما إن شاء الله . فكان الناس بذلك ، فجرى ذلك إلى أن اتخذه أقوام وسيلة إلى تفريق الأمة »[3].

وبذلك أصبح الخليفة يشرف بنفسه على التحقيق فيما يقدم من شكاوى ولكن الذي يبدو أنه لم يقدم شيء حقيقي يزيد عن الشائعات التي جند الغوغاء أنفسهم لإذاعتها إذ أن الولاة كانوا يقدمون إلى الحج ويقدم الخليفة ، ولم يتقدم أحد بشكوى ، على الرغم من أن الخليفة قد أعلن أنه مع الضعيف على القوي ما دام مظلوما ، وأن لا يذل المؤمن نفسه ، أي لا حاجة لمداهنة الأمراء أو أصحاب السلطان ، وقد تكون هذه المسألة أعطت دفعا وحرية أكبر للمتآمرين ، فزادوا من حركتهم وإذاعاتهم ففي الوقت الذي ائتمر الناس فيما بينهم بالمعروف،وعملوا بوصايا الخليفة ﷺ اتخذ الخوارج من السبئية والغوغاء ذلك وسيلة إلى تفريق الأمة وتمزيق وحدتها.

= فأقبل على سعد يبكي حتى اخضلت لحيته. وقال سعد: من يأمن الفتنة يابني ،لا يخرج منك ما سمعت منه فإنه من الأمانة ،وإني أكره أن يتعلق به الناس عليه يتناولونه ، وقد قال رسول الله ﷺ : « الحق مع عمار ما لم تغلب عليه ولهة الكبر » الذهبي ، الخلفاء الراشدون ، ٣٤٣ وقال حذيفة حين وفاته ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: « أبو اليقظان على الفطرة ولا يدعها حتى يموت أو ينسيه الهرم » ينظر: ابن شبه ، تاريخ المدينة ، ٢/ ٢٦٩ .

(١) وقد يكون هو عبد الرحمن بن ملجم المرادي الخارجي ، الذي قتل الخليفة علي ﷺ سنة (٤٠) هـ فقتل حدا على جريمته ، ينظر: الطبري ، تاريخ ، ٥/ ١٤٣ .

(٢) الطبري ، تاريخ ، ٤/ ٢٤١ .

(٣) الطبري ، تاريخ ، ٤/ ٣٩٧ .

دعوة الخليفة الولاة للتدارس والمشاورة وبيان
معرفته التامة بمقاصد الخوارج

كان الخليفة قد بعث إلى الأمصار بكتاب مفتوح ودعوة عامة أنه متنازل عن أي حق له أو لعماله في أعناق الناس ، وأنه يُعطي من نفسه ومن عماله كل قضية ترفع على أي منهم ، وأن من حق جميع أبناء الأمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أي المحاسبة « وقد سلطت الأمة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » وهذا منتهى الإنصاف والعدل والتواضع ، وزيادة في تأكيد هذه المعاني، ولبثّ روح الثقة والجديّة في نفوس الناس ، بعث الخليفة إلى عمال الأمصار فقدموا عليه: عبد الله بن عامر والي البصرة ، ومعاوية بن أبي سفيان والي الشام ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح والي مصر ، وأدخل معهم في المشورة سعيد بن العاص بن أمية والي الكوفة ، وعمرو بن العاص بن وائل ، فقال: ويحكم ! ما هذه الشكاية ؟ إنّي والله لخائف أن تكونوا مصدوقاً عليكم وما يُعصب هذا إلا بي، فقالوا له: ألم تبعث ! ألم يرجع إليك الخبر! ألم يرجعوا ولم يشافهّم أحد بشيء !! ، لا والله ما صدقوا ولا برّوا ولا نعلم لهذا الأمر أصلاً ، وما كنت لتأخذ به أحداً فيُقيمك على شيء ، وما هي إلا إذاعة لا يحل الأخذ بها ، ولا الإنتهاء إليها[1] .

وعلى الرغم من عدم وجود أي أثر لما يُذاع ، فإن الخليفة كان حريصاً على تنفيذ وعوده بأنه وولاته على استعداد لتقديم كل ما يُطلب منهم ، وقد برّ بذلك وصدق رضي الله عنه ، وكذبت الخوارج من السبئية والغوغاء في كل ما يدّعونه ، والظاهر أنهم علموا بانكشاف كذبهم وظهور زيفهم ، ولكن بدلاً من أن يتوبوا ويُقلعوا عن غيّهم ، غيّروا وسائل بغيهم ، وزادوا من إذاعتهم . وهذا ما سيتضح بعد قليل .

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٤/٤٤٢ .

ولما تأكّد الخليفة ﷺ من صدق الولاة ، واستعدادهم التام للمحاسبة وإعطاء الحق من أنفسهم أحبّ أن يسمع منهم ما يُفسّر له ما يجري فقال: أشيروا عليّ: فقال سعيد ابن العاص والي الكوفة والذي لمس بهتان الخوارج السبئية والغوغاء فيها وعلم أن كل ما يصدر من التشويش لا يعدوهم ، قدّم رأياً لمعالجة هذه الفتنة بتصوّر مصيب ورأي سديد ، فقال: « **هذا أمر مصنوع في السرّ، فيُلقي به غير ذي المعرفة ، فيُخبر به فيتحدث به في مجالسهم، قال – الخليفة ﷺ – فما دواء ذلك ، قال: طلب هؤلاء القوم ، ثم قتل هؤلاء الذين يخرج هذا من عندهم** »[١] .

ولا شك أن هذا الرأي كان يمثل العلاج الذي يتناسب مع حجم الجريمة التي يُصرّ هؤلاء الخوارج على ارتكابها ، ولم يأتِ رأي سعيد هذا إلا عن تجربة ومعرفة عميقة بهم ، والذي يبدو أن هؤلاء الخوارج كانوا على علم بمدى ورع الخليفة وحرصه على سلامة الرعية ، وأنّه لن يأخذ برأي سعيد ومشورته الصائبة مما زاد في غيّهم وعبثهم واذاعاتهم .

وقال عبد الله بن سعد والي مصر مشيراً على الخليفة: « خذ من الناس الذي عليهم إذ أعطيتهم الذي لهم ، فإنّه خير من أن تدعهم ». وهذه أيضاً دعوة لمباشرة المحاسبة لكل عابث ، ما دام لا يوجد أحد له من يطالب به ، فمن حق الخلافة محاسبة المخالفين للجماعة ، المشاغبين على أمن الأمة .

وقال معاوية: « قد وليتني فوليت قوماً لا يأتيك عنهم إلا الخير والرجلان أعلم بناحيتيهما ، قال ــ الخليفة ــ فما الرأي ؟ قال: حسن الأدب » . قال: فما ترى يا عمرو ؟ قال: أرى أنّك قد لنت لهم ، وتراخيت عنهم وزدتهم على ما كان يصنع عمر ، فأرى أن تلزم طريقة صاحبيك فتشتد في موضع الشدة وتلين في موضع اللين ، إنّ الشدة تنبغي لمن لا يألو الناس شراً، واللين لمن يخلف الناس بالنصح

(١) الطبري ، تاريخ ، ٣/٣٤٣ .

وقد فرشتهما جميعاً اللين »[١] . فيتضح في هذه المشورة ، أنّ الولاة جميعاً يُحسّون بوجوب إظهار مبدأ المحاسبة والشدة على البغاة المشوشين على أمن المسلمين والعاملين على زعزعة الثقة فيما بينهم ، حتى لو تطلّب الأمر البحث عنهم وتتبع مصدر الشائعات ومحاسبة صانعيها من الأفّاكين البغاة المحرضين على الفتنة ولكن الذي يظهر أن الخليفة كان مدركاً لكل هذا الذي يقولون ، لكنه على علم بما يراد من وراء كل هذه الشائعات والذي سيكون من إشهار السيف في وجوه المسلمين وهذا ما لا يفعله ولا يقبله الخليفة ﷺ تحت أية ذريعة كانت ، إذ أنّ السيف متى ما شُهر في الفتنة فإنّه لا يُغمد ، ثم إنّه قد يأتي على أناس أبرياء ، وقد يتمكن الجاني الحقيقي من التستر إذ أنّه يستبيح الكذب والنميمة والتحايل والتقية والباطنية. وبناء على ذلك قام عثمان ﷺ بتقديم وجهة نظره في تلك المرحلة ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: « كل ما أشرتم به عليّ قد سمعت ، ولكل أمر باب يُؤتى منه ، إنّ هذا الأمر الذي يُخاف على هذه الأمة كائن ، وإنّ بابه الذي يُغلق عليه فيكفكف به اللين والمؤاتاة والمتابعة ، إلا في حدود الله تعالى ذكره ، التي لا يستطيع أن يُبادئ بعيب أحدها فإن سدّه شيء فرفق فذاك ، ووالله ليفتحن وليست لأحد عليّ حجة حق وقد علم الله أنّي لم آل الناس خيراً ، ولا نفسي ووالله إنّ رحى الفتنة لدائرة[٢] فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها ، كفكفوا الناس ، وهبوا لهم حقوقهم ، واغتفروا لهم وإذا تُعوطيت حقوق الله فلا تُدهنوا فيها »[٣] .

وفي هذا النص تتجلى سياسة الخليفة الراشدي عثمان ﷺ وتصوّره للأحداث

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٣٤٣/٤ .

(٢) يشير بذلك إلى قوله ﷺ : « تدور رحى الإسلام على خمس وثلاثين أو ست وثلاثين ، فإن هلكوا فسبيل من هلك وإن بقوا بقي لهم دينهم سبعين سنة ». ينظر: ابن حبان ، صحيح ابن حبان ، ح (٦٦٢٩) وشرحه ٢٣١/٧.

(٣) الطبري ، تاريخ ، ٢٤٣/٤.

الجارية ففي الوقت الذي كان فيه الولاة يرون أن الشدة والمحاسبة ومتابعة مُصدري الشائعات والشغب والإمساك بهم وتأديبهم ، كفيل بإعادة السكون والاستقرار ، فإنّ الخليفة رضي الله عنه يبدو أنه مدرك لكل ما يقترحون ، لكن لديه تصوّر آخر لما يجري وهو أنّ الفتنة قادمة لا محالة وأنّ علاماتها أخذت في الظهور، وأنّ الشدّة والمعاقبة ستعجل بظهورها وعندها ستدور رحى الإسلام بصراع داخلي رهيب حذّر منه رسول الله ﷺ وأنّ أمله وطموحه أن لا تكون في زمانه ، وأن ينجو من تبعاتها ولذلك أوصى الولاة بوجوب إعطاء الناس حقوقهم كاملة ومعاملتهم باللين والمسامحة وكف اليد واللسان ، واغتفار كل ما يقومون به من إساءة عليهم أو على خليفتهم ، فيما عدا حدود الله تعالى التي لا لين في محاسبة مرتكبيها ولا مداهنة ولا سماحة ، وقد طبّق عثمان رضي الله عنه وولاته هذه السياسة كاملة ، وبذلك يكون رضي الله عنه قد استنفذ كل ما لديه من حلم وحيلة وعفو وصبر ، لسد باب الفتنة ، لكنّ ذلك لم يُجد لأنّ أمر الله تعالى كان قدراً مقدوراً ، ولأنّ أعداء الصحابة ، من اليهود والمجوس ومن يسير في ركابهم مُصرون على إيقاد نار الفتنة وخلق صراع داخلي بكل الوسائل، يُساعدهم على ذلك إرثهم التاريخي الغني بتجارب المؤامرات والفتن والمكائد ، مستغلين سماحة الخليفة عثمان ونقاءه وحرصه على إعطاء الحقوق وحماية الحريّات ، وشدة محاسبته لولاته ، فسخّر المتآمرون تلك الأجواء الرحيبة للهدم والتخريب والإفساد يدينون بالتُقية ويخططون في السرّ، ويكاتب بعضهم بعضاً في الخفاء، ويختارون الأوقات المظلمة لتنفيذ مخططاتهم، وبالقدر الذي يحرص فيه الخليفة وولاته على الهدوء والتسامح والتغاضي عن الأخطاء ، يهتبل المتآمرون هذه السياسة إلى أقصى حدودها ، لإنزال أكبر قدر من الأذى وبذر الفتنة وتشويه سيرة الخليفة والولاة .

فما أن علموا بمسير الولاة للقاء الخليفة، للنظر في أسباب ما يجري من شائعات

حتى بدؤوا هم بزيادة تآمرهم ونشر بهتانهم . و« كان أهل مصر كاتبوا أشياعهم من أهل الكوفة وأهل البصرة، وجميع من أجابهم أن يثوروا خلاف أمرائهم واتعدوا يوما حيث شخص أمراؤهم ، فلم يستقم ذلك لأحد منهم ، ولم ينهض إلا أهل الكوفة ، فإن **يزيد بن قيس الأرحبي** ثار فيها ، واجتمع إليه أصحابه ، وعلى الحرب يومئذ **القعقاع** بن عمرو ، فأتاه فأحاط الناس بهم وناشدوهم ، فقال يزيد للقعقاع بن عمرو: ما سبيلك علي وعلى هؤلاء ؟ فوالله إني لسامع مطيع ، وإني للازم لجماعتي ، إلا أني أستعفي من سعيد فقال: استعفى الخاصة من أمر قد رضيته العامة ؟ قال: فذاك إلى أمير المؤمنين ، فتركهم والاستعفاء ، ولم يستطيعوا أن يظهروا غير ذلك »[1] .

ومن اللافت هنا استخدام التقية والباطنية مع القعقاع رضي الله عنه ، ففي الوقت الذي كان فيه زعيم الغوغاء هذا يقسم الأيمان أنه لا هدف له سوى الاستعفاء من الوالي كما سبقت الإشارة إلى ذلك « رجع إلى بيته واستأجر رجلا ، وأعطاه دراهم وبغلا على أن يأتي المسيرين وكتب إليهم: لا تضعوا كتابي من أيديكم حتى تجيئوا ... فلم يفجأ الناس في يوم جمعة إلا والأشتر على باب المسجد يقول: أيها الناس إني قد جئتكم من عند أمير المؤمنين عثمان وتركت سعيدا يريده على نقصان نسائكم إلى مائة درهم ، ورد أهل البلاء منكم إلى ألفين ، ويقول: ما بال أشراف الناس ، وهذه العلاوة ... ويزعم أن فيئكم بستان قريش ، وقد سايرته مرحلة فما زال يرجز بذلك حتى فارقته ، يقول:

ويل لأشراف النساء مني   صمحمح كأنني من جن

فاستخف الناس ، وجعل أهل الحجى ينهونه فلا يسمع منهم ، وكانت نفجة – وثبة – وقد كان الأشتر قبل أن يصل إليه كتاب السبئية ، قد ذهب إلى أمير

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٣٤٥/٤ .

المؤمنين ليجدد التوبة على أن لا يعود إلى الشغب ثانية !! فخرج يزيد وأمر منادياً ينادي: من شاء أن يلحق بيزيد بن قيس لرد سعيد وطلب أمير غيره فليفعل ، وبقي حلماء الناس وأشرافهم ووجوههم في المسجد وذهب من سواهم .

وعمرو بن حريث[1] يومئذ الخليفة – خليفة سعيد بن العاص – فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، وقال: أذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً بعد أن كنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها فلا تعودوا في شرّ قد استنقذكم الله عز وجل منه ، أبعد الإسلام وهديه وسنته لا تعرفون حقاً ، ولا تصيبون بابه ! فقال القعقاع بن عمرو: ... والله لا تُسكن الغوغاء إلى المشرفية – السيوف – ويوشك أن تُنتضى ، ثم يعجون عجيج العتدان – الفرس السريع الجري – ويتمنون ما هم فيه فلا يرده الله عليهم أبداً فاصبر فقال: أصبر وتحوّل إلى منزله »[2] .

فخرج يزيد بن قيس الأرحبي ومعه الأشتر وغوغاء الكوفة. « فاستقبلوا سعيداً ، فردوه من الجَرَعة[3] ، واجتمع الناس على أبي موسى الأشعري ، وأقرّه

---

(1) عمرو بن حريث من بني مخزوم ، يكنى أبا سعيد، لما قبض رسول الله ﷺ كان ابن اثنتي عشرة سنة نزل الكوفة ومات بها سنة خمس وثمانين ، ومن حديثه أنه رأى النبي ﷺ في نعلين مخصوفتين ينظر: ابن عبدالبر، الاستيعاب ٣/١١٧٢.

(٢) الطبري ، تاريخ ، ٤/٣٣١.

(٣) الجَرَعة: مكان مشرف قرب القادسية ، عسكر فيه غوغاء الكوفة ليردوا واليهم سعيد بن العاص عن الكوفة بعد عودته من المدينة ، ينظر: الطبري ، تاريخ ، ٤/٣٣٢ و ٤/٣٣٥. وينظر: صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ١٨/١٨ وفيه قال جندب « جئت يوم الجرعة فإذا رجل جالس فقلت: ليهراقن اليوم هاهنا دماء ، فقال ذاك الرجل كلا والله قلت: بلى والله ، قال: كلا والله قلت: بلى والله ، قال: كلا والله ، إنه لحديث رسول الله ﷺ ، حدثنيه ، قلت: بئس الجليس لي أنت منذ اليوم تسمعني أخالفك وقد سمعته من رسول ﷺ فلا تنهاني، ثم قلت: ما هذا الغضب. فأقبلت عليه أسأله فإذا الرجل حذيفة .

عثمان رضي الله عنه ولما رجع الأمراء لم يكن للسبئية – في غير الكوفة – سبيل إلى الخروج إلى الأمصار ، وكاتبوا أشياعهم من أهل الأمصار أن يتوافوا بالمدينة لينظروا فيما يُريدون ، وأظهروا أنهم يأمرون بالمعروف ويسألون عثمان عن أشياء لتطير في الناس ، ولتحقق عليه ، فتوافوا بالمدينة »[1] .

وهذا ما يؤكّد إصرار السبئية على مواصلة الفتنة بكل الوسائل ، بسبب وبدون سبب ، وكان الإتفاق بينهم على إعلان خروجهم ، في الوقت الذي يغادر فيه الولاة أعمالهم ويتوجهون للقاء الخليفة ، فهم ليسوا بحاجة إلى انتظار نتائج ذلك اللقاء ، لأنهم ليس لديهم ما يطالبون به فلم يُنتقص حق لأحد منهم ، وإنّما غايتهم تعطيل نظام الخلافة الراشدة « ولما رجع الأمراء لم يكن للسبئية سبيل إلى الأمصار وكاتبوا أشياعهم من أهل الأمصار أن يتوافوا بالمدينة لينظروا فيما يريدون »[2] فحال ذلك دون تنفيذ السبئية لمؤامرتهم فيما سوى الكوفة التي خلت من أكثر وجوهها ، حيث كان سعيد قد اختارهم لإدارة أقاليم ولايته وبعث بهم إليها ، ثم غادر هو إلى المدينة ، فلم يبقَ إلا القعقاع بن عمرو الذي تمكن من الإحاطة بهم والتضييق عليهم ، فاستخدموا التُقية وأظهروا باطنيتهم ، وأنّهم يرغبون في الاستعفاء من سعيد ، ولم يستطيعوا أن يُظهروا غير ذلك ، بينما كان هدفهم ، أن يخرجوا تحت مظلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فيفترون أشياء تشاع بين الناس لتتأكّد على الخليفة رضي الله عنه وتحقق عليه ، فيكسبون بذلك أنصاراً جداً.

ولكنّ الخليفة وبما أُوتي من حكمة وفراسة ، أبطل محاولتهم هذه وجرّدهم من أي تأييد خارج نطاق أعوان ابن سبأ من الغوغاء الذين كانوا في الكوفة ، وذلك بما اتبعه من سياسة الكفّ واللين وإعطاء الحقوق فلم يجد الخوارج أيّة حجة يدّعونها على ولاتهم .

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٣٤٥/٤ .

(٢) المصدر نفسه .

وأما في خارج نطاق الكوفة فيبدو أن الولاة قد أحسنوا التدبير وأحكموا الخلافة ، فلم يتمكن الخوارج السبئيون من القيام بأية حركة ، معلنة أو غير معلنة تحت ستار التُقية ، حتى عادوا إلى أعمالهم في ولاياتهم وبذلك أُحبطت أول محاولة جدية لإعلان الخروج ونشر الفوضى ، مما اضطرهم لإعادة المحاولة مرة أخرى تحت مظلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ليخططوا من جديد وليشيعوا أموراً جديدة تنتشر بين الناس ، إذ أن الخليفة بتدابيره الأولى وسياسة الكف واللين قد أحبط عليهم جميع مؤامراتهم ، مما يؤكّد معرفته ونباهته السياسية العالية وحسن قيادته رضي الله عنه .

ما يؤكّد معرفة الخليفة والولاة بما يريده السبئيون ولكن كان يحجزهم عن البطش بهم الورع والدين

الظاهر أن أحوال الخوارج من السبئية والغوغاء ، لم تكن خافية على الخليفة وولاته ، ولكن كان يمنعهم عن إنزال العقوبة بهم ، التزامهم التام بتوفير الحرية للرعية ، وعدم الأخذ بالشبهات ، وهذا ما يتضح من الحوار الذي دار بين القعقاع بن عمرو أمير الحرب بالكوفة وعمرو بن حريث خليفة سعيد بن العاص فيها الذي بالغ في نصح غوغاء أهل الكوفة وتذكيرهم لكنهم لم يسمعوا منه. فقال له القعقاع رضي الله عنه: « أتردّ السيل عن عبابه ، فاردد الفرات عن أدراجه، هيهات ألا والله لا تُسكّن الغوغاء إلى المشرفية ويوشك أن تُنتضى »[١] .

أي أن القعقاع علم أنّ هؤلاء لا يقبلون النصح ولا يرغبون في الإصلاح فلا جدوى من وعظهم ولا فائدة من إرشادهم ، لأنّهم مسيّرون بعقول غيرهم .

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٣٣٢/٤.

لذلك لا يُجدي سوى الشدة والبطش والسيف ، وأنّهم لن يسكنوا بغـــيره ، وإنّ ذلك قريب يوشك أن ينتضى ويسلّ ، لأنّهم يبحثون عنه ويرغبون منه ، وليس لـهم قضية مفقودة يبحثون عنها سوى إشعال الفتنة والسعي في تهيئة أسبابها وتغذيتها .

أما الخليفة رضي الله عنه فكان أكثر الناس معرفة بمكرهم وكيدهم وســـوء مقــاصدهم يُساعده على ذلك ما لديه من خبرة سياسية واجتماعية بأحوال الناس ، وبما لديه من علم من رسول الله صلى الله عليه وسلم عن علامات الفتن التي ستتعرّض لها الأمـــة فكــان همّــه الأول: أن يلقى الله تعالى وليس لأحد من رعيته في عنقه ما يُسأل عنه ، لذلك كـان من سياسته الكف واللين والغفران وإعطاء الرعية جميع حقوقها، حيث ساعدت هذه السياسة على تجنّب كثير من الحروب الداخلية في زمن عثمان رضي الله عنه ، ومما يؤكّـــد ذلك موقفه من السبئية يوم الجرَعة حينما رجع سعيد من الجرَعة إلى المدينة بعد أن اعترضه غوغاء الكوفة الذين خرجوا دون أي تفويض أو رغبة من أحد « فرجـــع سعيد وقال لعثمان رضي الله عنه: إنّهم يريدون البدل ، قال فمن يريدون؟ قال: أبـــا موســـى الأشعري ، قال: قد أثبتنا أبا موسى عليهم ، و والله لا نجعل لأحد عذراً ولا نـــترك لهم حجة ، ولنصبرنّ كما أُمرنا حتى نبلغ ما يريدون »[١] .

فلما كانت تظاهرتهم التي قادها يزيد بن قيس وأنّهم يريدون الاســـتعفاء مـــن سعيد ، وهم يبطنون إثارة الفتنة وإيقاد حرب داخلية ، تمكن الخليفة مـــن إفشـــال تدبيرهم هذا بأن أثبت أبا موسى والياً على الكوفة. فأُسقط في أيديـــهم ، وعـــادوا يُفتشون عن أسباب أخرى للفتنة ، إذ لو كانت تولية أبي موسى على الكوفة مطلبهم لسكنوا بتحقق مطلبهم وأخلدوا إلى الطاعة .

ولما لم يحصل هذا ، اتضح صواب سياسة الخليفة عثمان رضي الله عنه. وممـــا يؤكّـــد براعة عثمان السياسية وقدرته القيادية ، أيضاً أن الغوغاء استخدموا كل الوســـائل

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٣٣٢/٤ .

لإثارة الفتنة ، وأشاعوا كل الأباطيل ليوجدوا مسوغاً لما يقومون به من أعمال الشغب على الخليفة والولاة ، لكنهم عجزوا عن ذلك فهم في كل ما يقومون به محجوجون ظالمون معتدون ، مجردون من أي قناع يسترهم أو ذريعة تؤيّدهم .

لقد كان الخليفة ﷺ ينظر إلى الأحداث بنور الله تعالى فيدرك ببصيرته ما يمكرون به ، ولكنه على علم أيضاً بأن أقدار الله تعالى لا ترد ، وأن الله هو خير الماكرين .

ولعل هذه المحاورة التي دارت بين الخليفة وعمرو بن العاص بعد قدومه من مصر تُبين مدى إدراك الخليفة لما يجري ، وعميق إيمانه الذي يتمسّك به. « فلما قدم عمرو على عثمان ﷺ قال: ما شأنك يا أبا عبد الله ؟ قال: والله يا أمير المؤمنين ما كنت منذ وليتهم أجمع أمراً ورأياً مني منذ كرهوني ، وما أدري من أين أُتيت ؟ فقال عثمان ﷺ: لكني أنا أدري ، لقد دنا أمر هو الذي كنت أحذره .

ولقد جاءني نفر تردد عمر عنهم وكرههم ، ألا وإنّه لا بدّ لما هو كائن أن يكون وإن كابرتهم كذبوا[1] واحتجوا وإني أكف عنهم ما لم ينتهكوا محرماً كان لهم ولم تثبت لهم حجة ، ووالله لأسيرنّ فيهم بالصبر ولأتابعنّهم ما لم يُعص

---

(١) إنّ اليهود يكذبون على الله وعلى الأنبياء. قال تعالى:: ﴿ الذين قالوا إن الله عهد إلينا أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين ۞ فإن كذبوك فقد كُذّب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير ﴾. سورة آل عمران (الآيتان: ١٨٣-١٨٤) . ولذلك من السهل جداً أن تكذب السبئية على الخلفاء وعلى المسلمين ، قال الشعبي: أول من كذب – في الإسلام – عبد الله بن سبأ ابن السوداء كان يكذب على الله ورسوله، حتى قال علي ﷺ: مالي ولهذا الحميت الأسود يعني ابن سبأ، وكان يقع في أبي بكر وعمر، وقال علي ﷺ له:« ويلك ما أفضى إليّ رسول الله ﷺ بشيء كتمه أحداً من الناس ، ولقد سمعته يقول إن بين يدي الساعة ثلاثين كذاباً ، وإنّك لأحدهم ، فلما بلغه أنه ينتقص أبا بكر وعمر دعا به ودعا بالسيف وهمّ بقتله ، فشفع فيه أناس فقال: والله لا يساكنني ببلد أنا فيه فسيره إلى المدائن » . ينظر: ابن عساكر، تاريخ دمشق ٤٣٢/٧ .

الله عز وجل »[1] فإذا كان عمرو رضي الله عنه لم يدر من أين أوتي ، فإنّ الخليفة بما لديه من تجارب سياسية وقرائن شرعية يدري بمن هم وراء عزله ، فهو غير متهم عنده وغير مُهمل في عمله بل على أتم أمره وأجمعه .

ولعل ذلك هو ذنبه الوحيد حيث لم يهمل في زاوية من أعماله لكي يندس منها المنافقون إلى داخل الصف فيفسدوه ، فاستثقلوه وافتروا عليه حتى عزله الخليفة وهو يعود بذاكرته إلى أيام الفاروق عندما كان يستقبل الإمدادات والوفود القادمة لرفد جيوش الفتح ، فيدعو لهم ويُيسرّ بهم ويرسلهم مدداً لإخوانهم المجاهدين في الشام والعراق حتى: « مرّت السكون مع أول كنده مع حصين بن نمير السكوني ومعاوية بن حديج[2] في أربعمائة ، فاعترضهم فإذا فيهم فتية زلم أسناط ، مع معاوية بن حديج فأعرض عنهم ثم أعرض عنهم فقيل له: مالك ولهؤلاء؟ فقال: إنّي عنهم لمتردد وما مرّ بي قوم من العرب أكره إليّ منهم ثم أمضاهم ، فكان بعد يكثر أن يتذاكرهم بالكراهية ويتعجّب الناس من رأي عمر حين تعقبوه ، بعد ما كان من أمر الفتنة الذي كان ، فإذا هم رؤوس تلك الفتنة فكان منهم من غزا عثمان وكان منهم رجل يقال له سودان بن حمران قتل عثمان ، وإذا منهم رجل حليف يقال له خالد بن ملجم[3] قتل علي بن أبي طالب وإذا منهم معاوية بن حديج ، فنهض في قوم معهم ، يتتبع قتلة عثمان يقتلهم ، وإذا منهم قوم يغزون قتلة عثمان »[4].

ومن هذا النص يتأكّد أن الصحابة الكرام رضي الله عنهم لديهم وسائلهم

---

(١) المصدر السابق .

(٢) معاوية بن حُديج السكوني، وقيل الكندي وقيل غير ذلك غزا إفريقية وأصيبت عينه، وكان محبوباً عند جنده ، ابن عبد البر ، ١٤١٤/٣،
ابن سعد، الطبقات، ٢٣٣/٤.

(٣) الصحيح عبد الرحمن بن ملجم ، ينظر الطبري، ١٤٣/٥، وقد سبق ذكره.

(٤) ابن حبيش ، غزوات ابن حبيش ، ٤٩٢/٢.

الخاصة بهم لمعرفة ورصد الرجال وتوجهاتهم ومنهم عمر رضي الله عنه ، الذي لاحظ الشرّ في وجوه وعيون ذلك النفر ، وذلك قبل مباشرتهم له بسنين ، إذ كان ذلك أيام استنفار المسلمين للقادسية (١٤هـ) وكذلك عثمان الذي حفظ تلك الإشارات ومنها أسباب تلك الكراهية في حينها وقبل وقوعها ، إذ التآمر على الخلفاء الراشدين قديم ولم يكن خافياً على عثمان رضي الله عنه الذي يمتلك ذاكرة نيّرة تقوده إلى الهدى والسلامة ، وفراسة مشرقة تميّز له بين الحق والباطل ، والتمويه والحقيقة .

فكانت السياسة العثمانية التي واجهت الفتن والبغي والبهتان ، سياسة رشيدة حكيمة سديدة ، لا طيش فيها ولا ضعف ، وإنّما سارت بالأمة على منهاج النبوة المبارك لا تُستفز ولا تُستجر إلى غير طريقها ، تعطي لكل ذي حق حقه وتعفو عن حقوقها وتغتفرها .

ولعل خير ما يؤكّد صدق تلك السياسة ، أن الخليفة الراشدي الرابع رضي الله عنه اضطر إلى استبدال سياسة الكف واللين التي كان يسير عليها عثمان رضي الله عنه إلى سياسة القوة والشدة حتى اضطر إلى استخدام السيف على أوسع نطاق لكن هذه السياسة لم تصل إلى حسم الداء وإعادة الأمور إلى مجاريها ، بل يمكن القول إن من أهداف السبئية هو إشهار السيف في الأمة ، لتُسفك الدماء وتتسع دائرة الفتنة ويتأصل الخلاف ، وهذا هو هدفهم الذي كانوا يسعون إليه .

ومما سبق يتضح أن الخلافة الراشدة في أيام الخليفة عثمان رضي الله عنه كانت تواجه مؤامرة خبيثة المقاصد واسعة الأهداف ، أُمتحن فيها الخليفة وعامة الصحابة بمدى ثباتهم على منهج نبيهم وسلف أمتهم ، فلم يغيّروا ولم يبدلوا . فاستثقل الغوغاء صبرهم وثباتهم على ذلك المنهج ، فباؤوا بإثم الفتنة وبما جلبوا على الأمة من البلاء ، فانكشفت عوراتهم وبان فسادهم وظهرت باطنيتهم . قال تعالى: ﴿ أم حسبتم أن تتركوا ولمّا يعلمِ الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا

رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون ﴾[1]، فظهر في تلك الفتنة المجاهدون لأنفسهم وأهوائهم وأعدائهم ، الذين لم يوالوا إلا الله والرسول ﷺ والمؤمنين ، والمنافقون الذين يوالون اليهود والمجوس ويثيرون الشبهات ويُحيون النعرات ، ويُشيعون الأباطيل والبهتان على الصحابة وأوليائهم من الصالحين فكانت الغوغاء هم جند الشيطان الذين يُخربون بيوتهم بأيديهم ، المتجرّدون من كل خُلق وفضيلة ، أعمى قلوبهم الحقد والحسد لما وصلت إليه الأمة من إنجازات على الصعد كافة ، ولو أمعن عاقل النظر في أحوال هؤلاء المتآمرين على الخلافة الراشدة لما وجِد فيهم من انتُقص عليه شيء من حقوقه ، أو حريته أو كرامته ولم يكن يُحرك أهواء أولئك القوم ، سوى ما في نفوسهم من الغيظ على بناة المجد الإسلامي الذي رفلت به الأمة في أيام الخليفة عثمان رضي الله عنه ، عندما ازدادت الفتوح وزاد العطاء والخير الذي طال جميع أبناء الأمة ، فضلاً عما يتمتع به الناس من الأمن والحرية حيث كان عثمان وولاته كافّين أيديهم وألسنتهم عن الرعية ، ولكن بعد أن روّجت السبيئة لمبدأي الرجعة والوصية: « أفتتن بشر كثير من أهل مصر وكتبوا إلى جماعات من عوام أهل الكوفة والبصرة ... وتواعدوا أن يجتمعوا في الإنكار على عثمان رضي الله عنه »[2].

---

(١) سورة التوبة، الآية (١٦) .

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٧٧/٧.

سياسة السبئية والغوغاء في تسويغ الخروج على الخليفة

تبين فيما سبق أن السبئية ومن تبعها من الغوغاء ، لم تكن لهم قضية جوهرية ظاهرة يدعون إليها أو يدافعون عنها ، فلم يكن من بينهم من هُضم حقه أو أسيء إلى مواطنته أو مُنع من خير أو عطاء ، لذلك كانوا يتذرعون بحجج واهية مبنية على التُقية والإفتراء والبهتان .

فتارة يزعمون أنّهم يستعفون من الوالي ، وأخرى يُريدون لقاء الخليفة ليحدثوه في بعض أمورهم ، وهكذا يتقلبون ما بين التحايل والكذب ، والتُقية والنميمة والخيانة ولم يَصدقوا إلا في شيء واحد فقط هو الإصرار على إثارة الفتن وتمزيق الصف ونشر الشائعات ، وتنمية الإفك ونزع الحياء والإنقياد للزنادقة .

ولقد جابههم الخليفة ﷺ بنور الحقيقة وقوة الصدق وعميق العدل والإنصاف والتواضع والأمانة وكف اليد وإمساك اللسان وتلبية جميع المطالب ما لم يكن فيها معصية لله تعالى .

فأبطل بذلك سحرهم وكشف زيفهم ، وأبان اللثام عن حقيقتهم المشربة بمكر اليهود وكيد المجوس ، يتواصلون في الظلام ويتكاتبون في السر. قال تعالى: ﴿ قل هل أنبئكم بشرّ من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهمُ القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل ﴾[1]. وقال عز وجل: ﴿ كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فساداً والله لا يُحب المفسدين ﴾[2] .

ولما عجزوا عن مواجهة سياسة الخليفة المتوكل على الله تعالى وحده المتمسك

---

(١) سورة المائدة ، الآية (٦٠) .

(٢) سورة المائدة ، الآية (٦٤) .

بمنهج نبيه ﷺ ، السائر على هديه والصابر على عهده احترقت جميع أوراقهم المعدة للعمل تحت الأعذار ، فأجمعوا كيدهم ثم أتوا تحت مظلة الطاعة لله وأداء فريضة الحج ، فكان غدرهم وفجورهم الذي سفكوا به الدم الحرام في البلد الحرام في الشهر الحرام .

وعلى الرغم من أنه لم يكن من بينهم من أهل السابقة في العلم ، أو الإسلام أو الجهاد أو الإنفاق أو في شيء من الفضائل المعتبرة ، أو أن أحداً ممن يتصف بهذه الصفات فوّضهم بالقيام بمهمة التفاوض مع الخليفة في شيء من أمور المسلمين أو مسائل الدين.

وعلى الرغم من أنه صحت فضائله رضي الله عنه في الكتاب والسنة ، فلا يوجد باب من أبواب الفضائل والمناقب في كتب الحديث إلا والخليفة عثمان رضي الله عنه صدر فيها ، روى ابن كثير عن ابن عمر رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ أمّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ﴾.[1] قال هو عثمان ابن عفان رضي الله عنه ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراطٍ مستقيم ﴾[2] قال: هو عثمان رضي الله عنه[3].

وكذلك ما صح عن رسول الله ﷺ من أن عثمان على الحق ، وأنّه في الجنة وأنه يُقتل مظلوماً ، وأنه ﷺ أمر باتباعه ، وأنه سيتولى الخلافة وأن المنافقين سيراودونه على خلع نفسه منها ، وعليه أن لا يطيعهم وقد فعل ذلك فضلاً عما هو معلوم من سابقته وكثرة إنفاقه في سبيل الله ، وحلمه وعلمه وعفوه وصفحه وصبره ، وحيائه وتواضعه وجهاده وزهده ، وقيامه وصيامه وعدله

---

(١) سورة الزمر الآية (١٠) .

(٢) سورة النحل الآية (٧٦) .

(٣) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٧/٢٢٥ ، أحداث سنة خمس وثلاثين من الهجرة .

وجوده ، وزواجه من ابنتي رسول الله ﷺ ، والتي لم تكن لأحد من الناس من قبله مثلها ، وهجرته إلى الحبشة بأهله ، إلى غير ذلك من صفات طيبات مباركات[1] ومن كانت هذه صفاته وهو كذلك ، كيف يُعترض عليه بمجموعة من الترهات التي صاغها ونمّقها المُبطلون من السبئية والمنافقين . قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: « والذي نفسي بيده لا يموت رجل وفي قلبه مثقال حبة من حُب قتل عثمان ، إلا تبع الدجال إن أدركه ، وإن لم يدركه آمن به في قبره »[2] .

ومع ذلك فإن السبئية ومن في ركابهم ، بعد أن احتالوا للذهاب إلى العاصمة في وقت ذهب المسلمون فيه لأداء فريضة الحج ، ذهبوا للفتنة وسفك الدماء . وقالوا: « نريد أن نذكر له أشياء قد زرعناها في قلوب الناس ثم نرجع إليهم فنزعم لهم أنا قررناه بها ، فلم يخرج منها ولم يتب ، ثم نخرج كأننا حجاج حتى نقدم فنحيط به فنخلعه ، فإن أبى قتلناه وكانت إياها »[3] .

ومن هذا النص يتضح هدف الخوارج على أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه الذي يتراوح ما بين خلع الخليفة أو قتله ، فمن هم هؤلاء الغوغاء حتى يتحدثوا بمثل هذه المسائل التي هي لأهل الحل والعقد من كبار الصحابة رضي الله عنهم . ومع هذا فإن كتب التاريخ تعج بالصراع حول أسباب خروج السبئية والمظالم التي زعموها وهل هي حقيقة أم مصنوعة ، حتى إن الباحث ليتساءل ما داموا قد حددوا مطالبهم في خلع الخليفة أو قتله ، فما جدوى متابعة المؤرخين في الحديث عما يُسمى المسائل التي نقموها على الخليفة ، والتي يبدو أنه لا بدّ من الإشارة إلى بعضها لكي يتضح زيف هذه الدعاوى ، إذ ليس فيها شيء مما يعنيهم أو وكل إليهم ، مما يؤكّد عدم صحتها

(١) ينظر: المحب الطبري، الرياض النظرة، ٣/١٠، ابن حجر الهيتمي، الصواعق المحرقة، ١٧٣، ابن كثير، البداية والنهاية ، ٧/٢٢٤ ، وكذلك فضائل عثمان في أبواب الفضائل من كتب الحديث .

(٢) ابن حجر الهيتمي ، الصواعق المحرقة ، ١٧٣.

(٣) الطبري ، تاريخ ، ٤/٣٤٧.

وأنها وإن تم الحديث فيها فما هي إلا ذرائع تستروا بها للوصول إلى هدفهم الحقيقي الذي تمت الإشارة إليه ، أما هم فإنّهم قوم قد أبطرهم العدل والنعيم الذي هم فيه فاستغواهم الشيطان ، ونفخ فيهم ابن سبأ من سحره فحبب إليهم الفتنة فقاموا بها ودعوا إليها .

قال الحسن البصري: « أدركت عثمان على ما نقموا عليه ، قلّ ما يأتي على الناس يوم إلا وهم يقتسمون فيه خيراً يُقال لهم: **يا معشر المسلمين ، أُغدوا على أعطياتكم فيأخذونها وافرة ، ثم يقال لهم: أُغدوا على أرزاقكم فيأخذونها وافرة ، ثم يقال لهم: أُغدوا على السمن والعسل ، الأُعطيات جارية ، والأرزاق دارّة ، والعدو مُتّقى ، وذات البين حسن ، والخير كثير** ، وما من مؤمن يخاف مؤمناً ، ومن لقيه فهو أخوه ، قد كان من ألفته ونصيحته ومودته ، قد عُهد إليهم أنها ستكون أثرة فإذا كانت فاصبروا . قال الحسن: فلو أنّهم صبروا حين رأوها لوسعهم ما كانوا فيه من العطاء والرزق والخير الكثير ، بل قالوا : لا والله ما نصابرها ، فوالله ما وردوا وما سلموا ، والأخرى كان السيف مُغمداً عن أهل الإسلام فسلّوه على أنفسهم فوالله ما زال مسلولاً إلى يوم الناس هذا ، وأيم الله إنـي لأراه سيفاً مسلولاً إلى يوم القيامة »(١) .

هذا هو زمان خلافة عثمان رضي الله عنه وما فيه من الخير العميم ، والأمن والمحبة والألفة، وما جلبه الظالمون على المسلمين من الفتن والشبهات والبغضاء والحرمان الذي حلّ بهم بعد زوال خلافة عثمان . قال كعب بن مالك الأنصاري رضي الله عنه:

فكيف رأيت الله صبّ عليهم	العداوة والبغضاء بعد التواصل
وكيف رأيت الخير أدبر بعده	عن الناس إدبار النعام الجوافل(٢)

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٢٤/٧ .

(٢) المصدر نفسه ٢٠٦/٦ .

مسير السبئية والغوغاء من مصر والكوفة والبصرة لقتل الخليفة عثمان رضي الله عنه

« وقد كان أهل مصر كاتبوا أشياعهم من أهل الكوفة وأهل البصرة وجميع من أجابهم أن يثوروا »[1]. وفي شوال من سنة خمس وثلاثين ، خرج أهل مصر في أربع رفاق على أربعة أمراء .

المقلل يقول: ستمائة والمكثر يقول ألف ... وعلى القوم جميعا الغافقي بن حرب العكي[2] .

ولم يجترئوا أن يعلموا الناس بخروجهم إلى الحرب ، وإنما خرجوا كالحجاج ومعهم ابن السوداء . وخرج أهل الكوفة في أربع رفاق ... وعددهم كعدد أهل مصر وعليهم جميعا عمرو بن الأصم[3] .

وخرج أهل البصرة في أربع رفاق ... وعددهم كعدد أهل مصر ، وأميرهم جميعا حرقوص بن زهير السعدي[4] ، سوى من تلاحق بهم من الناس ، فأما أهل مصر فإنهم كانوا يشتهون عليا ، وأما أهل البصرة فإنهم كانوا يشتهون طلحة وأما أهل الكوفة فإنهم كانوا يشتهون الزبير. فخرجوا وهم على الخروج جميع وفي الناس شتى ... فخرجوا حتى إذا كانوا من المدينة على ثلاث، تقدم ناس من أهل

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٣٤٥/٤.

(٢) الغافقي بن حرب العكي ، كان أحد أصحاب ابن سبأ المتأثرين به وهو الذي قاد الخوارج السبئية المصرية تحت رعاية ابن سبأ وهو من الذين اقتحموا الدار على الخليفة الشهيد رضي الله عنه، ينظر: الطبري ، تاريخ، ٣٩١/٤.

(٣) عمرو بن الأصم ، هناك خلاف في الأسماء عند ابن كثير ، ينظر: البداية والنهاية ، ١٨٣/٦.

(٤) حرقوص بن زهير السعدي ، من بني تميم، كان أحد رؤوس الخوارج السبيئة وأمير خوارج البصرة الذين تمكن طلحة والزبير فيما بعد من قتلهم جميعا ولم يفلت منهم إلا حرقوص هذا الذي ساعده قومه على الهروب ، وقتل عام (٣٧هـ) الطبري ، تاريخ ، ٧٦/٤ و ٣٤٩/٤ .

البصرة فنزلوا ذا خُشُب[1]، وناس من أهل الكوفة فنزلوا الأعوص[2]، وجاءهم ناس من أهل مصر ، وتركوا عامتهم بذي المروة ، ومشى فيما بين أهل مصر وأهل البصرة ، زياد بن النضر وعبد الله بن الأصم، وقالا: لا تعجلوا ولا تُعجلونا حتى ندخل لكم المدينة ونرتاد ، فإنّه بلغنا أنّهم قد عسكروا لنا والله إن كان أهل المدينة قد خافونا واستحلوا قتالنا ولم يعلموا علمنا فهم إذا علموا علمنا أشد ، وإنّ أمرنا هذا لباطل[3] والذي يجب التأكيد عليه هنا:

ـ **أولاً** : أن هذا المسير لم يكن عشوائياً ولا عفوياً ، وإنّما جاء بعد مراسلات ومشاورات ومدارسة ، تحدد فيها الزمان والمكان والهدف المطلوب .

ـ **ثانياً** : أن قادة الخوارج الذين يمثلهم ابن سبأ وزعماء الغوغاء الذين كانوا يحملون ألويتهم ، استخدموا التُقية والسريّة عن حقيقة أهدافهم ، وأظهروا أنّهم ذاهبون إلى الحج ، وبذلك تجنبوا المساءلة من قبل ولاة الأمصار ، وتمكنوا من التغرير بكثير من الناس الذين خرجوا متأثرين بشعارات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وببعض الوعود المعسولة والدعاية المُرغّبة والمدغدغة للمشاعر، دون أن يعلموا حقيقة هدف الخوارج الذي يعملون على تحقيقه ، والمتمثل في العمل على قتل الخليفة وتدمير النظام السياسي وتمزيق الوحدة في دولة الراشدين.

ـ **ثالثاً** : التنظيم المتشابه للخوارج المصريين والكوفيين والبصريين ، والأعداد المتقاربة ، تؤكّد وحدة التخطيط وعقلية المنظم ولمساته التي تظهر في كل صفحات تلك المؤامرة الخبيثة ، كما كان بينهم عناصر ارتباط يُنسقون المواقف ويُبلّغون

---

(١) ذا خُشُب ، واد على ليلة من المدينة وهو أحد الأودية التي تصب في وادي إضم ، ينظر: السمهودي وفاء الوفا ، ٤/١٢٠١.

(٢) الأعوص ، اسم موضع على أميال يسيرة من المدينة، والأعوص واد في دبار باهلة لبني حصن منهم. ويقال الأعوصين . ياقوت ، معجم البلدان ، ٢/١٨٠.

(٣) الطبري ، تاريخ ، ٤/٣٤٨ .

الأوامر والتعليمات لجميع الخوارج .

ـ **رابعاً :** اختيار توقيت ذهاب المسلمين إلى الحج يؤكّد سوء نية الخوارج وسبق الإصرار على تنفيذ جريمتهم .

ـ **خامساً :** وهو أهم ما يؤكّد هوية هؤلاء المجرمين ونواياهم ، أنّه لا يوجد من بينهم من له مظلمة تبيح له الخروج على الخليفة الشهيد عثمان رضي الله عنه ، فضلاً عن العمل على اغتياله واستباحة دمه الطاهر .

ـ **سادساً:** أن قادة الخوارج السبئية كانوا متفقين على وقت الخروج ، وعلى تنفيذ عملية الاغتيال وخلق الذرائع الكافية لاستباحة ذلك ، لكنهم لم يكونوا متفقين على شخص البديل ، وأن ابن سبأ كان معهم وكان همّه الأول اغتيال الخليفة ، ليتحقق الإرباك والفوضى وإثارة الفتنة وهذا هو هدفه،ولم يكن حريصاً على إيجاد بديل آخر .

ـ **سابعاً :** تمسكهم بالتُقية إلى آخر لحظة في مخططهم ، فمثلما موهوا في أسباب الخروج من أمصارهم كذبوا في أعذارهم لدخول المدينة ، تجنباً لاستثارة من فيها فكان شعارهم التُقية والتمويه ، حتى تمكنوا من خداع أهل المدينة كما خدعوا أهل أمصارهم ، وهذا ما يؤكّد وحدة التخطيط ومرجعية التنظيم الذي كان يتم كله بإشراف وإقرار من الماكر ابن سبأ .

ـ **ثامناً :** أن المكر السيّء لا يحيق إلا بأهله ، إذ أن الله تعالى قد اجتبى إليه عثمان شهيداً نقياً طاهراً ، بينما قاسى هؤلاء المجرمون ألواناً من الذل ، فما مات أحد منهم إلا قتيلاً ذليلاً مهاناً مداناً بدماء الخليفة الزكية إلى يوم الدين .

موقف الصحابة من دخول الخوارج السبئية إلى المدينة

إنّ من أهم ما يمكن التنبيه عليه في ما كان يستخدمه أعـداء الصحابـة مـن وسائل الهدم أمرين ، **الأول منهما** : الباطنية والتُقية ، وقد استخدموا هـذا المبـدأ الفاسد في مسيرهم إلى الخليفة ﷺ ، وكان المحرك الأساسي لهم هم خوارج مصر لمقام ابن السوداء فيهم « وقد كان أهل مصر كاتبوا أشياعهم من أهل الكوفة وأهـل البصرة وجميع من أجابهم أن يثوروا خلاف أمرائهم واتعدوا يوماً حيـث شـخص أمراؤهم فلم يستقم ذلك لأحد منهم ، ولم ينهض إلا أهل الكوفة »[١] وقد سبق الكـلام عن ذلك وأن عودة الأمراء إلى أمصارهم حالت دون تحرك الغوغاء والسبئية .

وأن أهل مصر لما خرجوا « لم يجترئوا أن يُعلموا النـاس بخروجـهم إلـى الحرب وإنّما خرجوا كالحجاج ومعهم ابن السوداء »[٢] كما سبق التأكيد على ذلـك ولما أحاط القعقاع بن عمرو ﷺ بغوغاء الكوفة ، أقسموا أنّهم على الطاعة وأنّـهم إنّما يريدون الاستعفاء من والي الكوفة فقـط « ولـم يستـطيعوا أن يُـظهروا غير ذلك »[٣] .

وكل هذا لم يحصل منه شيء فإنّهم احتالوا وكذبوا وغدروا حتى تمكنوا مـن دخول المدينة، فلم يذهبوا للحج، وإنّما حجهم وعيدهم هو إسقاط الخلافـة الراشـدة وأضاحيهم هم الخليفة والصحابة الكرام كما قال حسان ﷺ:

وكـأن أصحاب النبي عشيّة ... بُدن تُنحّر عند باب المسجـد

أبكي أبا عمرو لحُسن بلائه ... أمسى رهيناً في بقيع الغرقد[٤]

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٣٣٢/٤ فما بعدها.

(٢) المصدر نفسـه .

(٣) المصدر نفسـه .

(٤) ابن سعد ، الطبقات ، ٤٥/٢ ، الأنصار في العصر الراشدي ، ١٥١ .

والأمر الثاني : الكذب والافتراء لتشويه سيرة الخلفاء والولاة. قال ابن السوداء لتلامذته السبئية: « ابدؤوا بالطعن على أمرائكم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم إلى هذا الأمر ، فبث دعاته وكاتب من كان استفسد من الأمصار وكاتبوه ، ودعوا في السرّ إلى ما عليه رأيهم ... وهم يريدون غير ما يظهرون ويسرّون غير ما يُبدون »[1] وهذا ما ذُكر أثناء خروج السبئية من أمصارهم ، وكُرر هنا ليتأكّد الحرص الشديد من السبئية على التُقية ، لكي لا يصطدموا مع الصحابة ﵃ ، فلما تتبع الخليفة الأمر وأرسل رسله إلى الأمصار يتحققون من ذلك رجعوا إليه فقالوا: « أيّها الناس ما أنكرنا شيئاً ، ولا أنكره أعلام المسلمين ولا عوامهم »[2] وبهذا التمويه والسرية تمكنوا من تجنّب المحاسبة أو العقوبة من أمرائهم وتمكنوا من استثارة كثير من الغوغاء الذين لا يسألون أخاهم عما قال برهاناً . وأيضاً لم يستثيروا أهل المدينة إذ أنّهم قرروا أن يُرسلوا إليها مندوبين عنهم ، يحاورون الخليفة في أمور لا حقيقة لها ، ولكن « لتطير في الناس ولتُحقق عليه »[3].

وكان الخليفة قد علم ما يُخططون له ، من رجلين شهدا تدبيرهم ومكرهم[4] « فأرسل إلى الكوفيين والبصريين ونادى: الصلاة جامعة! وهم عنده في أصل المنبر فأقبل الرجلان ، فقالوا جميعاً: أُقتلهم ، فإن رسول الله ﷺ قال: « من دعا إلى نفسه أو إلى أحد وعلى الناس إمام فعليه لعنة الله فاقتلوه » وقال عمر بن الخطاب ﵁: لا أُحل لكم إلا ما قتلتموه وأنا شريككم ، فقال عثمان: بل نعفو ونقبل ونبصّرهم بجهدنا ، ولا نحادّ أحداً حتى يركب أحداً ، أو يُبدي كفراً . إنّ

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٣٤٦/٤ . الذهبي ، الخلفاء الراشدون، ٤٣٦.

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) المصدر السابق ، ٣٤٨/٤ .

هؤلاء ذكروا أموراً قد علموا منها مثل الـــذي علمتــم ، إلا أنّـــهم زعمـــوا أنّـــهم يُذاكرونيها ليوجبوها عليّ عند من لا يعلم »[1]. وردّ الخليفة على كل ما يذاع عليــه وهم حضور ، والمهاجرون والأنصار يؤكّدون ما يقوله ، حتى إذا لم يُعد عند القوم ما يسألونه عنه وأرادا الانصراف « أبى المسلمون إلا قتلهم وأبى عثمان إلا تركــهم فذهبوا ورجعوا إلى بلادهم على أن يغزوه مع الحجاج كالحجاج فتكـــاتبوا وقـــالوا: موعدكم ضواحي المدينة في شوال »[2] من سنة خمس وثلاثين للهجرة ، فلما قدموا في الموعدِ المتفق عليه سراً بين السبئية ، وأخذوا منازلهم ، جرت مفاوضات بينهم وبين أهل المدينة ، قال جابر بن عبد الله الأنصاري: بعثنا عثمان خمسين راكباً من الأنصار أميرنا محمد بن مسلمة الأنصاري ، فكلم أهل مصر ، فإذا رجل في عُنقــه مصحف متقلداً سيفاً . فقال: إنّ هذا يأمرنا أن نضرب بهذا على ما في هذا فقال لــه محمد بن مسلمة ﷺ: اجلس فنحن ضربنا بهذا على ما في هذا قبل أن تولد ! فلــم يزل يكلّمهم حتى رجعوا. قال جابر: فسمعت رجلاً يقول: أما والله ليوشك أن يرجع قال جابر: فزعموا أنّهم وجدوا كتاباً[3] إلى ابن أبي سرح كان هـــو السـبب فـي رجوعهم[4]، وهذا ما سيناقش في موضعه من البحث – وقال محمد بن مسلمة: مـــا برحنا ذي خُشُب حتى رحل المصريون راجعين إلى مصر، وجعلوا يسلّمون عليّ ، فما أنسى قول عبد الرحمن بن عُديس: أتوصينا يا أبا عبد الرحمن بحاجة . قـــال: قلت: تتقي الله وحده وترد مَنْ قَبِل لك عن إمامه[5]، ثم لم ينشبوا أن رجعوا وادّعوا أموراً أقسم عثمان أنّه لم يفعلها[6] .

---

(٢) الطبري ، تاريخ ، ٣٤٨/٤.

(٣) الطبري ، تاريخ ، ٣٥٦/٤.

(٤) المصدر نفســه ، ٣٥١/٤.

(٥) المصدر نفســه ، ٣٦٠/٤.

(٦) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ٣٧/٦ ، الطبري ، تاريخ ، ٣٧٤/٤ .

ومن هذه النصوص يتضح أن الصحابة ﷺ لم يدّخروا وسعاً في العمل على إطفاء الفتنة التي يوقد نارها السبئيون مستخدمين في ذلك وسائل التمويه والتقية للوصول إلى هدفهم الذي صرحوا به في قولهم: « فنحيط به فنخلعه فإن أبى قتلناه»[١]. لذلك فهم كلما أحسوا بضغط أهل المدينة أو باقتراب اكتشاف أمرهم يتظاهرون بالعودة والإقلاع عما هم فيه من الفتنة ، حتى إذا انصرف عنهم الصحابة كرّوا راجعين ، ولما علم الخليفة برجوعهم إليه مرة أخرى مجتمعين[٢] أرسل إليهم محمد بن مسلمة ثانية فلم يرجعوا[٣] وأمام إصرارهم هذا على تنفيذ أهدافهم السريّة، التي لا يعلمها سواهم ، لم ينجح ابن مسلمة في إعادتهم هذه المرة.

فأرسل إليهم الخليفة جابر بن عبد الله الأنصاري ، قال: « فلقيت القوم سحراً بذي خُشُب ... فقلت: ما جاء بكم أيّها القوم ، فانبرى لي منهم فتى أمرد فاستخرج المصحف ثم سلّ السيف فقال: جئنا نضرب بهذا على ما في هذا ، فقلت: نحن ضربنا به على ما فيه قبل أن تولد ، بيننا وبينكم كتاب الله »[٤]، فحاور جابر في كل ما يدعونه حتى اصطلحوا .

فمن هذه الشواهد تتضح إسهامات الصحابة في التصدي للخوارج السبئية والعمل على إقناعهم في العودة إلى بلادهم وإقامة الحجة عليهم ، والذي يبدو أن في هؤلاء الخوارج من يرغب بالعودة إلى بلاده مما يوضح أن هناك من غُرر به للخروج دون أن يعلم بالنوايا الحقيقية للسبئية ، كما أن الصحابة كانوا يتعاملون معهم على أنّهم قدموا للمطالبة بحقوقهم وعرض قضاياهم ، وهذا ما يوضح الدور الخطير لفكرة التُقية التي نشرها ابن سبأ بين أعداء الصحابة مقتبساً لها من موروثه

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٣٤٦/٤ .

(٢) البلاذري ، أنساب الاشراف ، ١٨٣/٦ ، الطبري ، ٣٥١/٤ .

(٣) المصدر نفسه ، وينظر البزار ، المسند ، ٤٤/١ .

(٤) ابن شبه ، تاريخ المدنية ، ٢٠١/٢ ، ابن سعد ، الطبقات ، ٣٦/٢. الذهبي، الخلفاء الراشدون ، ٤٤١.

عن اليهودية ، فكان أثرها مزدوجاً على المسلمين ، إذ ساهمت في تحرّج الصحابة عن قتالهم وطردهم من المدينة ، لأنهم كانوا يعتقدون أنّهم مسلمون جاؤوا متظلمين فلهم الحق أن يعرضوا قضاياهم على الخليفة سواء كانوا كاذبين أم صادقين .

والأمر الآخر تمكنهم من التغرير بكثير من الأعراب الذين لا علم لهم . قال تعالى: ﴿ الأعراب أشدّ كفراً ونفاقاً وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم ﴾[1]. وبعض العبيد ونزاع القبائل المطرودين من قبائلهم ويبحثون عن أي فرصة تساهم في نشر الفوضى ، وهذا ما كان يبحث عنه السبئيون ، الجهل والاستعداد للعمل على نشر الفتنة .

وقد تبيّن من خلال تصوّر الصحابة ﷺ للفتنة ، أنه ستكون فتنة وأن عثمان سيكون مظلوماً فيها **وأن من أعلمهم في هذه المسائل حذيفة بن اليمان** ﷺ فلما ساروا من مصر ، قال جندب الخير ، أتينا حذيفة فقلت: « إنّ هؤلاء قد ساروا إلى هذا الرجل فما تقول ؟ قال: يقتلونه والله ، قلنا: أين هو ؟ قال: في الجنّة والله، قال: قلنا فأين قتلته؟ قال: في النار والله »[2]، وكان حذيفة ﷺ يحدث أيام كان السبئيون ينشرون الإشاعات التي تُحرض على الخليفة وولاته فيقول: « لا يمشين رجل شبراً إلى ذي سلطان ليذله ، فلا والله لا يزال قوم أذلوا السلطان أذلاء إلى يوم القيامة»[3]، فهذا التصوّر كان يشترك فيه كثير من أعلام الصحابة ولم تكن السبئية تجهل ذلك ، لهذا عندما أرادوا دخول المدينة ، أرسلوا من يرتاد لهم الأخبار ، على الرغم من أنّهم كانوا يدينون في ذلك المسير بالتُقية والباطنية التي استقوها من موجههم ابن السوداء وهذا ما يؤكّده قولهم: « فوالله إن كان أهل المدينة قد خافونا

---

(١) سورة التوبة ، الآية (٩٧) .

(٢) ابن أبي شيبة ، المصنف ، ٦٨٢/٨ .

(٣) ابن أبي شيبة ، المصنف ، ٦٤٥/٨ .

واستحلوا قتالنا ، ولم يعلموا علمنا ، فهم إذا علموا علمنا أشد »[١]، فهم قدموا لقتل الخليفة لكن هذا هدف لا يجوز إعلانه لما يترتب عليه من المخاطر بانكشاف تآمرهم ومخالفة عقيدتهم في التقية والباطنية ، وإنّما قالوا: « إنّما نأتمّ هذا البيت ونستعفي هذا الوالي من بعض عمالنا ما جئنا إلا لذلك »[٢]، واستأذنوا لدخول المدينة تحت هذا الشعار ، فبدؤوا بالاستئذان من أمهات المؤمنين زوجات رسول الله ﷺ ، ثم جاؤوا إلى علي وإلى طلحة وإلى الزبير ﷺ ، « فكلهم أبى ونهى وقال: بيض ما يفرخنّ » كناية عن الفتنة . فعندما علموا بموقف أهل المدينة هذا وأنّهم لا طاقة لهم بمواجهته علناً ، عادوا إلى باطنيتهم ومكرهم ، فأرسلوا إلى كلٍ من علي وطلحة والزبير ﷺ وفداً ، يتظاهر بأنّه يرغب أن يكون هو مشيرهم وأنّ أهل مصرهم مُجمعون عليه ، يبتغون بذلك استمالتهم ونشر الشك والفتنة فيما بينهم قال تعالى واصفاً حال المنافقين: ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنّا معكم إنّما نحن مستهزئون ﴾[٣]، فأتى وفد من المصريين إلى علي: « وهو في عسكر عند أحجار الزيت ، وعليه حلة أفوان – رقيقة بيضاء – مُعتم بشقيقة حمراء يمانية ، متقلداً السيف ليس عليه قميص ، وقد سرح الحسن إلى عثمان فيمن اجتمع إليه ، فالحسن جالس عند عثمان ، وعلي عند أحجار الزيت فسلم عليه المصريون وعرّضوا له ، فصاح بهم وطردهم ، وقال: لقد علم الصالحون أن جيش ذي المروة وذي خُشُب ملعونون على لسان محمد ﷺ . فارجعوا لا صحبكم الله! قالوا: نعم فانصرفوا من عنده على ذلك »[٤] .

وأتى البصريون طلحة وهو في جماعة أخرى إلى جنب علي ، وقد أرسل

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٣٤٩/٤ ، فما بعدها .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) سورة البقرة ، الآية (١٤) .

(٤) الطبري ، تاريخ ، ٣٥١/٤ ، وينظر: الخليفة ، الأنصار في العصر الراشدي ، ١٤٥.

ابنيه إلى عثمان ، فسلّموا عليه وعرضوا له ، فكان موقفه كموقف علي فصاح بهم وطردهم . وقال: لقد علم المؤمنون أن جيش ذي المروة وذي خُشُب والأعوص ملعونون على لسان محمد ﷺ . وكذلك كان موقف الزبير مع أهل البصرة وصاح بهم وطردهم . وقال: « لقد علم المسلمون أن جيش ذي المروة وذي خُشُب والأعوص ملعونون على لسان محمد ﷺ »[1] .

ولمّا دخلوا مسجد رسول الله ﷺ فيما بعد خطبهم عثمان رضي الله عنه وقال: « فوالله إنّ أهل المدينة ليعلمون أنّكم ملعونون على لسان محمد ﷺ »[2]. وهذا ما يؤكّد التصوّر الواحد عند الصحابة لما تقوم به السبئية ، فعلوم أعلام المسلمين واحدة وثقافتهم واحدة ، ولقد كانوا أمة واحدة من دون الناس ، ولما عجزت السبئية ، ومن ورائها الغوغاء عن إيجاد أية ثغرة يدخلون فيها ، فيما بين الصحابة رضي الله عنهم ، عادوا إلى الباطنية والتُقية والمكر. « فخرج القوم وأروهم أنّهم يرجعون ، فانفشوا عن ذي خُشُب والأعوص حتى انتهوا إلى عساكرهم وهي ثلاث مراحل ، كي يفترق أهل المدينة ، ثم يكرّوا راجعين ، فافترق أهل المدينة لخروجهم ، فلما بلغ القوم عساكرهم كرّوبهم ، فبغتوهم فلم يفجأ أهل المدينة إلا والتكبير في نواحي المدينة نزلوا في مواضع عساكرهم ، وأحاطوا بعثمان . وقالوا: من كف يده فهو آمن، فكف الناس ولزموا بيوتهم ، وتفرق أهل المدينة في بساتينهم »[3]

مما يوضح الدور السيء لاستخدام الخوارج السبئية عقيدة التقية ، إذ تمكنوا تحت ظلالها من تجنب الاصطدام مع أهل المدينة وتشتيت موقفهم حتى هيمنوا على

---

(١) المصدر السابق ، وينظر: الغيث ، استشهاد عثمان ، ٩٨ ، وينظر: الخليفة ، الأنصار في العصر الراشدي ، ١٤٣.

(٢) الطبري ، تاريخ ، ٣٥٠/٤ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٨٥/٧.

(٣) الطبري ، تاريخ ، ٣٥٣/٤ .

أهلها، ولم يعودوا بحاجة لإذن أمهات المؤمنين رضي الله عنهنّ ولا لإذن علي وطلحة والزبير ﷺ ، ومع ذلك لم يباشروا في تنفيذ جريمتهم وإنّما عملوا على نشر الشائعات ، عن أهدافهم وأنّ لديهم مظالم يطالبون الخليفة في تحقيقها ، بينما هم يتحينون الفرصة المناسبة لتنفيذ مخططهم ، الذي لا يمكن لهم النجاة من تبعاته في تصوّرهم ، إلا بعد خلط الأوراق وإشغال الناس بالأباطيل ، فبين مصدّق ومكذّب ومؤيد ومعارض وساكت ومتكلم ومعتزل ومشارك ، يتمكنون من فعل فعلتهم ، فكان من أكثر الأمور المساعدة لهم على ذلك ، هو ما صنعوه من كتب زوّروها على لسان أمير المؤمنين عثمان ﷺ ، وبعض الذرائع الأخرى التي لا زال أتباعهم يعملون على نشرها ، وإلصاقها بالصحابة الكرام على الرغم من بيان كذبها، مما يُظهر عمق الصلة بين أعداء الصحابة في الماضي والحاضر ، ويوضح وحدة الهدف بينهم . ويؤكّد اليد اليهودية في التخطيط والتدبير المتقن الذي رافق كل الآثار المتعلقة بهذه الجريمة ، والتي يفتقر العرب والمسلمون لأكثرها ، لمنافاتها لطباعهم ولانعدام العمل بها في بلادهم قبل تظاهر هذا اليهودي بالإسلام .

ما تذرعت به السبئية لحصار الخليفة عثمان رضي الله عنه
والشبهات التي أثاروها لتحقيق ذلك

تبين أن الخليفة عثمان رضي الله عنه يمتلك رؤية واضحة لكل ما يحيط به وأنّه أعـرف بالسبئية وغوغائها من أنفسهم ، فكانوا لا يوقدون فتنة إلا ويُطفئها ، ولا يرفعـون راية إلا ويُسقطها ، ولا يختلقون ذريعة مبنية على الزور والبـهتان إلا ويمحقـها بالصدق وقوة الإيمان، وكلما حاولوا حرفه عن الجادة بالاستفزاز والإيذاء والحصار والحرمان، كلما ازداد تمسكاً بدينه وزهده وإيثاره وشفقته على أهل الإيمان.

وأنه لا يوجد باب من أبواب البحث الموضوعي العلمي النزيه ، يسوغ الحديث عن شيء مما افترته الخوارج السبئية للتذرع به عند المباشرة في تنفيذ مخططاتـها العدوانية الظالمة ضد الخلافة الراشدة .

ومن هنا فإنّ كل من يُردّد الأباطيل التي لفقها أولئك ، على الخليفة الراشـدي معتقداً صحتها ، فهو فاقد للإنصاف والموضوعية مُتهم في أهدافه من وراء التنطـع بها ، بأنه ممن يعمل على إشاعة الفاحشة بين المؤمنين. قال تعـالى: ﴿إنّ الذيـن يُحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلـمُ وأنتم لا تعلمون ﴾[١] .

أو أنه مغفل غارق في الجهل عندما يستجر للمقارنة بين أمانة الخليفة الراشدي جامع القرآن ، وصاحب النبي صلى الله عليه وسلم وصهره على ابنتيه، تلك المنقبة الكبرى التي لم تحصل لأحد من بني آدم غير عثمان رضي الله عنه ، فالعمل على ترويج هذه الأساطير التي لا تصلح أن تكون ذريعة للاتهام ، لانتفاء الحقيقة وانعدامها فـي أكثرهـا ، ولأن الحق والصواب مع الخليفة فيما بقي منها ، الذي من حقه أن يؤدب بما يرى فيـه

---

(١) سورة النور ، الآية (١٩) .

المصلحة لرعيته ، ومن حقه أن يكافئ الفـــاتحين ويجـــزي العـــاملين الصـــادقين ويعزل من يرى بعزله صلاحا للمسلمين ، ويثبت من يرى بإثباته مصلحة لهم، وإلا لماذا ولي الأمر واختير خليفة ؟ وإن أعداء الصحابة يكفيهم ممـــا يروجـــون مـــن الشبهات ، أن يدون ذلك وينشر ، فيتعلق في أذهان الجهلة والمغرضين ما يشـــوش أفكارهم ، ويفسد اعتقادهم في الصحابة كما أن اجترار مثل هذه الأقاويل فيـــه رد لصريح القرآن الذي يثني على الصحابة ﭫ ، ولصحيح السنة التي تدعو للإقتـــداء بهم واتباعهم ، وكذلك اتهام لأمانة الصحابة ونصحهم ومشورتهم وتصديق لســـبئية مصر وأعراب الكوفة والبصرة ولصوصهما !! .

أترى أصحاب النبي الكرام وقادتهم وصالح المؤمنين فيها ، يصمتـــون عـــن الأخطاء ولا يؤدون حق النصح للأمة ؟ ويقوم بذلك الغوغاء والأعـــراب ونـــزاع القبائل من السفهاء والجهلة ؟ فضلاً عن أن ما أجلبوا به وأذاعوه من الافـــتراءات على افتراض أن فيه شيئا من الصحة وهذا افتراض باطل ، ليس من حقهم الحديث فيه ، لأنهم كانوا من أراذل الناس وأجهلهم وأظلمهم ، وأن ما فعلوه بالخليفـــة ﭬ وعادت نتائجه على الأمة الإسلامية بالمصائب وسفك الدماء يثبت أن ليـــس لـــهم سابقة في خير ، فمن الذي أوكل إليهم القيام للمطالبة بحقه ؟ وترك حملة الوحـــي وقادة الفاتحين وأئمة العلم والدين ، من أهل الدراية والتجربة والخبرة والغيرة على الرسالة ومن آمن بـــها .

فلم يكن من بينهم من أوكل إليه الحديث عن شـــيء مـــن أمـــور الأمـــة ولا الأمصار ولا الأفراد ، وليس من بينهم من طلب طلبا مشروعا إلا ولبي له ، ومـــن ذلك طلبوا عزل القائد الفذ والفاتح الكبير عمرو بن العاص ﭬ ، مـــن اســـتعمله رسول الله ﷺ، ومن بعده أبو بكرَ ثم عمر رضي الله عنهما فعزله ، وطلبوا مكانـــه عبد الله بن سعد بن أبي سرح فولاه عليهم. هذا في مصر ، أما في الكوفة فقد طلبوا

عزل سعيد بن العاص عنها فعزله ، وطلبوا تولية أبي موسى الأشعري فولاه ، ثم أخذوا يعيبونه ويتهمونه بالضعف والغباء وما إلى ذلك مما اعتادته ألسنتهم من الشتائم والتهم لأصحاب رسول الله ﷺ . أما ما اختلقوا من ذرائع أخرى فعامتها مكذوبة مفتراة على أصحاب رسول الله ﷺ ، أشيعت بين عوام الجهلة وسفلة الناس لتحملهم وزر التحدث بها لكي تتسع دائرة الغوغاء فتندس السبئية حينها، للوصول إلى غاياتها في العمل على هدم الخلافة وإفساد الإيمان في نفوس الناس. ومن ذلك **اختلاقهم قضية الخلاف بين أبي ذر** رضي الله عنه **وبين الخليفة** ، وأن الخليفة أبعده إلى الربذة منفيا !! .

والحقيقة أن أبا ذر هو الذي اختار السكنى هناك فلما دخل على الخليفة قادما من الشام قال له عثمان: ما لأهل الشام يشكون ذربك! – حدة لسانك – فأخبره أنه لا ينبغي أن يقال: مال الله، ولا ينبغي للأغنياء أن يقتنوا مالا. فقال: يا أبا ذر، علي أن أقضي ما علي وآخذ ما على الرعية ، ولا أجبرهم على الزهد ، وأن أدعوهم إلى الاجتهاد والإقتصاد .

قال فتأذن لي في الخروج فإن المدينة ليست لي بدار ؟ فقال: أو تستبدل بها إلا شرا منها؟ قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أخرج منها إذا بلغ البناء سلعا ، قال: فانفذ لما أمرك به: قال: فخرج حتى نزل الربذة فخط بها مسجدا وأقطعه عثمان صرمة – قطعة ما بين العشرين والخمسين – من الإبل وأعطاه مملوكين وأرسل إليه: أن تعاهد المدينة حتى لا ترتد أعرابيا ، ففعل .

وقد جاءه بعض السبئية هناك وحاولوه وراودوه على الفتنة فلم يجدوا عنده أية إجابة ، بل علمهم دروسا في الطاعة وعمق الأخوة التي كانت تربط بين الصحابة رضي الله عنهم، فعندما نزل الربذة « أتاه نفر من أهل العراق فقالوا: يا أبا ذر فعل بك هذا الرجل وفعل ، فهل أنت ناصب لك راية ، فقال: لا تذلوا السلطان فإنه من أذل

السلطان فلا توبة له ، والله لو أن عثمان صلبني على أطول خشبة لسمعت وصبرت ورأيت أن ذلك خير لي »[١]. وكان أبو ذر يقول: « لو أمرني عثمان أن أمشي على رأسي لمشيت »[٢]، وقال أبو ذر لعثمان رضي الله عنهما: « والله لو أمرتني أن أحبو لحبوت ما استطعت » [٣].

وكان يقول: « لو أمر علي عبد حبشي لسمعت ولأطعت »[٤]. وقال أبو ذر: « يا رسول الله أفلا أقاتل من يحول بيني وبين أمرك ؟ قال: لا ، قال: فما تأمرني ؟ قال: اسمع وأطع ولو لعبد حبشي »[٥]. ولما رجع أبو ذر من الشام إلى المدينة قال له عثمان رضي الله عنه: « كن عندي تغدو عليك وتروح اللقاح ، قال: لا حاجة لي في دنياكم ، ثم قال: إئذن لي حتى أخرج إلى الربذة ، فأذن له فخرج إلى الربذة وقد أقيمت الصلاة وعليها عبد لعثمان حبشي فتأخر، فقال أبو ذر: تقدم فصل فقد أمرت أن أسمع وأطيع ولو لعبد حبشي فأنت عبد حبشي » [٦]. وقال لنفر من أهل الكوفة دعوه إلى الفتنة: « لو سيرني من الأفق إلى الأفق ، أو قال ما بين المشرق والمغرب لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت ورئيت أن ذاك خير لي »[٧]. ولو ردوني إلىمنزلي لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت ورئيت أن ذاك خيرلي وقالت أم ذر: « **والله ما سير عثمان أبا ذر – تعني إلى الربذة ولكن النبي ﷺ قال له:** « **إذا بلغ البنيان سلعا فاخرج منها** »[٨]. فهل بعد كل هذه البينات يبقى هناك مسوغ لمن

---

(١) ابن سعد: الطبقات ، ٤/٤٣٣ ، الذهبي ، تاريخ الإسلام ، ٤١٢ .

(٢) المصدر نفسه ، وينظر: ابن تيمية ، منهاج السنة ، ٦/٢٧٢.

(٣) المصدر نفسه ، ابن شبه ، تاريخ المدنية ، ٢/١٤٦.

(٤) المصدر نفسه ، ابن شبه ، تاريخ المدنية ، ٢/١٤٦.

(٥) ابن سعد ، الطبقات ، ٤٣٣ .

(٦) المصدر نفسه.

(٧) المصدر نفسه.

(٨) الذهبي ، تاريخ الإسلام ، الخلفاء الراشدون ، ٤١٢ .

لا زال يجتر هذه المسألة ويصورها على أنها خلاف بين أبي ذر والخليفة الشهيد عثمان رضي الله عنه.

وقول الغوغاء للخليفة رضي الله عنه: « **أرأيت ما حميت من الحمى** ؟ آلله أذن لك أم على الله تفتري »[1]. فإن كان مثل هذه النصوص صحيح فهل هو دليل على صبر الخليفة وحلمه ؟ أم دليل على همجية الغوغاء وجهلهم وسفاهتهم ؟ من من المسلمين لم يكن يعلم آنذاك أن الفاروق رضي الله عنه هو الذي حمى الحمى لإبل الصدقة ، أهم الغوغاء أم المؤرخون الذين حشوا كتبهم بأساطير الأفاكين من السبئية والمجوس ليجعلوا من تاريخ العصر الراشدي عصر الفتح والفخر والهدى ، عصر فتن وغدر وظلم، والحقيقة المرة فيما أصيب به التاريخ الإسلامي من تحريف وتزوير وتشكيك وانتقاص ، لم يكن مصدره أعداء الصحابة وحدهم ، وإنما أسهم فيه المؤرخون الذين حشوا كتبهم بمفتريات أولئك وصاغوها إن لم تكن زيدت بصياغات على أنها وجهات نظر توهم بأن لها شيئا من الحقيقة ، فأصبحت مرتعا خصبا لأعداء الإسلام والمسلمين ، ومستنقعا منتنا يغترف منه أعداء الصحابة ويستقون ويقدمون ذلك وجبات فكرية شهية لعقول خاوية من العقيدة ، على أن ما سطر في كتب التاريخ من طعن في الصحابة وتشكيك في حسن قيادتهم وعميق أمانتهم وقوة تمسكهم بالحق والعدل والإنصاف ، ما هو إلا روايات قالها بعض أهل السنة المحبين للصحابة ، ومن هذه المداخلات والشبهات والافتراءات ؛ أصبح البون شاسعا بين تمسك الصحابة بعقيدتهم وهويتهم ، وبين ما كتب عنهم في كتب التاريخ وبين ما هي عليه أحوال المسلمين في هذا العصر من الشتات والتناحر والتبعية ، التي جاءت من خواء العقيدة الصحيحة في النفوس والشوائب والغرائب المريبة التي أدخلت فيها إلا من رحم الله تعالى ، فأصبح من

---

(١) ابن خياط ، تاريخ ، ١٦٩ ، الذهبي ، الخلفاء الراشدون ، ٤٣٧ .

الطبيعي اتهام صحابي في أمانته أو علمه أو حتى في عقيدته ، والإصغاء لأفاك لص مفتر مجوسي أو يهودي ، أو لبعض أتباعهم، ثم يقال هذه من متطلبات البحث العلمي إنها وجهة نظر وما إلى ذلك ، وإن ذلك مسطر في تاريخ الطبري أو غيره ممن استقى منه وروى عنه ، وهنا يرد التساؤل الذي لا بد من طرحه للباحثين وهو هل كل ما في تاريخ الطبري كتبه بيده؟ أم أضيف إليه؟ وما هي هذه النزعات التي تزكم الأنوف في كثير من رواياته التي تنال من أصحاب رسول الله ﷺ وأين إجماع أهل السنة على عدالة الصحابة في روايات ذلك الكتاب فهل أهل العدالة والدين من تلامذة محمد ﷺ وأصحابه يكذبون ويتآمرون ويجبنون ويسرقون ؟ حاشاهم من ذلك ؟ أم أن الذي يجعل من أبي لؤلؤة المجوسي مقوما للفاروق رضي الله عنه ، ومن ابن سبأ اليهودي مصححا لذي النورين رضي الله عنه ، ومن ابن ملجم مخلصا للمسلمين من أبي الحسنين رضي الله عنه ؟ إن كل ذلك موجود في تاريخنا الإسلامي وفيه أن السبئية المحتالة الماكرة ، التي موهت على ولاتها وأهل أمصارها أنهم ذاهبون لأداء فريضة الحج ، فاغتالوا أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه ولم يذهبوا إلى الحج ، أنهم وفود أمصارهم ! فأي تزوير هذا وأي كذب على الحقيقة عندما يصبح أولئك الأفاكون المحتالون وفودا للمسلمين ، وعندما تصبح السبئية والمجوسية خصما لعثمان وتزعم أنها خرجت لترد ظلمه عن المسلمين !! .

لقد كان عثمان رضي الله عنه بصبره وحلمه وثباته ، عملاقا ورمزا في الثبات على المبدأ والتمسك بالعقيدة ، إن المتمعن في ما مكرت به السبئية أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه وقوة الدعاية التي أثاروها عليه ، وتنوع وسائل الإحتيال والخداع والغدر والغش التي تلبسوا بها ، وفي تعامله مع تلك المواقف بمنتهى الإنصاف والهدوء والبراءة ، ليعلم أن الخليفة كان في عالم من الإيمان واليقين يجعله لا ينظر إلا لما يصدر منه ، وهل هو على منهج أصحابه الذين سبقوه ؟ . أما العالم الذي تعيشه

الغوغاء من الإنحطاط وانعدام الأخلاق والقيم ، فهو عالم لا يعني أمير المؤمنين شيء ، وكل الذي يتمناه لهم هو أن يكونوا صادقين وأن يقصدوا في أعمالهم ما يرضي الله تعالى وأنى لهم ذلك ، وهم غارقون في طغيانهم موغلون في نفاقهم ولم يكن ذلك خافيا على الخليفة ، فهو على علم بما يمكرون به وأنه بالقدر الذي يحرص فيه هو وبقية الصحابة على السلامة والعافية ، فإنهم يعملون على التحريض على الفتن وجلب البلاء على الأمة والتحدث بالزور وبما لا علم لهم به.

قال الخليفة عثمان رضي الله عنه: « والله قد صحبنا رسول الله ﷺ في السفر والحضر وكان يعود مرضانا ويشيع جنائزنا ويغزو معنا ويواسينا بالقليل والكثير ، وإن ناسا يعلموني به عسى أن لا يكون أحدهم رآه قط »[1].

فهؤلاء الغوغاء عندما يزعمون أنهم يعلمون عثمان رضي الله عنه برسول الله ﷺ أشبه بالمؤرخين الذين يجمعون أقاويلهم ويدونونها في مؤلفاتهم .

فتارة يزعمون أن عثمان **أتم صلاته في موضع القصر ! وكأن القصر في السفر فريضة وليس سنة ، يجوز فيها الاجتهاد ولا سيما للخليفة عثمان** رضي الله عنه وتارة يتهمونه في أمانته على أموال المسلمين ! **وهو الذي كانت أمواله مبذولة للمسلمين** وبين يدي رسول الله ﷺ ، عندما كان المسلمون لا يجدون لقمة الخبز، قال عثمان: « **ولقد كنت أ عطي العطية الكبيرة الرغيبة من صلب مالي ، أزمان رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وأنا يومئذ شحيح حريص ، أفحين أتيت على أسنان أهل بيتي وفني عمري وودعت الذي لي في أهلي ، قال الملحدون ما قالوا !!** »[2].

وتارة يكتبون الكتب على لسانه ويزورون خاتمه[3]، ويتهمونه بأنه هو الذي كتب

---

(١) الساعاتي ، الفتح الرباني ، ٢٣/ ١٠٣ ، ٢٣/٢٣٠.

(٢) ابن خياط ، تاريخ ، ١٦٩، الطبري ، تاريخ ٣٥٠/٤ ، المحب الطبري ، الرياض النضرة ، ٦٠/٢.

(٣) الطبري ، تاريخ ، ٣٤٧/٤.

وكأنه ممن يؤمن بالتقية أو يدين بالباطنية ذات الوجهين حاشاه من ذلك ، ثم يقسم على أنه لم يكتب فلا يصدق قسم أمير المؤمنين ﷺ ويصبح بهتان السبئية جزءا من الحقيقة التاريخية ، يدون وينشر ليشوه أنصع وأنقى صفحة في التاريخ الإسلامي ، سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم .

ومع أن الحقيقة ظاهرة في أن السبئية هي التي زورت الكتاب على أمير المؤمنين وذلك من خلال قرائن كثيرة منها: أن أمير المؤمنين قال لهم: « أما الجمل فمسروق وقد يشبه الخط الخط وأما الخاتم فانتقش عليه ». وأقسم أنه لم يكتب وهو الصادق المؤتمن ، وقال لهم : « إنهما اثنتان: أن تقيموا رجلين من المسلمين ـــ أي شهود ـــ أو يمين بالله الذي لا إله إلا هو ما كتبت ولا أمللت ولا علمت ، وقد يكتب الكتاب على لسان الرجل وينقش الخاتم على الخاتم ، قالوا قد أحل الله دمك »[(١)] .

وهذا هو مقصدهم الأول والأخير أن يجدوا ذريعة يتوصلوا من خلالها إلى اغتيال أمير المؤمنين ﷺ وهذا ما كان يدركه ، فلم يستطيعوا أن يتوصلون إلى ذريعة: « وطلبوا العلل فلم تطلع لهم علة »[(٢)]. وقال الخليفة: « لأدعن هؤلاء وما وراء بابي غير معطيهم شيئا يتخذونه عليكم دخلا في دين الله »[(٣)] .

ومما يؤكد أنهم هم الذين صنعوا ذلك الكتاب دون علم عامتهم ، أن العرب لم تكن تعرف الباطنية والإحتيال والتزوير بهذه الطريقة وذلك قبل الإسلام ، وفي الإسلام فإن صدقهم ودينهم يمنعانهم من اتباع مثل هذه الأساليب ، وبالتالي لا يجيد هذه الأساليب سوى اليهود ، وهذا ما قام به ابن سبأ الذي هو الموجه الحقيقي للغوغاء ، ومما يؤكد هذا تعرض ذلك الراكب لهم في طريقهم « فبينما هم بالطريق

---

(١) ابن خياط ، تاريخ ، ١٦٩ ، ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ٤/٢٧٥.

(٢) الطبري ، تاريخ ، ٤/٣٨٦.

(٣) المصدر نفسه ، ٤/٣٨٥.

إذا راكب يتعرض لهم ويفارقهم ، ثم يرجع إليهم ثم يفارقهم »[١]، فهل هذه مواصفات مبعوث سري ؟ .

من يتعرض لخصومه يقترب منهم ويبتعد: « **يفارقهم ثم يرجع إليهم ويسبهم**»[٢]. أم أنه مبعوث يحمل كتابا مصنوعا من الذين لا يريدون الإصلاح ؟ وأن من مهمته أن يتعرض للناس وأن يستثيرهم حتى يسألوه وإن لم يفعلوا فإنه يسبهم لكي يمسكوه فيكون ذلك ذريعة للعودة لحصار الخليفة ، والذي لا بد من التأكيد عليه هنا مرة أخرى هو أن الكتابة المزورة استخدمت على نطاق واسع من قبل السبئية ، مما كان له أبلغ الأثر في ترويج الأباطيل وقبولها عند الغوغاء، وذلك لما يوهم من أنها بتأييد من كبار الصحابة ، فكتبوا على لسان علي رضي الله عنه ، يتضح ذلك عندما طلبوا مساندته ، وأن يقوم معهم إلى الخليفة .

قال: لا والله لا أقوم معكم ، قالوا: « **فلم كتبت إلينا ؟ قال: والله ما كتبت إليكم كتابا قط ، قال: فنظر القوم بعضهم إلى بعض** »[٣]، فإن لم يكن كتب إليهم فمن الذي كتب إليهم أن عليا رضي الله عنه يأمرهم بالعودة سوى ابن سبأ وأعوانه ؟! .

وكتبوا على لسان أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قيل لها لما قتل عثمان رضي الله عنه: « أنت كتبت إلى الناس تأمريهم أن يخرجوا إليه ، فقالت: لا والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ، ما كتبت لهم سوداء في بيضاء حتى جلست مجلسي هذا. قال الأعمش: **فكانوا يرون أنه كتب على لسانها** ، قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح إليها ، وفي هذا وأمثاله دلالة ظاهرة على أن هؤلاء الخوارج زوروا كتبا على لسان الصحابة إلى الآفاق يحرضونهم على قتال عثمان[٤] وكتبت السبئية إلى

---

(١) ابن خياط ، تاريخ ، ١٦٩ ، ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ٢٧٥/٤.

(٢) المحب الطبري ، الرياض النضرة ، ٦١/٢.

(٣) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ٢٧٥/٤ ، الذهبي ، الخلفاء الراشدون ، ٤٤٢.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية ، ٢٠٥/٧، ابن شبه ، تاريخ المدنية ، ٢٥٤/٢ ، ٢٦٠/٢ .

الأمصـــار على لســـان الصحـــابة ﷺ يحرضـــون على عثمـــان ﷺ. قال ابـــن كثير: « وهذا كذب على الصحابة ، وإنما كتبت كتب مزورة عليهم كما كتبوا مـــن جهة علي وطلحة والزبير إلى الخوارج كتبا مزورة عليهم أنكروها ، وهكذا زوروا هذا الكتاب على عثمان ﷺ ، فإنه لم يأمر به ولم يعلم به »[1]. وعندما رجع أهـــل مصر وأهل الكوفة وأهل البصرة بعد أن قطعوا مراحل كل باتجاه بلاده قـــال لـــهم علي والصحابة ﷺ: « ما ردكم بعد ذهابكم، ورجوعكم عن رأيكم ؟ ... فقال أهـــل مصر: إنما جئنا لننصر أصحابنا ، فقال لهم الصحابة كيف علمتم بذلـــك مـــن أصحابكم ، وقد افترقتم وصار بينكم مراحل ، إنما هذا أمر اتفقتم عليـــه . فقـــالوا: ضعوه على ما أردتم لا حاجة لنا في هذا الرجل ليعتزلنا ونحن نعتزله »[٢] .

والحقيقة أن قضية **الكتابة على ألسنة الصحابة وأمهات المؤمنيـــن** ، قضيـــة خطيرة ، قام بها ابن سبأ لإيقاع الشك في النفوس ، فتمكن من زعزعة الثقـــة فـــي الصحابة وفي الخليفة فتناست الغوغاء حياء عثمان ﷺ وجهاده وصدقه ومقامـــه عند رسول الله ﷺ ، وصدقوا مفتريات أولئك الزنادقة الأجلاف ولم يقتصر الأمـــر على تلك المرحلة ، بل امتدت إلى ما بعدها فدونها الإخبـــاريون فتلقفـــها أعـــداء الصحابة واستشهدوا بها على أنها حقائق دامغة يشوهون بها أنقى وأطهر جيل سار على وجه البسيطة بعد الأنبياء، ومع الإدانة الواضحة لأولئك الأشرار الذين اختلقوا تلك الكتب وحكم الصحابة عليهم بذلك وقولهم لهم: « **إنما هذا أمر اتفقتم عليـــه** ». ومع إقرارهم بذلك وخروجهم المعلن عن الإجماع الإسلامي الذي يوجب قتلهم ، ما عذر من يتلقف أباطيلهم ويكتبها وينشرها على أنها جزء من تـــاريخ الصحابـــة ؟ ولسان حالهم يقول هؤلاء هم الصحابة، يتآمرون ويكذبون ويتنازعون من أجل الدنيا

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٨٤/٧.

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٨٤/٧.

حاشاهم من ذلك . وإنما المتآمرون على الأمة وعقيدتها هم الذين ينـالون مـن أي صحابي فينتقصون من إخلاصه وصدق انتمائه لعقيدته، لكي يكون ذلك مطعنا على من علم ذلك الصحابي ودعاه إلى الهدى والإيمان ، ومطعنا في النبوة ثم مطعنا في الكتاب ثم في الألوهية الربانية . **فما أخطر هذه الروايات وما أشد تأثيرها ، فكـم من كاتب سقط بفعل تأثيرها وكم من عالم كبا بسحر بريقها ، فتركت أسوأ الأثـر في نفسه ، فنقل ذلك الأثر إلى محيطه ومن حوله فضلا عن كتاباته ودروسه** ، وبدلا من أن يكون مصلحا لما وقع من الفساد الذي خلفته السبئية والإستشـراقية ، يتحول إلى هيكل من الخواء والفراغ ، متصدع العقيدة خاوي الإيمان ، فريسة لكـل دعوة تقذفها شائعات أو إذاعات أو أقلام حاقدة على الصحابة وانجازاتهم التـي لا مثيل لها. فيا من تقرأ تاريخ الصحابة ﷺ ، إعلم أنهم أمة رضي الله عنها ورضيت عنه لا لنسب ولا لغاية ، وإنما لما وفقوا إليه من الأعمال الصالحة ، والتمسك بأمر الله تعالى في المنشط والمكره ، وذلك الرضا من الله تعالى كاف لكل من في قلبـه ذرة من الإيمان أن يلقي بكل رواية تتهم ذلك الجيل وتطعن فيه ، وأن يكون ذلـك سببا كافيا للإعراض عنها والنظر في حال راويها الذي يتراوح بين الجهل بحـال الصحابة وبين الزندقة ، وليس ذلك لأن الصحابة معصومون من الخطأ ﷺ ، بـل هم بشر ولكنهم خير البشر بعد الأنبياء ، وأقل الناس خطأ وأنهم لا يصرون علـى الخطأ، وأن عثمان وعلي رضي الله عنهما ، وأن الصحابة من بني هاشم وبني أمية كانوا جنودا سخروا كل طاقاتهم لخدمة الإسلام والمسلمين وأن الأمة مدينـة لـهم بكثير من الفضل والجهاد والتضحيات ، وأن **عصر الخليفة عثمان كان عصر خير** وبر ومودة ورفاه على المسلمين ، قال الحسن البصري: « إني شهدت منادي عثمان ينادي يا أيها الناس اغدوا على أعطياتكم ». فيغدون ويأخذونها وافية ، يا أيها الناس اغدوا على أرزاقكم فيأخذونها وافية ، حتى والله سمعته أذناي يقول: اغـدوا علـى كسواتكم فيأخذون الحلل ، واغدوا على السمن والعسل . قال الحسـن: **أرزاق دارة**

وخير كثير ، وذات بين حسن ما على الأرض مؤمن إلا يوده وينصره ويألفه »[1] .

فماذا ينقمون على عثمان ﷺ ؟ ولم ينقم عليه أحد من الصحابة وصالح المؤمنين وإنما الذين نقموا هم أولئك الذين امتلأت قلوبهم حسدا وبغضا لمن ساروا بالأمة على مسار نبيها فأوجدوا لها مثل ذلك المجد الباذخ ، فاتبعوا كل الوسائل للنيل من ذلك المجد فكتبوا الكتب المزورة وأشاعوا الأخبار المكذوبة ، في جيل لا يعرف الكذب ولا يعتقد أن أحدا من الناس ممن يحسب على الإسلام والمسلمين يمكن أن يكذب أو ينم أو يحلف الأيمان زورا وبهتانا من أجل هوى أو مصلحة دنيوية. وما يقال في الكتب المزورة يقال في كل الشبهات المكذوبة التي أثاروها والتي هم أبعد عن حق الحديث بها ، **فقد تحدثوا عن القرآن وهم أجهل الناس به** ولو كان لديهم فهم للقرآن لعلموا حرمة أمير المؤمنين الذي هو من أتلى المسلمين للقرآن وأحفظهم له ولما قالوا: « كان القرآن كتبا فتركها إلا واحدا ». ولفقهوا قوله: « ألا وإن القرآن واحد جاء من عند واحد وإنما أنا في ذلك تابع »[2]، أي وإن تعددت نسخه فإنه كتاب واحد . ولما قالوا له إنك استعملت الشباب ، لأن كبار الصحابة في المدينة هم أدرى بهذا وهم أولى بنصح الخليفة الذي لا يقضي في أمر دون علمهم ومشورتهم وقال: قالوا: « استعملت الأحداث ولم أستعمل إلا مجتمعا مرضيا وهؤلاء أهل عملي فسلوهم ، وقد ولى من قبلي أحدث منه ، وقيل في ذلك لرسول الله ﷺ أشد مما قيل لي في استعماله أسامة »[3]. وقالوا: « **إني رددت الحكم** وقد سيره رسول الله ﷺ إلى الطائف ثم رده فرسول الله ﷺ هو سيره وهو رده

---

(١) ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ٣/ ١٠٤١ ، الآلوسي ، التحفة الاثني عشرية ، ٢٦٢ .

(٢) الذهبي ، تاريخ الإسلام ، الخلفاء الراشدون ، ٤٣٧ .

(٣) الذهبي ، تاريخ الإسلام ، الخلفاء الراشدون ، ٤٣٧ ، وينظر: المحب الطبري ، الرياض النضرة ٢/ ٨٨ ، فما بعدها .

ومعلوم أن الحكم مكي ولم يكن من أهل المدينة . أفكذاك ؟ قالوا: نعم »[1]
« ولم تأت الشريعة بذنب يبقى صاحبه منفيا دائما ، بل غاية النفي المقدر سنة، وهو نفي الزاني والمخنث حتى يتوب من التخنيث ، فإن كان تعزير الحاكم لذنب حتى يتوب منه، فإذا تاب سقطت العقوبة عنه ، وإن كانت على ذنب ماض فهو أمر اجتهادي لم يقدر فيه قدر »[2]. وقالوا: « إني أ حب أهلي وأعطيهم ، فأما حبهم فلم يوجب جورا وأما إعطاؤهم فإنما أعطيهم من مالي ، ولا أستحل أموال المسلمين لنفسي ولا لأحد ، وكان قد قسم ماله وأرضه في بني أمية ، وجعل ولده كبعض من يعطي »[3] .

وقال ﷺ للغوغاء : « إني قد وليت وإني لأكثر العرب بعيرا وشاة فما لي اليوم غير بعيرين لحجتي، أكذلك ؟ قالوا: نعم »[4] .

وقالوا: « أتم الصلاة في السفر ، وكانت لا تتم ، ألا وإني قدمت بلدا فيه أهلي فأتممت لهذا »[5]، وإنه ممن لم يوجب القصر في السفر وهذا ما يراه فقهاء المدينة والإمام مالك وغيره ، ثم إنها مسألة اجتهادية ، وقال ابن كثير: إنما أتم خشية على الأعراب أن يعتقدوا أن فرض الصلاة ركعتان[6]، وقد شوشوا على العلاقة الأخوية فيما بين الخليفة عثمان وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما وابن مسعود هو القائل في تولية عثمان: « أمرنا خير من بقي ولم نأل »[7].

---

(١) المصدر السابق ، ينظر: ابن تيمية ، منهاج السنة ، ٦/ ٢٦٥ .

(٢) ابن تيمية ، منهاج السنة ، ٦/ ٢٦٦ ، الطبري ، تاريخ ، ٤/ ٣٤٥ .

(٣) الذهبي ، الخلفاء الراشدون ، ٤٣٨ ، ابن تيمية ، منهاج السنة ، ٢٤٩/٦ .

(٤) المصدر نفسه ، ٤٣٧ ، الطبري ، تاريخ ، ٤/ ٣٤٥ ، وقال: وما لي ثاغية ولا راغية ، أي لا شاة ولا بعيرا .

(٥) المصدر نفسه .

(٦) المحب الطبري ، الرياض النضرة ، ٢/ ١٠٠ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٧/ ٢٢٩ .

(٧) الذهبي ، الخلفاء الراشدون ، ٤٧٥ ، ابن تيمية ، منهاج السنة ، ٢٥٢/٦.

وما يمكن قوله في هذا الباب: أن التشويش والتشكيك في إخلاص الصحابة وصدق أخوتهم قديم حديث وسيبقى مستمرا من أعدائهم إلى قيام الساعة ، لأنهم هم وجوه الأمة وقادة الأمة وخير الأمة ، ومتابعة تجميع الشبهات المفتراة على الصحابة رضي الله عنهم ثم الرد عليها ، هو جزء من مخططات أعداء الإسلام ، لإشغال أبنائه بالدفاع عن حملته ودعاته وأعلامه ، وللتأثير في نفوس المسلمين ، وزرع الشعور بالنقص أو الذنب في تفكيرهم ، فتنشأ التيارات الفكرية بين مصدق ومكذب ومؤيد ومستنكر ، وأي شيء يحصل من هذا يعد كسبا ونجاحا لأعداء الصحابة ، ووقوفا في وجه كل هذه الشبهات يتوجب على أبناء الأمة جميعا الاعتصام بعقيدتهم التي وهبها الله تعالى لهم والتي لاريب فيها ولا شك ، وأن الصحابة اتخذوا مواقفهم وفي كل أوقاتهم على أساس من كتاب الله وسنة رسوله ، وأن الكتاب والسنة يزكيان الصحابة رضي الله عنهم ، وهما المصدران الصحيحان الصادقان ، ولهذا فإن أي طعن أو تشكيك متعمد فيهم من أية جهة كانت هو علامة الزندقة والسبئية والإستشراقية العدوانية الظالمة الفاقدة لكل وجوه الموضوعية وأصول البحث ، وذلك لتعارضها مع نصوص الكتاب والسنة وهذا ما ينطبق على الماضي والحاضر ، وبهذا تغلق كل أبواب الريب والدس ، فجيل الصحابة جيل فريد في كل ما قام به ، وهم كل واحد متجانس متآخ في ألفتهم واختلافهم .

وإن عثمان رضي الله عنه سار على منهج صاحبيه لم يغير ولم ي بدل ، وأن بني أمية جزء من ذلك التاريخ المشرق الزاهي ، وأن ما قدموه من إعزاز للمسلمين والعرب ونشر للعقيدة والفكر والثقافة الإسلامية ، هو أتم وأعمق مما قام به من جاء مَن بعدهم ، وأن أعداء الإسلام والمسلمين يستهدفون كل حقبة مشرقة يمكن أن يحتذى بها في التاريخ الإسلامي[١] .

---

(١) قال ابن قيس الرقيات فيمن نقم على بني أمية : =

وإن استباحة الكذب على عثمان رضي الله عنه والتشكيك في صدقه وإخلاصه وكتابة الكتب المزورة على لسانه وألسنة إخوانه من كبار الصحابة رضي الله عنهم ، ما هو إلا من بعض وسائلهم للوصول إلى هدفهم الذي تتمثل فيه التقية تماما: « ثم نخرج كأنا حجاج حتى نقدم فنحيط به فنخلعه ، فإن أبى قتلناه وكانت إياها »[1]. فلما لم تفلح الإذاعات الكاذبة والشائعات الباطلة التي كانت تطلقها السبئية سرا، سارعوا إلى تنفيذ هدفهم وساروا إلى الخليفة عثمان رضي الله عنه فحاصروه وهم له ظالمون ، وعلى قتله مصرون ، وبالتقية والغدر والردة متلبسون .

إسقاط الخليفة لجميع مسوغاتهم

اتبع السبئيون ومن سار معهم من الغوغاء الأجلاف من أخلاط الناس ما يتبعه اللصوص المارقون من وسائل تساعد على تنفيذ الجريمة وطمس معالم الآثمين المنفذين لها .

وكان من أهم الوسائل التي أعانتهم على حشد أعوان على ذلك ، ما قاموا به من تزوير كتب على لسان الصحابة وإرسالها إلى الآفاق ، على أنها من المدينة يأمرون الناس بالقدوم على عثمان ليقاتلوه ، قال ابن كثير: ذكره ابن جرير الطبري **« وهذا كذب على الصحابة ، وإنما كتبت كتب مزورة عليهم ، كما كتبوا من جهة علي وطلحة والزبير إلى الخوارج ، كتبا مزورة عليهم أنكروها ، وهكذا زوروا هذا الكتاب على عثمان أيضا »**[2].

= **وما نقموا من بني أمية إلا ... أنهم يحلمون إن غضبوا**
وأنهم معدن الملوك فما ... تصلح إلا عليهم العرب

(١) الطبري ، تاريخ ، ٤/ ٣٤٦ ، الخليفة: الأنصار في العصر الراشدي ، ١٤٤ .

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٧/ ١٨٤ .

وهذا ما سبق الحديث عنه ، والمقصود من ذكره هنا التأكيد على دور ابن سبأ في استغلال ثقة المسلمين في كبار الصحابة فكتب هذه الكتب ومن تعاون معه[1] وبثوها بين الناس فاستجاب لهم الحمقى والمغفلون ، وبعض الأعراب الجهلة وبعض العبيد المارقين .

ولو لم يستخدم ابن سبأ التقية والباطنية والخداع ، والكلام على لسان بعض الصحابة ، لما استجاب له أحد من الناس إذ أنه ليس إلى علجا من الأعلاج الذين لا قيمة لهم ولا وزن ، ولكنه تستر بالدخول في الإسلام ، فأضفى على نفسه الحماية .

ـ ومن وسائلهم الأخرى التي اتبعوها لإثارة الفتنة مكاتبة أهل مصر أشياعهم من أهل الكوفة والبصرة وجميع من أجابهم أن يتوافوا بالمدينة وأن يشيعوا الشائعات عن عثمان « حتى تطير في الناس ولتحقق عليه »[2].

ـ وتبين أن الخوارج السبئية لم يكن قصدهم الإصلاح لأن الصلاح والخير كان مع الخليفة والصحابة المحيطين به ، الذين هم أهل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإنما كان قصدهم العمل على هدم الخلافة وإفساد الدين في نفوس المسلمين .

ـ واتضح أن كل ما تذرعوا به كان باطلا لا صحة له ، وأن المسائل التي أشاعوها لا تعنيهم ، وليس لهم حق التحدث فيها ، لأنهم ليسوا من أهل الحل والعقد وليسوا من أهل العلم ، ولم تكن لهم سابقة في صحبة أو جهاد أو إنفاق في سبيل الله أو وجه من وجوه الخير والصلاح ، فضلا عن بطلان تلك المسائل .

ـ وأيضا فإن جميع طلباتهم التي أرادوها قد لبيت لهم وأن الخليفة قد استجاب لهم

---

(١) ينظر: الذهبي ، الخلفاء الراشدون ، ٤٣٣ ، وأن ابن سبأ « لما خرج إلى مصر نزل على كنانة بن بشر مرة وعلى سودان بن حمران مرة ، وانقطع إلى الغافقي ... **وأطاف به خالد بن ملجم ، وعبد الله بن رزين وأشباه لهم ، فصرف لهم القول فلم يجدهم يجيبون إلى الوصية ، فقال عليكم بناب العرب وحجرها عمرو بن العاص - ... ففعلوا ما أمرهم به** ».

(٢) الذهبي ، الخلفاء الراشدون ، ٤٣٦ ، الطبري ، تاريخ، ٣٤٥/٤.

في كل ما سألوه من عزل أو تولية من ذكروه من الولاة ، ولم يكن هذا من شأنهم ولا مما يعنيهم لفقدانهم كل الشروط التي تؤهلهم للحديث عن شيء من ذلك ـ وأن الخليفة لم يدع لهم حجة يحتجون بها عليه ، فدعاهم إلى المسجد وعلى ملأ من المسلمين رد على كل الشبهات التي أثاروها ، وأقروا بصدق كل ردوده عليها[1] حتى بلغ به الأمر أن خاطب المسلمين في مسجد رسول الله ﷺ قائلا« إن وجدتم في كتاب الله أن تضعوا رجلي في قيود فضعوها »[2] .

وبظهور صدق الخليفة وأمانته وقوة حجته ووضوح رؤيته ، وانقياده للحق واستعداده التام للتضحية من أجله ، أسقط في أيدي البغاة السبئية ونزعت عنهم كل الأستار التي كانوا يستظلون بها ، إذ أنهم ووجهوا بقوة إيمان الخليفة رضي الله عنه وعلمه وسابقته وتجربته فمحق نفاقهم وأظهر زيفهم ، وكان كل ذلك عن علم وبصيرة بمقاصدهم ونواياهم الفاسدة ، إذ أن الخليفة كان قد بعث إليهم رجلين: « مخزوميا وزهريا فقال: انظرا ما يريدون . فقالا: من معكم من أهل المدينة ؟ قالوا: ثلاثة نفر فقالا: هل إلا ؟ قالوا: لا ! قالا فكيف تريدون أن تصنعوا ؟ قالوا نريد أن نذكر له أشياء قد زرعناها في قلوب الناس ، ثم نرجع إليهم فنزعم لهم أنا قررناه بها ، فلم يخرج منها ولم يتب ثم نخرج كأنا حجاج حتى نقدم فنحيط به فنخلعه فإن أبى قتلناه وكانت إياها »[3]. وهذا ما يؤكد عظمة عثمان رضي الله عنه ونباهته من جانب ، ومن جانب آخر شدة تمسكه بعقيدته وقهره لأهوائه وخشيته من الله تعالى ، حيث كان بإمكانه البطش بهم أو سجنهم أو نفيهم ، ولا يتطلب منه ذلك أكثر من تلبية رغبة شباب المدينة من أبناء المهاجرين والأنصار وتابعيهم بإحسان بالذب عنه والدفاع عن

---

(١) ابن خياط ، تاريخ ، ١٦٩ ، الذهبي ، الخلفاء الراشدون ، ٤٣٧.

(٢) ابن سعد ، الطبقات ، ٣/ ٣٩ ، الذهبي ، الخلفاء الراشدون ، ٤٣٧.

(٣) الطبري ، تاريخ ، ٤/ ٣٤٦ ، الذهبي ، الخلفاء الراشدون ، ٤٣٦.

مدينتهم ضد أولئك الغرباء عن أهل المدينة في انتمائهم وفي أخلاقهم وتلك هي والله البطولة وذلك هو الإيمان وتلك هي الشدة ، قال ﷺ: « ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب »[1] .

وذلك هو عثمان رضي الله عنه ، الذي أبى أن يراق دم من أجله أو يحمل سلاح ضد مخالفيه، لأن السلاح لا يحمل إلا لإقامة شرع الله وحدود الشرع والجهاد في سبيل الله تعالى .

ــ ولما أحس أهل المدينة بسوء نوايا الخوارج السيئة ، شكلوا قوة دفاعية من ثلاث كتائب عليها علي وطلحة والزبير رضي الله عنهم ، مما يؤكد أن موقف أهل المدينة ضد هؤلاء كان موحدا .

ــ وعندما تبين للخوارج وحدة أهل المدينة ، عادوا إلى التعامل بالباطنية والتقية والخداع « فطلبوا أمرا وأعلنوا غيره بغير حجة ولا عذر »[2] « وطلبوا العلل فلم تطلع عليه علة ، فعثروا في داره بالحجارة ليرموا ، فيقولوا: قوتلنا وذلك ليلا فناداهم: ألا تتقون الله ! ألا تعلمون أن في الدار غيري !! . قالوا: والله ما رميناك قال: فمن رمانا ؟ قالوا: الله ، قال: كذبتم ، إن الله عز وجل لو رمانا لم يخطئنا وأنتم تخطئوننا » [3].

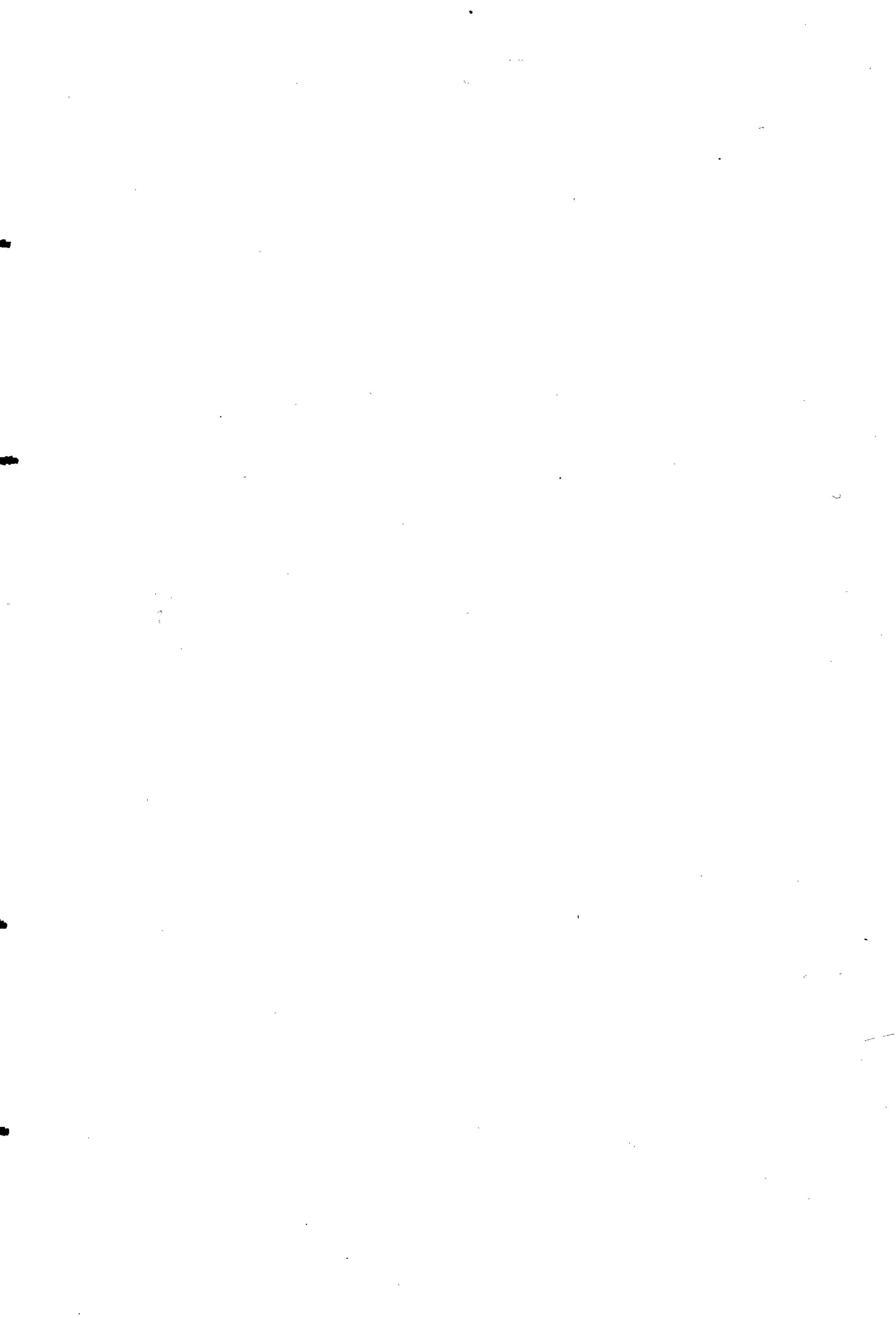
---

(١) البخاري ، مع شرحه فتح الباري ، ك الأدب ، باب الحذر من الغضب ، ح (٦١١٤) .

(٢) الطبري ، تاريخ ، ٤/٣٥٢.

(٣) المصدر ، نفسه ، ٤/٣٨٦.

الفصل الرابع



مباشرة الحصار واشتداده على الخليفة رضي الله عنه

ولما اصطدمت الخوارج السبئية ، بوحدة موقف أهل المدينة وصلابته تعاملوا معهم بالتقية كما سبقت الإشارة إلى ذلك . « وأروهم أنهم يرجعون ... كي يفترق أهل المدينة ، ثم يكروا راجعين ، فافترق أهل المدينة لخروجهم ... فبغتوهم فلم يفجأ أهل المدينة إلا والتكبير في نواحي المدينة ... وأحاطوا بعثمان »[١]. ولما جاءت الجمعة بعد الإحاطة بعثمان خرج فصلى بالناس ، ونصح الخوارج . وقال: « إن أهل المدينة ليعلمون أنكم ملعونون على لسان محمد ﷺ ، فامحوا الخطايا بالصواب ... فقام محمد بن مسلمة . فقال: أنا أشهد بذلك ، فأخذه حكيم بن جبلة فأقعده ، فقام زيد بن ثابت فقال: ابغني الكتاب ، فثار إليه من ناحية أخرى محمد بن أبي قتيرة فأقعده ، قال: وثار القوم بأجمعهم فحصبوا الناس حتى أخرجوهم من المسجد ، وحصبوا عثمان حتى صرع على المنبر مغشيا عليه فاحتمل فأدخل داره »[٢] .

وعاده في منزله علي وطلحة والزبير رضي الله عنهم ، ولم يعد أحد من أهل المدينة إلا وعليه سيفه يمتنع به من رهق القوم ، وكان الحصار أربعين يوما ، وفيهن كان القتل ، ومن تعرض لهم وضعوا فيه السلاح وكانوا قبل ذلك ثلاثين يوما يكفون السلاح »[٣] .

وبعد مرور ثلاثين يوما على الحصار منعوا الخليفة من الصلاة بالناس وشددوا الحصار حتى منع الماء ، فقال لهم علي رضي الله عنه: « أيها الناس إن الذي تصنعون لا

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٤/ ٣٥١ .

(٢) المصدر نفسه ، ٤/ ٣٥٣ .

(٣) المصدر نفسه ، ٤/ ٣٥٤ .

يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين ، لا تقطعوا عن هذا الرجل المادة ، فإن الروم وفارس لتأسر فتطعم وتسقي ، وما تعرض لكم هذا الرجل ، فبم تستحلون حصره وقتله ! قالوا: لا والله ولا نعمة عين ، لا نتركه يأكل ويشرب ، فرمى بعمامته في الدار بأني قد نهضت فيما أنهضتني ، فرجع ، وجاءت أم حبيبة – أم المؤمنين رملة بنت أبي سفيان – على بغلة لها ، برحالة مشتملة على إداوة – فيها ماء – فقيل أم حبيبة أم حبيبة فضربوا وجه بغلتها ، فقالت: إن وصايا بني أمية إلى هذا الرجل فأحببت أن ألقاه فأسأله عن ذلك كيلا تهلك أموال أيتام وأرامل ، قالوا: كاذبة وأهووا لها وقطعوا حبل البغلة بالسيف ، فندت بأم حبيبة ، فتلقاها الناس ، وقد مالت رحالتها فتعلقوا بها وأخذوها وقد كادت تقتل فذهبوا بها إلى بيتها »(٤). فهل بعد كل هذه المآسي والمعاصي التي يدين بها الخوارج السبئية يبقى مسوغ لمسلم أن يزعم أنه كان لهؤلاء وجه من وجوه الحق فيما كانوا يفعلون ؟ وهل يقبل من باحث منصف ، أن يسمي هؤلاء الخوارج المنافقين بغير أسمائهم ؟ وهل يباح أن يسمى هؤلاء اللصوص الذين سرقوا بيت الخليفة الصابر المضطهد المصطبر، على الحق يعطيه باسم وفود الأمصار أو المتظلمين أو الثوار إلى غير ذلك من مسميات تسبغ عليهم الشرعية، وهل يشك مسلم في أنهم آذوا الله ورسوله في إيذائهم لزوجة رسول الله ﷺ أم المؤمنين أم حبيبة وبقية أمهات المؤمنين، وخليفة رسول الله ﷺ وباقي الصحابة ﷺ . قال تعالى: ﴿ إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهينا ﴾(٢). أم أن إيذاء هؤلاء الأطهار الأخيار يرضي الله ورسوله ﷺ ؟ وقد جاء في الحديث أن إيذاء أهل المدينة يوجب لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، قال ﷺ: « المدينة حرم من كذا إلى كذا ، لا يقطع

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٣٨٦/٤ ، ابن حنبل ، فضائل الصحابة ، ح (٧٩٩).

(٢) سورة الأحزاب ، الآية (٥٧) .

شجرها ولا يحدث فيها حدث ، من أحدث فيها حدثا فعليه لعنة الله والناس أجمعين»[1]

وإن قتل الخليفة المصطبر من أكبر الأحداث الموجبة على مرتكبيها لعنة الله تعالى والملائكة والناس أجمعين ، قال تعالى: ﴿ والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا ﴾[2] .

---

(١) البخاري ، مع شرحه فتح الباري ، ك فضائل المدنية ، باب حرم المدنية ح (١٨٦٧).

(٢) سورة الأحزاب ، الآية (٥٨) .

محاورة الخليفة لمحاصريه وإقامته الحجة عليهم

قال تعالى: ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾[١]. إن الخليفة عثمان ﷺ لم يدع الأمر بالمعروف والنصح لأمته في كل أحواله ، ففي الجمعة الأولى بعد حصار الخوارج السبئية له خطبهم . فقال: « امحوا الخطايا بالصواب ، فإن الله عز وجل لا يمحو السيء إلا بالحسن»[٢] فكان جزاؤه من الغوغاء وردهم على نصحه أن حصبوه حتى صرع على المنبر مغشيا عليه .

وخطب عثمان ناصحا وواعظا فقال: « إن الله عز وجل إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة ، ولم يعطكموها لتركنوا إليها ، إن الدنيا تفنى والآخرة تبقى ... واحذروا من الله الغير ، والزموا جماعتكم ، لا تصيروا أحزابا: ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ﴾[٣] .

وقال صعصعة بن صوحان للخليفة وهو محصور: أخرجنا من ديارنا بغير حق إلا أن قلنا ربنا الله. قال عثمان: كذبت لستم أولئك ، نحن أولئك أخرجنا أهل مكة فقال الله تعالى: ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾[٤] .

وأشرف عليهم يوما فقال: أنشدكم الله هل تعلمون أني اشتريت – بئر – رومة من مالي ، وجعلت رشائي فيها كرشاء رجل من المسلمين ؟ قيل: نعم. قال: فعلام تمنعوني أن أشرب من مائها حتى أفطر على ماء البحر – يعني ماء البئر المالح-.

---

(١) سورة آل عمران ، الآية (١١٠) .

(٢) الطبري ، تاريخ ، ٣٥٢/٤ .

(٣) آل عمران ، الآية (١٠٣) .

(٤) الحج آية (٤١) ، الذهبي، الخلفاء الراشدين ، ١٧١ .

قال أنشدكم الله هل تعلمون أني اشتريت كذا وكذا من الأرض فزدته في المسجد فهل علمتم أن أحدا من الناس منع أن يصلي فيه قبلي ؟ قال: أنشدكم الله هل تعلمون أن نبي الله ﷺ ذكر كذا وكذا أشياء في شأنه ، وذكر أيضا كتابة المفصل – أي أنه جمع القرآن الكريم – ففشى النهي وجعل الناس يقولون مهلا عن أمير المؤمنين، وسألهم عن قول النبي ﷺ لجبل ثبير وقيل حراء وقيل أحد: « أثبت فإنما عليك نبي وصديق وشهيد وأنا معه ، قالوا: اللهم نعم ، قال: شهدوا لي ورب الكعبة»[١] ثم قال: « أنشدكم الله ... أتعلمون أن رسول الله ﷺ نظر في وجوه القوم يوم جيش العسرة ، فقال: من يجهز هؤلاء غفر الله له فجهزتهم حتى ما يفقدون خطاما ولا عقالا ، قالوا: اللهم نعم ، قال: اللهم اشهد اللهم اشهد اللهم اشهد ثم انصرف »[٢] وقال لهم عثمان رضي الله عنه: ﴿ ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾[٣] .

« اللهم حل بين الأحزاب وبين ما يأملون كما فعل بأشياعهم من قبل »[٤].

وأشرف عليهم رضي الله عنه يوما وهو محصور. فقال: لم تقتلونني فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: « لا يحل دم امرئ إلا بإحدى ثلاث ، رجل زنى بعد إحصانه فعليه الرجم، أو قتل عمدا فعليه القتل ، أو ارتد بعد إسلامه فعليه القتل ، فو الله ما زنيت في جاهلية ولا إسلام ، ولا قتلت أحدا فأقيد نفسي منه ولا ارتددت منذ أسلمت ، إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله »[٥]. وكان عثمان رضي الله عنه يخرج

---

(١) ابن خياط ، تاريخ ، ١٧٢، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٨٧/٧، ابن شبه ، تاريخ المدنية ، ٢٣٣/٢.

(٢) ابن حنبل ، فضائل الصحابة ، ٥٠٧ .

(٣) سورة هود، الآية (٨٩) .

(٤) الطبري ، تاريخ ، ٤/ ٣٨٧ .

(٥) ابن سعد ، الطبقات ، ٣٨/٣ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٧/ ١٨٨ .

عليهم كل حين يدعوهم إلى الله تعالى ويذكرهم بمقامه في الإسلام ويشهد له الصحابة الذين يسمعونه كما فعلوا عندما سأل من سمع رسول الله ﷺ أخبر أن عثمان شهيد ، وأن رسول الله ﷺ قال يوم بيعة الرضوان: « هذه يدي وهذه يد عثمان ». ووضع يديه إحداهما على الأخرى فبايع لي ، وكذلك في توسعة المسجد النبوي الشريف وتجهيز جيش العسرة وبئر رومة ، وفي كل ذلك يقول ﷺ **من فعل هذه فله الجنة** ، والصحابة يشهدون له في كل ذلك[1] .

ولم تكن تلك البينات تزيد الخوارج السبئية إلا طغيانا وكفرا وهم في مسجد رسول الله ﷺ وحول بيوت أمهات المؤمنين رضي الله عنهن وبين الصحابة وأبناء الشهداء من المهاجرين والأنصار ، ولكن الخوارج السبئية ﴿ لفي سكرتهم يعمهون ﴾[2] .

ولا زالت سكرة الباطل محيطة بكل من عمي بصره وطمست بصيرته عن فضائل عثمان رضي الله عنه ولم يمل عثمان من النصح والتذكير وإقامة الحجة والتحذير من العواقب فعن مجاهد قال: أشرف عثمان على الذين حاصروه فقال: يا قوم لا تقتلوني فإني وال وأخ مسلم ، فو الله إن أردت إلا الإصلاح ما استطعت أصبت أو أخطأت، وإنكم إن تقتلوني لا تصلوا جميعا أبدا ولا تغزوا جميعا أبدا ولا يقسم فيؤكم بينكم ، قال فلما أبوا قال: أنشدكم الله هل دعوتم عند وفاة أمير المؤمنين بما دعوتم به، وأمركم جميعا لم يتفرق وأنتم أهل دينه وحقه فتقولون إن الله لم يجب دعوتكم أم تقولون هان الدين على الله ؟ أم تقولون إني أخذت هذا الأمر بالسيف والغلبة ولم آخذه عن مشورة من المسلمين، أم تقولون إن الله لم يعلم من أول أمري شيئا لم يعلم من آخره ؟ فلما أبوا قال: اللهم أحصهم عددا واقتلهم بددا ولا تبق منهم

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٧/ ١٨٩ . ابن خياط ، تاريخ ، ١٧٢ .

(٢) الحجر ، من الآية (٧٢) .

أحدا . قال مجاهد فقتل الله منهم من قتل في الفتنة[1]. وفعل الله بهم ما فعل في عهد يزيد بن معاوية. فتبين مما سبق من نصوص أن عثمان ﷺ ، حاول في كل وسعه تجنيب المسلمين الفتنة فنصح وذكر وأرشد ، وصبر علـــى الحرمـــان والشـــتم[2] والرمي بالحجارة وعلى إيذاء عياله وأعوانه ولم يرد على أحد نال منه بشيء مـــن ذلك حتى إذا علم وأيقن أن القوم مصرون على التمادي في البغي والعدوان ، ســـلم أمره إلى الله تعالى ولم يخرج عليـــهم ، ولـــزم داره ، بعـــد أن جمـــع المســـلمين والخوارج وأرسل إلى « طلحة والزبير وعلي وعدة: أن ادنوا ، فاجتمعوا فأشـــرف عليهم فقال: يا أيها الناس ، اجلسوا ، فجلسوا جميعا ، المحارب الطارئ والمســـالم المقيم ، فقال: يا أهل المدينة ، إني أستودعكم الله ، وأسأله أن يحسن عليكم الخلافـــة من بعدي ، وإني والله لا أدخل على أحد بعد يومي هذا حتى يقضي الله في قضـــاءه ولأدعن هؤلاء وما وراء بابي غير معطيهم شيئا يتخذونه عليكم دخلا في ديـــن الله أو دنيا ، حتى يكون الله عز وجل الصانع في ذلك ما أحب . وآمر أهـــل المدينـــة بالرجوع وأقسم عليهم، فرجعوا إلا الحسن بن علي ومحمد بن طلحة وعبد الله بـــن الزبير وأشباها لهم فجلسوا بالباب عن أمر آبائهم ، وثاب إليهم ناس كثير ، ولـــزم عثمان الدار[3]. ولزم القرآن الكريم ولم يفارقه طوال أيام حصاره ، وأخذ بالتـــهيؤ للرحيل إلى الدار الآخرة وهو على الحال والعهد الذي تركه عليه رسول الله ﷺ لم يغير ولم يبدل ، ولكن بقي عليه تجاوز هذه المحنة المريرة ، دون أن يكون ســـببا في إراقة دم ، أو هضم حق لأحد من المسلمين ، فكان يتحدث بهذه الأمنية ويقـــول: طوبى لعثمان إن لم يحركها ، فصبر صبر الجبال واحتسب حتى تحققت أمنيته وهو على أتم حال من التمسك بإيمانه ووصايا نبيه ﷺ .

---

(١) ابن سعد ، الطبقات ، ٣٨/٣.

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٩٢/٧.

(٣) الطبري ، تاريخ ، ٣٨٤/٤.

استشهاد الخليفة عثمان رضي الله عنه
وموقف الصحابة من الدفاع عنه

لا يماري مؤمن في أن عثمان رضي الله عنه قضى شهيدا صابرا محتسبا مظلوما وأن رسول الله ﷺ بشره بالشهادة وشهد له أنه سيكون في الفتنة على الحق ، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، قال: « إن النبي ﷺ دخل حائطا وأمرني بحفظ باب الحائط فجاء رجل يستأذن فقال: « ائذن له وبشره بالجنة » فإذا أبو بكر ، ثم جاء آخر يستأذن فقال: « ائذن له وبشره بالجنة » فإذا عمر ، ثم جاء آخر يستأذن ، فسكت هنيهة ثم قال: « ائذن له وبشره بالجنة على بلوى ستصيبه » فإذا عثمان بن عفان»[١]. وعن أنس رضي الله عنه قال: صعد النبي ﷺ أحدا ومعه أبو بكر وعمر وعثمان فرجف ، فقال: « اسكن أحد – أظنه ضربه برجله – فليس عليك إلا نبي وصديق وشهيدان »[٢] .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: « ذكر رسول الله ﷺ فتنة فمر رجل فقال ﷺ يقتل هذا المقنع يومئذ مظلوما ، قال: فنظرت فإذا هو عثمان بن عفان رضي الله عنه »[٣]. وغير ذلك من الأحاديث في هذا الباب كثيرة، والتي تجعل الباحث على بينة من أمره إذ أن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية لا ريب فيها، قال تعالى: ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾ [٤]، وإنما الريب في الروايات المضللة

---

(١) البخاري ، مع شرحه فتح الباري ، ك فضائل أصحاب النبي ﷺ ، باب مناقب عثمان بن عفان أبي عمرو القرشي رضي الله عنه، وقال النبي ﷺ : « من يحفر بئر رومة فله الجنة ». فحفرها عثمان وقال: « من جهز جيش العسرة فله الجنة » فجهزه عثمان ، ح (٣٦٩٥) .

(٢) المصدر السابق ، ح (٣٦٩٧).

(٣) ابن حنبل ، فضائل الصحابة ، ٤٥١/١.

(٤) سورة البقرة ، الآية (٢).

التي تنال من نزاهة أصحاب رسول الله ﷺ ، لتوهم أن الخوارج السبئية لديهم بعض الحق أو لديهم ما يسوغ ما قاموا به من فظائع وإجرام تمثل في انتهاك الدم الحرام في الشهر الحرام في البلد الحرام ، دون ذنب أو جريرة ، وذلك بعد أن استنفذوا كل وسائل الاستفزاز ، وأساليب المكر لاستجرار الخليفة للتعامل معهم بمثل همجيتهم فيرد عليهم فتشتعل الفتنة فيكون هناك مسوغ لهم لتحميله جزءا من المسؤولية ، وهذا ما عجز عنه الخوارج الأولون ، ولا زال يعمل أتباعهم من الخوارج الآخرين على اصطناع الأباطيل وترويج الأساطير للنيل من سيرة عثمان لكنهم دائما يصطدمون بالحقيقة الساطعة ببراءة عثمان وصبره وحلمه وعلمه وإخلاصه وصدقه ، فبعد أن أحكم الخوارج السبئية وغوغاؤهم الحصار على دار الخليفة رضي الله عنه ، وقطعوا عنه الماء والطعام ، ورموا داره بالحجارة وفيها عياله وأسمعوه من الشتائم وآذوا زواره الأخيار وعواده الأطهار، « فلم تطلع عليهم علة » يتذرعون بها ، وكانت أخبار حصار الخليفة قد انتشرت في الأمصار فقام الصحابة ووجوه الناس يحضون على نصرة الخليفة « وكان بعض المحضضين قد شهد قدومهم فلما رأوا حالهم انصرفوا إلى أمصارهم بذلك وقاموا فيهم »[١]، فكان من المحضضين بالكوفة على إعانة أهل المدينة ، عقبة بن عمرو وهو أبو مسعود البدري ، وعبد الله بن أبي أوفى ، وحنظلة بن الربيع التميمي في أمثالهم من أصحاب رسول الله ﷺ وكان من المحضضين على نصرة عثمان في الكوفة من التابعين أصحاب عبد الله بن مسعود مسروق بن الأجدع ، والأسود بن يزيد وشريح بن الحارث ، وعبد الله بن عكيم في أمثالهم يسيرون فيها ويطوفون على مجالسها، يقولون: يا أيها الناس ، إن الكلام اليوم وليس به غدا وإن القتال يحل اليوم ويحرم غدا ، انهضوا إلى خليفتكم، وعصمة أمركم وقام بالبصرة عمران بن

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٤/ ٣٥٢ .

حصين وأنس بن مالك وهشام بن عامر في أمثالهم من أصحاب النبي ﷺ يقولون مثل ذلك ، ومن التابعين كعب بن سور وهرم بن حيان العبدي ، وأشباه لهم يقولون ذلك ، وقام بالشام عبادة بن الصامت وأبو الدرداء وذلك قبل استشهاد عثمان على الأغلب بكثير من الزمن ، وأبو أمامة في أمثالهم من أصحاب النبي ﷺ ومن التابعين شريك بن خباشة النميري وأبو مسلم الخولاني وعبد الرحمن بن غنم بمثل ذلك . وقام بمصر خارجة بن حذافة في أشباه له[1] .

فلما قدم المتعجلون من موسم الحج ، أخبروهم « إنهم يريدون جميعا المصريين وأشياعهم ، وأنهم يريدون أن يجمعوا ذلك إلى حجتهم ، فلما أتاهم ذلك مع ما بلغهم من نفور أهل الأمصار ، أعلقهم الشيطان ، وقالوا: لا يخرجنا مما وقعنا فيه إلا قتل هذا الرجل فيشتغل بذلك الناس عنا ، ولم يبق خصلة يبغون فيها النجاة إلا قتله »[2]



---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٤/ ٣٥٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ٤/ ٢٨٧ .

كيفية استشهاد الخليفة رضي الله عنه ومن قتله

إن الخوارج الذين اجترأوا على ارتكاب أفضع وأبشع جريمة في التاريخ الإسلامي عندما أقدموا على قتل خليفة رسول الله ﷺ وهو يتلو كتاب الله تعالى وكافّ يده ولسانه ومعه زوجته وبناته وفي داره ، **هم جميعاً من تلامذة ابن سبأ المقربين إليه، من الذين كانوا يأوونه ويعظّمونه ويسمعون له .**

وكان الخليفة ينهى عن القتال ولا يريده ، فعندما رام الخوارج الباب ليدخلوا الدار دافعهم بعض أبناء الصحابة ومن أقام معهم على الباب واجتلدوا بالسيوف فناداهم عثمان رضي الله عنه: الله الله ! أنتم في حلٍّ من نُصرتي فأبوا ففتح الباب وأقسم على الصحابة ليدخلن ، وأغلق الباب دون الخوارج المصريين ، وكان المغيرة بن الأخنس بن شُريق ، فيمن دخل الدار وجلس على الباب من داخل، وقال ما عذرنا عند الله إن تركناك ونحن نستطيع ألا ندعهم حتى نموت ؟ .

واتخذ عثمان رضي الله عنه تلك الأيام القرآن نحباً- لا يفارقه - يصلي وعنده المصحف فإذا أعيا جلس فقرأ فيه. فلما بقي المصريون لا يمنعهم أحد من الباب ولا يقدرون الدخول ، أحرقوا الباب والسقيفة[1]، فثار عليهم من في الدار فمنعوهم الدخول. وعثمان في الصلاة وقد افتتح ﴿ طه ، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ [2] وكان سريع القراءة فما كرثه ما سمع ، وما يُخطيء وما يتتعتع حتى أتى عليها قبل أن يصلوا إليه، ثم عاد وجلس عند المصحف وقرأ ﴿ الذين قال لهم الناس إنّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ [3].

وقد كان ثبات عثمان رضي الله عنه في تلك المحنة الرهيبة ، شيئاً عجيباً ، لم يتغير ولم

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٤/ ٣٨٨ .

(٢) سورة طه ، الآيتان (١-٢).

(٣) آل عمران ، الآية (١٧٣).

يتبدل ولم يداهن ولم يساوم أو يضعف أو يتلعثم رضي الله عنه بل كان طوداً شامخاً أمام أولئك الأقزام ، الذين نُزعت منهم كل قيم الدين والرجولة .

وعندما كان القتال عند باب الدار « ندبوا - أي الخوارج - رجلاً لقتله فانتدب له رجل فدخل عليه البيت ، فقال : اخلعها وندعك فقال: ويحك ! والله ما كشفت امرأة في جاهلية ولا إسلام ، ولا تغنيت ولا تمنيت ، ولا وضعت يميني على عورتي منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولست خالعاً قميصاً كسانيه الله عز وجل وأنا علىَ مكاني حتى يُكرم الله أهل السعادة ، ويُهين أهل الشقاء ، فخرج وقالوا: ما صنعت؟ فقال: علقنا والله ، **والله ما ينجينا من الناس إلا قتله ، وما يحل لنا قتله** »[1].

وكان عثمان رضي الله عنه يقول: « ولكن طال عليكم أمري فاستعجلتم، وأردتم خلع سربال سربلنيه الله ، وإني لا أخلعه حتى أموت ... ولا قتلت رجلاً ولا كفرت »[2].

وممن شجع عثمان على الكفِّ عبد الله بن سلام ، قال له عثمان ما ترى ؟ قال: « الكفّ الكفّ فإنّه أبلغ لك في الحجّة »[3] وقال الخليفة لعبد الله بن عمر: « أنظر ما يقول هؤلاء ؟ ، يقولون: اخلعها ولا تقتل نفسك. فقال ابن عمر: إذا خلعتها أمخلد أنت بالدنيا ؟ قال: لا ، قال: فإن لم تخلعها هل يزيدون على أن يقتلوك ؟ قال: لا قال: فهل يملكون لك جنة أو ناراً ؟ قال: لا ، قال: فلا أرى لك أن تخلع قميصاً قمصكه الله فتكون سُنّة كلما كره قوم خليفتهم أو إمامهم قتلوه »[4].

وأصبح عثمان رضي الله عنه في اليوم الذي قتل فيه ، فقال:

« لولا أن يقول الناس تمنّى عثمان أمنيّة لحدثتكم حديثاً ، قال قلنا حدثنا أصلحك الله فلسنا على ما يقول الناس ، قال: إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في منامي هذا فقال:

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٤/٢٩١ .

(٢) الذهبي ، الخلفاء الراشدون ، ٤٤٥ .

(٣) المصدر نفسه ٤٤٦ .

(٤) ابن خياط ، تاريخ ، ١٧٠ . ابن سعد ، الطبقات، ٣/٣٧ ، ابن شبه ، تاريخ المدينة ، ٢/٢٥٣ .

إنك شاهد فينا الجمعة »[١] وعن زوجته نائلة بنت الفرافصة قالت: « أغفى عثمان فلما استيقظ قال: إنّ القوم يقتلونني ، فقلت: كلا يا أمير المؤمنين. قال: إني رأيت رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر فقالوا أفطر عندنا الليلة ، أو قالوا: إنك تفطر عندنا الليلة»[٢] وروى ابن أبي الدنيا عن عبد الله بن سلام قال: « أتيت عثمان لأُسلّم عليه وهو محصور، فدخلت عليه فقال: مرحباً بأخي ، رأيت رسول الله ﷺ الليلة في هذه الخوخة ، قال: وخوخة في البيت ، فقال: يا عثمان ، حصروك ؟ قلت نعم قال عطشوك ، قلت: نعم ، فأدلى دلواً فيه ماء فشربت حتى رويت ، حتى إني لأجد برده بين ثديي وبين كتفي وقال لي: إن شئت نُصرت عليهم ، وإن شئت أفطرت عندنا ، فاخترت أن أفطر عنده فقتل ذلك اليوم »[٣]. قال أبو سعيد مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه: أنّ عثمان أعتق عشرين مملوكاً ، ودعا بسراويل فشدها ولم يلبسها في جاهلية ولا إسلام ...

قال ابن كثير: وإنما لبس السراويل في هذا اليوم لئلا تبدو عورته إذا قتل فإنه كان شديد الحياء ، كانت تستحي منه ملائكة السماء ، كما نطق بذلك النبي ﷺ ووضع بين يديه المصحف يتلو فيه ، واستسلم لقضاء الله عز وجل وكفّ يده عن القتال ، وأمر الناس وعزم عليهم أن لا يقاتلوا دونه ولولا عزيمته عليهم لنصروه من أعدائه ولكن كان أمر الله قدراً مقدوراً [٤].

« وحاجف الناس عن عثمان أشدّ المحاجفة ، واقتتلوا على الباب قتالاً شديداً وأحاطوا بالدار وجدّوا في الحصار وأحرقوا الباب وتسوروا من الدار المتاخمة»[٥]

---

(١) ابن سعد ، الطبقات ، ٤٢/٣ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٩٢/٧ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٩٢/٧ .

(٤) المصدر نفسه ، ١٩٣/٧ .

(٥) المصدر نفسه ، ١٩٧/٧ .

وعن نائلة بنت الفرافصة أنها كانت في الدار ، **ودخل محمد بن أبي بكر** وأخذ بلحيته ، وأهوى بمشاقص - نصل السهم – معه فيجأ بها في حلقه ، فقال: مهلاً يا ابن أخي ، فوالله لقد أخذت مأخذاً ما كان أبوك ليأخذ به فتركه وانصرف مستحيياً نادماً، فاستقبله القوم على باب الصُفّة ، فردهم طويلاً حتى غلبوه فدخلوا، وخرج محمد ... وتذمم من ذلك وغطى وجهه ورجع وحاجز دونه فلم يُفد ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً [١].

وعن ريطة مولاة أسامة بن زيد قالت: كنت في الدار ، إذ دخلوا فجاء محمد فاخذ بلحية عثمان فهزها ، فقال يا ابن أخي دع لحيتي إنك لتجذب ما يعز على أبيك أن تؤذيها. فرأيته كأنه استحيا فقام فجعل بطرف ثوبه هكذا: ألا ارجعوا ، قالت: وجاء رجل من خلف عثمان بسعفة رطبة ، فضرب بها جبهته فرأيت الدم يسيل وهو يمسحه ويقول « **اللهم لا يطلب بدمي غيرك** » وجاء آخر فضربه بالسيف على صدره فأقعصه وتعاوروه بأسيافهم ، فرأيتهم ينتهبون بيته[٢]. ولما أخبرت نائلة زوجة عثمان علياً ، بما صنع محمد بن أبي بكر، فسأله علي فقال: « قد والله دخلت عليه، وأنا أريد قتله ، فذكر لي أبي ، فقمت وأنا تائب إلى الله ، والله ما قتلته ولا أمسكته، فقالت صدق ، ولكنه أدخل اللذَيْن قتلاه »[٣]، وروي أن عثمان ﷺ ذكّره بمآثره مع رسول الله ﷺ حتى قال له أنشدك الله هل تعلم أن رسول الله قال لي بعد تجهيز جيش العسرة: « ما يضر عثمان ما عمل بعد اليوم » قال: نعم ، قال: فيكف تقتلني ؟! قال: لا والله لا ألقى الله بدمك أبداً »[٤].

وعن محمد بن طلحة قال: حدثني كنانة مولى صفية أم المؤمنين قال: « شهدت

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ١٩٥/٧ ، المحب الطبري ، الرياض النضرة ، ٧٢/٢ .

(٢) الذهبي ، الخلفاء الراشدون ، ٤٥٥ .

(٣) الذهبي ، الخلفاء الراشدون ، ٤٦٠ . ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ٤١٩/٣٩ .

(٤) ابن شبة ، تاريخ المدينة ٢٩٦/٢ .

مقتل عثمان رضي الله عنه ... فقلت له: هل نَدِي محمد بن أبي بكر بشيء من دمه ؟ فقال: معاذ الله، دخل عليه فقال له عثمان رضي الله عنه: لست بصاحبي ، وكلمه بكلام فخرج ولم يَنْدَ بشيء من دمه . فقلت لكنانة: مَنْ قَتَلَه ؟ قال: رجل من أهل مصر »[1].

وروى الحاكم عن محمد بن طلحة ، قال: حدثنا كنانة العدوي قال: كنت فيمن حاصر عثمان قلت: محمد بن أبي بكر قتله ؟ قال: لا قتله **جبلة بن الأيهم** ، رجل من أهل مصر .

قال: وقيل قتله قُتيرة السكوني فقُتل في الوقت، وقيل قتله كنانة بن بشر التجيبي ولعلهم اشتركوا في قتله لعنهم الله، وقال الوليد بن عقبة:

ألا إن خير الناس بعد نبيهم قتيل التجيبي الذي جاء من مصر[2].

وسُئل الحسن البصري: أكان فيمن قتل عثمان أحد من المهاجرين والأنصار ؟ قال: لا ، كانوا أعلاجاً من مصر[3].

ويقال: ضرب كنانة بن بشر التجيبي جبينه ومقدم رأسه بعمود حديد فخر لجنبه، وضربه سودان بن حمران المرادي بعدما خرّ لجنبه فقتله[4] وهؤلاء هم تلامذة ابن سبأ الذين أخذوا عنه فكره .

ولما ضُرب عثمان قال: **بسم الله توكلت على الله ، وإذا الدم يسيل على اللحية يقطر والمصحف بين يديه فاتكأ على شقه الأيسر وهو يقول: سبحان الله العظيم ، وقال: « لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، اللهم إني استعديك وأستعينك على جميع أموري وأسألك الصبر على بليتي »**[5].

---

(١) ابن شبة ، تاريخ المدينة ، ٢٩٧/٢ .

(٢) الحاكم ، المستدرك ، ١٠٦/٣ ، ابن حبان ، الثقات ، ٢٦٣/٢ .

(٣) ابن خياط ، تاريخ ، ١٧٦ .

(٤) ابن سعد ، الطبقات ، ٤١/٣ ، وينظر: ابن شبة ، تاريخ المدينة ، ٢٩٧/٢ .

(٥) المحب الطبري ، الرياض النضرة ٧٢/٢ .

وهو في ذلك يقرأ المصحف والدم يسيل على المصحف حتى وقف الدم عند قوله تعالى: ﴿ فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴾[1]. وأطبق المصحف ، وضربوه جميعاً ضربة واحدة فضربوه والله ، بأبي هو يحيي الليل في ركعة ويصل الرحم ويُطعم الملهوف ويحمل الكلّ فرضي الله عنه[2].

وعن الزهري قال: « قتل عثمان عند صلاة العصر ، وشدّ عبد لعثمان أسود على كنانة بن بشر فقتله ، وشدّ سودان على العبد فقتله ، **ودخلت الغوغاء دار عثمان فصاح إنسان منهم: أيحل دم عثمان ولا يحل ماله ؟ فانتهبوا متاعه فقامت نائلة فقالت: لصوص ورب الكعبة ! يا أعداء الله ما ركبتم من دم عثمان أعظم أما والله لقد قتلتموه صوّاماً قواماً يقرأ القرآن في ركعة** ! ثم خرج الناس من دار عثمان فأُغلق بابه على ثلاثةٍ قُتلوا: عثمان وعبد عثمان الأسود وكنانة بن بشر »[3].

وروي عن كنانة مولى صفية أم المؤمنين قال: شهدت مقتل عثمان ، قتله رجل من أهل مصر يقال له **حمار**[4].

وروي دخل عليه رجل أزرق قصير معه خنجر، فاستقبله فقال على أي دين أنت يا نعثل ؟ -يشبه عثمان برجل اسمه نعثل- فقال عثمان: لست بنعثل ولكني عثمان بن عفان ، أنا على ملة إبراهيم حنيفاً وما أنا من المشركين ، فضربه على صدغه الأيسر فقتله ، ودخل رجل من أهل مصر معه السيف مصلتاً ، فقبضت نائلة على السيف فقطع إبهامها ، فضربه غلام عثمان رباح فقتله وقيل قتله جبلة بن الأيهم ، وقيل الأسود التجيبي وقيل يسار بن عياض[5] وقيل جاء التجيبي مخترطاً

---

(١) سورة البقرة ، الآية (١٣٧) وينظر ، ابن خياط ، تاريخ ، ١٧٥ ، الذهبي ، الخلفاء الراشدون ، ٤٥٧.

(٢) ابن سعد، الطبقات، ٤١/٣ ، المحب الطبري ، الرياض النضرة ٧٢/٢ .

(٣) المصدر نفسه ، الطبري ، تاريخ ، ٣٩٣/٤ ، ابن شبة ، تاريخ المدينة ، ٢٨٢/٢ و ٣٠٣/٢ .

(٤) ابن خياط ، تاريخ ، ١٧٥.

(٥) المحب الطبري ، الرياض النضرة ، ٧٢/٢ ، ابن شبة ، تاريخ المدينة ، ٣٠٢/٢ ، وقيل اسمه نيار بن عياض .

السيف ليضعه في بطن عثمان فوقته نائلة ، فقطع يدها[1] . وروى ابن كثـــير: أن عثمان جلس وبين يديه المصحف، وجعل يتلو هذه الآية ﴿ الذين قال لهم النـــاس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعـــم الوكيـــل ﴾[2] فكان أول من دخل عليه رجل يقال له: « **الموت الأسود** فخنقه خنقاً شديداً حتى غشي عليه، وجعلت نفسه تتردد في حلقه فتركه وهو يظن أنه قد قتله »[3].

وروي أن أحدهم « رفس المصحف الذي بين يديه برجله ، فاستدار المصحـف ثم استقر بين يدي عثمان رضي الله عنه ، وسالت عليـــه الدمـــاء »[4] وروى الذهبـــي: « أن عثمان فتح الباب ووضع المصحف بين يديه فدخل عليه رجل فقال: بينـــي وبينـــك كتاب الله ، فخرج وتركه ، ثم دخل عليه آخر ، فقال بيني وبينك كتاب الله ، فاتقـــاه بيده فقطعها ، فقال: **أما والله إنها لأول كف خطت المفصل**- كتبت القرآن – ودخـــل عليه رجل آخر يقال له: **الموت الأسود** ، فخنقه قبل أن يُضرب بالسيف »[5] وعـــن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: « آتاه القوم فاجتمعوا حوله ، فأتاه حبشي منـــهم - أي أسود – فوجأ بين ثديه الأيمن بمشقص أو بمشاقص في يده وفي حجره المصحف وكان شيخاً كبيراً فمال فقتل رضي الله عنه »[6].

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٤/ ٣٩٣ .

(٢) آل عمران ، الآية (١٧٣) وينظر ، ابن شبة ، تاريخ المدينة ، ٢/٢٨٩ .

(٣ – ٤) ابن كثيـــر ، البداية والنهـــاية ، ٧/١٩٨ ، ابن خيـــاط ، تاريـــخ ، ١٧٤ ، ابن شبة ، تاريخ المدينة ٢/٢٨٩ .

(٥) الذهبـــي ، الخلفـــاء الراشـــدون ، ٤٥٦ ، ابن خياط ، تاريخ ، ١٧٤ .

(٦) ابن شبة ، تاريخ المدينة ، ٢/٣٠٢ ، وينظر: الطبري، تاريخ ، ٤/٣٨٤ ، ابن العربي ، العواصم من القواصم ، ١٢٧ .

ولعل من أوضح الشواهد على سوء نوايا الخوارج السبئية ، وعلـــى انعــدام وازع الدين والخوف من الله تعالى ، ومراعاة مشاعر المسلمين وشعائر الدين أنــهم قتلوا عثمان ﷺ ، في أكرم الأيام على الله تعالى في أيام عيــد الأضحــى الــذي يتصافح فيها المؤمنون ، ويتصافح فيها المهاجرون ، ويعفو فيها المظلومون عـــن الظالمين فروي أنه قتل يوم النحر قال الفرزدق:

عثمان إذ قتلوه وانتهكوا ... دمه صبيحة ليلة النحر [(١)]

وقال نابغة بني جَعْدَة:

وابن عفان حنيفاً مسلماً ... ولحوم البُدْن لمّا تُنْتَقَل[(٢)]

وقال القاسم بن أمسح بن أبي الصلت:

لَعمري لبئس الذبح ضحيتم به ... خلاف رسول الله يوم الأضاحي

وروي:

لَعمري لبئس الذبح ضحيتم به ... وخنتم رسول الله في قتل صاحبه[(٣)]

وقال أيمن بن خزيمة:

ضحوا بعثمان في الشهرالحرام ضحى ... وأي ذبــح حـــرام ويلهم ذبحــوا

وأي سُنَــة كــفــر ســـــنّ أولـــهـــم ... وباب شرٍّ على سلطانـــهم فتـــحوا

مـــاذا أرادوا أضـــل الله ســـعيـــهـــم ... بسفك ذاك الدم الزاكي الذي سفحوا

وقول حسان بن ثابت:

---

(١) ابن خيــاط ، تاريخ ، ١٧٧. وينظر: ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ١٠٥١/٣ ، الغيث ، استشهاد عثمان ١٣٠ .

(٢) المصدر نفســه .

(٣) المصدر نفســه .

ضحوا بأشمط عنوان السجود له يُقطع الليل تسبيحاً وقرآناً[1]

وقال الأصمعي: قتل أوسط أيام التشريق ، وقيل قتل يوم الجمعة لأيام بقين من ذي الحجة [2] .

وكانت ولايته إحدى عشر سنة وأحد عشر شهراً وثمانية عشر يوماً ، ويقال: أربعة عشر يوماً . واختلف في سنّه ، والراجح أنه كان ابن اثنتين وثمانين سنة[3]. في شهر ذي الحجة من سنة خمس وثلاثين للهجرة .

ودفن رضي الله عنه في حَش كوكب ، وهو موضع في أصل البستان الذي في شرقي البقيع الذي يقال: خضراء أبان بن عثمان[4].

وروى ابن سعد أن عثمان رضي الله عنه كان يقول: يوشك أن يموت رجل صالح فيدفن في حَش كوكب فكان هو أول من دفن هناك رضي الله عنه ، في حَش كوكب بالبقيع، فهي مقبرة بني أمية اليوم[5] وكوكب رجل من الأنصار والحش البستان. وكان عثمان رضي الله عنه قد اشتراه وزاده في البقيع ، فكان أول من دفن فيه[6]. وقد كان أمير البررة قتيل الفجرة ، مخذول من خذله منصور من نصره [7]، وقال الذهبي: الذين قتلوه قتلوا ، والذين خذلوه خذلوا وتنغص عيشهم . وكان الملك بعده في نائبة معاوية وبنيه ، ثم في كاتبة مروان وثمانية من ذريته ، استطالوا حياته وملوه مع فضله

---

(١) ابن عبد البر الاستيعاب ، ٣/ ١٥٠١ . ابن كثير البداية والنهاية ٧/ ٢٠٠ . ابن شبة ، تاريخ المدينة ٢/ ٢٠١٢ .

(٢) ابن شبة، تاريخ المدينة، ٢/٢٦٢. ابن خياط، تاريخ، ١٧٦. المحب الطبري، الرياض النضرة، ٢/٧٣.

(٣) ابن خياط ، تاريخ ، ١٧٦، ابن شبة ، تاريخ المدينة، ٢٦٢/٢ ، وينظر ابن سعد ، الطبقات ، ٤٣/٣ .

(٤) ابن خياط ، تاريخ ، ١٧٧، ابن سعد ، الطبقات ، ٤٣/٣ .

(٥) ابن شبة ، تاريخ المدينة ، ٢/٢٦٤.

(٦) ابن سعد ، الطبقات ، ٤٣/٣ ، ويجعل استشهاد عثمان يوم الجمعة لثماني عشرة من ذي الحجة سنة ست وثلاثين بعد العصر وكان صائماً .

(٧) ابن كثير البداية والنهاية ، ٢٠٩/٧ .

وسوابقه فتملك عيهم من هو من بني عمه بضعاً وثمانين سنة ، فالحكم لله العلي الكبير [1].

وبعد استعراض هذه الروايات عن استشهاد « الخليفة المصطبر على الحق يعطيه » عثمان رضي الله عنه ، فإن اللافت فيها حرصه التام على سلامة دينه والمضي إلى ربه نقياً تقياً صابراً محتسباً ، لذلك بقي رضي الله عنه كافاً يده ولسانه فلم يدفع عن نفسه وإنما كان يواجههم بالحجة وإقامة الدليل على صواب فعله وقوله ، وفساد أقوالهم وسوء أفعالهم وخروجها عن الدين وقيمه ، وعن أخلاق المصلحين وعادات المسلمين، فأين حرمة السبق في الإسلام والهجرة - فعثمان أول من هاجر بأهله إلى الله تعالى بعد لوط - وأين حرمة الصحبة وحرمة المسجد النبوي الشريف وأمهات المؤمنين، والشهر الحرام والبلد الحرام ؟ .

وأين حرمة المصحف الذي بين يديه يتلوه ويتمسك به ويحاججهم به ؟ أين حرمة الشيخوخة التي شابت على الهدى والنور وفعل الخير والإنفاق والصيام والقيام ؟ أين الحياء من رجل مسلم مسالم مسامح ؟ أين الخوف من الله تعالى في حرمة الدم المسلم ؟ .

قال تعالى: ﴿ ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدّ له عذاباً عظيماً ﴾[2].

وقال عز وجلّ: ﴿ إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النّبييّن بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم ﴾[3]. أين طاعة الله والرسول وأولي الأمر، قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله

---

(١) ابن كثير البداية والنهاية ، ٧/٢٠٩ .

(٢) سورة النساء ، الآية (٩٣) .

(٣) سورة آل عمران ، الآية (٢١) .

واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾[1].أين ما زعموه في خروجهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهل كان العرب حتى قبل الإسلام ، ينالون من النساء ويسمعونهنّ الفحش من القول ؟ وهل الذي تطاول بالفحش[2] على زوجة الخليفة الطاهر من السبئية أم ممن تعلم على أيديهم ؟ .

كل ذلك وغيره من التساؤلات لا يوجد له أي أثر في مواقف الخوارج على الخليفة. فلماذا كل هذا الحقد الأعمى ؟ وهذا الإجرام المقرون بانعدام الأخلاق والرحمة والشفقة والحياء .

إن غياب الإجابة عن كل هذه التساؤلات ، يقود إلى أمر مهم لافت للنظر والعقل والقلب ، وهو أن أي حدث مؤثر يؤدي إلى تغير تاريخي واضح ، ويُفترض أن تكون فيه معالم الجريمة وسير الأحداث جلياً بيّناً ، ثم تختفي كل دلائل الفاعل وتوزع الأدوار على أطراف متعددة ، ثم تختفي حقيقة ما جرى ، وتُثار الشبهات على أكثر من طرف ، وتتولد أسماء لا وجود لها إلى غير ذلك من التلبيس .

فإن أول من تنطبق عليهم هذه المواصفات من **محترفي الجريمة هم اليهود** أولئك الذين يفتخرون بقتل الأنبياء ، قال تعالى: ﴿ وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ﴾[3].

وقال عز وجل: ﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياءُ سنكتب ما قالوا **وقتلهم الأنبياء بغير حق** ونقول ذوقوا عذاب الحريق ﴾[4].

وإنّ نظرةً فاحصة في كثير من الأحداث التاريخية لتؤكد ذلك ولا سيما في ما مقتل نبي الله عيسى وما تعرّض له الأنبياء من الأذى على أيدي اليهود، الذي تملأ شواهده القرآن الكريم ، ثم مواقفهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغدر

---

(١) سورة النساء ، الآية (٥٩).

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٩٨/٧ ، ابن شبة ، تاريخ المدينة ، ٢٩٠/٢ .

(٣) سورة النساء ، من الآية (١٥٧).

(٤) سورة آل عمران ، (١٨١).

والتآمر على قتله ، ومحاولة إطعامه السمّ في خيبر ، إلا دليلاً على أصالـــة هـذا الخلق عندهم .

وقد تبين أن جميع الأسماء التي شاركت في اغتيال الخليفة الشهيد ﵁ هم من أعلام المقربين إلى ابن سبأ ، وهناك أسماء أخرى مجهولة بقيت لتؤكد جميعها على دور هذا الماكر الذي حرص في كل صفحات الجريمة ، ومن بعدها الفتنة أن يكون سرّياً، وأن لا يُكشف أمره، ولا يُنشر اسمه.

وبناءً على ذلك فإنّ لقب الموت الأسود لم يُعرف به أحد من المشـاركين فـي تنفيذ الجريمة ، مع التأكيد على حضور ابن سبأ لكل أدوارها، مما يُشير بوضـوح أنّ هذا اللقب اسم بديل ورمز يعرف به ابن سبأ لكي لا يُكشف دوره ، وليتمكـن من مواصلة اللعب في إدارة أحداث الفتنة اللاحقة ، وقد يكون اسم حمار واسـم جبلة بن الأيهم، أسماء حركية رمزية لابن سبأ إذ لا يوجد لهذه الأسماء حقيقـة كما أن الشواهد المعاصرة على مشاركة اليهود السرية في كثـير مـن الأحـداث العالمية يؤكد ما ذُكر سابقاً ، ومن ذلك إسقاط الملكية الفرنسية وإزالة القيصريـة الروسية ، وتبني الشيوعية ، وإدارة الرأسمالية ، وعزل السلطان عبـد الحميـد الثاني ، وإسقاط الخلافة العثمانية ووعد بلفور وإنشاء الأحزاب العلمانية في البلاد الإسلامية لإبطال العمل بالشريعة الإسلامية ووجود اليهود في فلسـطين ، وإدارة ما يسمى بالأمم المتحدة وكيفية تعاملها بمكيالين مع المسلمين واليهود، وتبرئتـها للقاتل اليهودي المحتل وإدانتها للمسلم المقتول المسلوب في أرضه ودياره، وكـل ذلك من وراء وراء وبمسميات برّاقة لامعة ، مثل مجلس الأمن ، قـانون الأمـن الدولي ، حقوق الإنسان قوات حفظ الأمن والسلام، وكل ذلك سعياً لطمس الإسـلام وقتل أهله تحت ما يسمى محاربة الإرهاب ... الخ وكل ذلك مؤيـد بالمؤسسـات الصليبية والعلمانية وغيرها ، والتي تعمل بمجموعها على إقصاء الإسـلام عـن الحياة العملية ، وقهر المسلمين واستباحة كل شيء من أجل تحقيق ذلك .

ـ ولعل ما يجري الآن في فلسطين في شهر محرم من عام ١٤٢٣ هـ نيسان ٢٠٠٢ م على أيدي اليهود المحتلين ، الذين يمتلكون كل أنواع الأسلحة بما فيها النووية والجرثومية ، والذي يشاهده ويسمعه العالم من قتل للناس وإتلاف للحياة تحت ما يُسمى بالدفاع عن النفس ، ضد أُناس مجردين من كل شيء حتى من الهراوات والسكاكين وفي أرضهم ومنازلهم ـ

يؤكد أن اليهود هم محترفو الإجرام ، وأنهم يُبيحون لأنفسهم كل شيء من أجل الوصول إلى أهدافهم ، وهذا ما ينطبق تماماً على ما قام به عبد الله بن سبأ حينما تظاهر باعتناق الإسلام ، ثم دان بالتُقية والسرّية التامة ، فنفث أفكاره العدوانية ، وأوحى عقائده اليهودية في عقول أتباعه ، حتى تمكن من إغواء كثير من أصحاب الأهواء ، ومحبي الشهرة والظهور ، ممن لم يتشربوا معاني الإسلام وأهدافه، ولم يتخلقوا بأخلاق أهله فاستحمرهم ، حتى أوقد بهم الفتنة التي ذهب ضحيتها الخليفة المصطبر على الحق يعطيه . وكان أمل ابن السوداء تسعير الفتنة في كل أمصار الدولة الإسلامية ، وأن تعود جاهلية كما كانت ، ولكنّ الصحابة الكرام تصدوا للمفسدين وأبطلوا كيد الماكرين ، عندما بايعوا علي بن أبي طالب أميراً للمؤمنين ، فنهضت الأمة من كبوتها ، ثم عادت إليها لحمتها بعد فترة وجيزة أكرم الله تعالى فيها من أكرم من أهل الخير والدين وأهان فيها من أهان من الخوارج والسبئيين ومن تعاون معهم . وبقيت عليهم اللعنة والسُبّة ، وعلى من دعا بدعوتهم أو سار على طريقتهم إلى يوم الدين .

موقف الصحابة من مقتل عثمان رضي الله عنه وبراءتهم من التقصير في الدفاع عنه

قال سعيد بن المسيب: قتل عثمان مظلوماً ، ومن قتله كان ظالماً ، ومن خذله كان معذوراً[1] وذلك أن الصحابة رضي الله عنهم « لم يكونوا يظنون أن الأمر يبلغ إلى قتله... وأما القتل فما كان يظن أحد أنه يقع ، ولا أنّ هؤلاء يجترئون عليه إلى ما هذا حده حتى وقع ما وقع والله أعلم »[2].

وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: « لم أكن أظن الناس يجترئون هذه الجوأة ولا يطلبون دمه »[3]. ولكن هؤلاء الخوارج اغتنموا غيبة كثير من أهل المدينة في أيام الحج ، وفي الثغور وفي الأقاليم ، وأن كثيراً من الصحابة اعتزل هذه الفتنة ولزموا بيوتهم ، فانتهزوا فرصتهم وصنعوا ما صنعوا من الأمر العظيم ، حين تسوروا على الخليفة فقتلوه رضي الله عنه .

موقف علي بن أبي طالب رضي الله عنه

فلما علم الصحابة بذلك الحدث الرهيب ، طاشت عقولهم وأنكروا نفوسهم **ولما بلغ علياً** رضي الله عنه قتل عثمان استقبل القبلة ثم قال: « اللهم لم أرض ولم أُمالىء »[4] وكان كثيراً ما يقول: « اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان ». « والله ما قتلت عثمان ولا أمرت ولا شركت ولا رضيت » . « اللهم لم أقتل ولم آمر ولم أشرك ولم

---

(١) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ٤١٩/٣٩ .

(٢) ابن كثير البداية والنهاية ، ٧/ ٢٠٧ .

(٣) الطبري ، تاريخ ، ٣٧٧/٤ .

(٤) ابن شبة ، تاريخ المدينة ، ٢٧٨/٢ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٠٣/٢ .

أرضَ في قتل عثمان ». « والله ما قتلت عثمان ولا مالأت على قتلـــه ، والله مـــا قتلت عثمان ولا مالأت على قتله » . « والله ما أمرت ، ولا قتلت ، ولكن غُلبت » . « والذي فلق الحبة وبَرَأَ النَّسمة ما قتلت عثمان ولا أمرت بقتله »[1].

وعن الحسن قال ، قتل عثمان وعلي غائب في أرض له ، فلما بلغه ، قـــال: اللهم إني لم أرض ولم أماليء وروي عن أبي العالية: « أن علياً دخل على عثمـــان فوقع عليه وجعل يبكي حتى ظنوا أنه سيلحق به »[2].

وعن قيس بن عبادة قال: سمعت عليا رضي الله عنه يقول: اللهم أبرأ إليك من دم عثمان ولقد طاش عقلي يوم قتل عثمان ، وأنكرت نفسي ، وجاؤوني للبيعة فقلت والله إنـــي لأستحي أن أبايع قوماً قتلوا عثمان رضي رضي الله عنه ، وإني لأستحي من الله أن أبـــايع ، وعثمان لم يدفن بعد ، فانصرفوا ، فلما رجع الناس فسألوني البيعة . قلت: اللهم إني مشفق مما أقدم عليه ، ثم جاءت عزيمة ، فبايعت فقالوا يا أمير المؤمنيـــن فكأنمـــا صدع قلبي ، وقلت: اللهم خذ مني لعثمان حتى ترضى [3].

وكان يُقسم في خُطَبِهِ وغيرها على أنه ما رضي وأنه نهى ولم يسمعوا منه .

قال ابن كثير: ثبت ذلك عنه من طرق تفيد القطع عند كثير من أئمة الحديث[4].

وسُمع وهو يقول: « والله ما أحببت قتل عثمان رضي الله عنه ، ولا أمرت به ، ولكـــنّ بنـــي عمي لاموني وزعموا أني صاحب ذلك ، فاعتذرت إليهم فأبوا أن يقبلوا عذري ثـــم اعتذرت فأبوا أن يقبلوا ، فعَنَدتّ فصمتّ ، قال: فسألته ، فقال: يقول: أتضرع إليهم ولا يقبلون فصمتّ »[5]. وقال في بعض خطبه: « قتل الله عثمان وأنا معه ، فأتـــاه محمد فقال: يا أمير المؤمنين ، ما تقول ؟ إن الناس يرون أنك شركت في دم عثمان

---

(١) المصدر السابق ، ٢٧٦/٢ وما بعدها .

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٠٣/٧ .

(٣) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٠٣/٧ ، ابن حجر الهيتمي ، الصواعق المحرقة ، ١٧٣.

(٤) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٠٣/٧ .

(٥) ابن شبة ، تاريخ المدينة ، ٢٧٢/٢ .

قال: « الله يتوفى الأنفُسَ حين موتها »[1] ما شركت في دمه ولا مالأت . قال: يعني قتل شهيداً وأقتل أنا شهيداً [2].

ولَعَنَ علي رضي الله عنه قتلة عثمان رضي الله عنه فقال: « اللهم العن قتلة عثمان في السهل والجبل »[3].

وعن محمد بن علي قال: صرخ صارخ يوم صفين قال: « يا ثارات عثمان فقال علي رضي الله عنه: اللهم أكبب اليوم قتلة عثمان لمناخرهم »[4].

وخطب علي رضي الله عنه فقال: « والله لئن لم يدخل الجنة إلا من قتل عثمان لا أدخلها ولئن لم يدخل النار إلا من قتل عثمان لا أدخلها . فلما كانت الجمعة الأخرى قال: أيها الناس ، إنكم قد أكثرتم في قتل عثمان ، ألا وإن الله قتله وأنا معه » أي وأنا معه سيقتلني ، قال ابن سيرين: هي كلمة عربية [5].

وقال علي رضي الله عنه: ما يَسُرُّني أني من آخر سبعين من قتلة عثمان وأن لي الدنيا وما فيها [6] .

وعن سويد بن غفلة قال: قال علي رضي الله عنه: « أيها الناس ، إياكم والغلو في عثمان تقولون حرق المصاحف ، والله ما حرقها إلا عن ملأ من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، ولو وليت مثل ما ولي لفعلت مثل الذي فعل »[7]. وخطب علي فقطع عليه الخوارج خطبته ، فنزل فقال: إن مثلي ومثل عثمان كمثل أثوار ثلاثة: أحمر

---

(١) سورة الزمر ، الآية (٤٢) .

(٢) ابن شبة ، تاريخ المدينة ، ٢٧٤/٢ .

(٣) ابن شبة ، تاريخ المدينة ، ٢٧٧/٢ ، ابن حنبل ، فضائل الصحابة ، ح ٧٣٣/١ إسناده صحيح .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) المصدر نفسه ٢٧٩/٢ . وينظر: ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ٢٨٣/٤ .

(٦) المصدر نفسه .

(٧) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٢٨/٧ . ابن حجر الهيتمي ، الصواعق المحرقة ، ١٧٧ .

وأبيض وأسود ، ومعهم في أجمة أسد ، فكان كلما أراد قتل أحدهم منعه الآخران فقال للأسود والأحمر: إن هذا الأبيض قد فضحنا في هذه الأجمة ، فخليا عنه حتى آكُله ، فخليا عنه فأكله ، ثم كان كلما أراد أحدهما منعه الأخر فقال للأحمر: إن هذا الأسود قد فضحنا في هذه الأجمة ، وإن لوني على لونك فلو خليت عنه أكلته فخلى عنه الأحمر فأكله ، ثم قال للأحمر: إني آكِلُك ، فقال: دعني حتى أصيح ثلاث صيحات ، فقال دونك ، فقال: ألا إني إنما أُكلت يوم أكل الثور الأبيض (ثلاثاً) فلو أني نصرته لما أُكلت ، ثم قال علي رضي الله عنه : وإنما أنا وهنت يوم قتل عثمان ولو نصرته لما وهنت [١].

وهذه النصوص تبين مدى الأثر الكبير والأسى العميق الذي تركه مقتل الخليفة عثمان رضي الله عنه في نفوس الصحابة ، ولقد حاول علي رضي الله عنه نصرته ومقاتلة الخوارج السبئية، لكنه لم يتمكن من ذلك ، لصلابة موقف الخليفة وشدة منعه الصحابة من حمل السلاح تجنباً للفتنة وإشفاقاً على المسلمين ، ولكن علياً رضي الله عنه كأنه يتمنى لو أنه تحمل مسؤولية الدفاع عن الخليفة مع كل ما يترتب من تبعات على ذلك .

وقد كان قال للحسن والحسين: اذهبا بسيفيكما حتى تقفا على باب عثمان ولا تدعا أحداً يصل إليه ، وبعث الزبير ابنه ، وبعث طلحة ابنه وبعث عدة من كبار الصحابة أبناءهم ، يمنعون الناس أن يدخلوا على عثمان ورماه الناس بالسهام حتى خُضب الحسن بالدماء ، وتخضب محمد بن طلحة وشُج قنبر مولى علي[٢]، وعن جابر بن عبد الله الأنصاري ، أن علياً رضي الله عنه أرسل إليه – إلىعثمان رضي الله عنه – إن معي خمسمائة دارع ، فأذْن لي فأمنعك من القوم ، فإنك لم تُحدث شيئاً يُستحل به دمك قال: جُزِيت خيراً ما أُحب أن يهراق دم في سببي[٣].

---

(١)ابن كثير، البداية والنهاية، ٧/٢٠٤،ابن شبة، تاريخ المدينة، ٢/٢٩٥، الهيثمي ، مجمع الزوائد ٧/٢٤٥.

(٢) ابن حبان ، الثقات ، ٢٦٣/ ٢، الذهبي ، تاريخ ، ٤٥٩.

(٣) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ٣٩/٣٩٨ .

وعن حماد بن زيد قال وعيناه تدمعان: رحم الله أمير المؤمنين حوصر نيفا وأربعين ليلة لم يبد منه كلمة يكون لمبتدع فيها حجة [١].

كل ذلك التحمل والصبر الذي صبره عثمان رضي الله عنه كان إحساسا بعمق المسؤولية التي في عنقه تجاه الأمة وأنه قادم على رسول الله ﷺ ، الذي توفي والأمة واحدة غير ممزقة ، وأن هدف عثمان الأسمى أن لا يكون « أول من خلف رسول الله ﷺ في أمته بإهراق دم مسلم بغير حق »[٢].

لذلك قال الحسن:« **عمل عثمان اثنتي عشرة سنة ما ينكرون من إمارته شيئا** »[٣]. وهي فترة خلافته ، فكان حرص عثمان على السير على جادة من قبله من الخلفاء الراشدين وراء منعه التام لأية محاولة للدفاع عنه بالسلاح. قال شداد بن أوس النجاري الأنصاري: رأيت عليا خارجا من بيته معتما بعمامة رسول الله ﷺ متقلدا سيفه، أمامه الحسن وابن عمر في نفر من المهاجرين والأنصار حتى حملوا على الناس وفرقوهم ثم دخل على الخليفة عثمان فقال له: « السلام عليك يا أمير المؤمنين: إن رسول الله ﷺ لم يلحق هذا الأمر حتى ضرب بالمقبل المدبر ، وإني والله لا أرى القوم إلا قاتلوك فمرنا فلنقاتل ، فقال عثمان: أنشد الله رجلا رأى لله حقا وأقر أن لي عليه حقا ، أن يهريق في سبيلي ملء محجمة من دم أو يهريق دمه في، فأعاد عليه القول ، فأجابه بمثل ما أجابه . قال: فرأيت عليا خارجا من الباب وهو يقول: « اللهم إنك تعلم أنا بذلنا المجهود »[٤] .

وقال علي للحسن رضي الله عنهما وهما في الكوفة: « **تركنا ابن عمنا وابن عمتنا حتى قتل ثم صرنا أضيافا على الناس يحكم فينا دوان العرب ، كان الرأي ألا**

(١) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ٣٩/٤٠٠ .

(٢) ابن شبة ، تاريخ المدينة ، ٢/٢٤٦ .

(٣) الذهبي ، تاريخ ، ٢/٤٧٧ .

(٤) المحب الطبري ، الرياض النضرة ، ٢/٦٨ .

يقتل عثمان رضي الله عنه »[1] وخطب علي الناس في منبر مسجد الكوفة ، فنادى بأعلى صوته ثلاث مرات يا أيها الناس ، يا أيها الناس ، يا أيها الناس ، إنكم تكثرون في عثمان فإن مثلي ومثله كما قال عز وجل : ﴿ ونزعنا ما في صدروهم من غلّ إخواناً على سرر متقابلين ﴾[2] .

وروي عنه أنه قال: إني والله لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير[3] رضي الله عنهم ممن قال الله تعالى فيهم:﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غلّ إخواناً على سرر متقابلين ﴾ .

وثبت عنه أنه قال: كان عثمان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا . وقال: خيرنا وأوصلنا للرحم ، وأشدنا حياء وأحسننا طهوراً وأتقانا للرب عز وجل [4].

وكان عثمان رضي الله عنه يدعو الله تعالى فيقول:« اللهم أصلح لي علياً وأصلحني له»[5] قال ابن سيرين:« لقد قتل عثمان يوم قتل وما أحد يتهم علياً »[6] وإنما هذه الإتهامات من صناعة أعداء الصحابة الذين لا زالوا يمكرون بالأمة لتفريق صفوفها ، وتمزيق وحدتها وطمس عقيدتها . وقد كان مصاب علي في عثمان عظيماً ، إذ فقد فيه الأخ الحبيب والقريب الأريب ، فضلاً عما ترك من أعباء الخلافة وقيادة الأمة التي وقعت على كاهل علي رضي الله عنه لذلك كان يبكيه ويتألم لما وقع له ، روى البلاذري عن

---

(١) ابن شبة ، تاريخ المدينة ، ٢/٢٦٠ .

(٢) سورة الحجر ، (٤٧) ، ابن حنبل فضائل الصحابة ، ح ١/ ٢٧٩ ، ابن شبة ، تاريخ المدينة ٢/ ٢٠٠ ابن حجر ، المطالب العالية ح (٤٤٥٣) .

(٣) المحب الطبري ، الرياض النضرة ، ٢/ ٢٦٠ ، ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٧/ ٢٠٣ .

(٤) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٧/ ٢٠٤ ، ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ٤/ ٢٨٥ ، ابن الجوزي ، صفة الصفوة ، ١/ ٣٠٦ .

(٥) ابن بكار ، الموفقيات ، ٦١٠ .

(٦) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ٦/٢٢٣ ، ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ٣/ ١٠٣٥ .

الحسن قال:« **دخل علي رضي الله عنه يوماً على بناته وهن يمسحن عيونهن فقال: ما لكنّ تبكين ؟ قلنّ: نبكي على عثمان ، فبكى ، وقال: إبكين** »[1] .

لذلك فإن من أكبر العلامات الدالة على أذناب الخوارج السبئية ، أعداء الصحابة رضي الله عنهم أنهم يفرقون بين عثمان وعلي رضي الله عنهما في المحبة والمولاة ويقولون : « إن حب عثمان وعلي لا يجتمعان في قلب واحد ، فقال أنس ــ بن مالك رضي الله عنه ــ كذبوا والله لقد اجتمع حبهما في قلوبنا »[2] فمن لم يجتمع في قلبه حب عثمان وعلي رضي الله عنهما ، فإن فيه خصلة سبئية ونزعة شعوبية ونفخة يهودية لأن الله تعالى أحبهما ورسوله ﷺ والمؤمنون ، ولا بد من حب ما أحب الله ورسوله ﷺ والمؤمنون فبقي علي رضي الله عنه لا يمر بضائقة من الناس ، إلا ويذكر عثمان رضي الله عنه وما مرَّ به من الحصار والضيق، فكان مصابهما واحَداً وعدوهما واحداً مما يدل على قوة الرابطة التي كانت بين الصحابة رضي الله عنهم ، وأن كلّ الروايات التي تحاول أن تُسيء تصوير وشائج الأخوة والمودة بين عثمان وعلي رضي الله عنهما أو بينهما وبين بقية الصحابة ما هي إلا أباطيل أُشيعت وأساطير نسجت تتهار جميعها بعد التمحيص ، وأمام ثناء الله تعالى ورسوله ﷺ على الصحابة الكرام .

وما قيل في موقف علي رضي الله عنه من محنة الخليفة عثمان رضي الله عنه واستشهاده يقال في **موقف الزبير بن العوام** رضي الله عنه: قال مليح بن عوف السلمي للزبير: يا أبا عبد الله ما هذا ؟ – يسأل عن مقتل عثمان رضي الله عنه – قال: عُديَ على أمير المؤمنين فقُتل بلا ترة ولا عذر قال: ومَنْ ؟ قال: **الغوغاء من الأمصار ونُزّاع القبائل وظاهرهم الأعراب والعبيد**[3] وعن أبي حبيبة – وهو جد موسى بن عقبة راوي السيرة أبو أمه – قال:

---

(١) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ٦/ ٢٢٦ .

(٢) ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ٣/ ١٠٥٣ .

(٣) الطبري ، تاريخ ، ٤/٤٦١ .

بعثني الزبير إلى عثمان وهو محصور فدخلت عليه في يوم صائف ، وهو على فرش ذي ظهر ، وعنده الحسن بن علي وأبو هريرة وعبد الله بن عمرو وعبد الله ابن الزبير ، وبين يديه مراكن ماء مملوءة ورياط مطرحة فقلت بعثني إليك الزبير وهو يُقرئك السلام ويقول: إني على طاعتك لم أبدل ولم أنكث فإن شئت دخلت الدار معك فكنت رجلاً من القوم ، وإن شئت أقمت ؛ وإنّ بني عمرو بن عوف - وهم أكبر قبائل الأنصار- وعدوني أن يُصبحوا على بابي ثم يمضوا لما آمرهم به فلما سمع الرسالة قال الله أكبر ، الحمد لله الذي عصم أخي ، أقرئه السلام ، وقل له إن يدخل الدار لا يكون إلا رجلاً من القوم فمكانك أحبّ إلي وعسى أن يدفع الله بك عني فلما سمع الرسالة أبو هريرة قام فقال: ألا أخبركم بما سمعت أذناي من رسول الله ﷺ ؟ قالوا بلى يا أبا هريرة قال: أشهد لسمعت رسول الله ﷺ ، يقول: تكون بعدي فتن وأمور وأحداث قلنا: فأين المنجا منها يا رسول الله ؟ قال إلى الأمين وحزبه ، وأشار إلى عثمان بن عفان فقام الناس فقالوا: قد أمكنتنا البصائر فأْذن لنا في الجهاد فقال عثمان: عزمت على من كانت لي عليه طاعة ألا يقاتل قال: فبادر الذين قتلوا عثمان ميعاد بني عمرو بن عوف فقتلوه رضي الله عنه [1].

فإذا كانت هذه النصوص تؤكد على بطلان ما يروى وما يُكتب وما يُشاع عن تقصير بعض الصحابة رضي الله عنهم في الدفاع عن الخليفة المظلوم ، فإنها تؤكد أيضاً على التحفز الدائم الذي يُظهر استعداد الصحابة المستمر لتنفيذ أي أمر يصدر من الخليفة مما يوحي بانضباطهم التام وتعاونهم الكامل معه، ولكن في الوقت ذاته يتضح من هذه النصوص أيضاً أن أعداء الصحابة ، كانت لهم إدارة تراقب ما يجري حولها وأنها كانت تعمل ما في وسعها أن لا تصطدم مع أهل المدينة على نطاق واسع قد يحول بينها وبين هدفها المتمثل في إسقاط الخليفة أو قتله ، الذي سارعوا إلى تنفيذه

---

(١) ابن حنبل ، فضائل الصحابة ، فضائل عثمان ، ٨٣٦/١ وإسناده صحيح .

منذ أن علموا باتفاق الزبير وبني عمرو بن عوف على الحصول على موافقة الخليفة للدفاع عنه .

ومن المحتمل أنه توافق وصول هذا الاتفاق ، مع الأخبار القائلة بتهيؤ الأمصار لإرسال أمداد إلى المدينة .

ومما يؤكد ذلك ما ظهر من سرعة تنفيذ اغتيال الخليفة المظلوم رضي الله عنه في آخر أيام الحصار ، فلما تردد بعض المنفذين ، برز اسم جديد معهم هو **الموت الأسود** الذي لم يُذكر إلا في عملية الاغتيال مما يوضح الدور الفاعل لهذا الشخص في صنع القرار مع زعماء الغوغاء من الخوارج السبئية ، الذين كانوا يسمعون له ويعظمونه ، وأن هذه المواصفات لا تتوفر ولا تنطبق إلا على ابن سبأ ، الذي اشتهر بالمكر والدس بين المسلمين ، وتأكد طعنه على الولاة والأمراء ، وإصواره المستمر على إثارة الفتن والنعرات وتغذية الأحقاد ، تحت مظلة الحرص على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، **فما هذا اللقب الموت الأسود** ؟ إلا رمزاً له استخدمه لحسم قتل الخليفة قبل فوات الأوان ، وقد يكون اسمًا حمار وجبلة بن الأيهم رمزين لبعض أعوانه !! وإلا فمن هؤلاء ؟ ومما يُظهر استعداد الصحابة لطاعة الخليفة والتعاون التام معه أنه كتب « إلى عبد الله - بن مسعود - يعزم عليه أن لا يضع كتابه من يده حتى يشخص إليه قال: فأتى بالكتاب فجعل يذهب ويجيء والكتاب في يده لا يقرأه فقالت له أمه: أين تذهب ، والكتاب في يدك ؟ افتح الكتاب فاقرأه ، فقال: يا بنت الكافرين[١] أتريدين أن أبيت عاصياً لأمير المؤمنين أو أشخص من ليلتي »[٢].إن حرص ابن مسعود على طاعة الخليفة هذا هو المعروف عنه وعن بقية الصحابة وهذا ما يتفق مع تربيتهم النبوية ، وعلومهم

---

(١) أكثر أهل الصحابة الذين لم يدركوا الإسلام كانوا مشركين كافرين ، فلم يكن في قوله هذا انتقاص أو عقوق لوالدته .

(٢) ابن حنبل ، فضائل الصحابة (٧٤٣) إسناده صحيح .

القرآنية ، وفي ذلك الرد الملجم للزنادقة الذين لاهمَّ لهم سوى اختلاق الأساطير[١] وإلصاقها بالصحابة لتشويه سيرتهم واستغلال ذلك للتفريق بين المسلمين . وهذا ما كان يُدركه عبد الله بن مسعود وغيره من الصحابة ﷺ فعند ما ذكر عنده الخليفة بما لا يليق بيّن مكانته فقال: « لئن قتلتموه لا تصيبون مثله »[٢] وعن مسلم بن سعيد قال: ما سمعت ابن مسعود « قائلاً في عثمان رضي الله عنه سَوَاقِط ، ولقد سمعته يقول: لئن قتلتموه لا تستخلفون »[٣] وقال رضي الله عنه: « ما سرني أني رميت عثمان بسهم أصاب أم أخطأ وأنّ لي مثل أُحد ذهباً »[٤].

ولما منعت الخوارج الماء عن الخليفة **قال عمار بن ياسر** رضي الله عنه: « **سبحان الله قد اشترى بئر رومة وتمنعوه ماءها** »[٥].

أما أبو بكرة نفيع رضي الله عنه فكان يقول: لئن أخِرّ من هذه السَّحابة ، فأتقطع ، أحبُّ إليَّ من أن أكون شَرِكْتُ في دم عثمان رضي الله عنه [٦]. وقد كانوا والله صادقين ، ولحقوق أخوّتهم حافظين ، بقول الله تعالى: ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾[٧] عاملين ، وهذا ما يغيظ الزنادقة والمنافقين فصنعوا الروايات المغرضة والأخبار الموهمة ليؤكدوا عداوتهم لأصحاب سيد المرسلين ﷺ .

وقال **مرّة بن شراحيل**[٨]: « لئن أكن يومئذ قُتلت مع عثمان في الدار أحب إلي

---

(١) ينظر: المحب الطبري ، الرياض النضرة ، ٢/ ٤٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ٢/ ٩٦ ، وينظر: ابن حنبل ، فضائل الصحابة ، ح (٧٥٩) .

(٣) ابن شبة ، تاريخ المدينة ، ٢/ ٢٦٩ .

(٤) ابن شبة ، تاريخ المدينة ، ٢/٢٦٩ .

(٥) المحب الطبري ، الرياض النضرة ، ٩٨/٢ .

(٦) ابن شبه ، تاريخ المدينة ، ٢٦٩/٢ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٠٤/٢ .

(٧) سورة الحجرات ، من الآية (١٠) .

(٨) مره بن شراحيل البكيلي الهمداني السكسكي ، أبو إسماعيل الكوفي المعروف بـ « مرة الطيب » و «مرة الخير » لعبادته ، تابعي ثقة توفي سنة (٧٦هـ) ينظر: المزي ، تهذيب الكمال ، ٨٨/١٠.

من كذا وكذا »[1] ولما بلغ **أبا حميد الساعدي** الأنصاري وهو من أهل بدر ، مقتل عثمان قال: « **اللهم إن لك علي أن لا أفعل كذا وكذا ولا أضحك حتى ألقاك** »[2].

أما **سعيد بن زيد** بن عمرو بن نفيل أحد المبشرين بالجنة ، فإنه عد قتل الخليفة ﷺ عملا موغلا في الجريمة، وأنه أكبر مما كان يقترف المشركون بحق المسلمين في مكة فقال: « لقد رأيتني وإن عمر موثقي وأخته على الإسلام ، ولو ارفض أحد فيما صنعتم بابن عفان لكان حقيقا » [3]إن ما اقترفته الأيدي الآثمة كان شرا مما ارتكبه الذين قتلوا ناقة نبي الله صالح ، قال **أبو مسلم الخولاني** حين رأى « الذين قدموا من قتله ﷺ: إنكم مثلهم أو أعظم جرما ، أما مررتم ببلاد ثمود ؟ قالوا: نعم، قال: فأشهد أنكم مثلهم، لخليفة الله أكرم عليه من ناقته »[4] قال تعالى: ﴿ ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب ۞ فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ۞ فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو القوي العزيز ﴾[5]. ورؤي **عبد الله بن سلام** يوم قتل الخليفة وهو يبكي ويقول اليوم هلكت العرب[6] .

وسمع عبد الله بن سلام رجلا يقول لآخر: قتل عثمان بن عفان فلم ينتطح فيه عنزان ، فقال ابن سلام: أجل إن البقر والمعز لا تنتطح في قتل الخليفة ولكن ينتطح فيه الرجال بالسلاح ، والله ليقتلن به أقوام إنهم لفي أصلاب آبائهم وما ولدوا

---

(١) ابن حنبل ، فضائل الصحابة ، ح (٧٤١) .

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٠٤/٧ .

(٣) المصدر نفسه ، البخاري ، مع شرحه فتح الباري ، ك مناقب الأنصار ، باب إسلام سعيد بن زيد ح (٣٨٦٢) و ح (٣٨٦٧) .

(٤) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٠٥/٧.

(٥) سورة هود ، الآيات (٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦) .

(٦) ابن شبه ، تاريخ المدينة ، ٢٢٧/٢.

بعد[١] وقال: « يحكم عثمان يوم القيامة في القاتل والخاذل »[٢] وكان ابن سلام مُعظماً للخليفة مستعداً للتضحية بنفسه افتداء له ، وذلك لما لديه من علم بخطورة الإقدام على النيل منه ، فجاء قُبيل قتل الخليفة فدخل عليه: « فوجد عثمان وحده في الدار ليس معه أحد ، قد عزم على الناس أن يخرجوا عنه فخرجوا فسلّم ... فقال له أمير المؤمنين ما جاء بك يا عبد الله بن سلام ، قال: جئت لأبيت معك حتى يفتح الله لك أو أستشهد معك ، فإني لا أرى هؤلاء إلا قاتليك ، فإن يقتلوك فخير لك وشرّ لهم قال عثمان: فإني أعزم عليك بما لي عليك من الحق لما خرجت إليهم خير يسوقه الله بك أو شر يدفعه الله بك ، فسمع وأطاع فخرج إلى القوم فلما رأوه عظّموه ، وظنوا أنه قد جاءهم ببعض الذي يسرهم فقام خطيباً ، فاجتمعوا إليه فحمد الله وأثنى عليه فقال إن الله بعث محمداً ﷺ بشيراً ونذيراً ، يُبشر بالجنة ويُنذر بالنار فأظهر الله من اتبعه من المؤمنين على الدين كله ولو كره المشركون ، ثم اختار الله له المساكن فجعل مسكنه المدينة ... ثم إنه كان من قبلكم من الأمم إذا قُتل النبي بين ظهرانيهم كانت ديته سبعين ألف مقاتل كلهم يقتل به ، وإذا قتل الخليفة كانت ديته خمسة وثلاثين ألف مقاتل كلهم يقتل به ، فلا تعجلوا إلى هذا الشيخ أمير المؤمنين بقتل اليوم ... ثم أُقسم لكم بالله الذي نفسي بيده لا يقتله رجل منكم إلا لقي الله عز وجل يوم القيامة مشلاّ يده مقطوعة ... فلا تسلوا سيف الله بعد أن غُمد عنكم ... فلما قال ذلك لهم قاموا يسبونه ويقولون كذب اليهودي فقال لهم عبد الله كذبتم والله وأثمتم وما أنا باليهودي وإني لأحد المؤمنين يعلم ذلك الله ورسوله والمؤمنون ... قال تعالى ﴿ قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴾[٣] ... ودخلوا على عثمان فذبحوه ... فقال: « يا أهل مصر يا قتله

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٠٤/٧ ، ابن شبه ، تاريخ المدينة ، ٢٢٧/٢.

(٢) المصدر نفسه .

(٣) سورة الأحقاف، الآية (١٠).

عثمان ، أقتلتم أمير المؤمنين ؟ فوالذي نفسي بيده لا يزال بعده عهد منكوث ودم مسفوح ومال مقسوم أبداً ما بقيتم »[١].

وكان ابن سلام يتردد إلى الخليفة فيُحدثه ببعض أموره حتى أنه حدثه بالرؤيا[٢] التي رأها قبيل استشهاده رضي الله عنه ، وكان يخرج من عند الخليفة ويحذّر الخوارج من تبعات الفتن وعواقبها الوخيمة [٣].

لقد حاول الصحابة رضي الله عنهم الدفاع عن الخليفة بكل الوسائل ، لكن كانوا يواجهون بأمرين الأول: إصرار الخليفة على منع الدفاع عنه خشية من أن يكون سبباً في إيقاظ الفتنة. والثاني: باطنية الخوارج وتمويههم ، وتظاهرهم بأنهم إنما يطالبون ببعض حقوقهم ، إلا أن بعض الصحابة كان يعرض نفسه لافتداء أمته ووحدتها وخلافتها .

قال **أبو هريرة**: دخلت على عثمان يوم الدار فقلت يا أمير المؤمنين ، اليوم طاب الضرب معك فقال: يا أبا هريرة ، أيسرّك أن تقتل الناس جميعاً وإياي ؟ قال: قلت لا قال: فإنك والله إن قتلت رجلاً واحداً فكأنما قتلت الناس جميعاً قال: فرجعت ولم أقاتل [٤].

قال تعالى: ﴿ من قتل نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ﴾[٥]. وكان أبو هريرة أيام الفتنة، متقلداً سيفه حتى نهاه عثمان رضي الله عنه ، وقال: أعزم عليك لتخرجن[٦]. وقال إني لمحصور مع عثمان في الدار ، فرُمي رجل منا فقلت: يا أمير المؤمنين ، الآن طاب الضراب

---

(١) ابن حنبل ، فضائل الصحابة ، ح (٧٧٤) ، ابن شبه ، تاريخ المدينة ، ٢/٢٢٥.

(٢) ابن حنبل ، فضائل الصحابة ، ح (٧٩٢) .

(٣) المصدر نفسه ، ح (٧٩٥) ، ابن شبه ، تاريخ المدينة ، ٢/٢٢٤.

(٤) ابن سعد ، الطبقات ، ٣/٣٩.

(٥) سورة المائدة، من الآية (٣٢) .

(٦) ابن خياط ، تاريخ ، ١٧٣.

قال: وقتلوا منا رجلاً ، قال: عزمت عليك يا أبا هريرة إلا رميت سيفك ، **فإنما تراد نفسي وسأقي المؤمنين بنفسي** قال أبو هريرة: فرميت سيفي ولا أدري أين هو حتى الساعة [١].

فلما قتل عثمان رضي الله عنه ذُهل أبو هريرة ، وكان يقول: « ولـــه ظفيرتـــان وهـــو ممسك بهما، اضربوا عنقي ، قُتل والله عثمان على غير وجه الحق »[٢].

قال راعي الإبل النميري في ذلك:

عشيّة يدخلون بغيــر إذن — على متوكــل أوفـــى وطـــابا

خليل محمد ووزير صدق — ورابع خير من وطىء الترابا[٣].

إن الخوارج الآثمون عندما حددوا هدفهم بخلع الخليفة أو قتله لم يأت ذلك عبثاً وإنما أرادوا أن يضربوا الأمة في قلبها وصمام أمانها لكي ينفرط عقد الوحدة فيـــها ويتداخل نظامها فتتصادم فيما بينها ، فتتمزق وحدتها وتتصارع قواها ، لذلك كـــان المصاب عظيماً والجرح عميقاً ، آلم كل أبناء الأمة وفي كل مواقعهم ، فمنهم مـــن لزم بيته ولم يخرج منه ، قال يسار بن عبد الرحمن: « **ما مات ناس من أهـــل بـــدر حتى لزموا البيوت بعد قتل عثمان** رضي الله عنه **فما خرجوا من بيوتـــهم إلا إلـــى قبورهـــم** »[٤]. ومنهم من خرج من المدينة فلم يعد إليها إلى قبيل وفاته ، قال يزيد بن أبي عبيد لما قتل عثمان رضي الله عنه: « خرج **سلمة بن الأكوع** من المدينة قِبَل الرَّبَـــذة فلم يـــزل حتـــى قبيل أن يموت »[٥]. وهذا ما فعله محمد بن مسلمة الأنصاري رضي الله عنه كما سبق[٦]. قال **كعب بن مالك** الأنصاري رضي الله عنه:

---

(١) ابن خياط ، تاريخ ، ١٧٣ ، ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ٣/١٠٤٦.

(٢) ابن شبه ، تاريخ المدينة ، ٢/٢٦٦.

(٣) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢/٢٠٧.

(٤) ابن شبه ، تاريخ المدينة ، ٢/٢٦٤.

(٥) المصدر نفسه .

(٦) ينظر: تصور الصحابة للفتنة .

يا للرجال لأمر هاج لي حزنـــاً	لقـــد عجبت لمن يبكي على الدمن
إني رأيت قتيلَ الدار مضطهداً	عثمان يُهدي إلى الأجداث في كفن
يا قَاتَـــلَ اللهُ قوماً كان أمرهـــم	قتل الإمام الــزكي الطيــب الردن
ما قاتلــوه على ذنــب ألــم بــه	**إلا الذي نطقوا زوراً ولــم يكــن** [1]

ومما أوقع الصحابة ﷺ في الحيرة والألم مما حصل أنّ الخليفة ﷺ لم يُلـــمّ بذنب وإنما لُفقت له التهم وكُتبت على لسانه وألسنة بعض الصحابـــة ﷺ الكتـــب المكذوبة [2]، ثم أشيعت بين الناس على أنها حقائق فتناقلـــها الغوغـــاء واســـتغلتها الخوارج ، وهذا ما عبّر عنه كعب بن مالك ﷺ في قوله:

ما قاتلوه على ذنب ألمّ به	**إلا الذي نطقوا زوراً ولم يكن**

لذلك « لبس **ابن عمر** الدرع مرتين يوم الدار »[3] استعداداً للقتال والتضحية، لدفع ما يرى من الظلم والأذى الذي لحق بالخليفة فكان « يومئذ متقلداً سيفه حتى عـــزم عليه عثمان أن يخرج مخافة أن يُقتل »[4] فكان إصرار الصحابة على الدفاع عـــن عثمان ﷺ مبنياً على إيمان عميق بصدق الخليفة وبهتان الخوارج فـــي كـــل مـــا يدّعون ، فالصحابة شهدوا وسمعوا كل ما تطالب به الخوارج من المطالب المفتعلـة والتي منها الإعتراض على أنه ولّى بعض أقاربه فقال لهم: « **فليقم أهل كـــل مصـــر فليسألوني صاحبهم الذي يُحبون فأستعمله عليهم ، وأعزل عنهم الذي يكرهون .** فقـــال أهل البصرة: رضينا بعبد الله بن عامر فأقرّه علينا . وقال أهل الكوفة: إعزل عنـــا سعيداً، واستعمل علينا أبا موسى الأشعري ، ففعل. وقال أهل الشام: رضينا بمعاوية فأقره علينا ، وقال أهل مصر: إعزل عنا ابن أبي سرح ، واستعمل علينا عمرو بن

---

(١) ابن عبد البر ، لاستيعاب ، ١٠٥٠/٢.

(٢) ابن شبه ، تاريخ المدينة ، ٢٤١/٢ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٩٦/٧و ١٨٣/٧و ١٨٤/٧.

(٣) ابن خياط ، تاريخ ، ١٧٣. ابن حنبل ، فضائل الصحابة، ح (٧٦٣) .

(٤) ابن شبه ، تاريخ المدينة ، ٢٢٤/٢.

العاص ، ففعل ، فما جاؤوا بشيء إلا خرج عنه »[1] هذا فضلاً عن مكانة عثمان العالية في زمن رسول الله ﷺ . والتي يريد الخوارج طمسها بأكاذيبهم ، قال ابن عمر: « كنا في زمن النبي ﷺ لا نعدل بأبي بكر أحداً ، ثم عمر ثم عثمان ، ثم نترك أصحاب النبي ﷺ لا نفاضل بينهم »[2].

وكان **ابن عمر** رضي الله عنهما يقول: « لا تسبوا عثمان فإنا كنا نعده من خيارنا »[3] ومثلما كان مدافعاً عنه في حياته ، أخلص له بعد وفاته ، وبعد أن أكثر أعداء الصحابة من الإشاعات المكذوبة عليه ولا سيما في مصر التي كان يسكنها ابن سبأ وقد « جاء رجل من أهل مصر حجّ البيت ، فرأى قوماً جلوساً فقال: من هؤلاء القوم ؟ فقالوا هؤلاء قريش. قال: فمن الشيخ فيهم ؟ قالوا: عبد الله بن عمر. قال: يا ابن عمر إنّي سائلك عن شيء فحدثني عنه: هل تعلم أنّ عثمان فرَّ يوم أُحد؟ قال: نعم . فقال: تعلم أنه تغيّب عن بدر ولم يشهد ؟ قال: نعم. قال الرجل هل تعلم أنّه تغيّب عن بيعة الرضوان فلم يشهدها ؟ قال: نعم . قال: الله أكبر . قال ابن عمر: تعال أُبيِّن لك . أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله عفا عنه[4] وغفر له. وأما تغيّبه عن بدر فإنه كانت تحته بنت رسول الله ﷺ وكانت مريضة ، فقال رسول الله ﷺ « إن لكَ أجر رجل ممن شهد بدراً وسهمه ». وأما تغيّبه عن بيعة الرضوان فلو كان أحد أعزّ ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه ، فبعث رسول الله ﷺ عثمان وكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان إلى مكة ، فقال رسول الله ﷺ بيده

---

(١) ابن شبة ، تاريخ المدينة ، ٢/١٨٩ .

(٢) البخاري ، مع شرحه فتح الباري ، ك مناقب الأنصار ، باب مناقب عثمان ﷺ ، ح (٣٦٩٨) ابن شبه تاريخ المدينة ، ٢/١٩٠ ، ابن حنبل ، فضائل الصحابة ، (٧٤٤) .

(٣) ابن حنبل ، فضائل الصحابة ، ح (٧٤٤) .

(٤) سورة آل عمران الآية (١٥٥) قال تعالى: ﴿ إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا **ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور رحيم** ﴾.

اليمنى « **هذه يد عثمان** » فضرب بها على يده فقال: « **هذه لعثمان** ». فقال له ابن عمر « **اذهب بها الآن معك** »[١].

واستمر إخلاص الصحابة لبعضهم بعضا بعد مماتهم **وامتد إلى أبنائهم** ، فقد سئل **سالم بن عبد الله بن بن عمر** من بعض المجانبين لعثمان رضي الله عنه . عن مثل هذه المسائل ، فأجابه سالم بما ألجمه وأظهر الفضائل العظيمة التي كان يتصف بها عثمان رضي الله عنه [٢].

أما الحسن بن علي رضي الله عنهما فقد كان من أشد الناس حبا لأمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه في حياته وبعد استشهاده، وكل ذلك برعاية علي رضي الله عنه ورغبته عن عاصم بن سليمان: أن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: « رحت إلى الدار وغدوت إليها شهرا ، وعثمان رضي الله عنه محصور ، كل ذلك بعين علي رضي الله عنه ما نهاني يوما قط ، قال: فقام إليه يوم زحف إليه فقال: يا أمير المؤمنين علام تكف الناس ؟ والله لقد حل لك قتالهم ، والناس جادون فأذن للناس في قتالهم . فقال: يا ابن أخي أعزم عليك بحقي عليك إلا لحقت بأهلك »[٣] ولما حاول الخوارج السبئية الاقتحام على عثمان في داره ، كان الحسن في مقدمة المدافعين عنه حتى جرح وحمل جريحا[٤] وكذلك **الحسين بن علي** رضي الله عنهما ، قال كنانه مولى صفية أم المؤمنين: كنت فيمن يحمل الحسين جريحا من دار عثمان[٥]. وبعد استشهاد عثمان رضي الله عنه كان الحسن يقول لمن يراه من الخوارج السبئية الباطنية: « لا مرحبا بالوجوه

---

(١) البخاري ، مع شرح فتح الباري ، ك فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب عثمان رضي الله عنه ، ح (٣٦٩٩) ابن حنبل ، فضائل الصحابة ، فضائل عثمان ، ح (٧٣٧) .

(٢) ابن حنبل ، فضائل الصحابة ، فضائل عثمان، ح (٧٨٤) .

(٣) ابن شبه ، تاريخ المدينة ، ٢/٢٤٦.

(٤) المصدر السابق ، ٢/١٩٩، الذهبي ، الخلفاء الراشدون ، ٤٥٩ .

(٥) المصدر نفسه .

ولا أهلاً ، **مشائم هذه الأمة من فتق فيها الفتق العظيم** . أما والله لولا عَزْمَت أمير المؤمنين ـــ عثمان ـــ علينا لكان الرأي فيكم ثابتاً »[١]. و « جاء قوم يطلبون علياً رضي الله عنه بعد قتل عثمان رضي الله عنه فلم يجدوه ، فسألوا الحسن بن علي رضي الله عنهما: أين أمير المؤمنين ؟ قال: **في حَش كوكب** – رحمة الله عليه - يعني عثمان رضي الله عنه »[٢].

وكان الحسن يذكر قتلة عثمان رضي الله عنه فيلعنهم قال: « لعن الله قتلة عثمان ، فقال رجل: أما إنهم يزعمون أن علياً قتله . فقال: قتله من قتله ، لعن الله قتلة عثمان، ثم قال: قال علي: أنا وعثمان وطلحة والزبير كما قال الله: « ونزعنا ما في صدورهم من غِلٍّ إخواناً على سرر متقابلين »[٣].

إنما قام به الحسن بن علي رضي الله عنهما من دفاع مستميت عن خليفته ومن قربه منه في أحلك الظروف ، وثباته معه ، حتى كان آخر من خرج من عنده[٤]، وكراهيته ولعنه للسبئية القتلة الآثمين ، واعترافه بخلافة عثمان حتى وهو في قبره بالبقيع ـــ في حَش كوكب ـــ ليمثل رداً على الذين لا زالوا يُثيرون الأحقاد ويعملون جادين على هدم بناء الأمة ، وذلك بما يُؤكد قوة الروابط التي كانت قائمة بين عثمان وعلي وآلهما رضي الله عنهم .

وقد يكون الصلح الذي قام به الحسن رضي الله عنه بين أهل العراق وأهل الشام لحقن دماء المسلمين وتوحيد الصفوف ، وقطع السبل على الخوارج السبئية وأعوانهم من الزنادقة الغوغاء ، ما هو إلا أثر من آثار الإقتداء بالخليفة الراشدي عثمان رضي الله عنه الذي ضحى بروحه وبمنصبه وبالدنيا جميعها من أجل سلامة الدين ووحدة المسلمين .

لقد مثل استشهاد عثمان رضي الله عنه بهذه الطريقة الهمجية الوحشية، صدمة عنيفة

---

(١) ابن شبة ، تاريخ المدينة ، ٢/١٩٩ و ٢/٢٨٤ وفيها بدل ثابتاً ، نابلاً أي حاذقاً .

(٢) ابن شبه ، تاريخ المدينة ، ٢/٢٠٠ ، ٢/٢٨٤ .

(٣) المصدر نفسه ، ٢/٢٠٠ ، ٢/٢٨٥ . المحب الطبري ، الرياض النضرة ، ٢/٨٠ .

(٤) ابن خياط ، تاريخ ، ١٧٤. ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٧/ ١٨٦ .

لجميع المسلمين لكن الحسن بن علي رضي الله عنهما كان أشدّ تأثراً وأكثر تألماً إذ بقيت معالمها تدور في خاطره حتى بعد أن رحل عن الموقع الـذي جـرت فيـه الجريمة الكبرى ، فقد خطب في الكوفة فقال: « ما كنت لأقاتل بعد رؤيـا رأيتـها رأيت العرش ورأيت رسول الله ﷺ متعلقاً بالعرش ، ورأيت أبا بكر واضعاً يـده على منكب رسول الله ﷺ ، وكان عمر واضعاً يده على منكب أبي بكـر ورأيـت عثمان واضعاً يده على منكب عمر ، ورأيت دماً دونهم ، فقلت: ما هذا ؟ فقيـل: **دم عثمان يطلب الله به** »[1]. وفي رواية ثم جاء عثمان فكان بيده رأسـه ، فقـال: ربِّ سل عبادك فيم قتلوني ؟ فانبعث ميزابان من دم في الأرض ، فقيل لعلـي ﷺ ، ألا ترى ما يُحدّث به الحسن فقال: حدث بما رأى[2].

فمن هذه المواقف التي كان يتخذها الحسن ﷺ مؤمناً بها معلناً لـها ، يمكـن معرفة توجهاته التي بنى عليها سياسته في حياة الخليفتين عثمان وعلي رضـي الله عنهما وما اتخذه من موقف تاريخي خالد في فترة خلافته ، عندما تنازل مختـاراً عن الخلافة وبايع معاوية ﷺ ، زاهداً بسلطان الدنيا وزينتها من أجل سلامة الدين ووحدة المسلمين تماماً كما فعل عثمان ﷺ عندما ضحّى بنفسه من أجل هذه الغاية فظهر بذلك التوافق الفكري بين عملاقي السياسة الراشدة ، عثمان بن عفان والحسن بن علي اللذَيْن آثرا الباقية على الفانية والمصلحة العامة على المصلحـة الفرديـة ففازا بالأجر العظيم والذكر الجميل إلى قيام الساعة .

وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما كان من أول المدافعين عن أمير المؤمنين عثمان ﷺ « وكان أمير أهل الدار »[3] وقال للخلـيفة: « إنـا معـك فـي الـدار عصـابة مستبصرة ينصر الله بأقلِّ منهم فأْذن لنا ، فقال: « أذكّر الله رجـلاً اهراق

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢/٢٠٥.

(٢) المصدر نفسـه ، ٢/٢٠٥ .

(٣) المصدر نفسـه ، ٧/١٨٦ .

فيَّ دمه »[١] ودافع عن الخليفة طوال أيام الحصار حتى أُخرج محمولاً من الدار وبه جراحات كثيرة[٢] وعن ابن سيرين قال: **انطلق الحسن والحسين وابن عمر وابن الزبير ومروان** وكلهم شاكي السلاح حتى دخلوا الدار ، فقال عثمان: أعزم عليكم لما رجعتم فوضعتم أسلحتكم ولزمتم بيوتكم ، فخرج الحسن والحسين وابن عمر وقال ابن الزبير ومروان: ونحن نعزم على أنفسنا أن لا نبرح [٣] .

وقال **سليط بن سليط:** « نهانا عثمان عن قتالهم ولو أذن لنا لضربناهم حتى نخرجهم من أقطارها »[٤].

وقال **عبد الله بن عامر بن ربيعة:** كنت مع عثمان في الدار فقال: أعزم على كل من رأى أن لي عليه سمعاً وطاعة إلا كف يده وسلاحه ، فإن أفضلكم عندي غناء من كف يدِه وسلاحه [٥] .

وقال **أبو موسى الأشعري** رضي الله عنه حين قتل عثمان رضي الله عنه « هذه حيضة من حيضات الفتن وبقيت الرداح – أي الفتنة العظيمة – المطبقة التي من ماج بها ماجت به ومن

أشرف لها أشرفت له ... إن قتل عثمان رضي الله عنه لو كان هدى احتلبت به الأمة لبناً ولكنه كان ضلالاً فاحتلبت به دماً[٦] .

وفي سنة خمس وثلاثين أمّر عثمان رضي الله عنه **عبد الله بن عباس** على الحج فقال له ابن عباس: إن مقامي على بابك أحاجف عنك أفضل من الحج فعزم عليه فخرج بالناس إلى الحج ، واستمر الحصار بالدار حتى مضت أيام التشريق ورجع اليسير

---

(١) ابن خياط ، تاريخ ، ١٧٣. ابن سعد ، الطبقات ، ٣/٣٩ .

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٧/١٩٧ .

(٣) ابن خياط ، تاريخ ، ١٧٤ .

(٤) المصدر نفسه ، ١٧٣ .

(٥) المصدر نفسه .

(٦) ابن شبة ، تاريخ المدينة ، ٢/٢٦٦ .

من الحاج فأخبر بسلامة الناس ، وأن أهل الموسم عازمون على الرجوع إلى المدينة ليكفوكم عن أمير المؤمنين ، وبلغهم تحرك الأمداد من الأمصار لنصرة الخليفة فانتهزوا الفرصة بقلة الناس وغيبتهم في الحج ، فتسوروا عليه فاغتالوه رضي الله عنه [١]. مما ترك أثراً بالغاً في نفس ابن عباس ، الذي لم تتهيئاً له الفرصة لاستفراغ كل ما في وسعه للدفاع عن الخليفة المظلوم ، فخطب يوماً بالبصرة، فذكر عثمان رضي الله عنه فعظم أمره وقال: لو أن الناس لم يطلبوا بدمه لأمطر الله عليهم حجارة من السماء[٢] .

وأدرك ابن عباس رضي الله عنهما أن الله تعالى لا بد أن ينتصر لهذا الخليفة الذي صبر وعفا وصفح واحتسب أمره إلى الله تعالى ، عن زهدم الجرمي قال : قال ابن عباس: « لأحدثنكم حديثاً ما هو بسرّ ولا علانية ، أما أنا فلا أسرّه دونكم وأما أنتم فلا أحب أن تُعلنوه ، لما قتل عثمان رضي الله عنه قلت لعلي رضي الله عنه: اعتزل هذا الأمر قال: ألاقي استقداماً فيه. وأيم الله ليظهرنّ عليه معاوية تصديقاً لقول الله تعالى: ﴿ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً﴾[٣]. فقد ترك قتل الخليفة الصابر آثاراً عميقة في نفوس الصحابة وأبنائهم لم تزلها الأيام ولا تغير المواقع ، وإنما بقي كل صحابي يذكرها وينظر إلى أثرها في المستقبل وفي صناعة الأحداث القادمة .

كان الصحابة وأبناء الصحابة في المدينة يرغبون في الدفاع عن الخليفة، كل ضمن طاقته وإمكاناته ورؤيته ، لكنهم يصطدمون دائماً بموقف الخليفة الذي لم يبدله حتى دفع دماءه ثمناً له ، وهو الرفض التام لأي شكل من أشكال الدفاع عنه

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٩٧/٧ ، قد يكون الذي جاء بنية أهل الموسم الرجوع إلى المدينة ، لم يؤد فريضة الحج وإنما وصل أيام التشريق والله أعلم .

(٢) ابن خياط ، تاريخ ، ١٧٣، ابن شبه، تاريخ المدينة، ٢٧١/٢، ابن حنبل، فضائل الصحابة، ح (٧٤٦).

(٣) سورة الإسراء ، الآية (٣٣) . ابن شبه ، تاريخ المدينة ، ٢٧١/٢ .

بالسلاح . لذلك كانوا يعرضون عليه المساعدة بأشكال أخرى ، وعروض جديدة فقد دخل **أسامة بن زيد** رضي الله عنهما على عثمان فقال: « يا أمير المؤمنين ، إن عندي ظهراً ظهيراً ، ورجالاً جلداً من قومي من هذا الحي من كلب ، فاخرج معي حتى أقدم بك الشام على أنصارك ، فيضرب المقبل المدبر ، فقال: يا أسامة إني لن أفارق مهاجر رسول الله ﷺ وموضع قبره ومنازل أزواجه »[1].

ولكن أسامة لم يستقر له بال حتى أرسل مولاته ريطة لتحمل رسالة في هذا المعنى ، قالت: « أرسلني أسامة إلى عثمان رضي الله عنه فقال: قولي: لو أن عندي أدلاء من قومي لكانت كراماً، فإن أحببت نقبنا لك الدار وخرجت حتى تلحق بمأمنك، حتى يقاتل من أطاعك من عصاك ؛ فإن رسول الله رضي الله عنه وسلم قد فعل ذلك حين آذاه أهل مكة ، خرج عنهم حتى فتح الله له. فقال: ما كنت لأدع مسجد رسول الله ﷺ وجواره وقبره . فرجعت فأخبرت أسامة رضي الله عنه ، فمكث أياماً ثم قال ارجعي إلى أمير المؤمنين برسالتي فإني لا أظن القوم إلا قاتليه . قالت: فجئت فدخلت الدار فدخلوا عليه يضرب بعضهم بطنه برجله ، ولقد رأيتهم انتهبوا متاعه حتى إنهم ليأخذون المرآة ونحوها . فبكى سعد القرظ رضي الله عنه – وهو سعد بن عائذ مؤذن قباء مولى عمار ابن ياسر وقيل مولى الأنصار »[2].

وقريباً من موقف أسامة هذا ، موقف **المغيرة بن شعبة** رضي الله عنه عندما «دخل على عثمان وهو محصور فقال إنك إمام العامة ، وقد نزل بك ما ترى وإني أعرض عليك خصالاً ثلاثاً اختر إحداهن إما أن تخرج فتقاتلهم فإن معك عدداً وقوة وأنت على الحق وهم على الباطل وإما أن نخرق لك باباً سوى الباب الذي هم عليه فتقعد على رواحلك فتلحق بمكة فإنهم لن يستحلوك وأنت بها ، وإما أن تلحق بالشام فإنهم أهل الشام وفيهم معاوية . فقال عثمان: أما أن أخرج فأقاتل فلن أكون أول من خلف

---

(١) ابن شبة ، تاريخ المدينة ، ٢/٢٤٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ٢/٢٤٥ .

رسول الله ﷺ في أمته بسفك الدماء ، وأما أن أخرج إلى مكة فإنهم لن يستحلوني بها ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول يلحد رجل من قريش بمكة يكون عليه نصف عذاب العالم فلن أكون إياه ، وأما أن ألحق بالشام فإنهم أهل الشام وفيهم معاوية فلن أفارق دار هجرتي ومجاورة رسول الله ﷺ »[1].

هذا هو موقف عثمان رضي الله عنه في أشد حالات الحصار لم يتغير كما كان عليه قبل ذلك ، عندما عرض عليه **معاوية بن أبي سفيان** رضي الله عنهما: « أن يرحل معه إلى الشام ، فإنهم قوم كثيرة طاعتهم للأمراء فقال: لا أختار بجوار رسول الله ﷺ سواه ، فقال: أُجهز لك جيشاً من الشام يكونون عندك ينصرونك ، فقال: إني أخشى أن أضيّق بهم بلد رسول الله ﷺ على أصحابه من المهاجرين والأنصار ، قال معاوية: فوالله يا أمير المؤمنين لتغتالن أو قال: لتغزين ، فقال عثمان: حسبي الله ونعم الوكيل »[2].

ومن هذه النصوص يتبين البون الشاسع بين تطلعات الخليفة وآماله المتعلقة بالدار الآخرة ، وشدة حرصه على سلامة موقفه تجاه ما في عنقه من مسؤولية خلافة رسول الله ﷺ ، وجواره وقيادته لأمته. وبين تطلعات إخوانه الصحابة الذين كان همهم في تلك المرحلة، تخفيف آلامه وتأمين سلامته والعمل على حمايته رضي الله عنه.

أما سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه الذي زهد في الخلافة وآثر سلامة جهاده مع رسول الله ﷺ وفضل العزلة في زمن المحنة فإنه لم يكن يظن « أن الناس يجترئون هذه الجرأة ولا يطلبون دمه »[3].

وكان عثمان رضي الله عنه لا يأذن له أن يكون معه في حصاره ، قال: جئت

---

(١) ابن حنبل ، فضائل الصحابة ، فضائل عثمان رضي الله عنه ، (٧٨٥) ، ابن حجر الهيتمي ، الصواعق المحرقة ١٧٢ ، ابن شبه ، تاريخ المدينة، ٢٤٦/٢.

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٧٨/٧ .

(٣) الطبري ، تاريخ ، ٣٧٧/٤ .

عثمـــان يومـــاً فقلـــت : « افتـــح البـــاب أدخل عليـــك . فقـــال : مكانـــك أحـــبّ إلي »[1] وقد كان سعد يعلم أن الخوارج السبئية قوم سوء ودعاة فتنة ، وقـد حكم عليهم بذلك قبل أن يقوموا بفعلهم الشنيع ، فقد خرج يوماً من عند الخليفة وهو محصور « فرأى عبد الرحمن بن عُديس ومالكاً الأشتر وحُكيمِ بن جبلة ، فصفـق بيده إحداهما على أخرى ، ثم استرجع – أي قال: إنا لله وإنا إليه راجعـون- ثـم أظهر الكلام فقال: **والله إن أمراً هؤلاء رؤساؤه لأمر سوء** »[2]. وقد كانوا كذلك فـهم الذين جلبوا على الأمة بلاء الفرقة عندما جندوا أنفسهم للفتن ، ولم يكتفـوا بقتـل الخليفة المظلوم بل إنهم طالوا بأذاهم كثيراً من كرام الصحابة رضي الله عنهم ومنهم سعد الذي قرعوه « بالرماح حتى سقط لجنبه »[3] وكان يقول: « أيها الناس هذه يدي بما طلـب عند عثمان وإن ضُرِبْتُ بسوط ، فجعل الناس يردون ذلك عليه ، وجعل يفرجـهم عن نفسه بيديه حتى إذا غُلب دخل المسجد رضي الله عنه »[4].

وقال سعد رضي الله عنه: « كنت رجلاً من أهل مكة بها مولدي وداري ومالي ، فلم أزل بها حتى بعث الله نبيه ﷺ فاتّبعته وآمنت به ، فمكثت بها ما شاء الله أن أمكث ، ثم خرجت منها فراراً بديني إلى المدينة، فلم أزل بها حتى جمع الله لي بها أهلاً ومالاً وأنا اليوم فارّ بديني من المدينة إلى مكة كما فررت بديني من مكة إلى المدينـة»[5]. وهكذا استطار شر الخوارج السبئية حتى قورن بشر المشـركين الذيـن أخرجـوا المهاجرين من مكة إلا أن مشـركي مكة كانوا يعبدون الأصنـام ويدافعـون عنها وهؤلاء الأشرار الخوارج يزعمون أنهم مسلمون .

---

(١) ابن شبة ، تاريخ المدينة ، ٢/٢٥٦.

(٢) ابن سعد ، الطبقات ، ٣/٤٠.

(٣) ابن شبه ، تاريخ المدينة ، ٢/١٩٩. و ٢/٢٨٣ .

(٤) المصدر نفســه ، ٢/٢٥٢ .

(٥) المصدر نفســه ، ٢/١٩٩ .

ومن أعلم الصحابة بعلامات الفتن وأهلها المتلبسين بها **حذيفة بن اليمــان** رضي الله عنه وهذا ما ظهر في تصوره للأحداث قبل وقوعها ، ويبدو أن الخوارج ومن خلال ما كانوا يستخدمونه من الشائعات مثل الكتب المزوّرة علـــى ألســنة الصحابــة رضي الله عنهم والأقاويل المنسوبة إليهم فإنهم كانوا يُشيعون عن حذيفة شيئاً من ذلك حتى وصـــل بعضها إلى أسماع الخليفة ، فجاءه حذيفة يوماً فقال له الخليفة: « ما بلغنـــي عنـــك بظهر الغيب ؟ فقال والله ما أبغضتك منذ أحببتك ولا غششتك منذ نصحت لك، قال: أنت أصدق منهم وأبر »[1].

لذلك كان حذيفة رضي الله عنه ، ينصح بالإبتعاد عن الفتن ومسبباتها ولا سيما السياسية منها فيقول: « اتقوا أبواب الأمراء فإنها مواقف الفتن ، ألا إن الفتنة شبيهة مقبلـــة وتبين مدبرة »[2] أي أن ما يشتبه على الناس في أسباب الفتن فيسوقهم إليها ، يظهر ويتضح بعد نهايتها ، مما يوجب على من يقع في بعض المسائل المبهمة أن يطيـــل التفكير وينظر في العواقب ، حتى تتبلور له النتائج الصحيحة .

ومن خلال تصور حذيفة لما يجري حول الخليفة من مؤامرة مدبرة ، وفتنـــة عمياء ، وما ينتهجه الخليفة من سياسة الكفّ ، التي زادت الخوارج طغياناً وعتـــواً أعلن عن رؤيته لها وأعلن للخليفة أنه سيُقتل على أيدي هؤلاء الأجلاف فقال:« والله لتُخرجن ... ولتُذبحن ... »[3] وقد يكون هذا الحكم الذي أصدره حذيفة مبنياً علـــى ما لديه من علوم عن علامات الفتنة ، مقارناً بما يجري على الواقع وعلى العمـــوم فإن الصحابة جميعاً يعلمون أنه ستكون فتن كقطع الليل المظلم، وأن كلاً منهم يعمل للنجاة من أية تبعات قد تلحق به ، وأن عثمان قد اختار أسلم الطـــرق وأضمنـــها للنجاة من تلك العقبات، وذلك باتباعه سياسة الكف والتنازل عـــن جميـــع حقوقـــه

---

(١) ابن أبي شيبة ، المصنف ، ك الفتن ، ح ٦٨٥/٨.

(٢) المصدر نفسه ، ك الفتن ، ح ٦٩٨/٨ .

(٣) المصدر نفسه ، ٦٨٥/٨ ، ابن شبة ، تاريخ المدينة ، ١٧١/٢.

والإجابة إلى كل ما يُطلب منه ما لم يكن فيه معصية لله تعالى ، فكان يقول: « والله لا نجعل لأحد عذراً ، ولا نترك لهم حجة ، ولنصبرن كما أُمرنا حتى نبلغ ما يريدون »[1].

فأخذ حذيفة يستطلع الأخبار من خلال سؤاله عما يجري ، قال ربعي بن حراش: انطلقت إلى حذيفة ليالي سار الناس إلى عثمان فقال: يا ربعي « ما فعل قومك ؟ قال قلت: عن أي بالهم تسأل ؟ قال: من خرج منهم إلى هذا الرجل « يعني عثمان » فسميت رجالاً فيمن خرج إليه ، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من فارق الجماعة واستذل الإمارة لقي الله عز وجل ولا وجه له عنده »[2].

فلما وقعت الواقعة وقتل الخليفة قال حذيفة: اليوم « فتق في الإسلام فتق لا يرتقه جبل »[3].

وقال: « اللهم إن كانت العرب أصابت بقتلها عثمان خيراً أو رشداً أو رضواناً فإني بريء منه ، وليس لي فيه نصيب ، وإن كانت العرب أخطأت بقتلها عثمان فقد علمت براءتي ... اعتبروا ما أقول لكم، والله إن كانت العرب قد أصابت بقتلها عثمان لتحلبن به لبناً ، ولئن كانت العرب أخطأت بقتلها عثمان لتحتلبن به دماً »[4].

وباستشهاد الخليفة ، اتضح صدق حدس حذيفة، وأحاديثه التي كان يُقدّم فيها تصوره عن الأحداث القادمة في مثل قوله: « لا تقوم الساعة حتى تقتلوا إمامكم وتجتلدوا بأسيافكم ، ويرث دنياكم شراركم »[5]. وحذر من تمادي الخوارج وأنهم لايسعون إلا إلى الفتنة ودعا عليهم فقال: « اللهم العن قتلة عثمان وشنأة

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٣٣٢/٤ ، ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ١٠٤٦/٣ .

(٢) الساعاتي ، الفتح الرباني ، ٤٨/٢٣ .

(٣) ابن أبي شيبة ، المصنف ، ك الفتن ، ح ٨٨٥/٨ .

(٤) المصدر السابق ، ح ٦٩١/٨ . البلاذري ، أنساب الأشراف ، ٢١٣/٦ ، الطبري ، تاريخ ، ٦٠٣/٤ ابن شبة ، تاريخ المدينة ، ٢٦٧/٢ ، المحب الطبري ، الرياض النضرة ، ٨٠/٢.

(٥) ابن شبة ، تاريخ المدينة ، ٢٦٦/٢ .

عثمـان ، اللهـم إنا كنـا نعاتبـه ويعاتبنـا ، فاتخـذوا ذلـك سلمـاً إلى الفتنـة **اللهم لا تمتهم إلا بالسيف**»[١]. ولما رأى ما كان يُحدّث به أصبح واقعاً ، ورأى مـا يتخبط به الناس ممن شارك في الخروج الأعمى على الخليفة ، وممن يحسـب أن بإمكانه أن يُعيد الأمور إلى ما كانت عليه قبل الواقعة قال: « ما أدري أي الأمريـن أردتم ، تناول سلطان قوم ليس لكم ، أم أردتم ردّ هذه الفتنة حين أطْلَعَت خَطْمَـها فاستوت ؛ فإنها مرسلة من الله ترْعى في الأرض حتى تطأ خطامها ، ليـس أحـدُ رادّها ولا مانعها »[٢].

وعندما استعظم الناس ما اقترفته الخوارج ، قـال حذيفـة رضي الله عنه: « أي الفتـن تعدون أوّل ؟ فسكتنا ، فقال: أول الفتن الدار ، وآخرها الدجـال »[٣] أي أن الفتـن ستستمر وتتلاصق ولن تنقطع حتى تكون الساعة ، فلذلك لما حضرته الوفاة وكانت بعد استشهاد عثمان بقليل ،[٤] أعلن سروره واستبشاره بهذا الغائب الذي جاءه علـى فاقة كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، في باب تصور الصحابة للفتنة .

ولم يعد له هم في أيامه الأخيرة ، سوى السلامة من آثار الفتن ، والتأكيد على براءته من دم عثمان رضي الله عنه في مثل قوله: « اللهم لم آمُر ، ولم أرض، ولم أشـهد »[٥] وقوله: « إنا لله وإنا إليه راجعون طارت القلوب مطايرها أما والله لا يستبدلون بـه خيراً منه، الآخر فالآخر شرّ »[٦]. « أما إنكم لا تصيبون بعده إلا كل أصغر أبـتر، ولا يكون الآخر إلا شرَّ الشرّ »[٧]. وهكذا حوّل الخوارج حـال الأمـن والمحبـة

---

(١) ابن شبة ، تاريخ المدينة ، ٢/٢٦٧.

(٢) المصدر نفسـه ، ٢/٢٦٧.

(٣) المصدر نفسـه . ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٧/٢٠٢ .

(٤) ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ١/٣٣٤ .

(٥) ابن شبة ، تاريخ المدينة ، ٢/٢٦٨ .

(٦) المصدر نفسـه .

(٧) المصدر نفسـه .

والخير والرفاه وصلاح ذات البين التي كانت قائمة بين المسلمين إلى حال من الخوف وانعدام الأمن والحرمان والتمزق بعد استشهاد الخليفة رضي الله عنه وقد عبر عن ذلك شاعر الرسول ﷺ حسان بن ثابت رضي الله عنه فقال:

قلتم بدل فقد بد لكم ... سنة حرى وحرب كاللهب

ما نقمتم من ثياب خلفة ... وعبيد وإماء وذهب[١]

فكان مصاب عثمان عاما مؤلما لجميع المؤمنين ، ومفرحا مريحا لجميع الزنادقة والمنافقين ، وكان من أشد الناس تألما لهذا المصاب ، **السيدة الطاهرة أم المؤمنين عائشة** رضي الله عنها . وقد سبقت الإشارة إلى أن الخوارج ، قد زوروا على لسانها كتبا مكذوبة لتحريض الناس على الخليفة عثمان رضي الله عنه وقولها: « لا والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ، ما كتبت إليهم بسوداء في بيضاء حتى جلست مجلسي هذا . قال الأعمش: « كانوا يرون أنه كتب على لسانها »[٢]. وكان الخوارج وأتباعهم يختلقون الأكاذيب على الخليفة ثم يذهبون يحرضون عليه، قالت أم المؤمنين: « كان القوم يختلفون إلي في عيب عثمان رضي الله عنه ولا أراه إلا أنها معاتبة، فأما دمه فأعوذ بالله من دمه ، والله لوددت أني عشت برصاء في الدنيا سائما وأني لم أذكر عثمان بكلمة قط »[٣]. وهذا مطابق لما روي عن كبار الصحابة من تمنيهم الموت قبل وقوع هذه الفتنة وشدة فزعهم من تبعاتها ، ومطابق لقول ابن عباس رضي الله عنهما: « لو لم يطلب الناس بدم عثمان لرموا بالحجارة من السماء »[٤].

وتشير أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، إلى ما أعطاهم عثمان رضي الله عنه من

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ٧/٢٠٤.

(٢) ابن شبه ، تاريخ المدينة ، ٢/٢٥٤.

(٣) المصدر نفسه ، ٢/٢٥٤.

(٤) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢/٢٠٢.

الرضا في كل ما زعموه وإجابتهم إلى كل ما طلبوه ، ثم غدرهم به بعد أن أقام عليهم الحجة . قالت: « أتركتموه كالثوب النقي من الدنس ، ثم قربتموه فذبحتموه كما يُذبح الكبش »[1]. « والله لعثمان كان أتقاكم للرب وأوصلكم للرحم وأحصنكم فرجاً »[2].

لقد « استحللتم منه الفقر الثلاث: حرمة الخلافة ، وحرمة الشهر ، وحرمة البلد، فقتلتموه »[3]. « والله لئن كان قتل عثمان رضي الله عنه رضاً ليُحتلبن به لبناً ولئن كان لله سُخطاً ليُحتلبن به دماً »[4]. فكانت تدعوا على الخوارج وتلعنهم قالت: « قتل – عثمان – مظلوماً لعن الله قتلته »[5].

ولا أدل على شدة تألم أم المؤمنين ، وإحساسها بفظاعة ما حصل لعثمان وأنه لا يُنجي أحد من المؤمنين من تبعاته ، حتى يبذل كل ما في وسعه من أجل القصاص من القتلة وإزالة الظلم الذي وقع على الأمة بأسرها عندما قتل القائد الإمام الخليفة عثمان رضي الله عنه .

لذلك خرجت بنفسها لتقف مع من يقف في وجه الخوارج لكي لا يستفحل شرّهم أكثر ولتعمل على الإصلاح بين المؤمنين ، وتوحيد الصفوف وتبصير الناس بما حصل ودعوتها لإعانة المطالبين بالقصاص ووجوب محاسبة الخوارج السبئية فكانت تقول لمن يزعُم أنه ظُلم في زمن عثمان: تغضبون من استعمال بعض عمال عثمان السوط بحقه ولا نغضب لدم عثمان الذي سفكتموه دون وجه حق . فكانت رضي الله عنها مشاركة للأمة ولأبنائها ، بفكرها ولسانها ودعائها ، ولمّا استوجب

(١) ابن شبة ، تاريخ المدينة، ٢٥٤/٢ ، وينظر: ابن حنبل ، فضائل الصحابة ، فضائل عثمان ح (٧٥٠)

(٢) ابن شبة ، تاريخ المدينة ، ٢٦٥/٢.

(٣) المصدر نفسه ، ٢٦٤/٢ .

(٤) المصدر نفسه ، ٢٦٥/٢.

(٥) المصدر نفسه .

الأمر خروجها على ما في ذلك من المشقة والمخاطرة لم تتوانى ولم تتأخر ، فكانت نعم المسددة والمشيرة ، وكاد وجودها أن يجمع الشمل من جديد ، ذلك الهدف الذي يتوجب عليه تحديد الجناة وإقامة الحد عليهم ، وهذا هو هدف كل الذين شاركوا أم المؤمنين فيما تحملته ،ولكن مكر السبئية وتُقيتهم وغوغائية الخوارج وعمى بصائرهم ، حال مرة أخرى دون تحقق هدف إصلاح ذات البين بين المسلمين وذلك عندما افتعلت السبئية الأحداث التي قادت إلى اصطدام الناس فيما يُسمى بموقعة الجمل والذي سيتضح في موضعه من هذا البحث . وما ذلك إلا ليتم أمر الله تعالى بإنفاذ هذا الامتحان العسير ، فيكرم الله فيه أهل الإيمان بالشهادة ويهان به المخادعون المتآمرون بالقتل والتشرّد ، وليتأكد حدس أم المؤمنين عائشة ومن شاركها رؤيتها بأن الأمة إن كانت أخطأت في قتل الخليفة ، لتحتلبن بذلك دماً «فاحتلبوا بذلك دماً ، ما رُفعت عنهم السيوف ولا القتل »[1].

وكانت أمهات المؤمنين جميعاً قد عشن مصاب عثمان رضي الله عنه ، وممن حاولن التخفيف من معاناته، **أم حبيبة رملة** بنت أبي سفيان رضي الله عنها، لكن الغوغاء الذين اجترأوا على الدماء كانوا أجرأ على حرمة أهل بيت رسول الله ﷺ كما تبين فيما حصل لأم المؤمنين أم حبيبة من المعاناة عندما أرادت إيصال بعض الماء إلى الخليفة المحاصر ظلماً وعدواناً[2]، ومن بعض معاناتها في تلك المحنة أنها دخلت على عثمان رضي الله عنه « وهي في خدرها وهو محصور – فاطَّلَعَ رجل منهم في خدرها فنَعَتَها للناس ، قالت ماله قطع الله يده وهتك عورته !! قال فخرج في بعض تلك الهزاهيز – الفتن والقلاقل – فقُطعت يده ، وذهب على وجهه يشتد وعليه إزار فوقع من عنقه فبقي عرياناً يشتد ، وأصابه ما دعت عليه رضي الله عنها »[3].

---

(١) ابن حنبل ، فضائل الصحابة ، فضائل عثمان ، ح (٨٠١).

(٢)الطبري، تاريخ ٣٨٦/٤ ابن حنبل، فضائل الصحابة،ح(٧٩٩) وينظر مبحث اشتداد الحصار على الخليفة

(٣) ابن شبة ، تاريخ المدينة ، ٣٠٥/٢ .

كما استعظمت **أم المؤمنين صفية رضي الله عنها** ما قام به الخوارج من حصار الخليفة ﷺ فحاولت أن تخفف عنه بما تستطيع ، فجاءت « وعثمان ﷺ محصور فقالت: ما نقمتم على أمير المؤمنين فأنا ضامنة . فجاء الأشتر فقال: من هذه ؟ قال: صفية فجعل يضرب وجه بغلتها بالسوط حتى رجعت. فقال أبو عاصم – راوي الحديث - حين حدثنا بهذا الحديث: لوددت أن تدعو والله كانت قطعته حين يستخف بحرمة رسول الله ﷺ »[1]. وعن كنانة مولى صفية رضي الله عنها قال : « كنت أقود بصفية بنت حيي لترد عن عثمان ﷺ ، فلقيها الأشتر فضرب وجه بغلتها حتى مالت وحتى قالت: **ردوني لا يفضحني هذا الكلب ، فوضعت خشبا بين منزلها ومنزل عثمان** ﷺ **تنقل إليه الطعام والشراب** »[2]. ومن هذه المحاولات التي قام بها أمهات المؤمنين رضي الله عنهن لمساعدة الخليفة ، ومن المواقف التي قام بها زعماء الخوارج ، والتي تعبر تماما عن إفلاسهم الأخلاقي ، إذ لا يقيمون حرمة لمسجد ولا لقرآن ولا لأم ولا لدم ولا لشيبة ولا لبيت .

مما يؤكد بعدهم عن أخلاق المسلمين وعادات المؤمنين ، وتشربهم بعادات المفسدين وأخلاق قتلة الأنبياء والصالحين من اليهود والمشركين ، الذين لا يقيمون وزنا لحرمة نبي مرسل ولا لملك مقرب ، فمن الطبيعي أن تؤذى أمهات المؤمنين على أيديهم القذرة ، وأن يسفك دم الخليفة الطاهر بعد أن يمنع عنه الطعام والشراب ويمنع من مخاطبة المسلمين ، ومن الصلاة في المسجد الذي قام على توسعته وخدمته ، منذ أول يوم أسس فيه على التقوى .

وإذا كان ما قام به الخوارج السبئيون نابعا من أخلاقهم الفاسدة وعقائدهم الحاقدة ، فاقترفوا ما اقترفوا من الجرم العظيم .

فمن أي خلق ينبع ، ومن أي عقيدة يستقي أعداء الصحابة الذين لا زالوا

---

(١) ابن شبة ، تاريخ ، ٢/٣٠٤ .

(٢) المصدر نفسه .

يرددون أباطيل السبيئة وبهتان الباطنية ؟ ولخدمة من يلصقـون العيـوب والتـهم المكذوبة بأصحاب رسول الله ﷺ وأعلام المسلمين ؟ الذين ورثوا الإسلام الحـق وفقهوه وعملوا به وعلموه، وإلى متى يبقى محبوا الصحابة ، ومتبعوا النبـي ﷺ ومحبوا أهل بيته الأطهار من حملة القرآن العاملين به ، يسمعون لـهذه الأبـاطيل وتشككهم هذه الأساطير ، ألم يأن لأبناء أمة التوحيد أن يتوحدوا ويخرجوا من هـذا المنحدر الخطير الذي زرعته السبئية اليهودية والمجوسية الوثنية ، لتهدم الأسـاس الذي بنيت عليه عقيدة الأمة وأمجادها ووحدتها التي تنطلق من حب وفهم الكتـاب والسنة وحب حملتها من الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ، قال تعالي: ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحـق ولا يكونـوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمـد فقسـت قلوبـهم وكثـير منـهم فاسقون﴾[1].

واستقتل **زيد بن ثابت الأنصاري** ومعه جماعة من الصحابة ، فأقسـم عليـهم الخليفة أن يكفوا حتى يقضي الله ما يشاء[2].

فكان الصحابة ﷺ يتقلبون بين أمرين كلاهما مر ، بين الإلتزام بسياسة الكف التي يتبعها الخليفة والتي زادت من طغيان وتمرد الخوارج ، وبين التصدي لهم مع ما يجر ذلك إلى مخالفة ولي الأمر ، واحتمال توسع دائرة الفتنة . ومع زيادة تشديد الخوارج الحصار على الخليفة كان الصحابة يزيدون إلحاحا عليه ليأذن لهم بالدفـاع ورد الخوارج فاجتمعت **الأنصار** إلى زيد بن ثابت يبثونه أشجانهم ، وخوفـهم مـن التقصير في الدفاع عن خليفتهم ، وخوفهم من مجانبة الطاعة وإفساد سياسة الكـف التي كان يتبعها الخليفة ، لإحباط أي حدث يتخذه الخوارج ذريعة إلى الفتنة ، فقـال زيد: « إنكم نصرتم رسول الله ﷺ مرة ، فانصروا خليفتـه تكونـوا أنصـار الله

---

(١) سورة الحديد ، الآية (١٦).

(٢) الطبري ، تاريخ ، ٣٥٣/٤ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٨٣/٤ .

مرتين»[1]. ولكن زيد بن ثابت رضي الله عنه لم يقم بقيادة الأنصار الذين أجابوه إلى مهاجمة الخوارج السبئية ، وإنما دخل على الخليفة عثمان رضي الله عنه وقال: « هؤلاء الأنصار بالباب يقولون إن شئت كنا أنصار الله مرتين، فقال: لا حاجة لي في ذلك كفوا »[2].

وهذا ما يشعر **بانضباط الصحابة** رضي الله عنهم ، وعمق شعورهم بالمسؤولية ، وجهل وجلافة الغوغاء الذين انجروا وراء أباطيل السبئية ، فأعانوا على قتل الخليفة المصلح باسم الإصلاح ، وإشعال نار الفتنة ، وحرمان الأمة من الحرية والأمن والمنعة والألفة ، التي كانت تنعم بها .

ولكن كثيرا من الأنصار كان رأيهم في الدفاع عن الخليفة ، يفوق رغبتهم في تلبية تعليمات الإمتناع عن القتال ، فدخل بعضهم الدار معه ليصيبهم ما يصيب الخليفة ، منهم **أبو أمامة بن سهل بن حنيف** ، وواصل **كعب بن مالك** رضي الله عنه تحريضه على نصرة الخليفة ويقول: « يا معشر الأنصار كونوا أنصار الله مرتين »[3].

وينطلق **حارثة بن النعمان** الأنصاري إلى الخليفة وهو محصور يعرض عليه النصرة ويستأذنه في القتال كما فعل زيد ، ويكرر رجاء الأنصار للسماح لهم بالذود عنه والقتال دونه[4]. ولكن منهج الخليفة في عدم إعطاء الخوارج أي مسوغ للإساءة لأحد من المسلمين ثابت لم يتغير وهو يقول: « إنما تراد نفسي وسأقي المؤمنين بنفسي »[5]. « أما القتال فلا »[6]. وللتخلص من موقف الخليفة هذا، خرج جمع منهم عليهم **زيد بن ثابت** « **ومعه ثلاثمائة من الأنصار** ، فدخل على عثمان فقال:

---

(١) الدويدار ، كنز الدرر وجامع الغرر ، ٢٩٨/٣.

(٢) ابن خياط ، تاريخ ، ١٧٣ ، ابن حبان ، الثقات ، ٢٦٣/٢ ، ابن أبي شيبة ، المصنف ، ٦٩٢/٨ ، ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ٣٩٥/٣٩ .

(٣) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ٣٩٧/٣٩ . الخليفة ، الأنصار في العصر الراشدي ، ١٤٧ .

(٤) ابن سعد ، الطبقات ، ٦٧/٣ ، ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ٣٩٧/٣٩ .

(٥) ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ١٠٤٦/٣ .

(٦) ابن حبان ، الثقات ، ٢٦٣/٢ ، ابن أبي شيبة ، المصنف ، ٦٩٢/٨ .

« هذه الأنصار بالباب قالوا: جئنا لننصر الله مرتين ، فقال عثمان: أما القتال فلا»[1] « ولا حاجة لي في ذلك »[2] وقال الحسن البصري: « أتت الأنصار عثمان فقالوا: يا أمير المؤمنين ، ننصر الله مرتين ، نصرنا رسول الله ﷺ وننصرك قال: لا حاجة في ذاك ارجعوا »[3]« إن أعظمكم عندي غنا من كف يده وسلاحه »[4]

وقد سبق الحديث عن موقف بني عمرو بن عوف ، وكيف جاؤوا إلى الزبير رضي الله عنه وقالوا: « يا أبا عبد الله نحن نأتيك ثم نصير إلى ما تأمر به »[5] في وسيلة الدفاع عن الخليفة لكن الزبير لم يتمكن من الحصول على موافقة الخليفة أيضا .

ولم يبدل الأنصار من موقفهم المساند للخليفة « ولم يبق يحصل لعثمان وأهله من الماء إلا ما يوصله إليهم آل عمرو بن حزم في الخفية ليلا فإنا لله وإنا إليه راجعون »[6] وكذلك في التمسك بطاعة الخليفة والوقوف عند تعليماته ، وإلا فما الفرق بينهم وبين الخوارج ، التي خرجت عن السمع والطاعة ، واجترأت على الخليفة وأهله وجيرانه ، وحرموه حتى شربة الماء ، ليكونوا أسوأ الناس ذكرا وأشقى بني آدم في الدنيا والآخرة مصيرا .

---

(١) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ٣٩٥/٣٩ و ٣٩٦/٣٩ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) ابن أبي شيبة ، المصنف ، ٦٩٢/٨ .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) ابن حنبل ، فضائل الصحابة ، فضائل عثمان ، ح (٨٣٦) ، العمري ، الخلافة الراشدة ، ٤٣٠.

(٦) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٩٧/٧ ، وفي الطبري ، تاريخ ، ٣٨٧/٤ ، « **في الغفلات عليهم الرقباء** ».

مسوغ عثمان في منع الصحابة من الدفاع عنه

تبين أن رسول الله ﷺ تحدث عن الفتن وأشار إلى علاماتها ، وأن الصحابة ﷺ ، أخذوا مواقفهم بناء على ما حصل لديهم من فهم وتصور لتلك الأحداث قياسا على ما يمتلكه كل منهم من رؤية تستند إلى ما أشار إليه رسول الله ﷺ . وإلى ما أدى إليه اجتهاده وعلمه في ذلك .

وعلى هذا تباينت مواقفهم فمنهم من قصر جهوده على الإصلاح ، ومنهم من شارك في الأحداث ، ومنهم من اعتزل ولم يشارك حتى في محاولات الإصلاح[1].

أما عثمان رضي الله عنه فإنه لم يكتف بالاعتزال وكف اليد واللسان بل منع الصحابة ﷺ من الدفاع عنه ، ولم يسمح لأحد منهم بحمل السلاح والقتال . فما مسوغه في انتهاج هذه السياسة وثباته عليها ؟ وللإجابة على ذلك لا بد من إثارة عدة نقاط وإمعان النظر فيها ليتبين أن عثمان رضي الله عنه كان محقا في كل ما اتخذه من إجراءات والتي منها:

ـ علمه أنه سيبتلى وأنه سيقتل مظلوما ، وأنه وعد رسول الله ﷺ بأنه سيصبر ومن ذلك ما رواه جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ ذكر فتنة فقال عثمان: « يا رسول الله أنا أدركها قال ﷺ: بك يبتلون »[2] فأوضح عثمان أسباب موقفه هذا بأنه وقوف عند علمه ، وأن رسول الله ﷺ قال له: « إنك ستبتلى بعدي فلا تقاتلن »[3]. وما رواه كثير بن الصلت قال: أغفى عثمان في اليوم الذي قتل فيه فاستيقظ فقال: لولا أن يقول الناس تمنى عثمان الفتنة لحدثتكم ، قال: قلنا:

---

(١) ينظر: ابن المبارك ، مسند ابن المبارك ، ح (٢٤٧) البخاري ، التاريخ الصغير ، ١/١٠٥.

(٢) الهيثمي: مجمع الزوائد ، ك الفتن ٧/٢٢٥.

(٣) المصدر نفسه .

أصلحك الله فحدثنا فلسنا نقول ما يقول الناس ، فقال: إني رأيت رسول الله ﷺ في منامي هذا فقال: «إنك شاهد معنا الجمعة » [1].

والأحاديث النبوية التي ذكرت أنه ستكون فتن ، **وسيكون عثمان فيها على الحق** كثيرة منها ما رواه مرة النمري قال: قال رسول الله ﷺ: « يفتح على الأرض فتن كصياحي البقر ، فمر رجل مقنع فقال: هذا يومئذ على الحق ، فقمت إليه فأخذت بمجامع ثوبه فقلت له هذا هو يا رسول الله ؟ قال: هذا ، قال: فإذا هو عثمان رضي الله عنه»[2] ويبدو أن هذا الحديث قد تحدث الناس به بعد استشهاد عثمان نظرا لأهميته عن جبير بن نفير قال: كنا مع معاوية بعد قتل عثمان فقام كعب بن مرة البهزي[3] فقال: لولا شيء سمعته من رسول الله ﷺ ما قمت هذا المقام ، فلما سمع بذكر رسول الله ﷺ جلس الناس فقال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ، إذ مر عثمان بن عفان مرجلا قال: فقال رسول الله ﷺ لتخرجن فتنة من تحت قدمي أو من بين رجلي هذا ، هذا يومئذ ومن اتبعه على الهدى ، فقال ابن حواله الأزدي[4] من عند المنبر ، فقال: إنك لصاحب هذا ؟ قال: نعم والله إني لحاضر ذلك المجلس ، ولو علمت أن لي في الجيش مصدقا كنت أول من تكلم به[5] . وأحاديث أخرى ذكرت أن رسول الله ﷺ عهد إلى عثمان أن لا ينزع أمر المسلمين إن راوده المنافقون على ذلك منها: عن النعمان بن بشير عن أم المؤمنين عائشة أنها قالت: ألا أحدثك بحديث سمعته من رسول الله ﷺ: إنه بعث إلى عثمان فدعاه فأقبل إليه فسمعته يقول: « يا عثمان إن الله لعله يقمصك قميصا ، فإن أرادوك على خلعه فلا تخلعه »

---

(١) الحاكم ، المستدرك، ٩٩/٣. وقال صحيح الإسناد. ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٩١/٧.

(٢) الحاكم ، المستدرك، ٤٣٣/٣، وقال صحيح الإسناد .

(٣) قد يكون هو راوي الحديث السابق .

(٤) ينظر: الهيثمي ، مجمع الزوائد، ٢٢٥/٧.

(٥) الساعاتي ، الفتح الرباني ، ٩٧/٢٣ . وقال حديث صحيح .

ثلاثا ، فقلت يا أم المؤمنين أين كنت عن هذا الحديث ؟ قالت: انسيته كأني لم أسمعه[١]. وحديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: ادعوا لي ، أوليت عندي رجلا من أصحابي قالت ... فجاء عثمان فقال: قومي فجعل النبي ﷺ يسر إلى عثمان ولون عثمان يتغير ، قال: فلما كان يوم الدار قلنا ألا تقاتل ؟ قال: لا إن رسول الله ﷺ عهد إلي أمرا فأنا صابر نفسي عليه[٢] . وروي أن عثمان رضي الله عنه قال يوم الدار: **إن رسول الله ﷺ عهد إلي عهدا وأنا صابر عليه**[٣] لذلك كان موقف عثمان رضي الله عنه في منع القتال صلبا ، خوفا من أن يكون سببا في هياج الفتنة التي قد يذهب فيها الأبرياء ، وكان موقفه من مسألة خلع نفسه عن الخلافة صارما أيضا وغير قابل لأي حوار أو نقاش ، حتى روي أنه قال: « والله لئن أقدم فتضرب عنقي أحب إلي من أن أخلع قميصا قمصنيه الله تعالى وأترك أمة محمد ﷺ ، يعدو بعضها على بعض »[٤] وقال: « وأردتم خلع سربال سربلنيه الله وإني لا أخلعه حتى أموت أو أقتل »[٥] وإذا أضيف إلى ذلك ما روي من أن رسول الله ﷺ قال: « إن رحى الإسلام ستدور بعد خمس وثلاثين أو ست وثلاثين أو سبع وثلاثين سنة ... »[٦] يتبين المسوغ الذي جعل عثمان رضي الله عنه يسلك هذا المسلك وينتهج سياسة كف اليد واللسان لكي يبوء الخوارج وأعداء الصحابة بالإثم ومسؤولية العمل

---

(١) ابن حبان ، صحيح ابن حبان ، ح (٦٨٧٦) الألباني ، صحيح سنن ابن ماجن ٢٥/١ . ابن أبي شيبة المصنف ٨٦٠/٨ ، المحب الطبري ، الرياض النضرة ، ١٠٢/٢ ، وفيه أن المنافقين سيريدونه على خلعه ، قال وفي بعض طرقه أن رسول الله ﷺ توعده إن هو خلعه.

(٢) الحاكم ، المستدرك ، ٩٩/٣ ، وقال صحيح الإسناد ، الألباني ، صحيح سنن ابن ماجه ، ٢٥/١.

(٣) ابن حبان ، صحيح ابن حبان ، ح (٦٨٧٩) .

(٤) الطبري ، تاريخ ٣٧١/٤ ، ابن سعد ، الطبقات ، ٤٠/٣ .

(٥) الذهبي ، الخلفاء الراشدون ، ٤٤٥ .

(٦) الحاكم ، المستدرك ، ١٠١/٣ . وقال: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم ، وفيه البيان الواضح لمقتل عثمان رضي الله عنه .

المستمر على تدمير وحدة الأمة وتمزيق شملها. ويتأكد بأنه هو المعني بقوله ﷺ « وقتل خليفة مصطبر بالحق يعطيه »[1]. وهو على عمد كان يمنع الصحابة رضي الله عنهم من الدفاع عنه، وأنه كان يؤكد موقفه هذا لمن يخالفه الرأي في هذه المسائل قال لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه: « ويحك إني قد حفظت وسمعت، وليس كما سمعت إن رسول الله ﷺ قال: إنه سيقتل أمير وينتز منتز وإني أنا المقتول وليس عمر إنما قتل عمر واحد وإنه يجتمع علي »[2]. ويبدو أن بعض الصحابة كان يعتقد أن الخليفة المقتول هو عمر رضي الله عنه، لكن عمر لم يجتمع عليه ولم يحاصر ولم يؤذى قبل استشهاده، كما حصل لعثمان رضي الله عنه. وأيضا لم تحصل فتنة بعد استشهاد عمر رضي الله عنه لذلك كان هم عثمان الشاغل، وسعيه المتواصل، يصب في أن لا يكون لأحد عليه حجة حق، وكان يقول مخاطبا الولاة: « والله إن رحى الفتنة لدائرة فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها، فكفوا الناس وهبوا لهم حقوقهم، واغتفروا لهم »[3].

وبذلك قيد الخليفة الولاة والأمراء، من القيام بأية عملية محاسبة لمن يتجاوز على سلطات الخلافة، فيما عدا المخالفات الشرعية، أو اقتراف حد من الحدود وإذا كانت هذه السياسة قد ضمنت للخليفة أن لا يكون هو أو أحد من ولاته وعماله سببا في إثارة أية فتنة، فإنها فسحت المجال للخوارج بأن يقولوا ويتحركوا ويشيعوا الأكاذيب، ويحرضوا على الفتنة، دون أن يخافوا من المحاسبة، وهذا ما حصل، فبدلا من أن يحس الخوارج بالمسؤولية تجاه الخلافة التي وفرت لهم أجواء الأمن والحرية، استغلوا ذلك بحقدهم وأنانيتهم وسقوطهم الأخلاقي، لحرمان الأمة الإسلامية التي يقودها الصحابة الكرام، من كل الفضائل ووسائل الرقي الأخلاقي والحضاري الذي وصلت إليه.

---

(١) الحاكم المستدرك، ١٠١/٣.

(٢) الهيثمي، مجمع الزوائد، ك الفتن، ٢٢٧/٧.

(٣) الطبري، تاريخ، ٣٤٣/٤، البزار، مسند البزار، ٦٠/٢.

وقد كان هؤلاء الخوارج السبئية كأحفادهم الذين وصفهم نصر بن سيار والي خراسان الأموي فيما بعد عندما قال:

قدما يدينون دينا ما سمعت بـه   عن الرسول ولم تنزل به الكتب
فمن يكن سائلا عن أصل دينهم   فإن دينهم أن تقتل العرب[1]

فلم يسلم أحد من أذاهم وكيدهم ، حتى سعروا الفتنة بين الأمة ، بل كانوا سببا مباشرا في استشهاد طلحة والزبير رضي الله عنهما ، ومن بعدهما علي رضي الله عنه .

ومن الأسباب التي حدت بعثمان إلى أن يكف يده ولسانه وعماله وولاته حرصه الشديد على حماية دماء المسلمين ووحدة جماعتهم ، فعندما راوده الصحابة رضي الله عنهم على مواجهة الخوارج قال: « أما أن أخرج فأقاتلهم فلن أكون أول من خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمته بسفك الدماء » .[2]

وبلغ من حرصه على سلامة جماعة المسلمين ، أن الحسن بن علي رضي الله عنهما دخل على الخليفة حتى قام عليه وقال: « يا ابن أخي ، إنك ذرية طيبة ، أما الصلاة فهي أفضل أعمال المسلمين ، فإذا أطاعوا فأطعهم ، وإذا عصوا الله فلا تعصه »[3] .

وعن عبيد الله بن عدي قال: أتيت عثمان رضي الله عنه وهو محصور فقلت: يا أمير المؤمنين إنك الإمام ، وإن هؤلاء على ضلالة ، أفأصلي معهم ؟ قال إن الصلاة من أحسن ما عمل الناس فإذا أحسنوا فأحسن معهم ، وإذا أساؤوا فاجتنب إساءتهم[4] .

وعن أبي قتادة ورجل آخر معه دخلا على عثمان وهو محصور « فاستأذناه في الحج فأذن لهما ، ثم قالا: مع من نكون إن ظهر هؤلاء القوم ، قال عليكم

---

(١) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ٤/٤٤٠.

(٢) الحاكم ، المستدرك ، ٣/٩٩ ، وقال: صحيح الإسناد ، ابن حبان ، صحيح ابن حبان ، ح (٦٨٧٩) .

(٣) ابن شبة ، تاريخ المدنية ، ٢/٢٤٨ .

(٤) المصدر نفسه .

بالجماعة ، قالا: أرأيت إن أصابك هؤلاء القوم وكانت الجماعة فيهم ؟ قال: الزما الجماعة حيث كانت . قال: فخرجنا من عنده فلما بلغا باب الدار لقيا حسن بن علي رضي الله عنهما داخلا فرجعا لينظرا ما يريد ، فلما دخل عليه الحسن قال: يا أمير المؤمنين، أنا طوع يدك ، فمرني بما شئت: قال له عثمان: ابن أخي ارجع فاجلس في بيتك، حتى يأتيك الله بأمره فلا حاجة لي في هراق الدماء ».[1]

وكان آخر ما أوصى به أمير المؤمنين في آخر خطبة له ، هو المحافظة على الجماعة فقال: « اتقوا الله عز وجل ، فإن تقواه جنة من بأسه ، ووسيلة عنده واحذروا من الله الغير ، والزموا جماعتكم ، لا تصيروا أحزابا[2]، ﴿ واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ﴾[3]. وبعد أن أدلى بوصيته هذه وعزم على تسليم الأمر لأقدار الله تعالى يحكم فيها بما يشاء دون أن يحرك ساكنا، فأراد أن يودع الناس ويعلمهم بما عزم عليه فقال:« أيها الناس اجلسوا ، فجلسوا جميعا ، المحارب الطارئ ، والمسالم المقيم ، فقال: يا أهل المدينة ، إني أستودعكم الله ، وأسأله أن يحسن عليكم الخلافة من بعدي ، وإني والله لا أدخل على أحد بعد يومي هذا حتى يقضي الله في قضاءه ، ولأدعن هؤلاء وما وراء بابي غير معطيهم شيئا يتخذونه عليكم دخلا في دين الله أو دنيا حتى يكون الله عز وجل الصانع في ذلك ما أحب »[4] .

وبذلك أقام عثمان ﷺ الحجة على الناس، ولم يجعل لأحد من الخلق عليه سبيلا فذهب إلى مولاه نقيا تقيا وفيا ، صابرا محتسبا كما عهد إليه رسول الله ﷺ فتبين أن مسوغاته لمنع الدفاع عنه ، كانت لمصلحة المسلمين وسلامة الدين وتتمثل في:

---

(١) ابن شبة ، تاريخ المدنية ، المحب الطبري ، الرياض النضرة ، ٦٩/٢ .

(٢) الطبري ، تاريخ ، ٣٨٤/٤ .

(٣) آل عمران ، الآية (١٠٣) .

(٤) الطبري ، تاريخ ، ٣٨٥/٤ .

- اتباعه وتمسكه بما لديه من آثار وتوجيهات وفهم شرعي استقاه من سنّة رسول الله ﷺ .

- حرصه على سلامة المسلمين وحقن دمائهم .

- حبه للجماعة وحرصه على وحدة المسلمين ، وعمله الدؤوب على طمس أسباب الفتنة .



عذر الصحابة في الكفّ عن قتال الخوارج السبئية

اتضح فيما سبق أن عثمان رضي الله عنه كان يسير وفق منهجية شرعية ، لا غموض فيها ولا لبس ، وأنّه كان أعلم بالخوارج من أنفسهم ، وذلك بما سمعه عنهم وعن نواياهم الفاسدة التي كانوا يسترونها بالتقية والباطنية ، وبما أخبره بعض أصحابه عن مقاصدهم ، وبما شاهده من أحوالهم ، ودناءتهم ونقضهم ، وتعاونهم على الشرّ ، حيث كانوا « يداً واحدة في الشرّ ، وكانت حثالة من الناس قد ضووا إليهم قد مزجت عهودهم وأماناتهم مفتونون ، وكان أصحاب النبي ﷺ الذين خذلوه كرهوا الفتنة وظنّوا أنّ الأمر لا يبلغ قتله »[1]. « ولم يقع في خلد أحد أنّ القتل كان في نفس الخارجين »[2]، وقد جاء وصف الخوارج على عثمان بالحديث الشريف أنّهم منافقون ، قال ﷺ: « يا عثمان إن ولاّك الله هذا الأمر يوماً ، فأرادك المنافقون أن تخلع قميصك الذي قمصك الله، فلا تخلعه » يقول ذلك ثلاث مرات[3].

وإذا تبيّن من ذلك أنّ عثمان رضي الله عنه بصبره وكفّه وإشفاقه على المسلمين كان على هدى وصراطٍ مستقيم ، فما عذر الصحابة الذين كانوا بالمدينة وقد قتل وهم موجودون فيها ؟ وهذا سؤال قديم سُئله علي بن أبي طالب رضي الله عنه. قال معبد الخزاعي: **لقيت علياً رضي الله عنه بعد الجمل فقلت له: إنّي سائلك عن مسألة كانت منك ومن عثمان ، فإن نجوت اليوم نجوت غداً إن شاء الله قال: سل عمّا بدا لك ، قلت: أخبرني أي منزلة وسعتك إذ قتل عثمان ولم تنصره ؟ قال: إنّ عثمان كان إماماً وإنّه نهى عن القتال وقال: مَن سلّ سيفه فليس مني: فلو قاتلنا عصينا. قال: فأي منزلة وسعت عثمان**

(١) ابن سعد ، الطبقات ، ٣/٤٠ ، الذهبي ، الخلفاء الراشدون ، ٤٤٨ .

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٧/١٨٦ .

(٣) الألباني ، صحيح سنن ابن ماجه ١/٢٥ ، المحب الطبري ، الرياض النضرة ، ٢/١٠٢ .

إذ استسلم حتى قتل ؟ قال: المنزلة التي وسعت ابن آدم إذ قال لأخيه:﴿لئن بسطت إلـيّ يدك لتقتلني ما أنا بباسطٍ يدي إليك لأقتلك إنّي أخاف الله ربّ العالمين ۞ إنّي أريـد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين ﴾.[1]

قلت فهلا وسعتك هذه المنزلة يوم الجمل ؟ قال: إنّا قاتلنا يوم الجمل من ظلمنا قـال الله تعالى: ﴿ ولَمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ۞ إنّما السبيل علـى الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق، أولئك لهم عذاب أليم ۞ ولَمَن صبر وغفر إنّ ذلك لمن عزم الأمور ﴾[2] .

فقاتلنا نحن من ظلمنا وصبر عثمان وذلك من عزم الأمور[3]. فيتبيّن من هـذا أنّ عثمان رضي الله عنه قد أخذ بالعزيمة وحمل الصحابة في عصره على الأخذ بها ، وذلـك أعلى ما يمكن للبشر الأخذ به لإقامة الحجة وإثبات الحق وفضح الباغي .

وقد سبق الحديث عن مواقف كثير من الصحابة وأبنائهم المتفانين في الدفـاع عنه ، لكنه أخذ بالعزيمة على نفسه ودعا الخوارج إلى كتاب الله وسـنّة نبيّـه ﷺ ثم قال: « فإن أبيتم فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون ، إنّ وليّي الله الذي نزّل الكتـاب وهو يتولى الصالحين »[4] فلما لم يقبل الخوارج بكتاب الله وسنّة نبيّه ﷺ ، وأراد الصحابة أن يدافعوا عنه ، عزم عليهم أن لا يفعلوا ، ومما روي من عزيمته علـى الصحابة بالكف عن القتال قوله لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه عندما ألح عليـه يطلـب الإذن بالقتال:

- « أنشد الله رجلاً رأى لله حقاً وأقر أن لي عليه حقاً أن يهريق في سـبيلي مـلء محجمة من دم أو يهريق دمه فيّ »[5] .

---

(١) المائدة ، الآيتان (٢٨-٢٩) .

(٢) الشورى ، الآيات (٤١-٤٢-٤٣) .

(٣) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ٢٨٣/٤ . (٤) ابن شبة ، تاريخ المدنية ، ٢٣٥/٢ .

(٥) المحب الطبري ، الرياض النضرة ، ٦٨/٢ ، ابن خياط ، تاريخ ، ١٧٣.

- وعزيمته على أبي هريرة بقوله: « أما علمت أن لي عليك حقاً ، قال: بلى يا أمير المؤمنين. قال: فأقسمت عليك بحقي لما أغمدت سيفك وكففت يدك »[١]، وقال له في موقف آخر: « أعزم عليك فإنّما يُراد نفسي وسأقي المؤمنين بنفسي »[٢]. وقال للحسن بن علي رضي الله عنهما عندما قال له علام تمنع الناس من قتالهم ؟ :

- « أقسمت عليك يا ابن أخي لما كففت يديك ولحقت بأهلك ، فلا حاجة لي في هراقة الدماء »[٣] وكذلك أقسم على مروان بن الحكم[٤]. وقال يوم الدار وهو محصور:

- « أعزم على من كان لنا عليه سمع وطاعة لما كف يده وسلاحه ، فإن أعظمكم عندي غناءً اليوم من كفّ يده وسلاحه »[٥]. ودخل عليه عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما وقال: « يا أمير المؤمنين إن بالباب عصابة مستبصرة ، قد ينصر الله بأقلّ منهم . فقال:

- أنشد الله رجلاً يرى لله عليه حقاً ويرى لي عليه حقاً أن يهريق ... لي دماً »[٦].

قال جُهيم:

- « رأيت ابن الزبير يخرج في كتيبة حتى يهزمهم ، لو شاؤوا أن يقتلوا فيهم لقتلوا ورأيت سعيد بن البختري وإنّه ليضرب رجلاً بعرض سيفه لو شاء أن يقتله ، ولكن عثمان رضي الله عنه عزم على الناس »[٧]. ودخل زيد بن ثابت على عثمان رضي الله عنه فقال:

---

(١) ابن شبة ، تاريخ المدنية ، ٢/٢٣٥ ، المحب الطبري ، الرياض النضرة ، ٢/٦٩ .

(٢) ابن شبة ، تاريخ المدنية ، ٢/٢٤٣ ، ابن خياط ، تاريخ ، ١٧٣.

(٣) المصدر نفسه .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) المصدر السابق ، ٢/٢٤٥ ، الذهبي ، الخلفاء الراشدون ، ٤٥٢ ، ابن خياط ، تاريخ ، ١٧٣ .

(٦) المصدر نفسه .

(٧) المصدر نفسه .

- « هؤلاء الأنصار يقولون دعنا نكن أنصار الله مرتين قال: عزمت عليكم لما رجعتم. قال فرجعوا »[1]. وقال للمغيرة بن شعبة عندما عرض عليه النصرة:

- « لن أكون أول من خلف رسول الله ﷺ بإهراق دم مسلم بغير حق »[2] .

- وقال لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما عندما قال له: هاأنذا طوع يديكِ فمرني بما شئت. فقال الخليفة:

- « جزاكم الله يا آل عمر خيرا مرتين: لا حاجة لي في إراقة الدم لا حاجة لي في إراقة الدم »[3]. « وجاء بنو عدي فاحتملوا عبد الله بن عمر »[4]. وقال رضي الله عنه:

- «الله ، والله لا ، والله لا يهراق في اليوم محجمة من دم طائعا ، ثم انصرف وقال لأهل الدار: من كان منكم إنما يقيم للذي لي في عنقه فهو منه في حل ، ثم جلس على المصحف – أي يتلوه – ». وقال لأبي هريرة رضي الله عنه:

- « إنما نفسي تراد فعلام تقتل الناس ؟ أحتسب بنفسي على الناس »[5] .

- وانطلق الحسن والحسين وابن عمر وابن الزبير ومروان ، كلهم شاكي السلاح حتى دخلوا الدار ، فقال عثمان رضي الله عنه: « أعزم عليكم لما رجعتم فوضعتم أسلحتكم ولزمتم بيوتكم »[6] فقال كعب بن مالك الأنصاري يصف موقف عثمان رضي الله عنه ويرثيه:

وكف يديه ثم أغلق بابه ... وأيقن أن الله ليس بغافل
وقال لأهل الدار لا تقتلوهم ... عفا الله عن كل امرئ لم يقاتل
فكيف رأيت الله ألقى عليهم الـ ... ـعداوة والبغضاء بعد التواصل

---

(١) المصدر السابق ، الطبري ، تاريخ ، ٣٨٥/٤ ، الذهبي ، الخلفاء الراشدون ، ٤٥٣.

(٢) ابن شبة ، تاريخ المدنية ، ٢٤٦/٢ .

(٣) المحب الطبري ، الرياض النضرة ، ٦٩/٢ ، وينظر: ابن خياط ، تاريخ ، ١٧٣.

(٤) ابن شبة ، تاريخ المدنية ، ٢٤٧/٢ ، ابن خياط ، تاريخ ، ١٧٣ .

(٥) ابن شبة ، تاريخ المدنية ، ٢٤٧/٢ ، الطبري ، تاريخ ، ٣٨٨/٤ ، المحب الطبري ، الرياض النضرة ٧٠/٢.

(٦) ابن خياط ، تاريخ ، ١٧٤.

وكيف رأيت الخير أدبر بعـــده عن الناس إدبار النعام الجوافل[1]

هذه هي الحال التي كانت تحيط بالصحابة ﷺ ، في أيام المحنة الكبرى ، فقـد كان الكثير منهم ومن أبنائهم ، يرغب في جهاد الخوارج ، ودحر بغيهم وإخراجـهم من المدينة، لكن الخليفة ﷺ ، أخذ هؤلاء الخوارج بظاهر دعواهم ، وبقي يماشيهم على ذلك الظاهر ، ويتنازل لهم عن جميع حقوقه وحقوق ولاته فيما سوى إقامـــة الحدود الشرعية التي لا مجال للاجتهاد فيها ، فلم يردعهم ذلك وازداد بغيهم وكثرة مطالبهم ، فازداد الخليفة حلما وصبرا، ولبى لهم جميع مطالبهم حتى إذا لم يبق لهم مطلب ، وأسقطت جميع ذرائعهم ، قاموا بارتكاب فعلتـــهم النكـــراء ، مجـــاهرين بالمعصية ، مجترئين على الدم الحرام في البلد الحرام في الشهر الحـــرام ليعلنـــوا بذلك عن رفضهم للدين وعداوتهم للمؤمنين .

فحقق الخليفة بتوكله على الله تعالى وتسليمه أمره للأقدار الربانية ؛ نصرا تاما غير منقوص ، إذ شهد له الصحابة بسداد الرأي وحسن التدبير والتمســك بـــالعمل بالكتاب والسنة ، حتى بذل دمه الطاهر في سبيل تأكيد ذلك فافتدى عقيدتـــه ولـم يداهن ولم يصانع ، حتى كان الله تعالى هو الصانع الفاعل فحقن دماء المسلمين ولم يثر فتنة ، ولم يمتشق سيفا في وجه مسلم فكان الله تعالى هو المنتقم له والمنتصـــر والكافي له ، قال تعالى: ﴿ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنمـــا هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴾[2] .

وكان انتصار الصحابة الكبير بثباتهم على طاعة الخليفة ، وعـــدم خروجـــهم عنها حتى تمكن من تنفيذ كل خطته في مواجهة الخوارج ، والتي كان هدفها إظهار بغيهم وباطنيتهم وكشف نواياهم الحقيقية التي تريد تدمير الإسلام وإبادة أهله ، لكي

---

(١) ابن شبة ، تاريخ المدنية ، ٢/٢٤٥ ، ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ٢/١٠٥٠ ، ابن كثير ، البـدايـــة ، والنهاية ، ٧/٢٠٦.

(٢) سورة البقرة ، الآية ، (١٣٧) .

تستقي الأجيال كيف تكون التضحية من أجل العقيدة ، ضمن ضوابط الكتاب والسنة لا حظ للنفس ولا مكان للمصلحة أو الهوى .

فمن مواقف الصحابة ﭬ في المحن وتمسكهم بدينهم وتعاليمه في الشدائد تؤخذ العبر وتوضع المقاييس ، **فما أعظم صبرهم وما أعمق إيمانهم عندما يكون أحدهم بكامل قوته وتمام استعداده** ، **وفي أعلى درجات الاستفزاز التي يواجههم بها الخوارج فيقال لهم كفوا أيديكم وألقوا أسلحتكم** ، **فيكفون أيديهم ويلقون أسلحتهم** ، فيا الله ما أعظم ذلك الجيل ، وما أكرم تلك الطباع ، وما أنبل تلك النفوس ، ومن هنا يتضح الفارق الكبير بينهم في إيمانهم وصبرهم وانضباطهم وطاعتهم التامة لخليفتهم، وبين الخوارج الذين لا دين يحجزهم ، ولا قيم تضبطهم ، حتى جلبوا على الأمة الدمار والفتن والضلال ، فأصبح الفارق الواضح والعلامة البينة ، بين أهل الدين والإيمان والصدق والإخلاص وحب الأمة ، وبين أهل البغي والنفاق والكذب والرياء وكراهية الأمة ، هو حب الصحابة جميعا وحب عثمان الحليم الصابر المحتسب إذ أن أية محاولة للنيل من أحد من الصحابة أو الخلفاء الراشدين ﭬ ، ستكون هي المؤشر الأول على الزندقة ومفارقة صريح القرآن وصريح السنة .

وبهذا يتبين أن الصحابة لم يكونوا متعمدين التقصير في الدفاع عن الخليفة وإنما كانوا واقفين عند حدود تعليماته وعزيمته عليهم بالكف ، وقد بلغ من إلحاحهم عليه في محاولات أخذ الإذن في الجهاد والدفاع عنه وعن الخلافة حدا جعل عثمان ﭬ ، يناشدهم الله تعالى أن يكفوا أيديهم، ويقسم عليهم ويعزم عليهم بالله إلا كفوا سلاحهم ، فلم يعد بإمكان أحد منهم أن يتجاوز تأكيدات الخليفة هذه ، ولا سيما أن الصحابة يتقربون إلى الله تعالى بطاعة أولي الأمر المؤمنين ، ولو لم يكونوا كذلك فما الفرق بينهم وبين الخوارج الذين لا يسمعون ولا يطيعون . وبذلك جنبوا الأمة فتنة كبرى ، قد يكون الصحابة ﭬ هم بعض وقودها ولا سيما أن أعداد واستعداد الخوارج أكبر مما كان حول الخليفة ، وغياب كثير من أهل المدينة في الحج وفي

الثغور ، واعتزال آخرين للفتنة ولزومهم لبيوتهم[1]، فضلا عن أن الخوارج السبئية كانوا يتعاملون بالتقية ، فلم يعلنوا للناس أنهم يهدفون إلى تغيير الخليفة أو خلعه أو اغتياله. وقد أثار الآجري سؤالا فقال: « فإن قال قائل: فقد علموا أنه مظلوم وقد أشرف على القتل فكان ينبغي لهم أن يقاتلوا عنه وإن كان قد منعهم .

قيل له: ما أحسنت القول، لأنك تكلمت بغير تمييز ، فإن قال: ولم ؟ قيل: لأن القوم كانوا أصحاب طاعة ، وفقهم الله تعالى للصواب من القول والعمل فقد فعلوا ما يجب عليهم من الإنكار بقلوبهم وألسنتهم وعرضوا أنفسهم لنصرته على حسب طاقتهم فلما منعهم عثمان رضي الله عنه من نصرته علموا أن الواجب عليهم السمع والطاعة له ، وإنهم إن خالفوه لم يسعهم ذلك ، وكان الحق عندهم فيما رآه عثمان رضي الله عنه »[2] .

وهذا قريب جدا مما أثاره ابن كثير وأجاب عليه بإجابة قريبة من هذه الإجابة مضافا إليها بيانه لكثرة الخوارج وقلة من في المدينة من الصحابة رضي الله عنهم [3] .



(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٠٧/٧ .

(٢) ينظر: الغيث ، استشهاد عثمان ، ١١٦ .

(٣) ينظر: ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٠٧/٧ .

أخلاق القتلة ومصيرهم

كان الله تعالى لهؤلاء الخوارج بالمرصاد ، فلم يهنأ لهم عيش ولم يقر لهم قرار ، قال تعالى: ﴿ ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتّلوا تقتيلاً ﴾[١]، وذلك منذ أن اقترفوا إثمهم الموبق واجترؤوا على أولياء الله تعالى الصالحين من صحابة رسول الله ﷺ ، قال تعالى: ﴿ ألا إنّ أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾.[٢]

لكن هؤلاء الخوارج السبئية لا يقيمون حرمة لكتاب الله تعالى ، ولا لعباده المؤمنين ولا يحلون حلالاً ولا يحرمون حراماً ، وهذا شأنهم وخُلقهم على مرّ العصور. قال عبد الله بن الزبير: « **لُعنت قتلة عثمان** رضي الله عنه ، **خرجوا عليه كاللصوص من وراء القرية ، فقتلهم الله كل قتلة ، ونجا من نجا منهم تحت بطون الكواكب - يعني مشردين خائفين - وأكثر المسلمين كانوا غائبين ، وأكثر أهل المدينة الحاضرين لم يكونوا يعلمون أنّهم يريدون قتله حتى قتلوه** ».[٣]

وبيّنت أم المؤمنين عائشة أنّ هؤلاء الخوارج استجلبوا معهم بعض من يتظاهر بالعبادة والتلاوة حتى خدعوا الناس بأنّهم من أهل الدين والصلاح فقالت تخاطب عبيد الله بن عدي بن الخيار الأنصاري: « لا يغرنّك أحد بعد الذي تعلمه ؛ فوالله ما احتقرتُ أعمال أصحاب رسول الله ﷺ حتى يختم القرآن القرّاء الذين طعنوا على عثمان رضي الله عنه فقالوا قولاً لا يَحسُن مِثله وقرأوا قراءةً لا يُقرأ مثلها ، وصلّوا صلاة لا يُصلّى مثلها فلما تذكرت الصنيع - عملهم وسيرتهم - إذاً والله ما يقاربون عمل أصحاب رسول الله ﷺ فإذا أعجَبَك حسنُ قول امرئ فقل: « اعملوا فسيرى الله

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية (٦١) .

(٢) سورة يونس ، الآية (٦٢) .

(٣) ابن تيمية ، منهاج السنة ، ٦/٢٩٦.

عملكم ورسوله والمؤمنون »[١]، ولا يستجلبك أحد[٢]، لذلك كانت تقول قتل عثمان والله مظلوما ، لعن الله قتلته ، وأقاد منهم وأهرق دماءهم ورماهم بسهم من سهامه وساق إليهم هوانا فما منهم إلا أصابته دعوتها رضي الله عنها[٣]، وقال علي رضي الله عنه يوم الجمل: « اللهم جلل قتلة عثمان اليوم خزيا »[٤]، وعن الحسن قال: « لم يدع الله الفسقة قتلة عثمان رضي الله عنه حتى قتلهم بكل أرض »[٥]. وقال أيضا: « ما علمت أحدا أشرك في دم عثمان رضي الله عنه ولا أعان عليه إلا قتل »[٦]. وقال عنهم أبو مسلم الخولاني « هؤلاء شر من ثمود، - ثمود – عقروا الناقة ، وهؤلاء قتلوا الخليفة »[٧] قال تعالى: ﴿ وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين ، كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود ﴾ . هود (٦٧ ـ ٦٨) .

وسكب أحدهم ماء جيء به إلى عثمان فقال عثمان: « اللهم أظمئه ، فركب الرجل البحر مع أصحاب له ، وكان ثقيلا فنفد ماؤهم ، فانتهوا إلى ساحل اليمن فخرجوا وخرج معهم ، وكانوا أخف منه فأدركهم العطش فمات عطشا »[٨]. وقال وابصة أو ابنه: « **حصر عثمان** رضي الله عنه **المنافقون وقتله الكافرون** » [٩]، فقد كانوا مجردين من كل قيم المسلمين لا يحلون الحلال ولا يحرمون الحرام ، لأنهم خرجوا من دين المسلمين. قالت نائلة زوجة الخليفة للخليفة رضي الله عنه لما دخلوا عليه: « ألا ألقي

---

(١) سورة التوبة، الآية (١٠٥) .
(٢) ابن شبة ، تاريخ المدنية ، ٢٦٠/٢ .
(٣) المصدر نفسه ، ٢٦٥/٢ و ٢٧٩/٢ .
(٤) المصدر نفسه ، ٢٦٥/٢ و ٢٧٩/٢ .
(٥) البخاري ، التاريخ الصغير ، ١٠٤/١ .
(٦)ابن شبة، تاريخ المدينة ، ٢٧٠/٢، ٢٨٥/٢، ٢٨٩/٢، وينظر: ابن حنبل، فضائل الصحابة، ح (٨١٦).
(٧) المصدر نفسه .
(٨) المصدر نفسه .
(٩) المصدر نفسه .

خماري عني لعلهم ينتهون عن بعض ما يريدون ؟ قال: الذي يطلبون أعظم حرمة مما تذكرين »[١]. فلما قتلوه ﷺ، انتهبوا متاعه فقالت نائلة: « **لصوص ورب الكعبة** يا أعداء الله ما ركبتم من دم عثمان أعظم »[٢]. فلما رآها يرحمها الله تعالى أحد هؤلاء الزنادقة قال: « قاتلها الله ما أعظم عجيزتها !! قالت فعرفت أن أعداء الله لم يريدوا إلا الدنيا »[٣].

ووصفهم الحسن بن علي رضي الله عنهما فقال: « مشائم هذه الأمة من فتق فيها المفتق العظيم »[٤].

وروي أن قتلة الخليفة الشهيد ﷺ: « ما أفلت منهم مجتر »[٥]. ووصفوا بأنهم يد واحدة في الشر وأنهم حثالة من الناس لا عهد لهم ولا أمانة ، وأنهم مفتونون[٦].

ووصف علي ﷺ صنيعهم بعثمان ﷺ فقال لهم: « إن الذي تصنعون لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين »[٧] .

وضرب أحدهم المصحف برجله فاستدار المصحف واستقر بين يدي عثمان ﷺ[٨]، و « تناولوا ما على النساء ، وأخذ رجل ملاءة نائلة »[٩] .

ولما بلغ سعد مقتل الخليفة الشهيد المصطبر على الحق يعطيه ﷺ ، استغفر له وترحم عليه وتلا في حق الذين قتلوه قوله تعالى: ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين

---

(١) ابن شبة، تاريخ المدينة، ٢٧٠/٢، ٢٨٥/٢، ٢٨٩/٢، وينظر: ابن حنبل، فضائل الصحابة، ح (٨١٦).

(٢) ابن سعد، الطبقات ، ٤١/٣ ، المحب الطبري ، الرياض النضرة ، ٧٢/٣.

(٣) ابن شبة ، تاريخ المدنية، ٢٩٠/٢.

(٤) ابن شبة ، تاريخ المدنية ، ٢٨٤/٢.

(٥) المصدر نفسه ، ٢٨٩/٢ .

(٦) ابن سعد ، الطبقات ، ٤٠/٣ .

(٧) الطبري ، تاريخ ، ٣٨٧/٤ ، ٣٩١/٤ ، ٢٩٢/٤ .

(٨) المصدر نفسه .

(٩) المصدر نفسه .

أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾[1]، ثم قال: اللهم أندمهم ثم خذهم ، قال ابن كثير: وقد أقسم بعض السلف بالله أنه ما ملت أحد من قتلة عثمان رضي الله عنه إلا مقتولا. وهكذا ينبغي أن يكون مصيرهم لدعاء الصحابة عليهم ولعنهم على ألسنة الصالحين ولدعوة سعد المستجابة (٢) .

وروى ابن كثير: « أنه ما مات أحد منهم – قتلة عثمان – حتى جن »[3] وروى ابن عساكر عن زيد بن أبي حبيب قال: «بلغني أن عامة الركب الذين ساروا إلى عثمان جنوا »[4]، والجنون ألوان وأشكال ، وإنما سمي الجن لأنه لا يرى ولا يشاهد بالعين فمن لم يقتل بالسيف ، لن ينجو من دعاء أصحاب رسول الله ﷺ وأمهات المؤمنين فلا يبعد أنهم أصيبوا بالأمراض النفسية والعقلية ، لقاء ما اقترفوا من الإجرام بحق الإسلام والمسلمين والخليفة الصابر المحتسب. ومن لم يجن ولم يقتل فلا شك أنه عاش أيامه مختفيا ذليلا مهانا ، بل لو أمعن النظر في مصير هؤلاء الغوغاء لما وجد فيهم واحد سوي ، ولا أدل على ذلك من أن الباحث المنصف لا يجد لأحد منهم مظلمة تسوغ له الخروج على أحد من الولاة فضلا عن الجرأة على دماء الخليفة الصابر التقي ، فما الذي أخرجهم إن لم يكونوا فاقدي التمييز العقلي السوي والحس الفطري السليم ؟ وهل وجدوا خيرا من عثمان بعد ما قتلوه ؟ بل إنهم كانوا مجانين قبل أن يخرجوا من ديارهم لقتل الخليفة رضي الله عنه فما منهم إلا ومصاب بنوع من الجنون ، جنون الجهل وموت القلب وجمود العقل وعمى البصيرة واتباع الهوى وحب الزعامة ومرض التبعية العمياء لأعداء الإسلام وأهله ولولا ذلك لما قادهم ابن سبأ من وراء وراء بالنفث والإيحاء ليهدموا مجد

---

(١) سورة الكهف ، (١٠٣-١٠٤) .

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٩٩/٧ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) الهيتمي: الصواعق المحرقة ، ١٧٣.

أمّتهم بأيديهم ، دون أن يكون لأحد منهم أي وجه حق في ما قام به ، ولو كان هناك في الأمة حاجة لمن يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لقام بذلك علي وطلحة والزبير وسعد وسعيد بن زيد، وإخوانهم ﷺ من أصحاب محمد ﷺ ولما سبقهم هؤلاء الغوغاء الأجلاف الأخلاط الجهلة الحمقى ، الذين فتقوا في الإسلام المفتق العظيم . عن سمرة قال: إنّ الإسلام كان في حصن حصين ، وأنّهم ثلموا فيه ثلمة عظيمة بقتلهم عثمان لا تنسد إلى يوم القيامة[1] . لذلك فإنّ أي مصير لاقاه هؤلاء المجرمون كان قليلاً بحقهم ، فهذا **عبد الله بن سبأ الذي ينفث فيهم روح الشر والحقد قد اكتشف مكره علي ﷺ في فترة خلافته ، فعدّه أحد الدجاجلة الكذابين الذين حذّر منهم رسول الله ﷺ ، فنفاه من الكوفة[2]، قال علي ﷺ وهو على المنبر: « من يعذرني من هذا الحميت الأسود ، الذي يكذب على الله وعلى رسوله – يعني ابن السوداء – لولا أن لا يزال يخرج علي عصابة تنعى عليّ دمه كما أُدعيت عليّ دماء أهل النهر – أي الخوارج – لجعلت منه ركاماً»[3]، و« بلغ علياً أن ابن السوداء ينتقص أبا بكر وعمر ، فدعا به ، ودعا بالسيف ... فكلم فيه فقال لا يساكنني ببلد أنا فيه. قال: فسيّره إلى المدائن »[4] .**

ويبدو أنّ ابن سبأ أصرّ على زندقته ، وقال في علي قولاً منكراً: « فحبسه واستتابه ثلاثة أيام ، فلم يتب فأحرقه بالنار ، وقال: إنّ الشيطان استهواه فكان يأتيه ويلقي في روعه ذلك »[5] .

وأما الأشتر مالك بن الحارث النخعي مسعر الفتن الناقض لتوبته التي تابها

---

(١) الهيتمي: الصواعق المحرقة ، ١٧٣ .

(٢) ينظر: الغيث ، استشهاد عثمان ، ٢٢٨ .

(٣) الغيث ، استشهاد عثمان ، ٢٢٩. عن ابن عساكر .

(٤) المصدر نفسه ,

(٥) الكشي ، كتاب الرجال ، ٩٨ ، الغيث ، استشهاد عثمان ، ٢٢٥ .

على يد عبد الرحمن بن خالد بن الوليد والي حمص فقد مات مسموماً في مصر فلما بلغ مصابه علي رضي الله عنه قال: « بالأنف لا بالفم »[١] .

وروى الذهبي: أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، نظر إلى الأشتر ... ثم قال: إنّ للمسلمين من هذا يوماً عصيباً ... وكان علي يتبرّم به ويكرهه ومات مسموماً وهو في طريقه إلى مصر فقال علي رضي الله عنه: « للمنخرين والفم »[٢] .

وسودان بن حمران السكوني ، وقتيرة السكوني ، وكلثوم بن تجيب ، فقد قُتلوا عندما اقتحموا الدار على الخليفة الشهيد عثمان رضي الله عنه[٣] .

وحُكيم بن جبلة العبدي قتل في البصرة بعد أن تخلى عنه قومه لولوغه في الفتن. وقُتل معه كل الذين خرجوا على عثمان من غوغاء البصرة وسبئيتها« ونادى منادي الزبير وطلحة بالبصرة: ألا من كان فيهم من قبائلكم أحد ممن غزا المدينة فليأتنا بهم ، فجيء بهم كما يُجاء بالكلاب ، فقُتلوا فما أفلت منهم من أهل البصرة جميعاً ، إلا حرقوص بن زهير ، فإنّ بني سعد – قومه – منعوه فمسهم في ذلك أمر شديد »[٤] .

وتتبع مصير المجلبين على عثمان رضي الله عنه أمر يطول ذكره ، والمقصود من ذلك أنّ الله تعالى يملي للظالم ويمهله حتى إذا أخذه لا يفلته ، وأنّ دماء عثمان رضي الله عنه التي بذلها صابراً محتسباً فداء لسلامة عقيدته ووحدة أمّته ، لم تذهب سدىً وأنّ الله سبحانه وتعالى كان هو الطالب بها ، قال تعالى: ﴿ فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴾. فكان سبحانه وتعالى نعم الكافي والمنتقم لعبده المظلوم الذي لجأ إليه وحده ولعل في قصة كُميل وعُمير السبئيين مصداقاً لذلك وعبرة لمن يعتبر .

---

(١) ابن شبة ، تاريخ المدنية ، ٢٦١ .

(٢) الذهبي ، الخلفاء الراشدون ، ٥٩٤ .

(٣) ينظر: الطبري ، تاريخ ، ٣٩١/٤ .

(٤) الطبري ، تاريخ ، ٤٧٢/٤ ، الخليفة ، الأنصار في العصر الراشدي ، ١٦٨ .

ـ فقد كان **ضابئ بن الحارث البرجمي** يسكن الكوفة أيام ولاية الوليد بـــن عقبـــة عليها ، فاستعار ضابئ من قوم من الأنصار ، كلباً يصيد الضباء ، فحبسه عنـــهم فاستغاث عليه الأنصاريون بقومه ، فانتزعوه منه فهجاهم لذلك وأفحش الهجاء حتى قال:

فكلبكم لا تتركوا فهو أمكم فإنّ عقوق الأمهات كبيرُ

فشكوه إلى عثمان فأرسل إليه فعزره وحبسه ، كما كان يصنع بأمثالـــه مـــن المذنبين ، فمات ضابئ في الحبس ، ويبدو أنّه كان قد همّ بـــالفتك بالخليفـــة رضي الله عنه لكنه لم يفعل ، فقال في ذلك يعتذر إلى أصحابه:

هممتُ ولم أفعل وكدت وليتني فعلتُ ووليت البكاء حلائله

وقائلـــةٍ لا يُبعـــد الله ضابئـــاً فنعم الفتى تخلو به وتحاوله

قال الطبري: « **فلذلك صار عمير بن ضابئ سبئياً** » ، وروي أيضاً عن مصـــير قتلة الخليفة: « **والله ما علمت ولا سمعت بأحد غزا عثمان رضي الله عنه ولا ركب إليـــه إلا قتـــل** لقد اجتمع بالكوفة نفر فيهم الأشتر وزيد بن صُوحان وكعب بن ذي الحبَكة – وكان يمارس أشياء تشبه السحر أو هي منه – وأبو زينب وأبو مورّع – وكانا قد ســـرقا خاتم الوليد واتهماه بشرب الخمر – وكُميل بن زياد وعُمير بن ضابئ ، فقـــالوا: **لا والله لا يُرفع رأس ما دام عثمان على الناس** ، فقال عمير بن ضابئ وكميل بن زيـــاد: نحن نقتله . فركبا إلى المدينة ، فأما عمير فإنّه نكل وأما كميل بن زياد فإنّه جســـر وثاوره ، وكان جالساً يرصده حتى أتى عليه عثمان ، فوجأ عثمان وجهه فوقع على إسته ، وقال: أوجعتني يا أمير المؤمنين !! قال أو لست بفاتك ؟ قال: لا والله الـــذي لا إله إلا هو ، فحلف وقد اجتمع عليه الناس ، فقالوا: نفتشه يـــا أمـــير المؤمنيـــن فقال: لا ، قد رزق الله العافية ، ولا أشتهي أن أطلع منه على غير ما قال ، وقال : يا كُميل ، إن كان كما قلت فاقتد مني وجثا ، فوالله ما حسبتك إلا تريدني ، وقـــال: إن كنت صادقاً فأجزل الله ، وإن كنت كاذباً فأذلّ الله . وقعد له على قدميه وقـــال:

دونك ! قال قد تركت . . . » ، فعاش كميل هذا وعمير بن ضابئ إلى أيام الحجاج والي العراق فلما علم بخروجهما على أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه ، ضرب عنقيهما نكالاً من الله ليتحقق في الخوارج كفاية الله تعالى لعثمان رضي الله عنه ، قال تعالى: ﴿فسيكفيكهمُ الله وهو السميع العليم ﴾. تلك الآية من كتاب الله التي سقطت عليها أول قطرة من دماء الخليفة الطاهرة.[1]

لهذا كان قتلة عثمان رضي الله عنه ، هم شرّ هذه الأمة ، لما اقترفوا من الإثم العظيم وهذا ما أصبح عُرفاً عند المسلمين ، فكانوا إذا أرادوا المبالغة في وصف سوء شبهوه بفعل قتلة عثمان رضي الله عنه لما ترتّب عليه من الحرمان وفقدان الأمن والفتن التي طال شرّها الجميع « فأتى على الناس زمان ، إذا كان بين رجلين منازعة، قال: أنا شر من قاتل عثمان »[2]، وسمع طاووس التابعي الفقيه: « رجلاً وهو يقول: ما رأيت رجلاً قط شراً منك ، فقال له: أنت لم ترَ قاتل عثمان رضي الله عنه »[3]. **وقال الإمام أحمد: شتم عثمان زنْدَقة وباطنه كفر ، لأنّه يؤدّي إلى تكذيب المهاجرين والأنصار الذين اختاروه بالإجماع[4]. فكيف يكون حال من حمل عليه السلاح واستباح دمه ظلماً وعدواناً ؟ .**

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ١٨٩/٥ . ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٠/٩ .

(٢) ابن شبة ، تاريخ المدنية، ٢٩٧/٢.

(٣) الهيتمي ، الصواعق المحرقة ، ٣٨٦.

(٤) ابن حنبل ، فضائل الصحابة ، فضائل عثمان (٧٤٠) .

بكاء المسلمين عثمان رضي الله عنه ورثاؤهم له

عاش الصحابة والمسلمون جميعاً أيام خلافة عثمان عيشاً هانئاً طيباً ، فقد كان الإسلام فيها عزيزاً والفتوح في أوجها ، والعطاء داراً والخير عميماً ، والأخوّة قائمة وذات البين صالحة ، والأمن مستتباً ، والعلم مزدهراً ، والمهاجرون والأنصار ومن تبعهم بإحسان هم أهل الأمر والنهي ، وهم أرأف بالمسلمين من أنفسهم ، ولا أدل على ذلك من أن الخليفة عثمان رضي الله عنه قد افتداهم بنفسه وضحى بدمه ، من أجل سلامة المسلمين وإشفاقاً عليهم من أن يصابوا بمكروه .

فقد كان من أخلاق الخلفاء الراشدين وعمالهم وأمرائهم ، في ساعات الخطر والشدة أن يُقدموا أرواحهم ، فداء لعقيدتهم وأمّتهم كما فعل ذلك عثمان رضي الله عنه على أتم وجه وأبلغه وبما لم يحصل لأحد من قبله ولا من بعده ، وكذلك الخليفتان عمر وعلي رضي الله عنهما ، ولكن لم يحصل لهما من الأذى كما حصل لعثمان رضي الله عنه الذي لم يغيّر ولم يبدّل ، والذي كان بإمكانه أن يمحق الخوارج السبئية ومن وراءها من الغوغاء المخدوعين المغرر بهم ، وذلك ما أعلمهم به حين قال: « فإنّي لا آمر أحداً بقتالكم ، فمن قاتل دوني فإنما قاتل بغير أمري ، ولعمري لو كنت أريد قتالكم لقد كنت كتبت إلى الأجناد فقادوا الجنود وبعثوا الرجال أو لحقت ببعض أطرافي بمصر أو عراق ، فالله الله في أنفسكم فأبقوا عليها ، إن تبقوا عليّ ، فإنّكم مجتلبون بهذا الأمر – إن قتلتموني – دماً »[1]. وهذا ما يتفق مع ما عزم عليه عثمان رضي الله عنه من التسليم لقضاء الله تعالى ولما عاهد عليه رسول الله . قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: « لما كان يوم الدار قيل لعثمان ألا تقاتل ؟ قال: عاهدت رسول

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ط ، د ، ف ، ١٧١/٥ .

الله ﷺ على عهد سأصبر عليه »[1]، وقولها: قال رسول الله ﷺ: « يا عثمان إن ولاّك الله هذا الأمر يوماً ، فأرادك المنافقون أن تخلع قميصك الذي قمصك الله فلا تخلعه » يقول ذلك ثلاثاً[2] .

وهذا ما يتفق مع ما قام به عثمان في أيام محنته ، ويرد الأباطيل التي تزعم أنّه أرسل يطلب الإمداد من الأمصار ، قال ابن العربي: « واخترعوا كتاباً فيه فصاحة وأمثال كتب عثمان مستصرخاً إلى علي ، وذلك كله مصنوع ، ليوغر قلوب المسلمين على السلف الماضين والخلفاء الراشدين »[3] .

ولكل ما سبق من شفقة عثمان ووفائه ورحمته وعدله وحلمه ، ولأنّه قتل في المدينة غيلة بتهم يعلمون يقيناً أنّها باطلة وأنّها أُلصقت به زوراً وبهتاناً كما قال كعب بن مالك الأنصاري رضي الله عنه:

ما قاتلوه على ذنب ألمّ به إلا الذي نطقوا زوراً ولم يكن[4]

لكل ذلك ازداد ألم الصحابة رضي الله عنهم على فقدهم أخاهم الخليفة المصطبر ، فساءهم ذلك جميعاً وبكاه ورثاه كثير منهم ، ومنهم من رثاه بلسانه ومنهم رثاه بسيفه كما فعل طلحة والزبير رضي الله عنهما ومن بعدهما معاوية رضي الله عنه ، ومما رثي به عثمان الشهيد رضي الله عنه قول كعب بن مالك:

إنّي رأيت قتيل الدار مضطهداً عثمان يُهدى إلى الأجداث في كفن

يا قاتل الله قوماً كان أمرُهم قتل الإمام الزكي الطيب الردن[5]

---

(١) ابن أبي عاصم ، السنة ، ٥٦١/٢.

(٢) الألباني ، صحيح سنن ابن ماجه ٢٥/١ ، وينظر: ابن العربي ، العواصم من القواصم ، ١٣٧ .

(٣) ابن العربي ، العواصم من القواصم ، ١٤٥ ، وينظر عن الكتاب الذي يزعمون أن عثمان كتبه إلى ولاته ، الطبري ، تاريخ ، ١٦٥/٥.

(٤) ابن عبد البر ، الاستيعاب، ١٠٥٠/٢ ، وينظر، الخليفة ، الأنصار في العصر الراشدي ، ١٥١ ، بكاء الأنصار عثمان .

(٥) المصدر نفسه .

ووصف كعب حرص عثمان على تجنب الفتنة ، وإصـــراره علـــى عـــدم القتـــال وصبره واحتسابه على ما أصابه في محنته ، وما صار عليه الحال بعد مقتله رضي الله عنه فقال :

فكـــفّ يـــديه وأغلـــق بابـــه وأيقـــن أن الـــله ليـــس بغـــافـــل

وقال لأهل الدار لا تقـــتلوهم عفا الله عن ذنب امرئ لـــم يقاتـــل

فكيف رأيت الله ألقى عليهـــم العـــداوة والبغضـــاء بعدالتـــواصل

وكيف رأيت الخير أدبر بعده على الناس إدبار السحاب الحوافل[1]

وبكى كعب شمائل الخليفة وسجاياه الطيبة وحبه لفعل الخير فقال:

قتل الخليفة كان أمراً مفظعـــاً قامـــت لـــذاك بليّـــة التـــخويـــف

قتل الإمام له النجوم خواضـــع والشمـــس بازغـــة له بكســـوف

كم من يتيم كان يجبر عظمـــه أمسى بمنزلـــة الضيـــاع يطـــوف

ما زال يقبلُهم ويرأب ظُلمهـــم حتـــى سمعـــت برنَّـــةِ التـــلهيـــفِ

النار موعُدهُمْ بقـــتل إمامهـــم عثمـــان ظَهْـــراً[2]في البلاد عفيـــف

فابكي أبا عمرو عتيقاً واصلاً ولواءهـــم إذ كـــان غير ســـخيـــف

قتلوك ياعثمان غير مدنـــسٍ قتـــلاً لعمـــرك واقـــفاً بســـقيـــف[3]

وبين حسان بن ثابت رضي الله عنه ، حال الخوارج ، السبئية ، وأظهر زيفـــهم وضلالهم وضلال من يصدقهم ، وكيف دانوا بالتُقية والخداع ، فأظـــهروا حبـــهم للجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فجاءوا يُقوضون منبع هذه المعـــاني وأصلها الذي كان يقوم عليه الخليفة رضي الله عنه ، فقال:

أتركتم غزو الدروب وراءكم وغزوتمونا عند قبر محمد

---

(١) المصدر السابق ، الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ٢/ ٥٢٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ٧/ ٢٠٦ .

(٢) أي غيلة وغدراً .

(٣) الطبري ، تاريخ ، ٥/ ٢٠٣ .

فلبئس هدي المسلمين هديتـم   ولبئس أمر الفاجـر المتّعمـد
إن تقدموا نجعل قِرى سَرَواتكم   حول المدينة كل ليْـن مـزوَد
أو تدبروا فلبئس ما سافرتـم   ولمثل أمر أميـركم لم يرشـدِ
وكأن أصحاب النبـّي عشيّـة   بُدن تذبح عنـد باب المسجـد
أبكي أبا عمروَ لحسن بلائـه   أمسى مقيماً في بقيـع الغرقـد(١)

وقال ﷺ يذكر دار عثمان كيف كانت مقصداً لكرام الناس ، وللمتعلميـن وأصحاب الحاجات ، وكيف تغيرت حالها :

إن تمسي دارابن أروىمنه خاوية   باب صريع وباب مُحْرق خـرب
فقد يصادف باغي الخيرحاجتـه   فيها ويهوي إليهاالذكر والحسـب
يا أيها الناس أبدوا ذات أنفسكـم   لا يستوي الصدق عندالله والكذب(٢)

ودعا حسان بن ثابت على القتلة الآثمين ، لما ارتكبوا من جرم بحق الإسلام والأمة ، فقال :

قتـلتـم ولـي الله في داره   وجئتم بأمر جائر غير مهتدي
فلا ظفرت أيمان قوم تعاونوا   على قتل عثمان الرشيد المسدد(٣)

وقال واصفاً حال عثمان عندما قتل ، ومبشراً بالقصاص وأخذ الثأر :

ضحوا بأشمط عنوان السجود به   يقطـع الليل تسبيحـاً وقرآنـاً
صبراً فدى لكم أمي وما ولـدت   قد ينفع الصبرفي المكروه أحياناً
لتسمعـن وشيكـاً في دياركـم   الله أكبـر ياثـارات عثـمانـاً(٤)

وقال الفرزدق واصفاً لحال الخلافة ولما سيؤول إليه بعد استشهاد الخليفة:

إن الخلافة لما أضعنت ضعنت   عن أهل يثرب إذ غير الهدى سلكوا

---

(١) المصدر السابق ، ٥/ ٢٠٢ .   (٢) المصدر نفسـه .
(٣) ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ١٠٥٠/٢ . ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٠٦/٧ .
(٤) المصدر نفسـه .

صارت إلى أهلها منهم ووارثها   لما رأى الله في عثمان ما انتهكوا
السافكي دمه ظلماً ومعصية   أي دم لا هدوا من غيّهم سفكوا[1]

ووصف الحُباب بن يزد المجاشعي عمّ الفرزدق فعل القتلة ومكانهم من الدين، وخطورة العمل الذي ارتكبوه ضد الخليفة عثمان رضي الله عنه، فقال:

لَعَمرُ أبيك فلا تجزَعَنْ   لقد ذهب الخير إلا قليلا
لقد سفه الناس في دينهم   وخلّى ابن عفان شراً طويلاً
أعاذل كل امرئ هالك   فسيري إلى الله سيراً جميلاً[2]

وبيّن حنظلة الكاتب رضي الله عنه خطورة أي عمل من شأنه أن يزعزع الخلافة، لما يترتب عليه من تبدّل الأحوال وضعف الأمة، وتفرّق الصفوف وضياع الوحدة فقال:

عجبتُ لما يخوض الناس فيه   يرومون الخلافة أن تزولا
ولو زالت لزال الخير عنهم   ولاقوا بعدها ذلاً ذليلاً
وكانوا كاليهود أو النصارى   سواء كلهم ضلوا السبيلا[3]

ولقد صدق حنظلة بوصفه لأحوال الأمة بعد زوال خلافة عثمان، حيث زال العطاء العام والرخاء وذهب الخير إلا قليلاً، وتبدلت حال العزة والأمن إلى حال من الخوف والوجل، وضعف الأخوّة وتصدّع الصفوف، وبهذه الأوصاف وهذه المشاعر يتضح الأثر الكبير والألم الواسع الذي تركه غياب عثمان رضي الله عنه، والذي لا زالت آثاره إلى اليوم.

قال ابن كثير: إنّ عثمان صحب رسول الله ﷺ حتى توفي وهو عنه راضٍ

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ٧/٢٠٧.
(٢) الطبري، تاريخ ط. ف، ٥/٢٠٤.
(٣) المصدر نفسه، ٥/١٧٨.

وصحب أبا بكر حتى توفي وهو عنه راضٍ ، وصحب عمر حتى توفي وهو عنه راضٍ ، ونص عليه في أهل الشورى الستة[1] فكان خيرهم ، فأجمعوا على اختياره[2] .

وولي الخلافة بعد عمر ففتح الله على يديه كثيراً من الأقاليم والأمصار وتوسعت المملكة الإسلامية ، وامتدت الدولة المحمدية وبلغت الرسالة المصطفوية مشارق الأرض ومغاربها ، وظهر للناس مصداق قوله تعالى: ﴿ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنّهم من بعد خوفهم أمناً ﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون ﴾[4]. وهذا كله تحقق وقوعه وتأكّد وتوطّد زمان عثمان رضي الله عنه [5]. فكيف لا يبكيه المسلمون في زمانه ولا سيما إخوانه من الصحابة رضي الله عنهم ، وفي مقدمتهم شاعرا رسول الله صلى الله عليه وسلم كعب بن مالك ، وحسان بن ثابت الأنصاريان وفيما بعد زمانه ، لما ذهب معه من نعمة الأمن والأخوّة والرخاء حيث كان العطاء يعم جميع المسلمين كما كان زمان عمر رضي الله عنه لذلك كان الصحابة والمسلمون المقيمون في المدينة يبكون عليه ، والزنادقة الطارئون على المدينة يفرحون ويطربون لما حلّ بأمّة الإسلام وخليفتها رضي الله عنه وأرضاه .

---

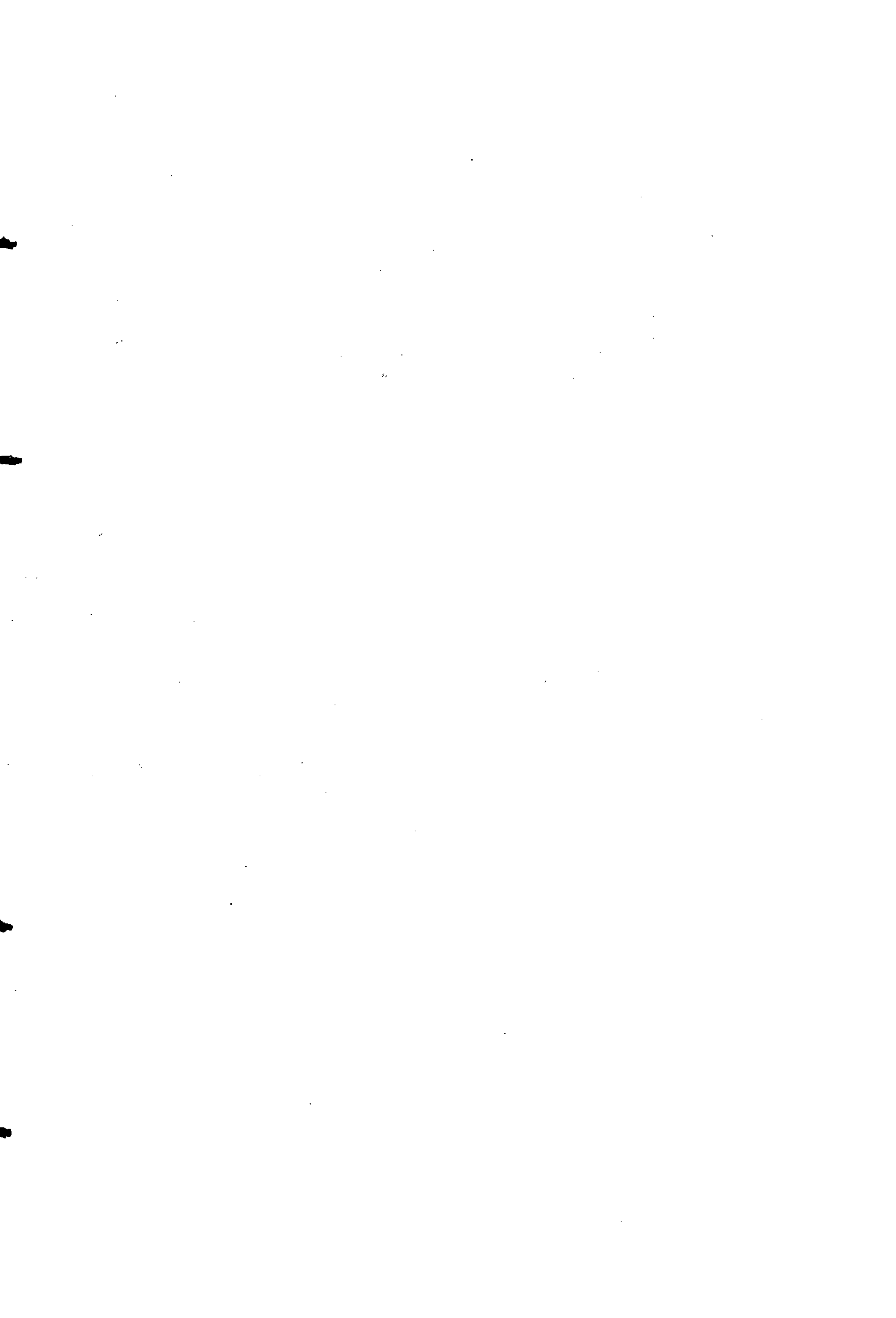
(١) وهم: عثمان وعلي ، وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، رضي الله عنهم أجمعين .

(٢) ينظر: المحب الطبري ، الرياض النضرة ، ٢/٥٦ .

(٣) سورة النور ، الآية (٥٥) .

(٤) سورة الصف ، الآية (٩) .

(٥) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٧/٢١١.



الفَصْلُ الخَامِسُ

بيعة علي رضي الله عنه

بعد استشهاد عثمان رضي الله عنه لم يعد هناك من هو أولى بالخلافة من علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، لذلك توجهت إليه الأنظار ، وطلبه المسلمون ، لكن المرحلة كانت مرحلة فتنة ، والمصاب بعثمان كان عظيماً لما نال مكان الخلافة من الحيف والظلم والاجتراء ، فلم يكن من السهل أن يقبل أحد من الصحابة البيعة ، ويحمل أعباء الفتنة وأهوالها ، ويُصلح ما جنته السبئية والغوغاء من الفساد والإفساد الكبير ويستقبل أحداثاً جساماً ، وصراعاً وشيكاً ، لا بدّ أن يصطدم به من يتولى الخلافة كائناً من كان ، وذلك ثمن دماء عثمان رضي الله عنه التي استباحها الخوارج عامدين، دون وجه حق ، ليفتحوا باب الشرّ والفتنة داخل المجتمع الإسلامي. فضلاً عمّا عُرف عن الصحابة من الخوف والوجل من تولي الإمارة ، لما يترتب على ذلك من المسؤولية في أداء حقوق الرعية والقيام عليها . حتى روي أنّ المدينة بقيت أياماًبعد استشهاد عثمان رضي الله عنه بلا أمير[1] والناس يلتمسون من يجيبهم إلى القيام بالأمر فلا يجدونه ، يأتي المصريون علياً فيختبئ منهم ويلوذ بحيطان المدينة ، فإذا لقوه باعدهم وتبرأ منهم ومن مقالتهم مرّة بعد مرّة ، ويطلب الكوفيون الزبير فلا يجدونه فأرسلوا إليه حيث هو رسلاً ، فباعدهم وتبرأ من مقالتهم ، ويطلب البصريون طلحة فإذا لقيهم باعدهم وتبرأ من مقالتهم مرّة بعد مرّة ، وكان الخوارج مجتمعين على قتل عثمان رضي الله عنه ، مختلفين فيمن يهوَون، فلما لم يجدوا ممالئاً ولا مجيباً جمعهم الشرّ على أول من أجابهم، وقالوا: لا نولّي أحداً من هؤلاء الثلاثة ، فبعثوا إلى سعد ابن أبي وقّاص وقالوا: إنك من أهل الشورى فرأيُنا فيك مجتمع، فاقدم نبايعك

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٥/٢٠٨ ، قال: بقيت المدينة بعد استشهاد عثمان خمسة أيام بلا خليفة ، ابن الأثير الكامل ٣/٩٩ . ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٧/٢٣٨، وروى ابن سعد ، أن البيعة تمت في الغد من استشهاد عثمان ، الطبقات ، ٣/١٩ .

فبعث إليهم: إني وابن عمر خرجنا منها فلا حاجة لي فيها على حال ، وتمثل :

لا تخلطاً خبيثات بطيّبة   واخلع ثيابك منها وانج عُريانا

ثم إنهم أتوا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، فقالوا: أنت ابن عمر فقم بهذا الأمر. فقال: إن لهذا الأمر انتقاماً والله لا أتعرّض له ، فالتمسوا غيري. فبقوا حيارى لا يدرون ما يصنعون والأمر أمرهم(١) .

ومما يروى أن الغوغاء كانوا إذا لقوا طلحة ﷺ أبى عليهم وتمثل في قول الشاعر:

ومن عجب الأيام والدهر أنني   بقيت وحيداً لا أمرّ ولا أحلي

فيقولوا إنّك لتوعدنا ، فيقومون فيتركونه ، فإذا لقوا الزبير ﷺ وأرادوه أبى وقال:

متى أنت عن دار بفيحان راحل   وباحتها تحنو عليك الكتائبُ

فيقولوا إنّك لتوعدنا ، فيقومون ويتركونه(٢) .

ومن هذه المواقف المتماثلة ، والتي تعبر عن رؤية واحدة ، ومنهج واحد يتأكّد أن الصحابة الكرام ﷺ ، لم يكونوا مختلفين ولا متنافسين في أمر الخلافة بل كانت الرؤية واحدة ، قبل استشهاد عثمان وبعده ، وأن الموقف من الخوارج كان واحداً أيضاً .

فيستفاد من هذا أن منهجية الصحابة ﷺ في مسألة الخلافة واضحة، وأنّهم كانوا يتدافعونها إشفاقاً منها ، وهذا ما عُرف عنهم فيما سبق من بيعات للخلفاء الراشدين.

وأن كلّ رواية تعارض هذه المنهجية ، وتتهم الصحابة ﷺ بغير ما عُرف عنهم ، فهي محل نظر . فما وافق أخلاق الصحابة ودينهم وتطلعاتهم ، وحرصهم

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٢٠٨/٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٣٨/٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ابن الأثير ، الكامل ، ٩٩/٣ .

على سلامة عقيدتهم وصلاح آخرتهم ، هي محل قبول يُستشهد بها ويُحتج بها وذلك أنّ الصحابة ﷺ كلهم عدول بتعديل الله تعالى ورسوله ﷺ لهم .

فكل ما يصوّر من منافسة ، أو تآمر أو تحالفات جانبية ، بين الصحابة على الخلافة أو مصالح أخرى ، فهو من تخيلات من رواه أو دوّنه ، وقع فيه من لم يدقق النظر ويقيس الأمور بأمثالها ممن حسنت نيته من الكتّاب ، فوقع فيما دسّه أعداء الصحابة عليهم في كتب التاريخ ، وحكم بأنّ ذلك حقائق لا لبس فيها مما يقود إلى النتائج الخاطئة التي تجعل قارئ التاريخ الإسلامي في دوّامة لا يمكنه الخروج منها ، إذ أنه يقرأ في الرواية الواحدة أفكاراً متناقضة ومواقف متضادة . وقد يكون سند تلك الرواية قوياً أو ضعيفاً ، لكن متنها خليط من الأحداث ، وهذا ما ينطبق على عامة تاريخ العصر الراشدي في تاريخ الطبري وغيره .

وهذا قاد إلى نتائج خطيرة ، منها الجرأة على الصحابة ، فقد تسمع خطيباً في مسجد ينقل بعضاً من هذه التناقضات ، وقد تسمع محاضراً معروفاً وشيخاً مفوهاً يخاطب بعض مستمعيه بقوله: أتحب أن تُحشر مع علي أم مع معاوية رضي الله عنهما. ولا شك أن مثل هذه المسائل عندما تصدر عن خطيب مسجد أو أستاذ في كلية شرعية ، يُعبر عن عمق المأساة التي يعاني منها الفكر الإسلامي في هذا الحقل .

ويؤكّد ضرورة إبراز هذه الثوابت في سير الصحابة ﷺ ، ولا يكون ذلك إلا من خلال معرفتهم العملية ، والتخلّق بأخلاقهم والتشبّه بسيرهم ، والعمل على تحقيق تطلعاتهم في حمل الأمة على الاستقاء من نبع أفكارهم الصافية الصادقة التي نشأت وترعرعت بين قبسات الوحي وهدي النبوة ، فلم يعد لها هاجس أو شاغل إلا في المعالي والقمم من كل الأمور .

ولما قضى الله من أمره ما قضى ، ومضى في قدره بالخليفة عثمان ما مضى عُلم أنّ الحق ألاّ يترك الناس سُدى ، وأنّ الخلق بعده مفتقرون إلى خليفة، مفروض

عليهم النظر فيه ، ولم يكن بعد الثلاثة كالرابع قدراً وعلماً وتقىً وديناً[1] .

ولما كان علي وطلحة والزبير وسعد وابن عمر رضي الله عنهم زاهدين في الإمارة مشفقين منها وهم بقيّة أهل الشورى ، خاف الخوارج على أنفسهم ، وقالوا: إن نحن رجعنا إلى أمصارنا بعد استشهاد عثمان رضي الله عنه ، ودون أن يكون هناك خليفة فلن نسلم[2].

فلما اصطدم الخوارج بإعراض كبار الصحابة عنهم وعما يدعونهم إليه من أمر الخلافة ازداد خوفهم من المحاسبة على ما جنوا على المسلمين بقتل خليفتهم فأرادوا أن يحسموا هذه المسألة بأية وسيلة كانت. فقالوا: **دونكم يا أهل المدينة فقد أجّلناكم يومين فوالله لئن لم تفرغوا لنقتلن غداً علياً وطلحة والزبير وأناساً كثيراً.** فغشي الناس علياً ، فقالوا: نبايعك فقد ترى ما نزل بالإسلام ، وما ابتلينا به ، فقال علي: دعوني والتمسوا غيري فإنا مستقبلون أمراً له وجوه وله ألوان ، لا تقوم له القلوب ، ولا تثبت عليه العقول. فقالوا: ننشدك الله ألا ترى ما نرى ! ألا ترى الإسلام ! ألا ترى الفتنة ! ألا تخاف الله ! .

فقال: قد أجبتكم لما أرى ، واعلموا إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ، وإن تركتموني فإنما أنا كأحدكم ، إلا أني أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم ، ثم افترقوا على ذلك واتعدوا الغد ، فلما أصبحوا من يوم الجمعة حضر الناس إلى المسجد وجاء عليّ حتى صعد المنبر فقال: يا أيها الناس ، عن ملأ وإذن ، إن هذا أمركم ليس لأحد فيه حق إلا من أمّرتم ، وقد افترقنا بالأمس ، على أمر فإن شئتم قعدت لكم، وإلا فلا أجدُ على أحد. فقالوا: نحن على ما فارقناك بالأمس على أمر[3] وفي رواية عن محمد بن سيرين قال: « **إنّ علياً جاء فقال لطلحة: ابسط يدك يا طلحة لأبايعك ، فقال طلحة : أنت أحق ، وأنت أمير المؤمنين ، فابسط يدك ، قال:**

---

(1) ابن العربي ، العواصم من القواصم ، ١٤٦ .

(2) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٣٨/٧ ، ابن الأثير ، الكامل ، ٩٩/٣ .

(3) الطبري ، تاريخ ، ٢١٠/٥، ابن الأثير ، الكامل ، ٩٨/٣ ، ٩٩/٣ .

فبسط يده فبايعه »[1]. أما محمد بن الحنفية بن علي رضي الله عنهما فقد روى أن علياً رضي الله عنه لما سمع باستشهاد الخليفة عثمان « أتى داره فدخلها وأغلق عليه بابه فأتاه الناس فضربوا عليه الباب فدخلوا عليه فقالوا: إنّ هذا الرجل قد قُتل ، ولا بدّ للناس من خليفة ، ولا نعلم أحداً أحقّ بها منك ، فقال لهم علي: لا تريدوني فإني لكم وزيراً خير مني لكم أمير . فقالوا: لا والله ما نعلم أحداً أحقّ بها منك ، قال: فإن أبيتم عليّ فإن بيعتي لا تكون سراً ولكن أخرج إلى المسجد فمن شاء أن يبايعني بايعني ، قال: فخرج إلى المسجد فبايعه الناس »[2] .

وعن أبي بشير العابدي ، قال: كنت بالمدينة حين قتل عثمان رضي الله عنه واجتمع المهاجرون والأنصار ، فيهم طلحة والزبير ، فأتوا علياً فقالوا: يا أبا حسن هلم نبايعك ، فقال: لا حاجة لي في أمركم ، أنا معكم فمن اخترتم فقد رضيت به فاختاروا فقالوا: والله ما نختار غيرك ، قال: فاختلفوا إليه بعد مقتل عثمان رضي الله عنه مراراً ، ثم أتوه في آخر ذلك ، فقالوا له: إنه لا يصلح الناس إلا بإمرة ، وقد طال الأمر ، فقال لهم: إنكم قد اختلفتم إليّ وأتيتم ، وإني قائل لكم قولاً إن قبلتموه ، قبلت أمركم وإلا فلا حاجة لي فيه قالوا: ما قلت من شيء قبلناه إن شاء الله فجاء فصعد المنبر فاجتمع الناس إليه فقال: إني قد كنت كارهاً لأمركم ، فأبيتم إلا أن أكون عليكم ألا وإنّه ليس لي أمر دونكم ، إلا أنّ مفاتيح ما لكم معي ، ألا وإنه ليس لي أن آخذ منه درهماً دونكم ، رضيتم ؟ قالوا: نعم ، قال: اللهم اشهد عليهم ، ثم بايعهم على ذلك قال أبو بشير: وأنا يومئذ عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم أسمع ما يقول[3] .

---

(١) المصدر نفسه ، ٢٠٩/٥، ٩٩/٣.

(٢) ابن حنبل ، فضائل الصحابة ، فضائل علي ، ح (٩٦٩) . المحب الطبري ، الرياضي النضرة ٢٣٠/٢.

(٣) الطبري ، تاريخ ، ٢٠٥/٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، ٩٩/٣ .

وكان علي رضي الله عنه بعد أن أجاب إلى البيعة حريصاً أن تكون البيعة في المسجد اتباعاً لسنّة الخلفاء من قبله ، وتعبيراً عن الوشائج القوية بين قادة المسلمين وبين المساجد، التي فيها يلتقون ويتشاورون ، ومنها ينطلقون فيجاهدون وينتصرون وليكون المسجد ملتقىً لصفاء النفوس وتقوية روابط الأخوّة والمودّة ، فضلاً عن المبالغة في علانيّة البيعة وإشهارها لتأخذ بعداً أقوى مما لو تمت في بيت علي أو غيره ، لذلك قال رضي الله عنه: « ففي المسجد فإنّ بيعتي لا تكون خُفياً ، ولا تكون إلا عن رضا المسلمين ... فلما دخل المسجد دخل المهاجرون والأنصار فبايعوه ، ثم بايعه الناس »[1] .

« فانعقدت له البيعة ، ولولا الإسراع بعقد البيعة لعلي لجرى على من بها من الأوباش ما لا يُرقع خرقه . ولكن عزم عليه المهاجرون والأنصار ، ورأى ذلك فرضاً عليه ، فانقاد إليه »[2] .

فيتضح من هذه الروايات،زيف الأقاويل التاريخية التي تغمز في أمانة الصحابة وزهدهم في الأمارة، فتّصوّر أحداث حصار عثمان رضي الله عنه واستشهاده على أنها جرت بتشجيع أو موافقة من بعض الصحابة رضي الله عنه ولا سيما علي رضي الله عنه ، وقد سبق دحض مثل هذه الأقاويل في باب موقف الصحابة من استشهاد عثمان رضي الله عنه ، وهذا علي رضي الله عنه يؤكّد ذلك ، من خلال ما تبيّن من زهده بهذا الأمر ووجله منه وإعراضه عنه ومحاولة دفعه إلى غيره من الصحابة رضي الله عنهم ، حتى تبيّن له أنه من غير الممكن أن يتقدّم عليه أحد منهم ، كما لم يتقدّم هو على من سبق من إخوانه الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ، وذلك اعترافاً منهم بمكانة كل منهم وموقعه ، ولمّا لم يقبل أحد من الصحابة التقدّم عليه بعد استشهاد عثمان رضي الله عنه ومع شدة إلحاح كثير من الصحابة في المدينة

---

(١) المصدر السابق ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٣٨/٧ ، ابن الأثير ، الكامل ، ٩٨/٣ .

(٢) ابن العربي ، العواصم من القواصم ، ١٤٧ ، وينظر: ابن الأثير ، الكامل ، ٣/ ٩٨.

عليه بوجوب قبول البيعة حرصاً منهم على تدارك الأمر والخروج من المأزق الخطير الذي أدخلهم به الخوارج ، رأى نفسه ملزماً بقبول البيعة ، لكنه لم يقبلها عندما عرضها عليه الخوارج السبئية ، وإنّما بعد إلحاح جمهور المهاجرين والأنصار الذين كانوا في المدينة .

ومما أسهم في قبول علي رضي الله عنه للبيعة ضغط الخوارج على أهل المدينة وتهديدهم بقتل علي وطلحة والزبير رضي الله عنهم ، إذا لم تتم البيعة خلال يومين بعد أن صدّهم بقية رجال الشورى من الصحابة عندما رفضوا التعامل معهم ، في مسألة الخلافة ، ولما أجاب عليّ إلى البيعة سرعان ما اندسوا بين الصفوف وسارعوا إلى المبادرة بالبيعة حتى روي أن الأشتر كان أول من بايع علياً رضي الله عنه [١]، وروايات أخرى تذكر أن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه هو أول من بايع[٢]. والجمع بين هاتين الروايتين يمكن بالقول أن الأشتر هو أول من بايع من أهل الكوفة ، وأن طلحة رضي الله عنه أول من بايع من الصحابة رضي الله عنهم .

وذكروا أن عدداً من الصحابة لم يبايع ، وأن سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، قالا لا نبايع حتى يبايع الناس[٣] .

« وبايعت الأنصار علياً إلا نُفيراً يسيراً ، منهم حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك، ومسلمة بن مُخلّد ، وأبو سعيد الخدري ، ومحمد بن مسلمة ، والنعمان بن بشير وزيد بن ثابت ، ورافع بن خَديج ، وفُضالة بن عُبيد ، وكعب بن عجرة »[٤] .

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٢٠٩/٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٣٨/٧ .

(٢) الذهبي ، سير أعلام البلاء ، ٢٢/١ ، ٢٠٦/٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، ٩٨/٣ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٣٨/٧.

(٣) المصدر نفسه ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٣٨/٧ ، ابن الأثير ، الكامل ، ٩٨/٣ .

(٤) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٣٨/٧ ، الطبري ، تاريخ، ٢٠٦/٥ ، الحاكم ، المستدرك ، ٤٧٩/٣ الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ١١٥/٣ .

ورواية عن ابن شهاب الزهري ، قال: « هرب قوم من المدينة إلى الشام ولم يبايعوا علياً ، ولم يبايعه قُدامة بن مظعون ، وعبد الله بن سلام ، والمغيرة بن شعبة رضي الله عنهم »[1] .

وقال الواقدي: بايع الناس علياً بالمدينة وتربص سبعة نفر لم يبايعوا منهم سوى من ذُكر مع من سبق ، صهيب الرومي ، وسلامة بن وقش، وأسامة بن زيد.

ولكن عند مناقشة أسانيد هذه الروايات التي تذكر امتناع بعض الصحابة في المدينة عن بيعة أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ، يتضح أنها لا تثبت أمام النقد ، وأنها ضعيفة لا يُعوّل عليها ، فالرواية التي تذكر أن ابن عمر وسعداً رضي الله عنهما لم يبايعا علياً رواية ضعيفة ، لأن فيها راوياً مجهولاً لم يُذكر اسمه ، ولأنها أسندت إلى عبد الله بن الحسن وهو رجل لم يشهد تلك الأحداث .

أما متنها مردود لمناقضتها عدالة الصحابة رضي الله عنهم ، التي شهد بها الكتاب والسنة ولأنها تتهم الصحابة بما لا يليق بهم ولا يُعرف عنهم،فضلاً عن مناقضتها للروايات الصحيحة التي تذكر بيعة جميع الصحابة في المدينة لأمير المؤمنين علي رضي الله عنه.

وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لشدة ورعه وتحوطه في المسائل الخلافية. « قد أشكل عليه حروب علي رضي الله عنه وقعد عنه »[2]. وكان يقول عندما خرج علي رضي الله عنه من المدينة وطلب منه الخروج « والله ما ندري كيف نصنع ، فإن هذا الأمر لمشتبه علينا ونحن مقيمون حتى يُضيء لنا ويسفر »[3]. وقال ابن حزم: سُئل ابن عمر عن ذلك فأجاب السائل بقوله: « لا أدري من هي الفئة الباغية ، ولو علمنا ما سبقتني أنت ولا غيرك إلى قتالها »[4] .

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٢٠٧/٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٣٨/٧ .

(٢) ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ٩٥١/٣ ، ابن سعد ، الطبقات ، ٤٠١/٣ .

(٣) الطبري ، تاريخ ، ٤٤٦/٤ .

(٤) ابن حزم ، الفصل ، ١٧١/٤ .

وروي قوله في ذلك: « كففت يدي فلم أُقدم ، والمقاتل على الحق أفضل »[١].
أي الذي تبيّن له الحق في تلك المشاهد وقاتل عليه فهو أفضل ، لكن من لم يتضح له ذلك وجلس واعتزل الفتنة فذلك أسلم لدينه وآخرته ، ولا سيما أن الأحاديث الصحيحة تحث على اعتزال الفتنة وتحذر من الانغماس فيها كما اتضح ذلك في تصوّر الصحابة للفتنة .

وروي أنه قال: « كففت يدي فلم أندم »[٢] ، لأنه عدّ قتال الجمل وصفين قتال فتنة بين المسلمين ، والذي أثر عن عامة من شارك في تلك المشاهد من الصحابة أنه إن لم يندم على مشاركته فيها فإنه لم يُسرّ بما فيهم أمير المؤمنين علي رضي الله عنه كما سيتضح ذلك في مواضعه. وكيف يسر المؤمن وهو يرى إخوانه يقتل بعضهم بعضاً تحت أي ذريعة كانت ، ولكنها محنة ابتلي فيها الصحابة رضي الله عنهم فتمسك كل منهم بما لديه من علم في تلك المسائل .

ومن كل ما سبق يتبيّن أن مواقف ابن عمر كانت تدور حول امتناعه عن القتال ، أما البيعة فلم يذكر في تلك الروايات أنه طُلب منه البيعة ، وإنما كان يُراود على الخروج مع الخليفة للقتال، وهذا لم يفعله لأنه عدّ ذلك القتال قتال فتنة فيُستنتج من ذلك أنه بايع ولم يشارك في القتال الذي دار بين المسلمين تورعاً وخوفاً من الوقوع في الخطأ ، وروي عنه في آخر أيامه أنه قال: « ما آسى على شيء إلا أني لم أقاتل مع علي الفئة الباغية »[٣]، لكن هذا القول يتعارض مع سيرة ابن عمر

---

(١) ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ٩٥٣/٣ .

(٢) ابن سعد ، الطبقات ، ٤٠١/٣ .

(٣) ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ٩٥٣/٣. وينظر: المالكي والخالدي ، بيعة علي ، ١٧٣ . لكن هذا الكتاب يؤخذ عليه المغالاة في علي رضي الله عنه ، وجرأته في إصدار الأحكام على الصحابة ونسبة الخطأ المتعمّد إليهم أحياناً ، ولا سيما طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنهم ، وتمجيده بالأشتر النخعي مسعر الفتنة ورأس الغوغاء . ووجود بعض التأويلات الفاسدة في (١٥٧ و ١٥٨) وغيرهما ، وتجاهله=

= الكامل للظروف التي كان يمر بها المسلمون بعد استشهاد عثمان ﷺ وكأنها لم تـترك أي أثـر فـي نفوس الصّحابة ، وكذلك مهاجمته الشديدة للراوية سيف بن عمر التميمي الذي كان (عمدة في التـاريخ) و (اخبارياً عارفاً) كما ورد ذلك عنه في ميزان الاعتدال ٢/٢٥٥ ولسان الميزان ٤/٤٩٢ ومداهنته عند ذكـو الراوية ، لوط ابن يحيى أبي مخنف ذلك الإخباري التالف الذي لا يوثـق به والذي أفسـد تاريخ العصـو الراشدي برواياته التي دونها عنه الطبري في تاريخه ، ولهذا صوّر ما جرى بين علي وطلحة والزبيـر وأم المؤمنين ومعاوية ﷺ على أنه صراع على الخلافة ، وهذا باطل ، **لم يحصل نزاع على الخلافة بيـن الصحابة ، وإنما حصل النزاع حول كيفية محاسبة الخوارج السبئية الذين أحدثوا الحدث العظيم والذيـن كان معظمهم في جيش أمير المؤمنين ﷺ، وقد أغفل ذلك في كل سياق الكتاب .**

ولكي يسوغ صحة بيعة علي ﷺ ، يقيس على بيعة أبي بكر ﷺ التي كان زمانها ورجالها يختلفـان عن زمان ورجال بيعة علي ، علماً أنه لا يوجد من ينازع في خلافة علي ﷺ ممن يُعتد بخلافهم ، ومـع ذلك جعل من هذه المسألة قضية أحدثت نزاعاً بين الصحابة حتى اضطر إلى مثل هذه القياسات الباطلـة في مثل قوله (ص٣٩) وبيعة أبي بكر لم يكن يختارها سعد بن عبادة وجماعة من بني هاشم وبنـي أميـة بل إن سعد بن عبادة لم يبايع أبا بكر ولا عمر، وكان طلحة بن عبيد الله يريـد أن يتولـى غـير عمـر وينظر: ٢٧٦، وأن أهل الجمل – طلحة والزبير – **نكثوا البيعة ، فهل طلحة والزبير رضي الله عنـهما ينكثان** ؟ أم أن داء البدع وبغض الصحابة ﷺ يأبى إلا أن يظهر ؟

وفي بيعة عثمان يقول: كان بعض أهل الحل والعقد كعمار والمقداد على اختيار علي ، وهـل كـان عمار والمقداد من الستة المرشحين للخلافة ؟ ولماذا المقداد وعمار من دون بقية الصحابة ؟ ص٤٠ .

« وأن علياً ﷺ هو الأكثر أهلية للخلافة بعد عمر ». ص٨٩. والسلف يقولون: « **لئن قلت: إن عليـاً أفضل من عثمان ، لقد قلت إن أصحاب رسول الله ﷺ خانوا** » ، أي عندما قدموا عثمان ﷺ . الذهبـي الخلفاء الراشدون ، ٤٧٥ . واتهامه لعامة المؤرخين ولا سيما المعـاصرين دون اسـتثناء لأحـد، أنـهم متناقضون ، وأن الجامع لأوهامهم أمور منها « حتى يبرروا أخطاء الخارجين عليه مـن أهـل الجمـل وصفين»، « وهم بهذه الأقوال الفاسدة يشككون في شرعية خلافة علي وصحة بيعته »، ص١٣ وص١٥.

ومهاجمته لمحب الدين الخطيب محقق كتاب العواصم من القواصم في الـهامش (٢) ص٦٨ ، ومعـه القاضي ابن خلدون متهماً إيّاهم بالجهل أو هوىً في النفس. **فهل كان محب الديـن فـي تعليقاتـه علـى العواصم يطعن في خلافة علي ﷺ ؟ أم أن دفاعه عن الصحابة ، وحرقته على أمته وتاريخها المشـوق أخرج النزعات البدعية في بعض النفوس الفاقدة للإنصاف ، المنحرفة عن حب الصحابة** ﷺ ؟

على أن متابعة الأسانيد على منهج المحدثين عمل يجب أن يُشجـع لتتسـع دائرتـه كل الروايـات التاريخية في المسألة الواحدة ، لا ليتخذ ذريعة للدفاع عن بعض الصحابة والطعن في آخرين .

الذي راوده المسلمون على الخلافة فامتنع خشية الفتنة ، وهُدّد بـالقتل أو يتولـى الخلافة فلم يغيّر موقفه. قال الحسن: « فأطمعوه وخوفوه فما استقبلوا منه شيئاً حتى لحق بالله »[١] ، وكان يقول: « **والله ما أحب أنها – الخلافة – دانت لي سبعين سنة وأنه قتل في سبيلها رجل واحد** »[٢]. وروي أنّه كان يسير في شوارع المدينة يوماً وهو يحدث نفسه دون أن يشعر أنّ هناك من يسمعه ويقول: « واضعيـن سـيوفهم على عواتقهم يقتل بعضهم بعضاً يقولون يا عبد الله بن عمر أعطِ بيدك »[٣]، ولمـا ألحّ عليه الخليفة على الخروج معه قال: « إنما أنا رجل مـن أهـل المدينـة ، إن خرجوا خرجت على السمع والطاعة ، ولكن لا أخرج للقتال »[٤]، وهذا مـا يؤكّـد بيعته ، ورفضه للقتال الذي يراه قتال فتنة بين المسلمين .

بيعة سعد بن أبي وقاص لعلي رضي الله عنهما

جاء في الرواية التي تحدثت عن بيعة سعد أنه لم يمتنع عـن البيعـة مطلقـاً وإنما قال إذا بايع الناس بايعت ، وقد بايع الناس فـي المدينـة للخليفـة الجديـد ومقتضى ذلك أنه بايع بعد أن بايع الناس في المدينـة ، ولكـن لمـا طُلـب منـه المشـاركة فـي القتال أبى ذلك تورعاً وحرصاً على وحـدة الصـف الإسـلامي وقال: « قد جاهدت إذ أنا أعرف الجهاد ولا أبخع نفسي إن كان رجل خـيراً منـي **لا أقاتل حتى تأتوني بسيف له عينان ولسان وشفتان فيقول: هذا مؤمن وهـذا كـافر**[٥]

---

(١) ينظر: ابن سعد ، ٣/٣٩٤ ، ٣/٤٠٤ .

(٢) المصدر نفسـه .

(٣) المصدر نفسـه .

(٤) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٧/٢٤٢ .

(٥) ابن سعد، الطبقات، ٣/٧٦، ٣/١٩، ابن الأثير، الكامل، ٣/٩٨، ابن كثير، البداية والنهاية ٧/٢٣٨.

وفي مضمون هذه الرواية دليل على بيعة سعد لعلي رضي الله عنهما ، إذ أنه لو تبين له الكافر من المؤمن فيمن يقاتلهم لأجاب للقتال ، أما البيعة فلم يتعرض لها لأنه قد فرغ منها وبايع الخليفة عليا ﷺ . وذكره ابن سعد فيمن بايع عليا من كبار الصحابة في المدينة(١).

وقد اتضح موقف سعد من الفتنة في مبحث تصور الصحابة للفتنة ، فلينظر هناك مفصلا .

بيعة طلحة والزبير لعلي ﷺ

إن طلحة والزبير بايعا عليا أميرا للمؤمنين، وخليفة للمسلمين في المدينة بعد استشهاد عثمان ﷺ .

وكل الروايات التي شككت في هذه البيعة هي روايات ضعيفة الأسانيد متناقضة المتون ، منافية لعدالة الصحابة وأخلاقهم ووفائهم وشجاعتهم، ومن غير المفيد الوقوف عندها والإسهام في نشرها ، إذ أن ذلك جزء من أهداف المبتدعة الذين وضعوا تلك الأساطير لإشغال المسلمين بها وشق صفوفهم على مر العصور.

أما علي وطلحة والزبير ﷺ فهم إخوة متحابين ، نزع من قلوبهم الغل والحقد والحسد ، كانوا يدا واحدة يفتدي بعضهم بعضا في مواطن الخطر والضيق فكانوا بين يدي رسول الله ﷺ سيفا مصلتا على المشركين ، وسهما مسددا على الكافرين والمنافقين ، وكذلك بين يدي الخلفاء الراشدين ، وذلك في أيام شبابهم وكهولتهم فهل يتغيرون بعد أن تقدمت بهم السن وتعمقت تجاربهم ؟ حاشاهم من ذلك ، وإنما تغيرت الأحداث التي حصلت بين أيديهم ، فقاد كلا منهم اجتهاده إلى الموقف الذي

---

(١) المصدر السابق ، ١٩/٣.

تمسك به ، ولا أدل على ذلك من أحاديث أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وأقواله التي رويت عنه، بعد استشهاد أخويه في تلك العاصفة المهولة التي مرت بهم في أيام الفتنة التي امتحنوا بها جميعاً بعد استشهاد أخيهم الأكبر عثمان رضي الله عنه .

قال ابن العربي: « وعقد له البيعة طلحة، فقال الناس: بايع علياً يد شلاء[١] والله لا يتم هذا الأمر »[٢]، ولو صح ما قاله هؤلاء ، بأن طلحة رضي الله عنه هو أول من بايع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

فلا شاهد لهم يتعلقون به ، « فإن يداً شلت في وقاية رسول الله صلى الله عليه وسلم يتم لها كل أمر ، ويُتوقى بها من كل مكروه »[٣] .

وكان طلحة فيمن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد ، « حين ولّى الناس وبايعه على الموت »[٤]، ورمى أحد المشركين رسول الله صلى الله عليه وسلم « فاتقى طلحة بيده عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأصاب خنصره فشلّت » وكثرت فيه ذلك اليوم الجراح حتى روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « **مَنْ سَرّه أن ينظر إلى رجل يمشي على الأرض وقد قضى نحبه فلينظر إلى طلحة** »[٥] .

وأما ما روي من أن الزبير رضي الله عنه قال: « جاءني لص من لصوص عبد القيس فبايعت واللج على عنقي »[٦]، « أي أنه بايع مكرهاً »[٧].

---

(١) الطبري، تاريخ ، ٢٠٦/٥ ، ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٣٨/٧، ابن الأثير، الكامل ، ٩٨/٣.

(٢) المصدر نفسه ، ابن العربي ، العواصم من القواصم ، ١٤٨ .

(٣) ابن العربي ، العواصم من القواصم ، ١٤٩ .

(٤) ابن سعد ، الطبقات ، ١١٥/٣ ، ١١٦/٣ ، ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ٧٦٥/٢ .

(٥) المصدر نفسه .

(٦) الطبري ، تاريخ ، ٢١٠/٥ ، ٢٠٧/٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، ٩٩/٣ .

(٧) المصدر نفسه .

ذكر ابن العربي أنها رواية مكذوبة[1]، وهي معارضة بالروايات الصحيحة التي سبق ذكرها وأثبتت بيعة طلحة والزبير رضي الله عنهما دون إكراه أو معارضة ، وفي شرح حديث البخاري (٧٠٩٩) وقول أبي بكرة رضي الله عنه « نفعني الله بكلمة أيام الجمل » قال: « ثم أرسل إلى طلحة والزبير فبايعاه »[2]. وفيه أن « طلحة والزبير بايعا علياً طائعين غير مكرهين »[3] .

وببيعة بقية جماعة الشورى علياً أميراً للمؤمنين ، اكتسب الخليفة الجديد قوة ومكانة من الممكن أن تعيد للخلافة هيبتها الأولى ، ولم تعد تتأثر بأي عوامل خارجية ، إذ أن عامة الناس لم يعد أمامهم من يتطلعون لبيعته بعد أن بايع طلحة والزبير وسعد وابن عمر رضي الله عنهم أجمعين ، والإعلان الصريح لسعد وابن عمر أنهما لن يشاركا في أي عمل سياسي أو عسكري بعد استشهاد عثمان رضي الله عنه. وكذلك أسامة بن زيد رضي الله عنهما ، فإنه عندما دعاه أمير المؤمنين علي للبيعة قال: « أما البيعة فإنني أبايعك أنت أحب الناس إلي وآثرهم عندي وأما القتال فإني عاهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أقاتل رجلاً يشهد أن لا إله إلا الله »[4] .

---

(١) ابن العربي ، العواصم من القواصم ، ١٤٨.

(٢) البخاري ، مع شرحه فتح الباري ، ك الفتن ، باب (١٨) ح (٧٠٩٩) شرح الحديث .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) ابن حبان ، الثقات ، ٢/٢٨٣ .

الأنصار الذين ذُكر أنهم تخلفوا عن بيعة علي رضي الله عنه

وبمتابعة مواقف الأنصار هؤلاء ، يتبيّن أن عامة من كان منهم في المدينة بايع الخليفة الجديد ، فزيد بن ثابت رضي الله عنه كاتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، بايع علياً ولكنه لم يشارك في حرب الجمل وصفين لأنه عدّ ذلك قتال فتنة ومما يوضح العلاقة الحميمة بين زيد وعلي رضي الله عنهما ، إجابة زيد للخليفة عندما دعاه للنهوض معه فقال: « أنت والله تعلم أن لوشحا أسد فاه لألقمته كفي دونك ، فأما أن أضرب بسيفي لأؤكّد لك ملكاً فلا »[1] .

وكذلك محمد بن مسلمة رضي الله عنه ، فإنّه بايع الخليفة[2]، لكنه اعتزل القتال وقال: « لا أضرب المسلمين بسيف ضربت به الكافرين ، فكسر سيفه وجلس في بيته »[3]. ولما اعتزل محمد بن مسلمة ، أرسل إليه علي أن يأتيه وقال: « إن هو لم يأتني فاحملوه ، فأتوه فأبى أن يأتيه ، فقالوا: إنّا قد أُمرنا إن لم تأته أن نحملك ، حتى نأتيه بك ، قال: ارجعوا إليه ، فقولوا له: إن ابن عمك وخليلي عهد إلي أن ستكون فتنة وفرقة واختلاف ، فإذا كان ذلك فاجلس في بيتك ، واكسر سيفك حتى تأتيك منية قاضية أو يد خاطية . فاتق الله يا علي ولا تكن تلك اليد الخاطيه ، فأتوه فأخبروه فقال: دعوه »[4].

---

(١) الجاحظ ، العثمانية ، ١٧٤ .

(٢) ابن سعد ، الطبقات ، ١٩/٣ ، المالكي، بيعة علي ، ١٨١ ، وقال لم أحفظ له عذراً في تركه القتال مع علي بينما هو أظهر الصحابة عذراً كما سبق ذلك في تصوره للفتنة .

(٣)البخاري، التاريخ الكبير ،١١/١، ابن أبي شيبة، المصنف ،٦١١/٨، البلاذري، أنساب ، لأشراف ٩/٣.

(٤) ابن أبي شيبة ، المصنف ، ٦١١/٨ . وينظر: ابن حبان ، الثقات ، ٢٨٣/٢ ، وقال : إن محمد بن مسلمة اعتذر إلى علي بالحديث السابق، وقال له: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرني إذا اختلف أصحابه أن لا=

وكذلك فعل سلمة بن سلامة بن وقش[1]، ووهب بن صيفي الأنصاري[2] وحسان بن ثابت شاعر رسول الله ﷺ « لم يصح أنه لم يبايع وإنما اشتهر عنه رثاء عثمان وذم قتلته »[3]، أي ومن كثرة رثائه لعثمان وبكائه عليه ، جاءت الشبهة أنه لم يبايع ، وهذا ما ينطبق على كعب بن مالك الأنصاري الذي رثا عثمان بقصائده ، وهاجم قتلته وبيّن أنّهم لا حجة لهم في كل ما فعلوه ضد الخليفة ، وأنّهم يختلقون التهم وينشرونها بين المسلمين ، ويلصقونها به زوراً وبهتاناً ، كما اتضح ذلك في قصائد شاعري رسول الله ﷺ ، بعد استشهاد عثمان رضي الله عنه .

أما النعمان بن بشير بن سعد الأنصاري ، فإنه استقر في الشام ، بعد أن أخذ قميص عثمان الملطخ بدمائه الزكية ، ومعه أصابع نائلة بنت الفرافصة ، مع بعض كفها[4] التي قطعها الخوارج عندما نافحت عن زوجها رضي الله عنه ، ومما يؤكّد استقراره في الشام أنه شهد صفين مع معاوية رضي الله عنه وكان أحد عماله ، وممن يُرجّح أنه كان في الشام في تلك الفترة أبو سعيد الخدري رضي الله عنه ومما يشير إلى أنه بايع الخليفة علياً رضي الله عنه ، أنه شهد معه قتال الخوارج وكان متحمساً لذلك[5] .

وكعب بن عجرة بن أمية بن عدي الأنصاري.[6] أما فضالة بن عبيد الأوسي الأنصاري ، كان قاضي دمشق بعد أبي الدرداء ، ولما ولاه معاوية القضاء قال له: « استترت بك عن النار فاستر » ثم أمّره على الجيش فغزوا الروم في البحر ، توفي

= أدخل فيما بينهم ، وأن أكسر سيفي وأجلس في بيتي وقد فعلت .

(١) الجاحظ ، العثمانية ، ١٧٤ .

(٣) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ٩/٣ .

(٣) الجاحظ ، العثمانية ، ١٧٤ .

(٤) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٣٩/٧ ، ابن الأثير ، الكامل ، ٩٨/٣ .

(٥) ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ١٦٧١/٤ ، الخطيب ، تاريخ بغداد ، ١٩٢/١.

(٦) المصدر نفسه ، ١٣٢١/٣ ، الحاكم ، المستدرك ، ٤٧٩/٣ .

في آخر خلافة معاوية ، فحمل معاوية سريره ، وقال لابنه عبد الله ، أعنّي يا بني ، فإنك لا تحمل بعده مثله رضي الله عنه »[١] ومسلمة بن مُخلّد الأنصاري كان في مصر ، وكان من المطالبين بالقصاص لدم الخليفة عثمان رضي الله عنه[٢] .

ومما سبق يتبيّن أن الصحابة الذين كانوا في المدينة ، قد بايعوا الخليفة علياً رضي الله عنه وفي مقدمتهم طلحة والزبير رضي الله عنهما ، وأنّه لم يُكره أحد على البيعة وإنّما الذي أُكره على قبول البيعة إن جاز هذا التعبير هو الخليفة رضي الله عنه ، إذ كان هو أكثر الناس آنذاك إدراكاً للمخاطر القادمة التي سيصطدم بها الخليفة الجديد ، نظراً لتداخل الأمور وتشعب الأحداث ، وتعدد الأطراف المشاركة في صناعتها ، والتي كان من الممكن أن يستطير شرّها إلى فتنة مستمرة بين المسلمين تهدد كيانهم وعقيدتهم ، ولعل هذا السبب يُعدّ أحد العوامل التي ألزمت الخليفة بقبول البيعة وذلك لتدارك الأوضاع وإنقاذ الأمة وعقيدتها ، وقد عبّر عن ذلك بقوله: « ولولا الخشية على الدين لم أجبهم »[٣]، بل إنه عندما رأى بعض الصحابة متثاقلين عن بيعته قال لهم: « أخرجوني من هذه البيعة، واختاروا لأنفسكم من أحببتم فسكتوا »[٤] ولعل هذا يوضح رؤية الخليفة ويؤكّد زهده في الإمارة ، قبل البيعة وبعدها ولا سيما في تلك المرحلة، وأنّ الصحابة الذين في المدينة قد بايعوا الخليفة رضي الله عنه ، « أما بيعته فلم يُتخلف عنها. وأما نُصرته فتخلف عنها قوم »[٥]. وأن الذين ذُكر أنهم لم يُبايعوا ، كانوا في الشام أو مصر ، أو غيرهما من الأمصار قال ابن العربي ولكن لا بدّ من الإشارة إلى أنّ كثيراً منهم لم يشارك في قتال الجمل وصفين

---

(١) المصدر نفسه ، ١٢٦٣/٣ ، الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ١١٥/٣ .

(٢) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ١٦٢/٣ ، ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ٥٩/٦ .

(٣) البخاري ، مع شرحه فتح الباري ، ك الفتن ، باب (١٨) شرح الحديث (٧٠٩٩) .

(٤) ابن حبان ، الثقات ، ٢٨٣/٢ .

(٥) ابن العربي ، العواصم من القواصم ، ١٥٠ .

وعذرهم في ذلك أنهم عدّوا ذلك القتال قتال فتنة بين المسلمين ، وأنهم أُمروا بالاعتزال وقت الفتنة ، خوفاً على سلامة جهادهم الذي سبق لهم مع رسول الله ﷺ وبهذا التوقف عن القتال مع الخليفة ، أُلبس الأمر على من ذكر أن هؤلاء الصحابة الذين توقفوا عن القتال ممن ذكروا في هذا البحث أو غيرهم ، لم يبايعوا لعدم التدقيق في هذه المسألة ، روى ابن سعد أن « طلحة والزبير ، وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وعمّار بن ياسر، وأسامة بن زيد، وسهل بن حُنيف ، وأبا أيوب الأنصاريَ ، ومحمد بن مسلمة ، وزيد بن ثابت ، وخزيمة بن ثابت ، وجميع من كان في المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم »[١]، بايعوا علي بن أبي طالب خليفة للمسلمين ، « وبايع الناس كلهم ... وصار الأمر أمر أهل المدينة ، وكانوا كما كانوا فيه، وتفرقوا إلى منازلهم، لولا مكان النّزاع والغوغاء فيهم »[٢]. وروى ابن كثير أنه: « لم يتخلف أحد من الأنصار إلا بايع فيما نعلم »[٣].

ولما فرغ المسلمون في المدينة من البيعة، خطبهم الخليفة علي رضي الله عنه فقال:« إنّ الله عز وجل أنزل كتاباً هادياً ، بيّن فيه الخير والشر ، فخذوا بالخير ودعوا الشر الفرائض أدوها إلى الله سبحانه يؤدكم إلى الجنّة ، إنّ الله حرّم حُرَماً غير مجهولة وفضّل حرمة المسلم على الحُرَم كلها وشد بالإخلاص والتوحيد المسلمين ، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده إلا بالحق ، لا يحق أذى المسلم إلا بما يجب بادروا أمر العامة ، وخاصة أحدكم الموت ، فإن الناس أمامكم ، وإن من خلفكم الساعة تحدوكم ، تخففوا تلحقوا فإنما ينتظر الناس أخراهم. اتقوا الله عباده في عباده وبلاده إنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم ، أطيعوا الله عز وجل ولا تعصوه ، وإذا رأيتم الخير فخذوا به .

---

(١) ابن سعد ، الطبقات ، ١٩/٣ . (٢) الطبري ، تاريخ ، ٢١٠/٥، ابن الأثير ، الكامل، ٩٩/٣ .
(٣) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٣٨/٧ ، ابن سعد ، الطبقات ، ١٩/٣ .

وإذا رأيتم الشر فدعوه « واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض »[1] .

ولعل أول ما يلاحظ في هذه الخطبة ، أنها لم تشر إلى استشهاد الخليفة عثمان رضي الله عنه وهذا ما يثير التساؤل عن مدى صحة هذه الخطبة ، إذ إنّه لا يمكن تجاوز ذلك الحدث دون التعليق عليه واستقاء العبرة منه ، لأنه يُعدّ أخطر من عملية اغتيال الخليفة عمر رضي الله عنه ، لما ترتب عليه من نتائج داخلية وخارجية ، بل إنه أخطر حدث تمر به الخلافة الإسلامية بعد وفاة رسول الله ﷺ ، أو أنّ هذه الخطبة صحيحة وهذا هو الراجح ولكن الأجواء السياسية وهيمنة الخوارج على المدينة كان وراء الإعراض عن ذكر ذلك الحدث لقوة آثاره على الواقع آنذاك .

والإكتفاء بالإشارة إليه من خلال التحذير من الاستمرار على سلوك مسالك الشرّ وتجاوز الحرمات التي في مقدمتها حرمة المسلم على أخيه المسلم ، والتي انتهكها الخوارج ، عندما سفكوا دم الخليفة ظلماً وعدواناً ، فلم يعد لديهم ما يحرمونه بعد ذلك ، لأن الذي يجترئ على الدم الحرام ، يستبيح المال والعرض وكل محرم .

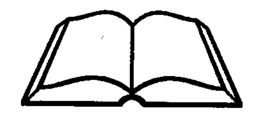
وهذا ما دعا الخليفة الجديد إلى التركيز عليه في خطبته الأولى ، والتأكيد على وجوب كف اليد واللسان عن كل مسلم ، وهذا ما لم يلتزم به الخوارج ، الذين اقترن بقاؤهم بخلق الفتن ، وإيذاء الأبرياء ، وإذاعة الأباطيل ، وبما أنّ سلطات الخليفة في بدايتها ولم يكن لديه قوة رادعة تباشر محاسبة العابثين ، فإنه يُذكّر بالموت الذي لا بدّ منه والذي أخذ الآباء والأجداد ، ثم يُحذّر الخليفة من إيذاء العباد والبلاد والبهائم ، مما يبين حال العبث الذي بلغه الخوارج والذي يبدو أنه طال حتى البهائم. والظاهر في هذه الخطبة أن استطارة شرّ الخوارج صرف الخليفة عن

---

(١) سورة الأنفال ، من الآية (٢٦) . الطبري ، تاريخ ، ٢١١/٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٣٨/٧ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١١١/٣.

الحديث عن شؤون الأمة في العطاء والفتوح وما إلى ذلك من الأمور المهمة واضطره إلى الاقتصار على الوعظ والتذكير بحفظ الحقوق ، والترهيب من الموت.

ولعل ما يصوّر هيمنة الخوارج على المدينة ، ويفسّر عدم التعرّض لاستشهاد عثمان رضي الله عنه ، في خطبة أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ، ما روي عن الشعبي قال: «خرجت عائشة رضي الله عنها نحو المدينة من مكة بعد مقتل عثمان ، فلقيها رجل من أخوالها ، فقالت: ما وراءك ؟- أي في المدينة - قال: قتل عثمان واجتمع الناس على علي ، والأمر أمر الغوغاء»(١) .



(١) الطبري ، تاريخ ، ٢٢٠/٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٠٧/٣ .

الموقف من الخوارج قتلة عثمان رضي الله عنه

بعد بيعة أمير المؤمنين علي رضي الله عنه

موقف أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها:

وهنا يبدأ الخلاف في الرأي والاجتهاد بين الصحابة رضي الله عنهم ومنهم أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، التي رأت وسمعت ما فعله الغوغاء بأمهات المؤمنين ومنهن أم حبيبة وصفيّة رضي الله عنهما ، وما ألحقوا بهما من الأذى كما اتضح ذلك في حصارهم لعثمان رضي الله عنه ، وكيف ضيّقوا على الناس في المدينة ، وكيف كانوا يكذبون على أمهات المؤمنين ، بكتابة الكتب على ألسنتهن ونشرها في الأمصار ، ثم استباحة دم الشهيد عثمان رضي الله عنه ، فمن الطبيعي أن لا يغيب عن ذهنها صور تلك الأحداث ؛ التي جلبتها الغوغاء على المسلمين ومن الطبيعي أيضاً ، أن تقول إن أمراً فيه هؤلاء لا يتم ، فتنصرف راجعة عن العودة إلى بيتها الذي يهيمن عليه أولئك الخوارج الغوغاء الذين صرعوا عثمان رضي الله عنه من على منبر مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم سفكوا دمه ودماء من دافع عنه ، فهم لا يقيمون وزناً لأحد من أعلام المسلمين ، فلا يتوقع منها إلا العودة إلى مكة والتعبير عما يجيش في صدرها وصدر كل مؤمن ، من مرارة المأساة التي أوقعوها بالمسلمين عندما اغتالوا خليفتهم بين أظهرهم وهم يشاهدون .

وكيف لا ترجع إلى مكة « والقوم - الخوارج - الغالبون على المدينة »[١]، و «الأمر أمر الغوغاء »[٢]. فرجعت حتى نزلت على باب المسجد وقصدت الحجر فستُرت فيه واجتمع الناس إليها فقالت: « يا أيّها الناس ، إنّ الغوغاء من أهل

(١) الطبري ، تاريخ ، ٢١٩/٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ٢٢٠/٥ .

الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة ، اجتمعوا أن عاب الغوغاء على هذا المقتول بالأمس الإرب واستعمال من حدثت سنه ، وقد استعمل أسنانهم قبله ومواضع من مواضع الحمى حماها لهم وهي أمور قد سبق بها لا يصلح غيرها فتابعهم ونزع لهم عنها استصلاحا لهم، فلما لم يجدوا حجة ولا عذرا أخلجوا وبادوا بالعدوان ونبا فعلهم عن قولهم ، فسفكوا الدم الحرام واستحلوا البلد الحرام وأخذوا المال الحرام ، واستحلوا الشهر الحرام ، **والله لإصبع عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم** »[1] .

وقالت رضي الله عنها: ما أنصفنا عثمان إن لم نغضب له في « حرمة الدم والشهر والبلد »[2]. وأورد ابن حجر في فتح الباري ، أن مذهب عائشة رضي الله عنها الإصلاح بين الناس ولم يكن قصدهم القتال ، لكن لما انتشبت الحرب لم يكن لمن معها بد من المقاتلة ، **ولم ينقل أن عائشة رضي الله عنها ومن معها ؛ نازعوا عليا في الخلافة ، ولا دعوا لأحد منهم ليولوه الخلافة .**

وإنما أنكرت هي ومن معها على علي منعه من قتل قتلة عثمان ، وترك الإقتصاص منهم ، وكان علي ينتظر من أولياء عثمان أن يتحاكموا إليه فإذا ثبت على أحد بعينه أنه قتل عثمان اقتص منه »[3] .

وقد أفصحت أم المؤمنين عن مقصدها من مسيرها لأهل البصرة ، عندما أرسل إليها عثمان بن حنيف الأنصاري أمير البصرة ، عمران بن حصين رضي الله عنه ومعه أبو الأسود الدؤلي ، فقالا يا أم المؤمنين: « إن أميرنا بعثنا إليك نسألك عن مسيرك ، فهل أنت مخبرتنا ؟ فقالت : والله ما مثلي يسير بالأمر المكتوم ولا يغطي لبنيه الخبر.إن الغوغاء من أهل الأمصار ونزاع القبائل،غزوا حرم رسول الله ﷺ

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٢١٩/٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٠٦/٣.

(٢) البخاري ، مع شرحه فتح الباري ، ك الفتن ، باب (١٨) شرح الحديث (٧٠٩٩) .

(٣) المصدر نفسه .

وأحدثوا فيه الأحداث وآووا فيه المحدثين ، واستوجبوا فيه لعنة الله ولعنة رسوله مع ما نالوا من قتل إمام المسلمين بلا ترة ولا عذر ، فاستحلوا الدم الحرام فسفكوه وانتهبوا المال الحرام ، وأحلوا البلد الحرام ، والشهر الحرام ، ومزقوا الأعراض والجلود ، وأقاموا في دار قوم كانوا كارهين لمقامهم ضارّين مضرّين ، غير نافعين ولا متقين لا يقدرون على امتناع ولا يأمنون ، **فخرجتُ في المسلمين أُعلمهم ما أتى هؤلاء القوم وما فيه الناس وراءنا ، وما ينبغي لهم أن يأتوا في إصلاح هذا** . وقرأت: « لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس »[١]، ننهض في الإصلاح ممن أمر الله عز وجل وأمر رسول الله ﷺ الصغير والكبير والذكر والأنثى فهذا شأننا إلى معروف نأمركم به ونحضكم عليه ومنكر ننهاكم عنه ، ونحثكم على تغييره »[٢]. فأم المؤمنين تسعى لإصلاح ما أفسده الخوارج ، وتعمل على إعادة العمل بشعائر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهي أهل لذلك ومؤتمنة عليه رضي الله عنها. لهذا كان ابن بطّال يقول: « **إن كلاً من الطائفتين كان مجتهداً ويرى أن الصواب معه** »[٣].

ومعلوم أن أم المؤمنين رضي الله عنها ، ليست مقاتلة ولا مقصدها تولية خليفة جديد ، وإنما همّ المسلمين همها ، وهي مسموعة الكلمة بين المسلمين ، وموضع ثقة عندهم لأمومتها لهم ولمكانتها من رسول الله ﷺ ، ولفضل أبيها رضي الله عنه ولَعلمها ودينها رضي الله عنها ، وقيل لها: « **يراك المسلمون فيُصلح الله ذات بينهم** »[٤] فضلاً عن أنها أهل للاجتهاد والنظر في مصالح المسلمين ، التي كان من أكبر الأخطار عليها هيمنة الخوارج السبئية ومن ورائهم الغوغاء على القرار السياسي

---

(١) سورة النساء ، الآية (١١٤) .

(٢) الطبري ، تاريخ ، ٢٢٨/٥. وينظر: ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٤٣/٧ .

(٣) البخاري ، مع شرحه فتح الباري ، ك الفتن ، باب (١٨) شرح الحديث (٧٠٩٩) .

(٤) المصدر نفسه .

في الخلافة بعد أن كان بأيدي المبشرين بالجنّة وأهل بدر وأهل الســـابقة. فظنــت ومعها طلحة والزبير وابناهما رضي الله عنهم ومن معهم ممن رأى وسمع ما فعله هؤلاء فـــي المدينة ، أنّ محاسبة هؤلاء الآثمين من أولى أوليات الدين وأن في تركهم مخــاطر جمة على الإسلام والمسلمين ، ولمّا كانت هيمنتهم على المدينة ظاهرة فـــي تلــك المرحلة ، وأنّ في البصرة عدداً كبيراً منهم ، كان ذلك سبب فـــي التوجــه إلـــى البصرة وأنّ أم المؤمنين وافقت على ذلك المسير معتقدة أنها ستساعد على تجنـــب الفتنة والخلاف وأنّ مكانتها بين أبنائها ستزيد من تعاونهم ووحدتهم وبالتالي الإسهام في ترسيخ هيبة الخلافة من خلال التعاون على إقامة الحدود .

وإذا كان الخوارج خيّبوا ظنّ أم المؤمنين رضـــي الله عنـــها بعقوقـــهم لـــها وقتالهم لمن معها حتى اضطروا للدفاع عن أنفسهم ، ومن ثم قتلهم دفاعاً عن النفس وقصاصاً للخليفة الشهيد المظلوم رضي الله عنه ، وجزاءً لعقوق الأمومة التي واجهوها بـــه فما ذنب أم المؤمنين رضي الله عنها فيما أحدثه الخوارج الآثمـــون ، مـــن فتـــن صدّعت الصف وحالت دون إحالتهم للقصاص ، وإذا لم تتمكن أم المؤمنيـــن مـــن جمع المسلمين لتحقيق هذا الهدف ، بسبب الخلاف في الموقف منهم ، فـــإن أمـــير المؤمنين علياً رضي الله عنه لم يتمكن من ذلك أيضاً ، للسبب ذاته « ولولا ذلك لأنفذ الحـــق عليهم كما أنفذه على قتلة عبد الله بن خباب ، إذ قدر على مطالبة قتلته »[١] .

وإذا كانت تلك الشرذمة من الخوارج ، التي تعبث بأمن المسلمين ووحدتهم لم يُقرّوا بفضل أم المؤمنين رضي الله عنها ، فإن أهل الدين والســـابقة علـــى علـــم بمكانتها وفضلها رضي الله عنها ، فلما خطب عمّار بن ياسر رضي الله عنه أهـــل الكوفـــة عندما كان رسولاً لأمير المؤمنين ومعه الحسن بن علي رضي الله عنهما ، وذكـــر لهم مسير أم المؤمنين إلى البصرة. قال: « إني أقول لكم والله إني لأعلم أنها زوجة

---

(١) ابن حزم ، الفصل ، ١٦٢/٤ .

رسول الله ﷺ في الجنّة ، كما هي زوجته في الدنيـــا ، ولكــن الله ابتلاكــم بـــها لتطيعوها أو لتطيعوه » .

فقال له مسروق أو أبو الأسود: « يا أبا اليقظان فنحن مع من شهدت له بالجنّة دون من لم تشهد له »[1] فسكت عمار ومن معه من الصحابة في الكوفة ولم ينكروا ما سمعوه .

فكان الصحابة يعرفون لأم المؤمنين مكانتها في كتاب الله وعند رسول الله ﷺ فما كانت إلا موضع التبجيل والتقدير من كل مؤمن ، ولا ينتقصها وينال منـــها إلا الزنادقة بقية المنافقين وخَلْفهم، وهذا ما كان يحكم به عليهم أمير المؤمنين علي رضي الله عنه فلما علم أنّ رجلين نالا منها بعد موقعة الجمل قال أحدهم: جُزيت عنّا أمنا عقوقـــاً وقال الآخر: يا أمنا توبي فقد خطيت .

بعث إليهما القعقاع بن عمرو التميمي ، فجاء بهما ، فقال علي رضي الله عنه: أضـــرب أعناقهما ، ثم قال: لأنهكنهما عقوبة. **فضربهما مائـــة مائة ، وأخرجـــهما مــن ثيابهما**»[2] .

ولعل هذا النص يُبين مكانة أم المؤمنين في قلوب أبنائها ، ويردّ على أعـــداء الصحابة، الذين يفترون القصص المكذوبة والأحداث الموهومة ، ليوجدوا شـــرخاً بين الأمة وبين الصحابة ، على أنهم اختلفوا وتقاتلوا ، فيكون ذلك مســوغاً للنيـل منهم والتشكيك في ثقة الأمة بهم ، وكذلك سبباً في تغذية الأحقاد وإثارة الفتن بيــن الأجيال المسلمة على مرّ العصور ، وإذا كان أمير المؤمنين يحكم على مثل هـــذا الكلام بمائة جلدة ، ويهمّ أن يضرب عنق من قال مثل ذلك ، فبماذا يحكم رضي الله عنه على من لا يتورعون عن كتابةالبهتان والنطق به علىأمهات المؤمنين وهل يترددعمّا همّ

---

(١) ابن حزم ، الفصل ، ١٣٤/٤ ، الطبري ، تاريخ ، ٢٤٤/٥ ، ابن العربي ، العواصم من القواصم ١٦٢. وينظر: البخاري ، مع شرحه فتح الباري ، ك الفتن ، باب (١٨) شرح الحديث (٧٠٩٩) .

(٢) الطبري ، تاريخ ، ٢٨٠/٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٥٨/٧ .

به في حكمه هذا ؟[1]. ومع مكانة أم المؤمنين هذه ، وعلمها أنها في سعة من الأمر ما دامت مقاصدها ونيتها العمل لصالح المسلمين ، كانت تقبل النصح وتعمل بما يُشير عليها به المؤمنون فلم يكن مسيرها إلا بمشورة طلحة والزبير رضي الله عنهما ومن معهما من سادات المسلمين ، ومع ذلك كانت تقبل الوعظ والنصح لمن يقدمه إليها ، وهذا ما كتبت به إلى أم المؤمنين أم سلمة رداً على كتاب منها فيه نُصح لها فأجابتها بقولها: « ما أقبلني لوعظك وأعرفني لحق نصيحتك وما أنا بمعتمرة بعد تعريج ، ولنعم المطلع مطلع فرّقت فيه بين فئتين متشاجرتين من المسلمين ، فإن أقعد ففي غير حرج ، وإن أمضي فإلى ما لا غنى بي عن الإزدياد منه والسلام »[2] .

فهي ترى أنها إن جلست في بيتها كما جلست أخواتها لا حرج عليها في ذلك وإن سعت في مصالح المسلمين تبتغي الأجر من الله تعالى ، وتعمل على جمع كلمة المؤمنين ، ودحض الخوارج الذين قتلوا خليفة المسلمين ، فهي لا غنى بها عن الأجر ترتجيه من ربّ العالمين .

ومع كل هذا فهي لا تذكر ذلك المسعى إلا وتبكي رضي الله عنها ، إشفاقاً وألماً على ما أصاب المسلمين ، وأسفاً على الحال التي وصل إليها الخوارج الآثمون ولما رأت وسمعت من جلافتهم وغلظتهم ، وجرأتهم على دعاة الصلح وجمع الشمل من أهل السابقة والدين ، فهم ولموت قلوبهم لم يستجيبوا لدعوتها ولم يكفّوا ألسنتهم وأيديهم عنها وعمن استجاب لمساعيها من الصالحين الذين بذلوا أرواحهم رخيصة في سبيل صيانة مكانتها التي جعلها الله لها في قلوب المؤمنين .

وهذا ما كان يزيد في آلامها ، إذ كان أملها في ذلك المسعى أن لا يكون قتال مطلقاً فكانت تقول إنما كنت أريد « **أن يحجز بين الناس مكاني ، قالت ولم أحسب أن**

---

(١) ينظر :فياض،كتاب يوم انحدر الجمل من السقيفة،وما أسفّ به من النيل من أم المؤمنين وكبار الصحابة

(٢) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ٢٩٦/٤ .

يكون بين الناس قتال ، ولو علمت ذلك لم أقف ذلك الموقف أبداً ، قالت لم يسمع الناس كلامي ولم يلتفتوا إليّ »[1]. والمقصود هنا هم الذين أوقدوا نار الفتنة بين المسلمين في الموقعة التي دبرها الخوارج السبئية ، ثم أسموها موقعة الجمل ، ليصرفوا الشبهة عنهم ، وكأن تلك الجموع لا يوجد فيها إلا هذا الجمل ، فيرددون في رواياتهم عن دعاة الإصلاح الذين ساروا من مكة إلى البصرة ، بأنهم أصحاب الجمل وصاحبة الجمل ، فإذا كان دعاة الإصلاح رضي الله عنهم أصحاب الجمل ، فالخوارج أصحاب ماذا ؟ أهم أصحاب البغال أم أنهم أصحاب الحمار ؟ ويبدو أن هذا هو الاسم الأصح لهم ، لأن بعض رواتهم المعتمدين عندهم لديه سلسلة سند الحمار التي تتصل من حمار نوح عليه السلام إلى الحمار الذي كان عند رسول الله ﷺ ، كما وردت في كتاب أصول الكافي[2]. قال تعالى: ﴿ مثل الذين حمّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ﴾[3].

أما بقية الناس فقد سمعوا لأم المؤمنين وشكروا لها سعيها ، وضحوا بأرواحهم من أجل نصرة دعوتها في الإصلاح وإقامة كتاب الله تعالى .

موقف طلحة والزبير:

قال ابن كثير: لما وقع استشهاد عثمان رضي الله عنه ، كان أزواج النبي ﷺ قد خرجن إلى الحج في هذا العام فراراً من الفتنة ، فأقمن في مكة ، « فلما بويع لعلي رضي الله عنه

---

(١) الصنعاني ، المصنف ، ٥/٤٥٧.

(٢) الكليني، أصول الكافي، ١/٢٣٧. عن أمير المؤمنين عليه السلام « أن غفيراً – حمار النبي ﷺ – قال له: بأبي أنت وأمي – يا رسول الله – إن أبي حدثني عن أبيه عن جده عن أبيه: إنه كان مع نوح في السفينة ، فقام إليه نوح فمسح على كفله ، ثم قال: يخرج من صلب هذا الحمار حمار يركبه سيد النبيين وخاتمهم ، فالحمد لله الذي جعلني ذلك الحمار » .

(٣) سورة الجمعة ، الآية (٥) .

وصار حظ الناس عنده بحكم الحال وغلبة الرأي ، لا عن اختيار منه لذلك - ولكن لغلبة - رؤوس أولئك الخوارج الذين قتلوا عثمان ، مع أنّ علياً ﷺ يكرههم ولكنه تربص بهم الدوائر ، ويود لو تمكن منهم ليأخذ حق الله منهم »[١]. وقال:« لما استقر أمر بيعة علي دخل عليه طلحة والزبير ورؤوس الصحابة ﷺ ، وطلبوا منه إقامة الحدود ، والأخذ بدم عثمان ، فاعتذر إليهم بأن هؤلاء لهم مدد وأعوان وأنه لا يمكنه ذلك يومه هذا ، فطلب منه الزبير أن يوليه إمرة الكوفة ليأتيه منها بالجنود ، وطلب منه طلحة أن يوليه إمرة البصرة ليأتيه منها بالجنود ، ليقوى بهم على شوكة هؤلاء الخوارج ، وجهلة الأعراب الذين كانوا معهم في قتل عثمان ﷺ فقال لهما: مهلاً عليّ حتى أنظر في هذا الأمر »[٢] .

ويبدو أنهم انتظروا قليلاً ، فلم يُفسح للخليفة أن يُحاسب هؤلاء الخوارج فاجتمع طلحة والزبير في عدة من الصحابة إلى علي ﷺ أجمعين. فقالوا: « إنّ هؤلاء القوم قد اشتركوا في دم هذا الرجل وأحلوا بأنفسهم فقال لهم: يا إخوتاه ، إني لست أجهل ما تعلمون ولكني كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم ! ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم ، وثابت إليهم أعرابكم ، هم خلالكم يسومونكم ما شاؤوا فهل ترون موضعاً لقدرة على شيء مما تريدون ؟ قالوا: لا ، قال: فلا والله لا أرى إلا رأياً ترونه إن شاء الله .

إن هذا الأمر أمر جاهلية ، وإن لهؤلاء القوم مادة ... إن الناس من هذا الأمر إن حُرك على أمور: فرقة ترى ما ترون وفرقة ترى ما لا ترون ، وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق ، فاهدؤوا عني وانظروا ماذا يأتيكم ثم عودوا »[٣] . وقال ﷺ: « وإن الأمر الذي وقع لا يدرك إلا

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٤٢/٧ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٠٠/٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ٢٤٠/٧ ، ١٠٠/٣ .

(٣) الطبري ، تاريخ ، ٢١١/٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٠٠/٣ .

بإقامته ، وإنها فتنة كالنار ، كلما سعرت ازدادت واستنارت »[1]. والذي يظهر في هذه النصوص ، أن الصحابة في المدينة وفي مقدمتهم طلحة والزبير رضي الله عنهما ، نفد صبرهم على هؤلاء الخوارج ، وشعروا بعمق المأساة التي جلبوها على الأمة بقتلهم الخليفة ﷺ ، فعطلوا بذلك كل شيء وأشغلوا المسلمين بأنفسهم مما زاد من سأمة طلحة والزبير منهم ، والإلحاح على أمير المؤمنين للقصاص منهم وإبعادهم عنه ، وكان أمير المؤمنين يشاطرهم الرأي نفسه ، ولكنه كان ينظر إلى الأمور بنظرة القائد الميداني ، فلا يرى إمكانية تنفيذ حكم القصاص في القتلة في تلك المرحلة ، لما يجلب ذلك من فتنة أكبر .

والذي يبدو أن وجود الخوارج في المدينة ، وقربهم من الخليفة ، زاد في تعقيد الأمور وشك بعض الصحابة في قدرة الخليفة على التخلّص منهم ، مما شعّب الأمور وعدد المواقف « وتفرق القوم وبعضهم يقول: والله لئن ازداد الأمر لا قدرنا على انتصار من هؤلاء الأشرار ، لنترك هذا إلى ما قال علي أمثل . وبعضهم يقول: نقضي الذي علينا ولا نؤخره ووالله إن علياً لمستغن برأيه وأمره عنا ، ولا نراه إلا سيكون على قريش أشد من غيره »[2] .

وبذلك ازداد الضغط على الخليفة الذي أصبح بين مطرقة الخوارج وسندان المطالبين بإبعادهم والقصاص منهم ، وكانت هذه الآراء والتوجهات تصل إلى الخليفة ، فأراد أن يتخذ إجراء يُسكّن به أهل المدينة ويُطمئن به قريش فخطب في المسلمين « وذكر فضلهم وحاجته إليهم ، ونظره لهم وقيامه دونهم وأنه ليس له من سلطانهم إلا ذلك والأجر من الله عز وجل »[3] .

ولكنه لما أراد أن يُخفف من وطأة السبئية ، بصرف الغوغاء إلى بلادهم أبوا

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٢١٦/٥. ١٠٣/٣.

(٢) الطبري ، تاريخ ، ٢١٢/٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٠٠/٣ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٤٠ .

(٣) المصدر نفسه .

عليه ولم يسمعوا له ، ونادى: برئت الذمة من عبد لم يرجع إلى مواليه فتذامرت السبئية والأعراب ، وقالوا: لنا غداً مثلها ، ولا نستطيع نحتج فيهم بشيء »[1] .

ثم كرر الأمر لهؤلاء ، فقال: « يا أيّها الناس ، أخرجوا عنكم الأعراب. وقال: يا معشر الأعراب ، الحقوا بمياهكم ، فأبت السبئية وأطاعهم الأعراب ، ودخل علي بيته ، ودخل عليه طلحة والزبير وعدة من أصحاب النبي ﷺ فقال: دونكم ثأركم فاقتلوه ، فقالوا: عَشَوْا - أعرضوا - عن ذلك ، قال: هم والله بعد اليوم أعش وأبى»[2] .

ويبدو أن كثيراً من القرشيين في المدينة ، اعتقدوا أن الخوارج سيزداد شرّهم أكثر ، بعد أن تمردوا على أمر الخليفة وعصوه ، فهرب بنو أمية من المدينة مما جعل الخليفة يشتد على قريش « وحال بينهم وبين الخروج على حال »[3] .

وهذا ما زاد من نفور بقية قريش وكثير من الصحابة ، قال ابن كثير: و « لما وقع الأمر هكذا واستحوذوا عليه ، وحجبوا عنه علية الصحابة فرّ جماعة من بني أمية وغيرهم إلى مكة ، واستأذن طلحة والزبير رضي الله عنهما في الاعتمار فأذن لهما فخرجا إلى مكة ، وتبعهم خلق كثير وجمّ غفير »[4] .

وفي مكة كانت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها مقصداً للقادمين من المدينة فكانت تستخبرهم عن حال المسلمين في المدينة ، فيعلمونها حتى تواترت عندها الأخبار عن هيمنة الغوغاء والسبئية على الأمور هناك، فلما التقت بطلحة والزبير رضي الله عنهما ومن معهما ، قالت ما وراءكما ؟ « فقالا: وراءنا أنا تحملنا بقلّيتنا - أي لم ندع وراءنا شيئاً - هرّاباً من المدينة ، من غوغاء وأعراب ، وفارقنا قوماً

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٢١٢/٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٠٠/٣ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٤٠ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) الطبري ، تاريخ ، ٢١٢/٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٠٠/٣ .

(٤) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٤٠/٧ .

حيارى لا يعرفون حقاً ولا يُنكرون باطلاً ولا يمنعون أنفسهم »[1]. فلما رأت أم المؤمنين أنّ الأمر جدّ خطير ، ولا سيما بعد أن باثّها القادمون من المدينة همومهم واستشاروها بأن يتعاونوا على إزالة هذه الخوارج ويعملوا على جمع شمل المسلمين وإصلاح شأنهم ، وأعلموها أنه قد « اجتمع ملؤهم بعد نظر طويل في أمرهم على البصرة »[2] فوافقتهم على ذلك ، استجابة لرغبتهم وذكرت ما قام به الخوارج السبئية ، فقالت: « أيّها الناس ، إن هذا حدث عظيم وأمر منكر ، فانهضوا فيه إلى إخوانكم من أهل البصرة فأنكروا فقد كفاكم أهل الشام ما عندهم ، لعل الله يدرك لعثمان وللمسلمين بثأرهم »[3]. وأكدت وجوب التعاون لدفع شرّ الخوارج الذين قتلوا عثمان بريئاً نقياً تقياً. فقالت رضي الله عنها: « فنجاة من اجتماعكم عليهم ، حتى يُنكل الله بهم غيرهم ويُشرّد من بعدهم ووالله لو أن الذي اعتدوا به عليه كان ذنباً ، لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه أو الثوب من درنه إذ ماصوه كما يُماص الثوب بالماء »[4] .

ويبدو أن أم المؤمنين رضي الله عنها لم تكن تفكر في المسير مع الناهضين في وجه الخوارج السبئية،وإنّما كانت تأمل أن يسير هؤلاء إلى المدينة فيتعاونوا مع من بها من الصحابة على القصاص من القتلة وإخراج الغوغاء منها ، وبذلك يعود سلطان الخلافة إلى ما كان عليه قبل استشهاد الخليفة ، ويصطلح شأن المسلمين.

ولكن الصحابة في مكة وفي مقدمتهم طلحة والزبير رضي الله عنهما ، حولوا وجهتها وأشاروا عليها بإقرار مسيرهم إلى البصرة قائلين: « يا أم المؤمنين ، دعي المدينة فإن مَن معنا لا يُقرنون لتلك الغوغاء التي بها »[5]. ثم أشاروا عليها بوجوب

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٥/٢٢٠ ، ابن الأثير ، الكامل ، ٣/١٠٦ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر نفسه .　　(٤) المصدر نفسه .

(٥) المصدر نفسه ، ٥/٢٢١ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٧/٢٤٢ .

الخروج معهم ، لكي يتجنبوا الفتنة وينهض الناس معهم ، للوقوف في وجه الخوارج « وقتال السبئية »[1] .

وقالوا إنّ الناس لا يجيبوا « وتاركوا أمرنا إلا أن تخرجي فتأمري بمثل ما أمرت بمكة، **ثم ترجعي** »[2]، « واشخصي معنا إلى البصرة ... فتنهضيهم كما أنهضت أهل مكة **ثم تقعدين** ، فإن أصلح الله الأمر كان الذي تريدين ، وإلا احتسبنا ودفعنا عن هذا الأمر بجهدنا ، حتى يقضي الله ما أراد »[3]. وقال لها الزبير رضي الله عنه: « عسى الله عز وجل أن يصلح بك بين الناس »[4] .

فيتضح من هذه النصوص ، أن الخوارج السبئية ، أصبحوا كابوساً على عامة المسلمين ، كان الجميع يرغب في التخلّص منهم ، ولكن هناك خلاف في وسيلة ذلك الخلاص ، فالخليفة يرى وجوب الهدوء على جميع المسلمين حتى تستقر الأوضاع وتهدأ النفوس ، ويُفرغ من أمر الخلافة وترتيب شؤونها .

وبعض الصحابة كان يرى أن ما يحصل هو فتنة ، وأن الأسلم الاعتزال وعدم المشاركة ، وهذا ما كان عليه سعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر ، وأسامة بن زيد وزيد بن ثابت ، ومحمد بن مسلمة ، وأبو موسى الأشعري ، والمغيرة بن شعبة، وصهيب الرومي ومن معهم رضي الله عنهم .

وطلحة والزبير ومن معهما كانوا يرون أن من واجبهم السعي في إصلاح أوضاع المسلمين وذات بينهم ، وأنهم ومن معهم والمسلمين جميعاً ، ملزمون بالقصاص من قتلة الخليفة ، والعمل على إخراج السبئية والغوغاء من المدينة وإبعادهم كلياً عن مصدر القرار والمشورة وكل شؤون الخلافة ، وأنه لا رخصة في تأجيل ذلك ، فكان كل فريق يعمل بما كان يراه هو الحق .

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٢٢٣/٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٠٦/٣.

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر نفسه ، ٢٢١/٥ ، ١٠٦/٣ .

(٤) ابن حنبل ، المسند ، ٩٧/٦ .

مسير طلحة والزبير وأم المؤمنين إلى البصرة وموقف عثمان بن حنيف والي البصرة من ذلك

بعد وصول طلحة والزبير إلى مكة ولقائهم أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وأهل مكة ورجالات قريش فيها ، تشاوروا فيما يتوجب عليهم فعله لمعالجة المحنة التي تمر بها الأمة ، فاعتقدوا أن ذهابهم إلى البصرة سيمكنهم من جمع المسلمين فيها، والاستعانة بهم على دحر الخوارج السبئية هناك وبالتالي رفد الخليفة في المدينة بقوة جديدة تعين على القصاص من قتلة الخليفة عثمان رضي الله عنه.

وقالوا لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها « **تقدمين فيراك المسلمون فيصلح الله عز وجل ذات بينهم** »[1]. ولهذه المقاصد النبيلة التي ليس فيها حظ للنفس أو اتباع للهوى؛ سار طلحة والزبير وأخذوا معهم أم المؤمنين رضي الله عنها متجشمة عناء السفر البعيد « رجاء أن يرجع الناس إلى أمهم فيرعوا حرمة نبيهم ﷺ ، واحتجوا عليها بقوله تعالى: ﴿ لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ﴾[2]، وقد خرج النبي ﷺ في الصلح وأرسل فيه. فرجت المثوبة ، وخرجت حتى بلغت الأقضية مقاديرها »[3] .

ولما ولى أمير المؤمنين الولاة ، عين عثمان بن حنيف الأوسي الأنصاري على البصرة ، فلم يرده عنها أحد فدخلها وضبطها[4]، إلا أنه سرعان ما تعرض لمحنة كبرى ، امتحن فيها ولاؤه السياسي وقدراته الإدارية ، وذلك في تعامله مع الأزمة التي أحدثها قدوم طلحة والزبير وأم المؤمنين إلى البصرة[5]، يرجون جمع

---

(١) ابن حنبل ، المسند ، ٥٢/٦ . وينظر: ابن سعد ، الطبقات ، ١٩/٣ .

(٢) سورة النساء ، من الآية (١١٤) .

(٣) ابن العربي ، العواصم من القواصم ، ١٥٦ .

(٤) ابن حبان، الثقات ، ٣٧٤/٢ .

(٥) وقد سلكوا في مسيرهم هذا طريق البصرة منطلقين من مكة إلى ذات عرق ثم أوطاس ثم ضريه ثم النباج ثم البصرة ، ينظر: الغيث ، استشهاد عثمان ، ١٦٩ .

كلمة أهل البصرة ، وتوحيد الصف لدفع شر الخوارج السبئية الذين يخشى خطرهم على المسلمين بعد ما فعلوه بعثمان وأهل المدينة « **وإذا لم يفطم الناس عن أمثالها لم يبق إمام إلا قتله هذا الضرب** »[١] .

فساروا في سبعمائة رجل وقيل ستمائة وقيل تسعمائة من أهل المدينة ومكة ولحقهم الناس حتى كانوا ثلاثة آلاف رجل»[٢] .

فلما بلغ ابن حنيف والي البصرة قدوم طلحة والزبير رضي الله عنهما ومن معهما ، وهو يعلم بوجود بعض من خرج على عثمان ﷺ في البصرة ، فخشي من الفتنة بين المسلمين فقال: « دارت رحى الإسلام ورب الكعبة »[٣] فاستشار الصحابي عمران بن حصين الخزاعي ﷺ[٤]، بما يتوجب عليه فعله في هذا المأزق ، فأشار عليه بالاعتزال وقال له: « إني قاعد في منزلي أو قاعد على بعيري، فذهب[٥]، فقال عثمان: بل أمنعهم حتى يأتي أمير المؤمنين ، وبذلك خالف نصيحة عمران بن حصين ﷺ ، التي كان يفترض أن يستفيد منها ، لأنه من أوسع الصحابة تجربة في البصرة لكنه تركه يقعد عنه »[٦] .

وأراد ابن حنيف ، أن يستطلع رأي أهل البصرة ، وموقفهم من قدوم طلحة والزبير إليها ، ومدى تأييدهم لذلك ، فدس رجلا خطب في أهل البصرة يحثهم على أن يردوهم عنها فقيل له: « إنما فزعوا إلينا يستعينون بنا ... فحصبه الناس فعرف عثمان أن لهم بالبصرة ناصرا يقوم معهم »[٧] .

---

(١) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ٢٤/٣ ، الطبري، تاريخ ، ٤١٦/٤ .

(٢) الطبري ، تاريخ، ٢٢٢/٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٢٢/٧.

(٣) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٤٣/٧ ، يشير بذلك إلى الحديث الشريف الذي سبق ذكره .

(٤) ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ١٢٠٨/٣.

(٥) الطبري ، تاريخ ، ٢٢٩/٥، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٤٣/٧. (٦) الطبري ، تاريخ ، ٢٢٩/٥.

(٧) الطبري ، تاريخ ، ٢٢٩/٥٠ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٠٨/٣ .

ونصح عثمان بن حنيف بالتروي ، وقيل له: « إن هذا الأمر الذي تروم يسلم إلى شر مما تكره ، إن هذا فتق لا يرتق ، وصدع لا يجبر ، فسامحهم حتى يأتي أمر علي ولاتحادهم ، فأبى »[1] .

وأقبل طلحة والزبير رضي الله عنهما حتى إذا انتهوا إلى المربد ، ودخلوا من أعلاه أمسكوا ووقفوا ، حتى خرج عثمان بن حنيف فيمن معه ، وخرج إلى طلحة والزبير من أهل البصرة من أراد أن يخرج ويكون معهم ، فاجتمعوا بالمربد حتى غص بالناس[2] .

وهناك تكلم طلحة والزبير رضي الله عنهما ، وذكرا فضل عثمان بن عفان ﷺ وأنه قتل مظلوما ، وأن إقامة حدود الله تعالى ، هو الصواب المؤدي إلى الاستقرار والصلاح وتكلمت أم المؤمنين وذكرت كيف كان الخوارج يلبسون على المسلمين ، فيفترون عليه وعلى عماله ، فقالت: يأتوننا بالمدينة فيستشيروننا عنهم ويرون حسنا من كلامنا في صلاح بينهم ، فننظر في ذلك فنجده بريا تقيا وفيا ونجدهم فجرة كذبة يحاولون غير ما يظهرون ، فلما قووا على المكاثرة كاثروه فاقتحموا عليه داره ، واستحلوا الدم الحرام ، والمال الحرام والبلد الحرام ، بلا تـرة ولا عذر ، ألا إن مما ينبغي لكم لا ينبغي لكم غيره . أخذ قتلة عثمان ﷺ وإقامة كتاب الله عز وجل: « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون »[3] .

فلما سمع أصحاب عثمان ابن حنيف ذلك ، انقسموا فرقتين، فرقة صدقوا ما سمعوا وقالوا: « صدقت والله وبرت وجاءت بالمعروف ، وقال الآخرون: كذبتم والله ما نعرف ما تقولون ، فتحاثوا وتحاصبوا وأرهجوا - أثاروا الغبار - فلما رأت

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٢٢٩/٥٠ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٠٨/٣ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) آل عمران ، الآية (٢٣) الطبري ، تاريخ ، ٢٣٠/٥ .

ذلـــك أم المؤمنين انحدرت وانحدر أهل الميمنة مفارقين لعثمان بن حنيف »[1] .

وكان في الفرقة التي بقيت مع عثمان بن حنيف ، حكيم بن جبلة العبدي، وهو أحد رؤوس الخارجين على الشهيد عثمان ﷺ ، وكان على خيل البصرة . فبقـــي يثير الشغب ، ويعمل على إنشاب القتال ، وطلحة والزبـــير وأصحابـــهما كـــافين مشرعين رماحهم فقط ممسكين عن القتال لعلهم يمسكون فلم ينته ولم يثن فقاتلـــهم وهم كافون إلا ما دافعوا به عن أنفسهم[2]، وحكيم يذمر خيله ويركبهم بها ، ويقول: إنها قريش ليردينها جبنها والطيش[3]، فكف أصحاب طلحة والزبير وتيامنوا حتـــى انتهوا إلى الزابوقة[4] .

وكان قد حجز الليل بين الفريقين، وفي الصباح غدا حكيم بن جبلة وهو يبربر - يكثر الكلام في تخليط وغضب - وفي يده الرمح ، فقال له رجل من عبد القيـــس من هذا الذي تسب ؟ قال: عائشة ، قال ، ألأم المؤمنين تقول هذا ! فوضع حكيـــم السنان بين ثدييه فقتله ، ثم مر بامرأة ، وهو يسب أم المؤمنين رضـــي الله عنـــها فقالت: من هذا الذي ألجأك إلى هذا ؟ قال: عائشـــة رضي الله عنهـــا ، قالـــت: ألأم المؤمنين تقول هذا ، فطعنها برمحه فقتلها ، ثم ســـار فلما اجتمـــع أصحابـــه قاتلوهم .

« **ومنادي عائشة رضي الله عنها يناشدهم ويدعوهم إلى الكف فيـــأبون** »[5]، وهـــذا شأن الخوارج السبئية ، لا يظهرون إلا في أجواء الفتن ، لهذا هم أحرص النـــاس عليها وقد كف الخليفة عثمان ﷺ من قبل يده ولسانه وأغلق بابه ، فلم يمنعهم ذلك

---

(١) الطبري، تاريخ ، ٢٣٠/٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٠٩/٣ .

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٤٤/٧ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٠٩/٣ .

(٣) الطبري ، تاريخ ، ٢٣١/٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٤٤/٧ .

(٤) الزابوقة: هي مدينة الرزق - الطعام - في البصرة ، ابن خياط ، تاريخ ، ١٨٣ .

(٥) الطبري ، تاريخ ، ٢٣٢/٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٠٩/٣ .

من أن يقتحموا عليه داره فيقتلوه ظلما وعدوانا. حتى إذا مسهم الشر وعضهم أجابوا منادي أم المؤمنين إلى الصلح . ولكن حكيم استمر في شغبه ، فلما ذهب طلحة والزبير ومن معهم إلى المسجد فوافقا صلاة العشاء ، فأبطأ عثمان بن حنيف فقدما عبد الرحمن بن عتاب يصلي بهم، فوقعت فتنة من رعاع البصرة أتباع حكيم بن جبلة[١]، لكنه صلى بالناس العشاء والفجر ، ودخل قوم إلى عثمان ابن حنيف في قصره ، فوطئوه ونتفوا شعره[٢]، فلما علم طلحة والزبير **استعظما ذلك فخلوا سبيله**[٣]. « فقدم على علي بالربذة وقد نتفوا رأسه ولحيته وحاجبيه ، فقال يا أمير المؤمنين بعثتني ذا لحية وجئتك أمرد، قال: أصبت أجرا وخيرا »[٤]، ونظر علي رضي الله عنه إلى أصحابه فقال: « انطلق هذا من عندنا وهو شيخ ، فرجع إلينا وهو شاب »[٥] .

وبعد ذهاب عثمان بن حنيف رضي الله عنه إلى أمير المؤمنين علي رضي الله عنه أصبح حكيم بن جبلة في خيله على رجل فيمن تبعه من عبدالقيس ، ومن نزع إليهم من أفناء ربيعة ، ثم وجهوا نحو دار الرزق ، وهو يشتم أم المؤمنين رضي الله عنها فسمعته امرأة من قومه فقالت: أنت أولى بذلك ، فطعنها فقتلها ، فغضبت قبيلة عبد القيس « إلا من كان اغتمر منهم » أي شارك في الفتن والخروج على الخليفة عثمان رضي الله عنه . فقالوا: فعلت بالأمس وعدت لمثل ذلك اليوم ، والله لندعنك حتى يقيدك الله فرجعوا وتركوه ومضى حكيم بن جبلة فيمن غزا معه عثمان بن عفان رضي الله عنه وحصره من نزاع القبائل كلها . فنادى منادي طلحة والزبير: « من لم يكن من

---

(١) ابن العربي ، العواصم من القواصم ، ١٥٩ .

(٢) الطبري ، تاريخ ، ٢٣٣/٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١١١/٣ . ابن كثير البداية والنهاية ، ٢٤٧/٧ .

(٣) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ٢٩/٣. البلخي ، البدء والتاريخ ، ٥١٢/٥ .

(٤) الطبري ، تاريخ ، ٤٤١/٥ .

(٥) المصدر نفسه ، ٢٤٢/٥ .

قتلة عثمان رضي الله عنه فليكفف عنا ، فإنا لا نريد إلا قتلة عثمان ولا نبدأ أحدا ، فأنشب حكيم القتال ولم يرع للمنادي ، فقال طلحة والزبير: اللهم لا تبقي منهم أحدا وأقد منهم اليوم فاقتلهم[١]. وكان حكيم بن جبلة رأس الفتنة في البصرة يقود فرقة من ثلاثمائة رجل ، ومجموع من خرج معه من الغوغاء سبعمائة رجل ، فضرب عنقه « رجل من الحدان يقال له ضخيم ، **فمال رأسه فتعلق بجلده ، فصار وجهه في قفاه** »[٢] فسبحان الله تعالى القائل في كتابه العزيز: ﴿ فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴾[٣] .

فنادى مناد ذق وبال الله عز وجل وانتقامه « بما ركبتم من الإمام المظلوم وفرقتم من الجماعة ، وأصبتم من الدماء[٤]، وفي رواية أخرى كان طلحة والزبير ومن معهم لما أتوا الزابوقة ، اصطلحوا مع والي البصرة على أن يكفوا عن القتال فلما كان الغد ذهب عبد الله بن الزبير إلى مدينة الرزق وهي الزابوقة فأراد أن يرزق أصحابه ، فجاء حكيم بن جبلة العبدي في سبع مائة من عبد القيس وبكر بن وائل، فاقتتلوا ، فقتل حكيم بن جبلة وأخوه الرعل بن جبلة ، وابنه الأشرف بن حكيم[٥] .

« ونادى منادي الزبير وطلحة رضي الله عنهما بالبصرة: ألا من كان فيهم من قبائلكم أحد ممن غزا المدينة فليأتنا بهم ، فجيء بهم كما يجاء بالكلاب ، فقتلوا فما أفلت منهم من أهل البصرة جميعا إلا حرقوص بن زهير فإن بني سعد منعوه وكان من بني سعد ، فمسهم في ذلك أمر شديد »[٦] .

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٢٣٥/٥. (٢) المصدر نفسه ، ٢٣٧/٥ ، ابن خياط ، تاريخ ، ١٨٣ .

(٣) سورة البقرة ، من الآية (١٣٧) .

(٤) الطبري ، تاريخ ، ٢٣٥/٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١١٢/٣ .

(٥) ابن خياط ، تاريخ ، ١٨٣ ، الذهبي ، الخلفاء الراشدون ، ٤٨٣ .

(٦) الطبري ، تاريخ ، ٢٣٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١١٢/٣ .

وأقام طلحة والزبير ومن معهما في البصرة ، وليس معهم ممن يطلبون إقامة الحد عليه إلى حرقوص ، وكانوا يقولون: إنا خرجنا لوضع الحرب وإقامة حدود الله عز وجل فخالفنا شرار أهل البصرة ونزاعها ، فردونا بالسلاح وقالوا: نأخذ أم المؤمنين رهينة ، أن أمرتهم بالحق وحثتهم عليه ، وإن هؤلاء القوم لم يرضوا بما صنعوا بعثمان بن عفان ﷺ ، وتفريق جماعة الأمة ، ومخالفة الكتاب والسنة حتى شهدوا علينا فيما أمرناهم به ، وحثثناهم عليه من إقامة كتاب الله وإقامة حدوده بالكفر ، وقالوا لنا المنكر ، فأنكر ذلك الصالحون من أهل البصرة وعظموا ما قالوا[1] .

ويبدو أن أتباع حكيم بن جبلة لم تعد لديهم هيبة من سفك دماء الصالحين بعد استباحة دم عثمان ﷺ ، وازدادوا جرأة على ذلك ، **حتى أنهم حاولوا اغتيال أم المؤمنين رضي الله عنها** فقد روي عنها قولها: « فغادوني في الغلس ليقتلوني والذي يحاربهم غيري ، فلم يبرحوا حتى بلغوا سدة بيتي ومعهم هاد يهديهم إلي فوجدوا نفرا على باب بيتي ... فدارت عليهم الرحى ، فاطاف بهم المسلمون فقتلوهم وجمع الله كلمة أهل البصرة على ما أجمع عليه الزبير وطلحة »[2] .

ويستخلص مما سبق أن طلحة والزبير ومن معهما من أهل مكة والمدينة طلبوا من أم المؤمنين أن تسير معهم ، ليكون حضورها سببا من أسباب تجنب الفتنة وللإصلاح بين الناس ، وكان هذا هو هدفهم الذي انطلقوا من مكة لأجله وأن ذلك الإصلاح الذي يقصدونه ، هو إقامة حدود الله تعالى وجمع المسلمين وتنقية المجتمع الإسلامي آنذاك من الخوارج السبئية وتابعيهم من الغوغاء. لكي لا يعودوا لمثل ما قاموا به في المدينة .

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٢٣٦/٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ٢٣٧/٥ .

ووعدوا أم المؤمنين إن أتم الله ذلك المقصد ، أن تعود إلى بيتها فتكون بذلك قد أدت ما يتوجب عليها تجاه أمتها وعقيدتها ، وبناء على هذه الأسس ، سارت أم المؤمنين رضي الله عنها إلى البصرة ، ومعها ابن أختها عبدالله بن الزبير الذي كانت تكني به منذ زمن رسول الله ﷺ.

ـ فكانت تستشار وتستفتى ، ويطلب منها الدعاء ، فكان وجودها خيرا وبركة على من سار معها ، لما تحثهم عليه من العبادة والطاعة ، وتدعوهم إليه من العفو والتسامح والإصلاح ورجاء المثوبة من الله تعالى .

ـ إن طلحة والزبير رضي الله عنهما ومن معهما ، التزما بما أعلنا عنه من العمل على الإصلاح ، وإقامة حدود الله تعالى ، مع التذكير بفضل عثمان رضي الله عنه وبالحيف والظلم الذي تعرض له ، وبحقوقه على المؤمنين إذ استشهد وبيعته في أعناقهم .

ـ إنضمام كثير من أهل البصرة إلى صف طلحة والزبير رضي الله عنهما ولا سيما بعد سماع كلامهما وكلام أم المؤمنين رضي الله عنها وما يدعون إليه من الإصلاح .

ـ إلتزام طلحة والزبير ومن معهما بكف اليد واللسان ، على الرغم مما تعرضوا له من الأذى وما سمعوه من الشتائم من السبئية والغوغاء ، وأنهم لم يقاتلوا إلا دفاعا عن النفس ، وأعلنوا أنهم لا يبدأون أحدا بقتال .

ـ حرص أم المؤمنين على تجنب الفتنة ودعوتها جميع الأطراف إلى الكف عن القتال .

ـ تخلي أهل البصرة عن الخوارج السبئية بعد ما شاهدوا من إعراضهم عن الصلح وإقامة الحدود ، وما سمعوه منهم من إيذاء لأم المؤمنين رضي الله عنها ولم يكن الإنكار على الخوارج في الكوفة أقل منه في البصرة ، اتضح ذلك عندما

قام الأشتر النخعي خطيبا في الكوفة فتعرض لعثمان رضي الله عنه ، فقام إليه ، المقطع بن الهيثم بن فجيع العامري ، فقال: « أسكت قبحك الله! كلب خلي والنباح ، إنا والله لا نحتمل بعدها أن يبوء أحد بذكر أحد من أئمتنا »[١] .

ــ وإن طلحة والزبير ومن معهما لم يتعرضوا لبيعة علي رضي الله عنه ، وكانوا معترفين بها ومقرين أنه أولى الناس في زمانه بالخلافة ، وإنما كانا يعتقدان أنه لا يستطيع تنفيذ الحدود على قتلة الخليفة عثمان رضي الله عنه ، قال ابن تيمية: « لم يكن علي رضي الله عنه متمكنا من قتل قتلة عثمان رضي الله عنه ، إلا بفتنة تزيد الأمر شرا وبلاء ، ودفع أفسد الفاسدين بالتزام أدناهما أولى من العكس لأنهم كانوا عسكرا وكان لهم قبائل تغضب لهم »[٢] .

ــ وقد كان كل ما قام به طلحة والزبير رضي الله عنهما ومن معهما ، قيما وجليلا وكانا يعتقدان أن ذلك واجب شرعي ، لا يمكن الانفكاك عنه ، تمليه حقوق الأخوة ومصلحة الأمة ومستقبلها ، على أن ذلك لو كان بتنسيق ومشورة مع الخليفة لكانت النتائج أتم وأشمل وأعمق ، فرضي الله تعالى عن الصحابة الكرام ، ما أعظم هممهم وما أمضى عزائمهم ، وما أعمق إخلاصهم لله تعالى .

ــ أما عثمان بن حنيف رضي الله عنه ، فقد هزم منهجه السياسي الذي سلكه في التعامل مع الأزمة التي تعرض لها ، وذلك لضعف خبرته في معرفة ميول أهلها ، إذ أن عامتهم قد ساءه قتل الخليفة عثمان رضي الله عنه وآلمهم ما حصل له، فبدلا من توضيح موقفه في هذه المسألة ، والعمل على نفي أي تهمة إليه أو إلى الخليفة علي رضي الله عنه سمح للخارجين على الخليفة عثمان بالدخول مع أنصاره والتحدث باسمه ، مما يعد مأخذا كبيرا على أداء والي البصرة عثمان ، لأن هؤلاء أصبحوا منبوذين بين

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٢٤٥/٥ .

(٢) ابن تيمية ، منهاج السنة ، ٤٠٧/٤ .

المسلمين ، فضلا عن أن عامتهم خارجين على قبائلهم ، ولا يتمتعون بمكانة دينية أو اجتماعية وكان أكثرهم مكانة في قومه حكيم بن جبلة ، الذي تخلت عنه قبيلته عبد القيس حتى قتل ، ومن أسباب فشله الأخرى عدم سماعه لنصح العارفين بأوضاع البصرة ، فلم يتمكن من تجنب الإصطدام مع طلحة والزبير رضي الله عنهما وأنصارهما ، أو التفاهم معهما حتى يقدم الخليفة علي رضي الله عنه ، واستجرته الخوارج السبئية الذين كان من أهدافهم إبعاد الصحابة ذوي التأثير في الناس عن مصادر القرار وتنفيذ الأحكام لأنهم « عرفوا أن لا مقام لهم بالبصرة فاجتمعوا إليه »[1]، فكانوا عبئا عليه وعلى علاقاته مع أهل ولايته ، إذ انضم أكثرهم إلى طلحة والزبير رضي الله عنهما .

ـ وبمواقفه هذه لم يراع مقام طلحة والزبير ، ولم يعرف لهما حقهما ولا سيما أنهما أكثر الناس شبها بعلي رضي الله عنه ، وهم شركاؤه في أكثر ما سطروه من أمجاد وجهاد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ـ وكذلك عدم مراعاته لدخول أم المؤمنين في المعادلة السياسية ، والتي كانت أطوع الناس في الناس ، وانقياد أكثر أهل البصرة لها. مما كان يحتم عليه أخذ هذا الواقع الجديد في الحسبان ، ومراعاة التوجهات السياسية المخالفة له ، والعمل بسياسة المهادنة واللين التي عمل بها ولاة ، يدارون أوضاعا شبيهة بما يداريه هو في البصرة ، مثل قيس بن سعد بن عبادة في مصر ، الذي تمكن من تثبيت سلطاته هناك ، لتمشيها مع الواقع الجديد ، الذي يتطلب رؤية جديدة لمعالجة الأحداث وهذا ما لم يعمل به عثمان بن حنيف ، مما عرض البصرة لمحن شديدة كانت في غير حاجة لها .

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٢٣٤/٥ .

تعيين أمير المؤمنين علي الولاة على
الأمصار وظاهرة العزل المتكرر لهم

تبين أن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ، تولى الخلافة وهي تمر في أوضاع داخلية حرجة للغاية كانت أحد أسباب تردده في قبول البيعة ، ومما زاد حراجة موقفه اعتزال كبار الصحابة رضي الله عنهم العمل السياسي والعسكري ومشاركة الخليفة أعباءه حرصا على سلامة ما مضى لهم من جهاد ، وخوفا من الوقوع في الفتنة في قتال بين المسلمين. وإصرار بعض الصحابة على القصاص من الخوارج ، وإقامة الحدود قبل أي شيء آخر. وكون المواقف التي اتخذها الصحابة كانت إعتقادية مبنية على ما توصل إليه كل منهم من علم ، لم يكن بالإمكان تحويلهم عما اتخذوه من مواقف ، فانطلق كل منهم لما آمن به واعتقده .

لذلك رأى أمير المؤمنين نفسه ملزما بما أوكل إليه فتفرغ لترسيخ شؤون الخلافة وأرسل العمال والولاة إلى الأمصار بعد أن عزل ولاة عثمان رضي الله عنه مما يستوجب الحديث عن ذلك بشيء من التفصيل:

ــ **المدينة:** ولى عليها حين سار إلى البصرة ، سهل بن حنيف الأنصاري ثم عزله وولى أبا أيوب الأنصاري ، فخرج منها بعد صفين ، واستخلف عليها رجلا من الأنصار وشهد حرب الخوارج مع علي رضي الله عنه (١) .

ــ **مكة:** عزل عنها خالد بن سعيد بن العاص ، وولاها أبا قتادة الأنصاري ثم عزله وولى قثم بن العباس فلم يزل عليهاواليا حتى استشهد علي رضي الله عنه (٢)

ــ **مصر:** ولى عليها محمد بن أبي حذيفة ، ثم عزله وولاها قيس بن سعد بن

---

(١) ينظر ، ابن خياط ، تاريخ، ٢٠١. وينظر: الطبري ، تاريخ، ٢١٥/٥.

(٢) المصدر نفسه .

عبادة ثم عزله وولى الأشتر مالك بن الحارث النخعي فقتل قبل أن يصل إليها فولى محمد بن أبي بكر فقتل بها ، ثم غلب عليها عمرو بن العاص رضي الله عنه وروي محمد بن أبي بكر ثم الأشتر .

ـ **البصرة:** ولى عليها عثمان بن حنيف الأنصاري ، ثم عبد الله بن العباس .

ـ **الكوفة:** ولى عليها قرظة بن كعب الأنصاري ، ثم قدم إليها أمير المؤمنين علي فلما خرج إلى صفين ، ولى عليها أبا مسعود البدري ، ثم استخلف هانئ بن هوذة النخعي لما سار إلى النهروان ، فلم يزل بالكوفة حتى استشهد علي [١].

ـ **خراسان:**وجه إليها عون بن جعدة المخزومي فردوه،فبعث خليد بن قرة التميمي

ـ **سجستان:** خرج بها حسكة بن عتاب الحبطي وعمران بن الفضيل البرجمي في صعاليك من العرب عند انقضاء الجمل ؛ فبعث أمير المؤمنين عبد الرحمن ابن جرو الطائي فقتله حسكه ، فوجه والي البصرة عبد الله بن العباس رضي الله عنهما إلى سجستان ربعي بن كأس العنبري فظهر على حسكة وعمران ، وأقام بها حتى استشهاد علي رضي الله عنه [٢] .

ـ **البحرين:** استعمل عليها النعمان بن عجلان الزرقي الأنصاري[٣] .

ـ **المدائن:** ولاها ثابت بن قيس بن الخطيم الأنصاري[٤] .

ـ **الجند:** ولاها سعيد بن سعد بن عبادة الساعدي الأنصاري[٥] .

ـ **فارس:** ولاها سهل بن حنيف لكن أهلها أخرجوه منها[٦] .

---

(١) ابن خياط ، تاريخ ، ٢٠٢ .

(٢) خراسان وسجستان ، ابن خياط ، تاريخ ، ١٩٩ .

(٣) الطبري ، تاريخ ، ٤٤٢/٤ ، ٤٨٠/٤ .

(٤) الخطيب ، تاريخ بغداد ، ١٨٨/١ ، ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ٣٧٣/٣ .

(٥) ابن خياط ، تاريخ ، ٢٠١ ، ابن حبان ، الثقات ، ٢٣٣/٢ .

(٦) ينظر: الخليفة ، الأنصار ، في العصر الراشدي ، ١٥٨ .

ـ **الشـــام:** ولاها سهل بن حنيف لكنه لم يصل إليها ، حيث لقيته خيـــل أهــل الشام بتبوك فردوه فعاد إلى المدينة وذلك في بداية خلافة علي رضي الله عنه [(١)] .

وبعد معرفة الولاة الذين استعملهم أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وقبل متابعة مـــا فعله بعد تعيينه الولاة وخروجه من المدينة ، لا بد من التوقف عند ظاهرة العـــزل المتكرر لهؤلاء الولاة ، ومعرفة أسباب ذلك وهل هو عائد إلى عدم اهتمام أولئـــك الولاة بالجانب السياسي والإداري ، أم لضعف كفاءاتهم الإدارية ؟ فلماذا لم ينجـــح سهل بن حنيف في الوصول إلى الشام مثلا ؟ ولم يتمكن من إثبات إدارته في إقليـم فارس ؟ .

ولماذا لم ينجح عثمان بن حنيف في البصرة ؟ وأبو قتادة الأنصاري في مكة ؟ ولماذا انسحب أبو أيوب من المدينة أمام جيش الشام الذي دخل المدينة فيما بعـــد؟ ولماذا لم يستقر كثير من الولاة الآخرين ؟ كل هذا يدعو إلى التساؤل ، وذلك لعـدم وجود سبب ظاهــر يسوغ هذه الظاهرة ، إذ أن كثيرا من هـــؤلاء الــولاة لديـــهم خبرات سياسية ومشاركات إدارية منذ عصر الرسالة .

ومما يثير التساؤل عن هذه الظاهرة أيضا ، أن أكثر هؤلاء الولاة من الأنصار الذين كان النبي صلى الله عليه وسلم يستعين بهم في أداء أصعب المهام وأكثرهـــا تعقيـدا فكـانوا يظهرون من الكفاءات النادرة ما يثير الإعجاب والتقدير .

وحتى في أيام علي ومعاوية رضي الله عنهما ، كان هناك من الأنصار قـــادة سياسيون وإداريون بارعون ، ففي جانب أمير المؤمنين علي رضي الله عنه كان هناك قيـس ابن سعد بن عبادة ، الذي تمكن من تثبيت سلطان أمير المؤمنين علي فـــي مصــر وأعجز بسياسته وإدارته معاوية وعمرا رضي الله عنهما مع كل ما يمتلكانه مـــن الخبرات والممارسات السياسية والإدارية ، كما سيتضح ذلك .

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٢٤٢/٤ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٤٠/٧ .

وفي جانب معاوية برز فضالة بن عبيد الأنصاري ، قائدا وقاضيا ناجحا حتى نال إعجاب معاوية وثناءه عليه بقوله : « جزاك الله خيرا علـــى المعاونـــة علـــى الحـــق »[1] .

وكذلك كان النعمان بن بشير سياسيا وإداريا ناجحا ، عمل واليا لمعاوية علـــى الكوفة[2] المعروفة بكثرة فتنها وشغبها على الولاة ، فكـــان عـــاملا مـــن عوامـــل الإستقرار ، وعمل واليا على حمص فأثنى عليه معاوية ومدحه الشعراء[3] .

ومسلمة بن مخلد الأنصاري أول من جمعت له مصر وما والاها مـــن بـــلاد المغرب وذلك في عصر معاوية رضي الله عنه ، واستمر واليا على مصر إلى ما بعد وفـــاة معاوية رضي الله عنه ، فأثبت كفاءة نادرة [4] .

فإذا ثبت نجاح هؤلاء الولاة والقادة من الأنصار فما هي الأسباب التي حـــالت دون نجاح الآخرين وأدت إلى ضعف أدائهم السياسي ونزع حماسهم الإداري ؟.

ـــ والذي يبدو في هذه الظاهـــرة أن هناك أكثـــر من سبب ، ولعل من أهمـــها: أن الفتنة بظلالها القاتمة أثرت على رؤية بعـــض الأنصار ، ونزعت حماستـــــهم في المشاركة بأحداث تلك المرحلة ، بل لجوء بعضهم إلى العزلة والإجتـــهاد فـــي العبادة خـــوفا على سلامـــة ما مضى من جهـــادهم وتضحيـــاتهم إذ أن الخـــلاف كان بين المسلمين ، والأحـــاديث التي تدعو إلى اعتـــــزال الفتـــن الداخلـــية كثيـــرة وهي معروفـــة لديهم ، كما اتضـــح ذلك في تصـــور الصحابـــة للفتـــنة ولا سيـــما أن الـــولاة الـــذين لوحـــظ عليهـــم فتـــور أدائـــهـــم السياســـي هـــم

---

(١) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ١٤٠/٥ .

(٢) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ٢٢/٥ ، ابن الأثير ، أسد الغابة ، ٢٣٦/٣ .

(٣) ابن سعد ، الطبقات ، ٣٨٧/٢ ، البلاذري ، فتوح البلدان ، ٣٢٠ .

(٤) ابن سعد ، الطبقات ، ٢٣٣/٧ ، ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ٢٣٣ ، ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ٥٤/٥٨.

من كبار الصحابة رضي الله عنهم[١] .

ـ الذين كان حبهم للجهاد في سبيل الله ونشر الإسلام ، يفوق رغبتهم في العمل الإداري أو السياسي ، ولا سيما في فترة يتنازع فيها المسلمون فيما بينهم ، مما أسهم في إيجاد العزوف عن المشاركة الفاعلة في الجوانب السياسية والإدارية .

ـ وهناك عامل داخلي يبدو أنه لا يقل فاعلية عما سبق ذكره ، وهو عدم استقرار الأقاليم التي كانت تخضع لإدارة الخليفة علي رضي الله عنه ، ولا أدل على ذلك من ترك عبد الله بن العباس عمله في البصرة في نهاية المطاف[٢]، مع كل ما يتصف به من كفاءة وقرب من أمير المؤمنين علي .

ـ ولعل السبب الأهم من كل ما سبق ، في خلق تلك الأجواء ، هو وجود السبئية والغوغاء في الولايات والأمصار التابعة لأمير المؤمنين علي رضي الله عنه ممن أسهموا في التحريض على الخليفة عثمان رضي الله عنه وولاته ، والذين واصلوا ما اعتادوه من الشغب على الولاة ، ونشر الشائعات، ونقل الوشايات بين المسلمين ، والبحث عن عيوب الولاة وترويجها والزيادة عليها ، كما كانوا يفعلون مع ولاة الخليفة السابق . مما كان له أسوأ الأثر على الاستقرار والثقة بين عامة الناس وقادتهم .

ـ والظاهرة الأخرى التي تظهر على ولاة أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ، هي ضعف وجود قريش بينهم فيما عدا أبناء العباس ، مع ما هو معلوم من قوة قريش الأدبية ومكانتها الاجتماعية في النفوس ، فضلا عن الأحاديث الصحيحة التي نوهت بتلك المكانة ، وأشارت إلى تقديم قريش وأن هذا الأمر في قريش ، كما سبق تفصيل ذلك في حديث الأئمة من قريش . ولم يتوقف الأمر عند عدم استعمال ولاة

---

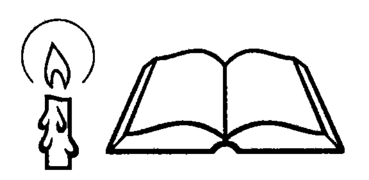
(١) الطبري ، تاريخ ، ٤/٤٨٤ . ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٧/٢٤١ .

(٢) ينظر: الطبري ، تاريخ ، ٥/١٤١ ، وهناك خلاف حول خروج عبد الله بن العباس إلى مكة وتركه عمله إذ روي أنه لم يزل بالبصرة عاملا عليها حتى صالح الحسن بن علي معاوية رضي الله عنه .

من قريش من قبل أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ، بل إنه أصر على الاستغناء عن كل ولاة الخليفة عثمان رضي الله عنه والذين كان أكثرهم وأشهرهم من قريش بما فيهم معاوية ولم يقبل مشورة أصحاب التجربة في هذه المسألة ، ولا سيما ما أشار به المغيرة ابن شعبة وعبدالله بن عباس رضي الله عنهما[1] .

ـ ويبدو أن هذا الجانب كان له أثر مباشر على ما يمكن تسميته بتوازن القوى في تلك المرحلة ، ففي الوقت الذي استغنى أمير المؤمنين عن خدمات قريش فأسهم في ضعف مساندتها له ، أستغل ذلك والي الشام معاوية فقدم قريشا وأكرمها ، فنال بذلك مؤازرتها ، التي كان لها دور مهم في ترجيح جانبه ، وتقوية عزيمته ، حتى أشار معاوية إلى ذلك بقوله: « **وكنت أحب إلى قريش منه ، فيا لك من جامع إلي ومفرق عنه !** »[2] .

ـ وقد يكون خروج أمير المؤمنين علي رضي الله عنه من مدينة الرسول ﷺ عاملا آخر أسهم في إضعاف الحماسة السياسية عند كثير من الناس ولا سيما الولاة فكان مع ما قبله سببا في تردد البعض منهم، وعزل آخرين واستبدالهم .



(١) الطبري ، تاريخ ، ٢١٢/٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٤٠/٧ .

(٢) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ٣٤٣/٤ .

قرار أمير المؤمنين علي رضي الله عنه الخروج
من المدينة والموقف منه

لم يكن المسلمون يؤيدون خروج الخليفة من المدينة ، ولا سيما الأنصار الذين كان منهم الكثير من الولاة. اتضح ذلك عندما أراد أمير المؤمنين علي رضي الله عنه الشخوص إلى الشام « يزور أهلها وينظر ما رأي معاوية وما هو صانع »[1]. وأصبح أمير المؤمنين يرى أن المدينة لم تعد تمتلك المقومات التي تمتلكها بعض الأمصار في تلك المرحلة ولا سيما الكوفة فقال: « إن الرجال والأموال بالعراق»[2]

فلما شعر أبو أيوب الأنصاري بهذا الميل الذي يحسه الخليفة ، أفصح له عن رؤيته وأشار عليه فقال: « يا أمير المؤمنين ، لو أقمت بهذه البلاد ، لأنها الدرع الحصينة ، ومهاجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبها قبره ومنبره ، ومادة الإسلام ، فإن استقامت لك العرب ، كنت كمن كان ، وإن تشعب عليك قوم رميتهم بأعدائهم وإن ألجئت حينئذ إلى السير سرت وقد أعذرت ... فأخذ الخليفة بما أشار عليه أبو أيوب رضي الله عنه ، وعزم على المقامة بالمدينة »[3]. وذلك في بداية خلافته ، ثم بعث الولاة إلى الأمصار كما اتضح ذلك، ومن هذا يتبين رؤية الخليفة ، فيما لو استقامت له الأمور ويظهر موقف أهل المدينة من ذلك ، من خلال ما أشار به أبو أيوب الذي بنى مشورته على تجارب ماضية ، كانت المدينة فيها هي مركز القوة بكل معانيها في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده. ونظرا لسداد هذه الرؤية وصحتها أخذ بها أمير المؤمنين علي رضي الله عنه[4]. ولكن مقتل الخليفة عثمان

---

(١) ينظر: ابن حبان ، الثقات ، ٢/٢٨٣ ، ابن أعثم ، الفتوح ، ٢/٢٤٥ .

(٢) المصدر نفسه . (٣) المصدر نفسه .

(٤) المصدر نفسه .

ترك آثارا عميقة ، تغيرت على إثرها كثير من الموازين وحصلت كثير من المستجدات السياسية التي أرغمت الخليفة على الخروج من المدينة .

مسير أمير المؤمنين علي رضي الله عنه من المدينة

تبين أن عامة المسلمين لا يرغبون في استبدال عاصمة الخلافة الراشدة ، وأن أمير المؤمنين كان على مثل رأيهم .

ولكن بعد امتناع معاوية رضي الله عنه عن البيعة ؛ إلا بعد القصاص من قتلة الخليفة عثمان رضي الله عنه [١]، قرر الخليفة المسير إلى الشام ، لحل هذه المعضلة ، فأقبل على الإعداد والتهيؤ لذلك ، وخطب أهل المدينة ، فقال: « إن في سلطان الله عصمة أمركم، فأعطوه طاعتكم غير ملوية ولا مستكره بها والله لتفعلن أو لينقلن الله عنكم سلطان الإسلام ثم لا ينقله إليكم أبدا »[٢] .

وبينما هو على ذلك إذ جاء الخبر بمسير من سار من مكة إلى البصرة، فاستنفر الخليفة أهل المدينة للمسير معه ، فاستثقلوا ذلك[٣]، خوفا من تبعات القتال في الفتنة ، فبعث إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فدعاه للخروج معه ، فقال: « إنما أنا من أهل المدينة ، وقد دخلوا في هذا الأمر ، فدخلت معهم ، فإن يخرجوا أخرج معهم وإن يقعدوا أقعد ... فرجع ابن عمر إلى المدينة وهم يقولون: والله ما ندري كيف نصنع إن الأمر لمشتبه علينا ، ونحن مقيمون حتى يضيء لنا »[٤]

« ولما رأى علي من أهل المدينة ما رأى ، لم يرض طاعتهم حتى يكون معها

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٢١٦/٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٤٥/٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ٢١٧/٥.

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ١٠٥/٣ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٤٥/٧ .

(٤) الطبري ، تاريخ ، ٢١٨/٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٠٥/٣ .

نصرته قام فيهم وجمع إليه وجوه أهل المدينة ، وقال: إن آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما يصلح أوله ، فقد رأيتم عواقب قضاء الله عز وجل على من مضى منكم فانصروا الله ينصركم ويصلح لكم أمركم ، فأجابه رجلان من أعلام الأنصار ، أبو الهيثم بن التيهان ، وهو بدري ، وخزيمة بن ثابت ، وليس بذي الشهادتين ، مات ذو الشهادتين[1] في زمن عثمان ﷺ »[2]، ولكن هذه الرواية فيها نظر ، إذ إن كتب الطبقات ، وكتب الصحابة تؤكد أن أبا الهيثم بن التيهان مات سنة عشرين في خلافة عمر »[3] .

وأمام إلحاح أمير المؤمنين على الخروج معه ، أصبح أهل المدينة في وضع حرج وإرباك كبير ، إذ أنهم لم يعهدوا خروج الخلفاء من المدينة للقتال بأنفسهم فعندما أراد عمر ﷺ قيادة المسلمين بنفسه ، للجهاد في نهاوند ضد الفرس . عارضه أهل الرأي في المدينة وفي مقدمتهم علي ﷺ[4]، إذ أن هذا الأمر يقوم به وجوه المسلمين وقادتهم ، أما الخليفة فيبقى فئة وردئا للمجاهدين .

وهم يخشون أن لا تنجح مساعي الإصلاح التي خرج من أجلها طلحة والزبير رضي الله عنهما ، ومعهما أم المؤمنين رضي الله عنها ، وها هو أمير المؤمنين يدعوهم إلى ذلك ويزج بكل ثقله في هذا الباب ، فيتحول الأمر إلى قتال بين الأخوة وأنه إن حصل سيكون قتال فتنة ، وأن كبار الصحابة قد اعتزلوا هذا الأمر لهذه الغاية وللسلامة الظاهرة في العزلة . ومما زاد من تحرج موقف أهل المدينة الخشية من مخالفة ولي الأمر ، الذي يقود إلى معصية الله تعالى، إن لم يكن لديهم العذر المشروع والحجة المقبولة .

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٢١٨ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٤٦/٧ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) ابن سعد ، الطبقات ، ٢٧٧/٣ ، ابن عبد البر ، ١٧٧٣/٤ .

(٤) الطبري ، تاريخ ، ١٠/٥ ، ابن كثير ، ١١٥/٧ .

والأمر الآخر المهم الذي أفقد المسلمين القدرة على الاختيار والحركة وجـــود السبئية ومن خرج على الخليفة عثمان ﷺ، في جيش أمير المؤمنين « فاشتد على أهل المدينة الأمر فتثاقلوا »[١]، ولمْ يكن تثاقلهم رفضا لطاعة أمير المؤمنين ، ولكن لما يرون من « مكان النزاع والغوغاء فيهم »[٢]. « وأنهم قد اشتركوا في دم هـــذا الرجل - الشهيد عثمان - وأحلوا بأنفسهم »[٣] .

وليست المشكلة في اشتراكهم في قتل الخليفة عثمان ، ووجودهم فـــي جيـــش أمير المؤمنين علي فقط، بل فيما هو أشد من ذلك ، فهم لا يسمعون لأمير المؤمنين ولا يلتزمون بطاعته ، فقد خطب يوما في المدينة فقال: « يا أيها الناس ، أخرجـــوا عنكم الأعراب. وقال: يا معشر الأعراب الحقوا بمياهكم ، فأبت السبئية وأطاعـــهم الأعراب »[٤]. وروي إنما نادى مناديه: « برئت الذمة من عبد لم يرجع إلى مواليه، فتذامـــرت السبئية والأعراب ، وقالوا ، لنا غدا مثلها ، ولا نستطيع نحتـــج فيـــهم بشيء »[٥]. فهم لا يريدون أن يستقيم الأمر أو يتوحد الصف، لأن ذلك سيكون عونا لأمير المؤمنين على تنفيذ حكم الله تعالى فيهم ، فهم دائما مع الفتنة. فتشتتت الآراء وتشعبت الأمور ، فأورثت الحيرة والتثاقل ، وتفرق القوم وبعضهم يقـــول: « والله لأن ازداد الأمر ، لا قدرنا على هؤلاء الأشرار ، لنترك هذا إلى ما قـــــال علـــي أمثـــل »[٦]. أي تركه حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعـــها. وبعضـــهم يقـــول: «نقضي الذي علينا ولا نؤخـــره »[٧]، و « أن الأمـــر لا يستـــقيم ولهـــذه الغوغـــاء

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٢١٨/٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٤٥/٧ .

(٢) الطبري ، تاريخ ، ٢٤٦/٥ ، ٢١٠/٥ ، ٢١١/٥ ، ٢١٢/٥ .

(٣) المصدر نفســـه .

(٤) المصدر نفســـه .

(٥) المصدر نفسه ، ٢١٢/٥.

(٦) المصدر نفسه ، ٢١٢/٥.

(٧) المصدر نفسه ، ٢١٢/٥.

أمر »[1]. فكان استشهاد عثمان رضي الله عنه أمرا فضيعا ، زعزع استقرار الخلافة وشحن النفوس بالهواجس ، يزيد ذلك ويغذيه ، وجود الخوارج بين صفوف المسلمين فكثرت الاجتهادات ، وتعددت المبادرات .

وأمام هذه الأوضاع المتداخلة والفتن المتلاحقة ، قرر عبد الله بن عمر رضي الله عنهما المسير إلى مكة ليجاور بيت الله الحرام هناك « فخرج من تحت ليلته وأخبر أم كلثوم بنت علي - زوجة عمر بن الخطاب - بالذي سمع من أهل المدينة - واشتباه الأمور عليهم وقولهم: نحن مقيمون حتى يضيء ويسفر الأمر - وأنه يخرج معتمرا مقيما على طاعة علي ما خلا النهوض »[2] .

ولهذا توالت خطب أمير المؤمنين ، في أهل المدينة يحثهم على المسير معه لكنهم تثاقلوا للأسباب السابقة ، ومما يؤكد ذلك قوله يذكرهم أنه كان زاهدا في البيعة معرضا عنها لولا أنهم ألزموه بها « ثم استخرجتموني أيها الناس من بيتي فبايعتموني على شيء مني لأمركم ، وفراسة تصدقني ما في قلوب كثير منكم »[3] .

وقد اختلفت الروايات في تقدير عدد الذين ساروا مع الخليفة علي رضي الله عنه فروي أنه « خرج من المدينة في سبعمائة من الأنصار وورد الربذة »[4] .

وروى الطبري أن عليا رضي الله عنه خرج في تعبئته « التي كان تعبى بها إلى الشام وخرج معه من نشط من الكوفيين والبصريين متخففين في سبعمائة رجل »[5] .

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٢٢٠/٥.

(٢) الطبري ، تاريخ ، ٢١٨/٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٠٥/٣ .

(٣) ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ٣٠٧/١ .

(٤) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ٣٠/٣ ، ابن أعثم ، الفتوح ، ٤٥٠/٢ .

(٥) الطبري ، تاريخ ، ٢٢٤/٥ .

وقال ابن كثير في آخر شهر ربيع الآخر سنة ست وثلاثين ، خرج علي من المدينة في نحو من تسعمائة مقاتل »[1] .

أما كبار الصحابة فقد مال عامتهم إلى العزلة ، ولم يخرج من المدينة منهم إلا القليل ، وكان الشعبي يقول: « **بالله الذي لا إله إلا هو ما نهض في تلك الفتنة ، إلا ستة بدريين ما لهم سابع ، أو سبعة مالهم ثامن** »[2]، وقال: « **من حدثك أنه شهد الجمل ممن شهد بدرا أكثر من أربعة نفر فكذبه كان علي وعمار في ناحية ، وطلحة والزبير في ناحية** »[3]. وقال: « **إن جاؤوا بخامس فأنا كذاب** »[4] .

وقال ابن سيرين: « **هاجت الفتنة وأصحاب رسول الله عشرات الألوف ، فلم يحضرها منهم مائة بل لم يبلغوا ثلاثين** »[5] .

وعن ابن سيرين والشعبي قالا: « **وقعت الفتنة في المدينة ، وأصحاب النبي ﷺ أكثر من عشرة آلاف ، ما يعدون من خف فيها عشرين رجلا ، فسميا حرب علي وطلحة والزبير وصفين فتنة** »[6] .

فيتضح مما سبق أن عدد الصحابة الذين خرجوا مع الخليفة كان قليلا ، وأن خروجهم كان طاعة لأمير المؤمنين وللسعي في الإصلاح بين المسلمين ، ولم يكن لديهم أي حماسة لما جرى من أحداث داخلية ، وأن الروايات التي تزيد في أعداد من خرج من الصحابة مع أمير المؤمنين علي ، هي روايات مبالغ فيها ، فالرواية

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٤٦/٧ ، ابن حجر ، فتح الباري ، ك الفتن ، باب (١٨) شرح الحديث (٧١٠١) .

(٢) الطبري ، تاريخ ، ٤٤٧/٤ . ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٤٦/٧ .

(٣) ابن شبة ، تاريخ المدينة ، ٢٨١/١ .

(٤) ابن أبي شيبة ، المصنف ، ٧١٠/٨ ، ابن خياط ، تاريخ ، ١٦، البلاذري ، أنساب الأشراف ، ٦١/٣.

(٥) ابن خياط ، تاريخ ، ١٨٦ ، الذهبي ، الخلفاء الراشدون ، ٤٨٤ ، ابن شبة ، تاريخ المدينة ، ٢٨١/١ الجاحظ ، العثمانية ، ١٧٥.

(٦) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٦٥/٧.

التي تقول: « كنا مع علي أربعة آلاف من أهل المدينة »[1] مروية عن رجل مجهول لا يعرف اسمه ولا حاله .

ورواية أخرى قريبة من هذه ، لكن رواتها ميولهم العدائية للصحابة ظاهرة فهي ليست بأحسن حالا من الرواية المجهولة ، ذكرت أنه « كان مع علي يوم الجمل ثمان مائة من الأنصار ، وأربع مائة ممن شهد بيعة الرضوان »[2] .

والمتمعن في الروايات التي ذكرت من سار مع أمير المؤمنين من المدينة يجد تفاوتا في المواقف ، بين من يروي « فخفت معه الأنصار »[3]، ومن يروي « فاشتد على أهل المدينة الأمر فتثاقلوا »[4] .

فأما القول الأول فإنه يثير التساؤل عن هوية الذين خرجوا من المدينة وأنهم من الأنصار ، ولكن هناك روايات أخرى لم تبين هوية من كان مع أمير المؤمنين. فقد روى ابن حبان أنه « خرج علي من المدينة معه ستمائة رجل »[5] .

ورواية أخرى حددت هوية من سار مع أمير المؤمنين رضي الله عنه ، بأنهم من غير الأنصار وفيها « خرج معه من نشط من الكوفيين والبصريين متخففين في سبعمائة رجل »[6] .

والذي يظهر في هذه الرواية أنها أقرب إلى واقع تلك المرحلة ، وأكثر انسجاما مع سير الأحداث ، ومع موقف أهل المدينة الذي كان يتراوح بين الميل للعزلة والتثاقل عن المشاركة في الأحداث الداخلية .

---

(١) المصدر نفسه ، ١٨٤ ، ٤٨٤.

(٢) المصدر نفسه .

(٣) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ٣٠/٣ ، ابن أعثم ، ٤٥٠/٢ .

(٤) الطبري ، تاريخ ، ٢١٨/٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٤٥/٧ .

(٥) ابن حبان ، الثقات ، ٢٨٣/٢.

(٦)الطبري، تاريخ، ٢٢٤، ابن كثير،البداية والنهاية،٢٤٦/٧،وذكر تسعمائةمقاتل ولم يبين هويتهم.

ولو كان هذا العدد كله من الأنصار حقيقة ، لكانت آثارهم ظاهرة في الأحداث ولكان منهم شهداء أو جرحى أو أعلام بارزون ، كما هو شأن الأنصار في الملمات، ولكن لا يوجد لهم ذكر ظاهر في أحداث البصرة قبل مسير أمير المؤمنين ولا بعده ، وعلى هذا لا يمكن التسليم بصحة هذه الرواية ، كما لا يمكن ردها وإنما يمكن الجمع بينها وبين الرواية التي ذكرت أن جميع من خرج مع أمير المؤمنين هم من الكوفيين والبصريين ، فيقال على الرغم من ظاهرة الاعتزال والتثاقل التي سادت في المدينة ، بعد قرار أمير المؤمنين رضي الله عنه المسير منها إلى الشام أو إلى البصرة ، فإن هناك كثير من الولاة الأنصار ، وهذا يشير إلى حرص الخليفة على مشاركتهم في حمل أعباء المرحلة الجديدة ، كما يعكس ما يحس به من غياب قريش عن مشاركته فيما يجري ، مما يوضح عمق المصاب الذي ترك آثاره في كل شيء ، ولما غابت قريش فلا يسد مكانها إلا الأنصار .

وعلى هذا يمكن القول: أن الأنصار قد شاركوا أمير المؤمنين عليا رضي الله عنه في تحمل أعباء الخلافة وأن الثقة بينه وبينهم كانت قائمة كما كانت مع من قبله من الخلفاء، ولكن غموض ما يجري في كثير من جوانبه ، نزع حماسة الأنصار المعهودة عنهم ، في التحمل والصبر والتضحية والإقدام. فلم يكن حضورهم يمثل عددهم ، ولا يتناسب مع حاجة الخليفة إليهم في تلك المرحلة .

ومما يمكن توضيحه أيضا أثر المجلبين على الخليفة الشهيد عثمان رضي الله عنه ووجودهم في المدينة ومسارعتهم للخروج مع الخليفة ، لا لنصرته لأنه لم يخرج قاصدا القتال ، وإنما خرج لجمع الكلمة والإصلاح بين الناس . وهذا ما يخشاه الخوارج ، وأوجب عليهم القرب الشديد من أمير المؤمنين للتأثير على أي مشروع إصلاحي ينشأ بعد ذلك المسير ، وأن العدد المذكور بسبعمائة أو تسعمائة قريب جدا ممن تبقى منهم في المدينة إذ أن كثيرا من الكوفيين والبصريين قد عادوا إلى

بلادهم، ولعل ما قام به حكيم بن جبلة ومن معه من الغوغاء من الشغب والقتال لدعاة الإصلاح الذين هم من طبقة أمير المؤمنين علي رضي الله عنه والذين كانوا أولى الناس للقيام بهذه المهمة العظيمة، لولا ما قام به هذا الخارجي من الشغب عليهم والقتال لهم حتى قتله الله تعالى ، يؤكد ذلك ويوضحه .

ويبين مدى تغلغل الخوارج وتأثيرهم على التوجهات السياسية وصناعة الأحداث في تلك المرحلة ، يساعدهم على ذلك ، تواصلهم مع بعضهم البعض ، في الكوفة والبصرة ومصر ، بالرسائل والمبعوثين ، وتمسكهم بالتقية والسرية واستعانتهم وتحفزهم الدائم لتغذية كل فتنة وتسعير كل حرب ، وإفساد كل صلح وتقارب ، والعمل الدؤوب على تعطيل إقامة الحدود وتنفيذ القوانين ، لأنها ستطالهم وتخضعهم للمحاسبة .

أما تثاقل أهل المدينة عن المسير مع أمير المؤمنين خارج المدينة فهناك العديد من الأمور التي تؤكده ، منها:

ـ خطب أمير المؤمنين نفسه التي شكا فيها من هذا التثاقل[1].

ـ ولزوم كثير من أهل بدر بيوتهم بعد استشهاد عثمان رضي الله عنه وعدم مشاركتهم فيما يجري من أحداث[2] .

ـ والأثر النفسي العميق الذي تركه ذلك الحدث، حتى أن بعض الصحابة عبر عن ذلك بقوله: اللهم لك علي أن لا أضحك حتى ألقاك[3] .

ـ وأيضا فإن مسير أمير المؤمنين الذي كان يبتغي منه الإصلاح وتوحيد الصف لم يكن مضمون النتائج ، فإن احتمال القتال وارد، ولا سيما أن الخوارج السبئيين لا زالوا يتخللون الصفوف ولم يخضعوا للمحاسبة .

---

(١) ينظر: ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ٣٠٧/١.

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٦٤/٧.

(٣) الذهبي ، الخلفاء الراشدون ، ١٨٣.

وجهة أمير المؤمنين ومقصده بعد الخروج من المدينة

بعد أن بويع أمير المؤمنين بالمدينة ، رغب بالتوجه إلى الشام لكن أبا أيـوب الأنصاري ﵁ رغبه بالبقاء في المدينة بعد أن ذكره بمزاياها ، فاقتنع بالإقامة فيها وعدل عن الخروج منها .

ولكن بعد امتناع معاوية عن البيعة ، إلا بعد القصاص من قتلة عثمـان ﵁ رأى أن الكوفة هي أنسب مكان لإقامة الخليفة في تلك المرحلة ، يؤكد ذلك ، أنه لما علم بمسير من سار من مكة إلى البصرة هان عليه الأمر ، لأن أمير المؤمنين ﵁ كان يعتقد أن الكوفة أكثر أموالا ورجالا من غيرها من الأمصار الإسلامية ، وأنها موطن كثير من بيوتات ورجالات العرب ، تلك الميزة التي رغبت أمير المؤمنيـن بالكوفة، لكنها ساءت ابن عباس الذي عبر عن ذلك بقوله: « إن الكوفة فسطاط فيـه من أعلام العرب ولا يحملهم عدة القوم ، ولا يزال فيها من يسمو إلى أمر لا ينالـه فإذا كان كذلك شغب على الذي قد نال ما يريد حتى تكسر حدته فقـال علـي: إن الأمر ليشبه ما تقول »[٤]. ولكن مسير طلحة والزبير رضي الله عنهما إلى البصـرة زاد من اقتناع الخليفة بوجوب التوجه إليها والحصول على مساندتها ، لأنها مكـان وسط بين الشام والبصرة ، فضلا عن الميزات الأخرى .

لذلك قرر المسير إليها على الرغم من كراهية أهل المدينـة لخروجـه منـها وتثاقلهم عن المسير معه ، ومعارضة الحسن بن علي رضـي الله عنـهما لذلـك حيث دخل على أبيه قبل خروجه « ودعاه إلى القعود وترك الناس »[٢]. « وقد لقي عبد الله بن سلام عليا وهو بالربذة ، فأخذ بعنان فرسه ، وقال: يا أمير المؤمنيـن

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ١٠٥/٣ . وينظر: الطبري ، تاريخ ، ٢٣٩/٥ .

(٢) الطبري ، تاريخ ، ٢١٧/٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٠٤/٣.

لا تخرج منها فو الله لئن خرجت منها لا يعود إليها سلطان المسلمين أبدا »[1] .

ولكن أمير المؤمنين رضي الله عنه، كان يرى نفسه ملزما بما يقوم به، وأن من واجبه بذل الجهد لتدارك أوضاع الأمة كما كان يرى ذلك طلحة والزبير وأم المؤمنين رضي الله عنه .

لهذا خرج من المدينة - ولم يرو أنه عاد إليها بعد ذلك - فأقام في الربذة حتى استكمل استعداداته ، وأرسل مبعوثيه إلى الأمصار يستنفر أهلها لمساندته ، لما له عليهم من حق الطاعة والمعاونة . ثم تابع مسيره على طريق الكوفة ، من الربذة إلى فيد إلى الثعلبية ، حتى إذا اقترب من الكوفة مال إلى ذي قار ، بين الكوفة والبصرة ، ولعل ما حصل في الكوفة من قلاقل وفتن أثارها حكيم بن جبلة ومن معه من الغوغاء ضد طلحة والزبير رضي الله عنهما وتوسع ذلك إلى قتال وقع فيه كثير من القتلى ، هو الذي دعا أمير المؤمنين إلى التوجه إلى ذي قار ونزوله فيها ينتظر وصول أمداد الكوفة ، التي أرسل إليها لكي يسير بقوة قادرة على حفظ الأمن ونشر الاستقرار وإطفاء الفتن .

موقف أبي موسى الأشعري رضي الله عنه

استشهد عثمان رضي الله عنه وواليه على الكوفة أبو موسى الأشعري فلما بويع لعلي رضي الله عنه ، كتب له أبو موسى بطاعة أهل الكوفة وبيعتهم ، وبين الكاره منهم للذي كان والراضي به ، ومن هو بين ذلك ، حتى كأن عليا على المواجهة من أمر أهل الكوفة[2]، فبقي واليا عليها ، فلما نزل أمير المؤمنين الربذة ، أرسل إلى الكوفة محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر يستنفرا أهلها ، فجاء الناس إلى أبي موسى

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٤٦/٧ ، الطبري ، تاريخ ، ٢٢٤/٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١١٤/٣.

(٢) الطبري ، تاريخ ، ٢١٦/٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٤٧/٧ .

يستشيرونه في الخروج. فقال: أما سبيل الآخرة فأن تقيموا ، وأما سبيل الدنيا فأن تخرجوا ، وأنتم أعلم. فلما بلغ مبعوثي أمير المؤمنين قول أبي موسى رضي الله عنه ، باينله وأغلظا له ، فقال: **أما والله إن بيعة عثمان في عنقي وعنق صاحبكما الذي أرسلكما إن أردنا أن نقال ، لا نقاتل حتى لا يبقى أحد من قتلة عثمان إلا قتل حيث كان**[١]. وهذا ما يعكس الأثر العميق والصدى الواسع الذي تركته فعلة الآثمون من الخوارج السبئية على وحدة الصف وجمع الكلمة . وقد كان أبو موسى لا يرى القتال يحل إلا ضد الخوارج ، الذين استباحوا الدم المسلم وفيما سوى ذلك فهو يرى العزلة وهو على استعداد لترك منصبه واليا على الكوفة ، وأن يضحي بكل شيء اتباعا لما توصل إليه اجتهاده وعلمه ، وهو يعتقد أن أي تجمع لغير هذه الغاية لا يجوز مع علمه أن أمير المؤمنين لم يكن يدعو إلى القتال ، وإنما دعاهم أن يكونوا لدين الله أنصارا وقال: « أيدونا وانهضوا إلينا فالإصلاح ما نريد ، لتعود الأمة إخوانا »[٢] .

وهذا لا يختلف عن موقف أبي موسى في الإصلاح ، فقد سأل أمير المؤمنين أحد أهل الكوفة عما وراءه فقال: « إن أردت الصلح فأبو موسى صاحب ذلك ... قال: والله ما أريد إلا الإصلاح »[٣]. لكن أبا موسى كان يرى أي نفير ؛ سيقود إلى القتال بين المسلمين ، ومذهبه في ذلك العزلة ، إلا إذا كان ذلك النفير ضد الخوارج وهذا هو ما ذهب إليه طلحة والزبير رضي الله عنهما فيما قاما به .

ولما لم يجب أهل الكوفة مبعوثي أمير المؤمنين إلى الخروج ، أرسل إليهم عبد الله بن عباس والأشتر النخعي ، فكلما أبا موسى فلم يجبهما ، وجمع أهل الكوفة فخطبهم وقال: « يا أيها الناس إن أصحاب النبي ﷺ الذين صحبوه في

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٢٣٥/٥ ، ٢٤٧/٧ .

(٢) الطبري ، تاريخ ، ٢٤٠/٥ ، ٢٤٢/٥ . ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٤٧/٧ .

(٣) المصدر نفسه ، ٢٤١/٥ ، ٢٤٧/٧ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١١٥/٣ .

المواطن أعلم بالله عز وجل وبرسوله ممن لم يصحبه ، وإن لكم علينا حقـــا فأنـــا مؤديه إليكم ، كان الرأي ألا تستخفوا بسلطان الله عز وجل ، ولا تجرؤا علـــى الله عز وجل ، وكان الرأي الثاني: أن تأخذوا من قدم عليكم من المدينة فتردوهم إليـــها حتى يجتمعوا، وهم أعلم بمن تصلح له الإمامة منكم ، ولا تكلفوا الدخول في هـــذا فأما إذا كان ما كان فإنها فتنة صماء ، النائم فيها خير مـــن اليقظـــان ... فكونـــوا جرثـــومة - أصلا - من جراثيم العرب ، فأغمدوا الســـيوف ، وأنصلـــوا الأســـنة واقطعوا الأوتار ، وآووا المظلوم والمضطهد ، حتى يلتـــئم هذا الأمر ، وتتجلـــي الفتنة))[١] .

فأبو موسى رضي الله عنه يرى أن كل ما أصاب الأمة ، هو بســـبب التطـــاول علـــى الخليفة الشهيد عثمان رضي الله عنه ، لذلك عمل الخوارج ومن تعاطف معهم علـــى إبعـــاد الصحابة رضي الله عنهم عن مصدر القرار والشورى في الخلافة ، وما دام أمر الخوارج قـــد تم ونفذ فيه أمر الله تعالى ، فأسلم الأمور لأهل الكوفة أن يكونوا أداة سلم وصلـــح ومأوى للمظلوم والمضطهد حتى يجمعوا شمل الأمة ، وتزول هذه المحنة وتعـــود الأمور إلى ما كانت عليه .

فكان لطروحات أبي موسى وخطبه صدى قوي في الكوفة فيما سوى من لـــهم هوى مع الخوارج ممن تلوثت ضمائرهم وعقولهم ، بما كان ينشره ابن السوداء من أفكار الفتنة وسموم الشعوبية .

إلا أن حاجة الخليفة لأهل الكوفة لتدارك الأمور وإعادة هيبة الخلافـــة كـــانت أقوى مما يراه أبو موسى ، مما اضطره إلى إرسال ولده الحسن بن علي وعمار بن ياسر رضي الله عنهما إلى الكوفة ، فأقبلا حتى دخلا المسجد ، فخرج أبو موســـى فلقي الحسن فضمه إليه ، وأقبل على عمار فقال: يا أبا اليقـــظان ، أعدوت فيمـــن

---

(١) المصدر نفسه ، ٢٤٢/٥ ، ٢٤٨/٧ .

عدا على أمير المؤمنين ؟ فأحللت نفسك مع الفجار ! فقال: **لم أفعل .**

ثم قال الحسن رضي الله عنه ، يا أبا موسى ، لم تثبط الناس عنا ؟ فوالله ما أردنا إلا الإصلاح ولا مثل أمير المؤمنين يخاف على شيء ، فقال: صدقت بأبي أنت وأمي ولكن المستشار مؤتمن، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشي ، والماشي خير من الراكب »[1]. قد جعلنا الله عز وجل إخوانا ، وحرم علينا أموالنا ودماءنا ، وقال: « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ... ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما »[2]، وقال عز وجل « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم »[3]. فلم يغير أبو موسى من موقفه. وأثار زيد بن صوحان وطبقة الغوغاء لغطا في المسجد ، فجعل أبو موسى رضي الله عنه يكفكف الناس ويسكنهم .

وتكلم زيد بن صوحان ، وذكر خروج أم المؤمنين رضي الله عنها ، فقام إليه شبث بن ربعي ، فقال له: سرقت بجلولاء فقطعك الله ، وعصيت أم المؤمنين فقتلك الله ![4] ما أمرت أم المؤمنين إلا بما أمر الله عز وجل به الإصلاح بين الناس فسكنهم أبو موسى ، وأخذ يدعوهم إلى السكون واعتزال الفتنة ، ويحذرهم من العواقب ويقول: « إنا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أعلم بما سمعنا إن الفتنة إذا أقبلت شبهت وإذا أدبرت بينت ، وإن هذه الفتنة باقرة كداء البطن تجري بها الشمال والجنوب والصبا والدبور ، فتسكن أحيانا فلا يدرى من أين تؤتى ، تذر الحليم كابن أمس . فقام زيد بن صوحان وقد رفع يده المقطوعة فرد على أبي موسى ، ثم دعا إلى

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٢٤٣ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٤٨/٧.

(٢) سورة النساء ، من الآية ، (٢٩) .

(٣) سورة النساء ، من الآية، (٩٣) .

(٤) الطبري ، تاريخ ، ٢٤٣/٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١١٦/٣ .

الإلتحاق بأمير المؤمنين رضي الله عنه [١]. **فقام القعقاع بن عمرو التميمي فقال:** « إني لكم ناصح ، وعليكم شفيق ، أحب أن ترشدوا ولأقولن لكم قولا هو الحق ، أما ما قال الأمير - أي أبو موسى - فهو الأمر لو أن إليه سبيلا ، وأما ما قال زيد، فزيد في الأمر - أي في الفتنة - فلا تستنصحوه ، فإنه لا ينتزع أحد من الفتنة طعن فيها وجرى إليها ، والقول الذي هو القول، إنه لا بد من إمارة تنظم الناس ، وتزع الظالم وتعز المظلوم وهذا علي يلي بما ولي ، وقد أنصف في الدعاء ، وإنما يدعو إلى الإصلاح ، فانفروا وكونوا من هذا الأمر بمرأى ومسمع »[٢] .

ثم قام **الحسن بن علي** رضي الله عنهما فقال: « يا أيها الناس ، أجيبوا دعوة أميركم ، وسيروا إلى إخوانكم ، فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه ، والله لئن يليه أولوا النهى ، أمثل في العاجلة وخير في العاقبة ، فأجيبوا دعوتنا وأعينونا على ما ابتلينا به وابتليتم. فسامح الناس وأجابوا ورضوا به »[٣] .

ولكن أبا موسى لم يبدل من موقفه وبقي يحذر من العواقب ويردد قوله: « إنها فتنة باقرة كداء البطن ، أتتكم من قبل مأمنكم ، تدع الحليم فيها حيران كابن أمس»[٤] « استنصحوني ولا تستغشوني ، وأطيعوني يسلم لكم دينكم ودنياكم »[٥] .

ويروى أن الأشتر جمع غوغاء الكوفة فاقتحم قصر الإمارة بالكوفة ، وأبو موسى قائم بالمسجد « حتى جاءه غلمانه ينادون: يا أبا موسى ، هذا الأشتر قد دخل القصر فضربنا وأخرجنا ، فنزل أبو موسى فدخل القصر ، فصاح به الأشتر: أخرج من قصرنا لا أم لك ! أخرج الله نفسك ، فوالله إنك لمن المنافقين قديما »[٦] .

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٢٤٤/٥، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٤٨/٧، ابن الأثير ، الكامل ، ١١٧/٣.

(٢) المصدر نفسه . (٣) المصدر نفسه .

(٤) الطبري ، تاريخ ، ٢٤٥/٥.

(٥) المصدر نفسه ، ٢٤٤/٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١١٧/٣.

(٦) المصدر نفسه .

ولاجتناب هذه الصلافة والغلظة والجرأة على أصحاب محمد ﷺ ، كان أبو موسى رضي الله عنه ، يحذر من عواقب الفتنة ، لأنها ستكون سلما لظهور الأشرار والسفلة ممن لا يحل حلالا ولا يحرم حراما ، ولا يبالي أتوحدت الأمة أم تمزقت ، أرضي أصحاب محمد ﷺ أم غضبوا ، أوسد الأمر لأهله أم لغيرهم ، ما دام هو قد طلف على السطح ، وأتيح له التحدث في أمور المسلمين .

وبعد أن أصبح الأشتر وأضرابه يتحدثون بأمور الأمة ، ويعزلون أصحاب محمد ﷺ ، ويتهمونهم بالنفاق ويشتمونهم وينالون منهم ، بل ويفعلون أكثر من ذلك من استباحة دمائهم ، كما استباحوا دم الشهيد عثمان رضي الله عنه ومن دافع عنه من أبناء الصحابة رضي الله عنهم ، بعد كل ذلك حق لأبي موسى رضي الله عنه أن يعتزل ويصر على العزلة كما اعتزل إخوانه من قبله ، وأعذر من عرض نفسه للأخطار والمهالك ، وتصدى للخوارج السبئية ودعا لتتبعهم واجتثاث شرهم، لكي تبقى العزة لله ولرسوله للمؤمنين .

ولما اعتزل أبو موسى رضي الله عنه ، استجاب الناس لدعاة أمير المؤمنين في الكوفة فخرج إليه من أهلها تسعة آلاف[1]، منهم من خرج على الظهر في البر ومنهم من خرج في السفن، حتى قدموا على أمير المؤمنين بذي قار.

وروي عن محمد بن الحنفية قال: « أقبلنا من المدينة بسبعمائة رجل ، وخرج إلينا من الكوفة سبعة آلاف ، وانضم إلينا من حولنا ألفان ، أكثرهم بكر بن وائل ويقال ستة آلاف »[2]، ويقال: « خرج من الكوفة ستة آلاف »[3]. ويروى أن أمير المؤمنين دخل البصرة « في اثني عشر ألفا »[4]. فيتضح من هذه الروايات أن أمير

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٢٤٥/٥، ٢٤٦/٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٤٩/٧.

(٢) الطبري ، تاريخ ، ٢٥٨/٥ . (٣) الذهبي ، الخلفاء الراشدون ، ٢٥٩/٥ .

(٤) الطبري ، تاريخ ، ٢٥٩/٥ ، ٢٥٤/٥ .

المؤمنين علي رضي الله عنه كان في جيش تعداده ما بين تسعة آلاف إلى اثني عشر ألفا .

ومثلما قام في الكوفة أبو موسى الأشعري رضي الله عنه ، يحذر من الفتنة وما ستجره على الأمة من المآسي، قام في البصرة الصحابي **عمران بن حصين الخزاعي** رضي الله عنه واعظا ومحذرا ، وداعيا إلى الأخوة والألفة ونبذ الخلاف .

فكان يرسل إلى مساجد المسلمين بالبصرة من ينادي: « ألا إن أبا نجيد عمران بن الحصين يقرئكم السلام ، ويقول لكم: والله لئن أكون في جبل حضن مع أعنز خضر وضأن، أجز أصوافها ، وأشرب ألبانها ، أحب إلي من أن أرمي في شيء من هذين الصفين بسهم »[1]. فكان يرد على رسوله: « إنا لا ندع ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم لشيء أبدا »[2]. وممن اعتزل بقومه من أهل البصرة ، وحث على اعتزال الفتنة **الأحنف بن قيس التميمي** .

وكان يقول كيف أقاتل قوما فيهم أم المؤمنين وحواري رسول الله صلى الله عليه وسلم الزبير ؟ أو كيف أقاتل قوما فيهم ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاعتزل بالجلحاء على فرسخين من البصرة ، فاعتزل معه زهاء على ستة آلاف [3] .

ولقي هلال بن وكيع بن مالك بن عمرو التميمي ، الأحنف بن قيس ، فقال: ما رأيك ؟ قال: الإعتزال ، فما رأيك ؟ قال: مكانفة أم المؤمنين، أفتدعنا وأنت سيدنا ! قال: إنما أكون سيدكم غدا إذا قتلت وبقيت ، فقال هلال: هذا وأنت شيخنا! فقال: أنا الشيخ المعصي ، وأنت الشاب المطاع فاتبعت بنو سعد الأحنف ، فاعتزل بهم إلى وادي السباع ، واتبعت بنو حنظلة هلالا وتابعت بنو عمرو أبا الجرباء فقاتلوا [4] .

---

(١) الطبري ، تايخ ، ٢٥٦/٥.

(٢) المصدر نفسه .

(٣) الطبري ، تاريخ ، ٢٥٣/٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٥١/٧ .

(٤) المصدر نفسه ، ٢٥٧/٥ .

فيظهر مما سبق أن هناك معارضة لأي صـــدام عســكري بيــن المســلمين يشترك في ذلك الولاة وأمير المؤمنين وعامة المسلمين ، فيما سوى من شارك فــي الخروج على الشهيد عثمان رضي الله عنه . أو تأثر بدعايات الخوارج السبئية ، وأن دعـوى الإصلاح كانت هي شعار الجميع ورغبتهم .

وإذا لم يتحقق الإصلاح بشكل واضح وجلي ، فإن هناك من يعارض فرضـــه بالقوة إذ أن القوة بين المسلمين ستقود إلى الفتنة التي حذر منـــها رســول الله ﷺ فهم يفضلون العزلة ويدعون إليها ، ويرون أنها السبيل المضمون للنجاة من عواقب الفتنة وتبعاتها وأن هذا التوجه موجود في الكوفة والبصرة مثلما كان في المدينـــة وكان يدعو له كبار الصحابة رضي الله عنهم .

تساؤلات على الطريق

تبين أن عليا رضي الله عنه لم تكن لديه رغبة في تولي الخلافة،في مثل تلك المرحلة،ولو لم يجد نفسه ملزما بذلك لما قبل البيعة.وأن هناك من أقرب الناس إليه ، كان يرغب لو أنه تأنى أكثر في قبول البيعة،وفي مقدمتهم ابن عباس والحسن بن علي رضي الله عنهم.

ــ وعندما أراد الخروج من المدينة، وجد من ينصحه أن لا يغادرها أبدا لمــــا فيها من ميزات ، تعين وتساعد على إقامة الخلافة الراشدة واستمراريتها ، وكـــان من هؤلاء: أبو أيوب الأنصاري، وعبدالله بن سلام .

ــ وكان الخليفة رضي الله عنه يشاطر أولئك توجهاتهم هذه، ولكنه كان يرى أن المرحلة التي يمرون بها بحاجة إلى اجتهادات جديدة، نظرا لتجدد الأحوال والأحداث.

ولهذا لم يتشدد أمير المؤمنين في إلزام الناس بالخروج معه ، مراعيا لـــهذه التوجهات ، بل إنه قام بالربذة ، فقال: « من أحب أن يلحقنا فليلحقنا ، ومن أحب أن يرجع فليرجع ، مأذونا له غير حرج ، فقام الحسن بن علي فقال: يا أبت - أو يـــا أمير المؤمنين - لو كنت في جحر وكان للعرب فيك حاجـــة لاســتخرجوك مـــن

جحرك، فقال: الحمد لله الذي يبتلي من يشاء بما يشاء ، ويعافي من يشاء بما يشاء والله لقد ضربت هذا الأمر ظهرا لبطن - أو ذنبا ورأسا - فوالله إن وجدت له إلا القتال أو الكفر بالله »[1]. فلما لم يجد أمير المؤمنين في اجتهاده إلا الخروج من المدينة خرج ، ولما لم يجد طلحة والزبير إلا ذلك في اجتهادهما فعلاه .

ولما لم يجد سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر وزيد بن ثابت ومحمد بن مسلمة وصهيب الرومي ، وأسامة بن زيد ، وسعيد بن زيد ، وأبو موسى الأشعري والمغيرة بن شعبة وأمثالهم ﷺ ، إلا الاعتزال اعتزلوا ولم يبدلوا مواقفهم رغم الإغراءات، حيث عرضت على بعضهم الخلافة فلم يقبلها ، ولا أمام الضغوطات وما أسمعهم إياه الخوارج أيام الفتنة .

وقد يكون اعتزال كثير من الصحابة لما يجري من أحداث ، ومخالفة بعضهم لأمير المؤمنين في الإجتهاد ، واعتقادهم أن أول أولويات الخليفة آنذاك هو القصاص ممن أسهم في العدوان على الشهيد عثمان رضي الله عنه .

ـ هو الذي أبكى الحسن بن علي رضي الله عنهما ، ودعاه إلى أن يذكر الخليفة بما كان يشير به عليه ، ففي الربذة وبعد صلاة الفجر ، جلس الحسن إلى أمير المؤمنين، فقال: « قد أمرتك فعصيتني ، فتقتل غدا بمضيعة لا ناصر لك. فقال علي: إنك لا تزال تخن[2] خنين الجارية ! وما الذي أمرتني فعصيتك ؟ قال: أمرتك يوم أحيط بعثمان رضي الله عنه ، أن تخرج من المدينة فيقتل ولست بها ، ثم أمرتك يوم قتل ألا تبايع حتى يأتيك وفود أهل الأمصار والعرب وبيعة كل مصر ، ثم أمرتك حين فعل هذان الرجلان ما فعلا أن تجلس في بيتك حتى يصطلحوا ، فإن كان الفساد كان على يدي غيرك ، فعصيتني في ذلك كله ، قال: أي بني، أما قولك: لو خرجت

---

(١) المحب الطبري ، الرياض النضرة ، ٢/٢٣٢ .

(٢) يخن ، أي يخرج الصوت من خياشيمه لحالة البكاء . ابن الأثير ، الكامل ، ٣/١١٤.

من المدينة حين أُحيط بعثمان ، فوالله لقد أُحيط بنا كما أحيط به. وأما قولك: لا تبايع حتى تأتي ببيعة الأمصار ، فإن الأمر أمر أهل المدينة ، وكرهنا أن يضيع هذا الأمر . وأما قولك حين خرج طلحة والزّبير ، فإنّ ذلك كان وهناً على أهل الإسلام والله ما زلت مقهوراً مذ وليت ، منقوصاً لا أصل إلى شيء مما ينبغي. وأما قولك: اجلس في بيتك ، فكيف لي بما قد لزمني ! أو مَنْ تريدني ؟ أتريد أن أكون مثل الضبع التي يُحاط بها ، ويقال: دباب دباب - دعاء للضبع - ليست ها هنا ، حتى يحل عرقوبها ثم تخرج ، وإذا لم أنظر فيما لزمني من هذا الأمر ويعنيني فمن ينظر فيه !؟ فكُفّ عنك أي بُني »[1] .

ومثل هذا النص يظهر عمق المأساة التي أصابت المسلمين ، على أيدي الخوارج السبئية ، والشرخ الكبير الذي أحدثته في الصف الإسلامي ، حتى وصل التباين في معالجة نتائجه إلى الابن وأبيه ، كما حصل بين الحسن وعلي رضي الله عنهما. وبين الاخوة في الله الذين كانوا يقتدي بعضهم بعضاً في مواطن الخطر كما حصل بين علي وطلحة والزبير رضي الله عنهم ، أولئك الأبرار الذين لا يُذكر حدث بارز في عصر الرسالة أو العصر الراشدي إلا وهم في المقدمة، بين يدي رسول الله ﷺ وبين يدي الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم . حتى اعتذر بعض الصحابة رضي الله عنهم للخليفة ؛ عندما دعاه للخروج معه بقوله: « هذا أمر لم أره »[2]، وهذا ما يُبين عذر الصحابة الذين لم يسيروا مع الخليفة ، وعذر الصحابة الذين ساروا إلى مكة ثم إلى البصرة ، حتى لم تعد تسعهم الأرض على ما رحبت ، ما دام الآثمون القتلة يتحركون على ظهرها. وكذلك يوضّح عذر الخليفة رضي الله عنه ، في خروجه من المدينة وفيما اتخذه من

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٢٢٤/٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٤٦/٧ . وذكر أن الحسن قال ذلك في الطريق إلى الرّبذة . الهروي ، غريب الحديث ٤٦٦/١ ، ابن الأثير ، الكامل، ١١٤/٣.

(٢) البخاري ، مع شرحه فتح الباري ، ك الفتن ، ح (٧١١٠).

إجراءات وتدابير كان يرى أنه ملزمٌ باتخاذها لتلافي ما حصل .

ــ ومع كل هذا فقد كان الأمر مهولاً ومرعباً في فهم الصحابة رضي الله عنهم إذ أنّ هواجسهم وخشيتهم وخوفهم كان من نتائج ما يقومون به ، أهو المطلوب منهم القيام به أم غيره ؟ أأدّوا ما في أعناقهم لعقيدتهم ، أم أن هناك تقصيراً ؟ فكل ما يهمهم هو أداء ما في أعناقهم تجاه دينهم وأمتهم، والفوز برضا الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم .

لهذا كانوا في دوّامة من التفكير والنظر طوال أيام تلك المحنة ، خوفاً من أن تلفهم دوامة الفتنة ، التي يُصبح الرجل فيها يُبصر ولا يبصر ، ولا يدري أمقبل هو أم مدبر .

ــ وقد روي عن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه ما يُعبّر عن ذلك ، عن علقمة بن وقاص الليثي ، قال: « لما خرج طلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهم ، رأيت طلحة وأحبّ المجالس إليه أخلاها وهو ضارب بلحيته على زَوره - صدره - فقلت: يا أبا مُحمّد أرى أحب المجالس إليك أخلاها ، وأنت ضارب بلحيتك على زَوْرك ، إن كرهت شيئاً فاجلس. قال: فقال لي: يا علقمة بن وقّاص، بينا نحن يد واحدة على من سوانا إذ صرنا جبلين من حديد يطلب بعضنا بعضاً »[1] .

وإذا كانت أحداث تلك المرحلة قد بلغت من أبي محمد رضي الله عنه هذا المبلغ فلا شك أنها أحداث خطيرة ، كيف لا وهو رجل بلغ من صبره وشجاعته أن قيل عن يوم أحد ذلك يوم كله لطلحة ، وهو الذي سمّاه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد "طلحة الخير» ويوم حنين في غزوة هوازن « طلحة الجود » ويوم العسرة أي في غزوة تبوك «طلحة الفياض »[2] .

ــ إنّ الإشفاق على الأمة ، والخشية من الفتنة من جانب ، والخوف من التقصير

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٢٣٨/٥.

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٦٥/٧ .

في أداء ما يتوجب من حقوق الأخوّة بحق الشهيد عثمان رضي الله عنه ، أو التأخّر عن القصاص من القتلة والإبطاء في تطبيق حدود الله تعالى عليهم من جانب آخر .

كانت وراء ذلك الهم الذي يحمله طلحة والزّبير رضي الله عنهما ومن معهما من المسلمين ، وعلي رضي الله عنه على الرغم من أنه كان يشاركهم في ذلك الهمّ، ووجوب القيام به وتطبيق حدود الله تعالى ، لكنه كان يخالفهم في الوسيلة الموصلة إلى ذلك الهدف، درءاً للفتنة أكبر أو فساد أعمّ وأوسع .

ـ ومن مسيره إلى البصرة ، سأله عبد الله بن الكوّا وقيس بن عبّاد فقالا له: ألا تخبرنا عن مسيرك هذا الذي سرت فيه ، تتولى على الأمة تضرب بعضهم ببعض ، أعهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم عهده إليك ؟ فحدثنا فأنت الموثوق المأمون على ما سمعت فقال: أما أن يكون عندي عهد من النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك والله إن كنت أول من صدّق به فلا أكون أول من كذب عليه . ولو كان عندي من النبي عهد في ذلك ما تركت ، أخا بني تيّم بن مرّة وعمر بن الخطاب يقومان على منبره ، ولقاتلتهما بيدي ولو لم أجد إلا بُردي هذا ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقتل قتلاً ، ولم يمت فجأة مكث في مرضه أيّاماً وليالي ، يأتيه المؤذن فيؤذنه بالصلاة فيأمر أبا بكر فيصلي بالناس وهو يرى مكاني ، ولقد أرادت امرأة من نسائه أن تصرفه عن أبي بكر فأبى وغضب ، وقال: « أنتن صواحب يوسف ، مروا أبا بكر يصلي بالناس » فلما قبض الله نبيه صلى الله عليه وسلم نظرنا في أمورنا فاخترنا لدنيانا من رضيه نبي الله لديننا وكانت الصلاة أصل الإسلام وهي أعظم الأمر وقوام الدين فبايعنا أبا بكر ، وكان لذلك أهلاً ، ولم يختلف عليه منّا اثنان »[١] .

ـ ومن سلسلة التساؤلات التي تعرّض لها أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ، وهي تعبر

---

(١) الهندي كنز العمال ، ح (٣١٦٥٠) ، الذهبي ، الخلفاء الراشدون ، ٦٤٠ ابن تيمية ، منهاج السنّة ، ٤/٤٩٦.

عما يجول في الخواطر من هواجس الخوف من أن يحصل صراع بين المسلمين وليس الخوف فيه من الموت أو الخسارة العسكرية ، لأن جيل صدر الإسلام جيل مجاهد مقاتل لديه التجربة التامة لتدارك أي موقف يواجهون به في الحسابات العسكرية ، ولكن الغلبة في تلك المحنة ستكون لصاحب الحق ومن لديه العذر والحجة البالغة ، وهذا ما كان يحرص عليه الصحابة في جميع أطرافهم واتجاهاتهم في تلك المرحلة .

ـ ما سأله به رفاعة بن رافع بن مالك بن العجلان الأنصاري[١] ، لما أراد الخروج من الرّبذة ، فقال: « يا أمير المؤمنين ، أي شيء تريد ؟ وإلى أين تذهب بنا ؟ فقال: أما الذي نريد وننوي فالإصلاح ، إن قبلوا منا وأجابونا إليه، قال: فإن لم يجيبونا إليه ؟ قال ندعهم بعذرهم ونعطيهم الحق ونصبر ، قال: فإن لم يرضوا ؟ قال: ندعهم ما تركونا، قال: فإن لم يتركونا ؟ قال: امتنعنا منهم، قال: فنعم إذاً »[٢]

وكان معهم في ذلك المسير ، الحجاج بن غزية الأنصاري[٣]، فسمع تلك السلسلة من الأسئلة والإجابات ، فاطمأن إليها وارتاح لها ، وقال : لأرضينّك بالفعل كما أرضيتني بالقول. وقال:

دراكها دراكها قبل الفوت وانفر بنا واسْمُ بنا نحو الصوت

لا وألَتْ نفسي إن هبت الموت[٤]

ـ ولما قدم أهل الكوفة إلى أمير المؤمنين رضي الله عنه في ذي قار ، قام إليه أقوام من أهل

---

(١) ذكر الطبري أن السائل ابن لرفاعة بن رافع ، تاريخ ، ٥/٢٤٠، إلا أن رفاعة بن رافع لم يشهد له ابن ذلك المسير ولا غيره من مشاهد علي ، لهذا فإن السائل هو: رفاعة بن رافع نفسه ، ينظر: ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ٢/٤٩٧ .

(٢) الطبري ، تاريخ ، ٥/٢٤٠ .

(٣) وهو من بني النجار وله صحبة ، ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ١/٣٢٦ .

(٤) الطبري، تاريخ، ٥/٢٤١ ، ابن الأثير، الكامل، ٣/١١٥ ، ابن كثير، البداية والنهاية، ٧/٢٤٧.

الكوفة يسألونه عن سبب قدومهم ، فقام إليه فيمن قام الأعور بن بُنان المِنْقريّ فقال له عليّ رضي الله عنه: ((**على الإصلاح وإطفاء النائرة - العداوة - لعلّ الله يجمع شمل هذه الأمة بنا ويضع حربهم ، وقد أجابوني ، قال: فإن لم يجيبونا ؟ قال: تركناهم ما تركونا قال: فإن لم يتركونا ؟ قال: دفعناهم عن أنفسنا ، قال: فهل لهم مثل ما عليهم من هذا ؟ قال: نعم**))(١) .

وهذا التشابه في سلسلة هذه التساؤلات ، بين أهل المدينة وأهل الكوفة يوضّح أن المأساة واحدة ، وأن تطلعات المسلمين في كلّ الأمصار متشابهة وتُظهر الحرص الشديد على سلوك المنهج الصحيح دون أية شبهة أو غموض. كما أنّ إجابات أمير المؤمنين هذه تبيّن أنه يُخاطب أمّة واحدة بمنهجية واحدة ثابتة ، لا لبس فيها ولا انحراف ، فالمساعي كلها تهدف لمعالجة الأوضاع القائمة ، والخروج من المأزق الذي صنعه أعداء الأمة وعقيدتها ؛ من مبغضي الصحابة والمغرر بهم من الغوغاء .

وعلى الرغم من إجابات أمير المؤمنين الصريحة البيّنة ، فإنّ الأسئلة بقيت تُلقى عليه دون انقطاع ، مما يؤكّد التوجّس الذي يُخالج القلوب آنذاك من المجهول الذي ينتظر جموع أهل الكوفة والبصرة ، وكل واحد منهم يُريد أن يكون على بيّنة من أمره ، ولا سيّما إن حصلت مفاجآت لم تكن بالحسبان .

- وممن سأل أمير المؤمنين رضي الله عنه ، أبو سلامة الدّألاني فقال: ((**أترى لهؤلاء القوم حجّة فيما طلبوا من هذا الدم ، إن كانوا أرادوا الله عز وجل بذلك ؟ قال: نعم، قال: فترى لك حجّة بتأخيرك ذلك ؟ قال: نعم ، إنّ الشيء إذا كان لا يدرك فالحكم فيه أحوطه وأعمّه نفعاً ، قال: فما حالنا وحالهم إن ابتلينا غداً ؟ قال: إنّي لأرجو ألاّ يُقتل أحد نقّى قلبه لله منّا ومنهم إلا أدخله الله الجنّة**))(٢) .

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٢٥١/٥ .

(٢) الطبري ، تاريخ ، ٢٥٢/٥ . ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٥١/٧ .

ومن هذا يتبيّن أن المسلمين أمة واحدة من دون الناس ، فهذا الكوفي لا يكتفي بالسؤال عن حاله وحال قومه بل يسأل عن حال إخوانه من أهل البصرة إن حصل قتال ، فيسمع هو ومن معه الإجابة ، بأن كلّ امرئ في هذا الموقف عمله معلّق بنيّته ، وأن كل مسلم من الطرفين مرهون بصدقه وإخلاصه وأنّ الله تعالى مطلع على القلوب ويعلم ما فيها ، وأنّ الكل على حق في الظاهر والجميع إخوة دينهم واحد وخليفتهم واحد ، ولكن هناك خلافاً في الاجتهاد ، وهذا منتهى الإنصاف والعدل من أمير المؤمنين ، فهو لم يُفرّق بين من جاء إليه من أهل الكوفة ، وبين من قاده اجتهاده بعيداً عنه ، فالكل إخوانه وهم عنده في الحق سواء .

وقام إليه مالك بن حبيب ، فقال: « ما أنت صانع إذا لقيت هؤلاء القوم ؟ قال: قد بان لنا ولهم أنّ الإصلاح ، الكفّ عن هذا الأمر ، فإن بايعونا فذلك فإن أبو وأبينا إلا القتال فصدْع لا يلتئم ، قال: فإن ابتلينا فما بال قتلانا ؟ قال: من أراد الله عز وجل نفعه ذلك وكان نجاءه »[1] .

فهدف أمير المؤمنين الإصلاح وإطفاء الفتنة ، وأنّ القتال ليس وارد في تدابيره ، لأنّه إن حصل فهو داء لا يُرجى شفاؤه ، أما من يقتل بين الطرفين فهو مرهون بنيّته ، سواء قاتل مع أمير المؤمنين أو قاتل ضده . وبذلك يقرّر أمير المؤمنين أنّ المسلمين الذين خرجوا في هذا الأمر ، بعد استشهاد عثمان رضي الله عنه يبتغون الإصلاح والقضاء على الفتنة مجتهدون وأجرهم على قدر إخلاص نواياهم ونقاء قلوبهم . أما الطعن في الدين أو الأمانة ، أو الشتم والانتقاص من الآخرين فهو ليس من أخلاق الصحابة ولا من شيمهم أو مقاصدهم. ولما كان الأمر كذلك فلا بدّ من توضيح موقفه من قتلة الشهيد عثمان رضي الله عنه ، ونظرته إليهم في مسيره ذلك ، ولكن بعد بيان حرصه على الصلح وتجنّب المصادمة .

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٢٥٢/٥ .

سفارة القعقاع بن عمرو إلى طلحة والزبير رضي الله عنهما والاتفاق على الصلح

تبيّن وبما لا يدع مجالاً للشك أنّ هدف من سار من مكة إلى البصرة هو الإصلاح بين الناس ، وإقامة الحدود والعمل بالكتاب والسنة .

وأن هدف أمير المؤمنين رضي الله عنه من مسيره من المدينة ، هو الإصلاح بين الناس، وإطفاء الفتن وإقامة الحدود ، ظهر ذلك في كل ما قام به وفي كل ما سُئل عنه ، واتضح أنّ الجميع لم يفكر أو يخطط أو يدبّر لشيء اسمه حرب داخلية أو مواجهة عسكرية ، وإن امتلأت بذلك كثير من كتب التاريخ والأدب ، فمهما بلغ الباطل والزيف من الانتشار ، فإنّه لا يثبت أمام الحق. قال تعالى: ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾[١] .

إنّ قوماً أثنى عليهم الله تعالى ورسوله ﷺ ، وعطرّ صدقهم ونزاهتهم أرجاء هذا الكون ، بما سطّروا من سيَر طاهرة ومواقف خالدة ، لن يستطيع الأفّلكون ولا المبتدعة والشعوبيون أن يطفئوا بريقها ، بما يفترونه عليهم من الأكاذيب التي تتناقض مع كل ما قاموا به وضحّوا من أجله ، فلم تنقطع أواصر الأخوّة بينهم في الدنيا ولا في الآخرة ، حالهم واحدة أخبر بها الله تعالى جميع المؤمنين فقال عزّ وجل: ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غلّ إخواناً على سرر متقابلين ﴾[٢] .

ولقد ثبت صدق كل ما روي عن أولئك الصادقين من أصحاب رسول الله ﷺ في مساعيهم للصلح ورأب الصدع وجمع الشمل من جديد ، فيما دار من حوار كان ينبع من مشكاة واحدة ، ويُعبّر عن تطلعات روح واحدة .

---

(١) سورة الأنبياء ، من الآية (١٨) .

(٢) سورة الحجر ، من الآية (٤٧) .

تأكّد ذلك كلّه في سفارة القعقاع بن عمرو، مبعوث أمير المؤمنين إلى أخويه طلحة والزبير وأم المؤمنين ﭫ أجمعين .

فخرج القعقاع حتى قدم البصرة « فبدأ بأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فقال: أي أماه ، ما أقدمك هذا البلد ؟ فقالت: أي بني **الإصلاح بين الناس** ، فسألها أن تبعث إلى طلحة والزبير رضي الله عنهما ليحضرا عندها، فحضرا ، فقال القعقاع: إنّي سألت أم المؤمنين ما أقدمها ، فقالت: إنّما جئت للإصلاح بين الناس ، فقالا: ونحن كذلك ، قال: فأخبراني ما وجه هذا الإصلاح وعلى أي شيء يكون ، فوالله لئن عرفناه لنصطلحن ، ولئن أنكرناه لا نصطلحن ؟ قالا: قتلة عثمان ، فإنّ هذا إن ترك كان تركاً للقرآن ، فقال: قتلتما قتلته من أهل البصرة ... فغضب لهم ستة آلاف، فاعتزلوكم ، فإن تركتموهم وقعتم فيما تقولون ، وإن قاتلتموهم فأُديلوا عليكم كان الذي حذرتم وفرقتم من هذا الأمر أعظم مما أراكم تدفعون وتجمعون منه يعني أن الذي تريدونه من قتل قتلة عثمان مصلحة ، ولكنه يترتب عليه مفسدة هي أربى منها ، وكما أنكم عجزتم عن الأخذ بثأر عثمان من حرقوص بن زهير لقيام ستة آلاف في منعه ممن يريد قتله ، فعليّ أعذر في تركه الآن قتلة عثمان ، وإنّما آخّر قتل قتلة عثمان إلى أن يتمكن منهم ، فإن الكلمة في جميع الأمصار مختلفة ثم أعلمهم أن خلقاً من ربيعة ومضر قد اجتمعوا لحربهم ، بسبب هذا الأمر الذي وقع ، فقالت له أم المؤمنين رضي الله عنها: فماذا تقول أنت ؟ قال: أقول إن هذا الأمر الذي وقع دواؤه التسكين ، فإذا سكن اختلجوا ، فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خير وتباشير رحمة ، وإدراك الثأر ، وإن أنتم أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر وائتنافه، كانت علامة شرّ ، وذهاب هذا الملك ، فآثروا العافية ترزقوها ، وكونوا مفاتيح خير كما كنتم أولاً ، ولا تعرضونا للبلاء فتتعرضوا له ، فيصرعنا الله وإيّاكم ، وإيم الله إنّي لأقول قولي هذا وأدعوكم إليه، وإنّي لخائف أن لا يتم حتى يأخذ الله حاجته من هذه الأمة ، التي قلّ متاعها ونزل بها ما نزل ، فإن هذا الأمر الذي قد حدث أمر

عظيم - استشهاد عثمان - وليس كقتل الرجل الرجل ولا النفر الرجل ، ولا القبيلة القبيلة ، **فقالوا: قد أصبت وأحسنت ، فارجع فإن قدم عليّ وهو على مثل رأيك صلح الأمر ، فرجع إلى عليّ فأخبره ، فأعجبه ذلك وأشرف القوم على الصلح ، كره ذلك من كرهه ورضيه من رضيه ، وأرسلت أم المؤمنين عائشة إلى علي تُعلمه أنها إنّما جاءت للصلح ، ففرح هؤلاء وهؤلاء** [1] .

فتبيّن في هذا اللقاء أن الهدف واحد في مسير أمير المؤمنين علي ومسير طلحة والزبير رضي الله عنهم ، وهو العمل على جمع الكلمة ، وتطبيق الحدود ، كما أمر بها الله تعالى ، أمّا أمّ المؤمنين فلا يماري مؤمن أو منصف في أنها لم تخرج إلا للإصلاح بين الناس ، والعمل على منع أيّ قتال وإطفاء كل فتنة ، ولا سيّما أن طلحة والزبير ومن معهما ، قد أقاموا الحدود بالقصاص من القتلة ، بعد أن أقاموا عليهم الحجة ، وكفوا عنهم حتى بدأوهم بالقتال ، فكان ذلك حجة ثانية لهم .

أما بقاء حرقوص بن زهير هارباً من القصاص ، فهذا لا يقلّل من أهمية ما قاموا به من عمل جليل تمثل بتطهير البصرة من زعانف السبئية ، الذين لو تركوا على حالهم، لسارت الأمور على أسوء مما فعله إخوانهم من سبئية مصر والكوفة في إحياء الفتنة وإجبار أهل الكوفة والبصرة على القتال ، بما نصبوه من شراك ودبّروه من مكائد ، أذهبت بهجة الصلح ، وأحيت النعرات وزرعت بذور الفتنة من جديد، وأودت بحياة الشهيدين أبي محمد طلحة وأبي عبد الله الزبير رضي الله عنهما ، اللذَين تألم لمصابهما أمير المؤمنين رضي الله عنه .

وما ذكر في النص من أن عشائر الخوارج غضبت لقتل من قُتل من أبنائها فهذا كلام فيه تهويل اضطر إليه السفير لتهويل الخطر وتضخيم الشر لكي يجتنبه الناس ، وإلا فإن عشائرهم هي التي نبذتهم أولاً ، ثم جاءت بهم في البصرة إلى يد

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ، ٢٤٩/٧، الطبري ، تاريخ ، ٢٤٧/٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١١٩/٣.

العدالة التي كان يمثلها طلحة والزبير ومن معهما ولم يعترض أحد على تنفيذ الأحكام فيهم ، بل كانت تلك العشائر هي المشرفة على تنفيذ حكم الله فيهم ، وإذا كانت عشيرة بني سعد قد آوت حرقوص فإن هذا ليس فخراً لها ، بل أصابها بسبب ذلك ضيق شديد وأمر عظيم كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، ولو لم يتغير سير الأحداث ، لجاء بنو سعد بحرقوص إلى العدالة كما فعل إخوانهم من أهل البصرة من قبل .

ثم إنّ وفود قبائل البصرة ذهبت إلى أمير المؤمنين حين نزل بذي قار ليؤكّدوا رغبتهم في الأُلفة وجمع الكلمة: « فجاءت وفود تميم وبكر قبل رجوع القعقاع لينظروا ما رأي إخوانهم من أهل الكوفة ، وعلى أيّ حال نهضوا إليهم ، وليعلموهم أنّ الذي عليه رأيهم الإصلاح ، ولا يخطر لهم القتال على بال »[1]. وهذه هي الحقيقة التي ظهرت في هذا البحث ، والتي اتضحت في مساعي الجميع للإصلاح وتوحيد الصفوف ، فمن خرج من مكة إلى البصرة كان هذا مقصده ، فإذا كانت هذه المساعي التي ستكون نتيجتها الحكم بكتاب الله وإقامة الحدود ، يُغضب السبئية ومن معهم من الغوغاء فما ذنب طلحة والزبير رضي الله عنهما ، هل يدعان العمل لإقامة حدود الله تعالى على الظالمين ، من أجل أن لا تغضب السبئية ومن تعاطف معها من الغوغاء ، وهما وأمثالهما من إخوانهم الصحابة جنود رسول الله ﷺ الذين أقاموا الدين وطوّعوا المشركين وقهروا المنافقين ! .

إنّ ما قام به طلحة والزبير ومعهم أم المؤمنين رضي الله عنهم ، في البصرة من قهر الخوارج السبئية هو الذي مهّد السبيل للإصلاح بين الناس، وأضعف شوكة السبئية الذين فرضوا القتال في البصرة على المسلمين وسمّوه بحرب الجمل لإبعاد الشبهة عنهم، وهو الذي شجّع أمير المؤمنين على المجاهرة بالبراءة من السبئية الذين

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٢٤٧/٥ .

يتخللون الصفوف في عسكره ، كما يتضح في مواقفه منهم. ولكنّ طلحة والزبير رضي الله عنهما ، كانا قد شاهدا في المدينة كيف تتذامر السبئية والغوغاء وبعض الأعراب والعبيد[1]، لإفشال أي أمر يوجهه أمير المؤمنين إليهم لينصرفوا إلى بلادهم . وأمام هذا الواقع الذي شاهدوه بأعينهم في المدينة[2]، اعتقدا أنّ السعي للتخلّص من هيمنة هؤلاء واجب لا يمكن تأخيره ، لذلك سارا إلى مكة ثم إلى البصرة .

فكان مسيرهم يُعبّر عن روح الاستعداد للتضحية من أجل العقيدة وسلامتها ولم يكن ذلك المسير بحاجة إلا لمباركة أمير المؤمنين وموافقته والتنسيق معه .

موقف أمير المؤمنين علي رضي الله عنه من الخوارج السبئية

كان موقف أمير المؤمنين علي رضي الله عنه واضحاً من الخوارج السبئية ، قبل استشهاد الخليفة عثمان رضي الله عنه ، واتضح ذلك في موضعه من البحث ، وأن علياً طردهم عندما جاؤوا يطلبون الإذن لدخول المدينة ولم يأذن لهم ، ثم حاول أن يقاتلهم ، فطلب من الشهيد عثمان أن يأذن له بالقتال دفاعاً عنه لكنّه لم يأذن لأحد حرصاً منه على المسلمين ودفعاً للفتنة .

وبعد استشهاد عثمان رضي الله عنه ، جاؤوا إليه يطلبونه للبيعة ولكنه « باعدهم وتبرأ منهم ومن مقالتهم مرّة بعد مرّة »[3]، وكان يتوعدهم ويهدّدهم[4] .

---

(١) ينظر: الطبري ، تاريخ ، ٢١٢/٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٠٠/٣ .

(٢) ينظر: ابن كثير ، البداية والنهاية، ٢٤٢/٧ ، ابن الأثير ، الكامل ، ٩٩/٣.

(٣) الطبري ، تاريخ، ٢٠٨/٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٤٢/٧.

(٤) الطبري ، تاريخ ، ٢٠٩/٥. ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٣٨/٧.

وبعد أن بويع بالخلافة رضي الله عنه كان « في نفس الأمر يكرههم ولكنه تربص بـــهم الدوائر ، ويودّ لو تمكن منهم ليأخذ حق الله منهم »[1]. ولما دخـــل عليـــه طلحـــة والزبير وبعض الصحابة يطلبون منه إقامة الحد عليهم ، قال: « فلا والله لا أرى إلا رأياً ترونه إن شاء الله ، إن هذا الأمر أمر جاهلية ، وإنّ لهؤلاء القوم مادة ...

- فانتظروا - حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها ، وتؤخذ الحقوق ، فـــاهدؤوا عني وانظروا ماذا يأتيكم ، ثم عودوا »[2] .

ويبدو أنّه أمام المطالبة الشديدة بوجوب محاسبة الخـــوارج الســبئية أراد أن يستطلع مدى قوتهم في المدينة، ومدى تأييد أعوانهم لهم لكي يجـــرّدهم منهم ، فأمر الأعراب والسبئية بالعودة إلى بلادهم ومياههم فلـــم تقبـــل الســـبئية أن ينصـــرف الأعراب الذين تعاونوا معهم بجهلهم وقلة علمهم لذلك « أبـــت الســـبئية وأطاعـــهم الأعراب »[3] .

ولما أراد المسير إلى الشام ، وأقبل على التهيّؤ والتجهيز لذلك المســـير « لـــم يولّ ممن خرج على عثمان أحداً »[4] .

ثم خطب المسلمين فذكر مصاب المسلمين بعثمـــان رضي الله عنه ، وحمّـــل الســـبئية مسؤولية ما حصل فقال: « حتى أصيب هذا الرجل بأيدي هـــؤلاء القـــوم ، الذيـــن نزغهم الشيطان ، لينزغ بين هذه الأمة ... ألا وإن هذه الأمة ستفترق على ثـــلاث وسبعين فرقة ، شرها فرقة تنتحلني ولا تعمل بعملي ، فقد أدركتم ورأيتم فـــالزموا دينكم ، واهدوا بهدي نبيّكم واتبعوا سنته »[5] .

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٤٢/٧ .

(٢) الطبري ، تاريخ ، ٢١٢/٥.

(٣) المصدر نفسه ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٠٠/٣ .

(٤) الطبري ، تاريخ ، ٢١٧/٥ .

(٥) الطبري ، تاريخ ، ٢٤٠/٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٤٦/٧ .

ثم خطب في المسلمين فتعرض لقتلة الخليفة عثمان ﷺ ، وبيّن سبب سكوته عنهم ، فقال: « إن هذا الأمر الذي ندعوكم إليه من إقرار هؤلاء القوم شرّ ، وهو خير من شرّ منه ، وهو كأمر لا يدرك ، وقد كاد أن يبين لنا ، وقد جاءت الأحكام بين المسلمين بإيثار أعمّها منفعة وأحوطها »[1] .

وفي كل خطب أمير المؤمنين بعد استشهاد عثمان ﷺ ، لم يتعرّض للبراءة من السبئية بشكل علني وصريح ، وإنّما كان يُظهِر تأففه منهم ، وعدم رغبته في صحبتهم أو قربهم .

أما بعد أن تمّ الاتفاق على الصلح بين أهل الكوفة وأهل البصرة ، وأشرف النّاس على الوحدة والأُلفة وبعد أن تمكن طلحة والزبير رضي الله عنهما ومن معهما ؛ من كسر شوكة السبئية في البصرة ، فإن الوقت أصبح مناسباً لكي يعلن أمير المؤمنين موقفه الرسمي ممن شارك بالخروج على الخليفة عثمان ﷺ ويعلن البراءة منهم ، محملهم مسؤولية قيادة المؤامرة التي أودت بحياة خليفة المسلمين ، واستمرار العمل على طمس هوية الأمة وعقيدتها ، وذلك في ذي قار بعد عودة سفيره القعقاع بن عمرو من مهمته التي حقق فيها نجاحاً تاماً ، تمثل بقبول أهل البصرة لكل ما جاء به .

وقُبيل الرحيل من ذي قار إلى البصرة ، قام أمير المؤمنين علي ﷺ في الناس خطيباً: « فذكر الجاهلية وشقاءها وأعمالها ، وذكر الإسلام وسعادة أهله بالألفة والجماعة وأنّ الله جمعهم بعد نبيّه ﷺ على الخليفة أبي بكر الصديق ، ثم بعده على عمر بن الخطاب ، ثم على عثمان ، ثم حدث هذا الحدث الذي جرّه على الأمة أقوام طلبوا الدنيا ، وحسدوا من أنعم الله عليه بها ، وعلى الفضيلة التي منّ الله بها، وأرادوا ردّ الإسلام ، والأشياء على أدبارها ، والله بالغ أمره ، ثم قال: ألا

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٢٥١/٥ .

إنّي مرتحل غداً، فارتحلوا ، ولا يرتحل معي أحد أعان على قتل عثمان بشيء من أمور الناس ، وليُغنِ السفهاء عن أنفسهم ››[١] .

وبهذه الخطبة بدد أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ، كل الشكوك التي يثيرها المغرضون في كتب التاريخ ، حول تعاونه مع الخلفاء السابقين ، الذين اجتمعت الأمة تحت قيادتهم ، وسارت تحت راياتهم ، ولم يخالفهم أحد من المسلمين ، حتى ظهر أولئك الذين اغتالوا الخليفة الثالث رضي الله عنه ، لا لشيء ألمّ به ، ولكن حسداً منهم على ما أنعم الله به عليه ، وسعياً وراء إعادة الأمة إلى الجاهلية ، بإثارة الفتن وتدبير الدسائس ، لتمزيق الصف الإسلامي ، الذي بلغ القمة في التعاون والمودة والرحمة ، فهذا الصنف الذي يرفض الإسلام ويدعو إلى حرب قادته ورجاله .

هو مكشوف عند أمير المؤمنين ، ولا يُرتجى منه خير ولا صلاح ، بعد أن أُتيحت له فرصة التوبة والإنابة ، والعودة إلى صفّ الأمة وعقيدتها ، لكنّه لم يفعل لذلك فإن أدنى الإجراءات التي تُتخذ ضده ، هي البراءة منه والمباشرة بالعمل للتخلّص منه بالوسائل المتاحة حتى تتهيّأ الفرصة لإقامة الحدّ على من جلب هذا البلاء على الأمة ، وبأحكام شرعية تجمع ولا تفرق .

ثم أشار أمير المؤمنين إلى أنّ كل من أعان بأي شيء ولو بالكلمة أو الإشارة فهو متهم لا يصلح أن يكون في جيش أمير المؤمنين الذي يسعى لنشر الفضيلة والأُلفة بين المسلمين ، وأن ما قاموا به هو من فعل السفهاء، الذين لا يُراعون عرفاً، ولا يأمرون بمعروف ولا ينهون عن منكر ، تلك هي صفات قتلة الخليفة عثمان رضي الله عنه ، والتي سار طلحة والزبير ومن معهم متجشمين المصاعب ومقتحمين الأخطار ، لتخليص الأمة من شرورهم ومكائدهم . والتي لا يخالفهم أمير المؤمنين بشيء مما قاموا به فيما سوى التوقيت والوسيلة المناسبة لتنفيذ الأحكام فيهم .

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٥/٢٥٠ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٧/٢٥٠ ، ابن الأثير ، الكامل ، ٣/١٢٠.

ولمّا علِم القتلة بموقف أمير المؤمنين هذا ، أيقنوا أنه قد عزم على التخلّص منهم وإقامة الحد عليهم ، وذلك قبل أن يلتقي بطلحة والزبير ، فكيف به إذا التقى بهما، لهذا عادوا إلى باطنيّتهم ، وعقدوا الاجتماعات السريّة للتآمر على المسلمين وخلط الأوراق من جديد ، لإشغال أمير المؤمنين عنهم ، وصرفه عن إقامة الحد عليهم .

فتنة السبئية الثانية أو ما يُسمّى « بمعركة الجمل »

تبيّن في ما سبق من هذا البحث ، أنّ المؤامرة السبئية الأولى ، كانت تعمل بسريّة تامة ، وتدين بالتُقية في جميع خطواتها ، وذلك من خلال التظاهر بالإسلام والقيام على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واستخدام سلاح الشائعات والأكاذيب ، وصناعة الكتب المزوّرة على ألسنة أعلام المسلمين ، لاصطياد الغوغاء ممن لا يُحكّمون ديناً ولا عقلاً فيما يقرأون أو يسمعون ، فتمكنوا بعد دسائس ومؤامرات طويلة من تحقيق جزء من أهدافهم ، تمثل في اغتيال الشهيد عثمان رضي الله عنه ، الذي تمكن بما آتاه الله من حكمة وبصيرة وصبر وحلم ، من كشف جميع أوراقهم للأمة ، التي نقمت عليهم ولفظتهم من بين صفوفها. ولكن لا زال بعض المغفلين والجهلة وعبيد الذات والهوى ، من المتطلعين إلى الدنيا ومراكزها يدورون في فلك الشعارات المعسولة التي تبثها جماعة ابن سبأ .

إلا أن خطبة أمير المؤمنين علي رضي الله عنه السابقة ، صعقتهم وخلطت أوراقهم وأفسدت مخططاتهم ، فبعد أن اعتقدوا أنّ أمرهم غير مكشوف عند أمير المؤمنين وظنّوا أنّ بيعتهم له قد غطّت على ما قاموا به من جريمة لا تُغتفر ، وحسبوا أنّ تزلفهم لأمير المؤمنين وتظاهرهم بالطاعة له يُسكته عنهم ، لكن ذلك كله تبيّن لهم

أنه كان خيالاً ، فأيقنوا بالخطر الحقيقي ولا سيّما أنّ طلحة والزبير رضي الله عنهما ، قد باشرا بإقامة الحدود على أمثالهم .

فكان لا بدّ لهم من **عقد مؤتمر سرّي** يتداركون فيه أنفسهم قبل فوات الأوان. فاجتمع من رؤوسهم جماعة، **بزعامة عبد الله بن سبأ** المعروف بابن السوداء والأشتر النخعي وخالد **بن ملجم** « في عدّة ممن سار إلى عثمان ، ورضي بسير من سار »[1] وكان عددهم يقدّر: « **في ألفين وخمسمائة وليس فيهم صحابي ، ولله الحمد**»[2] .

« فقالوا ما الرأي ؟ وهذا والله علي ، وهو أبصر الناس بكتاب الله وأقرب ممن يطلب قتلة عثمان وأقربهم إلى العمل بذلك ، وهو يقول ما يقول ، ولم ينفر إليه إلاهم والقليل من غيرهم ، فكيف به إذا شامّ القوم وشامّوه - إذا رأى بعضهم بعضاً وعادوا إلى تعاونهم - وإذا رأوا قلتنا في كثرتهم ! أنتم والله ترادون وما أنتم بأنجى من شيء. فقال الأشتر: أما طلحة والزبير فقد عرفنا أمرهما ، وأما علي فلم نعرف أمره حتى كان اليوم ، ورأي الناس فينا والله واحد ، وإن يصطلحوا وعلي فعلى دمائنا ، **فهلّموا فلنتواثب على علي فنلحقه بعثمان ، فتعود فتنة يُرضى منا بالسكون** فقال عبد الله بن السوداء: بئس الرأي رأيت ! أنتم يا قتلة عثمان من أهل الكوفة بذي قار ألفان وخمسمائة أو نحو من ستمائة ، وهذا ابن الحنظلية وأصحابه في خمسة آلاف بالأشواق ، إلى أن يجدوا إلى قتالكم سبيلاً فارقأ على ضلعك - أي أصلح أمرك - وقال عِلباء بن الهيثم: انصرفوا بنا عنهم ودعوهم فإن قلّوا كان أقوى لعدوّهم عليهم ، وإن كثروا كان أحرى أن يصطلحوا عليكم ، دعوهم وارجعوا فتعلقوا ببلد من البلدان حتى يأتيكم فيه من تتقون ، وامتنعوا من الناس ، فقال ابن السوداء: بئس ما رأيت ! ودّ والله الناس أنّكم على جديلة ، ولم تكونوا مع أقوام

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٥/٢٥٠ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٧/٢٥٠ ، ابن الأثير ، الكامل ، ٣/١٢٠.

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٧/٢٥٠ ، الطبري ، تاريخ ، ٥/٢٥٠ ، ابن الأثير ، الكامل ، ٣/ ١٢١.

برآء ، ولو كان ذلك الذي تقول لتخطفكم كل شيء[١] ... وقال سالم بن ثعلبة: من أراد بما أتى الدنيا فإني لم أرد ذلك ، والله لئن لقيتهم غداً لا أرجع إلى بيتي ، ولئن طال بقائي إذا أنا لاقيتهم لا يزد على جزر جزور ، وأحلف بالله إنّكم لتفرقون السيوف فرق قوم لا تصير أمورهم إلا إلى السيف. فقال ابن السوداء: قد قال قولاً. وقال شريح بن أوفى: أبرموا أموركم قبل أن تخرجوا ، ولا تؤخروا أمراً ينبغي لكم تعجيله ، ولا تعجلوا أمراً ينبغي لكم تأخيره ، فإنّا عند الناس بشر المنازل ، فلا أدري ما الناس صانعون غداً إذا ما هم التقوا .

وتكلّم ابن السوداء فقال: « يا قوم ، إنّ عزكم في خلطة الناس ، فصانعوهم ، وإذا التقى الناس غداً فأنشبوا القتال ، ولا تفرغوهم للنظر ، فإذا من أنتم معه لا يجد بداً من أن يمتنع ، ويشغل الله علياً وطلحة والزبير ومن رأى رأيهم عما تكرهون. فأبصروا الرأي ، وتفرقوا عليه والناس لا يشعرون »[٢] .

فانفضّ ذلك الاجتماع بعد أن اتفق فيه زعماء السبئية على إفشال أي جهد يهدف للإصلاح بين المسلمين ، وأن يغتنموا لذلك « خلطة الناس ، فإذا التقى الناس فانشبوا الحرب والقتال » .

وأصبح أمير المؤمنين ومن معه على ظهر مرتحلاً إلى البصرة ، « ومرّ بعبد القيس فساروا معه حتى نزل بالزاوية[٣]، وسار منها يريد البصرة ، وسار طلحة

---

(١) ذكر في هذا النص عدي بن حاتم الطائي ﷺ وهذا منافي لعدالة الصحابة ﷺ ولسيرة عدي بن حاتم في الجهاد والحرص على الإسلام ، وطاعة الخلفاء ومحبّتهم، ظهر ذلك منه بعد وفاة النبيﷺ وظهور حركة الردة. ولكن الذين قاموا على تزوير التاريخ الإسلامي من الشعوبيين يذكرون أسماء بعض الصحابة ﷺ ، لتسويغ ما يقومون به وليستروا هويتهم الحقيقية . قال له عمر: آمنت إذ كفروا وأقبلت إذ أدبروا ووفيت إذ غدروا . ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ١٠٥٨/٣ .

(٢) الطبري ، تاريخ ، ٢٥٠/٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٥٠/٧ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٢٠/٣.

(٣) الزاوية: موضع قرب البصرة ، وهناك عدة مواضع تسمى بهذا الاسم ، ياقوت ، معجم البلدان ٤٦٦/٤ .

والزبير ومن معهما للقائه ، فاجتمعوا عند قصر عبيد الله بن زياد ، ونزل النـــاس كل في ناحية »[١] .

ولكي يُنفذ السبئية مخططهم ، كانوا يتظاهرون بالطاعـــة لأمـير المؤمنيـن ويسرعون في المسير أمامه .

« حتى إذا انتهى إلى عبد القيس نزل بهم وممن خرج من أهل الكوفة وهم أمـام ذلك ، ثم ارتحل حتى نزل على أهل الكوفة وهم أمام ذلك ، والناس متلاحقون بـه وقد قطعهم »[٢]، فمع سرعة أمير المؤمنين وسبقه لعامة جيشه كانوا هم أسرع منـه كل ذلك لكي يحولوا بين لقائه بأهل البصرة وطلحة والزبير رضي الله عنهما فيتـم الصلح ، وتفوتهم فرصة الإفساد بين المسلمين ، وبعدها سيتم إخضاعهم للمحاسـبة وهذا ما كانوا يخشونه ، ويعملون كل شيء لكي يمنعوه. وبالقدر الذي كـان فيـه الخوارج السبئية يضمرون الكيد والغدر كان المسلمون من أهل الكوفـة والبصـرة يؤكّدون على الوفاء لحقوق الأخوة والإصلاح والتسامح ، وتسكين الأمور وإطفـاء الفتنة. وعندما طلب أبو الجرباء[٣] وهو أحد رجالات البصرة ، من الزبـير بـن العوام رضي الله عنه أن يبعث ألف فارس يهاجم بها مقدمة أهل الكوفة ، قال له الزبير: « يـا أبا الجرباء ، إنّا لنعرف أمور الحرب ، ولكنهم أهل دعوتنا ، وهذا أمر حدث فـي أشياء لم تكن قبل اليوم ، هذا أمر مَن لم يلق الله عز وجل فيه بعذر انقطع عـذره يوم القيامة ، ومع ذلك إنّه قد فارقنا وافدهم - القعقاع - على أمر وأنا أرجو أن يتـم لنا الصلح ، فأبشروا واصبروا »[٤] .

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٥١/٧.

(٢) الطبري ، تاريخ ، ٢٥١/٥.

(٣) أبو الجرباء هو سيد على بني عمرو بن تميم ، وهو من بني عثمان بن مالك بن عمرو بن تميم. الطبري ، تاريخ ، ٢٥٧ .

(٤) الطبري ، تاريخ ، ٢٥١/٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٢١/٣ .

وعندما طلب صبرة بن شيمان زعيم أزد البصرة من طلحة والزبير رضي الله عنهما ، الطلب نفسه ، قالا له: « يا صبرة إنا وهم مسلمون ، وهذا أمر لم يكن قبل اليوم فينزل فيه قرآن ، أو يكون فيه من رسول الله ﷺ سنّة إنما هو حدث ، وقد زعم قوم أنه لا ينبغي تحريكه اليوم. وهم علي ومن معه ، فقلنا: نحن لا ينبغي لنا أن نتركه اليوم ولا نؤخره »[1] وقال علي رضي الله عنه: « هذا الذي ندعوكم إليه من إقرار هؤلاء القوم شر ، وهو خير من شر منه »[2]. أي أن السكوت عن تطبيق الحدود على هؤلاء الخوارج في هذه المرحلة هو شر ولكنه أهون من فتنة تمزق صفوف المسلمين وتهدد وحدتهم . ومما يبيّن أن الطرفين يشعران أحياناً بقوة حجة بعضهما على بعض فيعذر كل منهم الآخر فيما اجتهد به ، فكانوا يقولون: « **إنّ هذا أمر بيننا وبين إخواننا ، وهو أمر ملتبس ، لا والله ما أخذ أصحاب محمد ﷺ ، مذ بعث الله عز وجل نبيه طريقاً إلا علموا أين موقع أقدامهم ، حتى حدث هذا فإنّهم لا يدرون أمقبلون هم أم مدبرون ! إن الشيء يحسن عندنا اليوم ويقبح عند إخواننا ، فإذا كان من الغد قبح عندنا وحسن عندهم ، وإنّا لنحتج عليهم بالحجة فلا يرونها حجة ، ثم يحتجون بها على أمثالها ، ونحن نرجو الصلح** »[3] .

وكانت تعليمات أمير المؤمنين رضي الله عنه إلى من كان معه واضحة جلية تمثلت في قوله: « يا أيّها الناس املكوا أنفسكم ، كفوا أيديكم وألسنتكم عن هؤلاء القوم ، فإنّهم إخوانكم ، واصبروا على ما يأتيكم ، وإيّاكم أن تسبقونا، فإن المخصوم غداً من خصم اليوم »[4] .

وتقدّم بمن معه حتى أطلّ على أهل البصرة وفيهم طلحة والزبير رضي الله

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٥/٢٥١ ، ابن الأثير ، الكامل ، ٣/١٢١ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) الطبري ، تاريخ ، ٥/٢٥١.

(٤) المصدر نفسه ، ٥/٢٥٢.

عنهما اللذين كانا يوصيان من معهما بمثل وصية أمير المؤمنين ويقولان: « إنّ علياً أشار بتسكين هذا الأمر ، وقد بعثنا إليه بالمصالحة على ذلك »[1] . ثم بعث أمير المؤمنين إلى طلحة والزبير يقول: « إن كنتم على ما فارقتم عليه القعقاع بن عمرو فكفّوا حتى ننزل فننظر في هذا الأمر ، فأرسلا إليه في جواب رسالته إنّا على ما فارقنا القعقاع بن عمرو من الصلح بين الناس ، فاطمأنّت النفوس وسكنت، واجتمع كل فريق بأصحابه من الجيشين فلما أمسوا بعث عليّ عبد الله بن عباس إليهم وبعثوا إليه محمد بن طلحة السجاد ، وبات الناس بخير ليلة »[2]، « وهم لا يشكون في الصلح »[3] .

لما رأوا من تباشير الصلح وزوال الخطر ، وعودة الألفة والأخوة على ما كانت عليه ، وهذا هو مطلب الجميع وغايته .

الحال قُبيل وقوع القتال في فتنة السبئية الثانية

إنّ القتال الذي فرضته السبئية بغدرها وغشّها للمسلمين ، كان أمراً طارئاً وساعة كانت فوق الزمن ، وخارج إطار الإدارة والإرادة ، ولم يكن أحد من الطرفين مستعداً له ، أو متحمّساً لخوضه ، أو مؤمناً به ، ولكنها مفاجأة الغدر الباطني الذي استقاه ابن سبأ من حمئة التاريخ اليهودي الغني بتجارب المكر والكيد والدسائس والعاري من كل قيم الخير والفضيلة .

فبينما نزل المسلمون من أهل الكوفة والبصرة متجاورين يتزاورون كانت

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٥١/٧.

(٢) الطبري ، تاريخ ، ٢٥٢/٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٥١/٧.

(٣) الطبري ، تاريخ ، ٥/ ٢٥٧.

السبئية والغوغاء ، التي نفخت أوداجها أباطيل ابـــن ســبأ وأكاذيبـــه . يتلمظـــون كالأفاعي، يتسمّعون الأخبار ، وعلى ما ذا عزم كل من الفريقين ، ثم يعودون إلـــى أبالستهم، فيجتمعون في الظلام يدبّرون ويمكرون ، للإيقاع بهذه الأمة ولقطع حبـال الأخوّة والوحدة بين أبنائها ، ولا سيما قادتها من أمثال علي وطلحة والزبـــير ﷺ وكما هو شأن اليهود وأذنابهم مع أمتنا إلى هذا العصر وإلى ما بعده ، يُسخّرون كل طاقاتهم وكل ما يمتلكون من أجل أمرين ، الأول: صرف هذه الأمة عن عقيدتـــها والثاني: الحيلولة دون وحدتها وتواصلها. وهذا ما يبصره القارئ فيما يرى ويسـمع مما يجري في هذا العصر ، ويُصدّقه واقع الفرقة والتمـــزّق ، والزهـــد بـــالوحدة والأخوّةِ ، والحرص على حسن الصلة بالكافرين واليهود والصليبيين .

فبينما كانت هذه هي حال المتآمرين ، كان طلحة والزبير قد « نزلا بالناس من الزابوقة ، في موضع قرية الأرزاق ، فنزلت مُضر جميعاً وهـــم لا يشـــكون فـــي الصلح ونزلت ربيعة فوقهم جميعاً ، وهم لا يشكون في الصلح ، ونزلـــت اليمـــن جميعاً أسفل منهم ، وهم لا يشكون في الصلح ، وأم المؤمنين عائشة في الحُـــدّان[1] والناس في الزابوقة على رؤسائهم هؤلاء »[2] وكانوا قد أرسلوا إلى أمير المؤمنيـــن ﷺ أنّهم على ما فارقوا عليه القعقاع في الصلح وتسكين الأمور. « فارتحل حتـــى نزل عليهم بحيالهم ، فنزلت القبائل إلى قبائلهم ، مضر إلى مضر ، وربيعـــة إلـــى ربيعة ، واليمن إلى اليمن ، وهم لا يشكون في الصلح ، فكان بعضهم بحيال بعض في قبائلهم .

« فلما نزل الناس واطمأنّوا ، خرج عليّ وخرج طلحة والزبير ، فتواقفوا وتكلموا

---

(١) الحُدّان: إحدى محال البصرة القديمة ، سميت باسم قبيلة وهو حُدّان بن شمس بن عمرو من الأزد وسكنها جماعة من أهل العلم ونسبوا إليها ، معجم البلدان ، ١٢٤/٣، والحُدّان في الأزد ، وكان القتال في ساحتهم ، الطبري ، تاريخ ، ٢٥٦/٥.

(٢) الطبري ، تاريخ ، ٢٥٧/٥.

فيما اختلفوا فيه ، فلم يجدوا أمراً هو أمثل من الصلح ووضع الحرب ، حين رأوا الأمر قد أخذ في الانقشاع ، وأنه لا يدرك ، فافترقوا عن موقفهم على ذلك، ورجع عليّ إلى عسكره ، وطلحة والزبير إلى عسكرهما »[١] .

واتفقا على أن يكلّم كل واحد منهم رؤساء أصحابه على كل ما تم التوصل إليه. « فلما أمسوا وذلك في جمادى الآخرة - سنة ست وثلاثين - أرسل طلحة والزبير إلى رؤساء أصحابهما ، وأرسل عليّ إلى رؤساء أصحابه ، ما خلا أولئك الذين هضوا - ناهضوا - عثمان ، فباتوا على الصلح ، وباتوا بليلة لم يبيتوا بمثلها للعافية من الذي أشرفوا عليه ، والنزوع عمّا اشتهى الذين اشتهوا ، وركبوا ما ركبوا ، وبات الذين أثاروا أمر عثمان بشرّ ليلة باتوها قط ، قد أشرفوا على الهلكة وجعلوا يتشاورون ليلتهم كلها ، حتى اجتمعوا على إنشاب الحرب في السر واستسرّوا بذلك خشية أن يُفطن بما حاولوا من الشرّ »[٢] .

وهكذا تمضي الأمور كل يعمل على شاكلته ، فأهل الخير والصلاح والإصلاح يعملون علانية وفي النور ، وأهل الشر والحقد والفساد يتآمرون بالسرّ وفي الظلام فبينما كان علي وطلحة والزبير رضي الله عنهم لا يُجيزون إساءة الظنّ بأحد من المسلمين أو أن يُظلم أحد وهم قادرون على نصرته ، وهذا هو الذي أخرجهم من مدينتهم المباركة لينصروا الحق وينشروا السلام والألفة بين المسلمين .

كان الخوارج السبئية ، ينشرون الإذاعات الكاذبة والإشاعات الباطلة بين المسلمين ، لكي ينشروا سوء الظن بينهم ، وينزعوا الثقة من نفوسهم فيفرقوا الصف، ويقطعوا الأرحام ، ويطمسوا الخير ، وينشروا الظلام ، وينصروا الباطل ويعينوا الظالم ، ويُحسنّوا السوء ، ويقبحوا الحسن ، وكل ذلك تحت ستار من البهتان والزيف والمخادعة . ليمنعوا دعاة الإصلاح والوحدة ، من أمثال طلحة

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٢٥٨/٥. ابن الأثير ، الكامل ، ١٢٣/٣ .

(٢) المصدر نفسه .

والزبير وأم المؤمنين ﵃ ، من تحقيق أهدافهم ونشر أفكارهم . فكما خرجوا عن بلادهم لنشر الرذيلة ونصرة الباطل ، متسترين تحت شعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، حتى قتلوا خليفة المسلمين الشهيد عثمان ﵁ ، كذلك خرجوا هذه المرة وللمعاني ذاتها ، لكنهم بدلوا الشعارات ، فبدلاً من الأمر بالمعروف وإقالة الخليفة عثمان بن عفان ﵁ . أصبحت نصرة الخليفة الجديد علي ﵁ ، وقتال الناكثين وما إلى ذلك من أكاذيب الآثمين ، فيحولون الخير شرّاً والشرّ خيراً فيُصبح في مفاهيم السبئية والغوغاء الماضية واللاحقة ، فرسان محمد ﷺ وطلائع المؤمنين ، الذين نشروا بجهادهم العقيدة وافتدوا الدين ، يصبحون من الناكثين - حاشاهم - والزنادقة وأنصارهم من أعداء هذه الأمة وأدعيائها ، هم أهل الوفاء والعمل لصالح الإسلام والمسلمين .

وفي ظلام هذه المغالطات الرهيبة ، كانت السبئية وخَلْف المنافقين يتذرعون ويتسترون ، حتى مضى قدر الله تعالى إلى ما يريد ، وتمكن أعداء الصحابة من إشعال فتيل الحرب وإنشاب القتال ، بعد أن أعاد الصحابة ﵃ أمور الأمة على ما كانت عليه واتفقوا على الصلح والتعاون لإطفاء الفتن .

« فلم يتركهم أصحاب الأهواء ، وبادروا بإراقة الدماء ، واشتجر بينهم الحرب وكثرت الغوغاء على البوغاء. كل ذلك حتى لا يقع برهان ولا تقف الحال على بيان ، ويختفي قتلة عثمان. وإنّ واحداً في الجيش يفسد تدبيره، فكيف بألف! »[1] .

---

(١) ابن العربي ، العواصم من القواصم ، ١٥٩ .

أمر القتال في فتنة السبئية الثانية
« معركة الجمل »

اتضح أنّ الخوارج السبئية ، اتفقوا على إفساد الصلح الذي تمّ ، وتفريق الجمع الذي التئم ، وزرع الكراهية بين صفوف المسلمين ، ولا يمكنهم الحفاظ على ذلك إلا إذا أوقدوا نار الفتن من جديد ، وهذا ما أمضوا عليه ليلتهم قبيل إنشاب القتال يتشاورون « حتى اجتمعوا على إنشاب الحرب في السرّ ، واستسرّوا بذلك خشية أن يُفطن بما حاولوا من الشرّ ، فغدوا مع الغلس ، وما يشعر بهم جيرانهم ، انسلّوا إلى ذلك الأمر انسلالا ، وعليهم ظلمة ، فخرج مضريّهم إلى مضريهم ، وربعيّهم إلى ربعيّهم ، ويمانيُّهم إلى يمانيهم ، فوضعوا فيهم السلاح ، فثار أهل البصرة ، وثار كل قوم في وجوه أصحابهم الذين بهتوهم – أو بغتوهم – »[1].

وبهذا المكر والمخادعة أنشب قتلة عثمان القتال ، تنفيذاً لمؤامرتهم الثانية ضد الأمة الإسلامية ، فالأعداء هم الأعداء والمكر هو المكر والأهداف هي ذاتها ؛ رجال الإسلام ودعاته وحماته ، وأهل الإصلاح ودعاة الوحدة والجماعة .

والغوغاء هي الوسيلة والمطية في كلّ مراحل التآمر على الأمة سابقاً ولاحقاً ممن لا دين لهم يصدّهم عن ارتكاب المحرّمات ، واقتحام المحذورات التي تُهدد مصالح الأمة ، وتزعزع كيانها وتزلزل أركانها ، من الإنحراف عن العقيدة الربّانية والتعلق بالمصالح الفردية ، واعتناق الدعوات الضلالية والأفكار الانحلالية.

وقد ساعد السبئية على التمكن من إنشاب القتال وتوحيد هدفهم أنهم كلهم مدانون فإن أُخضعوا للمحاسبة فلا بد أن تقام عليهم الحدود مع ما يعلمونه من سعي وجهاد طلحة والزبير ومن معهما من المسلمين ، لاستئصال شأفتهم وإزالة بغيهم وإقامة الحدّ عليهم ، فضلاً عن معرفتهم بأنّ علياً رضي الله عنه ، لا تأخذه في الله لومة

(١) الطبري ، تاريخ ، ٥/٢٥٨ ، ابن الأثير ، الكامل ، ٣/١٢٤.

لاثم إن تمكن منهم وأتيح له القصاص من قتلة أخيه الشهيد عثمان رضي الله عنه ، لذلك حافظوا على السرّية التامة في تنفيذ خطتهم . كما أن اختيارهم لوقت الغلس وظلمة الليل وأن أكثر الناس نيام في مثل تلك الساعة ، ولا سيما أن كثيراً منهم كان على سفر فهو بأمس الحاجة للراحة لذلك أخذوا مواقعهم دون أنْ يُحسّ بهم أحد مما ساعد على نجاح تنفيذ غدرهم ، والأمر الآخر ،معرفتهم بتركيبة القبائل وقوّاتها ومواطن الضعف والقوة فيها ، حيث ينتسبون بعامتهم إلى تلك القبائل بما فيهم ابن سبأ الهمداني ، مما ساعدهم على حريّة الحركة وسرّية الإتصال ، والإحاطة بكل الأخبار التي تصل إلى أقوامهم ، ومن ثم دقة التنفيذ ، دون أن يكون هناك إرباك أو تداخل يُفسد مؤامرتهم .

ومما أوجد في الكثير منهم روح العمل وجديّة التنفيذ ، أنهم نُزّاع من قبائلهم مطرودون منبوذون ، لما جنوا من مفاسد أخلاقية أو سرقات مالية ، أو تفريط بحقوق القرابة والأرحام ، مما زاد في جرأتهم على التنفيذ فهم يتشفّون بما يُصيب المسلين ويؤلمهم كما أن معهم أعداد من جهلة الأعراب وفسّاق العبيد والسفلة الذين لا شك أنهم قد سمعوا وعوداً معسولة ، عمّا ينتظرهم من مستقبل أفضل ، كما يحصل مع غوغاء الأمة في هذا العصر ، ممن انحرف عن الدين واعتنق عقائد الملحدين ، أو حاكى أخلاقيات اليهود والصليبيين .

ولكل ما سبق ثارت كل طائفة إلى قومهم ليمنعوهم وقام الناس من منامهم إلى السلاح ، فظنّ أهل البصرة أن إخوانهم من أهل الكوفة قد غدروا ونقضوا الصلح وظن أهل الكوفة كذلك ، ولا يشعر أحد منهم بما وقع الأمر عليه على الحقيقة وكان أمر الله قدراً مقدوراً[(١)] .

« وقصف أهل البصرة ، أولئك حتى ردّوهم إلى عسكرهم ، فسمع علي وأهل

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٥٢/٧ .

الكوفة الصوت ، وقد وضعوا ــ السبئية ــ رجلاً قريباً من علي ليخبره بما يريدون فلمّا قال: ما هذا ؟ قال: ذاك الرجل: ما فجئنا إلا وقوم منهم بيّتونا ، فرددناهم من حيث جاؤوا ، فوجدنا القوم على رجل فركبونا وثار الناس))[1].

ومن الطبيعي بعد هذه المفاجأة ، أن تستعد القبائل ، وتُنظِم قوّاتها وتتحفز لكل طارئ ، ويأخذ كل من الطرفين موقعه في جيشه ، وهذا ما حصل في جيشي الطرفين ، إذ تهيأوا للقتال وتعبئوا إلى ميمنة وقلب وميسرة ، ((**والسابئة أصحاب ابن السوداء قبحه الله ، لا يفترون عن القتل ، ومنادي علي ينادي: ألا كفّوا ألا كفّوا فلا يسمع أحد**))[2].

فعلى الرغم من أنّ علياً ﷺ ، لم يكن يرى مسوغاً للقتال وإقدام هؤلاء باتجاه أهل البصرة ، وأنه أرسل منادية يأمر بالتوقف عن القتال ، لكنهم تشاغلوا عن ذلك الأمر ، وازدادوا إنشاباً للحرب ، خشية من أن تتاح فرصة لأحد الطرفين من استطلاع جليّة ما يجري فينكشف أمرهم ، فضلاً عن أنهم لا يلتزمون بأوامر أمير المؤمنين علي ﷺ كما سبق توضيح ذلك ، عندما أمر بانصراف الأعراب والعبيد من المدينة فحرضتهم السبئية على البقاء معهم لكي تستخدمهم في مثل هذا الحدث .

وكما فعلوه في صفّين عندما رُفعت المصاحف ، وأجاب أمير المؤمنين إلى ذلك وفرح به ، كما سيتضح في موضعه من البحث، وكيف أصرّ الأشتر على إنشاب القتال ومنادي أمير المؤمنين ينهاهم عنه .

وهذا ما عرفه فيهم أمير المؤمنين عليّ ﷺ وأكده في خطبه وأوضحه في مجالسه . ولعلّ هذا العناد والإسراع إلى الفتنة الذي عرف في هذا الصنف من الناس ، هو الذي دعاه إلى تأخير القصاص منهم إلى أن تتهيأ فرصة مواتية يأخذهم

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٢٥٨/٥.

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٥٢/٧.

بها دون أن يحركوا ساكناً أو يقوموا بفتنة ، ولعلّ هذا هو السبب ذاته الذي كان وراء امتناع معاوية ﷺ عن بيعة أمير المؤمنين قبل القصاص من هؤلاء الذين عرف عنهم قلة الدين وانعدام الخوف من الله تعالى ، والجرأة الشديدة على حرمات المسلمين وأخوّتهم وعقيدتهم ، وهل يتوقف عن شيء من المحارم من يستبيح دماء الشهيد عثمان ﷺ ويجترئ على مخالفته ومناصبته العداء ، وهو المبشر بالجنة على لسان محمد رسول الله ﷺ ، والذي أنفق ماله ودمه في سبيل الله تعالى والذي اختاره المهاجرون والأنصار خليفة للمسلمين !! .

إنّ الجاهلية التي كانت تعشش في أدمغة الخوارج السبئية ، فضلاً عمّا نفثه في أهوائهم ابن سبأ بخبثه ومكره ، كانت وراء مكابرة أولئك الذين لا يسمعون لمنادي أمير المؤمنين علي ﷺ أن كفّوا كفّوا ، فلم يزدهم طغيانهم إلا إعراضاً عن الطاعة وإيغالاً في المعاصي والمخالفة والفتنة .

« والسبئية لا تفتر إنشاباً . ونادى علي في الناس: أيها الناس كفّوا فلا شيء »[(١)] .

فمن هذه النصوص يتضح أن من ينال من الصحابة عامة ، ومن طلحة والزبير وأم المؤمنين خاصة ﷺ في هذه المسائل التاريخية ، سواء كان ذلك بلسانه أو بقلمه أو بهواه ، فإنه بين مقامين: إما أنّه جاهل مخدوع بما قرأه عنهم في الروايات الموضوعة ، والأحاديث المصنوعة. وهذا لا عذر له إلا بتوبة نصوح يفيق بها من غفلته ، ما دام كتاب الله تعالى يُثني على الصحابة ويمدحهم ، وعلي وطلحة والزبير وأم المؤمنين ﷺ في مقدمة أولئك الذين كانوا أهلاً لثناء الله تعالى ومدحه ، أو أنه ممن ناصب الصحابة العداء فرفض تزكية الله تعالى لهم ، وشهادة رسوله ﷺ لهم بالجنة ورضاه عنهم وهذا صنف آخر خارج دائرة الحوار والتوضيح يجب أن يُعرف ليحذر المسلمون من تلبيسه عليهم ، فإذا لم تَزِل الآيات

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٧/٢٥٩. ابن الأثير ، الكامل ، ٣/١٢٤.

القرآنية ما في قلبه من مُناصبة الصحابة ، والأحاديث النبوية الشريفة ما في أهوائه من رفضهم وبغضهم فلن يستطيع أحد أن يفعل ذلك ، إن لم يكن هناك وازع من ضمير أو صحوة من غفلة. لأنه يفعل ذلك عن عمد قال تعالى: ﴿ أتريدونَ أن تهدوا من أضلَّ اللهُ ومن يُضللِ اللهُ فلن تَجد له سبيلاً ﴾[1].

فالقتال الذي حصل في البصرة، لا يُسأل عنه علي ولا طلحة ولا الزبير ﷺ إذ أنهم كانوا أشدّ الناس رفضاً لكل فتنة ، تبيّن ذلك في فرحهم وسرورهم بما تمّ من الصلح واجتماع الكلمة ، وبما خرجوا من أجله وتجشموا الأخطار والمتاعب حتى يصلحوا بين أبناء الأمة ويمنعوا الفتن والقلاقل التي تقود إلى قتال الأشقاء والأخوة.

ولهذا لم تكن الحرب التي صنعها الخوارج السبئية ، قتالاً بمعنى الكلمة وذلك لما بات عليه الناس من الاطمئنان ، للصلح الذي تمّ ، وثقة المشاركين به لأنهم لا ينقضون ولا يغدرون ، وأن ما حصل ما هو إلا طارئ ، استجاب له بعض الأوباش والعبيد والغوغاء من الطرفين . أما عامة المسلمين وعقلاؤهم فلم يشاركوا في القتال إلا بقدر الحاجة والدفاع عن النفس .

وكان من أخلاقهم وأعرافهم « ورأيهم جميعاً في تلك الفتنة ألا يقاتلوا حتى يُبدَؤا. يطلبون بذلك الحجة ، ويستحقون على الآخرين - يطلبون الحق - ولا يقتلون مدبراً ، ولا يُجهزون على جريح ، ولا يتبعوا مولياً فكان ذلك مما اجتمع عليه الفريقان ونادى فيما بينهما »[2] وشهدها خزيمة بن ثابت الأنصاري فلم يشارك في أي قتال، ورغم كل ما حصل في تلك الموقعة« لم يسلّ سيفاً » لحذره من الفتنة.

ثم إنّ الفريقين قد خرجا لغاية عظيمة ومهمة جليلة هي الإصلاح والحيلولة دون رغبات الخوارج ، فإن حصلت مواجهات عنيفة في بعض مواضع ذلك القتال المفاجئ المصنوعة أسبابه ، فإنما كان في الزوايا التي اندس فيها الخوارج ولم يكن

---

(١) سورة النساء ، من الآية (٨٨) .

(٢) الطبري ، تاريخ ، ٥/٢٥٩ .

قتال من المسلمين في الطرفين ، إلا بقدر الدفاع عن النفس ، وردّ الأذى الذي يعمل الخوارج السبئية على جلبه وفرضه على المسلمين .

ومن صور تلك المواقفة التي جرت بين المسلمين في معركة السبئية « الجمل » عن عمرو بن مُرّة قال: « سمعت عبد الله بن سلمة والحارث بن سويد تذاكرا يوم الجمل ، فقال الحارث: لا والله ما رأيت مثل يوم الجمل ، لقد أشرعوا الرماح في صدورنا ، وأشرعناها في صدورهم ، حتى لو شاءت الرجال أن تمرَّ عليها لمرَّت فوالله لوددت أني لم أشهد ذلك اليوم وأنّ عليّ كذا »[1].

وعن الحارث بن جمهان الجُعفي قال: « لما كان يوم الجمل أشرعنا الرماح في صدورهم وأشرعوها في صدورنا ؛ حتى لو شاء ت الرجال أن تمشي على الرماح لفعلت. قال: وأنا أسمع هؤلاء يقولون: لا إله إلا الله والله أكبر ، وهؤلاء يقولون: لا إله إلا الله والله أكبر »[2]. هذا هو الذي حصل بين أخوة في الدين وأخوة في الدم ؟ مدافعة ومواقفة ، لا يجرؤ أحد على دم أحد .

وذكر لله تعالى يصحو عليه كل غافل ويتنبه به كل مخدوع ، ثم على ماذا يحصل قتال وما الذي فعله أي من الطرفين ضد الآخر ؟ فيما سوى مكر السبئية وكيدها ، ولا سيما أنّ قادة الجمعين قد اتفقوا وتعاهدوا على تسكين الفتنة والإصلاح بين الناس ، وهم الثقات الأخيار الصادقون وكذلك تزاور أبناء القبائل الواحدة التي كانت قسمين ، قسم مع أهل البصرة وآخر مع أهل الكوفة وتحدث بعضهم مع بعض ، وأيضاً تواصلهم وتراحمهم وسمرهم في تلك الليلة أخوة متحابين ، فما الذي جرى في الصباح ، حتى تصوّر تلك الحادثة على أنها حرب قتل فيها الألوف ومما يؤكد زيف الروايات التي تهوّل من الأحداث التي جرت بين المسلمين ولا سيما في معركة السبئية « الجمل » أنَّ قادة المسلمين فيها وإلى اللحظة

---

(١) ابن خياط ، تاريخ ، ١٩١.

(٢) المصدر نفسه ، ابن أبي شيبة ، المصنف ، ٨/٧١١.

الأخيرة منها كانوا ينهون عن القتال ، وهذا ما روي عن : محمد بن طلحة بن عبيد الله السجاد أنه: « أخذ بزمام الجمل فقال: يا أمتاه ، مُريني بأمرك . قالت: آمرك أن تكون كخير ابني آدم إن تُركت »[1] .

ومعلوم أن أم المؤمنين لم تكن تعلم بكل ما حصل ، إذ أنها باتت كبقية المسلمين بخير ليلة بعد أن تمّ الاتفاق على الصلح وتسكين الأمور ، للتمكن من إقامة الحدود والقصاص من الآثمين الذين أفسدوا بين الناس ، فضلاً عن أنها تحملت مشاق السفر البعيد لتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتدعو إلى الأُلفة والوحدة ، فكيف يُقبل أي اتهام أو تشكيك يوجه إلى غير الخوارج السبئية ؟ ومع الصفين وبين أظهرهم خير أهل الأرض في زمانهم ، الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة والشهادة فكان كما قال ﷺ . وهم علي وطلحة والزبير ﷺ .

الذين كانت أعمالهم كلها لله تعالى ، بل كانوا كلهم وكل ما يملكون لله تعالى. وإذا جعل البعض في ضميره حيزاً لمجرد الإصغاء لخبر يُشكك في صحة نوايا أولئك الأخيار وحرصهم على عقيدتهم وأمتهم وأخوتهم ، فإنه لن يجد بعدهم من هو محل ثقة له ، وذلك سيقوده للطعن في كل أمّة الإسلام ، لأنه لم يأت في الأمة بعد هؤلاء مثلهم أو قريب منهم وذلك بتزكية الله ورسوله ﷺ لهم .

وبما أن قادة الناس في تلك المحنة التي امتُحنوا بها من هذا الطراز الفريد من البشر ، فلا شك أنها ستُعالج بأصح الوسائل الشرعية والتي كلها رحمة ورأفة بالمؤمنين ، فكان من تلك الوسائل، الطبيعة الدفاعية في القتال والذي لم يزد في أكثر جوانبه عن الاحتياط وشهر السلاح والتساند على تلك الحال ، حتى تبيّن أنه لا مسوغ للقتال ، ولا سيما أن منادي الخليفة ﷺ ومنادي أم المؤمنين رضي الله عنها يأمران بالكف عن القتال . فإذا كان هناك قتال أو قتل فهو ما قامت به السبئية

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٥/٢٧١ .

وأوباشها ، يؤكد كل هذا مواقف الصحابة ﷺ في بداية القتال وما حصل لطلحة والزبير ، وفي نهايته ما قام به أمير المؤمنين الذي لم يكن عنده فرق بين من قتل من الطرفين ، فكان يدعو للجميع ويتألم للجميع ويصلي على الجميع .

موقف الزبير رضي الله عنه. تبين فيما سبق أن غاية من سار من مكة إلى البصرة هو الإصلاح بين الناس ، وتوحيد الكلمة والتعاون على إقامة الحدود وتطبيق الشرع وأن الزبير رضي الله عنه كان في مقدمة الدعاة إلى هذا ، ولما حصل اللقاء مع أمير المؤمنين في البصرة وتم الاتفاق على تسكين الأمر ، كان الزبير من أشد المسلمين تمسكاً به اتضح ذلك عندما عرض عليه بعض قادة البصرة القيام بعمل عسكري مفاجئ ضد أهل الكوفة وكل هذا سبقت الإشارة إليه .

فلما توثق الصلح وتأكد من الطرفين لم يعد هناك أي استعداد عند الزبير رضي الله عنه لخوض حرب مهما كان نوعها ، ولا سيما أن في الطرف الآخر أميره الذي بايعه في المدينة ولم يتحلل من تلك البيعة أو العمل على الوفاء لها لا في مسيره ولا في إقامته . فلما حصل القتال في صبيحة ذلك اليوم واختلطت الأمور على المسلمين الذين لا علم لهم بما يجري ولا بأسبابه ، نظر الزبير في أمره وفيما يجري حوله فعلم أنها الفتنة التي لا يُسدّ منها باب إلا ويُفتح عليهم باب غيره فلم يصح عنده القتال ضد جيش فيه أمير المؤمنين ، ولم يعد بإمكانه أن يأمر أو ينهى ، فعلم أن ليس أمامه سوى الخروج من هذه الحمأة وكف يده ولسانه ، كما فعل الخليفة عثمان رضي الله عنه وبقية من اعتزل من كبار الصحابة رضي الله عنهم ، وعلى هذا سار من ساحة المعركة دون أي مشاركة، وما ذلك إلا لأنه صح عنده الاعتزال والكف، فأقدم على ذلك فانصرف راحلاً نحو المدينة،بعد ما اختلفت الأمور ولم يعد هناك جدوى لبذل أي جهد للإصلاح الذي خرج من أجله[1]**أما ما يروى عن اللقاء الذي تم بين**

---

(١) ينظر : الحاكم ، المستدرك ، ٣/٣٦٦ .

أمير المؤمنين وطلحة والزبير[1] ﷺ فهذا مخالف لمجريات الأحداث وكيف يستطيع أولئك الصحابة ﷺ اللقاء في مثل تلك الحال التي يعمل فيها أكثر من ألفي رجل على إرباك الناس وإشغالهم بأنفسهم ، **ولو حصل مثل ذلك اللقاء ، لما زاد على أن يكونوا هدفاً للسبئية وأعداء الصحابة إذ أن طلحة والزبير هما أهم هدف لهم ولو شاهدوهما لما أمهلاهما يلتقيان مع أمير المؤمنين ولما أفسحوا لهم حتى يتحاوروا ويتحادثوا عن أمور مفروغ منها لا خلاف عليها وليس الوقت بوقتها** ، وما هي إلا من بنيات الخيال ثم أن مثل تلك الأمور التي ذكرت في ذلك اللقاء ، لو طرحت للنقاش لما وسعها وقت المعركة ولما فرغوا منها في يوم واحد ، و مما يحز بالنفس أنها تُطرح في أكثر كتب التاريخ على أنها حقائق دون أن يُبذل أي جهد في مناقشتها ولو فعلوا ذلك لكانوا أجدر من غيرهم بكشف الحقائق ، ولا سيما الذهبي وابن كثير وأكثر ما يبذله ابن كثير أنه يعرض هذه الرواية على أنها حقيقة مسلّم بها ، وبعد أن تُقدم للقارئ ضمن هذا المفهوم ، يقول في نهايتها: وفي هذا السياق عندي نظر. وقد يكون هذا كافياً للتنبيه والتحذير في عصره ، ولكن في مثل هذا العصر لا فائدة من مثل هذه العبارة عند كثير من قُرّاء التاريخ الإسلامي ، ويبدو أنه لا مناص من ذكر هذه الرواية لتكون نموذجاً عن غيرها ، روى ابن كثير « لما اشتد القتال يوم الجمل ، ورأى علي الرؤوس تندر ، أخذ علي ابنه الحسن فضمه إلى صدره ، ثم قال: إنا لله يا حسن ، أي خير يرجى بعد هذا .

فلما ركب الجيشان وترآى الجمعان ، طلب علي طلحة والزبير ليكلمهما فاجتمعوا حتى التفت أعناق خيولهم ، فيقال: أنه قال لهما: إني أراكما قد جمعتما خيلا ورجالا وعددا ، فهل أعددتما عذرا يوم القيامة ، فاتقيا الله ولا تكونا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ألم أكن حاكما في دمكما تحرمان دمي وأحرم

---

(١) ينظر: الطبري ، تاريخ ، ٥/٢٦٠ ، الذهبي ، عهد الخلفاء الراشدين ، ٤٨٩ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٧/٢٥٣.

دمكما فهل من حدث أحلّ لكما دمي ، فقال طلحة: ألّبتَ على عثمان ، فقال علـــي: «يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق » ثم قال: لعن الله قتلة عثمان ، ثم قال: يـــا طلحــة أجئت بعرس رسول الله تقاتل بها ، وخبأت عرسك في البيت أما بايعتني ؟ قـــال: بايعتك والسيف على عنقي . وقال الزبير: ما أخرجك ؟ قال: أما أنـــت ، ولا أراك بهذا الأمر أولى به مني ، فقال له علي: أما تذكر يوم مررت مع رسول الله ﷺ في بني غنم ، فنظر إلي وضحك وضحكتُ إليه ، فقلتَ: لا يدع ابن أبي طالب زهـــوه فقال لك رسول الله ﷺ أنه ليس بمزهو ، لتقاتلنه وأنت ظالم له « فقال الزبير: اللهم نعم ، لو ذكرت ما سرت مسيري هذا ، ووالله لا أقاتلك . **وفي هذا السياق كله نظــر** والمحفوظ الحديث »[١].

واللافت في هذه الرواية أن أولها صحيح وله شواهد أخرى تؤكده . وهذا مـــا يؤكد أحد أساليب الدس في التاريخ الإسلامي والتي منها ، أن يضاف إلـــى الخـــبر الصحيح أخبار مغلوطة ، فيزاد عليه ما يقاربه في مجريات الحدث ، ويخالفه فـــي حقيقة المعنى .

وهذه الطريقة في تشويش أخبار التاريخ الإسلامي ، من أهم الوســـائل التـــي استخدمت لطمس الحقائق وإفساد الأخبار .

وإلا كيف يتفرغ قائد عسكري في معركة اشتد فيها القتال وأصبح جنـــده فـــي أمس الحاجة إلى وجوده من ترك موقعه ، والذهاب إلى خصومه لا يخـــاف علـــى نفسه أن يُقتل أو يُؤسر ، لا ليتكلم في أمر يخص الحدث ، مثل البحث في وســـيلة لإيقاف القتال ، أو لعقد اتفاق أو هدنة، أو أي شيء يتعلق بواقع الحال الذي جاء به الخبر . فبدلاً من أن يتحدث هذا الخبر عن سبب القتال والمستجدات التي أفســـدت اتفاق الصلح ، يتحدث عن قضية لم تكن محل خلاف بين هؤلاء الثلاثـــة ، وهـــي

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٥٢/٧ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٢٢/٣ .

قضية الخلافة ومن هو أهل لها ، أو أحق بها من غيره ، في مهاترات هي أبعد ما تكون عن أخلاق أصحاب رسول الله ﷺ .

وكذلك قضية البيعة والإيحاء فيها أنّ علياً رضي الله عنه ، أكره طلحة والزبير عليها . ثم عن مسير أم المؤمنين ، وكيفية قبولهما له ، ولوم طلحة على ذلك ، وكيف أجاز مجيء أم المؤمنين ، ولم يأت بزوجته ، وكأن هناك امرأة أخرى في المجتمع الإسلامي آنذاك من الممكن أن تقوم مقام أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بفقهها وفصاحتها وحكمتها ، فضلاً عن مقامها عند رسول الله ﷺ وعند أمته.

وبعد أن يُلصق هذا الخبر بالزبير رضي الله عنه أنّه يرى نفسه أولى بالخلافة من علي رضي الله عنه يتحول الحال من النزاع على الأولوية بالخلافة إلى انقياد تام من الزبير للخليفة ، ثم يعتذر عمّا بدر منه ، ويُقسم له أنه لا يقاتله ، ثم ينتهي الخبر.

وكثير من الأخبار يجري نسجها على هذا المنوال ، فتطفو على السطح ويتداولها الناس وتُطمس الحقائق ، فيبقى طلاب الحقيقة في حيرة من أمرهم لما يجدون من تداخل الأمور وتناقض الأخبار .

فأما حقيقة الحديث الذي وضع في هذا الخبر التاريخي ، فإنه حديث ضعيف[1] وإذا كان له وجه من الصحة، فإنه يُضاف إلى أسباب مسير الزبير رضي الله عنه ، المتمثلة

---

(١) الحاكم ، المستدرك ، ٣٦٦/١، ٣٦٧/١ ، وينظر: الغيث ، استشهاد عثمان ، ٢٠٠١ وقال: هذا الخبر قد أخرجه أبو يعلى في المسند ، ٣٢/١ ، من طريق واحد ، والحاكم من خمس طرق ، وبدراسة الروايات اتضح ، ضعف إسناد رواية أبي يعلى ، لأن فيها عبد الملك بن مسلم الرقاشي ، قال عنه البخاري: لم يصح حديثه ، ينظر: المزي ، تهذيب الكمال ، ٨٦٣/٢ . وقال عنه ابن حجر: لين الحديث ، التقريب ، ٣٦٥.

أما روايات الحاكم ، فتبين ضعف إسناد الرواية الأولى ؛ لأن فيها راو مجهول هو محمد بن سليمان العابد ، قال عنه الذهبي ، لا يعرف ، والحديث فيه نظر ، تلخيص المستدرك ٣٦٦/٣ « مطبوع بهامش المستدرك » . =

في الإصلاح بين الناس ، وإقامة الحدود ، فلما تعسّر ذلك بعد الاشتباك الذي حصل في البصرة، وتبين للزبير أن هدفه الذي خرج من أجله لم يعد بإمكانه تنفيذه ، وهو لم يكن وارداً عنده مقاتلة أحد من المسلمين فيما سوى من وجب عليهم الحد، فضلاً عن قوم فيهم أمير المؤمنين ، لم يعد أمامه سوى الخروج من ساحة الفتنة ، التـــي ترك المدينة ومسجد رسول الله ﷺ وأهله فيها للنجاة منها وهذا ما فعله رضـــي الله تعالى عنه ، لتبقى مناقبه نقية ندية كما أخبر عنها رســـول الله ﷺ في مثل قولـه: « **إن لكل نبيّ حوارياً وحواريّ الزبير** »[١].

وقول حسان بن ثابت فيه:

أقـــــام على عهد النبي وهديــــــه	حواريُّه والقول بالفعل يكمـــــل
أقـــــام على منهاجه وطـــريقـــــه	يوالي وليَّ الحقِّ والحقُّ أعــدلُ
هو الفارسُ المشهورُ والبطل الذي	يصولُ إذا ما كان يوم مُحجَّــل
إذا كشفت عن ساقها الحربُ حشَّها	بأبيض سبَّاق إلى الموت يُرْقِــلُ[٢]
فـــمـــا مثلــه فيهم ولا كان قبلـــه	وليس يكون الدهرُ ما دام يَذْبُــلُ[٣]

= وكذلك ضعف إسناد الرواية الثانية والثالثة ؛ لأنها من مراسيل أبي حرب بن أبي الأسود الديلي لأن أبا حرب لا يروي عن علي رضي الله عنه وإنما عن أبي الأسود.

ضعف إسناد الرواية الرابعة والخامسة، لأن فيهما ، عبد الملك بن مسلم الرقاشي ، الذي قال عنه البخاري : لا يصح حديثه.

لهذا فإن هذا الحديث وبهذه الطرق وبما رواه ابن كثير ، لا يثبت قتال الزبير لعلي رضي الله عنهما ؛ لضعف إسناد تلك الروايات . والله أعلم .

(١) البخاري، مع شرحه فتح الباري، ك، فضائل أصحاب النبي ﷺ ، باب، مناقب الزبير، ح (٣٧١٩).
مسلم ، صحيح مسلم ، ك فضائل الصحابة ، باب فضائل الزبير ، ح (٢٤١٥).
الطبراني ، المعجم الكبير ، ١/١١٩ ، ح (٢٢٧).

(٢) يُرقِل: يسرع في المشي إلى الحرب ، والإرقال: سرعة سير الإبل .

(٣) يَذْبُل: جبل مشهوربنجد قال امرئ القيس: فإن كنت تلحاه لتنقل مجدنا لسبرة فانقل ذا المناكب يَذْبُلا

ثناؤك خير مـــن فعال معاشــــــر وفعلك يا بن الهاشــمّية أفضــل
فكم كُربةٍ ذبَّ الـــزّبير بـــسيفــه عن المصطفى والله يعطي فيجزل[1]

ومناقب الزبير ﷺ كثيرة ، ومشاهده عظيمة ، تلجم كل أفاك يحاول النيل منه ﷺ ، وذكر ابن كثير بعض مناقبه وأشار إلى بعض مشاهده ، فقال: « وخرج إلى الشام مجاهداً ، فشهد اليرموك ، فتشرفوا بحضوره وكانت له اليد البيضاء والهمـــة العلياء ، اخترق جيوش الروم وصفوفهم مرتين من أولهم إلى آخرهم وكان مـــن جملة من دافع عن عثمان وحاجف عنه »[2].

استشهاد الزبير رضي الله عنه

لما اشتبك القتال الذي انشبته السبئية ولم يعد هناك موضع لجهود الإصلاح بين الناس ، انطلق الزبير عائداً باتجاه المدينة معتزلاً الفتنة لكي لا يرمي فيها بسهم ولا حجر ولا يُرمى ، وتبعه في مسيره ذلك « عمرو بن جرموز ، وفضالة بن حابــس ونُفيع ، في طائفة من غواة بني تميم »[3] وذُكرت عدة أقوال في استشهاده منها: أنّ هؤلاء تعاونوا عليه حتى قتلوه، ويقال: بل أدركه عمرو بن جرموز التميمي، فجعل يحدثه وكان وقت الصلاة ، فقال له الزبير: الصلاة ، فقال: الصلاة ، فتقدم الزبـــير ليصلي فطعنه عمرو بن جرموز فاستشهد ﷺ . ويقال: بل أدركه عمرو بـــوادي السّباع ، وهو نائم في القائلة ، فهجم عليه فقتله ، وهذا القول هو الأشهر ، ويشهد له شعر امرأته عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيـــل ، وكانـــت آخر من تزوجهـــا فرثته بقصيدة منها قولها:

---

(١) الذهبي ، عهد الخلفاء الراشدين ، ٥٠٠ ، ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ٥١٤/٢ .

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٦١/٧، البسوي ، المعرفة والتاريخ ، ٣١٢/٣ .

(٣) المصدر نفســه .

غدر ابن جرموز بفارس بهمة | يوم اللقاء وكان غـر معـرد
يــا عمرو لو نبهته لوجدته | لا طائشاً رعش الجنان ولا اليد
ثكلتك أمك أن ظفرت بمثلـه | ممن بقي ممن يروح ويغتـدي
كم غمرة قد خاضها لم يثنـه | عنها طرادك يا ابن فقع الفردد
والله ربي إن قتلت لمسلمـاً | حلت عليك عقوبـة المتعـمد[1]

وعن زر بن حُبيش قال: استأذن ابن جرموز على علي: فقال من هذا ؟ فقـال: « ابن جرموز يستأذن ، فقال ائذنوا له ، ليدخل قاتل الزبير النار إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن لكل نبيّ حواريّ وإن حواريّ الزبير »[2].

وعن منصور بن عبد الرحمن قال: قلت للشعبي: أبلغك أنّ النبي ﷺ قـال : « أثبت حراء فليس عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد ، فقال: نعم ، قلت مـن كـان على الجبل يومئذ ، قال: علي وعثمان وطلحة والزبير ، وأنت وأصحابك يقولـون لبعض الجنة ، وبعض في النار ، فقلت يا أبا عمرو ممن سمعته ؟ فقال: والله لـو حدثتك أنـي سمعته من ألف إنسان لرأيت أني صادق »[3].

وعن الشعبيّ قال: « أدركت خمسمائة أو أكثر من أصحـاب رسـول الله ﷺ يقولون: علي وعثمان وطلحة والزبير في الجنّة »[4].

وفيه يقول الشاعر جرير:

إنّ الرزية مَنْ تضمَّن قـبره | وادي السّباع لكلِّ جنب مَصرَعُ

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٦٢/٧ ، وينظر: الطبري ، تاريخ ، ٢٧٧/٥ ، ابن الأثيـر ، الكامـل ١٢٥/٣.

(٢) ابن حنبل ، فضائل الصحابة ، باب فضائل الزبير ، ح (١٢٧٣) .

البخاري ، مع شرحه فتح الباري ، ك فضائل أصحاب النبي ﷺ ، باب فضائل الزبير (٣٧١٩) .

(٣) ابن حنبل ، فضائل الصحابة ، باب فضائل الزبير ، ح (١٢٧٤) .

(٤) الذهبي ، عهد الخلفاء الراشدين ، ٥٠٧ ، ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ٣٠١/٤ .

لما أتي خبر الزبير تواضعت سور المدينة والجبال الخشّع[1]

ووادي السباع على سبعة فراسخ من البصرة[2]. وروي أنّ ابن جرموز بعدما فعل فعلته الشنعاء وباء بالإثم العظيم ، ذهب إلى عليّ فاستأذن عليه فقال علي رضي الله عنه: لا تأذنوا له وبشروه بالنار، وقال علي: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: بشر قاتل ابن صفية بالنار « ولما رأى علي سيف الزبير قال: إنّ هذا السيف طالما فرّج الكرب عن وجه رسول الله ﷺ فيقال: إنّ عمرو بن جرموز لما سمع ذلك قتل نفسه ، وقيل غير هذا[3] والله أعلم .

ولما استشهد الزبير رضي الله عنه كان عليه ديون كثيرة، لكنه خلّف تركة عظيمة جمعها من الصدقات الكثيرة والمآثر الغزيرة مما أفاء الله عليه من الجهاد ومن خمس الخمس مما يخص أمه صفية رضي الله عنها ، ومن التجارة المبرورة والخلال المشكورة ، وكان عظيم الصدقة ، وكان استشهاده في شهر جمادى الآخرة من سنة ست وثلاثين فيما يُسمى يوم الجمل ، أو فتنة السبئية في البصرة رضي الله عنه وأرضاه .

---

(١) الذهبي ، عهد الخلفاء الراشدين ، ٥٠٧ ، ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ٣٠١/٤.

(٢) المصدر نفسه .

(٣) ينظر: ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٦٢/٧ . وينظر : ابن حجر ، فتح الباري ، شرح الحديث (٣٧١٩) قال: وكان استشهاد الزبير ، في شهر رجب سنة ست وثلاثين .

وروي أن أمير المؤنين « دعا بالسيف فقال: سيف طالما جلّى الكرب عن وجه رسول الله ﷺ وبعث بذلك إلى عائشة » الطبري ، تاريخ ، ٢٧٧/٥.

ويعرف بطلحة الخير ، وطلحة الفياض لكرمه وكثرة جوده ، وكان أبو بكر الصديق إذا ذكر يوم أحد قال: ذاك يوم كله لطلحة[١].

وقد تبين فيما سبق أنه سار من المدينة إلى مكة لما رأى من هيمنة الخوارج السبئية ثم سار من مكة إلى البصرة ، بقصد الإصلاح بين الناس وجمع الكلمة والتعاون على إقامة الحدود ، وهناك تصدى لهم حُكيم بن جبلة ومن معه من السبئية والغوغاء ، فكفوا عنه وهو يتابعهم ويقتحم عليهم ويهاجمهم حتى قتلوه دفاعاً عن أنفسهم .

ثم قدم أمير المؤمنين إلى البصرة والتقى بطلحة والزبير ، فاتفقوا على تسكين الأمور والإصلاح بين الناس ، فكان ذلك الاتفاق هو السبب المباشر لمؤامرة السبئية الثانية ؛ التي راح ضحيتها طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه الذي كان أول قتيل في صباح يوم الوقعة التي أوقدت نارها السبئية ومن تعاطف معهم من الغوغاء ، ولم يكن من قصد طلحة القتال ، ولم يكن ليقاتل جيشاً أو صفاً فيه أمير المؤمنين رضي الله عنه ، ولكن لما كانت السبئية تمثل « **مقدمة جيش الكوفيين ، وكان عبد الله بن سبأ ، وهو ابن السوداء وأتباعه بين يدي الجيش يقتلون من قدروا عليه من أهل البصرة ، لا يتوقفون في أحد** »[٢].

فكان طلحة رضي الله عنه يمثل خير هدف لهم ، ولما لم يكن ينوي القتال ولا علم له بما مكرت به السبئية ، كان مكشوفاً لهؤلاء الخوارج فرموه حتى جاءه سهم قيل بركبته وقيل في نحره

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٧/٢٥٩ .

(٢) المصدر نفسه ، ٧/٢٥٤ ، ابن الأثير ، الكامل ، ٣/١٢٥ .

والأول أشهر[1]، فنزفه الدم حتى استشهد رضي الله عنه ، فكان أول شهيد يقع في ذلك اليوم[2].

ولما دار علي بين القتلى « رآه فجعل يمسح عن وجهه التراب ، وقال: رحمة الله عليك أبا محمد ، يعز عليّ أن أراك مجدولاً تحت نجوم السماء ، ثم قال: إلى الله أشكو عُجري وبُجري ــ أي سرائري وأحزاني التي تجول في جوفي ــ والله لوددت إني كنت متّ قبل هذا اليوم بعشرين سنة »[3].

وهذا ما يؤكد ما سبق ذكره من ضعف الرواية التي تذكر لقاء أمير المؤمنين مع طلحة والزبير رضي الله عنهما بعد نشوب القتال ، فلو تم لهم اللقاء لتوقفت المعركة ولعلم كل منهم أن الآخر لم يغير ولم يبدل وهو أحرص ما يكون على الصلح ، بل لو رآهم السبئية في ذلك اليوم مجتمعين لما أمهلوهم حتى يتفهموا أسباب اندلاع القتال ولأعجلوهم بسهام الغدر كما فعلوا بطلحة رضي الله عنه لأنهم يعلمون أن اجتماع هؤلاء الثلاثة، لن يكون إلا على الإصلاح وإقامة الحدود التي سيبدأون بتطبيقهاعليهم أولاً.

ومما يؤكد ما سبق أنه « استأذن ابن جرموز الذي قتل الزبير أو أشرك في قتله على علي ، فرأى في الإذن جفوة ، فلما دخل على علي ، قال: أمّا فلان وفلان فيؤذن لهما وأمّا أنا فلا قاتل الزبير قال له علي: بفيك التراب ، بفيك التراب ، إني لأرجو أن أكون أنا والزبير وطلحة من الذين قال الله عز وجل: « ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين »[4] .

---

(1) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٧/٢٥٨.

(2) ابن خياط ، تاريخ ، ١٨٥ . ابن حجر ، فتح الباري ، ك فضائل أصحاب النبي ﷺ ، شرح الحديث (٣٧٢٤) وشرح الحديث (٧٠٩٩) .

(3) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٧/٢٥٩ . الذهبي ، عهد الخلفاء الراشدين ، ٥٢٨.

(4) ابن حنبل ، فضائل الصحابة ، باب فضائل طلحة ، ح (١٢٩١) و (١٢٩٥) و (١٢٩٩) ، الذهبي عهد الخلفاء الراشدين ، ٥٢٨.

ولما « دخل عمران بن طلحة على علي بعدما فرغ من أصحاب الجمل قال: فرحب به وقال إني لأرجوأن يجعلني الله وأباك من الذي قال الله عزوجل: ﴿ إخواناً على سرر متقابلين ﴾ قال ورجلان جالسان على ناحية البساط فقالا الله عزّ وجلّ أعدل من ذلك تقتلهم بالأمس وتكونوا إخواناً في الجنة قال علي: قوما أبعد أرض الله واسحقها ، فمن هو إذا لم أكن أنا وطلحة قال: ثم قال لعمران: كيف أهلك من بقي من أمهات أولاد أبيك ، أما إنّا لم نقبض أرضكم هذه السنين ونحن نريد أن نأخذها ، إنما أخذناها مخافة أن ينتهبها الناس ، يا فلان اذهب معه إلى قَرَظَة[1] فمره فليدفع إليه أرضه ، وغلة هذه السنين ، يا ابن أخي جئنا في الحاجة إذا كانت لك »[2].

فيتضح من هذه الأحاديث قوة الرابطة الأخوية بين علي وطلحة والزبير رضي الله عنهم وزيف الروايات التي تشكك بنقاء وصفاء تلك الأخوّة ، وتؤكد الغدر الذي قامت به السبئية وإيقاع القتال بين المسلمين ، وتظهر استباحة هؤلاء لدماء المسلمين من خلال رد هذين الرجلين الذين كانا في مجلس أمير المؤمنين وهما الحارث الأعور وابن الكواء اليشكري[3] وهما من قادة الخوارج السبئية ، وأن السبئية هي التي قتلت طلحة رضي الله عنه مستهدفينه بسهامهم كأول هدف لهم ، لأنه يمثل أخطر عدو عليهم طالما أنّه داعية للإصلاح والوحدة ، كما أنّ أتباعهم هم الذين اغتالوا الزبير ولو أنهم رأوا الأمور تستقيم لصالحهم لاغتالوا أمير المؤمنين للسبب ذاته الذي اغتالوا من أجله الشهداء الثلاثة عثمان وطلحة والزبير رضي الله عنهم وهذا أيضاً مما يكشف زيف الروايات التي تتهم مروان بن الحكم برمي طلحة بالسهم الذي قتله

---

(١) قرظة بن كعب الأنصاري ، ولاه علي على الكوفة وكانت له دار فيها فتح الله على يديه الري زمن عمر سنة ثلاث وعشرين ، ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ١٣٠٦/٣ .

(٢) ابن حنبل ، فضائل الصحابة ، باب فضائل طلحة ، ح (١٢٩٨) و (١٢٩٩) .

(٣) ينظر: ابن سعد ، الطبقات ، ١٢٠/٣ ، الحاكم ، المستدرك ، ٣٧٦/٣.

وهذه الفرية التي لا يقبلها عقل ولا دين ، لا يكاد يخلو منها كتاب من كتب التـاريخ إلا ويرويها ويرددها دون أي مناقشة أو دراسة ، وأكثر ما قال فيها ابن كثير عندما ذكر رواية مخالفة تقول: « وقد قيل أن الذي رماه غيره ، وهذا عندي أقـــرب »[1] وذلك بعد أن يورد كغيره عدة روايات كلها تتهم مروان بهذه التهمة ، ولا غرابـــة فهناك روايات مشابهة تودّ لو أنها تمكنت من إلصاق تهمة قتل الخليفة عثمان بــــه كما اتهمته بكتابة الكتب التي كتبتها السبئية وزوّرتها على لسان الخليفـــة وأعــلام الصحابة رضي الله عنهم .

علماً أنّ أي مُطّلع على سير أحداث تلك المرحلة ، مـــع شـــيء قليـل مــن الملاحظة والإنصاف تظهر له براءة مروان من كل ما نُسب إليه ، إذ أنّه كان أحـد كتاب عثمان وابن عمّه وأكثر الناس شفقة عليه ، ومن أحرص الأمّة على اسـتقرار خلافته وسلامة شأنه ، صدّق ذلك باستماتته في الدفاع عنه ، حتى جــرح جراحـاً جعلت الناس لا يُميزّونه أمن الأحياء أم من الأموات[2]، ثم مســـيره مـع طلحـة والزبير ومن معهما للغاية ذاتها، بل إنه وجد في طلحة والزبير خير معيــن علـى شفاء صدره ممن اغتال خليفة المسلمين ، فكان من الجند المطيعين في ذلك المسير ولم تبدر منه أي بادرة خلاف لكي تُبنى عليها الأباطيل فتُلصق به التهم .

ومع كل ذلك يُتهم بقتل قائده وقريبه ونصيره طلحة رضي الله عنه حتى لا يكاد يخلـــو كتاب من كتب التاريخ إلا وروى أنّ مروان رمى طلحة بسهم فقتله ، ولكـــن هـل سأل أحد من أولئك المؤرخين لماذا يرمي مروان قائده فيتسبب بهزيمـــة أنصـــاره وإخوانه وأقاربه، ويُعرّض نفسه إلى جراحات كادت تودي بحياته وتُوقعه في أسـر

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ، ٧/٢٦٠.

(٢) ينظر: الطبري ، ٥/١٧٣ روى لما قال عثمان رضي الله عنه: « إني لصابـــر كما عهـد إليّ رســـول الله صلى الله عليه وسلم لأصرعن مصرعي الذي كتب الله عزّ وجل . فقال مروان: والله لا تقتل وأنا أسمع الصوت ، ثم خرج بالسيف على الباب ، فقاتل حتى سقط فما ينبض منه عرق ، ٥/١٧٣ ، ٥/١٧٤ .

السبئية ؟. علماً أنّ هناك روايات صحيحة وردت في هذا الباب تبين من الذي رمى طلحة رضي الله عنه ولكن هذه الروايات القليلة طُمست بذلك السيل من الروايات التي تدفع الشبهات عن السبئية وتركز على اتهام السلف بكل ما جرى من مصائب أصابت الأمة ، مما يؤكد أن الأيدي التي رمت السهام على عثمان وطلحة والزبير ثم علي رضي الله عنهم ، هي نفسها التي كتبت كل صفحات التشويش والتشكيك في التاريخ الإسلامي ، وذلك لإثارة الأحقاد والضغائن بين أبناء الأمة ، ولدفع الشبهات عن المنحرفين والمبتدعة ليواصلوا الدس والكيد حتى يبقى أبناء هذه الأمة حيارى ، فلا يجدون مكرمة للسلف إلا وقد أُلصق بها ما يشوشها من فرية أو تهمة ، لإزالة أنوار تلك المكارم وآثارها وصد الأجيال عن منهج الأجداد ومنهج السلف ومنهج النبوة .

فهذا ابن سعد يسرد في الطبقات عدداً من الروايات التي تتهم مروان برمي طلحة ، وذلك أثناء القتال ليساهم بهزيمة من جاء معهم ، فهل كان مروان سبئياً ؟ أم أنه كان من أهدافهم التي لا تقل عن طلحة والزبير رضي الله عنهما ؟. وبعد أن يُنهي كل ما لدية من حديث عن طلحة رضي الله عنه ، يأتي برواية ختم بها حديثه وعلى استحياء ، بل كأنّه على وجل ، قال: « جاء رجل يوم الجمل – إلى علي– فقال: إئذنوا لقاتل طلحة . قال فسمعت علياً يقول: بَشّرْه بالنار[1] » فهل كان بإمكان مروان أن يذهب إلى الخليفة ليخبره بمثل هذا الخبر ، وهل كان السبئية يدعونه يرى الخليفة لو شاهدوه أم أنّ رامي طلحة هو أحد غوغاء السبئية الأجلاف ؟ الذي كان يعتقد أنّ قتل طلحة يسرّ علياً ؛ ولا يُحزنه ويدمي قلبه ، لذلك جبهه علي رضي الله عنه بهذه البشارة التي ستنتزع منه كل راحة وطمأنينة واستقرار .

كما فعل رضي الله عنه مع من أنكر أخوّته لطلحة والزبير رضي الله عنهما عندما قال: « إني لأرجو أن أكون أنا والزّبير وطلحة ممن قال الله عزّ وجلّ : ونزعنا

---

(١) ابن سعد ، الطبقات ، ٣/١٢٠ ، الذهبي ، عهد الخلفاء الراشدين ، ٤٨٧ .

ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين قال: « **فقام رجل من همدان[1] فقال: الله أعدل من ذلك يا أمير المؤمنين: قال فصاح به علي صيحة يدهده لها القصر ، ثم قال: من هم إذا لم نكن نحن هم ؟** »[2].

ومما سبق يتبين بطلان ما اتُهم به مروان بن الحكم من رمي طلحة رضي الله عنه بسهم وذلك أنهما كانا في صف واحد، وأنّ مروان تعرّض لكل الأخطار بعد أن فقد طلحة كما أنّ هذا الخبر لم يأت في رواية صحيحة ، **وأنه يهدف إلى التعمية والتستر على قتلة عثمان** رضي الله عنه ، **لأن اتهام مروان بهذه التهمة ، يُقصد منه إثبات اتهام طلحة بقتل عثمان** رضي الله عنه **ومن هنا تأتي خطورة مثل هذه الأكاذيب !!** .

ولهذا قال ابن العربي عن هذا الخبر: « ومن يعلم هذا إلا علاّم الغيوب ، ولم ينقله ثبت ؟ »[3] وقال عنه محب الدين « وهذا الخبر عن طلحة ومروان « لقيط » لا يُعرف أبوه ولا صاحبه »[4]. ولكنّ الأمر أكبر من مسألة خبر مكذوب أو لقيط لأنه يهدف إلى تبرئة القاتل واتهام القتيل ، كما تفعل السبئية المعاصرة وغوغاؤها في هذه الأيام تماماً ،إذيتهمون العرب والمسلمين بالإرهاب ، وهم يحتلون أرضهم وينتهبون اقتصادهم وينتهكون مقدساتهم ويسفكون دماءهم ، ويجردونهم من كل أنواع السلاح وأسباب القوة ، في الوقت الذي يبيحون فيه لأنفسهم امتلاك كل أنواع الأسلحة المدمرة لكل أنواع الحياة البشرية وغيرها .

---

(١) قال ابن سعد : « الحارث الأعور الهمداني » وهو أحد زعماء الخوارج ، الطبقات ، ٣/١٢٠.

(٢) ابن حنبل ، فضائل الصحابة ، باب فضائل طلحة ، ح (١٣٠٠) .

(٣) ابن العربي ، العواصم من القواصم ، ١٦٠.

(٤) المصدر نفسه .

موقف أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها

ظهر في طيات هذا البحث أن مقصد أم المؤمنين بعد استشهاد الخليفة عثمان ﷺ هو إعادة كلمة المسلمين إلى ما كانت عليه من الوحدة والألفة ، لذلك كان لا بد من السعي لتحقيق هذا الهدف الذي لا يتم إلا بالإصلاح بين الناس ، ولما كانت أم المؤمنين موضع الثقة في الأمة ، اعتقد طلحة والزبير ومن معهم من المؤمنين أنه إن سارت أم المؤمنين في صف من المسلمين فلن يقف أحد في وجهها ، لما لها من المكانة في قلوب أمة محمدﷺ . لهذا طلب منها أن تسير مع من سار من مكة إلى البصرة ، ليتم الإصلاح بين الناس ، كما هو شأن كل وفد يسعى في الإصلاح إذ أنه سيكون حريصا على أن يكون فيه من وجوه الناس وصلاحهم وعلمائهم حيث أنهم موضع القبول والطاعة . وكون كل هذه المواصفات متوفرة في أم المؤمنين[١]، حرص المجتمعون في مكة أن تكون معهم يتباركون بمرافقتها لهم وليتذكر الناس فيها قرب صلتهم بالنبي ﷺ وحقوق الأمومة، فيتم الصلح بين الناس ثم تقعد أو ترجع إلى بيتها وعلى هذا المقصد الكريم مقصد الإصلاح وتوحيد القلوب ، سارت أم المؤمنين وبذلت ما في وسعها بكل أمانة وشجاعة وإخلاص .

وقد تمكنت من تجنيب المسلمين في البصرة كثيرا من المخاطر ، وحققت كثيرا من المقاصد التي سارت من أجلها ، حتى توحد أهل البصرة وأصبحوا يدا واحدة على أهل البغي والفساد ، بعد أن طهرت من السبئية والغوغاء .

ولم يكن أهل الكوفة يختلفون عن أهل البصرة، في ثقتهم بأم المؤمنين رضي الله عنها وقد سبق ذكر خطبة عمار في أهل الكوفة وشهادته لأم المؤمنين بأنها

---

(١) البخاري ، مع شرحه فتح الباري ، ك فضائل أصحاب النبي ﷺ ، باب فضل عائشة ، الأحاديث (٣٧٦٨.... ٣٧٧٥) .

زوجة النبي ﷺ في الدنيا والآخرة[1]، وقول من قال له: يا أبا اليقظان ، إنا مع من شهدت له بالجنة على من لم تشهد[2]. وإقرار من سمع ذلك من الصحابة في مسجد الكوفة به[3]. وشتم واحتقار من حاول انتقاد مسير أم المؤمنين في مساعي الإصلاح وذلك في مسجد الكوفة أيضا ، والرد على نقده وأن أم المؤمنين رضي الله عنها « ما أمرت إلا بما أمر الله عز وجل به بالإصلاح بين الناس »[4] وتأكد ذلك في ردها على القعقاع بن عمرو سفير أمير المؤمنين[5]، **وإرسالها « إلى علي تعلمه أنها إنما جاءت للإصلاح »**[6].

ومع كل هذه التأكيدات التي لم يذكر فيها شيء اسمه الحث على القتال فإن الخوارج السبئية ، عملوا كل ما في وسعهم لإفساد مساعي أم المؤمنين ، لأنهم أعداء لما تريده من الإصلاح والاستقرار والعمل بالقرآن ، وهم ما خرجوا إلا لطمس هذه المعاني . فلما رأوا ما حققه دعاة الإصلاح وفي مقدمتهم أم المؤمنين من نجاح كبير في مساعيهم . بدأوا بتنفيذ مؤامرتهم الثانية على المسلمين ، وفي ظلمة الليل وكما يفعل اللصوص ، أنشبوا القتال بين أهل الكوفة وأهل البصرة وزعموا ما زعموا من البهتان على الصالحين وأصبح همهم أن يستمر القتال وأن يوقعوا أكبر قدر من القتلى ، وأصبح هم الصالحين من الفريقين إيقاف القتال ، ولما لم يتمكن أمير المؤمنين رضي الله عنه ، من السيطرة على السبئية والغوغاء في جيشه واستشهد طلحة واعتزل الزبير رضي الله عنهما لم يبق سوى الاستعانة بأم

---

(١) البخاري ، مع شرحة فتح الباري ك فضائل أصحاب النبي ﷺ ، باب فضائل عائشة رضي الله عنها: ح (٣٧٧٢) .

(٢) الطبري ، تاريخ ، ٢٤٢/٥ .

(٣) ابن حزم ، الفصل ، ١٣٤/٤ .

(٤) الطبري ، تاريخ ، ٢٤٣/٥ .

(٥) المصدر نفسه ، ٢٤٧/٥ .

(٦) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٥٠/٧ .

المؤمنين وتعريضها للخطر في مثل ذلك الموقف الرهيب الذي كان السبئية فيه مندسين بين الصفوف ، ينشبون بسهامهم الحرب في كل زاوية تصل أيديهم إليها.

فأقبل كعب بن سور قاضي البصرة رحمه الله تعالى ؛ « حتى أتى عائشة رضي الله عنها فقال: أدركي فقد أبى القوم إلا القتال ، **لعل الله يصلح بك** ، فركبت وألبسوا هودجها الأدراع ، ثم بعثوا جملها »[١].

فجاءت أم المؤمنين رضي الله عنها « من منزلها الذي كانت فيه حتى نزلت في مسجد الحدان في الأزد ، وكان القتال في ساحتهم »[٢] ويبدو أن هذا المكان بني فيه قصر لعبيد الله بن زياد فيما بعد ، فذكر أن موقع القتال ، كان قصر عبيد الله ابن زياد[٣]. فقالت أم المؤمنين رضي الله عنها: « **خل يا كعب عن البعير ، وتقدم بكتاب الله عز وجل فادفعهم إليه ، ودفعت إليه مصحفا. وأقبل القوم وأمامهم السبئية يخافون أن يجري الصلح ، فاستقبلهم كعب بالمصحف ، وعلي من خلفهم يزعهم – يكفهم – ويأبون إلا قدما ، فلما دعاهم كعب رشقوه رشقا واحدا فقتلوه ، ورموا عائشة في هودجها ، فجعلت تنادي: يا بني البقية البقية ، ويعلو صوتها كثرة ، الله الله اذكروا الله عز وجل والحساب فيأبون إلا إقداما ، فكان أول شيء أحدثته حين أبوا، أن قالت: أيها الناس العنوا قتلة عثمان وأشياعهم ، وأقبلت تدعو. وضج أهل البصرة بالدعاء ، وسمع علي بن أبي طالب الدعاء فقال: ما هذه الضجة ؟ فقالوا: عائشة تدعو ويدعون معها على قتلة عثمان وأشياعهم ، فأقبل يدعو ويقول: اللهم العن قتلة عثمان وأشياعهم** »[٤].

« وهكذا اشترك صالحوا الفريقين في لعن قتلة عثمان أمير المؤمنين الشهيد المظلوم في الساعة التي كان فيها قتلة عثمان ينشبون القتال بين صالحي

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٥/٢٥٩، ابن الأثير ، الكامل ، ٣/١٢٤.

(٢) الطبري ، تاريخ ، ٥/ ٢٥٦.

(٣) ابن خياط ، تارخ ، ١٨٤، الذهبي ، عهد الخلفاء الراشدين ، ٤٨٥.

(٤) الطبري ، تاريخ ، ٥/٢٦٢. ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٧/٢٥٤، ابن الأثير، الكامل، ٣/١٢٥.

المسلمين»[١] والذي يظهر من متابعة الروايات عن القتال في ذلـــك اليــوم ، يجــد تخليطا كثيرا وتناقضا ظاهرا جليا ، لا يخلو في أكثره من اتهام للصحابة الأبـــرار في كل من الفريقين بتهم لا تليق بهم وتناقض عدالتهم .

ولكن الذي يبدو أن القتال حصل بالصورة التي تم ذكرها ، بالموافقة والمساندة والمدافعة ، ولم تكن هناك جرأة على القتال إلا في المواقع التي يوجد فيها الخوارج السبئية ، يؤكد ذلك أن طلحة ﷺ كان أول قتيل في ذلك اليوم[٢]، وأن الزبـير ﷺ قد اعتزل عندما رأى اشتعال الفتنة وأن الخليفة عليا ﷺ كان ينهى عـــن القتـــال وقاضي البصرة كعب بن سور « معه المصحف ناشره بين الصفين يناشد الناس في دمائهم فقتل وهو بتلك الحال »[٣].

وأم المؤمنين تذكر بالله وتناشد الصفين الكف عن القتال ، ولا شك أن العقـلاء والعلماء من الفريقين قد استجابوا لذلك ، وما أكثرهم بل عامتهم كانوا علـــى علـم ودين فيما عدا السبئية وأوباشها .

فالتف أكثر أهل البصرة حول جمل أم المؤمنين ، فلما رأت السبئية فتور القتال وانسحاب بعض أهل البصرة إذ لم يعد لهم قائد عام يأتمرون بـــأمره بعـد طلحـة والزبير رضي الله عنهما ، خافوا من الصلح وأن يستجيب النـــاس لأم المؤمنيـن ودعوتها إلى الكف عن القتال « فلما آووا إلى عائشة أبى أهل الكوفة – أي السـبئية منهم – إلا القتال ولم يريدوا إلا عائشة »[٤] وهل يجرؤ مؤمن بالله وكتابه ورســوله ﷺ ، أن يرمي أمه أم المؤمنين أو من يلوذ بها ؟ .

فلما قصدت السبئية والغوغاء أم المؤمنين رضي الله عنها ، التف حولها أهــل البصرة ومن سارت معهم من أهل مكة والمدينة ، ومن المعلوم أن السبئية لم تكـــن

---

(١) ابن العربي ، العواصم من القواصم ، ١٦١.

(٢) ابن خياط ، تاريخ ، ١٨٥.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) الطبري ، تاريخ ، ٢٦٣/٥. ابن الأثير ، الكامل ، ١٢٥/٣.

فرقة منعزلة عن الناس ، بل كانوا يقاتلون في عشائرهم لكي يستجروها للقتال ولكي يحتموا بها في ساعة الشدة ، وكانوا كغيرهم من أهل الغدر والمكر يقاتلون لكي يؤزموا الأمور ويزيدوا من حدة الاشتباك ، لذلك حصل قتال حول هودج أم المؤمنين ، فدافعت الأزد وبنو بكر بن وائل وبنو ناجية وبنو ضبة وبنو عدي وغيرهم من القبائل ، فلما رأى عقلاء الطرفين شدة الاشتباك ، تنادوا في العسكرين « يا أيها الناس طرفوا »[1] أي تجنبوا القتل فإذا كان لا بد من قتال فعلى الأطراف الأيدي والأرجل. ودافع من حول الجمل حتى أبعدوا المهاجمين « ثم ضربوا ضربا ليس بالتعذير ، ولا يعدلون بالتطريف حتى إذا كثر ذلك وظهر في العسكرين جميعا.

راموا الجمل وقالوا: لا يزال القوم أو يصرع »[2] فإذا كانت السبئية تعمل على إشعال الحرب ، فإن الصالحين يعملون على إطفائها ، وتجنيب المسلمين أي أذى .

لذلك اشتد قتال المدافعين عن أم المؤمنين والتفت حولها رضي الله عنها قريش وزاد هجوم الآخرين وفي مقدمتهم رؤوس الخوارج السبئية ، فحمل الأشتر على المدافعين « فاعترضه عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ، فاختلفا ضربتين ضربه الأشتر فأمه – أصاب أم رأسه – وواثبه عبد الله ، فاعتنقه فخر به – وكان ابن الزبير من أشد الناس ، وأول ما دخل جوفه بعد ولادته ريق رسول الله ﷺ[3]– وجعل يقول: « اقتلوني ومالكا » وكان الناس لا يعرفونه بمالك، ولو قال:«والأشتر» وكانت له ألف نفس ما نجا منها شيء ، وما زال يضطرب في يدي عبد الله حتى أفلت وكان الرجل إذا حمل على الجمل ثم نجا لم يعد ، وجرح يومئذ

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٥/٢٦٤.

(٢) المصدر نفسه ، ٥/٢٦٥.

(٣) المحب الطبري ، الرياض النضرة ، ٢/٢٩١.

مروان وعبد الله بن الزبير[1] . ويروى أن عليا رضي الله عنه نادى: « اعقروا الجمل فإنه إن عقر تفرقوا »[2] .

وروي : « صرخ صارخ اعقروا الجمل ، فعقره رجل مختلف في اسمه »[3].

ويقال أن القعقاع بن عمرو قال: « يا بجير بن دلجة ، وكان مع أهل الكوفة صح بقومك فليعقروا الجمل قبل أن يصابوا وتصاب أم المؤمنين، فقال: يا آل ضبه يا عمرو بن دلجة ، أدع بي إليك ، فدعا به ، فقال: أنا آمن حتى أرجع ؟ قال: نعم قال: فاجتث ساق البعير ، فرمى بنفسه على شقه وجرجر البعير. وقال القعقاع لمن يليه: أنتم آمنون ، واجتمع هو وزفر – الذي بيده زمام البعير– على قطع بطان البعير ، وحملا الهودج فوضعاه ، ثم أطافا به »[4].

وروي أن القعقاع بن عمرو لما أرسل بجير بن دلجة ، اتفق هو و زفر بن الحارث الذي كان بيده زمام الجمل فعقره وهو في يده لئلا تصاب أم المؤمنين فإنها بقيت غرضا للرماة ولينفصل هذا الموقف[5]. و « كف بعض الناس عن بعض»[6].

وكان القعقاع بن عمرو وزفر بن الحارث أنزلا الهودج عن ظهر البعير فوضعاه إلى جنب البعير ، فأقبل محمد بن أبي بكر إليه ومعه نفر فأبعد الهودج وأنه كالقنفذ من السهام[7]. وأمر علي محمد بن أبي بكر فضرب عليها

---

(١) الطبري، تاريخ، ٢٧٤/٥، وينظر: ابن كثير، البداية والنهاية ٢٥٦/٧، ابن الأثير، الكامل، ١٢٩/٣.

(٢) الطبري، تاريخ، ٢٦٧/٥، ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٥٦/٧.

(٣) الذهبي، عهد الخلفاء الراشدين، ٤٩٠، ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٥٦/٧.

(٤) الطبري ، تاريخ ، ٢٧٢/٥.

(٥) الطبري ، تاريخ ٢٧٦/٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٥٦/٥ .

(٦) الطبري ، تاريخ ، ٢٧٢/٥ .

(٧) المصدر نفسه ، ٢٦٧/٥ ، ٢٧٦/٧ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٣٠/٣ .

قبة [١] ونادى منادي أمير المؤمنين ﷺ في الناس: إنه لا يتبع مدبر، ولا يذفف على جريح ، ولا يدخلوا الدور [٢].

وجاء علي ﷺ إلى أم المؤمنين متفقدا ومسلما فقال: كيف أنت يا أماه ، يغفر الله لنا ولكم ، قالت غفر الله لنا ولكم [٣] وجاء وجوه الناس والأعيان والأمراء يسلمون على أم المؤمنين رضي الله عنها [٤] وجاء القعقاع فسلم وقال: « والله إنك لأبر أم نعلم ولكن لم تطاعي » [٥].

ولما كان الليل دخلت أم المؤمنين البصرة ، ومعها أخوها محمد بن أبي بكر فنزلت في دار عبد الله بن خلف الخزاعي ، وهي أعظم دار بالبصرة على صفية بنت الحارث بن أبي طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار . وهي أم طلحة الطلحات عبد الله بن خلف وكان قبل يوم الجمل مع الذين فيهم أم المؤمنين واستشهد دفاعا عن أم المؤمنين [٦].

ولما سلم القعقاع على أم المؤمنين وأثنى عليها ، قالت: « والله لوددت أني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة » فرجع إلى علي ﷺ فأخبره بما قالت عائشة رضي الله عنها فقال:

« والله لوددت أني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة فكانَ قولهما واحدا » [٧] « ثم إنها ندمت وندم علي لأجل ما وقع » [٨].

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٢٦٧/٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٣٠/٣ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٥٦/٧.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٥٦/٧ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٣٠/٣ .

(٣) الطبري ، تاريخ ، ٢٧٦/٥، ابن كثير، البداية والنهاية ، ٢٥٦/٧. ابن الأثير، الكامل، ١٣٠/٣.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية ، ٢٥٦/٧.

(٥) الطبري ، تاريخ ، ٢٧٨/٥، ابن الأثير، الكامل، ١٣٠/٣،١٣١/٣.

(٦) الطبري ، تاريخ ، ٢٧٨/٥، ابن كثير، ٢٥٧/٧.

(٧) الطبري ، تاريخ ، ٢٧٨/٥، ابن الأثير، ١٣٠/٣.

(٨) الذهبي ، عهد الخلفاء الراشدين، ٤٩٠.

وكان أمير المؤمنين يتوجع لما حصل ويتألم له ، ويقول:

إليك أشكو عجري وبجري	ومعشرا غشوا علي بصري
قتلت منهم مضرا بمضري	شفيت نفسي وقتلت معشري[1]

وقال يبث حزنه لابنه الحسن بن علي رضي الله عنهما: « يا حسن ليت أباك مات منذ عشرين سنة ، فقال له: يا أبت قد كنت أنهاك عن هذا ، قال: يا بني لم أر أن الأمر يبلغ هذا »[2].

ولعل عند أمير المؤمنين رضي الله عنه ، أمورا أخرى ، غير لوم الحسن له ، في مثل ما رواه عن رسول الله ﷺ في قوله: « إنه سيكون اختلاف وأمر ، فإن استطعت أن تكون السلم فافعل »[3] فكان هذا القتال الذي لم يكن من مقاصده ، ولم يكن له علم بمن دبر أسبابه باعثا على الأسى في نفس أمير المؤمنين لأنه كان حريصا على السلم والإصلاح بين المسلمين .

وأقام علي رضي الله عنه بعد الوقعة خارج البصرة ثلاثة أيام ، وكان قد ندب الناس إلى موتاهم ، فخرجوا إليهم فدفنوهم ، فطاف علي معهم بالقتلى ، فلما رأى كعب بن سور قاضي البصرة رحمة الله عليه ، قال: زعمتم أنما خرج معهم السفهاء ، وهذا الحبر قد ترون وأتى على عبد الرحمن بن عتاب القرشي فقال هذا يعسوب القوم – كان إمامهم في الصلاة – وجعل علي كلما مر برجل من الأخيار قال: زعم من زعم أنه لم يخرج إلينا إلا الغوغاء وهذا العابد المجتهد[4] .

فسار ليلته في القتلى معه النيران ، فمر بمحمد بن طلحة بن عبيد الله – الذي قالت له أم المؤمنين عندما سألها كيف يقاتل قالت: كن كخير ابني آدم– قتيلا، فقال:

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٢٧٢/٥. ابن الأثير ، الكامل ، ١٣٠/٣ .

(٢) الذهبي ، عهد الخلفاء الراشدين، ٤٨٨،ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٥٢/٧.

(٣) الهندي ، مجمع الزوائد ، ٢٣٤/٧، ورجاله ثقات .

(٤) الطبري ، تاريخ ، ٢٧٩/٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٥٧/٧.

يا حسن، محمد السجاد ورب الكعبة ، لولا بره بأبيه ما خرج. فقال الحسن: « ما كان أغناك عن هذا ، فقال: ما لي وما لك يا حسن »[1].

وكان من قبل قد رأى أبا محمد طلحة بن عبيد الله الذي كان صاحب علي وشريكه مع الزبير رضي الله عنه في أكثر المشاهد والمعارك في عصر رسول الله ﷺ: فقال: لهفي عليك أبا محمد ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، والله لقد كنت كما قال الشاعر :

فتى كان يدنيه الغنى من صديقه   إذا ما هو استغنى ويبعده الفقر[2]

فصلى علي رضي الله عنه على القتلى من أهل الكوفة والبصرة ، وصلى على قريش من هؤلاء وهؤلاء ، فكانوا مدنيين ومكيين ، ودفن ما وجد من الأطراف في قبر واحد كبير .

وجمع ما كان في العسكر من شيء ، ثم بعث به إلى مسجد البصرة أن من عرف شيئا فليأخذه إلا سلاحا كان في الخزائن عليه سمة السلطان وأجاز توزيع ما بقي من الأشياء مما لم يعرف له أصحاب وقال: لا يحل لمسلم من مال المسلم المتوفى شيء ، وإنما كان ذلك السلاح في أيديهم من غير تنفيل من السلطان[3].

وقد غشي الناس أم المؤمنين رضي الله عنها وهي في دار عبد الله بن خلف يسلمون عليها ويتباركون بدعائها ، ويسمعون نصحها ، منهم من كان مع أهل البصرة ومنهم من كان مع أهل الكوفة ، فكانت رضي الله عنها كلما نعي لها منهم واحد قالت: يرحمه الله وتدعو له وتستغفر له ، وكان أمير المؤمنين رضي الله عنه ، يقول: إني لأرجو ألا يكون أحد من هؤلاء نقى قلبه لله تعالى إلا أدخله الله الجنة[4] .

---

(١) الذهبي ، عهد الخلفاء الراشدين ، ٤٨٩.

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية، ٢٥٧/٧ ، ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ٢٩٩/٤.

(٣) الطبري ، تاريخ ، ٢٧٩/٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٥٧/٧ ،ابن الأثير ، الكامل ، ١٣١/٣.

(٤)الطبري ، تاريخ ، ٢٧٩/٥ . ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٥٨/٧. ٢٥١/٧.

عدد القتلى في معركة السبئية

((الجمل))

تبين فيما سبق أن عدد جيش أمير المؤمنين رضي الله عنه ، الذي اجتمع له في ذي قـار كان ما بين تسعة آلاف إلى اثني عشر ألفا. وأن جيش أهل البصرة كان قريبا مـن ذلك، وذلك لسبب مهم هو أن المسلمين كانوا يحذرون من الفتنة ويرون أن علاجها الصحيح هو الهدوء والاعتزال حتى تستقر النفوس وتتضح الأمور ، وكان لموقـف كبار الصحابة في المدينة والكوفة والبصرة ، من عدم المشاركة مع أمير المؤمنيـن أو مع طلحة والزبير رضي الله عنهما ، أثر كبير في نفوس الناس حجزت الكثير منـهم عـن المشاركة في كل ما جرى من الأحداث الداخلية .

لهذا فإن الروايات التي تذكر أعدادا كبيرة للمشاركين من الطرفين ، ما هي إلا روايات مبالغ فيها ، وقد تعكس وجها لما كان يقوم به الخوارج السبئية والغوغـاء من الدعاية والإذاعات الباطلة ، التي تهول الأحداث وتبالغ في كل ما يشجع الفتـن ويصدع الصفوف ، ويثير الضغائن والأحقاد بين أبناء الأمة الإسلامية كمـا هـي سيرة خلفهم في هذا العصر ، يحرصون على نشر وإذاعة أخبار الفتـن وتهويلـها والإعراض عن ذكر الإنجازات الحضارية ، والفتوح الإسلامية .

أما ما ذكر عن عدد القتلى في المعركة التي أوقدتها السبئية ، يوم عقـر بـأم المؤمنين رضي الله عنها جملها ، فهي أرقام مبالغ فيها جدا ، وكان مـن أسـباب المبالغة:

ـ رغبة أعداء الصحابة من السبئية وأتباعهم ، في توسيع دائرة الخلاف بين أبناء الأمة التي يجمعها حب الصحابة والإقتداء بهم بعد رسول الله ﷺ .

ـ تهويل أعداء الصحابة لهذا الحدث ليثيروا ضغائن الأعراب والغوغاء ، فيكثر اللغط في مثل هذه المسائل ، لتكون بابا لاصطياد أصحـاب الأهـواء والنزعـات

الجاهلية وكسبهم إلى جانب السبئية وذلك بتشويش أفكارهم وتعتيم رؤيتهم لكبار الصحابة وفصل انتمائهم عن حملة الرسالة وقطع روابطهم مع جيل القدوة، وبالتالي تحويلهم إلى مجاميع من الأتباع لا رأي لهم ولا فعل ، كما يحصل في هذا العصر لأجيال الشباب المقلد للأجنبي والمتفلت من أصول وأعراف أمته وعقيدته .

ـ إيجاد الثقة في نفوس أتباع الغوغاء والسبئية لإثبات نجاح خططهم وتدابيرهم.

ـ عمل أعداء الصحابة على إظهار ضعف إمكانيات الصحابة القيادية ، وعدم قدرتهم على ضبط التيارات داخل الصف الإسلامي ، لزيادة ثقة أتباعهم ومن يشاركهم في العمل على نشر الفتنة بين أبناء الأمة ، ولإغرائهم بالإلتحاق بهم .

ـ وقد يكون صدى استشهاد طلحة والزبير رضي الله عنهما ، ساهم في تعميق أسى المسلمين على ما جرته الفتنة من مصائب عليهم ، ولا سيما أن تلك الفتنة التي أثارها الخوارج وصنعوا أسبابها ، هي أول قتال جرى بين المسلمين .

ـ مساهمة بعض الشعراء والجهلة من أبناء القبائل ، في تضخيم ما جرى وتكبيره ، ليتناسب مع ما يصنعونه من أشعار وأرجاز ، ينسبونها إلى بعض زعمائهم وفرسانهم ، فضلا عن وجود قصاصي السمر ، ورواة الأخبار الذين يجلبون اهتمام الناس بهم ، من خلال الأحداث المثيرة التي يتحدثون عنها.

ولكن مع كل هذا التهويل لخسائر تلك الموقعة ، فإن الخسائر كانت محدودة جدا وذلك لعدة أسباب منها:

أولا: عدم وجود قضية توجب القتال بين الطرفين ، وتولد الحماسة في نفوس المقاتلين ولا سيما بعد الاتفاق التام على الصلح ، فلم تزد تلك المواجهة ، على أكثر من الاستعداد والحذر والترقب والتساؤل عما حصل من مستجدات ، في أكثر زوايا تلك المواجهة ، فيما عدا المواقع التي كان فيها الغوغاء والسبئية .

ثانيا: تحرج كل من الفريقين عن القتال ، وذلك لعلم الجميع بحرمة الـــدم المســلم وتوعد الله تعالى المجترئين عليه قال تعالى: ﴿ من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فـي الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ﴾.[1] وقال تعالى: ﴿ ومن يقتـــل مؤمنـــا متعمــدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما ﴾.[2] .

ثالثا: تشديد قادة الفريقين على النهي عن القتال وتـــأكيدهم علـــى أن هدفـــهم مـــن مسيرهم ذلك هو الإصلاح بين الناس ، وتوحيد صف المسلمين .

رابعا: الطبيعة الدفاعية لذلك القتال ، واكتفاء كل من الفريقين برفع السلاح في وجه الفريق الآخر والتساند والموافقة على ذلك في أكثر صفحات تلك الموقعـــة ، كمـــا اتضح في مواضعه من البحث .

خامسا: أن الفريقين كانوا من قبائل واحدة انقسمت في سكناها بين الكوفة والبصـــرة وكان عامة الناس يعرف بعضهم بعضا، فلم يكن هناك مسوغ للقتال فيما بينهم .

سادسا: تكافؤ الفريقين في القدرات القتالية ، وفي التسليح والتدريب.

سابعا: قصر الفترة الزمنية لتلك المواجهة ، « كانت وقفة واحدة في يوم واحد »[3] .

« وكانت الحرب أربع ساعات »[4] و: « أن القتال نشب بعد الظهر فما غربـت الشمس وحول الجمل أحد »[5].

فإذا اتضحت كل هذه الأسباب ، وقيست موقعة السبئية أو ما يسمى بمعركـــة الجمل بمعارك الإسلام الكبرى مع الروم والفرس ، لاتضح أن عدد القتلى في هـــذه الموقعة لا يزيد على بضع مئات من الطرفين على الأكثر .

فقد روي أن شهداء معركة اليرموك كانوا حوالي « ثلاثة آلاف شهيد »[6] .

---

(١) سورة المائدة الآية (٣٢) . (٢) سورة النساء (٩٣) . (٣) المسعودي ، مروج الذهب ، ٣٦٠.

(٤) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ١٨٣.

(٥) المصدر نفســه .

(٦) الطبري ، تاريخ ، ٤٠٢/٣.

وشهداء القادسية حوالي « ثمانية آلاف وخمسمائة شهيد »[1]. هاتان المعركتان اللتان كان الإعداد والعدة فيهما أكثر بكثير ووقتهما أطول والعدو فيهما أشرس ، ودوافع القتال فيهما أعمق وأوسع من خلاف طارىء بين إخوة في الدين والعقيدة ، ومع كل هذه الأسباب فإن روايات موقعة السبئية « الجمل » تجعل القتلى فيها أضعاف شهداء المسلمين في تلك المعارك الفاصلة .

ومما ذكر عن عدد القتلى في تلك المعركة ، مما يشير إلى عمق التزوير والتضليل الذي أصاب التاريخ الإسلامي عامة والراشدي خاصة ، ما ذكره اليعقوبي فقد ذكر أن عليا رضي الله عنه استنفر أهل الكوفة « فوافاه منهم ستة آلاف رجل »[2] وبهذا يكون الذين مع أمير المؤمنين لا يبلغون عشرة آلاف على ما ذكرته أكثر الروايات مبالغة مع من خرج معه من المدينة. قال: فروى بعضهم «أنه قتل في ذلك اليوم ثلاثون ألفا »[3] ولم يذكر رقما آخر عن عدد القتلى .

وإنما يذكر الانتقاص والنيل من أم المؤمنين رضي الله عنها ومن طلحة والزبير رضي الله عنهما ويذكر المسعودي أنه قتل من أهل البصرة « ثلاثة عشر ألفا ، وقتل من أصحاب علي خمسة آلاف ، وقد تنازع الناس في مقدار من قتل من الفريقين: فمن مقلل ومكثر ، فالمقلل يقول: قتل منهم سبعة آلاف والمكثر يقول: عشرة آلاف ، على حسب ميل الناس وأهوائهم »[4].

وقد وردت روايات متعددة في عدد قتلى تلك المعركة تتراوح ما بين «عشرين ألفا إلى ألفين وخمسمائة »[5] ذكرها ابن خياط ولكنه لم يستطع أن يحصي منهم فيما

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٣/٤٦٤ .

(٢) ابن خياط ، تاريخ ، ١٨٢ .

(٣) المصدر نفسه ، ١٨٣.

(٤) المسعودي ، مروج الذهب ، ٣٦٠ .

(٥) ابن خياط ، تاريخ ، ١٨٦ .

أورده عن أسمائهم سوى « مائة وسبعة رجال » منهم سبعة وأربعين بأسمائهم ثم قال: « وقتل من طاحية ثلاثون رجلا » و « قتل من الجهاضم ثلاثون رجلا »[1].

ولو كانت هذه الأرقام صحيحة عن عدد القتلى لاستطاع الرواة إحصاء المئات أو الألوف منهم بدل العشرات ، ولكن هذه الإحصائية إذا أضيفت إلى ما سبق ذكره يصبح من الممكن القول أن عدد القتلى لا يزيد على بضع مئات إن لم يكن أقل من ذلك. وهذا ما يعكس قوة الشائعات السبئية في ذلك الوقت كما هو الإعلام المعادي للإسلام في هذا العصر، الذي يستطيع بقوة إعلامه أن يصور كثيرا من الحقائق معكوسة ، فيبرئ المتهم ويتهم البريء ، وينصر المهزوم ، ويهزم المنتصر .

رجوع أم المؤمنين رضي الله عنها من البصرة إلى مكة

لما فرغ أمير المؤمنين من الصلاة على القتلى من الطرفين والدعاء لهم، دخل البصرة فانتهى إلى المسجد ، فصلى فيه ، ثم دخل البصرة ، فأتاه الناس يسلمون ويسمعون ويتعلمون ، ثم انطلق إلى أم المؤمنين رضي الله عنها وهي في دار عبد الله بن خلف وكان عندها النساء وكانت صفية العبدرية زوجة عبد الله بن خلف واضعة خمارها على وجهها تبكي زوجها، فلما رأت أمير المؤمنين رضي الله عنه دعت عليه فلم يرد عليها شيئا ، ولم يزل على حاله حتى دخل على عائشة ، فسلم عليها وجلس عندها وقال لها يشكو صفية: جبهتنا صفية ، أما إني لم أرها منذ كانت جارية حتى اليوم ، فلما خرج أعادت عليه الكلام ، فأراد بعض من معه أن يسكتها فغضب رضي الله عنه وقال: صه ! لا تهتكن سترا ، ولا تدخلن ولا تهيجن امرأة بأذى، وإن شتمن أعراضكم ، وسفهن أمراءكم وصلحاءكم، فإنهن ضعاف ، ولقد كنا نؤمر

---

(١) ابن خياط ، تاريخ ، ١٩٠.

بالكف عنهن ، وإنهن لمشركات ، وإن الرجل ليكافيء المرأة ويتناولها بالضرب فيعير بها عقبه من بعده ، فلا يبلغني عن أحد عرض لامرأة **فأنكل به شرار الناس**[1]. فكيف إذا كانت المرأة أم المؤمنين عائشة أو إحدى أخواتها رضي الله عنهن، وكيف يمكن تصديق الروايات والأشعار التي تنال من أم المؤمنين وتنسب إلى من كان مع علي رضي الله عنه .

وروي أن الأشتر النخعي ، اشترى بعيرا وأرسل به إلى أم المؤمنين مع رجل وقال له: انطلق به إليها قال الرجل فانطلقت به إليها ، فقلت مالك بن الحارث - الأشتر- يقرئك السلام ويقول: إن هذا البعير مكان بعيرك ، قالت: لا سلم الله عليه ولم تقبله قال الرجل: فرددته إلى الأشتر[2].

ولما أرادت أم المؤمنين رضي الله عنها العودة إلى مكة ، جهزها الخليفة بكل شيء ينبغي لها من مركب أو زاد أو متاع ، وأخرج معها كل من نجا ممن سار معها إلا من أحب المقام ، واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات. وأمر محمد بن أبي بكر أن يسير معها ، فلما كان اليوم الذي ترتحل فيه، جاءها حتى وقف لها ، وحضر الناس ، يودعونها ، فخرجت على الناس وقالت: يا بني ، تعتب بعضنا على بعض استبطاء واستزادة فلا يعتدن أحد منكم على أحد بشيء بلغه من ذلك ، إنه والله ما كان بيني وبين علي في القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها ، وإنه عندي على معتبتي من الأخيار . وقال علي: يا أيها الناس صدقت والله وبرت ، ما كان بيني وبينها إلا ذلك ، وإنها لزوجة نبيكم صلى الله عليه وسلم في الدنيا والآخرة .

فسارت من البصرة في شهر رجب سنة ست وثلاثين وشيعها

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٢٨٠/٥.

(٢) المصدر نفسه .

علي أميالا ، وسرح بنيه يوما[١]. وقصدت في مسيرها ذلك إلى مكة، فأقامت بـــها إلى أن حجت عامها ذلك ، ثم رجعت إلى المدينة[٢] رضي الله عنها .

وقد كانت رعاية أمير المؤمنين ﵁ ، للسيدة عائشـــة رضـــي الله عنـــها كبيرة جدا ، مما يؤكد أن كل ما جرى في تلك الموقعة كان خارجا عن إرادته، ولم يكن بإمكانه السيطرة عليه ، وذلك ليس لحق الأمومة فقط وإنما لما ورد من أخبـار عن رسول الله ﷺ في هذا المعنى ، فقد روي أن رسول الله ﷺ: قال لعلي: « إنــه سيكون بينك وبين عائشة أمر ، قال: أنا يا رسول الله ؟ قال: نعم ، قال: فأنا أشقاهم يا رسول الله ، قال: لا ولكن إذا كان ذلك ، فارددها إلى مأمنها »[٣]. ولعل في هــذا الحديث الشريف ردا على كل المشككين ببر علي ﵁ بأم المؤمنين ، وطمسا لكـل الأقاويل المصنوعة في هذا الباب والتي لا تنطبق مع هذه المعاني وقد سار معـــها من البصرة مروان بن الحكم ، والأسود بن أبي البختري ، فلما توجهت إلى مكـــة توجها إلى المدينة[٤]. فكان مروان بن الحكم يذكر سماحة أمير المؤمنيـــن ورأفتـــه بالمسلمين ويشيد بحرصه على سلامتهم. روى الإمام الشافعي عن علي بن الحسين بن علي ﵁ قال: « دخلت على مروان بن الحكم ، فقال: ما رأيت أحدا أكرم غلبة من أبيك - يعني عليا ﵁ - ما هو إلا أن ولينا يوم الجمل فنادى مناديه: لا يقتـــل مدبر ولا يذفف على جريح »[٥].

ويروى أن عليا سئل عن أصحاب الجمل ، أمشركون هم ؟ قال من الشرك فروا قال أفمنافقون قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا،قال: فما هم؟ قال: إخواننـــا

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٢٨٣/٥.

(٢) الطبري ، تاريخ ، ٥/ ٢٨١، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٥٨/٧.

(٣) مسند أحمد ، بشرحه الفتح الرباني ، ١٣٧/٢٣، ح (٢٩٩) الهندي ، مجمع الزوائد ، ٢٣٤/٧.

(٤) الطبري ، تاريخ ، ٢٨١/٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٥٨/٧ .

(٥) ابن حجر ، فتح الباري ، شرح الحديث (٧٠٩٩) .

بغوا علينا ! [١] ومما رواه ابن أبي شيبة عن أبي جعفر قال: « **جلس علي وأصحابه يوما يبكون على طلحة والزبير رضي الله عنهما** »[٢].

وكان علي رضي الله عنه يقول:« لعن الله قتلة عثمان في السهل والجبل والبر والبحر .. **فوالله ما عبت عثمان إلى يومي هذا** »[٣] وذلك يوم الجمل .

« وخطب رجل يوم البصرة، حين ظهر علي فقال علي: هذا الخطيب الشحشح سبق رسول الله صلى الله عليه وسلم وثنى أبو بكر وثلث عمر ثم خبطتنا فتنة بعدهم يصنع الله فيها ما شاء »[٤]، وقال علي عليه السلام: « **إن قوما زعموا أن البغي كان عليهم وزعمنا أنه منهم علينا ، وإنما اقتتلنا على البغي ولم نقتتل على التكفير** »[٥].

وكان أمير المؤمنين رضي الله عنه ، يوم الجمل يذكر عثمان ويتألم لما أصابه ، وكيف أنه اضطر لقبول البيعة ، بعد تحرج شديد ، وكان يبرأ إلى الله تعالى من دماء عثمان[٦].

فمن هذه النصوص يتبين قوة الأخوة بين الصحابة وأن الأحداث والفتن التي جرت لم تضعف تلك الأخوة ، مما يؤكد براءتهم منها وأنها جرت على الرغم منهم وأن الكفر والبغي والنكث ، لا يقصد به أحد من الصحابة وإنما هذه صفات تنطبق على أعدائهم ، وأن كل ما ينسب إليهم من هذه الصفات ، ما هو إلا زيف وبهتان مناقض لعدالتهم وسيرتهم . وسبقت الإشارة إلى أن هذا البحث لن يكون مطية لتجميع شبهات وأباطيل أعداء الصحابة ، من اليهود والصليبيين الذين تسموا في

---

(١) ابن ابي شيبة، المصنف، ٧٠٧/٨ ، ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٣٠٩/٤.

(٢) ابن أبي شيبة، المصنف، ٧٠٩/٨.

(٣) المصدر نفسه، /٧١٢/٨.

(٤) ابن حنبل ، المسند ، ك مسند العشرة ، باب مسند علي ح (٨٥٣) ابن عبد البر ، الاستيعاب، ٩٧٢/٣.

(٥) ابن عبد ربه، العقد الفريد ، ٣١٠/٤.

(٦) الحاكم ، المستدرك ، ٩٥/٣ .

هذا العصر بالمستشرقين ولا حلفائهم الطبيعيين من الزنادقة والسبئيين ، أو خلفهم المعاصرين ممن رفض الكتاب والسنة ، واعتنق مذاهب العلمانيين . ونشرها بحجة الرد عليها أوبحجة احترام وجهة النظر الأخرى . لأن كثيرا من القراء غير مهيئا عقيديا ولا فكريا لفرز الباطل إذا التصق بالحق ، وبالتالي تشويش الفكر الإسلامي وهذا هو أحد مقاصد أعداء الصحابة. فضلا عن أن عامة التاريخ الإسلامي بحاجة إلى ردود وتوضيح وتفصيل ، ولكن الرد الأقوى والأصدق والأجمل ولا سيما فيما يتعلق بالصحابة هو القياس على ما ورد في القرآن الكريم والسنة المشرفة ، من آيات وأحاديث تتحدث عن الصحابة ﷺ ، فكل الأخبار التاريخية والأدبية التي تتهم الصحابة ﷺ في أي جانب من جوانب الحياة،تقاس على ميزان الكتاب والسنة، فإن وافقهما ينظر فيه ويفصل القول فيه ، وإن خالفهما فهو مردود مبدئيا ، وإن اختلطت فيه الحقيقة بما أضيف إليها من دسائس أهل الأهواء والبدع ، يغربل الخبر وينظر في وضع راويه وزمانه وهويته ، فتستخرج منه الحقيقة نقية واضحة كنقاء الصحابة ووضوحهم ، وعلى هذا المقياس تقدم الإجابات عن كل مسائل الخلاف بين الصحابة. وإلا فهل الصحابي يغدر ويكذب ؟ وهل ينكث ويتآمر؟ أم يجبن ويخشى غير الله تعالى ؟ وإذا كان ميزان الحقيقة لا يقبل شيئا من هذه الأباطيل على أصحاب محمد ﷺ فما بال كتب التاريخ الإسلامي لا يكاد يسلم من اتهاماتها أحد من الصحابة ؟ وبدلا من أن يتساءل كثير من كتاب الفكر الإسلامي المعاصرين ، عن أسباب هذا التناقض وعمن كان وراءه ، يأخذون تلك الأخبار والدسائس على أنها حقائق ، ولا سيما من الذين كتبوا عن الفتنة ، فالفتنة الكبرى عند طه حسين هي:« فتنة عربية نشأت من تزاحم الأغنياء على الغنى والسلطان ومن حسد العامة العربية لهؤلاء الأغنياء »[1]. وبهذا يجعل طه حسين المجتمع

---

(١) ينظر: طه حسين ، الفتنة الكبرى ، ٤٣ ، ١٠٩ ، ١٣٢، مجلة الرسالة ، العدد (٧٦١) ص ١٣٤.

الإسلامي في صدر الإسلام ، من الصحابة والتابعين ، الذين هم خير القرون ، بما شهد لهم به رسول الله ﷺ وبما سطروه من فتوح ووحدة وألفة وإيثار وعلم وفقه وسيادة ، على أسس شرعية وحضارية لم تحصل لأمة من الأمم ، يجعله طبقتين طبقة الصحابة ﷺ وهم في فهمه أهل الغنى الذين تصارعوا على المكاسب والأموال والسلطة ، وطبقة التابعين وهم أهل الحسد الذين لا ينظرون إلا لما في أيدي أصحاب رسول الله ﷺ .

وإذا وضعنا هذا النص وأمثاله أمام آيات سورة الحشر ، التي مر ذكرها في أكثر من موضع في مثل قوله تعالى: ﴿ للفقراء المهاجرين ﴾ وقوله تعالى: ﴿ يؤثرون على أنفسهم ﴾ فأين يكون موضع أصحاب مثل هذا النص ؟ أليس في صف السبئية؟ التي تعمل على طمس معاني الإسلام بتشويه سمعة الصحابة ﷺ . **وهل يكون هناك غرابة ، إذا اعتمد منهج هذا البحث على تزكية من زكاه الله ورسوله ﷺ ؟ واتهام من يطعن في من زكاه الله ورسوله ﷺ** . وهل طه حسين وطبقته عندما يزعم أنه يكبر أصحاب النبي ﷺ ، أن يوقع بينهم هذا اليهودي[١] عبد الله بن سبأ يريد أن يدافع عن الصحابة ﷺ ، فينسب إليهم أسباب الفتنة العائدة إلى الطمع وحب الرياسة ؟ أم أنه يريد اتهامهم في معرض الدفاع عنهم وتبرئة ذلك اليهودي الذي فعل ما فعل من تسعير الفتنة ، متسترا بشعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ولماذا يستكثر طه حسين هذا التآمر على اليهود وهم لا يعيشون إلا على الفتنة والتآمر ؟ ألم يكن سبب هيمنتهم على يثرب قبل الإسلام ، هو الإيقاع بين الأوس والخزرج ؟ وهم أخوة ، ألم يدخل اليهود في تحالفات مع الأوس والخزرج ويوقعوا بينهم الحرب وهم لا يصيبهم من ذلك إلا القليل ؟ ألم يفعلوا ذلك حتى في زمن النبي ﷺ ؟ وذلك فيما قام به **شاس** بن

---

(١) مجلة الرسالة العدد (٧٦١) ص ١٩٤ ، الفتنة الكبرى ، ٤٣.

قيس[1]، هذا الاسم الذي تسمى به جماعة يهودية مشاركة في حكومة اليهود المحتلين في فلسطين الآن ، أم أن هذا غير واقع وحقيقة ؟ **ثم من الذي أسقط الخلافة العثمانية ؟ ومن أوجد الأحزاب العلمانية ؟ ومن فرق البلاد الإسلامية في هذا العصر ؟ سوى اليهود والصليبيين ومن تعاون معهم من أعداء العرب والمسلمين .**

وطبقة متهمي الصحابة غالبا ما يعتمدون في كتاباتهم ، الخيال والفروض والإيهام كما فعل مؤلف كتاب الفتنة الكبرى ، الذي قال عنه الأستاذ محمود محمد شاكر: « ما كدت أفرغ من قراءته حتى رأيت الكتاب كله يختلج بين يدي »[2]، وقد كان طه حسين يكتب عن الفتنة ، وهو يقدم لكتاب صديقه **اليهودي إسرائيل ولفنسون ، الذي يسمي نفسه أبا ذؤيب ، الذي ألف كتاب ، تاريخ اليهود في بلاد العرب** »[3].

وقد يكون النيل من الصحابة ﷺ ، والطعن في العقيدة ، من متطلبات اللباقة الحضارية والكياسة العلمانية ، وقد تكون أهون من خسارة صديق حميم عند البعض. وليس طه حسين إلا واحدا من كثيرين ممن يكتب بهذه المنهجية ، ويدرس التاريخ الإسلامي في كثير من الجامعات العربية . وعلى هذا فالفيصل بين محبي

---

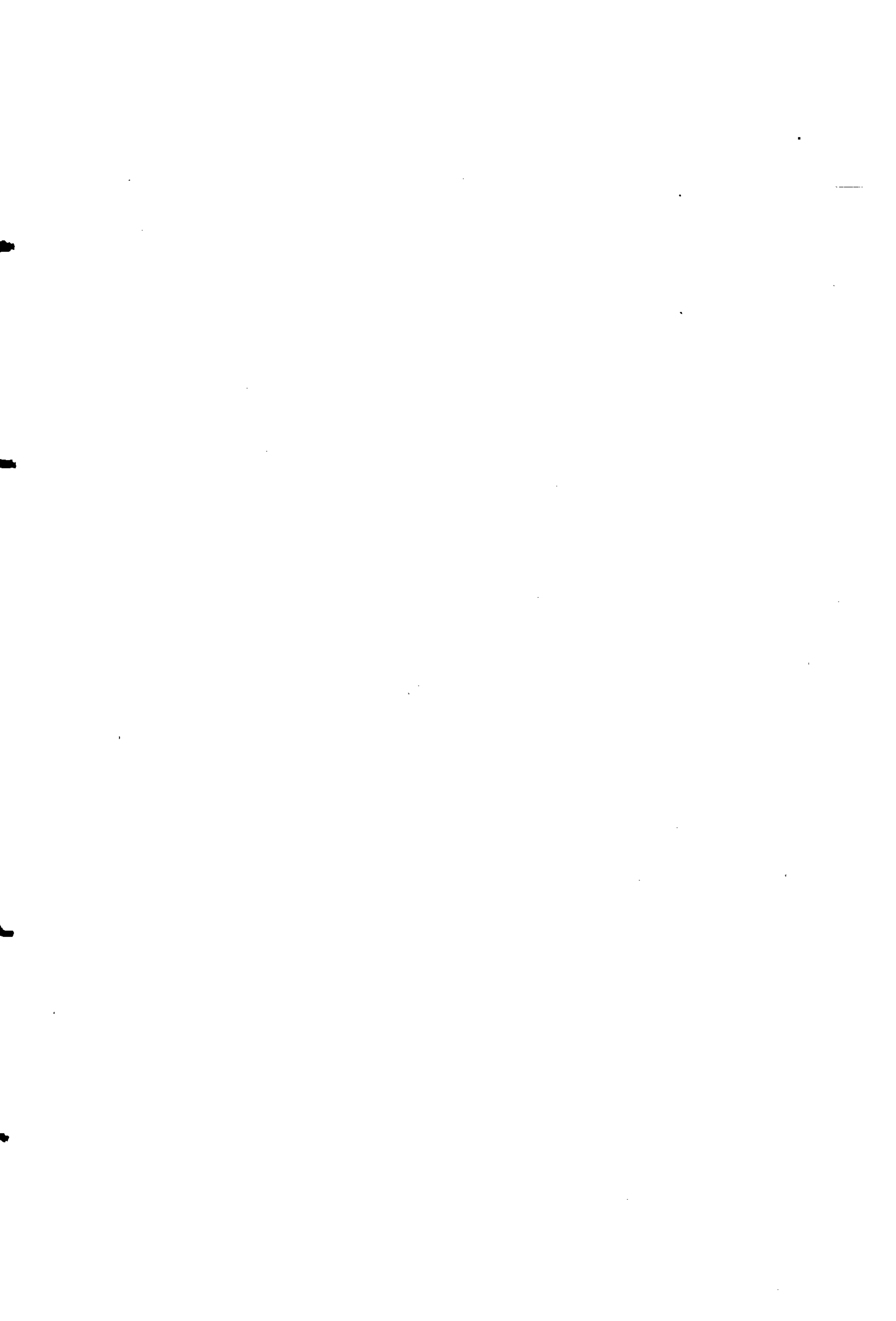
(١) السهيلي: الروض الأنف، ٢٥١/٤، كان شاس بن قيس، شيخا كبيرا يهوديا عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين ، شديد الحسد لهم ، مر على مجلس فيه الأوس والخزرج متآلفين على الإسلام فغاظه ذلك ، فقال قد اجتمع ملأ بني قيلة في هذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم من قرار ، فأمر شابا من يهود كان معهم فقال: اعمد إليهم، فاجلس معهم ، ثم اذكر يوم بعاث وهو يوم اقتتلت فيه الأوس والخزرج قبل الإسلام. واذكر ما كان قبله، وأنشدهم الأشعار في بعضهم، وما كانوا تقاولوا فيه ، حتى أوقع بينهم الفتنة ، فخرج إليهم رسول الله ﷺ ومعه المهاجرون ، فذكرهم بالإسلام والأخوة فانطفأت الفتنة وعانق بعضهم بعضا ، وعادوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين .

(٢) طه حسين ، الفتنة الكبرى ، ١٣٢ .

(٣) المصدر نفسه ، ١٣٤ .

الصحابة ، وبين من يكتب عن تاريخ الصحابة هو الطعن فيهم أو الانتقاص منهم سواء كان ذلك الانتقاص مبطنا أو معلنا لأعلامهم وقادتهم أم لصغارهم وعامتهم فمن نال منهم في جانب من الجوانب متعمدا فإنها واحدة لها أخوات ، توجب الحذر والحيطة لأن الاستسلام لذلك النيل ، سيجعل من ذلك الكاتب أو المحاضر ناقدا للصحابة ومقوما لهم ، وأي تقويم أو تعديل لهم بعد ثناء الله ورسوله ﷺ عليهم ، ثم إن ذلك سيقود في النهاية إلى مخالفة الكتاب والسنة ، وهذا ما يريده أعداء الصحابة في النهاية .





الفصل السادس

أمير المؤمنين علي رضي الله عنه
بعد يوم البصرة « يوم الجمل »

بعد انتهاء ذلك اليوم من شهر جمادى الآخرة، سنة ست وثلاثين من الهجرة دخل أمير المؤمنين البصرة ، فكان أول ما بدأ بمسجد البصرة فصلى فيه ، وسلم عليه الناس ، ثم انطلق إلى أم المؤمنين رضي الله عنها فاطمأن عليها وسلم عليها ثم ودعها يوم عودتها. وبايعه أهل البصرة ، وقسم على من كان معه ما وجده في بيت مال البصرة، فأصاب كل رجل منهم خمسمائة، وكانت سيرة أمير المؤمنين رضي الله عنه فيمن قاتل في ذلك اليوم من أهل البصرة ، أن لا يؤخذ شيء منهم ولا من أموالهم ، فقالت الخوارج السبئية يومئذ ، تحل دماؤهم ، وتحرم علينا أموالهم[1]. « **فخاض في ذلك السبئية ، وطعنوا على علي من وراء وراء** »[2]. فقال علي رضي الله عنه: « القوم أمثالكم من صفح عنا فهو منا ، ونحن منه ، ومن لج حتى يصاب فقتاله مني على الصدر والنحر وإن لكم في خمسه لغنى ، **فيومئذ تكلمت الخوارج** »[3]. وبدأت تجاهر بالاعتراض على أمير المؤمنين رضي الله عنه .

لكنه تشاغل عنهم واهتم بتدبير شؤون البصرة وشؤون مصر، أما البصرة فقد أراد علي أبا بكرة رضي الله عنه أميرا عليها، لكنه اعتذر عن ذلك وقال رجل من أهل بيتك يسكن إليه الناس ، وإنه أجدر أن يطمئنوا وينقادوا عليه ، وسأشير عليه ، فافترقا على ابن عباس[4] يكون أميرا على البصرة ، وولى زياد بن أبي سفيان الخراج وبيت المال في البصرة .

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٢٨١/٥، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٥٧/٧.

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) المصدر نفسه ، ٢٨٢/٥، ابن حجر ، فتح الباري ، شرح الحديث (٧٠٩٩) .

وأمر ابن عباس أن يسمع منه ، قال ابن عباس فاستشرته عند هنة من النـــاس فقال: إن كنت تعلم أنك على الحق ، وأن من خالفك على الباطل ، أشرت عليك بما ينبغي، وإن كنت لا تدري أشرت عليك بما ينبغي كذلك، فقال: إني علـــى الحـــق وإنهم على الباطل ، فقال: اضرب بمن أطاعك من عصاك ومن ترك أمرك ، فـــإن كان أعز للإسلام وأصلح أن يضرب عنقه فاضرب عنقه ، فاستكتبه ، فلمـــا ولـــي رأيت ما صنع ، وعلمت أنه قد اجتهد لي رأيه[1].

ولما رأت السبئية استقامة الأمور لأمير المؤمنين ، وأن البصرة تمـــهدت لـــه وأن أهلها بايعوه وتعاونوا معه ، لم يرضهم ذلك لأنه جاء فـــي عكـــس رغباتـــهم المعادية للإصلاح والاستقرار ، إذ أن كل ما فعلوه كان يهدف إلـــى نـــزع الأمـــن ونزع الثقة بين المسلمين، وزرع الفتنة والخلاف في كل أقاليم الخلافـــة الراشـــدة ويبدو أنهم خططوا لفتنة أخرى ، في غير البصرة لأن رؤوس الفتنة فيها قد قتلـــوا عندما قاتلوا طلحة والزبير رضي الله عنهما ومن معهما ، فلم يعد أمامهم إلا الكوفة التي كانت آنذاك مرتعا خصبا للسبئية والغوغـــاء ، فـــانطلقوا باتجاهـــها دون أي مشاورة مع أمير المؤمنين ﷺ الذي أحس بمقاصدهم، فسار خلفهم لتدارك الأمـــور قبل فوات الأوان « **وأعجلت السبئية عليا عن المقام ، وارتحلوا بغير إذنه ، فارتحل في آثارهم ليقطع عليهم أمرا إن كانوا أرادوه ، وقد كان له فيها مقام** »[2].

فاستقر الخليفة في الكوفة واتخذها عاصمة للخلافة ، فكان « بين خلافة علـــي إلى وقعة الجمل خمسة أشهر وواحد وعشرون يوما ، وبين وقعة الجمـــل ، وأول الهجرة خمس وثلاثون سنة وستة أشهر وعشرة أيام ، وبين ذلك **وبين دخول علـــي إلى الكوفة شهر** »[3].

---

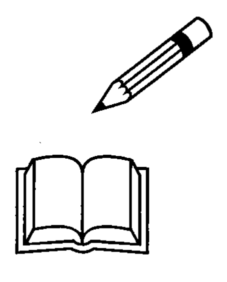
(١) الطبري ، تاريخ ، ٥/٢٨٢.

(٢) المصدر نفســه .

(٣) المسعودي ، مروج الذهب ، ٣٦٠.

وفي الكوفة أخذ أمير المؤمنين يعمل على توطيد أمر الخلافة في كل أقاليمها فكانت الشام وفيها واليها معاوية بن أبي سفيان ، قد امتنعت عن البيعة إلا بعد القصاص من قتلة الخليفة عثمان ﵁ . وكانت أوضاع مصر مضطربة داخليا ورغبة والي الشام ظاهرة في ضمها إلى ولايته ، وذلك لقربها إلى الشام ولما تمثله من قوة لمن يسيطر عليها ، ولوجود عمرو بن العاص ﵁ فاتحها وواليها معه . فأصبحت محط النزاع السياسي الأول بين الخليفة ووالي الشام رضي الله عنهما .

مما جعل الخليفة يوليها اهتماما أكبر ويبعث لها الولاة الواحد بعد الآخر ، فكان من أبرز الولاة الذين أرسلهم أمير المؤمنين إلى مصر ، وأثبت فيها جدارة سياسية وقدرة إدارية فائقة ، قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري والذي واجه سياسة معاوية ﵁ بسياسة مماثلة ، أغلقت منافذ مصر أمام نشاطاته الرامية إلى ضمها إليه .



النزاع بين أمير المؤمنين علي
وأمير الشام معاوية رضي الله عنهما

بويع لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في المدينة ، ومعاوية رضي الله عنه والياً على الشام منذ أن ولاّه عمر رضي الله عنه ، الذي أقرّه طوال فترة خلافته ولم يعزله ، بينما عزل ولاة كانوا خيراً منه من أمثال سعد وعمّار وابن مسعود وغيرهم ، مما يدل على نجاحه في عمله. فاستشهد عمر رضي الله عنه وهو راضٍ عنه ، ثم ولي عثمان رضي الله عنه فأقرّه على ما في يده وزاده بعض الأطراف ، وكثرت الشكاوى على الولاة في فتنة السبئية ، فلم تُرفع أي شكوى عليه طوال زمن الفتنة ، مع حرص السبئية على ذلك، وتأكيدهم في خططهم السريّة على وجوب تشويه سيرة الولاة الأكفاء ، وقد نجحوا في عزل عمرو بن العاص بن وائل والي مصر ، وسعيد بن العاص بن أمية والي الكوفة ، ونالوا من سمعة عبد الله بن عامر والي البصرة. وأوجد عبد الله بن سبأ لدعوته الهدامة الخلايا المتماسكة ، وشبكات التشويش المتواصلة في بث الشائعات والإفتراءات على ولاة الخليفة عثمان رضي الله عنه ولا سيما في الكوفة والبصرة ومصر ، حتى تمكن ابن سبأ في النهاية من تجييش غوغاء هذه الأمصار ، والسير بهم إلى المدينة تحت ذرائع باطلة وحجج مصنوعة ، واغتنام غيبة عامة أهل المدينة في الحج وفي الثغور ، والتمويه والمخادعة لمن كان منهم في المدينة ، حتى تمكنوا من اغتيال خليفة المسلمين وزرع الفتنة والشقاق بين أبناء الأمة .

ولكن مع كل هذه النجاحات التي حققتها الحركة السبئية الباطنية ، لم يوجد لها أي ذكر في بلاد الشام ، ولم يتمكنوا من تجنيد أي فرد من أبنائها للعمل ضد أمته . وقد يكون ذلك عائداً لأمرين ، **الأول منهما:** كثرة من قدمها أو عاش فيها من الصحابة رضي الله عنهم ولا سيما الأنصار من أمثال: معاذ بن جبل ، وعبادة بن الصامت

وأبي الدرداء عويمر ، وأبي سعيد الخدري ، وشداد بن أوس ، والنعمان بن بشير بن سعد ، وفُضالة بن عبيد وغيرهم ﭫ .

وتلقي أكثر أهل الشام علوم الإسلام على أيدي هؤلاء الأكابر ، الذين كانوا من أكثر الناس خبرة بمكر اليهود وكيدهم وذلك لمعايشتهم الطويلة لهم بالمدينة ولمشاهدتهم تكذيبهم لرسول الله ﷺ ومكرهم به ، وهذا ما كان وراء طرد ابن سبأ من بلاد الشام بعد تشكك عبادة بن الصامت ﭬ به ، عندما كان يحرص أن يُظهر نفسه على أنّه أحد تلامذة أبي ذرّ الغفاري ﭬ كما سبق بيان ذلك ...

والأمر الثاني: نباهة والي الشام وحزمه ويقظته ، وحسن صلته بالمسلمين وحرصه على أداء حقوقهم وتلبية حاجاتهم ومشاركتهم في كل شؤونهم، مما لم يدع أي ثغرة ينفذ منها عدو للإسلام والمسلمين .

ولكن مع كل هذا النجاح الفائق من قبل هذا الوالي ، وعلى الصعد كافّة ومع عدم وجود أي خلاف مباشر بين أمير المؤمنين علي ﭬ وبين معاوية ﭬ وعدم مشاركة معاوية في كل ما جرى من أحداث بعد استشهاد عثمان ﭬ مع قدرته على ذلك ، وإمكانيته من قلب موازين القوى ضد أمير المؤمنين ﭬ ، فيما لو وقف مع الشهيدين طلحة والزبير رضي الله عنهما فيما جرى من أحداث ، في فتنة السبئية الثانية في البصرة ، والتي كان فيها معاوية يُشارك الشهيدين في كل ما قاما به بقناعة تامة ، بل إن موقفه في صفين ما هو إلا امتداد لما نهض الشهيدان له وعدم مشاركة معاوية في كل ما جرى في البصرة من أحداث ، لا في يده ولا في لسانه ، يؤكّد براءته ﭬ من أية نيّة مسبقة في مخالفة أمير المؤمنين علي ﭬ وأنّ كل ما يُروى في هذا الباب ما هو إلا امتداد لما رسّخته الحركة السبئية في عقول الغوغاء ودوّنه أصحاب الأهواء من الرواة والإخباريين .

وهذا ما زاد من حقد أتباع هذه الطبقة من الناس ، وتحاملهم على هذا القائد

الناجح الذي أعجزهم وهزمهم في كل ميدان نازلوه فيه. وما ذلك إلا لمعرفته التامة بنزعات أولئك الغوغاء ، وحبهم للشغب وإثارة الفتن، ولا شك أن معاوية ﷺ كان من أعرف الناس بهم وذلك منذ أن كتب «أشراف أهل الكوفة وصلحاؤهم إلى عثمان في إخراجهم ، فكتب: إذا اجتمع ملؤكم على ذلك فألحقوهم بمعاوية . فأخرجوهم »[١] .

فكتب عثمان إلى معاوية: « إنّ أهل الكوفة قد أخرجوا إليك نفراً **خُلقوا للفتنة** فرُعهم وقم عليهم ، فإن آنست منهم رشداً فاقبل منهم ، وإن أعيوك فارددهم عليهم»[٢]. فلما قدموا على معاوية رحب بهم وأجرى عليهم العطاء وأكرمهم وأسكنهم قريباً منه فكان يزورهم ويحادثهم ويرجو استصلاحهم ، وهم بضعة عشر رجلاً منهم: «مالك بن الحارث الأشتر النّخعي ، وثابت بن قيس النّخعي وكُميل بن زياد النّخعي ، وزيد بن صوحان العبدي ، وجندب بن زهير الغامدي وجندب بن كعب الأزدي ، وعروة بن الجعد »[٣] .

فكان معاوية يُذكّرهم بفضل الله تعالى عليهم إذ جعلهم من المسلمين ، وبحقوق أمرائهم عليهم ، وقال: « **إن أئمتكم اليوم يصبرون لكم على الجور ، ويحتملون منكم المؤونة ، والله لتنتهن أو ليبتلينّكم الله بمن يسومكم ، ثم لا يحمدكم على الصبر ، ثم تكونون شركاء لهم فيما جررتم على الرعية في حياتكم وبعد موتكم** »[٤] .

وجرت له معهم جولات ومحاورات كثيرة، حتى نالوا من قريش وقالوا له: « **إنّا نأمرك أن تعتزل عملك ... فقال لهم: لو كان غيري أقوى مني لم يكن لي عند عمرو هوادة ولا لغيري ... فمهلاً فإنّ في ذلك وأشباهه ما يتمنى الشيطان ويأمر**

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ١٣٤/٥ . ابن الأثير ، الكامل ، ٧٠/٣. وقد سبق تفصيل ذلك في خلافة عثمان.

(٢) المصدر نفسه ..

(٣) الطبري ، تاريخ ، ١٣٨/٥ . هكذا ذكرهم ابن جرير الطبري .

(٤) المصدر نفسه .

ولعمري لو كانت الأمور تُقضى على رأيكم وأمانيكم ما استقامت الأمور لأهل الإسلام يوماً ولا ليلة ... فوثبوا عليه فأخذوا برأسه ولحيته ، فقال: مَهْ، إنّ هذه ليست بأرض الكوفة ... فلعمري إنّ صنيعكم ليشبه بعضه بعضاً »[1]. فقام من عندهم وكتب إلى الخليفة: « **إنّك بعثت إلي أقواماً يتكلمون بألسنة الشياطين ... فيُشبّهون على الناس ، وليس كل الناس يعلم ما يُريدون ، وإنّما يريدون فُرقة ويُقربون فتنة ، قد أثقلهم الإسلام وأضجرهم** »[2] .

فصرفهم من الشام ، فلما خرجوا دعاهم فقال: « إني معيد عليكم ، إن رسول الله ﷺ ، كان معصوماً فولاني ، وأدخلني في أمره ، ثم استخلف أبو بكر رضي الله عنه فولاني ، ثم استخلف عمر فولاني ، ثم استخلف عثمان فولاني ، فلم أَلِ لأحد منهم ولم يولّني إلا وهو راضٍ عني ، وإنما طلب رسول الله ﷺ للأعمال أهل الجزاء عن المسلمين والغناء ، ولم يطلب لها أهل الاجتهاد والجهل بها والضعف عنها وإنّ الله ذو سطوات ونقمات يمكر بمن مكر به ، فلا تعرضوا لأمر وأنتم تعلمون من أنفسكم غير ما تُظهرون ، فإنّ الله غير تارككم حتى يختبركم ويُبدي للناس سرائركم »[3]. وقد قال عزّ وجلّ: ﴿ آلم ۞ أحسب الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنّا وهم لا يُفتنون ﴾[4].

فلما تفجّرت الفتنة على أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه ، كان هؤلاء من قادة الخوارج عليه في أيديهم وألسنتهم . وهذا ما يؤكّد معرفة والي الشام بهم وبما

---

(١) المصدر نفسه ، ١٣٧/٥ ، ١٣٥/٥. ابن الأثير ، الكامل ، ٧٠/٣.

(٢) المصدر نفسه ، ١٣٨/٥.

(٣) الطبري، تاريخ ، ١٣٥/٥، ثم سيرهم الخليفة إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وإلي حمص وعنده نالوا جزاءهم العادل ، حتى تابوا ، لكنهم سرعان ما انخرطوا في فتنة قتل الخليفة عثمان رضي الله عنه ونقضوا توبتهم .

(٤) سورة العنكبوت، الآيتان (١ ، ٢) .

يريدون ، فهو يقول عنهم: « **لا يريدون الله بشيء ، ولا يتكلمون بحجة إنّما همهم الفتنة وأموال أهل الذمّة والله مبتليهم ومختبرهم ، ثم فاضحهم ومخزيهم** »[1] .

وبعد أن استشهد أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه ، كانوا من أوائل المبايعين لأمير المؤمنين علي رضي الله عنه ، وفي مقدمة جيشه الخارج من المدينة إلى البصرة ، وكانوا ممن شارك في التخطيط لإنشاب القتال بين جيش أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وأخوته طلحة والزبير ومن معهما ، وممن كان يبحث على حرب أهل الشام ، لإنشاب القتال مرة أخرى لعزل معاوية رضي الله عنه أو قتله وتوسيع دائرة الخلاف بين أبناء الأمة.

والسؤال الذي يُطرح هنا ، ما دام لا يوجد بين أمير المؤمنين ووالي الشام أية خلافات مُسبقة ، وما دام والي الشام محبوباً من أهل ولايته ، وهم راضون عنه وهو من أكفأ ولاة الخلافة إن لم يكن أكفأهم على الإطلاق وقد ولاه جميع الخلفاء السابقين ولم يوله أحد إلا وهو عنه راض . فلماذا أصرّ أمير المؤمنين على عزله والإعراض عمّن نصحه بإبقائه على ولايته ، ودون تقديم أية ذريعة لذلك العزل ؟ في ظروف غير طبيعية إذ اشرأب أهل النفاق في كل مكان واستطال أهل الفتنة ولم يعد يقهرهم سلطان ، وأصبح بإمكانهم النيل ممن شاؤوا في كل أرض الخلافة بعد قتلهم الشهداء الثلاثة عثمان وطلحة والزبير رضي الله عنهم ، وعزلهم مَنْ عزلوا من الولاة .

فلا بدّ أن تكون هناك دوافع يسوّغ فيها أمير المؤمنين ما يقوم به في هذه المسألة، وما دامت كل المسوغات الظاهرة معدومة ، فإنّ تلك الدوافع ما هي إلا ما كان يُشيعه عنه أولئك الغوغاء وأعوانهم ويتحدثون به بين المسلمين ، وعند مَن يغشى مجالس أمير المؤمنين ، ولا سيّما بعد أن كشف معاوية جميع أهدافهم ونواياهم ، ولم يعد من الممكن أن يطمئنوا إليه بعد أن علم داءهم وشخّص أهواءهم أولئك الذين قال عنهم الشهيد عثمان رضي الله عنه إنهم قوم خُلقوا للفتنة ، وخاطبهم والي

---

(1) المصدر نفسه ، ابن الأثير ، الكامل ، ٧١/٣.

حمص عبد الرحمن بن خالد بقوله: **يا معشر من لا أدري أعرب أم عجم ... إنّ من لم يُصلحه الخير أصلحه الشر**[1]. **ثم جاءت خُطب أمير المؤمنين علي ﷺ فيهم مطابقة تماماً لما وصفوا به من قبل الولاة السابقين ، ولكن كان ذلك متأخراً وبعد أن اكتشف التناقض بين أقوالهم وأفعالهم .**

ولهذا يمكن القول إنّ من الأسباب التي عمّقت دائرة الخلاف بين الخليفة علي ووالي الشام معاوية ، وجود الغوغاء في جيش أمير المؤمنين وتحريضهم على قتال معاوية ، وتهويلهم من خطورة امتناعه عن البيعة إلا بعد القصاص من القتلة ، لأنّ ذلك يعنيهم بالدرجة الأولى .

ومما زاد معاوية قناعة بوجوب التمسك بولايته ، هو خطورة ما أصبح يراه من سطوة أولئك الغوغاء ونفوذهم في جيش أمير المؤمنين فلم يعد بإمكانه التخلي عن ولايته قبل أن يُقام حكم الله تعالى على أولئك القتلة ، وذلك للإستعانة بأهلها على دفع أذاهم وصدّ شرّهم. ولهذا فإنّ عوامل الخلاف أصبحت قائمة وقوية ، بين خليفة يرى أنّ هذا الوالي متمرد على إرادته وهذا ما لا يحق له ، لذلك لا بدّ من إرغامه على الطاعة بالقوة ونزعه عن ولايته ، وبين والٍ يرى أنّ هذا الخليفة غير واجب الطاعة ، لأنّه لم يُقم حدّ الله تعالى على من قتل خليفة المسلمين ، إما لعجزه عن ذلك أو لعدم معرفته التامة بهم أو لغير ذلك من الأسباب. يؤكّد ذلك عدم تمكنه من كبح جماح الغوغاء الذين يراهم والي الشام خطراً محدقاً بالمسلمين ، **فضلاً عمّا قاموا به من إثارة الفتن بين المسلمين ، وقتل الشهداء الثلاثة واستهدافهم له ولمن يشاركه الرؤية التي يحملها تجاههم ، وهم لا يزالون بين قبائلهم في جيش أمير المؤمنين ، الذي اتضح موقفه منهم كما سبق والذي لا يكاد يختلف عن موقف معاوية ، أما ما يروى عن أسباب لذلك النزاع، ترجع به إلى أيّام الجاهلية**

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٥/١٣٦.

والمنافسة بين بني أميّة وبني هاشم ، فهذا أبعد ما يكون عن الحقيقة ، بل إنّه اتهام خطير لصحة إسلام الصحابة وسلامة ولائهم لدينهم وعقيدتهم ، فضلاً عمّا يرمي إليه من صرف الشُبهة عن المتهم الحقيقي، لتبقى أسباب الخلاف قائمة بين أبناء الأمة .

وبناءً على هذا فإن الغوغاء ، الذين قتلوا عثمان رضي الله عنه ، وأثاروا القتال بين المسلمين في البصرة ، هم أنفسهم الذين هيّأوا أسباب الخلاف بين أمير المؤمنين علي رضي الله عنه الذي شحنوا صدره ببهتانهم على معاوية حتى صوروا له أنّ نزعه عن ولايته[1] من أولى أولويات الخلافة ، وبين معاوية الذي هو على علم تام بخطورة مقاصد الخوارج السيئة وما يرمون إليه ، من العمل المستمر على إدامة أسباب الخلاف بين المسلمين ، وتغذية الأحقاد وإحياء الضغائن ، هذه الأمور التي لازالت تمثل أعمدة اعتقاد أعداء الإسلام ومبغضي الصحابة إلى اليوم .

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٨/١٠. روى عن ابن عساكر لما تولى علي رضي الله عنه الخلافة ، أشار عليه كثير من أمرائه ممن باشر قتل عثمان أن يعزل معاوية عن الشام ويولي عليها سهل بن حنيف .

بداية الاحتكاك بين علي ومعاوية رضي الله عنهما

كان أول احتكاك مباشر لذلك الخلاف ، هو عزل أمير المؤمنين علي لوالي الشام وإرسال سهل بن حُنيف الأنصاري ، والياً عليها ، والذي يروى أنّه « سار إليها حتى إذا كان بتبوك[1] لقيته خيل ، فقالوا من أنت ؟ قال: أمير ، قالوا: على أي شيء ؟ قال: على الشام ، قالوا: إن كان عثمان بعثك فحيّهلا بك ، وإن كان بعثك غيره فارجع ! قال: أو ما سمعتم بالذي كان ؟ قالوا: بلى ، فرجع إلى علي رضي الله عنه»[2] ثم بعث أمير المؤمنين رضي الله عنه سبرة الجهني بكتاب إلى معاوية رضي الله عنه ، لكن معاوية لم يردّ على ذلك الكتاب حتى كان الشهر الثالث من استشهاد عثمان رضي الله عنه ، فبعث قُبيصة العبسي إلى المدينة حيث عرف أهلها من خلاله اعتراض معاوية على البيعة وأعلم أمير المؤمنين أنّ أهل الشام يريدون إقامة الحدّ على قتلة عثمان رضي الله عنه حتى يعطوا البيعة ، فقال أمير المؤمنين اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان[3]، ثم أمر مبعوث معاوية بالخروج فخرج قبيصة العبسي « وصاحت السبئية قالوا: هذا الكلب هذا وافد الكلاب ، اقتلوه ... وتعاووا عليه ومنعته مُضَر ، وجعلوا يقولون له: أسكت فيقول: لا والله ، لا يفلح هؤلاء أبداً ، فلقد أتاهم ما يوعدون. فيقولون له: أسكت فيقول: لا والله لا يفلح هؤلاء أبداً ، فلقد أتاهم مايوعدون. فيقولون له اسكت فيقول: لقد حل بهم ما يحذرون ، انتهت والله أعمالهم ، وذهبت ريحهم ، فوالله ما أمسوا حتى عُرف الذل فيهم »[4] .

---

(١) تبوك: موضع بين وادي القرى والشام وقيل بين الحجر والشام وأول الشام على أربع مراحل من الحجر نحو نصف طريق الشام ، وبين تبوك والمدينة اثنتا عشرة مرحلة ، ياقوت ، معجم البلدان ، ٤٣٢/١.

(2) الطبري ، تاريخ ، ٢١٥/٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٤١/٧.

(٣) المصدر نفسه .

(٤) الطبري ، تاريخ ، ٢١٦/٥ .

بعد ذلك عزم علي ﷺ على المسير إلى الشام، وأن يقاتل بمن أطاعه من عصاه ولم يبايعه ، فقال الحسن بن علي رضي الله عنهما: « يا أبتي دع عنك هذا فإن فيه سفك دماء المسلمين ووقوع الاختلاف بينهم فلم يقبل منه ذلك بل صمم على القتال »[1] .

وبينما كان أمير المؤمنين ﷺ في طور الإعداد للمسير إلى الشام جاءته الأنباء بما استجد من أحداث في البصرة فغير وجهته إليها وجرت الأحداث هناك على نحو ما سبق ذكره .

وكان أمير المؤمنين قد أرسل قيس بن سعد بن عبادة ، واليا على مصر فتمكن من ذلك واستقر له الأمر في مصر ، لحسن سياسته وسعة أفقه في احتواء جميع الاتجاهات السياسية في مصر ولا سيما في تلك المرحلة الحرجة ، التي أعقبت استشهاد عثمان ﷺ وتزايد تأثير الحركة السبئية وأصحاب الأهواء وبعض متنفذي الأعراب والغوغاء التي تسير وراء كل ناعق ، حبا للفتنة وطلبا للذكر والشهرة .

إلا أن استقرار الأمور في مصر لم يدم طويلا ، وذلك لقربها من الشام ، ذلك الأمر الذي أدى إلى صراع سياسي بين معاوية وقيس رضي الله عنهما كانت نتيجته عزل قيس عن ولاية مصر ، ثم ضمها إلى الشام وذلك على النحو الآتي .

---

(1)ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٤١/٧ ، الطبري ، تاريخ ، ٢١٧/٥.

إرسال قيس بن سعد بن عبادة والياً على مصر « ٣٦هـ »

قيس بن سعد بن عبادة الساعدي الخزرجي ، صحب النبي ﷺ عشر سنين وكان بمنزلة صاحب الشرطة من الأمير[١]. وكان رضي الله عنه من ذوي الرأي من الناس ومن دهاة العرب ، فكان يُضرب المثل بدهائه[٢]، قال قيس: لولا أنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: المكر والخديعة في النار لكنت أمكر هذه الأمة[٣]، وكان مشهوراً بالجود والكرم[٤] .

فهذه النصوص تظهر ما كان يتمتع به قيس من قدرات تؤهله للقيام بأعباء المهام الجسام وتجعل له قبولاً واسعاً في المجتمع آنذاك .

ولما ولي قيس مصر أثبت جدارة عالية في إدارتها ، في ظروف داخلية صعبة إذ كان على قيس أن يتعامل مع أنصار الخليفة عثمان رضي الله عنه ، ومع السبئية والغوغاء الذين خرجوا عليه وأسهموا في قتله ، وعليه أن يثبت بيعة علي رضي الله عنه في مصر فضلاً عن جباية الخراج من كل هذه الأطراف ومنع أيّ صدام بينها والإسهام في تثبيت واستتباب الأمن فيها .

وكانت الأوضاع الخارجية من الخطورة بمكان ، لا يقل عن الأوضاع الداخلية ولا سيما قرب مصر من الشام ، وما يمتلكه معاوية من قوة عسكرية وتجربة سياسية، وتعلق أهل ولايته به لحسن سياسته وجميل حلمه وتواضعه ، وكذلك بُعد قيس في مصر عن الخليفة علي في الكوفة ، وما كان يشغل الخليفة من آثار

---

(١) الذهبي ، سير أعلام النبلاء ١٠٢/٣ ، الهندي ، كنز العمال ، ح (٣٨٤٧٨) .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) ابن الأثير ، أُسد الغابة ، ٤٩٨/٣ ، ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ١٢٩٠/٣.

(4) الهندي ، كنز العمال ، ح ٣٧٤٧٧.

استشهاد عثمان رضي الله عنه ، وآثار القتال الذي حصل في البصرة ، وما ترتب على نقل العاصمة وإقامة الخليفة في الكوفة بدلاً من المدينة .

وفي تلك الظروف المتداخلة من سنة (٣٦هـ ٦٥٦م) سار قيس بن سعد ومعه أهل بيته وسبعة نفر من أصحابه ، قاصداً مصر والياً لأمير المؤمنين علي رضي الله عنه .

وهناك خلاف حول ترتيب ولاة مصر في خلافة علي رضي الله عنه ، والذي يبدو أنّ قيس سار إلى مصر من المدينة[١]، ولم يُشارك في أحداث البصرة ، إذ لا ذكر له عند خروج أمير المؤمنين من المدينة ، ولا في أحداث البصرة .

وكان والي مصر عند استشهاد عثمان عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، فلما علم بما وقع لعثمان رضي الله عنه ، اعتزل الفتنة وجاء من مصر إلى الرّملة في فلسطين وكان له عدة فتوح في أفريقية ، وغزا الروم في غزوة ذات الصواري ، فالتقى الروم وكانوا في ألف مركب فقتلهم مقتلة عظيمة لم يُقتلوا مثلها[٢].

وكان ممن أسلم في زمن النبي صلى الله عليه وسلم لكنه ارتدّ ثم تاب إلى الله تعالى يوم فتح مكة ، فحسن إسلامه وجهاده[٣]، ولما احتضر قال اللهم اجعل آخر عملي صلاة الصبح ، فلما طلع الفجر توضّأ وصلّى، فلما ذهب يُسلّم عن يساره فاضت روحه[٤] وذلك سنة ست وثلاثين للهجرة .

وبعد غزوة ذات الصواري عام ٣٤هـ ، وفد عبد الله إلى أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه ،واستخلف على مصر ، السائب بن هشام بن عمرو العامري ، فانتزى

---

(١) ينظر: الطبري، تاريخ، ٢١٥٠/٥، ٢٨٦/٥.

(٢) الذهبي ، عهد الخلفاء الراشدين ، ٥٢٩ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٦١/٧ ، ابن عبد البر الاستيعاب ، ٩١٩/٣.

(3) ابن عبد البر ، الاستيعاب، ٩١٨/٣.

(4) المصدر نفسه ، الذهبي ، الخلفاء الراشدون ، ٥٣٠.

عليه محمد بن أبي حُذيفة بن عتبة بن ربيعة ، فخلع السائب وتأمّر على مصـــر[١] فلما رجع عبد الله بن سعد من وفادته ، منعـــه ابـــن أبـــي حذيفـــة مـــن دخـــول الفسطاط[٢]، وذلك بعد أن علم بحصار السبئية للشهيد عثمان رضي الله عنه . « وكان الـــذي جهزهم إليه مع عبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء ، محمد بن أبي حُذيفة بـــن عتبة ، وكان لما قتل أبوه باليمامة ، أوصى به إلى عثمان فكفله ورباه في حجـــره ومنزله ، وأحسن إليه إحساناً كبيراً »[٣] .

ثم خرج إلى العريش[٤] فقتل هناك[٥]. وقيل أن ذلك عام ثمان وثلاثين أي بعـد صفين[٦]. وقيل قتل سنة ست وثلاثين[٧] .

فلما انتهى قيس بن سعد إلى أيلة[٨]، لقيته خيل ، فقالوا من أنت فذكر لهم اسمه ولم يذكر مهمته فمضى حتى دخل مصر، فأخبرهم أنه ولّي عليها فـــافترق أهـل مصر فرقاً ، فرقة دخلت في طاعته ، وفرقة وقفت واعتزلت إلى خَرْبتا وقـالوا: إنْ قتل قتلة عثمان فنحن معكم، وإلا فنحن على حالتنا حتى نُحرّك أو نصيب حاجتنـــا وفرقة قالوا: نحن مع علي ما لم يقد إخواننا وهم في ذلك مع الجماعة ، وكتب قيس ابن سعد بذلك ، إلى أمير المؤمنين رضي الله عنه .

---

(١) ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ٩١٩/٣ .

(٢) الفسطاط: كان لعمرو بن العاص وهو بيت من أدم وشعر، وهو مجتمع أهل الكورة حول المسجد وهي مدينة مصر التي بناها عمرو بن العاص ، قرب حصن أم دُنين، ياقوت، معجم البلدان، ٤٣٥/٦.

(٣) الذهبي ، عهد الخلفاء الراشدين، ٦٠١، ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٦٣/٧.

(٤) العريش: وهي أول أعمال مصر من ناحية الشام على ساحل البحر في وسط الرمل، ياقوت، معجم البلدان ، ٣٢١.

(٥) الطبري ، تاريخ ، ٢١٥/٥، ابن حبان الثـقات ، ٢٧٣/٢.

(٦) الذهبي ، عهد الخلفاء الراشدين، ٦٠١، ابن كثير، البداية والنهاية، ٣٣٠/٧.

(٧) المصدر نفســه .

(٨) أيلة: مدينة على ساحل بحر القلزم وتعد في بلاد الشام آخر الحجاز، ياقوت، معجم البلدان، ٢٣٢/١.

ثم أوضح منهجه السياسي المقيّد بتوجيهات الخليفة التي جاءت في كتاب توليته والذي يبدو أنه قد زيد في مقدمته ما يناقض ما صح عن علي رضي الله عنه في موقفه من الشهيد عثمان رضي الله عنه ، ومن قول الخليفة في ذلك الكتاب « ألا وإنّ لكم علينا العمل بكتاب الله وسُنّة رسوله صلى الله عليه وسلم والقيام عليكم بحقه والنصح لكم بالغيب والله المستعان وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وقد بعثت إليكم قيس بن سعد بن عبادة فوازروه وكانفوه وأعينوه على الحق وقد أمرته بالإحسان إلى محسنكم ، والشدة على مريبكم والرفق بعوامكم وخواصكم ، وهو ممن أرضى هديه ، وأرجو صلاحه ونصيحته»[1] .

ثم أكّد قيس التزامه بالكتاب والسُنّة ، في سياسته ، فقال: « إن نحن لم نعمل بذلك فلا بيعة لنا عليكم »[2] فاستقامت له طاعة أهل مصر ، فبعث عليها عماله .

إلا أهل خَرْبتا[3]، وكانوا من وجوه الناس في نحو عشرة آلاف[4]، وكانوا ممن استنكروا مقتل عثمان واستعظموه ، قالوا: « ابعث عمالك فالأرض أرضك ولكن أقرّنا على حالنا حتى ننظر إلى ما يصير أمر الناس »[5] .

إلا أنّ مسلمة بن مخلّد الأنصاري ، قام يدعو إلى الطلب بدم عثمان فأرسل إليه قيس ، ويحك عليّ تثب ، فو الله ما أحب أنّ لي ملك الشام إلى مصر وأني قتلتك ، فبعث إليه مسلمة أنّي كافّ عنك ما دمت أنت والي مصر قال: وكان قيس ابن سعد له حزم ورأي ، فبعث إلى الذين بخَرْبتا: إنّي لا أكرهكم على البيعة ، وأنا

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٢٨٥/٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٦٤/٧ .

(٢) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٢٨/١.

(٣) خَرْبتا تعد من كور مصر ، وهي حوالي الاسكندرية ، وهي الآن خراب لا تُعرف، ياقوت، معجم البلدان ، ٢٢٢/٣.

(٤) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٦٣/٧ ، الطبري ، تاريخ ، ٢٨٦/٥.

(٥) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٦٩/٦، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة، ١٢٨/١.

أدعكم وأكف عنكم ، فهادنهم وهادن مسلمة بن مخلد وجبى الخراج ليس أحد من الناس ينازعه[1] . إلا أن هذا النجاح الذي حققه قيس ، لا يمكن أن يسكت عليه معاوية في تلك المرحلة الخلافية فيصبح بين فكي كماشة من مصر والعراق . لهذا كان لا بد من حدوث مواجهة بين داهيتين من دهاة العرب ، أظهرا فيها براعة سياسية نادرة في إدارة الأحداث ؛ واستخدام الوسائل السياسية أو ما كان يسمى بـ « المكر » للوصول إلى أهدافهما .

ويبدو أن قيس اكتفى بما وصل إليه من نجاح في مصر ، وذلك لما يحيط بالخلافة من ظروف آنذاك ، وإلا فقد كانت له طموحات أكبر ، قال: « لولا أن المكر فجور لمكرت مكرا تضطرب منه أهل الشام بينهم »[2] والظاهر أن ما كان يفكر فيه قيس كان يفكر فيه معاوية أيضا « فكتب معاوية وعمرو بن العاص إليه يدعوانه إلى مبايعتهما ، فكتب إليهما كتابا فيه غلظ ، فكتبا إليه بكتاب فيه عنف فكتب إليهما بكتاب فيه لين ، فلما قرآه علما أنهما لا بد لهما بمكره »[3] .

وقد كان معاوية من السياسة بمكان ، يحتار فيه الصديق قبل الخصم ، حتى قال له عمرو بن العاص: « قد أعياني أن أعلم أجبان أنت أم شجاع ، لأني أراك تتقدم حتى أقول: أراد القتال ، ثم تتأخر حتى أقول: أراد الفرار ، فقال له معاوية: والله ما أتقدم حتى أرى التقدم غنما ، ولا أتأخر حتى أرى التأخر حزما »[4] .

لذلك كتب معاوية إلى قيس يدعوه إلى المؤازرة على الطلب بدم عثمان، ويعده بالوعود المغرية إن أجاب إلى ذلك ، فلما بلغ الكتاب قيسا ، لم يوافقه ولم يخالفه بل بعث يلاطفه ، فكتب إليه معاوية مرة أخرى ، أنه لا يسعك معي تسويفك بي

---

(١) الطبري ، تاريخ، ٢٨٦/٥، ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٦٤/٧.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء ، ١٠٨/٣، ابن تغري بردي ، ١٣٠/١.

(٣) المصدر نفسه. **ومكره: أي استخدام الوسائل السياسية وتوثيق الاتصالات السلمية مع أهل مصر .**

(٤) المسعودي ، مروج الذهب ، ٢٧/٣ .

وخديعتك لي ، ولا بدّ أن أعلم أنّك سلم أو عدو، فأعلن سعد عن موقفه وأيأس معاوية منه[1]، وأمام هذا الواقع الجديد في علاقة قيس مع والي الشام أخذ يستعد لما قد يحصل له في المستقبل ، فزاد من إحسانه إلى رعيته واستمال المعتزلين عنه من المتوقفين في خربتا ، حتى قدموا عليه في مصر فأكرمهم وأنعم عليهم[2]، فعظم ذلك على معاوية ، وعلم أنّه لن يتمكن من النيل منه في مصر ، فحاربه بالدهاء وبما يزعزع ثقة الخليفة علي فيه في الكوفة فأخذ يُشيع على قيس أنّه أصبح من أنصاره ، فخطب في الشام فقال: «يا أهل الشام إنّ الله ينصر خليفته المظلوم وأبشروا هذا قيس بن سعد ناب العرب قد أبصر الأمر ورجع إلى الطلب بدم خليفتكم ... وقد أمر بحمل الطعام إليكم فادعوا الله لقيس »[3]، ويظهر أن مثل هذه الشائعات كانت تصل العراق بشكل منتظم ومدروس ، يساعد على ذلك وجود الغوغاء في الكوفة ، الذين كانوا مطية للدعاية السبئية التي استخدمتهم في الفتنة في المدينة وفي البصرة ، لذلك اقتنع بها بعض المقربين من الخليفة ، فأخذوا يشككون في إخلاص قيس وولائه، لكنّ الخليفة لم يقبل منهم ولم يصدّق ما كان يُثار من شائعات على قيس بن سعد ، فطُلب من الخليفة اختبار طاعته ، بمحاربة أهل خربتا ، وبينما هم كذلك إذ جاء كتاب من قيس بن سعد فيه: « إنّ قبلي رجالاً معتزلي ، قد سألوني أن أكفّ عنهم وأن أدعهم على حالهم حتى يستقيم أمر الناس فنرى ويروا رأيهم ، فقد رأيت أن أكف عنهم وألا أتعجل حربهم، وأن أتألّفهم فيما بين ذلك لعل الله عز وجل أن يُقبل بقلوبهم »[4] فقيل يا أمير المؤمنين يخشى أن

---

(١) الطبري، تاريخ ، ٢٨٧/٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٦٤/٧. ابن الجوزي ، المنتظم ، ٣٤٤/٣ .

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١٢٧/١.

(٣) الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ١٠٩/٣، الدويدار ، كنز الدرر، ٣٤٧/٣، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ، ١٢٧/١.

(٤) الطبري، تاريخ، ٢٨٩/٥.

يكون هذا ممالأة لهم منه ، فمره يا أمير المؤمنين بقتالهم ، فكتب إليه «يأمره بقتال أهل خربتا وأهل خَرْبتا يومئذ عشرة آلاف»[1] فقال: «سر إلى القوم الذين ذكرت فإن دخلوا فيما دخل فيه المسلمون وإلا فناجزهم إن شاء الله»[2] .

ولما كان قيس أدرى بما يحيط به من أوضاع ، ولم يكن يرى من المصلحة تنفيذ هذا الأمر ، كتب إلى الخليفة يوضح له جليّة الأمر و «أنّهم وجوه أهل مصر وقد رضوا مني بأن أؤمن سربهم وأجري عليهم أعطياتهم وأرزاقهم ، وقد علمت أنّ هواهم مع معاوية فلست مكايدهم بأمر هو أهون عليّ وعليك من أن نفعل ذلك بهم اليوم»[3]، وقال: «فقد عجبت لأمرك، أتأمرني بقتال قوم كافّين عنك مُفرّغيك لقتال عدوك ! وإنّك متى حاربتهم ساعدوا عليك عدوك ، فأطعني يا أمير المؤمنين واكفف عنهم ، فإن الرأي تركهم، والسلام»[4].

وذكر أن فيهم من القادة: بُسر بن أبي أرطأة ومسلمة بن مخلّد ومعاوية ابن خديج الخولاني ، وقال: فذرني ورأيي فيهم وأنا أعلم بما أُداري[5]. ولكن اعتذار قيس هذا لم يُقبل في الكوفة ، على الرغم من واقعيته وصدقه ومما شاته للظرف السياسي الذي تمر به الخلافة آنذاك ، وهذا يدل على جدية معاوية في استخدام سلاح الإعلام المضاد ونجاحه في ذلك .

كما يُشير إلى ضعف الجانب الأمني في الخلافة ، التي لم ترصد مصدر الشائعات التي استهدفت أبرز ولاتها وأكثرهم إخلاصاً لها ، وهذا ما يؤكّد وجود الغوغاء في الكوفة ، ومشاركتهم في تضخيم الشائعات ونشرها ، مما زاد الضغط

---

(١) ينظر، الصنعاني، المصنف ، ٤٥٩/٥، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٦٣/٤ .

(٢) الطبري ، تاريخ ، ٢٨٩/٥ .

(٣) الصنعاني ، المصنف ، ٤٥٩/٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٦٣/٧ .

(٤) الطبري ، تاريخ ، ٢٨٩/٥ .

(٥) الصنعاني ، المصنف ، ٤٥٩/٥ .

على قيس لمقاتلة الكافّين عنه في مصر[١]. وقيل لأمير المؤمنين: ابعث محمد بن أبي بكر على مصر يكفيك أمرها ، واعزل قيساً ، فإنّه يقول: والله إنّ سلطاناً لا يتم إلا بقتل مسلمة بن مخلّد لسلطان سوء ، والله ما أحب أن لي ملك الشام ومصر وإني قتلت ابن المخلّد [٢] .

فلما لم تجد المسوّغات التي قدّمها قيس في إقناع الخليفة بالاستمرار على سياسته علم أنّه أُتي من هناك ، فكتب إليه : « إن كنت أمرتني بهذا لتختبرني لأنك اتهمتني فابعث إلى عملك بمصر غيري »[٣]، « فبعث علي محمد بن أبي بكر على مصر وعزل عنها قيساً »[٤] .

فلما قدم ابن أبي بكر والياً على مصر ، استقبله قيس بن سعد رضي الله عنه وتعاون معه ومهد له الأمور ، وشجعه ونصحه بسلوك المنهج الذي اتبعه في مواجهة سياسة معاوية وأهل خربتا في مصر ، وحذّره من العدول عنه، وقال له: « إنْ تكايدهم بغيره تهلك »[٥] .

لكن محمد بن أبي بكر لم يأخذ بنصيحة قيس بن سعد رضي الله عنهما، فخالفه وحارب أهل خربتا فهزم، ثم أرسل معاوية رضي الله عنه عمرو بن العاص رضي الله عنه في جيش إلى مصر ، وذلك بعد الفراغ من التحكيم[٦]، وبعد مشاورات قال فيها معاوية رضي الله عنه: أبعثُ إلى شيعتنا هناك كتاباً نعلمهم فيه بما عزمنا عليه ، ونبعث إلى مخالفينا كتاباً ندعوهم فيه إلى الصلح ، وقال معاوية: يا عمرو إنك رجل بورك لك بالعجلة وإني

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٦٢/٦.

(٢) الطبري، تاريخ، ٢٨٩/٥، وذكر أن الذي قال لأمير المؤمنين هو عبدالله بن جعفر بن أبي طالب.

(٣) الصنعاني، المصنف، ٤٥٩/٥.

(٤) المصدر نفسه، الطبري، تاريخ، ٢٨٨/٥، ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٦٤/٧.

(٥) الصنعاني ، المصنف ، ٤٦٠/٥ ، ابن الجوزي ، المنتظم ، ٣٩١/٣.

(٦) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٣٢٧/٧ ، ٣٢٨/٧ .

امرؤ بورك لي في التؤدة ، فسار عمرو في جيش ما بين أربعة إلى ستة آلاف من أهل الشام ، إلى مصر بعد أن أوصاه معاوية «بتقوى الله والرفق والمهل والتؤدة وأن يقتل من قاتل ويعفو عمّن أدبر ، وأن يدعو الناس إلى الصلح والجماعة »[1] فلما وصل عمرو إلى مصر اجتمع إليه أهل خربتا ومن كان غاضباً على من شارك في الخروج على الخليفة عثمان رضي الله عنه ويزيد الناس إقبال على جيش عمرو أنه هو فاتح مصر ومحررها من الروم فكان لعمرو هناك قبولاً ، فضلاً عمّا امتاز به من حسن السياسة وجميل التدبير ، وما سبق له من جهاد وصحبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يُقاس إليه محمد بن أبي بكر بشيء ، ولا سيما أنّه أفسد على نفسه بمشاركته الخارجين على عثمان ، قبل أن يتداركه الله بلطفه فيتوب في اللحظة الأخيرة والله أعلم. ولما اجتمع جُند عمرو بن العاص في مصر ، كتب إلى محمد بن أبي بكر « أما بعد فَتَنَح فإنّي لا أحب أن يُصيبك مني ظفر فإن الناس قد اجتمعوا في هذه البلاد على خلافك ورفض أمرك ، وندموا على اتباعك فهم مسلموك لو قد التقت حلقتا البطان ، فاخرج منها فإنّي لك لمن الناصحين، والسلام »[2] .

وبعث إليه عمرو بكتاب أرسله له معاوية يُحذّره فيه من عواقب ما ارتكبه بخروجه على الخليفة عثمان رضي الله عنه ، ويقول فيه: إنّ سفك الدم الحرام لا يسلم صاحبه من النقمة في الدنيا، والتبعة الموبقة في الآخرة .

فردّ محمد بن أبي بكر على كتاب معاوية وكتاب عمرو بكتابين فيهما غِلظة وشدة ، وبعد ذلك تمكن عمرو من ضمّ مصر إلى الشام ، وقُتل محمد على يد معاوية بن خديج السكوني ، الذي كان من أهل خربتا وذلك سنة ثمان وثلاثين[3] .

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٣٢٧/٧ ، ٣٢٨/٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ٣٢٨/٧ .

(٣) الذهبي ، عهد الخلفاء الراشدين ، ٦٠٠ .

وبذلك نجحت سياسة معاوية في التخلّص من وجود قيس بن سعد في مصر وفشل محمد بن أبي بكر في التمسّك بمصر لمخالفته وصايا قيس بن سعد . فأخذ معاوية فيما بعد يُحدّث رجالاً من ذوي الرأي من قريش بسياسته التي اتبعها مع قيس ، فقال: «ما ابتدعت من مكيدة ــ سياسة ــ قط أعجب عندي من مكيدة كايدت بها قيس بن سعد من قبل علي وهو بالعراق ، حين امتنع مني قيس فقلت ... لأهل الشام إنّ قيساً لنا شيعة تأتينا كتبه ونصيحته »[1]. فتناقل ذلك الغوغاء ونقلوه إلى الكوفة وأشاعوه ، دون أي تحرّ أو تحقق من ذلك .

وهكذا تمكن معاوية من ضمّ مصر إلى الشام ، مما أدى إلى توسع قدراته السياسية والاقتصادية فضلاً عن العسكرية وذلك بعد الفراغ من صفين والتحكيم .

أما قيس بن سعد فإنّه بعد أن سلّم محمد بن أبي بكر ما في عُهدته في مصر وأوكل إليه مهامه وزوده بنصائحه ، فإنّه عاد إلى المدينة بعد أن أمضى في مصر فترة وجيزة ، كانت مكللة بالنجاح ولم تتجاوز تلك الفترة «أربعة أشهر وخمس أيام»[2]. حيث تمكن من التوفيق بين المتناقضات في مصر. فلما وصل المدينة وجد أنّ الغالب عليها مروان بن الحكم والأسود بن أبي البختري فقال: « والله إنّ هذا لقبيح أن أفارق علياً وإن عزلني ، والله لألحقن به فلحق به إلى الكوفة[3]، وكان معه سهل بن حُنيف الأنصاري رضي الله عنه وفي الكوفة حدّث قيس الخليفة عمّا كان ينتهجه من سياسة في مصر فعرف علي أن قيساً كان يُداري أمراً عظيماً بالمكيدة ، فأطاع علي قيساً وجعله على مقدمة جيشه »[4]، وقال له أقم معي على شرطتي فشهد معه

(١) الصنعاني، المصنف، ٥/٤٥٩، وقال ابن كثير: أشاع بعض أهل الشام ذلك ، وقيل جاء معاوية كتاب مزور من جهة سعد بمبايعته له ، البداية والنهاية ، ٧/٢٦٤ .

(٢) ابن الجوزي ، المنتظم ، ١/١٢٧ .

(٣) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ٣/٣٢١ ، ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ٦/٦٤ .

(٤) الذهبي ، سير أعلام النبلاء، ٣/١١٠.

صفين كما سيتضح ذلك ، وبعد التحكيم ولاّه أذربيجان[1] إلا أنّ الراجح أنّ قيساً لم يذهب إلى أذربيجان ، وإنّما بعث نائباً عنه إليها وبقي مع الخليفة فشهد معه حرب الخوارج[2] .

ولما بلغ معاوية التحاق قيس بن سعد بأمير المؤمنين في الكوفة قُبيل صفين بعد خروجه من المدينة ، كتب إلى مروان بن الحكم والأسود بن أبي البختري يتغيظ عليهما ويلومهما ، لأنّهما أسهما في خروجه إلى الكوفة ، فقال: « أمددتما علياً بقيس بن سعد وبرأيه ومكايدته ، فو الله لو أمددتماه بثمانية آلاف مقاتل ما كان ذلك بأغيظ لي من إخراجكما قيس بن سعد إلى علي رضي الله عنه »[3] .

مما يُعبر عن تقدير معاوية لقدرات قيس القيادية والشورية والإدارية وفهمه لإمكانيات قيس في التعامل مع الواقع وقدرته على استيعاب الأطراف المتناحرة والتوفيق بين رغباتها ومصالحها في وقت واحد ، وهذا ما أثبته في فترة ولايته على مصر ، ولكنّ الكوفة التي لا زال فيها كثير من السبئية وأعوانهم من الغوغاء كانوا يُفسدون على الحكماء حكمتهم وعلى أهل الرأي رأيهم بما يثيرونه من شغب ويروجونه لإثارة الفتن .

وقد تمّ ذكر ولاية قيس هنا لأنّها كانت قبل أحداث صفين ، ثم استُكمل الحديث عمّا جرى من أحداث في مصر إلى أن تمّ ضمّها إلى الشام، لكي لا يحصل بتر في المعلومات وتتجزأ أحداث تلك المرحلة ما بين صفين والتحكيم وأحداث سنة ثمان وثلاثين للهجرة .

---

(١) الخطيب ، تاريخ بغداد ، ١/١٨٧ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) الصنعاني ، المصنف ، ٥/٤٦٠ ، وروي أن معاوية قال: لو أمددتماه بمائة ألف مقاتل ، بدلاً من ثمانية آلاف ، وروي أن أمير المؤمنين أراد أن يرده إلى مصر بعد صفين ، ابن كثير ، البداية والنهاية ٧/٣٢٧ .

رحيل أمير المؤمنين علي رضي الله عنه من البصرة إلى الكوفة ((٣٦هـ)) وأثر الأشتر في ذلك

ذُكر أن المدة بين خلافة أمير المؤمنين علي إلى فتنة السبئية الثانية أو ما يُسمى يوم البصرة أو معركة الجمل. خمسة أشهر وواحد وعشرون يوماً ، وبين ذلك وبين دخوله الكوفة شهراً ، وبين ذلك وبين خروجه إلى صفين ستة أشهر[١] وروي ((شهرين أو ثلاثة))[٢] .

وهذا يعني أنّ أمير المؤمنين أقام بالبصرة شهراً واحداً ، ولم يكن في نيته الإسراع بالخروج منها ، إلا أنّ الغوغاء أعجلته على ذلك .

((وأعجلت السبئيّة علياً عن المقام ، وارتحلوا بغير إذنه ، فارتحل في آثارهم ليقطع عليهم أمراً إن كانوا أرادوه ، وقد كان له فيها مُقام))[٣] .

واستعمل أمير المؤمنين على البصرة ((عبد الله بن عباس وهو يريد أن يقيم حتى يُحكِم أمرها))[٤] .

ويبدو أنّ **الأشتر** كان يخطط ويُدبر لعلّه يُكافأ بولاية البصرة ، فلما ((**أتاه الخبر باستعمال علي رضي الله عنه ابن عباس غضب وقال: علام قتلنا الشيخ ! إذ اليمن لعبيد الله والحجاز لقُثَم ، والبصرة لعبد الله ، والكوفة لعلي . ثم دعا بدابته فركب راجعاً . فبلغ ذلك علياً فنادى: الرحيل ، ثم أجدّ السير فلحق به فلم يُرِه أنّه قد بلغه عنه وقال: ما هذا السير؟ سبقتنا ! وخشي إن تُرك والخروج أن يُوقع في أنفس الناس شراً**))[٥] .

---

(١) المسعودي ، مروج الذهب ، ٣٦٠/٢ .

(٢) البخاري ، التاريخ الصغير ، ١٠٢/١.

(٣) الطبري ، تاريخ ، ٢٨٢/٥ .

(٤) المصدر نفسه ، ٢٤٩/٥ .

(٥) المصدر نفسه ، ٢٤٩/٥ .

قال عبد الله بن سلمة المرادي: « **نظر عمر بن الخطاب ﷺ إلى الأشتر وأنا عنده فصعد فيه عمر النظر ، ثم صوبه ، ثم قال: إن للمسلمين من هذا يوما عصيبا ... وكان علي يتبرم به ويكرهه ، لأنه كان صعب المراس** »[1] .

ولوجود هذا وأمثاله في جيش أمير المؤمنين ، كان يصرف عن رأيه في كثير من المواقف ، وقد كان حب الأشتر للشغب والفتن معروفا عند المسلمين ، قال عنه أبو الأعور السلمي: « **إن خفة الأشتر وسوء رأيه هو حمله على إجلاء عمال ابن عفان ﷺ من العراق ، وانتزاؤه عليه يقبح محاسنه ، ومن خفة الأشتر وسوء رأيه أن سار إلى ابن عفان ﷺ في داره وقراره حتى قتله فيمن قتله ، فأصبح متبعا بدمه** »[2]. وقال عنه صاحبه الأشعث بن قيس لأمير المؤمنين علي ﷺ « **وهل نحن إلا في حكم الأشتر ؟ قال علي: وما حكمه ؟ قال: حكمه أن يضرب بعضنا بعضا بالسيوف** »[3]، **وقال:** «**وهل سعر الأرض غير الأشتر ؟!** »[4] .

لهذا كان الأشتر رأسا من رؤوس الفتنة ، ومن أسرع الناس إليها[5]، وكان أغيظ ما يغيظه الدعوة إلى الصلح وجمع شمل المسلمين ، وكان يتهم كل من يسعى للصلح من أهل العراق[6] بأنه من أصحاب معاوية ولم يذكر له في تاريخه أي دعوة للصلح أو موافقة عليه ، بل كان دائما معارضا لمساعي الإصلاح وداعيا للفتنة ، وكان من أحرص الناس على هزيمة معاوية ، وذلك لما يعلمه في نفسه من معرفة معاوية بكل ما يدبر له ، وذلك من خلال ما جرى بينهما من محاورات في

---

(١) الذهبي ، عهد الخلفاء الراشدين ، ٥٩٤ .

(٢) الطبري ، تاريخ، ٢٩٨/٥ .

(٣) المصدر نفسه ، ٤/٦.

(٤) المصدر نفسه .

(٥) المصدر نفسه ، ١٣٣/٥، فما بعدها.

(٦) الطبري ، تاريخ ، ٢٩٤، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٦٦/٧.

الشام، عندما أخرج أهل الكوفة بأمر الخليفة آنذاك ، الأشتر ومن معه من غوغاء الكوفة إلى الشام[١] .

وقد كان أمير المؤمنين رضي الله عنه يُداري فيه هذه الأخلاق ، لموقعه في قبيلته وطاعتهم له ولما يمتلكه من قدرات قتالية وإمكانيات إدارية ، لولا أنه أفسدها بسعيه في الفتن بين المسلمين . ولهذا سايره أمير المؤمنين عندما رحل من البصرة ، ولم يؤنّبه على رحيله دون إذنه ، وفي الكوفة يبدو أن أمير المؤمنين أجاب رغبته في الاستيلاء على بعض بلاد الجزيرة التي كانت تابعة لولاية الشام مثل قرقيسياء[٢] وحرّان[٣] والرّها[٤] «**وقد أراد الأشتر انتزاع هذه البلاد من يد نواب معاوية، فبعث إليه عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، ففرّ منه الأشتر واستقر أمر معاوية على تلك البلاد** »[٥] .

ولما كان الأشتر النخعي والأشعث الكندي وأمثالهما هم رؤوس القبائل في الكوفة ، كان أمير المؤمنين يقُربهما ويستشيرهما ، فلذلك كان الطابع القتالي سائداً في الكوفة أكثر من سياسة الاحتواء والمسامحة. التي كان يعمل بها معاوية في الشام .

وقد كان دخول أمير المؤمنين الكوفة «يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٥/١٣٤.

(٢) قرقيسياء: بلد على مصب نهر الخابور بنهر الفرات قرب رحبة طوق بن مالك، ولما فتح عياض بن غنم الجزيرة في سنة تسع عشرة وجّه حبيب بن مسلمة الفهري إلى قرقيسياء ففتحها على مثل صلح أهل الرقة. ياقوت، معجم البلدان، ٤/٣٥.

(٣) حرّان: والنسبة إليها حرناني، فتحت في خلافة عمر رضي الله عنه على يد عياض بن غنم وصالح أهلها على ما صالح عليه أهل الرّها وهي من أولىالمدن التي بنيت بعد الطوفان، ياقوت، معجم البلدان، ٢/١٣١.

(٤) الرّها: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام بينهما ستة فراسخ نُسب إليها جماعة من العلماء، ياقوت معجم البلدان، ٢/٤٥٠.

(٥) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٧/٢٦٤.

رجب سنة ست وثلاثين ، **فقيل له: انزل بالقصر الأبيض ، فقال: لا إنّ عمر بن الخطاب** ﷺ **كان يكره نزوله ، فأنا أكرهه لذلك** فنزل في الرحبة وصلّى بالجامع الأعظم ركعتين ثم خطب الناس فحثهم على الخير ، ونهاهم عن الشر ومدح أهل الكوفة في خطبته »[١] .

ولما استقر أمير المؤمنين في الكوفة، أرسل من هناك الصحابي **جرير بن عبد الله البجلي**[٢] إلى معاوية ، يدعوه إلى بيعته ، وقد كان الأشتر معارضاً لإرسال جرير إلى معاوية رضي الله عنهما لدماثته وحسن خلقه . لكن أمير المؤمنين أرسله « وكتب معه كتاباً إلى معاوية يُعلمه باجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته ويُخبره بما كان في وقعة الجمل ، ويدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه الناس ، فلما انتهى إليه جرير بن عبدالله أعطاه الكتاب »[٣] .

ولم يكن من سياسة معاوية العجلة ، فتأنّى في هذه المسألة وجمع رؤوس أهل الشام يستشيرهم ، ثم طلب عمرو بن العاص ﷺ ليشهد تلك المشورة ويشارك في اتخاذ مثل ذلك القرار الخطير .

مبايعة عمرو بن العاص لمعاوية رضي الله عنهما: اتضح فيما سبق كيف تمكنت السبئية من عزل عمرو بن العاص عن مصر ، بعد أن ملؤوا عليه أرض الخلافة بهتاناً وزوراً ، فعاد من مصر إلى المدينة حتى أُحيط بعثمان ﷺ ، فخرج « من المدينة متوجهاً نحو الشام ، وقال: والله يا أهل المدينة ، ما يُقيم بها أحد فيدركه قتل

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية، ٢٦٥/٧.

(٢) جرير بن عبد الله البجلي ، أبو عمرو أسلم في العام الذي توفي فيه رسول الله ﷺ وقال فيه حين أقبل وافداً: يطلع عليكم خير ذي يمن كأن على وجهه مسحة ملك فطلع جرير ، قال عنه عمر ﷺ : ما زلت سيداً في الجاهلية والإسلام ، نزل الكوفة ثم تحوّل إلى قرقيسياء ومات بها سنة أربع وخمسين . وكان رسول أمير المؤمنين علي ﷺ إلى معاوية ﷺ ، ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ٣٣٧/١.

(٣) الطبري ، تاريخ، ٢٩٣/٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٦٦/٧.

هذا الرجل إلا ضربه الله عز وجل بذلّ ، من لم يستطع نصره فليهرب»[١]. فخـرج من المدينة حتى نزل قريباً من الأردن[٢]، وهناك جاءه خبر استشهاد عثمـان رضي الله عنه فقال: رحم الله عثمان رضي الله عنه وغفر له. ثم ارتحل باكياً وهو يقول: واعثماناه ! أنعـى الحياء والدين ! حتى قدم دمشق[٣]. ومن هناك دعاه معاوية فاجتمع به مع رؤسـاء أهل الشام ، فاستشارهم فيما يُجيب به رسول أمير المؤمنين. «**فـأبوا أن يبـايعوا حتى يُقتل قتلة عثمان أو أن يُسلّم إليهم قتلته** »[٤]، فأعلم معاويـة رسـول أمـير المؤمنين برأي أهل الشام هذا وأنه على رأيهم لا يُبايع أمير المؤمنين حتى يقيم الحد على قتلة الشهيد عثمان رضي الله عنه .

وكان **النعمان بن بشير بن سعد الأنصاري** رضي الله عنه ، بعد استشهاد عثمان خـرج من المدينة «**ومعه قميص عثمان مضمخ بدمه ، ومعه أصابع نائلة التي أصيبـت حين حاجفت عنه بيدها ، فقُطعت مع بعض الكف ، فورد به على معاوية الشـام ، فوضعه على المنبر ليراه الناس، وعلّق الأصابع في كُم القميص ... فتباكى الناس حول المنبر ... وقام في الناس معاوية وجماعة من الصحابـة معـه يُحرّضـون الناس على المطالبة بدم عثمان ممن قتله من أولئك الخوارج** »[٥] .

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٢٩٣/٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٦٦/٧.

(٢) المصدر نفسه ، ٢٩٢/٥، ٢٦٥/٧، وفي هذه الروايات زيادات مكذوبة ظاهر بطلانها.

(٣) المصدر نفسه .

(٤) الطبري ، تاريخ ، ٢٩٣/٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢١٦/٧.

(٥) الطبري ، تاريخ، ٢٩٤/٥، ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٣٨/٧، وسأل معاوية أهل الشام فقال: « أُحبّ أن تعلموني ما في أنفسكم من قتل عثمان، قال: فقام كعب بن مرّة السلمي وفي المسجد يومئذ أربعمائة رجل أو نحو ذلك من أصحاب رسول الله ﷺ ، فقال: والله لقد قمت مقامي هذا وإني لأعلم أن فيكـم من هو أقدم صحبة لرسول الله ﷺ مني، ولكني قد شهدت من رسول الله ﷺ مشهداً لعل كثيراً منكم لم يشهده وإنّا كنا مع رسول الله نصف النهار في يوم شديد الحر فقال: لتكونن فتنة ... فمر رجل مقنـع =

وكان معاوية يتمثل بشعر منه:

آتاني أمر فيه للنفس غمـــة وفيه اجتداع للأنوف أصيل

مصاب أمير المؤمنين وهدّه تكاد لها صمّ الجبال تزول[1]

فرجع جرير بن عبد الله رضي الله عنه إلى علي فأخبره بما قالوا، فقال الأشتر: يا أمـير المؤمنين ألم أنهك أن تبعث جريراً ، فلو كنت بعثتني لما فتح معاوية باباً إلا أغلقتـه فقال له جرير: لو كنت ثمّ لقتلوك بدم عثمان ، فقال الأشتر: لـــو أطــاعني أمــير المؤمنين لحَبَسَك وأمثالك حتى تستقيم هذه الأمور[2]. فخرج جرير مغضبـــاً إلـــى قرقيسياء وكان والياً عليها في خلافة عثمان رضي الله عنه [3]، وكتب إلى معاوية يخبره بمـا قال وبما قيل له، فكتب إليه معاوية يأمره بالقدوم عليه[4] .

ولعل هذا الموقف الذي حصل لجرير بن عبد الله الصحابي الأمير رضي الله عنه ، مـن الأشتر وما اتهمه به بين يدي أمير المؤمنين رضي الله عنه ، يُصوّر تدخل زعماء الفتنة فـي شؤون الخلافة ، وجرأتهم على الخليفة رضي الله عنه ، وسعيهم المستمر لإفساد كل مســاعي الصلح ، وإقصاء دعاته والحيلولة بينهم وبين الخليفة لإبعاد تأثيرهم في ما يُتخذ من قرارات ، وهكذا يكون الأشتر سبباً في إبعاد هذا الصحابي الذي كان واليـــاً علـــى قرقيسياء وعلى غيرها ورأساً في قبيلته بجيلة ، ويضطـــره إلـــى مفارقـــة أمـير المؤمنين رضي الله عنه .

= فقـــال: رسول الله ﷺ «هذا المقنع يومئذ على الهدى » قال: فقمت فأخذت بمنكبه وحسرت عن رأسه فإذا هو عثمان ، فأقبلت بوجهه إلى رسول الله ﷺ فقلت هذا يا رسول الله ؟ قال: نعم » فاصفق أهل الشام على معاوية وبايعوه على الطلب بدم عثمان أميراً لا يطمع في الخلافة. المنقري ، وقعة صفين ، ٨٢.

(١) ابن بكار ، الموفقيات ، ٦٢٣ .

(٢) الطبري ، تاريخ ، ٢٩٤/٥ . ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٦٦/٧.

(٣) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٣٩/٧ .

(٤) المصدر نفسه ، ٢٦٦/٧ ، الطبري ، تاريخ ، ٢٩٤/٥.

خروج أمير المؤمنين إلى صفين
واضطراب أخبار هذه المرحلة

بعد عودة رسول أمير المؤمنين من الشام، تبيّن أن موقف أهل الشام لا يختلف عن موقف الشهيدين طلحة والزبير رضي الله عنهما ، المتمثل في وجوب القصاص من قتلة الشهيد عثمان رضي الله عنه ، وإبعاد كل من له أدنى صلة بذلك الحدث الجلل عن أي موقع من مواقع الإدارة أو الشورى وإقصائهم ونبذهم من الصف الإسلامي فضلاً عن توليتهم مواقع قيادية في جيوش المسلمين . وهذا ما كان يخشاه ويحذره الخوارج ويعملون كلّ ما في وسعهم على توسعة دائرة الخلاف داخل المجتمع الإسلامي للتغطية على ما أثاروه من فتن سابقة ، بأحداث جديدة تُغطي عليها .

لهذا كانت السبئية وكل متهم في أمر عثمان رضي الله عنه ، يعمل ما في وسعه على تضخيم وتهويل موقف معاوية هذا ، وعلى أنّه لا يمكن السكوت عليه ولا بدّ من حسمه عسكرياً « **فأشار – على أمير المؤمنين – كثير من أمرائه ممن باشر قتل عثمان أن يعزل معاوية عن الشام** »[1] .

ولما كان أمير المؤمنين لا يرى القصاص من القتلة إلا بعد استتباب الخلافة والفراغ من أمر البيعة ، كان لا بدّ من المواجهة لأن كلا الطرفين يرى أنه على حق وهو يدافع عن ذلك الحق .

فجهز أمير المؤمنين علي رضي الله عنه الناس ، وباشر قيادة جيشه بنفسه فعسكر بالنخيلة وهي موضع قريب من الكوفة ، وقدم عليه عبد الله بن عباس بمن قدم معه من البصرة . والحقيقة التي لا بدّ من الإفصاح عنها ، أن أخبار موقعة صفين مضطربة لا وضوح فيها وذلك أنّ الأخبار الصحيحة عنها لا تفاصيل فيها ، وأن

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٨/١٠.

الأخبار المفتراة عنها لا تُعد ولا تكاد تضاهيها أخبار حدث آخر ، فانتشرت الأخبار المكذوبة على الصحابة ﷺ . وساهم أهل الأهواء في طباعتها ونشـرها ، دون أن يكون هناك من يوضّح أو يُحذّر من مخاطر تلك الأباطيل إلا القليل ، فكانت النتيجة شراً على الإسلام والمسلمين ، وذلك بالعمل على تحويل عصر الإشـراق والفتـح والفكر والوحدة ، إلى حقبة مظلمة قادها رجال يتآمر بعضهم على بعـض ويغـدر بعضهم ببعض – حاشاهم من ذلك –.

وقد ساهم تاريخ الطبري في خلق ذلك التشويش على مـر العصـور ، فمـا أنصف في تدوينه لأحداث الفتنة في العصر الراشدي ، ولا سيما في أحداث صفيـن فكيف يقبل أن يدوّن عن الصحابة أخباراً تُناقض ما جاء في حقهم بالكتاب والسُنّة ؟ وكيف يملأ تاريخ هذه المرحلة بأخبار لا تورث في النفوس إلى الضغائن والأحقاد؟ عن رجال لا يُعرف عنهم إلا الحبّ والودّ والأُلفة والسماحة . بل كيف يُورد أخباراً قال عنها هو في مقدمته بأنّها: «مما يستنكره قارئه ، ويستشنعه سامعه ، من أجـل أنّه لم يعرف له وجهاً في الصحة ولا معنى في الحقيقة ؟ »[1]. ولا شك أنّ كل مـا أورده عن الصحابة مما يناقض صدقهم وأخلاقهم ونقاءهم وإخلاصهم ، فهو ليس له وجه ولا معنى في الحقيقة ، وهو مردود بالنصوص الصحيحة التي تُزكي الصحابة ﷺ وترفض مّا أورده الطبري وغيره عنهم ، ولا يشفع له في إيراد تلك الروايـات وجه من وجوه الحقيقة يُعتدّ به ، ولا سيما أنّه هو المحدث الفقيه الذي يعلم حرمـة الصحابة ومقامهم عند الله وعند رسوله ﷺ ، **إلا إذا كانت تلك الروايات قد حُشيت في كتابه ونسبت إليه ، وهذا وارد جداً ما دام أعداء الصحابة قد صنعوا الرسائل على لسـان الخليفة عثمان ﷺ وبعض أمهات المؤمنين رضي الله عنهن ، وإن ، لـم يكن الأمـر كذلك فإنّها نزعة ظاهرة الميل في المسائل الخلافية ، فظـنّ خيـراً ولاتسأل عن الخـبر.**

(١) الطبري ، تاريخ ، المقدمة .

ومما يُخفف من هذه النزعة أنّه كان يورد أخباراً لرواة شتى فيلتمس القارئ له عذراً أحياناً ، أما في صفين فإنّه يروي لأبي مخنف لوط بن يحيى الإخباري الذي لا يوثق به صاحب الهوى والعصبية والمتجرئ على النيل من الصحابة والحريص على رواية كل خبر يصمهم أو ينتقص منهم ، **يروي له خمساً وتسعين رواية**[1] **من أصل مائة وسبع روايات** أو قريباً جداً من هذا الرقم ، يخرج منها القارئ صفر اليدين من الحقائق عمّا جرى ، بل إنّه إنّ صدّق ما قرأه وقدح في ذهنه أنّ ذلك حق سيتزعزع إيمانه ويتشكك في قوم أحبهم الله تعالى وأحبوه وسيتحوّل موقفه من الصحابة إلى موقف سلبي ، فينسى عدالتهم وأمانتهم إن لم يناصبهم العداوة أو اللامبالاة ، وظن أنّ غيرهم ممن جاء بعدهم خيراً منهم .

ومما زاد الأمر في هذه المسألة سوءاً ، أنّ أكثر المؤرخين الذين جاؤوا من بعده ليس لهم مهرب عن كتابه ، فيأخذون عنه دون أن يبذلوا أي جهد لتمحيص ما يكتبون فيما سوى ابن كثير في البداية والنهاية ، الذي يقول أحياناً: وفي « صحة هذا عندي نظر ، وهذا ما لا يصح » وما شابه وذلك في الأمور الفاقعة جداً والتي لا يُصدّقها أحد عن الصحابة ﷺ .

فأصبح هذا السفر المهم في تاريخ الإسلام مرتعاً خصباً لأعداء الصحابة والطاعنين فيهم ، من كل الطوائف والفئات المبتدعة في الماضي والحاضر. ولهذا فإنّ عامة التفاصيل التاريخية عن الفتنة ولا سيما عن صفين التي جاءت في أهم كتب التاريخ الإسلامي والتي من أهمها الطبري في تاريخ الأمم والملوك أو الرسل والملوك وابن الأثير في الكامل ، وابن كثير في البداية والنهاية ، لا تقدم التصور الذي يتطابق مع سير الصحابة وأعرافهم وغاياتهم ودينهم .

لأنها أخذت في أكثر رواياتها لهذه المرحلة عن أبي مخنف لوط بن يحيى

---

(١) ينظر: الطبري ، تاريخ ، من قوله « فلما انتهى علي إلى الرقة إلى قوله ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين للهجرة في خمس وستين صفحة ، (٥/٢٩٦ ، ٥/٣٣٠ ، ٦/٣٠) .

وطبقته ، في روايات وأشعار ظاهر فيها التكلّف والصناعة والبعد عن أخلاق الصحابة ﷺ ونزاهتهم وورعهم في كل ما يقومون به . وكل من استسلم لتلك الروايات دون أن يقيسها على ميزان عدالة الصحابة التي جاءت في الكتاب والسُنّة وأجمعت عليها الأمة فقد يضل. وذلك أن الناظر فيها يجد من التخبّط والمغالطات الأعاجيب ، فيما سوى الطعن والتشكيك في الصحابة والإصرار على تشويه سيرتهم ﷺ ، يجد من البذاءة في مثل ما يرويه عن الأشتر والذي يمجده ويطريه أكثر مما يطري أمير المؤمنين علياً ﷺ ، قال: فقال: « أنا الأشتر، إليّ أيها الناس فأقبلت إليه طائفة ، وذهبت عنه طائفة ، فنادى: أيّها الناس ، عضضتم بهن آبائكم ! ما أقبح ما قاتلتم منذ اليوم ! ... والذي نفس مالك – اسم الأشتر – بيده ما من هؤلاء وأشار بيده إلى أهل الشام ، رجل على مثال جناح بعوضة من محمد ﷺ أنتم ما أحسنتم القراع، إجلوا سواد وجهي يرجع في وجهي دمي »[1] .

ومدحه ليزيد بن قيس الأرحبي أول من امتثل أوامر ابن سبأ في الكوفة في النهوض في الفتنة[2]. وصعصعة بن صوحان أحد الذين أُخرجوا من الكوفة[3] وحديثه عن أبيه يحيى بن سعيد وبطولة عمّه محمد بن مخنف في صفين ، وهو ابن سبع عشرة سنة[4]، وتدوينه أشعاراً لأُناس يُفاخرون بالخروج على عثمان ﷺ وانتقاصه وشتمه ولا ذكر لهم فيمن خرج عليه وإنّما لتوسيع دائرة الخلاف في مثل ما ينسبه إلى عبد الرحمن بن حنبل الجمحي في قوله:

إن تقتلوني فأنا ابن حنبل ... أنا الذي قد قلت فيكم نعثل

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٣١٢/٥ ، ٣١٣/٥ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر نفسه ، ٣٠١/٥ ، ٢٩٩/٥ . وينظر: المنقري ، صفين ، ١٨٣.

(٤) المصدر نفسه .

وتهويله الأخبار التي لا يمكن تهويلها ، في مثل قوله لمّا قدمنا إلى صفين أجمع أهل الشام على منعنا[1] ماء الفرات ، وكيف يُمنع ماء الفرات من جاز جسر الفرات وخلّف النهر وراءه ؟ وكيف يُمنع ماء الفرات ، والفرات يمتد مئات الكيلومترات وضفتاه ممهدتان تحتضنان كل وارد إليهما بمنتهى اليسر والمودة ولكن يبدو أنّ الذي دوّن هذه الأساطير كان يظن أنّ الفرات عين أو بئر يمكن أن يتحكم به مجموعة من الناس كما تحكمت السبئية الخوارج ببئر رومة في المدينة عندما منعوا عثمان ﷺ الماء قبيل استشهاده .

ومن أخبار صفين المنافية للعقل وللواقع ، ما روي من أن معاوية خشي أن يبايع القراء الذين كانوا يسعون في الصلح علياً «فكتب في سهم من عبد الله الناصح يا معشر أهل العراق: إن معاوية يريد أن يفجر عليكم الفرات ليغرقكم فخذوا حذركم ، ورمى به في جيش أهل العراق فأخذه الناس فقرؤوه وتحدثوا به وذكروه لعلي ، فقال: إنّ هذا ما لا يكون ولا يقع وشاع ذلك ، وبعث معاوية مائتي فاعل يحفرون في جنب الفرات ، وبلغ الناس ذلك فتشوّش أهل العراق من ذلك وفزعوا إلى علي ، فقال: ويحكم إنه يريد خديعتكم ليزيلكم عن مكانكم هذا وينزل فيه ؛ لأنه خير من مكانه فقالوا: لا بدّ من أن نخلي عن هذا الموضع ، فارتحلوا منه وجاء معاوية فنزل بجيشه ، وكان علي ﷺ آخر من ارتحل، فنزل بهم وهو يقول:

فلو أني أُطعت عصمت قومي ... إلى ركن اليمامة أو شآم

ولكني إذا أبرمت أمراً ... يخالفه الطغام بنوا الطغام[2]

وعلى هذا النحو كثير من الأخبار التي رويت عن صفين في كتب التاريخ. وهي ليست بحاجة إلى تعليق ، إذ يظهر من خلالها مدى الاستخفاف بعقول قراء التاريخ الإسلامي .

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٥/٣٢٩، ٥/٢٩٨.

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٧/٢٧٢.

والذي يبدو أن أمير المؤمنين علياً ﷺ بعد أن اجتمع له جيشه في معسكره بالنخيلة ، سار قاصداً الشام ماراً بالمدائن ثم الأنبار ثم قرقيسياء ثم الرقة ومن هناك جاز إلى ضفة النهر اليمنى إلى موضع يُسمى صفين[1]، فلما بلغ معاوية أن علياً خرج بنفسه على رأس جيشه ، سار معاوية أيضاً على رأس جيشه حتى نزل صفين . فتواقفوا طويلاً وذلك في أوائل ذي الحجة من سنة ست وثلاثين للهجرة .

عدم وجود رغبة في قتال صفين عند عامة الناس

وعلى الرغم من كل ما يقال حول قتال صفين فإنّ الظاهرة التي لا يمكن إخفاؤها ، أنّه لا يوجد حماسة عند عامة المشاركين فيها من الطرفين فيما عدا الخوارج السبئية والغوغاء الذين يحملون أفكارهم ، وذلك للأسباب التي ذُكرت في ما وقع في يوم البصرة ، والتي منها علم الجميع بحرمة الدم المسلم وخطورة نتائج الجرأة عليه، وانتفاء الأسباب التي تدعو للقتال إذ أنّ الخلاف بجملته خلاف سياسي وخلاف في تأويل وتفسير ما جرى من أحداث ، ثم إنّ القبائل في العراق والشام هي قبائل واحدة انقسمت في سكناها إلى قسمين أيام الفتوح التي لم يمض عليها إلا قليلاً من السنين ، فضلاً عن القرب من عهد النبوة والوحي وأنهم كانوا هم خير القرون في الأمة الإسلامية ويبدو أن ظاهرة عدم الرغبة في القتال في جانب أهل الكوفة واضحة مثلما هي عند أهل الشام ، تتبيّن في أقوال بعضهم وأشعارهم ومواقفهم ويؤكّدها إغلاق أبواب وجسور بعض المواقع التي مرّ بها جيش أهل الكوفة فقد بعث أمير المؤمنين مقدمته المكونة من ثمانية آلاف بقيادة زيادبن النضر الحارثي ، لكنهم سلكوا طريقاً إلى الشام على محاذاة يمين نهر الفرات بينما كان

---

(١) صفين ، موضع قرب الرقة على شاطئ الفرات من الجانب الغربي كانت وقعة صفين فيها (٣٧هـ) .

الخليفة يسير محاذيا الشاطئ الآخر يفصل بينهما النهر ، فلما علموا بمسير معاوية من الشام ، خافوا من قلة عددهم فأرادوا العبور إلى جهة أمير المؤمنين من عند منطقة عانات[١] «فمنعهم أهل عانات، فساروا فعبروا من هيت[٢]، ثم لحقوا عليا وقد سبقهم ، فقال علي: مقدمتي تأتيني من ورائي »[٣] .

وامتنع عنهم أهل قرقيسياء ، وضم أهل الرقة[٤] سفنهم ولم يجسروا جسرا لعبور أمير المؤمنين وجيشه إلى صفين ، فهم بالمسير إلى جسر منبج[٥] ليعبر منه. وهذا ما يؤكد أخلاقيات الراشدين رضي الله عنهم في الرفق بالناس ، واحترام وجهة النظر الأخرى، وتأكيد حقوق الرعية في التصرف بأملاكهم دون أي تدخل من الدولة ويظهر فيها أيضا البون الشاسع بين مقاصد أمير المؤمنين التي لا يهدف منها إلا لمصلحة الأمة وجمع شملها ، وبين الغوغاء الذين كانوا في جيشه ، ولا مقصد لهم سوى توسعة دائرة الفتنة ، وإثارة الكراهية بين المسلمين ، يتضح هذا من موقف الأشتر من أهل الرقة ، إذ جاء بجيشه وأرغمهم على نصب الجسر ، قائلا لأن لم تفعلوا: لأقتلن الرجال ولأخربن الأرض ولآخذن الأموال[٦]. ولعل موقف الأشتر هذا وأمثاله ، وما يضاف إليها من مواقف قادة الخوارج على عثمان من أمثال يزيد

---

(١) عانات: بلد مشهور بين الرقة وهيت، وهي مشرفة على الفرات وبها قلعة حصينة وهي مضافة إلى الأنبار. ياقوت ، معجم ، البلدان ، ٢٨٩/٣.

(٢) هيت: بلدة على الفرات من نواحي بغداد فوق الأنبار ذات نخل كثير، معجم البلدان، ٤٩٠/٤.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٦٧/٧، الطبري، تاريخ، ٢٩٧/٥.

(٤) الرقة: مدينة مشهورة على الفرات معدودة في بلاد الجزيرة لأنها من جانب الفرات الشرقي فتحها عياض بن غنم صلحا ، قال ابن قيس الرقيات: أهلا وسهلا بمن أتاك من الرقة يسري إليك في شجبه ياقوت ، معجم البلدان ، ٤١٤/٢ .

(٥) منبج: بلد قديم إحدى العواصم التي أفردها الرشيد، فتحها عياض بن غنم صلحا على ما صالح أهل أنطاكية. قيل: بمنبج مثواه ونائله في الأفق يسأل عمن غيره سألا، معجم البلدان، ٣٢٦/٤.

(٦) الطبري ، تاريخ ، ٢٢٩/٥ المنقري ، صفين ، ١٥١، ١٤٦.

ابن قيس الأرحبي وجندب بن زهير والحارث الأعور وهم في جيش[1] أمير المؤمنين ، كانت هي وراء كثير من الهواجس التي منعت أهل الشام من قبول البيعة قبل القصاص من الخوارج وتعريتهم وإقصائهم ، ولكن الذي يبدو من استعمال أمير المؤمنين . المتكرر للأشتر أنه لم يكن يراه من المباشرين لقتل عثمان ، وإن كان أحد رؤوس الخوارج عليه ولعله غيّر موقفه في اللحظة الأخيرة والله أعلم .

ويظهر ذلك في وصيته لعشيرته قبيل المسير إلى صفين حيث « اجتمعت النخع حتى دخلوا على الأشتر بيته فقال: هل في البيت إلا نخعي قالوا: لا. قال: هذه الأمة عمدت إلى خير أهلها فقتلوه يعني عثمان ﷺ وإنّا قاتلنا أهل البصرة ببيعة تأولنا عنه،وإنّكم تسيرون إلى قوم ليس لنا عليهم بيعة،فلينظر كل امرئ أين يضع سيفه»[2] وهذه الوصية التي توحي بحذر الأشتر من المسير إلى صفين ، تظهر ما يعتمل في النفوس والموقف من مشروعية مباشرة القتال مع أهل الشام الذين لم يدخلوا في بيعة أمير المؤمنين ، ولكن جرأة الأشتر على الدماء في تلك الموقعة ومناهضته لدعاة الإصلاح توحي بأنّه لم يلتزم بما حذّر به قومه ، وقد تكون هذه الوصية بعد انحرافه عن أمير المؤمنين عندما ولّى البصرة لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما ولكنها على كل الأحوال تظهر أنّ هناك حواجز كثيرة في نفوس المشاركين في صفين من الطرفين، تمنعهم من الاندفاع في القتال. ومما يصوّر ما كان يعانيه أمير المؤمنين ﷺ من جنده وعدم انتظام رأيهم وذلك لوجود الغوغاء بين صفوفهم ، ما روي عن أبي جعفر الباقر ، قال: بعث علي رجلاً إلى دمشق يُنذرهم أنّ علياً قد نهد في أهل العراق إليكم ليستعلم طاعتكم لمعاوية ، فلما قدم أمر معاوية فنودي في

---

(١) المنقري ، وقعة صفين ، ١٢١.

(٢) الحاكم ، المستدرك ، ١٠٧/٣.

الناس: الصلاة جامعة فملأوا المسجد ثم صعد المنبر فقال في خطبته إنّ علياً قد نهد إليكم في أهل العراق فما الرأي ؟ فضرب كل على صدره ولم يتكلم أحد منـــهم ولا رفعوا إليه أبصارهم ، وقام ذو الكلاع الحميري فقال: عليك الرأي وعلينا الفعـــال ثم نادى معاوية في الناس أن اخرجوا إلى معسكركم في ثلاث فمن تخلّف بعدها فقد أحلّ بنفسه ، فاجتمعوا كلهم فركب ذلك الرجل إلى علي فأخبره ، فأمر علي منادياً فنادى الصلاة جامعة فاجتمعوا فصعد المنبر فقال: إن معاوية قد جمع الناس لحربكم فما الرأي، فقال كل فريق منهم مقالة واختلط كلام بعضهم في بعض ، فلم يدر علي مما قالوا شيئاً فنزل عن المنبر وهو يقول لا حول ولا قوة إلا بالله[1] .

ـ ومن الإشارات الواضحة إلى تفهم كثير من الناس لما يحدث في تلك المرحلة متأولاً أنّ ذلك الخلاف خلاف سياسي فاعتزل المشاركة في صفين ، مثل أيمن بن خريم بن فاتك ، الذي قال في هذا المعنى:

ولست مقاتلاً رجلاً يصلي ... على سلطـــان آخـــرمــــن قريش

لـــه سلطانـــه وعلي إثمي ... معـــاذ الله مـــن سفـــه وطيـــش

أأقتل مسلماً في غير جرم ... فليس بنافعي مـــا عشت عيشي [2]

والإشارات حول الرغبة في السلم والإعراض عن العنف كثيرة ، تُستخرج مـــن روايات محبي أهل الفتنة ومدوّني أخبارهم ، وفي تخبطهم وتناقضهم في مثل مـــا ينسبونه إلى أمير المؤمنين رضي الله عنه أنه قام خطيباً في الكوفة فقال: « ... سيروا إلـــى بقية الأحزاب ، قتلة المهاجرين والأنصار »[3] .

وذلك بعد يوم البصرة ، وهنا يقال **من قتل سادة المهاجرين عثمان وطلحـــة والزبير رضي الله عنهم ومن استهدف أم المؤمنين عائشة ليقتلها ولم يوقّر أمومتها ويعـرف**

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٢٧/٨.

(٢) المنقري ، وقعة ، ٥٠٤.

(٣) المنقري ، وقعة صفين ، ٩٤ .

حقها ؟ وهل يجوز تشبيه المسلمين بالكفار ونسبتهم بعد إسلامهم وجهادهم إلى المشركين ؟ ثم يظهر بعد ذلك موقف دعاة الفتنة جلياً ومدى هيمنتهم على الرأي العام في الكوفة . قال:

ـ « فقام رجل من بني فزارة يُقال له أربد فقال: أتريد أن تسيّرنا إلى إخواننا من أهل الشام فنقتلهم لك كما سرت بنا إلى إخواننا من أهل البصرة فقتلناهم. كلاّ ، ها الله إذاً لا نفعل ذلك. فقام الأشتر فقال: من لهذا أيها الناس ؟ وهرب الفزاري واشتد الناس على أثر ه ، فلُحق ... فوطئوه بأرجلهم وضربوه بأيديهم ونعال سيوفهم حتى قتل »[1]. فلم يُعرف قاتله فدفع ديته أمير المؤمنين رضي الله عنه من بيت مال المسلمين .

ـ وكذلك ما قام به عبد الله بن المعتَمّ العبسي وحنظلة بن الربيع التميمي الذي يُسمى حنظلة الكاتب[2]، ومعهما رجال كثير من غطفان وبني تميم فدخلا على أمير المؤمنين فقال حنظلة الكاتب: « يا أمير المؤمنين، إنا قد مشينا إليك بنصيحة فاقبلها منا، ورأينا لك رأياً فلا تردّه علينا ؛ فإنّا نظرنا لك ولمن معك .

أقم وكاتب هذا الرجل ، ولا تعجل إلى قتال أهل الشام »[3]. فيزعمون أن أمير المؤمنين ردّ عليهم نصحهم وقال: « وأيم الله إني لأسمع كلام قوم ما أُراهم يريدون أن يعرفوا معروفاً، ولا ينكروا منكراً »[4]. فاتهم حنظلة وابن المعتَمّ بمكاتبة معاوية وطُلب من أمير المؤمنين حبسهما ، فلما أرادوا حبسه فرّ إلى معاوية ومعه ثلاثة وعشرون رجلاً من قومه، ولحق به ابن المعتَمّ ومعه أحد عشر رجلاً من قومه ثم لحق بهما رجال كثير « ولكنهما لم يقاتلا مع معاوية واعتزلا الفريقين »[5] .

---

(١) المنقري ، وقعة صفين ، ٩٤ .

(٢) وهو من بني عمرو بن تميم عمّه أكثم بن صيفي حكيم العرب، أحد الذين كتبوا لرسول الله ﷺ يُعرف بالكاتب، اعتزل علياً في قتال أهل البصرة وأهل الشام. ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ٣٧٩/١.

(٣) المنقري ، وقعة صفين ، ٩٦.

(٤) المصدر نفسه .

(٥) المصدر نفسه ، ٩٧.

ـ وأشار عدي بن حاتم[1] على أمير المؤمنين بمثل ما أشار به الصحابي حنظلة الكاتب ووصف ميل أهل البصرة إلى العزلة عن القتال بين المسلمين بأنّهم « بين مقيم لرغبة يرجوها أو عقوبة يخشاها »[2] **وقد حرص دعاة الفتنة على الانتقاص من كل من تكلّم في الصلح بين أهل الكوفة وأهل الشام، وأثبت ذلك خَلْفهم فيما رووه عنهم وزادوا فيه الأباطيل .**

ـ وروي أن ابن عباس قد ألحّ في نصح أمير المؤمنين ﵁ لمسالمة معاوية فلمّا أجابه « لا أعطيه إلا السيف حتى يغلب الحق الباطل ، قال ابن عباس: أو غير هذا ؟ قال: كيف ؟ قال: لأنه يُطاع ولا يُعصى ، وأنت عن قليل تُعصى ولا تطاع قال: فلمّا جعل أهل العراق يختلفون على عليّ ﵁ قال: لله درّ ابن عباس، إنه ينظر إلى الغيب من ستر رقيق »[3] .

فكان ابن عباس يقول: « والله ليتأمرنّ عليه معاوية » ذلك بأن الله تعالى يقول: ﴿ ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يُسرف في القتل إنه كان منصوراً﴾[4] .

فذُكر أنّ علياً ﵁ لم ينته من صفين حتى شكا من طاعة جيشه فقال: « إنّ عامة من معي يعصيني ، وإنّ معاوية فيمن يُطيعه ولا يعصيه »[5] .

فإذا اتضح أن الخوارج السبئية الذين قتلوا الشهيد عثمان ﵁ في فتنتهم الأولى، والشهيدين طلحة والزبير رضي الله عنهما في فتنتهما الثانية في يوم البصرة، لا زالوا موجودين وهم لم يُبدلوا من منهجيتهم القائمة على الشر وتوسيع

---

(١) المنقري ، وقعة صفين ، ٩٨.

(٢) المصدر نفسه ، ١٠٥.

(٣) الذهبي، عهد الخلفاء الراشدين ، ٥٣٩.

(٤) المصدر نفسه، ٤٨٠ ، سورة الإسراء ، الآية (٣٣) .

(٥) المنقري ، صفين ، ٣٧٩.

دائرة الفتنة بين المسلمين ، وتعطيل الفتوح والجهاد في سبيل الله واتهام دعاة الإصلاح والوحدة . فإنّ هناك تياراً عارماً في جيش أمير المؤمنين رضي الله عنه ، أفصح كثير منهم عن رؤيته المغايرة لذلك ، والراغبة في الصلح أو المسالمة وتحملوا من أجل ذلك مضايقات الخوارج السبئية واتهاماتهم وتهديداتهم التي كانوا يطلقونها على كل من لا يدعو إلى الفتنة ، لتشويه سمعتهم وتثبيطهم والحيلولة دون توسع هذه التوجهات ، كل ذلك خوفاً من الصلح بين المسلمين ، الذي يُفسد مؤامراتهم ويُسقط مسوّغاتهم الداعية لاستمرار الفتنة وإخضاع الخوارج للمحاسبة. فإذا ظهر هذا أيضاً فإن هناك **تياراً آخر من صلحاء أهل الكوفة أعلن أنّه شاك في مسوّغات هذه الدعوة إلى الحرب** ، وكان عامة هؤلاء من أصحاب عبدالله بن مسعود رضي الله عنه الذين تعلموا منه العلوم في الكوفة، حيث جاؤوا إلى أمير المؤمنين فيهم عَبيدة السلماني[(١)] وأصحابه فقالوا له: « إنا نخرج معكم ولا ننزل عسكركم ، ونعسكر على حدة حتى ننظر في أمركم وأمر أهل الشام ، فمن رأيناه أراد ما لا يحل له ، أو بدا منه بغيٌ كنّا عليه ، فقال عليّ: مرحباً وأهلاً ، هذا هو الفقه في الدين ، والعلم بالسُنّة ، من لم يرض بهذا فهو جائر خائن »[(٢)] .

وهذا النص يوضح إنصاف أمير المؤمنين رضي الله عنه ورغبته في جمع الكلمة وحب الجماعة والإصلاح بين المسلمين .

ـ وأتاه آخرون من أصحاب عبدالله بن مسعود فيهم الربيع بن خُثيم « وهم يومئذ أربعمائة رجل ، فقالوا: يا أمير المؤمنين إنّا شككنا في هذا القتال على

---

(١) عبيدة بن عمرو ويقال ابن قيس من بني سلمان يشكر بن ناجية بن مراد، أسلم قبل وفاة النبي ﷺ بسنتين ولم يلقه ، روى عن ابن مسعود وعلي ، توفي (٧٢هـ) . ابن الأثير، أسد الغابة ١٩٢/٣.

(٢) ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ١٨٧/٣ . المنقري ، وقعة صفين ، ١١٥.

معرفتنا بفضلك ، ولا غناء بنا ولا بك ولا المسلمين عمّن يقاتل العدو ، فولنا بعض الثغور نكن به ، ثم نقاتل عن أهله فوجهه على ثغر الرّي ، فكان أول لواء عقده بالكوفة لواء الربيع بن خثيم »[١]، وكانت قبيلة باهلة كارهة لقتال أهل الشام .

فدعاهم أمير المؤمنين رضي الله عنه فقال: « يا معشر باهلة ... خذوا عطاءكم واخرجوا إلى الدّيلم ، وكانوا قد كرهوا أن يخرجوا معه إلى صفين »[٢] .

ـ ولا أدل على عدم الرغبة في القتال أيّام صفين ، من تلك المدة الطويلة التي قضاها القوم يتراسلون ويتحاجزون لمدة ثلاثة أشهر وهم متقابلون في موضع واحد ولديهم كل عدة القتال ، فلم تقع الحرب إلا بعد تلك الفترة من المحاجزة، ولمدة ثلاثة أيام فقط بل إنّ الحرب الحقيقية لم تجرِ ليوم واحد[٣] .

ـ أما ما يُذكر في كتب التاريخ من الحديث عمّا جرى من الحرب من أجل الماء منذ أول يوم وصل فيه القوم إلى صفين ، فإن كل ذلك من تخيلات أعداء الصحابة وأمانيهم التي لا زالوا يحدثون أنفسهم بها .

ـ وعامة ما في هذا الباب من وصف للمبارزات بين الفرسان في صفين ومن أشعار وأقوال وأرجاز نُسبت إلى القوم في ذلك الموقف ، فهي مما لا علم لهم به وما لا ينطبق على أشعارهم ولا أخلاقهم ، وإنّما هو من صناعة وتركيب وإنتاج أعداء الصحابة من خَلْف الخوارج السبئية ، ولا سيما ما دوّنه نصر بن مزاحم في كتاب وقعة صفين ، وانتشر في كتب التاريخ والأدب ، وما دوّنه الطبري عن أبي منخنف والواقدي وطبقتهم وممن يأتي بكلمة من الحقيقة التي تعود لذلك الخلاف ويضيف إليها مئات الكلمات ليصنع من تلك الكلمة خبراً أو رواية أو كتاباً ، يُسلهم في توسعة دائرة الخلاف بين المسلمين ، ويعمل على إظهار الصحابة في صورة

---

(١) المصدر السابق .

(٢) المنقري ، صفين ، ١١٦.

(٣) ابن خياط ، تاريخ ، ١٩١ ، البلاذري ، ٢/١ ، جعيط ، الفتنة ، ١٩٨ .

مشوّهة، تمجّها النفوس وتشمئز منها المشاعر ، لما يُلصق بهم من تُهم ويُنسج على سيرهم من أساطير وذلك للإسهام في فصل الأمة عن جيل القدوة جيـل الصحابة والمعاني والقيم النبيلة التي تلقوها عن رسول الله ﷺ والكتـاب الكريـم ، وذلـك ليسهُل حرفهم عن الدين وصرفهم عن أوامره ونواهيه ، فتذبل شـجرتهم وتجـف ينابيعهم، لتنهار حضارتهم ويُهدم بنيانهم .

ـ ومن هنا يتوجب على الباحث عن حقيقة ما جرى من خـلاف فـي تلـك المرحلة أن يبحث عن تلك الكلمة الصادقة التي تصف الحقيقة بين ذلك الركام مـن الأخبار المكذوبة والروايات المصنوعة ، الغريبة عن أخلاق ذلك الجيل ، والمُنكرة في وصف ذلك الخلاف .

فينفض عنها غبار البهتان ، وينقُض نسيج الباطل فيُعيده أنكاثاً ، فيشارك فـي إشراق شمس الحقيقة على الأمة من جديد ، لتعود إلى عقيدتها ووحدتها وعزتها كما كانت أيام الصحابة رضي الله عنهم .

السفارات والرسل بين علي ومعاوية رضي الله عنهما
قُبيل يوم صفين

بعد وصول أهل الكوفة وأهل الشام إلى صفين ، عسكروا هناك فدارت بينهم الرسل، حرصاً على الجماعة والوحدة ، وللحيلولة دون وقوع القتال بين الاخوة وكان كل ما دار من حوار بين الطرفين يتناول مسألتين أساسيتين وهما:

ـ دعوة الخليفة علي ﷺ والي الشام للبيعة على كتاب الله تعالى وسنّة رسوله ﷺ ، والدخول فيما دخل فيه من بايعه من المسلمين، لتأليف الكلمة ووحدة الصف .

ـ وامتناع والي الشام معاوية ﷺ عن البيعة إلا بعد القصاص من قتلة الشهيد عثمان ﷺ ومحاكمة من أجلب عليه ولا سيما من كانوا في جيش أمير المؤمنين وأنّه هو ولي المقتول والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ ومن قُتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً ﴾.

وقد شارك في تلك السفارات عدد من أعلام المسلمين ، طلباً لحقن الدماء والإبقاء على وحدة الأمة وقوتها ، وسعياً وراء الأجر العظيم لدعاة الصلح وناشري السلام. قال تعالى: ﴿ لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ﴾.

إلا أن أكثر أخبار تلك السفارات دوّن في كتب التاريخ مروياً عن إخباريين غير ثقات فزيد في أقوال الرسل وحذف منها ، وحوّل كثير منها إلى مهاترات وأمثال وسباب وشتائم وأشعار وتهديد ووعيد بين المتحاورين ، بعيدة عن آداب الصحابة ومفاهيمهم ورؤيتهم للصلح والحرب ، ومفقود في أكثرها الحديث عن أسباب الخلاف وأهميّة الصلح . وهذا ما رواه الطبري في أكثر ما أورده من روايات عن هذه المسألة وما دوّنه ابن مزاحم في وقعة صفين وابن أعثم في الفتوح وما رواه عنهم ابن الأثير في الكامل ، وابن كثير في البداية والنهاية ، ما عدا

الروايات القليلة التي أبدى فيها رأيه وأشار إلى أنّها لا تصح. أما كتب المبتدعة ومبغضي الصحابة فلا يجوز النظر فيها لمن لا يعتقد أنها مناقضة لعدالة الصحابة رضي الله عنهم ، وأنّها مدسوسة ومفتراة عليهم ، وإن كان بعضها تحمل في طياتها شيئاً من الحقيقة لتستر في ظلاله الأباطيل والدسائس التي تهدف إلى نزع الثقة في الصحابة رضي الله عنهم .

ومما يروى عن بعض من شارك في تلك السفارات مثل: بشير بن عمرو الذي كان مبعوثاً من أمير المؤمنين علي رضي الله عنه الذي التقى والي الشام فوعظه وناشده وقال: «يا معاوية إنّ الدنيا عنك زائلة، وإنّك راجع إلى الآخرة ، والله محاسبك بعملك ومجازيك بما قدمت يداك ، وإنّي أنشدك الله أن تفرّق جماعة هذه الأمة وأن تسفك دماءها بينها ... فقال معاوية: ونطلّ دم عثمان ؟ لا والله لا أفعل ذلك أبداً »[1]. ثم تكلّم شبث بن ربعي بكلام غليظ فأمر معاوية رضي الله عنه بإخراجهم عنه .

وروي أن أبا هريرة عبدالرحمن بن صخر الدوّسي وأبا الدرداء عويمر الأنصاري ذهبا إلى معاوية فقالا له: «يا معاوية علام تقاتل علياً وهو أحق بهذا الأمر منك ... فقال معاوية: إني لست أزعم أني أحق بهذا الأمر منه، وإنّي لأعلم أنّ علياً لكما وصفتما ، ولكني أقاتله حتى يدفع إلي قتلة عثمان ، فإذا فعل ذلك كنت رجلاً من المسلمين ، أدخل فيما دخل فيه الناس »[2]. فذكرت هذه الرواية أنهما تكفلا لمعاوية بذلك لكنهما لم يفلحا في ذلك إذ واجهتهما السبئية ومن أجلب على أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه ، في جيش الخليفة ففشلت سفارتهما[3] .

---

(١) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ٨٤/٣ ، ابن أعثم ، الفتوح ، ٢٤/٣ ، ٩٦/٣، ابن كثير، البداية والنهاية ، ٢٦٧/٤ .

(٢) ابن أعثم ، الفتوح ، ٩٤/٣ .

(٣) المصدر نفسه ، ٩٦/٣ .

وكانت هذه السفارة بمبادرة منهما دون أن يمثلا أي طرف من الأطراف. ولكن مما يؤخذ على هذه الرواية أنّ أبا الدرداء توفي قبل صفين ما بين سنة « ٣٢ و ٣٤هـ »[١] لهذا فإن الساعي في هذه السفارة مع أبي هريرة غير أبي الدرداء .

إلا أن ابن كثير ذكر سفارة فيها أبو الدرداء وأبو أمامة رضي الله عنهما وأنهما أنكرا على معاوية مخالفته لعلي رضي الله عنه ، فقال: أقاتله أنّه أوى قتلة عثمان رضي الله عنه « فاذهبا فقولا له: فليقدنا من قتلة عثمان ، ثم أنا أول من بايعه من أهل الشام فذهبا إلى علي فقالا له ذلك فقال: هؤلاء الذين تريان ، فخرج خلق كثير فقالوا: كلنا قتلة عثمان فمن شاء فليرمنا ، فرجع أبو الدرداء وأبو أمامة ، فلم يشهدا حرباً بل لزما بيوتهما »[٢]، وهذه الرواية يقال فيها ما قيل في سابقتها ، وأنّ أبا الدرداء من غير الممكن أن يكون فيها ..

وروى ابن كثير أنّ أبا مسلم الخولاني وجماعة معه « دخلوا على معاوية فقالوا له أنت تنازع علياً أم أنت مثله ؟ فقال والله إنّي لأعلم أنّه خير مني وأفضل وأحق بالأمر مني ، ولكن ألستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوماً ، وأنا ابن عمّه وأنا أطلب بدمه وأمره إليّ فقولوا له فليسلم إليّ قتلة الخليفة عثمان وأنا أسلم له أمره ، فأتوا علياً فكلموه في ذلك ، فلم يدفع إليهم أحداً فعند ذلك صمم أهل الشام على القتال مع معاوية »[٣] .

وروي أن أمير المؤمنين رضي الله عنه بعث عدي بن حاتم الطائي رضي الله عنه ويزيد بن قيس الأرحبي وهو أحد رؤساء سبئية الكوفة الذين أجلبوا على عثمان رضي الله عنه وطردوا ولاته ومعه بعض طبقته إلى معاوية رضي الله عنه ، لكن ابن كثير قال عما دار في تلك

---

(١) ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ١٦٤٦/٤.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ، ٢٧٢/٧.

(٣) المصدر نفسه ، ١٢٧/٨ ، الذهبي ، الخلفاء الراشدون ، ٥٤٠.

السفارة من حوار: وفي صحة ذلك نظر، وهذا لا يصح عندي[1] . وبعث معاوية النعمان بن بشير بن سعد الأنصاري وأبو هريرة رضي الله عنهما إلى أمير المؤمنين يدعوانه إلى أن يُسلّم قتلة عثمان ، ليُقتلوا به فيصلح أمر الناس ، ولكن لم يتم شيء من هذا، وفي هذه الرواية ما يشير إلى أنها كانت قبل مسير أمير المؤمنين إلى صفين[2] .

« وكان غير واحد من عسكر معاوية يقول له: **لماذا تقاتل علياً وليس لك سابقته ولا فضله ولا صهره ؟ وهو أولى بالأمر منك ، فيعترف لهم معاوية بذلك . ولكن قاتلوا مع معاوية لظنّهم أن عسكر علي فيه ظلمة يعتدون عليهم كما اعتدوا على عثمان**رضي الله عنه وأنّهم يُقاتلونهم دفعاً لصيالهم عليهم وقتال الصائل جائز ، ولهذا لم يبدأوهم بالقتال حتى بدأهم أولئك ، ولهذا قال الأشتر النخعي: إنّهم يُنصرون علينا لأنّا نحن بدأناهم بالقتال. وعلي رضي الله عنه كان عاجزاً عن قهر الظلمة من العسكريين ، ولم تكن أعوانه يوافقونه على ما يأمر به، وكان يرى أنّ القتال يحصل به المطلوب فما حصل به إلا ضد المطلوب ، وكان عسكر معاوية يوافقونه ويقولون : نحن إذا بايعنا علياً ظلمنا عسكره كما ظلم عثمان وعليّ لا يستطيع أن يدفع عنا »[3].

والذي يظهر مما سبق أن عامة المسلمين ومن الطرفين لم يكن لديهم رغبة بالقتال فيما عدا المتهمين بدماء عثمان رضي الله عنه .

ـ وأن الرسل اتصلت بالجانبين ونقلت وجهات النظر بينهما ، فكانت هناك محاولات جادة ومتواصلة للإصلاح بين المسلمين ، وقد كان معاوية عارفاً بفضل علي رضي الله عنهما ، فكان يكتب له في رسائله « أما فضلك في الإسلام وقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم فلست أدفعه »[4] .

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢/٢٧٠.

(٢) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ٣/٢٠٥.

(٣) ابن تيمية ، منهاج السنة ، ٤/٣٨٤ .

(٤) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ٤/٣١٠ .

ـ أنّ بعض أعضاء سفارات أهل الكوفة لم يكن لديهم القناعة التامة بالصلح لتعلق ذلك بمحاسبة كل من أجلب على الشهيد عثمان ﷺ ، وبعضهم يفتقد إلى المنطق السياسي ويتسم بالغلظة والإثارة وهذا ما يتنافى مع الإصلاح وتأليف القلوب .
ـ إنّ النزاع لم يكن على منصب الخلافة ، أو على عدم القبول بعلي أميراً للمؤمنين وإنما كان على مسألة الخوارج السبئية والغوغاء التي سارت في ركابهم وكان أمير المؤمنين ﷺ يقول: « **إنّ قوماً زعموا أنّ البغي كان منّا عليهم ، وزعمنا أنه منهم علينا ، وإنما اقتتلنا على البغي ولم نقتتل على التكفير** »[1] وكان معاوية يقول: « **ادفع لنا قتلة عثمان نقتلهم به ثم نحن أسرع الناس إليك** »[2] .
ـ وأنّ أمير المؤمنين يرى أن محاسبتهم تجلب شراً أكبر من مسالمتهم .
ـ بينما يرى والي الشام أنه ملزم بالمطالبة بإقامة الحد على هؤلاء لأنه هو كبير أولياء عثمان الذي يطالبونه بالقصاص من القتلة . فضلاً عن أنّ عدم محاسبتهم يشجع غيرهم على فعل مثل ما فعلوا ، وأن خطرهم قائم على أولياء عثمان وعامة المسلمين .

ـ وأنّ من يُصرّ على تخطئة أعلام الصحابة وقادتهم ﷺ ، ويدافع عما أورده الإخباريون من خلاف بين الصحابة يخرجهم فيه عن ثوابت الدين وضوابط الأخوّة ويردّ تأويلاتهم وتفسيراتهم لأحداث تلك المرحلة ؛ ما هو إلا جاهل بفقه وفهم ذلك الجيل ، أو أنه ممن ناصبهم العداء وأسهم في إحدى موجات الغزو الفكري الذي تلونت أشكاله ، وتعددت أطرافه من داخل الأمة وخارجها ، وبالتالي فإن ما يورده من شبهات لا يعدو ما يهاجمهم به المستشرقون والعلمانيون ، ومن وافقهم في أهدافهم ونواياهم من المبتدعة والمنحرفين والخوارج ومن سار في ركابهم .

---

(١) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ٣٠٨/٤ ، ٣١٠/٤ ، ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ٣٤٣/٣ .
(٢) المصدر نفسه .

أمر القتال في صفين

قال ابن كثير: ولم تزل الرسل تتردد والناس كافّون عن القتال حتى انسلخ الأشهر الحرم من هذه السنة (٣٧هـ) ولم يقع بينهم صلح ، فنادى منادي أهل الكوفة ، عسكر أهل الشام عند غروب الشمس ألا إنّ أمير المؤمنين يقول لكم: إني قد استأنيتكم لتراجعوا الحق وأقمت عليكم الحجة فلم تُجيبوا وإنّي قد نبذت إليكم على سواء ففزع أهل الشام إلى أمرائهم فأعلموهم بما سمعوا المنادي ينادي به فنهض عند ذلك معاوية وعمرو فعبيا الجيش [١].ثم التقى الناس يوم الأربعاء لسبع خلون من صفر سنة سبع وثلاثين [٢] فاقتتلوا يوم الأربعاء ويوم الخميس ويوم الجمعة وليلة السبت ثم رفعت المصاحف ودعوا إلى الصلح[٣] « فكان الصلح ليلة السبت لعشر خلون من صفر »[٤]« **وكانت أيام صفين كلها مواقفة ولم تكن هزيمة بين الفريقين إلا على حامية ثم يكرون** »[٥]وكان من آدابهم في ذلك أن لا يجهزوا على جريح ولا يُتبعوا مولياً ولا يسلبوا قتيلاً ومن ألقى سلاحه فهو آمن[٦] ، وكانوا يصلون على القتلى ويستغفرون لهم[٧] .

وهناك خلاف ظاهر على عدد المشاركين في القتال في موقعة صفين وعلى عدد القتلى فيها:

ـ فذكر ابن كثير أن أهل الكوفة كانوا في مائة وعشرين ألفاً فقتل منهم أربعون

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٧٢/٧ .

(٢) ابن خياط ، تاريخ ، ١٩٤.

(٣-٤) المصدر نفسه، ١٩٤، ١٩١.

(٥) المصدر نفسه، ١٩٤، ١٩١.

(٦) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ٣١٤٠/٤.

(٧) المصدر نفسه .

ألفاً ، وأهل الشام في ستين ألفاً فقتل منهم عشرون ألفاً [١] .

ـ وذكر ابن أبي شيبة أنّه : « خرج علي من الكوفة إلى معاوية في خمسة وتسعين ألفاً ، وخرج معاوية من الشام في بضعة وثمانين ألفاً »[٢] .

ـ وقال الذهبي: « كان علي في خمسين ألفاً وقيل: في تسعين ألفاً، وقيل : كانوا مائة ألف ، وكان معاوية في سبعين ألفاً »[٣] .

ـ وروى المسعودي أن علياً رضي الله عنه كان في تسعين ألفاً ومعاوية في خمس وثمانين ألفاً[٤] .

ـ وقال خليفة بن خياط: حدثنا أبو الحسن عن مسلمة بن محارب عن حرب بن خالد بن يزيد بن معاوية قال: « فصل معاوية من الشام إلى صفين في سبعين ألفاً. قال: وسألت زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب قلت: في كم كان علي ؟ قال: في مائة ألف »[٥] .

ـ وروي أن أهل الشام كانوا ستين ألفاً وأهل الكوفة مائة وعشرين ألفاً[٦] .

وأنّه قُتل من أهل الكوفة أربعون ألفاً ومن أهل الشام عشرون ألفاً:

ـ وقيل قتلى صفين سبعون ألفاً من الجهتين[٧] .

ـ وذكر المسعودي أنّ : **قتلى الشام كانوا تسعين ألفاً** [٨] **وسبق قوله أن معاوية**

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٧/ ٢٨٨ ، وروي أنه قتل من أهل الكوفة خمسة وعشرون ومن أهل الشام خمسة وأربعون ألفاً ، ٢٨٧/٧ .

(٢) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ٣٨٤/٢ .

(٣) الذهبي ، عهد الخلفاء الراشدين ، ٥٤٢ .

(٤) المسعودي ، مروج الذهب ، ٣٨٤/٢ .

(٥) ابن خياط ، تاريخ ، ١٩٣.

(٦) البيهـقي ، دلائل النبوة ، ٤١٩/٦.

(٧) ابن خياط، تاريخ ١٩٦، المسعودي مروج الذهب، ، ٤٥٠/٢.

(٨) المسعودي ، مروج الذهب ، ٤٠٤/٢ .

كان في خمس وثمانين ألفاً ، أي أنّ القتلى أكثر من المشاركين في المعركة بخمسة آلاف قتيل فقط . ومن أهل العراق عشرون ألفاً[1] وكانوا إذا تحاجزوا دخل هؤلاء في معسكر هؤلاء ، فيستخرجون قتلاهم فيدفنونهم[2] .

والذي يمكن قوله في عدد المشاركين في قتال صفين ، وكذلك عدد القتلى فيها: أن كتب التاريخ بالغت وهولت في هذين الأمرين، وأنّ عامة ما دوّن عن معركة صفين كان متأخراً ، وعامة الذين تولوا ذلك التدوين كانوا من المبتدعة وأهل الأهواء ، من أمثال نصر بن مزاحم المنقري وأبو مخنف لوط بن يحيى وطبقتهم ممن أفسدوا أخبار تاريخ العصر الراشدي ، وأنّ كل ما قيل في هذا البحث عن فتنة السبئية الثانية في يوم البصرة ، يقال عن فتنتهم الثالثة في يوم صفين، وأنّ يوم صفين هو فتنتهم الثالثة ، لأنّها كانت امتداداً لما قبلها وأنّ رجال الفتنة كانوا في جيش الكوفة، وكانوا من أشد الناس تحريضاً على القتال وأشدهم معارضة لأي صلح بين المسلمين. ولا سيما الأشتر االنخعي ويزيد بن قيس الأرحبي وهما من أول من طعن على الشهيد عثمان رضي الله عنه ، وهما اللذان أخرجا عامله سعيد بن العاص بن أمية عن الكوفة تمرداً وخروجاً عليه، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « من كره من أميره شيئاً فليصبر ، فإنه من خرج من السلطان شبراً مات ميتة جاهلية[3] وأن أسباب القتال في صفين ، هي أسباب قتال فتنة السبئية الثانية لم يختلف فيها شيء تقريباً ، وتلك قُتل فيها الشهيدان طلحة والزبير رضي الله عنهما للأسباب ذاتها التي امتنع فيها معاوية عن البيعة ، وهذه قُتل فيها الشهيد عمار رضي الله عنه في صف أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ، ولكن مصاب المسلمين بطلحة والزبير أعظم من مصابهم بعمّار وأشد إيلاماً ، لما خلفا بعد استشهادهما من فراغ سياسي وعسكري

---

(١) المسعودي ، مروج الذهب ، ٤٠٤/٢ .

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٤٩١/٧ .

(٣) البخاري ، مع شرحه فتح الباري ، ك الفتن ، باب سترون بعدي أموراً تنكرونها ، ح (٧٠٥٣) .

واجتماعي واقتصادي وقيادي، ونظراً لموقعهما هذا في الأمة كانا أول وأهم أهداف السبئية يوم البصرة . ولهذه الأسباب ذاتها، كان أمير المؤمنين ﷺ ، أشد تألماً وتوجعاً على مصاب طلحة والزبير من تألمه على مصاب عمار بن ياسر ﷺ أجمعين .

ـ وأما ما يُقال عن المبالغة في الأرقام التي ذُكرت في صفين من المشاركين ومن القتلى ، فإنّ الأسباب التي ذُكرت في معارضة المبالغة في الأعداد التي ذكرت يوم البصرة ، هي التي يسوّغ بها الرد غلى المبالغة في يوم صفين . فضلاً عما اتضح من :

ـ **انعدام الرغبة في القتال يوم صفين** والتي ظهرت في أقوال ومواقف الكثيرين ممن شهدها ، وأن عامة أعلام الصحابة استمروا في اعتزال الفتنة بما فيها صفين وما بعدها .

وقول أمير المؤمنين لمن عرض عليه أن يرجع بأهل العراق: **إنّ هذه لنصيحة وشفقة ولقد أهمني هذا الأمر وأسهرني** [1].

ومن ذكر أن هناك عدداً من أهل بدر شهدها فقد اخطأ ، اتضح ذلك في مبحث تصور الصحابة للفتنة ، وما رواه الإمام أحمد عن شعبة أن أبا شيبة روى عن الحكم عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: شهد صفين من أهل بدر سبعون رجلاً فقال: **كذب أبو شيبة ، والله لقد ذاكرنا الحكم في ذلك فما وجدناه شهد صفين من أهل بدر غير خزيمة بن ثابت . وقد قيل أنه شهدها سهل بن حنيف .**

ـ **وأن رجالاً من أهل بدر لزموا بيوتهم بعد قتل عثمان** ﷺ ، **فلم يخرجوا إلا إلى قبورهم** [2].

---

(١) ابن أبي الحديث ، شرح نهج البلاغة ، ٢٠٨/٢ .

(٢) ينظر ، ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٦٤/٧ .

ـ **واعتزال جمهور الصحابة وأفاضلهم للفتنة معلوم بأصح الأسانيد** في مثل ما روي عن محمد بن سيرين قال: « هاجت الفتنة وأصحاب رسول الله ﷺ عشـــرة آلاف فما حضرها منهم مائة ، بل لم يبلغوا ثلاثين »[١]

ـ **علم الصحابة والتابعين بحرمـــة الدم المسلم** ، وتحذير النبي ﷺ من الجـــرأة عليه في مثل قوله: « إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فكلاهما من أهل النار »[٢]

وقوله ﷺ : « من حمل علينا السلاح فليس منا » [٣]

وإرشاده ﷺ إلى العزلة إن لم تكن هناك جماعة كما سبق ذلك في حديــث حذيفـــة وغيـــره [٤].

استشهاد عمار بن ياسر

ومن الأحداث المهمة التي حصلت في صفين، استشهاد عمار بن ياسر العنســي مولى بني مخزوم ، كان من السابقين وممن عذب في الله تعالى فـــي أول الإســـلام وشهد بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ويروى أنه عاش ثلاثاً وتسعين سنة[٥].

وشهد مع أمير المؤمنين علي يوم البصرة ويوم صفين فقاتل يوم صفين وتقـــدم الصفوف فسئل « أرأيت قتالكم مع علي رأياً رأيتموه ، فإن الرأي يخطئ ويصيب أو عهد عهده إليكم رسول الله ﷺ فقال: ما عهد إلينا رسول الله ﷺ شيئا لم يعهده إلـــى

---

(١) ابن تيمية ، منهاج السنة ، ٦ / ٢٣٦ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٧ / ٢٦٥ .

(٢) البخاري ، مع شرحه فتح الباري ، ك. الفتن ، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، ح (٧٠٨٣).

(٣) المصدر نفســـه .

(٤) المصدر نفسه ، باب ، كيف الأمر إذا لم تكن جماعة (٧٠٨٤) .

(٥) الذهبي ، عهد الخلفاء الراشدين ، ٥٧٠ ، وينظر : البخاري مع شرحه فتح الباري ، شـــرح الحديث (٣٧٢) .

الناس كافة »[١] وقال: حدثني حبيبي رسول الله ﷺ: « **إني لا أموت إلا قتلا بين فئتين مؤمنتين** » [٢]وعن عبد الله بن سلمى قال: « رأيت عمارا يوم صفين شيخا كبيرا آدما طوالا آخذا الحربة بيده، ويده ترعد فقال والذي نفسي بيده لقد قاتلت بهذه الراية مع رسول الله ﷺ ثلاث مرات وهذه الرابعة ، والذي نفسي بيده لو ضربونا حتى يبلغوا بنا شعفات هجر لعرفت أن مصلحينا على الحق وأنهم على الضلال[٣] وعن عبد الله بن الحارث قال : إني لأسير مع معاوية في من صرفه من صفين بينه وبين عمرو بن العاص ، فقال: عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: يا أبت سمعت رسول الله ﷺ يقول لعمار : « تقتلك الفئة الباغية » [٤]قال: فقال عمرو لمعاوية رضي الله عنهما: ألا تسمع ما يقول هذا ؟ فقال معاوية: لا تزال تأتينا بهنة ، أنحن قتلناه ؟ إنما قتله الذين جاؤوا به [٥] قال ابن كثير: وهذا التأويل الذي سلكه معاوية رضي الله عنه بعيد[٦]. أي إنما قتله الذي قتله .

وقال عمار رضي الله عنه يوم صفين: « إئتوني بشربة لبن فإن رسول الله ﷺ قال: آخر شربة تشربها من الدنيا شربة لبن ، فأتي بشربة لبن فشربها ثم تقدم فقتل »[٧] وعن كلثوم بن جبر قال: كنا بواسط القصب [٨] ، عند عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر

---

(١) ابن حنبل، المسند، ك مسند الكوفيين،باب حديث عمار،ح (١٨١٢٨)ابن كثير، البداية والنهاية٧ /٢٨٠

(٢) البخاري، التاريخ الصغير، ١٠٤/١ .

(3)ابن حنبل، المسند ، مسند الكوفيين، حديث عمار، ١٨١٢٧ ، انفرد به أحمد .

(٤) البخاري، مع شرحه، فتح الباري، ك، الصلاة ، باب التعاون في بناء المسجد، ح (٤٢٨) .

(٥) ابن حنبل، المسند، مسند الكوفيين، حديث عمار (٦٢١١) الطبراني ، المعجم الكبير ٣٣٠/١٩، الذهبي عهد الخلفاء الراشدين ، ٥٧٩ .

(٦) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٨٣/٧ .

(٧) ابن حنبل ، المسند ، المصدر السابق ، ح (١٨١٢٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٨٠/٧ .

(٨) واسط القصب. بناها الحجاج بن يوسف وسميت بواسط لأنها بين البصرة والكوفة ، متوسطة بينهما وقيل اسم الموضع الذي بنيت عليه واسط كان اسمه واسط القصب . معجم البلدان ، ٤٣٥/٤ .

فإذا عنده رجل يقال له أبو الغادية [١] استسقى ماء فأتي بإنـــاء مفضـــض فـــأبى أن يشرب . وذكر النبي ﷺ ، فذكر هذا الحديث: لا ترجعوا بعدي كفاراً أو ضلالاً شك ابن أبي عدي ، يضرب بعضكم رقاب بعض « فإذا رجل يسب فلاناً فقلت والله لئـــن أمكنني الله منك في كتيبة ، فلما كان يوم صفين إذا أنا به ، وعليه درع قال ففطنـــت إلى الفرجة في جربان الدرع فطعنته فقتلته فإذا هو عمار بن ياسر رضي الله عنه »[٢] .

قال: قلت: وأي يد كفتاه يكره أن يشرب في إناء مفضض وقد قتل عمار بـــن ياسر. وقال أبو غادية الجهني: « بايعت رسول الله ﷺ يوم العقبة »[٣]

فلما قتل عمار رضي الله عنه قال عمرو بن العاص رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن قاتله وسالبه في النار فقيل لعمرو فإنك هو ذا تقاتله قال: إنمـــا قـــال قاتلـــه وسالبه» [٤].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما « أن رجلين أتيا عمـــرو بـــن العـــاص يختصمان في دم عمار وسلبه ، فقال: خليا عنه فإني سمعت رسول الله ﷺ يقـــول

---

(١) أبو الغادية يسار بن سبع السلمي ، قال ابن حزم شهد بيعة الرضوان، الفصل ، ٤/١٦١، ابن سعد الطبقات، ٣/١٣٨ ، أبو غادية الجهني، رجل طوال ضرب من الرجال كأنه ليس من هذه الأمة قال بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم – يوم العقبة، فقال: أيها الناس ألا إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا هل بلغت ؟ فقلنا نعم ... فقال: إنا كنا نعد عمار بن ياسر فينا حناناً ، فبينا أنا في مسجد قباء إذ هو يقول : ألا إن نعثلا هذا لعثمان ، فالتفت فلو أجد عليه أعواناً لوطأته حتى أقتله ، قال: قلت: اللهم إنك إن تشأ تمكني من عمار فلما كان يوم صفين أقبل يستن أول الكتيبة رجلا حتى إذا كان بين الصفين، فأبصر رجل عورة فطعنه في ركبته بالرمح ، فعثر فانكشف المغفر ، فضربته فإذا رأس عمار. وينظر ابن عبد البر الاستيعاب ٤/١٧٢٥ ، الذهبي ، عهد الخلفاء الراشدين ٥٨٢.

(٢) ابن حنبل ، المسند ، مسند المدنيين ، حديث أبو الغادية (١٦٠٠) انفرد به أحمد .

(٣) المصدر نفســه ، ح (٦١٠١) ابن سعد ، الطبقات ، ١٣٨/٣ .

(٤) الهيثمي ، مجمع الزوائد ، ٢٤٤/٧ .

إن قاتل عمار وسالبه في النار »[1] وقد سبقت الإشارة إلى أنــــه كـــان مـــن آداب المتقاتلين في صفين ، أن لا يجهزوا على جريح ولا يتبعوا مدبراً ولا يغنموا مالاً.

ــ ومع أن عماراً رضي الله عنه « قتلته الفئة الباغية » فهذا لا يجيز إطلاق القول باتهام أمة بمقتل هذا الصحابي رضي الله عنه الذي له المكانة السامية في قلوب المسلمين ولا بد مـــن الحذر وتوخي الحقيقة في حالة إصدار أي حكم على أحد من الصحابـــة رضي الله عنهم: لأن هناك من يقول كلمة الحق ويريد بها الباطل فيجعل من مقتل عمـــار رضي الله عنه مدخـــلاً لتكفير الصحابة واتهامهم . وأول ما ينبه إليه هنا ، أن عماراً رضي الله عنه قتل في ســـاحة المعركة وهو بكامل سلاحه بل كان من كبار القادة يوم صفين وحوله من أعيـــان الجند أعداد هائلة ، وماذا ينتظر ممن يدخل وطيس الحرب إلا أن يقتل أو يقتل .

وهذا يختلف اختلافاً تاماً عمّن يقتل في سلطانه وفي بيته وبين زوجته وبناتــــه وهو يتلو كتاب الله تعالى وكافاً يده ولسانه . لهذا عندما سئل الإمام أحمد عن مقتـل عمار قال:« قتلته الفئة الباغية »[2] **ولم يزد على ذلك .**

ــ وقد تكون الفئة التي باشرت قتله هي الفئة الباغية [3]، دون سواها من الجيــــش وقال ابن حزم: وعمار رضي الله عنه قتله أبو الغادية يسار بن سبع السلمي ، شــــهد بيعـــة الرضوان التي رضي الله تعالى عمّن بايع فيها ، **فهو متأول مجتهد مخطيء فيه بـــاغ عليه** مأجوراً أجراً واحداً وليس هذا كقتلة عثمان رضي الله عنه ، لأنه لا مجال للاجتهاد فـــي قتله ، لأنه لم يقتل أحداً ولا حارب ولا قاتل ولا دافع ولا زنا بعد إحصان ولا ارتد فيسوّغ المحاربة تأويلاً ، بل هم فساق محاربون سافكون دماً حراماً عمداً بلا تأويل

---

(١) المصدر السابق ، ابن سعد ، الطبقات ، ١٣٩/٣ ، وقال: استشهد وهو ابن ٩٤ عام ١٣٨/٣ .

(٢) الذهبي ، عهد الخلفاء الراشدين ، ٥٨٠ ، سير أعلام النبلاء ، ٣٠١/١ ، ابن تيمية ، منهـــاج السنـــة ٤١٤/٤ .

(٣) ابن تيمية ، منهاج السنة ، ٤٦٦/٤ .

على سبيل الظلم والعدوان ، فهم فساق ملعونون [١] فإذا خرجت طائفة على الإمام بتأويل سائغ ، راسلهم الإمام فإن ذكروا مظلمة أزالها عنهم وإن ذكروا شبهة بينها فإن رجعوا وإلا وجب قتالهم .

ــ ويجب التفريق بين قتال الفتنة المنهي عنه والذي تركه خير من فعله، وبين قتال الخوارج البغاة على إمام الحق دون تأويل سائغ أو مظلمة بينة ، وبين من خرج من السنة والشريعة وبين من بقي مقيماً عليهما وليس هناك أمر بقتال من أقامهما إذ أن القتال سيكون حينئذ قتال فتنة وهو قتال منهي عنه[٢].

إن الإشفاق على المسلمين في الجهتين كان يستشعره الجميع ، فيما سوى السبئية ومن غررت بهم من الغوغاء ، يظهر ذلك في قول كعب بن جُعيل التغلبي شاعر أهل الشام في رجزه ، قبيل يوم صفين حيث قال:

أصبحت الأمة في في أمر عجب والملك مجموع غداً لمن غلب

أقول قولاً صادقاً غير كذب أن غداً يهلك أعلام العرب

بعد الجمال والحياء والحسب يارب لا تشمت بنا ولا تصب

من خلع الأنداد طراً والصلب [٣]

وثبت عن أمير المؤمنين أنه كان يقول: قتلانا وقتلاهم في الجنة ويصير الأمر إلي وإلى معاوية [٤].

واستفاضت الأخبار عن علي وعمار رضي الله عنهما أنهما كانا يقولان: عن قتلى أهل الشام أنهم جميعاً مسلمون ، فلا تتبعوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح ولا

---

(١) ابن حزم ، الفصل ، ٤/١٦١ .

(٢) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ، ٤/٤٥٠ .

(٣) ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ٥/١٨٣ .

(٤) ابن تيمية ، منهاج السنة ، ٨/١٤٨ ، ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ٤/٣٠٩ ، ابن أبي شيبة المصنف ٨/٧٢٧ ، ابن الجعد ، المسند ، ح (٢٠٩٢) ، ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ١/٣٤٣.

تغنموا مالاً[1].

ـ فإذا كان أمير المؤمنين هذا رأيه فيمن خالفه فكيف ستكون هناك حماسة على القتال بين الطرفين .

ـ وأن أكثر الذين كانوا يختارون القتال من الطائفتين ، لم يكونوا يطيعون علياً ولا معاوية رضي الله عنهما ، اللذين كانا أطلب لكف الدماء من أكثر المقتتلين لكن غُلبا فيما وقع ، والفتنة إذا ثارت عجز الحكماء عن إطفاء نارها.

ـ وكيف يكون هناك حماسة في القتال ودعوتهما واحدة ، قال ﷺ: « لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان دعوتهما واحدة »[2].

ـ ولهذا فإن الروايات التاريخية عن كثرة المشاركين في القتال يوم صفين وعن عدد القتلى قد يكون مبالغاً فيها وإذا كان لا بد من تقدير للقتلى فإنه بحدود شهداء القادسية من كل طرف ، تلك المعركة الفاصلة التي استمرت ثلاثة أيام و الله أعلم ، ولا سيما أنهم متكافئون في التدريب والتسليح ، ولاشك أن ضعف شهداء القادسية من المسلمين ، وعلى أيدي المسلمين ، يعد مقتلة عظيمة والله أعلم .

ـ كل هذه الأمور وغيرها هيأت النفوس لقبول دعوة الصلح ومساندتها وحل المسائل العالقة والتي سببت القتال ، بالحوار المستند إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ .

---

(١) ابن تيمية ، منهاج السنة ، ٤/٤٦٧ .

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٧/٤٨٨ .

رفع المصاحف يوم صفين

يمكن القول إن أهم حدث وقع يوم صفين هو عملية رفع المصاحف، التي ما إن رفعت حتى « بطلت الحرب »[١] ولما كان إيقاف الحرب بين الأشقاء عملاً نبيلاً ومشروعاً ومأموراً به ، قبله المسلمون ورحبوا به وفي مقدمتهم أمير المؤمنين.

ولما كانت نتائج هذه الفكرة التي اجتمع عليها المتحاربون،خطيرة على الخوارج والغوغاء ودعاة الفتنة، تعرضت كغيرها من الأفكار والأعمال التي تجمع ولا تُفرق إلى حملة من المعارضة الحادة من قبل رجال الفتنة الذين عدوها أخطر من الحرب عليهم ، حتى قال الأشتر النخعي عندما دعي للمشاركة في الصحيفة: « **لا صحبتني يميني ولا نفعتني بعدها شمالي ، إن خط لي في هذه الصحيفة اسم على صلح ولا موادعة** »[٢] أما الذي ابتكر فكرة حقن دماء المسلمين برفع المصاحف، فقد أطلق عليه مبغضو الصحابة ألسنتهم بالتهم والشتائم ، وأشاعوا أن حقن دماء المسلمين ما هو إلا حيلة ونسبوا لأمير المؤمنين أقوالاً مكذوبة تعارض ما في الصحيح على أنه قال: « إنهم ما رفعوها ، ثم لا يرفعونها ولا يعملون بما فيها، وما رفعوها لكم إلا خديعة ودهناً ومكيدة »[٣] ومن الشتائم قولهم عن رفع المصاحف:« إنها مشورة ابن العاهرة »[٤]وبلغ من قوة الشائعات التي أُطلقت لإفساد الصلح والانتقام ممن دعا إليه أن وسّعوا دائرة الدعاية المضادة على عمرو بن العاص رضي الله عنه حتى لم تعد تجد كتاباً من كتب التاريخ إلا وفيه انتقاص لعمرو بن العاص رضي الله عنه وأنه مخادع ماكر والمؤسف في هذا الشأن أن كثيراً من المؤرخين القدماء علماء في الحديث ولديهم

---

(١) المنقري ، وقعة صفين ٤٧٩.

(٢) الطبري ، تاريخ ، ٦/٦ .

(٣) الطبري ، تاريخ ، ٣/٦ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٦١/٣ .

(٤) المصدر نفسه .

خبرة في الجرح والتعديل ، لكنهم لا يستخدمون تلك القدرات النقدية في التاريخ إلا نادراً حتى لو عارض الخبر عدالة الصحابة ونزاهتهم، ويأتي في مقدمة هؤلاء ابن جرير الطبري الذي جعل كل أخبار صفين في تاريخه لأهل الأهواء ثم جاء من بعده ابن الأثير في الكامل في التاريخ فدوّن أخبار العصر الراشدي في تاريخه من ابن جرير دون أن يتساءل عما يكتب وماذا يكتب ، فكان كحاطب ليل لا يبالي ما نوعية الخبر ما دام رواه ابن جرير ولا يُستثنى من ذلك ابن كثير إلا قليلاً حيث **يعلق على بعض الروايات بأن هذا لا يصح أو هذا منكر أو هذا مخالف لعدالة الصحابة، ولكنه لا يصدر حكمه هذا إلا بعد تدوين الخبر** على أنه حقيقة لا ترد أما المسعودي واليعقوبي ونصر بن مزاحم وغيرهم فهذه الأخبار عندهم هي الصحيحة وما سواها باطل ، وهذا جزء من المعاناة التي أصابت تاريخ العصر الراشدي فوقع فيها كثير من المؤرخين المحدَثين مثل حسن إبراهيم حسن في تاريخ الإسلام ومحمد الخضري بك في تاريخ الدولة الأموية وتاريخ الدولة العباسية وغيرهم كثير، مما شكل عوائق أمام فهم الحقيقة التاريخية المجردة . إلا أنه على الرغم من تلك الدعاية والمعارضة التي أبدتها السبئية والغوغاء فإن هناك أغلبية عارمة تطالب بإنفاذ الصلح والقبول بالاحتكام إلى كتاب الله تعالى ، ولا سيما بعد أن استمر القتال في اليوم الثالث في تلك الموقعة التي يُعد فيها كلا الطرفين خاسراً لأن أي قتيل فيها هو إضعاف لقوة الصف الإسلامي، فعندما « استحر القتل في الجنديين أهل الشام وأهل العراق رفع أهل الشام المصاحف فوق الرماح وقالوا هذا بيننا وبينكم ، وقد فني الناس فمن للثغور ومن لجهاد المشركين والكفار »[1] **والذي يمكن التنبيه إليه هنا أن فكرة رفع المصاحف التي أنتجت الصلح قد تكون بدايتها من أهل الكوفة، إذ أن ميول الصلح كانت ظاهرة عندهم بل لم يعارضها سوى السبئية فلما اشتد القتال يوم صفي وتأخرت الصلاة عن أوقاتها ، ذكّر الأخيار الغيورين**

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٧/٢٨٥ .

على الدين والأمة في جيش أمير المؤمنين بالرحم وحقوق الأُخوة « ونادت المشيخة في تلك الغمرات: يا معشر العرب ، الله الله في الحرمات ، من للنساء والبنات »[1]

وعندما كانت هذه الدعوات تنطلق داعية إلى السلم والصلح كان دعاة الفتنة يوقدون نارها ويدعون لاستمرارها[2]، وروي أن أصحاب معاوية قالوا يوم اشتداد القتال : « والله ما نحن لنبرح اليوم العرَصة حتى يفتح الله لنا أو نموت »[3] فعندها اشتد القتال فنادت المشيخة بما نادت به ، وفي المساء خطب الأشعث بن قيس الكندي في أهل الكوفة خطبته التي قادت إلى الصلح بين الطرفين والتي جاء فيها: « **ألا فليبلغ الشاهد الغائب، إنا إن نحن توافقنا غداً إنه لفناء العرب وضيعة الحرمات ، أما والله ما أقول هذه المقالة جزعاً من الحتف، ولكني رجل مسن أخاف على النساء والذراري غداً إذا فنينا ، اللهم إنك تعلم أني قد نظرت لقومي ولأهل ديني فلم آلُ** »[4] **فلما سمع معاوية بهذه الخطبة قال: أصاب ورب الكعبة** ، لئن نحن إلتقينا غداً لتميلن الروم على ذرارينا ونسائنا ولتميلن أهل فارس على نساء أهل العراق وذراريهم وإنما يبصر هذا ذوو الأحلام والنهى. إربطوا المصاحف على أطراف القنا ... فنادى أهل الشام في سواد الليل:يا أهل الكوفة من لذرارينا إن قتلتمونا ومن لذراريكم إن قتلناكم ؟ الله الله في البقية ، فأصبح أهل الشام وقد رفعوا المصاحف على رؤوس الرماح ، وقلدوها الخيل ، والناس على الرايات قد اشتهوا ما دعوا إليه... ونادوا يا أهل العراق كتاب الله بيننا وبينكم ...وقال الأشعث بن قيس : يا أمير المؤمنين أجب القوم إلى كتاب الله، فإنك أحق به منهم.وقد أحب الناس البقاء وكرهوا القتال، فقال علي رضي الله عنه إن هذا أمر ينظر فيه، وذُكر أن أهل الشام قالوا:

---

(١) ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ٢/٢١٤ ، المنقري ، وقعة صفين ، ٤٧٩ .

(٢) المنقري ، وقعة صفين ، ٤٨٠ .

(٣) المنقري ، وقعة صفين ، ٤٧٩ .

(٤) المصدر نفسه ، ٤٨١.

يا معاوية ، ما نرى أهل العراق أجابوا إلى ما دعوناهم إليه ، فأعدها جذعة ــ أي ابدأها مرة أخرى ــ فإنك قد غمرت بدعائك القوم وأطمعتهم فيك وأرسل معاوية **عبد الله بن عمرو بن العاص** وأمره أن يكلم أهل الكوفة ، فأقبل حتى إذا كان بين الصفين نادى: أنا عبد الله ابن عمرو بن العاص ، إنها قد كانت بيننا وبينكم أمور للدين والدنيا ، فإن تكن للدين فقد والله أعذرنا وأعذرتم وإن تكن للدنيا فقد والله أسرفنا وأسرفتم وقد دعوناكم إلى أمر لو دعوتمونا إليه لأجبناكم فإن يجمعنا وإياكم الرضا فذلك من الله فاغتنموا هذه الفرجة ، وأما الأشتر فلم يكن يرى إلا الحرب وذكروا أن الناس ماجوا وقالوا: أكلتنا الحرب وقتلت الرجال ، وثارت الجماعة بالموادعة[١].

وذهب الأشعث بن قيس إلى معاوية فسأله: لأي شيء رفعتم المصاحف ؟ قال: لنرجع نحن وأنتم إلى أمر الله في كتابه فابعثوا منكم رجلاً ترضونه ، ونبعث رجلاً ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما في كتاب الله لا يعدوانه ثم نتبع ما اتفقنا عليه فقال الأشعث: هذا هو الحق [٢]. وهذه هي رواية كوفية لا ذكر فيها لعمرو بن العاص رضي الله عنه ولا للمخادعة والاحتيال وإنما ظاهر فيها أن الرغبة بالصلح قد بدأت فكرتها من الأشعث بن قيس فأقرها معاوية ودعا إلى العمل على تطبيقها وباشر بتنفيذ ذلك حتى تم الصلح .

وقيل إن رجلاً من أهل الشام قال شعراً يصف الحال التي أصبح عليها المسلمون بعد قتال صفين فقال:

وقد أودت الحرب بالعالمين	وأهل الحفائظ والنجدة
فلسنا ولستم من المشركين	ولا المجمعين على الردة
ولكن أناس لقوا مثلهم	لنا عدة ولهم عدة

(١) المنقري ، وقعة صفين ، ٤٨١ - ٤٤٨٤ .

(٢) المنقري ، وقعة صفين ، ٤٩٨ .

فإن تقبلوها ففيها البقاء وأمن الفريقين والبلدة
وإن تدفعوها ففيها الفناء وكل بلاء إلى مدة [(١)]

ثم أرسل أهل الشام رجلاً إلى الخليفة علي رضي الله عنه ، فجاء وهو يحمل المصحف وينادي بيننا وبينكم كتاب الله « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون »[(٢)] .

فقال أمير المؤمنين علي « نعم بيننا وبينكم كتاب الله أنا أولى به منكم قال: فجاءت الخوارج وكنا نسميهم يومئذ القراء [(٣)] فجاؤوا بأسيافهم على عواتقهم فقالوا: يا أمير المؤمنين ألا نمشي إلى هؤلاء حتى يحكم الله بيننا وبينهم ؟ فقام سهل بن حنيف الأنصاري رضي الله عنه فقال: « أيها الناس اتهموا أنفسكم ، لقد كنا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية ، ولو نرى قتالاً لقاتلنا، وذلك في الصلح الذي كان بين رسول الله ﷺ وبين المشركين ، ثم حدثهم عن معارضة عمر رضي الله عنه للصلح يوم الحديبية ونزول سورة الفتح على رسول الله ﷺ **فقال علي** رضي الله عنه : « **أيها الناس إن هذا فتح فقبل القضية ورجع ، ورجع الناس** »[(٤)] .

فاستند الخليفة في قبول الصلح إلى قصة الحديبية ، وأن النبي ﷺ أجاب قريشاً إلى المصالحة مع ظهور غلبته لهم ، وكما قبل المسلمون ذلك يوم الحديبية قبله سهل يوم صفين ودعا الخوارج إلى قبول الصلح والإقتداء برسول الله ﷺ

---

(١) المنقري ، وقعة صفين ، ٤٨٣ ، ابن أبي الحديد ، نهج البلاغة ، ٢٢١/٢ .

(٢) آل عمران ، الآية (٢٣) .

(٣) القراء: هم الذين كانوا يبالغون في التدين، ثم صار منهم الخوارج ، ابن حجر ، فتح الباري شرح الحديث (٧٣٠٨) .

(٤) ابن أبي شيبة ، المصنف ، ٣٣٦/٨ .
مسند أحمد ، مع شرحه الفتح الرباني ، ٤٨٣/٨ ، ١٤٥/٢٣ .

وأصحابه ، بل إن **سهل بن حنيف** رضي الله عنه أظهر اشمئزازه ممن يدعون إلى استمرار الحرب بين الأخوة واتهم إخلاصهم في ذلك ، وأن دعوة القتال ليست من أجل الدين أو الأمة وإنما هي استمرار للفتنة فقال : « أيها الناس اتهموا رأيكم على دينكم »[1] ثم صرح لهم بأن دعوتهم لاستخدام السيف بدل الحوار لم توصلهم إلى نتيجة وأنهم بعد كل هذا القتال ، لم يحسموا أمراً ولم يقدموا حلاً ، فضلاً عن ظهور نتائج هذا القتال في تصديع الصف وتوسيع الفتنة، لذلك لا خيار عن الحوار والصلح لأن ما سواه فتنة لا تُعرف عواقبها، فقال: « **ما وضعنا سيوفنا على عواتقنا إلى أمر إلا أسهلن بنا إلى ما نعرفه غير هذا الأمر** »[2] وتصدى **عثمان بن حنيف** رضي الله عنه للخوارج ودعاة الفتنة ، ولا سيما أن لديه تجربة عميقة في هذا استخلصها مما جرى في يوم البصرة وكيف تمكنت السبئية من جر المسلمين إلى حرب قاسية حينما رفضوا قبول دعوة الصلح فقال: « إنه لأمر منعه غير نافع – أي الصلح – وإعطاؤه غير ضائر ، وقد كلت البصائر التي كنا نقاتل بها ، وقد حمل الشك اليقين الذي كنا نؤول إليه ، وذهب الحياء الذي كنا نماري به ، فاستظلوا في هذا الفيء واسكنوا في هذه العافية ، فإن قلتم نقاتل على ما كنا عليه أمس ، هيهات هيهات ذهب والله قياس أمس وجاء غد ، فأعجب علياً قوله ، وافتخرت به الأنصار ، ولم يقل أحد بأحسن من مقالته »[3].

وبقيت فكرة الصلح هي السائدة في الكوفة بعد عودة أمير المؤمنين رضي الله عنه ولم يعارضها سوى الخوارج أما صلحاء أهل الكوفة وأخيارهم لم يتغير موقفهم من الصلح وهذا ما روي في الصحاح عن أبي وائل شقيق بن سلمة قال: « لما قدم سهل بن حنيف من صفين ، أتيناه نستخبره فقال: اتهموا الرأي فلقد رأيتني يوم

---

(١) البخاري ، مع شرحه فتح الباري ، ك الاعتكاف بالكتاب والسنة ، ح (٧٣٠٨) .

(٢) المصدر نفسه ، وينظر المسند ، مع شرحه الفتح الرباني ، ٤٥٣/٨ ، ١٤٥/٢٣ .

(٣) الإمامة والسياسة، ٩٩/١ .

أبي جندل[1]. ولو أستطيع أن أردّ على رسول ﷺ أمرًا أمره لرددت ، والله ورسوله أعلم ، ما وضعنا أسيافنا على عواتقنا إلا أسهلن بنا إلى أمر نعرفه قبل هذا الأمر ما نسد منها خُصماً إلا تفجر علينا خُصم ، ما ندري كيف نأتي له »[2] .

وسئل أبو وائل: « هل شهدت صفين ؟ فقال: نعم وسمعت سهل بن حنيف يقول: فذكر الحديث ، ثم قال: **شهدت صفين وبئست صفين** »[3].

وتقدم ذكر هذه الشواهد في مبحث تصور الصحابة للفتنة ، والمقصود بذكرها هنا إظهار رغبة أهل الكوفة في الصلح وأنه لم يكن مطلباً شاميًا فقط ، وبيان أن الصالحين والعلماء لم يسرهم حضور صفين ، لأنهم عدّوها حرب فتنة ولم تجر للمسلمين نفعًا .

وفي هذه الأحاديث الصحيحة رد على دعاة الفتنة ، ومبغضي الصحابة الذين يضعون الأخبار المكذوبة ، ويصنعون الأشعار وينسبونها إلى أعلام الصحابة والتابعين الذين شاركوا في صفين ؛ ليظهروهم بمظهر المتحمس لتلك الحرب ليزرعوا البغضاء في النفوس ويعملوا ما في وسعهم على استمرار الفتنة .

كما يتضح في هذه الأحاديث بطلان القول بأن رفع المصاحف ما هو إلا خديعة ابتدعها عمرو بن العاص رضي الله عنه ويظهر كم كانت الخوارج تخشى من عمرو بن العاص لحسن تدبيره وسداد رأيه وحرصه على الأمة ، ولمعرفته العميقة بهم وبمقاصدهم التي يخططون لها

---

(١) أبو جندل: اسمه العاص بن سهيل بن عمرو القرشي العامري ، أسلم بمكة فطرحه أبوه بالحديد ، فجاء يوم الحديبية إلى رسول الله ﷺ ، بعد إمضاء الصلح، فرده النبي مع أبيه فتكلم عمر رضي الله عنه في ذلك، ثم تبين للمسلمين أن الخير في الصلح وهذا ما استشهد به سهل بن حنيف في صفين ، ينظر : ابن عبد البر الاستيعاب ١٦٢١/٤.

(٢) البخاري ، مع شرحه فتح الباري ، (٤١٨٩) ، الساعاتي، الفتح الرباني ، ٥٢٣/٧، البلاذري، أنساب الأشراف ، ١٢١/٣ ، العمري ، الخلافة الراشدة ، ٥٢٩ .

(٣) البخاري ، مع شرحه فتح الباري، ك الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب (٧) ح (٧٣٠٨) .

منذ أن كان والياً على مصر في عهد عثمان رضي الله عنه لذلك بقي هدفاً لبهتانهم وإشاعاتهم.

أما ما يروج له مبغضو الصحابة ، بأن رفع المصاحف جاء بسبب خوف معاوية وعمرو من الهزيمة ، فهذا باطل ولا يمكن قبوله لعدة أسباب منها:

ـ **أن أعداء الصحابة لا يعملون بنصوص القرآن** ، لأن القرآن رُفع لهم في يوم البصرة بأمر من أم المؤمنين الصديقة رضي الله عنها وحقها ومقامها في نفوس المؤمنين أعظم من مقام معاوية وعمرو رضي الله عنهما ، لكنه لم يوقف زحفهم ولم يشفع عندهم القرآن ولا حرمة أم المؤمنين شيئا في ذلك .

ـ بل إنهم لم يكتفوا بذلك حتى جعلوا المصحف هدفاً لسهامهم ، فقتلوا حامله الزاهد قاضي البصرة كعب بن سور، ثم جعلوا من هودج أم المؤمنين هدفاً لسهامهم حتى أصبح كالقنفذ لكثرة ما أصابه منها وأم المؤمنين تذكرهم بالله والدار الآخرة وهم لا يزدادون إلا إصراراً على الفتنة ، فكيف يسمعون لدعوة عدوهم اللدود عمرو بن العاص كما يزعمون لو لم يكن الصلح رغبة جامحة عند أهل الكوفة ؟ .

ـ فلو كانوا يُجلّون القرآن لأجلّوا حملته ولا سيما أم المؤمنين وقاضي البصرة لأنهما لا يتهمان ، على الدعوة إلى الصلح والحرص على حقن دماء المسلمين .

ـ وكما أنهم عصوا أمير المؤمنين علياً رضي الله عنه عندما أنشبوا القتال يوم البصرة فإنهم حاولوا عصيانه يوم صفين لكنهم لم يتمكنوا من تدبير أي حدث يكون سبباً يتسترون به لاستمرار القتال ، على الرغم من محاولات الأشتر المستميتة في ذلك وزعمه أنه يريد الاستمرار في القتال لأنه قد اقترب من النصر ورأى الظفر ، لكنه فشل هذه المرة في إنفاذ خديعته لأمرين :

الأول: قوة جيش الشام الذي كان على رأسه قادة محنكون ولا سيما عمرو ومعاوية رضي الله عنهما .

الثاني : انكشاف أمره في جيش الكوفة الذي ظهر في قول الأشعث بن قيس له :

« إنـك والله ما رأيت ظفراً »[1] وذلك عندما قال لهم أجيب إلى الصلح عندما اقتربنا من الظفر .

ــ فرفع المصاحف في صفين كان عملاً رائعاً ، توج باستجابة أمير المؤمنين السريعة دون أي تردد ، فما إن شاهد المصحف مرفوعاً حتى أجاب إليه بل قال: « نعم أنا أولى بكتاب الله منهم »

ــ ولهذا فإن هذا الموقف يعد أهم حدث في صفين، لما جرّ على المسلمين من منافع الصلح وحقن الدّماء، الذي أثلج صدور المؤمنين ورفع رؤوس المجاهدين ووصل كل الجسور والروابط التي قطعها الغوغاء والمنافقون ، منذ أن تطاولوا على أمير المؤمنين الشهيد عثمان رضي الله عنه.

ــ ونتيجة لذلك عادت الأمة إلى صحوتها وأنجزت بعد فترة وجيزة وحدتها بعد أن صحت من هول المصاب الذي طعنها به السبئية والغوغاء الذين سفكوا الدم الحرام دون وجه حق .

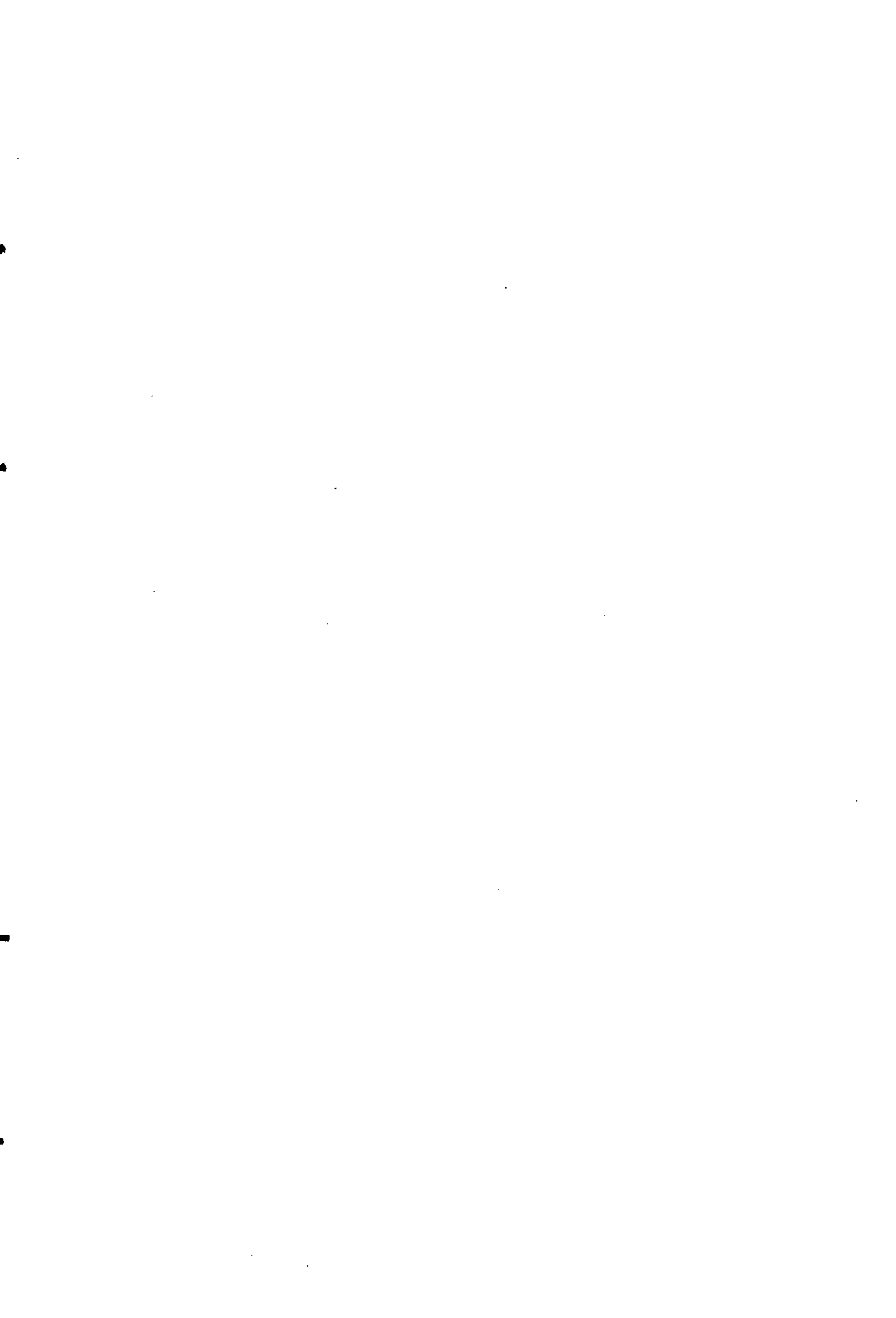
ــ ولو لم يكن أهل الشام وأهل الكوفة قد أحسوا بخطورة ما يقادون إليه من استمرار الفتنة ، لما تمسكوا بدعوة الإصلاح التي أبطلوا بها الحرب .

ــ ولعل ذلك كان بداية لعزيمة أمير المؤمنين علي رضي الله عنه في العمل على معالجة معضلتهم وطمس دعوتهم ، فتتبعهم بإقامة الحجة والدليل عليهم، ومن أصر على بغيه منهم جرد فيهم السيف ، لأنه رأى أنهم هم الأخطر على عقيدته وعلى خلافته وعلى أمته .

---

(١) الطبري ، تاريخ، ٦/٦ .

الفصل السابع



التحكيم

التحكيم في اللغة:

يقال حاكمه إلى الحاكم دعاه وخاصمه ، وحكّمه في الأمر تحكيمًا أمره أن يحكم فاحتكم ، والاسم منه: الأحكومة والحكومة والحاكم اسم من أسماء الله تعالى . والمحكم بفتح ؛ الكاف وكسرها المنصف من نفسه ورجل محكم مجرب، منسوب إلى الحكمة .

وقيل للحاكم بين الناس حاكم ، لأنه يمنع الظالم من الظلم [(١)].

والحكم : من قولهم فلان حكم بيننا أي يرد المبطل إلى الحق[(٢)] .

والتحكيم في الإصطلاح: هو تولية الخصمين حاكماً يحكم بينهما والمراد بالخصمين هو الفريقان المتخاصمان ويشمل ما لو تعدد الفريقان[(٣)].

ولما كان الفريقان في صفين ، اتفقا على التحكيم فيما بينهما، والرضاء بما في كتاب الله تعالى من أحكام بين المسلمين .

فرضي أمير المؤمنين ﷺ وأهل الكوفة بأبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري حكمًا عنهم ، ولم يعارض عليه من أصحاب أمير المؤمنين سوى شرذمة السبئية الذين عارضوا أصلا على الصلح وردوا المصاحف فلم يعتد بمعارضتهم لأنها مخالفة لمصلحة جماعة المسلمين ، وتدعو إلى استمرار الفتنة وأن يقتل المسلمون بعضهم بعضاً .

وكل ما يروى عن عدم رغبة أمير المؤمنين بتحكيم أبي موسى فهو روايات موضوعة هدفها منع الصلح لأنه أخطر ما يخشونه لما في أعناقهم من دماء

---

(١) الفيروز آبادي ، القاموس المحيط ، مادة حكم ، ابن منظور ، لسان العرب ، مادة حكم .

(٢) ابن دريد ، الاشتقاق ، ١٤٧/٧٥ . وينظر: الدوري ، عقد التحكيم في الفقه الإسلامي ، ١٩ .

(٣) ينظر: الدوري ، عقد التحكيم في الفقه الإسلامي ١٩ .

المسلمين ولما في ضمائرهم من حقد على الأمة يجعلهم لا يطيقون أن يروا لها جمعاً دون أن يسعوا إلى تفريقه ، ولا إمامًا دون أن يعملوا على تشويه سمعته وطمس محاسنه .

ـ وكان أبو موسى ﷺ رجلاً تقياً ، ثَقِفًا فقيهاً عالماً ، أرسله النبي ﷺ إلى اليمن مع معاذ ، وقدّمه عمر وأثنى عليه بالفهم [(١)]، وكان أحد الولاة المعتمدين والقادة الفاتحين والقضاة العادلين ، محبًا للسلم مؤثراً للعافية بين المسلمين داعيةً للصلح مبغضًا للفتنة ، لذلك كان عُرضة لحملات التشويه والتزوير والتلفيق التي شنتها عليه الخوارج السبئية وأذنابها ، فلا يكاد يخلو كتاب من كتب التاريخ التي تتطرق لمسألة التحكيم إلا وفيها ما ينال من أبي موسى ﷺ الذي أدى مهمته بحِذق وذكاء وهدوء أسهم في تجنيب الأمة جولة أخرى من الحرب الداخلية ، فأطفأ بذلك نار الفتنة التي كانت الخوارج السبئية تؤججها .

وكل ما صنعته السبئية من كتب ووضعته من روايات تناقض عدالة الصحابة وصدقهم وأمانتهم في مسألة التحكيم « **هذا كله كذب صراح ، ما جرى منه حرف قط ، وإنما هو شيء اخترعته المبتدعة ، ووضعته التاريخية للملوك فتوارثته أهل المجانة والجهارة بمعاصي الله والبدع** »[(٢)] .

ولو أمعن القارئ المنصف فيما كُتِب عن التحكيم لوجد فيه تناقضًا وتخليطًا عجيباً وكثيراً ما يتداول الرواية الواحدة من تلك الأباطيل ، كل من يكتب عن هذه المرحلة حتى يظن بعض القراء أن هذه الرواية صحيحة مشهورة ، لكثرة من يتحدث بها ، ولقلة من ينقدها أو ينبه عليها .

وطالما أنّ مثل هذه الروايات تصف بعض الصحابة رضي الله عنهم بارتكاب المحظورات فهذا كاف لردها لمعارضتها لعدالتهم ، فهل الصحابي يكذب ويغدر

---

(١) ابن العربي ، العواصم من القواسم ١٧٦.

(٢) المصدر نفسه .

ويرتشي ولا يؤدي الأمانة ؟ حاشاهم من ذلك ، وإذا قبلت مثل هذه الأوصاف على الصحابة الكرام فمن يُصدّق ويفي ويؤتمن ممن سواهم ؟! .

ـ واختار أهل الشام عمرو بن العاص حكماً عنهم ، وسيرة الخوارج مع عمرو معلومة وقديمة ، فقد كان هو هدفهم الأول في بداية حملتهم التخريبية داخل الخلافة الإسلامية ، فكانوا سبباً في عزله عن ولاية مصر كما سبق بيان ذلك فهم يبغضون عمراً أكثر من أبي موسى ، فمن الطبيعي أن تكون سيرته عرضة لكل اتهام منهم ومن خَلْفهم الرافض لإمامة الصحابة وقيادتهم .

ولكن عدالة عمرو وتولية النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعثمان له مانعة من قبول أي رواية تنال منه ، لأن وراءها خصوم الصحابة وأعداء الصلح .

فلما اتفقوا على الحكمين كتبوا كتاب التحكيم .

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ، قاضى علي عن أهل العراق ومن كان معه من شيعته، وقاضى معاوية على أهل الشام ومن كان معه من شيعته ، أنا ننزل على حكم الله وكتابه ، فما وجد الحكمان في كتاب الله فهما يتبعانه ، وما لم يجدا في كتاب الله ، فالسنة العادلة تجمعهما ، وهما آمنان على أموالهما وأنفسهما وأهاليهما والأمة أنصار لهما على الذي يقضيان عليه وعلى المؤمنين والمسلمين والطائفتان كلتاهما ، عليهما عهد الله وميثاقه أن يفيا بما في هذه الصحيفة على أن بين المسلمين الأمن ووضع السلاح وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه ليحكمان بين الناس بما في هذه الصحيفة ، على الفريقين جميعاً أن يرجعا سنة ، فإذا انقضت السنة إن أحبا أن يردا ذلك ردا ، وإن أحبا زادا فيهما ما شاء الله ، اللهم إنا نستنصرك على من ترك ما في هذه الصحيفة .

وشهد على الصحيفة من كل فريق عشرة أنفس[1].

(1) ابن حبان ، الثقات ، ٢/٢٩٣ ، البلاذري ، أنساب الأشراف . ٣/١٠٦ ، حميد الله ، الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، ٥٣٨ .

وهناك نصوص أخرى لوثيقة التحكيم رويت في عدة مصادر فيها إضافات على ما ذكره ابن حبان مثل:

إن توفي أحد الحكمين أو الأميرين فلأنصاره أن يختاروا من يرتضون مكانه من أهل العدل والصلاح ، على ما كان عليه من العهد والميثاق[1].

وواضح في هذه النصوص أن مسألة الخلافة لم تذكر في الوثيقة، لأنها مسألة مفروغ منها وقد انعقدت ببيعة أهل الحل والعقد من الصحابة وهم وإن اعتزل أكثرهم الفتنة ولم يشارك علياً في حروبه ، وقد يعارضه فيها ، لكن لم يذكر أن أحداً من الصحابة ﷺ اعترض على أهلية علي في الخلافة بما في ذلك معاوية لهذا لم تذكر في الوثيقة ، وإنما جاء التركيز فيها على ما يهم الناس آنذاك وهو تحقيق الأمن والسلم بين المتنازعين ، ومما يساعد على ذلك هو تأجيل لقاء الحكمين لإطالة فترة السلم لتهدأ النفوس وتستبين الأمور ، فأعطي الحكمان عاماً قبل اللقاء ولهما الصلاحية في تأجيل ذلك أكثر .

التركيز في الوثيقة على إحياء ما أحياه الكتاب والسنة وإماتة ما أماتا. والكتاب والسنة ، يدعوان إلى نبذ النزاع والخلاف ، والاعتصام بالوحدة والحرص على الجماعة قال تعالى: ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم إن الله مع الصابرين﴾ [2]. وقال عز وجل: ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واصبروا واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ﴾[3] وقال ﷺ : « من كره من أميره شيئاً فليصبر ، فإنه من خرج من السلطان شبراً مات ميتة جاهلية »[4] .

---

(١) حميد الله ، الوثائق السياسية ، ٥٣٨ .

(٢) سورة الأنفال ، الآية ٤٦ .

(٣) سورة آل عمران ، من الآية ، ١٠٣ .

(٤) البخاري ، مع شرحه فتح الباري ، ح (٧٠٥٣) .

وقال ﷺ: « من فارق الجماعة شبراً فمات ، إلا مات ميتة جاهلية » [1]. فهدف التحكيم الأساس هو الإصلاح بين الناس وإطفاء الفتنة ، وهذا الهدف تحقق بشكل أو بآخر ، بمعنى أنه لم تحصل مواجهة عسكرية شاملة بين أهل الكوفة وأهل الشام بعد صفين .

ولعل هذا أقصى ما يمكن أن يتوصل إليه الحكمان في تلك المرحلة ، ولو طرحت مسألة البيعة للخليفة ومسألة القصاص من قتلة الشهيد عثمان رضي الله عنه لأورثت خلافاً جديداً ولما توصلا إلى نتيجة ، فمدار لقاء التحكيم كان يدور حول التهدئة وترك الأمور التي سببت النزاع جانباً والحرص على استمرار الأمن وحقن دماء المسلمين ، أما العزل والتولية فهو متروك لأعلام الصحابة ، الذين يعلمون أن بقية رجال الشورى هما علي وسعد بن أبي وقاص ، وشهدها معهم عبد الله بن عمر ومعلوم أن سعداً وعبد الله قد اعتزلا الفتنة ، وقد طُلب منهما أكثر من مرة أن يشهدا شيئاً مما حصل من أحداث آنذاك فلم يُجيبا ، بمعنى لو قبل علي العزل فيما لو حصل ، لما قبل سعد وعبد الله الخلافة ، **ولم يكن أحد من الصحابة يقبل أن يتقدم على علي رضي الله عنه كما لم يقبل هو أن يتقدم على من كان قبله من الخلفاء رضي الله عنهم**

ولما تفرقت الأمور على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه بعد التحكيم كان يقول: « **لله منزل نزله سعد بن مالك - أبي وقاص - وعبد الله بن عمر ، والله لئن كان ذنباً إنه لصغير مغفور ، ولئن كان حسناً إنه لعظيم مشكور** » [2].

يصوب ما قاما به ويُحسنه ، لسلامة ذلك الموقف من دماء وأموال وأعراض المسلمين . ومع كل ما سبق في موقف عبد الله بن عمر من الفتنة ، فإن بعض الروايات تذكر أن أبا موسى الأشعري كان رأيه أن يوليه الخلافة لكن عمراً لم

---

(١) المصدر السابق ، ح (٧٠٥٤) .

(٢) الطبراني ، المعجم الكبير ، ٢٤٦/٧ ، الذهبي ، عهد الخلفاء الراشدين ، ٥٥٣ .

يوافقه [١]، والصحيح أن هذا لم يجر منه شيء ، وذلك أن ابن عمر لم يغير موقفه من اعتزال الفتنة ، وهو لا يقبل الخلافة ولا غيرها في زمن الفتنة ، ثم هو ممن بايع أمير المؤمنين وهو من أشد الناس وفاء للبيعة وكراهية للخلاف ، فإذا كان الأمر كذلك فإن ما يروى من أن عمرو وأبا موسى لما لم يتفقا على ابن عمر استبّا[٢] وافترقا ، غير صحيح أيضاً لأن الراجح أن هذه المسألة لم تُطرح برمتها وهي ليست من صلاحية الحكمين والله أعلم .

ومما يروى في خبر التحكيم أن معاوية رضي الله عنه شهد التحكيم[٣] أو كان قريباً منه. وأنه أرسل يزيد بن الحر العبسي إلى علي يعلمه نزوله دومة الجندل « ويسأله الوفاء ، فأتى علياً فحثه على الشخوص وقال: إن في حضورك هذا الأمر صلاحاً ووضعاً للحرب وإطفاء للثائرة – الفتنة – فقال علي رضي الله عنه : يا ابن الحر إني آخذ بأنفاس هؤلاء ، فإن تركتهم وغبت عنهم كانت الفتنة في هذا المصر أعظم من الحرب بينهم وبين أهل الشام ولكني أسرح أبا موسى فقد رضيه الناس وأسرح ابن عباس فهو يقوم مقامي ولن أغيب عما حضره ففعل ذلك فبعث إلى ابن عباس فأقدمه من البصرة وأقدم أبا موسى وكان توجه إلى بعض النواحي ، فقدما عليه فوجههما في خيل فأقام » [٤] .

ويبدو أن إقامة أمير المؤمنين هذه وفّرت فرصة لأعداء الإصلاح ليُشيعوا أنه قد ألغى التحكيم ورجع عنه [٥]، فأتاه الأشعث بن قيس فقال: « يا أمير المؤمنين إن الناس قد تحدثوا أنك رأيت الحكومة ضلالاً والإقامة عليها كفراً وتبت ، فخطب علي الناس فقال: من زعم أني رجعت عن الحكومة ، فقد كذب ومن رآها ضلالاً

---

(١) الصنعاني ، المصنف ، ٦٦٤/٥ .

(٢) المصدر السابق ، البلاذري ، أنساب الأشراف ، ١١٩/٣ .

(٣) المصدر نفسه ، ٤٦٥/٥ ، ١٢١/٣ ، العمري ، الخلافة الراشدة ، ٤٧٧ .

(٤) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ١٢١/٣ .

(٥) جعيط ، الفتنة ، ٢١١ .

فهو أضل منها ، فخرجت الخوارج من المسجد فحكّمت – أي قالوا لا حكم إلا الله فقيل لعلي إنهم خارجون عليك فقال : « **لا أقاتلهم حتى يقاتلوني وسيفعلون** » [1] .

ـ وهذا النص يوضح التزام أمير المؤمنين بالتحكيم الذي ظهر سروره به منذ أن رُفعت المصاحف لما في ذلك من حقن لدماء المسلمين وتعظيم لكتاب الله والعمل به ، حيث قال: « نعم أنا أولى به » على الرغم من معارضة الخوارج لدعوة الصلح وتحريضهم على استمرار القتال والفتنة بين المسلمين [2].

بل إن أمير المؤمنين كان متحمساً لكل ما فيه تأليف الصف ووحدة الكلمة اتضح ذلك عندما عاب عليه الخوارج تحكيم الحكمين فقال: « **جعل الله في طائر حكمين ولا أحكم أنا في دماء المسلمين ؟** » [3] وبلغ من اهتمامه بالصلح وثقته بأبي موسى ﵁ أن قال: « **يا أبا موسى أحكم ولو في حزّ عُنقي** » [4] ولعل موقف أمير المؤمنين من التحكيم يوضح مدى حبه لجماعة المسلمين وحرصه على السلم الذي أُمر أن يكون من أهله في قوله ﷺ: « **إن استطعت أن تكون السلم فافعل** » [5] .

كما يظهر المعاناة التي كان يعيشها مع جنده ، وما سببت له الخوارج السبئية والغوغاء من متاعب وأهوال صبر عليها ﵁ حتى أحلّوا بأنفسهم فأخذهم أخذة لم يخش فيها إلا الله تعالى كما سيتضح ذلك في موضعه . فقد كادوا أن يفسدوا عليه كل شيء حتى حزمه وعلمه وشجاعته ورأيه وسفاراته ووفوده .

وقد كان مما اتفق عليه في التحكيم أن يحضر كل حكم ومعه أربعمائة رجل فكان إذا كتب علي بشيء إلى وفده « أتاه أهل الكوفة فقالوا: ما الذي كتب به إليك

---

(١) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ٢١٨/٢ .

(٢) ابن أبي شيبة ، المصنف ٣٧٦/٨ ، البلاذري ، أنساب الأشراف . ١٣١/٣ .

(٣) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ١٠٨/٣ .

(٤) المصدر نفسه ، ١٠٧/٣ .

(٥) سبق تخريجه .

أمير المؤمنين ؟ فيكتمهم فيقولون له كتمتنا ما كتب به إليك إنما كتب في كذا وكذا».

ثم يجيء رسول معاوية إلى عمرو بن العاص فلا يُدرى في أي شيء جاء ولا في أي شيء ذهب ، ولا يسمعون حول صاحبهم لفظاً .

فأنّب ابن عباس أهل الكوفة بذاك وقال: إذا جاء رسول قلتم بأي شيء جاء ؟ فإن كتمتكم قلتم لم كتمتنا ؟ جاء بكذا وكذا، فلا تزالون توقفون وتقاربون حتى تصيبوا فليس لكم سر » [1].

ومما يروى أنه بحث به أبو موسى وعمرو رضي الله عنهما: أن أبا موسى أقرّ أن معاوية وآله هم أولياء عثمان رضي الله عنه ، دون المطالبة بدمه وقال: أولياؤه المهاجرون الأولون .

لذلك من نظر في نتائج التحكيم من زاوية أسباب الخلاف الرئيسية والتي من أهمها: إقامة الحد على قتلة عثمان رضي الله عنه ، ثم بيعة معاوية لعلي رضي الله عنهما قال: « **لم يتفق الحكمان على شيء** » [2] .

أي لم يُلزم الحكمان علياً بإقامة الحد على الخوارج السبئية ، ولم يُلزم معاوية ببيعة الخليفة ، لأن هاتين المسألتين متداخلتان لا يمكن الفصل بينهما ، ولصعوبة الوصول إليهما لما يترتب على ذلك من نتائج خطيرة .

وهذا ما يؤكد سعة أفق الحكمين وإدراكهما لأبعاد ما أوكل إليهما ، وإحاطتهما بما تمر به الأمة من مخاض عسير .

ولا يمكن اتهام الحكمين بالتقصير في جانب من جوانب المهمة التي أوكلت إليهما ، وذلك لما يتمتعان به من كفاءة وخبرة وأمانة ولما أوتيا من الحلم والعلم وحسن تأتي الأمور في كل ما عالجاه من قضايا في حياتهما ، ولو قال قائل :

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ١٤/٦ ، المنقري ، صفين ، ٥٣٣ .

(٢) ابن خياط ، تاريخ ، ١٩٢ .

إنهما أولى وأكفأ وأقـدر من توكـل إليـهما مهمة التحكيم هذه لكان مصيـباً .

أما الرواية التي تتهم هذين الصحابيين الجليلين الحليمين رضي الله عنـهما بالغدر والغفلة والبذاءة وأنهما تشاتما ، فهذا عبث وسخرية بعقول قراء التـاريخ الإسلامي وجرأة شديدة على الصحابة ﷺ ، ودعـوة إلـى الإعـراض عنـهم ونسبتهم إلى الجهل والحمية القبلية التي برأهم الله منها . وهذا ما تدعـو إليـه السبئية وتُشيعه منذ أن بدأت حملتها بعزل عمرو عـن ولايـة مصـر ، نتيجـة لبهتانهم المتعمد عليه وإلى هذا العصر ، حيث أفرزت فرقاً وطوائف لا هم لـها إلا التفتيش عن المعايب والنقائص وصياغتها في روايات مصنوعـة ثـم إلصاقـها بالصحابة ﷺ وأعلام المسلمين .

كما هو الحال فيما رواه **الطبري عن أبي مخنف** [١] **عن أبي جناب الكلبـي** [٢] وهما راويان متهمان على الصحابة في كل شيء ولا يصدقان في رواية تنال منـهم فضلاً عن أنهما وطبقتهما نشروا وأذاعوا كل أفكار وتهم السبئية للصحابـة بعـد صياغتها وتقديمها في قوالب تتخللها بعض الحقيقة أحياناً للإيحاء بصدقها ...

ورواية الطبري: « قال أبو مخنف: حدثني أبو جناب الكلبـي أن عمـراً وأبـا موسى حيث التقيا بدومة الجندل ... فإن عمراً رجل **غادر** ... وكان أبـو موسـى **مغفلاً** ... فتقدم أبو موسى فحمد الله عز وجل وأثنى عليه ثم قال: « أيها الناس، إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرها ولا ألمّ لشعثها من أمر قد أجمـع رأيي ورأي عمرو عليه ، وهو أن نخلع علياً ومعاوية ، وتستقبل هذه الأمـة هـذا

---

(١) لوط بن يحيى ، الإخبـاري ، التـالف المحترق الذي لا يوثق به في المسائل الخلافية وفيما يخص الصحابة، وقد سبق تعريفه .ولعل وصفه لهذين الصحابيين القائدين يؤكد ذلك ويظهره.

(٢) أبو جناب الكلبـي: هو يحيـى بن أبي حيـة (ضعفوه لكثرة تدليسـه) ابن حجر ، تقريب التهذيب ، رقم (٧٥٣٧) .

الأمر فيولوا منهم من أحبوا عليهم ، وإني قد خلعت علياً ومعاوية فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً .

ثم تنحى . وأقبل عمرو بن العاص فقام مقامه ، فحمد الله وأثنى عليه وقال: إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه ، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبي معاوية ، فإنه ولي عثمان بن عفان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه ... »[1] وذكر أنهما استبّا وتشاتما وضربا لبعضهما الأمثلة السيئة ثم انصرف أهل الشام إلى الشام وأهل الكوفة إلى الكوفة وركب أبو موسى راحلته ولحق بمكة .

وهذه الرواية المردودة بكل الموازين أسهم مبغضو الصحابة في نشرها حتى أصبحت أشهر رواية[2] في حادثة التحكيم ، **وحولوا حكمة أبي موسى إلى غباء وغفلة، وذكاء عمرو إلى غدر وخديعة .**

وهذا لا يستغرب من أعداء الصحابة السابقين أو اللاحقين ولكن الغريب كيف دونها المؤرخون المسلمون دون أن ينبهوا إلى بطلانها وزيفها واتهام رواتها ، ما دامت مخالفة لسيرة هذين العالمين القائدين ، ومناقضة لعدالة الصحابة ولما ورد عنهم من ثناء في الكتاب والسنة. فيما عدا ابن كثير الذي قال:« **ولا يصح هذا** »[3]

وليس بطلان هذه الرواية بسبب اتهام رواتها بالكذب ، ومخالفتها لعدالة الصحابة فقط ، وإنما لما فيها من المغالطات الظاهرة ، وأن أبا موسى وعمراً اتفقا على خلع علي ومعاوية رضي الله عنهما ، فخلعهما أبو موسى ، واكتفى عمرو بخلع علي دون معاوية ، **فالمغالطة هنا أن معاوية لم يكن يومئذ خليفة ، ولم يكن**

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ١٦/٦ ، اليعقوبي ، تاريخ ، اليعقوبي ، ١٩٠/٢ .
المنقري ، وقعة صفين ، ٥٤٦ ، المسعودي ، مروج الذهب ، ٤٠٩/٢ .
وينظر: الذهبي ، عهد الخلفاء الراشدين، ٥٥١ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٦٨/٣ .
البوطي ، فقه السيرة ، ٣٧٥ .

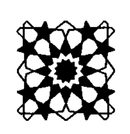
(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية . ٢٩٧/٧ .

(٣) ابن كثير ، البداية والنهاية . ٢٩٧/٧ .

يطالب بالخلافة فكيف يُخلع عن شيء لا يمتلكه ، فهذه هي نقطة المغالطة التـــي هزء بها مؤرخو الإفك المفترى ؛ فسخروا بجميع قُرّائهم وأوهموهم بـــأن هنـــاك خليفتين أو أميرين للمؤمنين ، وأن الاتفاق بين الحكمين كان على خلعـــهما معـــاً وأن أبا موسى الأشعري خلع الخليفتين تنفيذاً للاتفاق ، وأن عمراً خلع أحدهمـــا وأبقى الآخر خليفة خلافا للاتفاق . وهذا كله كذب وإفك وبهتان [١].

أي حتى لو اُفترض أن هذه الفرية التاريخية صحيحة فلا قيمة لما فعله عمـرو لأن معاوية ليس بخليفة ، فلو أثبته فهو لا يزيد على كونه والي الشام .

فهذا الإيهام والبهتان الذي يمارسه مبغضو الصحابة في تدوينـــهم التـــاريخي يسقط إذا تنبه المسلم إلى عدالة الصحابة وإنصافهم وأنهم لا يتعمدون الخطأ في كل ما يقومون به . وإلا فإن هذا الإيهام يؤدي إلى مخادعة القراء فيحصل الإرباك فـــي الفكر الإسلامي والتردد في الانتماء إليه وتبنيه واعتقاده ، مما يوجب على قـــارئ تاريخ الصحابة الحيطة والحذر ، والإعراض عن كل ما يعارض عدالتهم وصدقـهم وأمانتهم ، خشية أن يكون من الهالكين بخصومة أصحاب رسول الله ﷺ .



---

(١) ابن العربي ، العواصم من القواصم . ص ١٧٨ .

ترك القتال كان أولى وكلا الطائفتين من المؤمنين

ولما كان كل من الصحابة ﷺ يتخذ مواقفه بحسب ما يتوصل إليه من دليل على ذلك فقد تبيّن لهم بعد حرب صفين أن ترك القتال بين المسلمين كان أولى .

ـ وهذان الحسن بن علي وأسامة بن زيد وهما حبا رسول الله ﷺ كان رأيهما ترك القتال ، وقد اعتزل أسامة القتال وقعد في بيته ، وكان الحسن دائماً يشير على أبيه وأخيه بترك القتال . ولما صار الأمر إليه ترك القتال ، فأصلح الله به بين الطائفتين المقتتلتين .

ـ وعلي ﷺ في آخر الأمر تبيّن له أنّ المصلحة في ترك القتال أعظم منها في فعله ، مع كونه خليفة وهو أقرب إلى الحق من معاوية وأدنى إليه[1] .

ولأن الأدلة الصحيحة من الكتاب والسنة كانت تدعو إلى اجتناب الفتنة والقتال فيها ، وقد سبق ذكر حديث ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم وثبت في الصحاح أيضاً أن رسول الله ﷺ قد حرّض الحسن بن علي ﷺ على الصلح ومدَحَه في إتيانه وقبوله قال ﷺ .

ـ « **إنّ ابني هذا لسيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين** »[2].

فأصلح الله به بين أصحاب علي وأصحاب معاوية ، وفي هذا الحديث يتضح مديح رسول الله ﷺ للحسن ، وتسميته للطائفتين بالمسلمين وهذا يدل على أن الإصلاح بين هاتين الطائفتين هو الممدوح ، وأن ترك القتال هو المستحب والمحمود[3] .

وهذا ما ينطبق مع مقاصد الآية الكريمة في قوله تعالى : ﴿ وإن طائفتان من

---

(١) ابن تيمية ، منهاج السنة ، ٥/٥٣٥ ، ١/٥٣٧ ، ١/٥٤٢ .

(٢) البخاري ، مع شرحه فتح الباري ، ك الفتن، باب قول النبي ﷺ للحسن ، الحديث ، ح (٧١٠٩)، ابن تيمية ، منهاج السنة ، ٤/٥٤٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ٤/٤٥٠ ، ١/٥٤٢ .

المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ﴾.[١]وقوله عز وجل: ﴿ إنما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون ﴾[٢]. ولهذا لم يحصل في القتال مصلحة ، والأمر الذي يأمر الله تعالى به لا بد أن تكون مصلحته راجحة على مفسدته وقال حذيفة ﷺ : ما أحد تدركه الفتنة ، إلا أنا أخافها عليه إلا محمد بن مسلمة فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: « لا تضره الفتنة ». وقد اعتزل محمد بن مسلمة حتى خرج من المدينة إلى الربذة وقال: ما أريد أن يشتمل علي شيء من أمصاركم حتى تنجلي عما انجلت[٣] . فاتضح بذلك منهج النجاة من الفتنة .

فالإصلاح كان هو مقصد الصحابة في كل تحركاتهم ، كما أن الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة مدحت دعاة الإصلاح وأثنت عليهم ، ولا يوجد نص يمدح القتال بين المسلمين لا في الكتاب ولا في السنة وإنما جاءت النصوص فيهما تحث على الإصلاح والعفو والتسامح قال تعالى: ﴿ وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم﴾[٤] .

لذلك اعتزل عامة السابقين من الصحابة الفتنة ولم يدخلوا فيها ، ودعوا إلى القعود عنها واعتزالها كما فعل أبو موسى الأشعري ، وأبو مسعود البدري .

وأشار عبد الله بن عباس والحسن بن علي والمغيرة بن شعبة وغيرهم على أمير المؤمنين علي ﷺ بترك القتال والتأني .

« فلما لم يوافق الذين أشاروا عليه بالقعود ، جرى بينه وبينهم – أهل البصرة وأهل الشام – من الحروب ما قد علم ؛ **وقتل قتلة عثمان أهون مما جرى بالجمل وصفين ، فإذا كان في هذا اجتهاد سائغ ففي ذلك أولى** »[٥] .

---

(١) سورة الحجرات ، من الآية (٩).

(٢) سورة الحجرات ، الآية (١٠) .

(٣) ابن تيمية ، منهاج السنة ، ٥٤٠/١ ، ٥٣٨/١ .

(٤) سورة النور ، من الآية ، (٢٢) .

(٥) ابن تيمية ، منهاج السنة ، ٥١٦/٥ ، ٤٦٣/٤ .

أي إذا كان ترك قتل قتلة عثمان ﷺ جائزاً تجنباً للفتنة ، فإن ترك قتال أهل البصرة وأهل الشام أولى بالجواز ، لأنهم لم يرتكبوا إثماً ولم يسفكوا دماً حراماً ولأنّهم أكثر وأقوى من قتلة عثمان ومن تعاطف معهم من قبائلهم ومن غيرها .
والأخطار التي تترتب على قتالهم أكبر وأوسع على الإسلام والمسلمين . ولهذا فإن « القتال الذي كان في زمن علي لم يكن على الإمامة ، فإن أهل الجمل وصفين ... لم يقاتلوا على نصب إمام غير علي ، ولا كان معاوية يقول أنا الإمام دون علي ولا قال ذلك طلحة والزبير ، فلم يكن شيء من هذا القتال على قاعدة من قواعد الإمامة المنازع فيها ، ولم يقل أحد من الصحابة أنّ الإمام المنصوص عليه هو علي .
وإنما كان القتال قتال فتنة عند كثير من العلماء ، وعلي لم يقاتل أحداً على الإمامة ، ولا تخاصم اثنان في أنّ غيره أحق بالإمامة منه فضلاً عن القتال على ذلك »[1] .

ولما كان الأمر كذلك ، وأنّ النزاع لم يكن على الخلافة، تبيّن أنّ ترك القتال كان خيراً من فعله وهذا قول من يُحسن القول في الصحابة ﷺ ولا اعتداد في أقوال من سواهم ولا قيمة له .
إذ أنّ مسألة تأجيل معاوية بيعته لأمير المؤمنين ، وتأجيل أمير المؤمنين القصاص من قتلة عثمان ﷺ هي مسألة اجتهادية، وسبقت الإشارة إلى أقوال أمير المؤمنين في أنّ ما قام به في البصرة وصفين ، ما هو إلا اجتهاد لا عهد عنده فيه من رسول الله ﷺ.وكذلك قول عمار بن ياسر أنّ ما قاموا به من حروب هو اجتهاد لا عهد عندهم فيه من أحد وقوله عن أهل الشام« **دينا واحد وقبلتنا واحدة ودعوتنا واحدة ولكنهم قوم بغوا علينا فقاتلناهم ... وقال: لا تقولوا كفر أهل الشام** »[*].

---

(١) المصدر نفسه ، ٣٢٦/٦ ، بدران ، تهذيب تاريخ دمشق ، ٧٤/١ .   (٢) ابن تيمية ، منهاج السنّة ٤٦٦/٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٨٠/٧ ، ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ٣٠٨/٤ .

ومع انعدام النص في هذه المسائل جاز لمعاوية وعمرو ومن معهم من الصحابة أن يجتهدوا مع فضلهم وعلمهم وجهادهم .

وإن كان أمير المؤمنين هو الأقرب للصواب وهو الأدنى إلى الحق وهو الأولى بالطاعة فإنّ للآخرين ما يُجيز اجتهادهم ويشفع لهم في كل ما قاموا به. ولا حاجة للحديث عن مثل هذه المسائل لولا مشاهدة وسماع وقراءة كتب من يُكفر الصحابة ما عدا خمسة منهم ويُكفر أهل السنّة أيضاً لحسن اعتقادهم في جميع الصحابة ﷺ .

وقد ثبت قوله ﷺ :« لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان **دعواهما واحدة** »[1].

وقوله ﷺ: « لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان يكون بينهما مقتلة عظيمة **دعوتهما واحدة** »[2] .

قال ابن حجر: « **المراد بالفئتين جماعة علي وجماعة معاوية ، والمراد بالدعوة الإسلام على الراجح ، وقيل: المراد اعتقاد كل منهما أنّه على الحق** »[3] .

ثم إن قتال أصحاب معاوية معه لم يكن لخصوص معاوية ، أو لتقديمه على أمير المؤمنين وإنّما « لظنّهم أنّ عسكر علي فيه ظلمة يعتدون عليهم كما اعتدوا على عثمان ﷺ وأنّهم إنّما يقاتلون دفعاً لصيالهم عليهم ، وقتال الصائل جائز ولهذا لم يبدؤوهم بالقتال حتى بدأهم أولئك ... وطالب الحق من عسكر معاوية يقول: لا يمكننا أن نبايع إلا من يعدل علينا ولا يظلمنا ، ونحن إذا بايعنا علياً ظلمنا عسكره كما ظُلم عثمان »[4] .

لذلك قال: « أبو حنيفة ومالك وأحمد ، وغيرهم: لم يوجد شرط قتال الطائفة

---

(١) البخاري ، مع شرحه فتح الباري ، ك استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم ، ح (٦٩٣٥) .

(٢) المصدر نفسه ، ك الفتن ، ح (٧١٢١) .

(٣) ابن حجر ، فتح الباري ، شرح الحديث (٦٩٣٥) .

(٤) ابن تيمية ، منهاج السنّة ، ٤/٣٨٣ .

الباغية ؛ فإن الله لم يأمر بقتالها ابتداءً ، بل أمر إذا اقتتلت طائفتان أن يُصلح بينهما ثم إن بغت إحداهما على الأخرى قوتلت التي تبغي ، وهؤلاء قوتلوا ابتداءً قبل أن يبدؤوا بالقتال »[١] .

ولهذا قالت أم المؤمنين رضي الله عنها لما وقعت الفتنة: « ترك الناس العمل بهذا الآية: ﴿ فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل ﴾. فأمر بالإصلاح بعد قتال الفئة الباغية ، كما أمر بالإصلاح إذا اقتتلتا ابتداء. وهو كما قالت أم المؤمنين رضي الله عنها ، فإنهما لمّا اقتتلتا لم يُصلح بينهما ، ولو قُدّر أنه قوتلت الباغية فلم تُقاتل حتى تفيء إلى أمر الله ، ثم أصلح بينهما بالعدل ، والله تعالى أمر بالقتال إلى الفيء ، ثم الإصلاح ، لم يأمر بقتال مجرد ، بل قال: « فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله » .

وما حصل قتال حتى تفيء إلى أمر الله ، فإن كان ذلك مقدوراً فما وقع ، وإن كان معجوزاً عنه لم يكن مأموراً به[٢] .

أي أنّ ما حصل من القتال والإصلاح في الفتنة لم يكن موافقاً لما أمرت به الآية الكريمة .

فلو قُدّر أن طائفة بغت على طائفة ، وأمكن دفع البغي بلا قتال لم يجز القتال وكثيراً ما تثور الفتنة إذا ظلم بعض طائفة لطائفة أخرى ، فإذا أمكن استيفاء حق المظلوم بلا قتال لم يجز القتال .

وليس في الآية أنّ كل من امتنع من مبايعة إمام عادل يجب قتاله بمجرد ذلك وإن سمي باغياً لترك طاعة الإمام ، فليس كل من ترك طاعة الإمام يقاتل[٣] .

ومن **المغالطات التاريخية** الكبرى التناقض الذي يتبناه الذين يجهلون مقام

---

(١) المصدر نفسه ، ٣٩١/٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ٤٢٥/٤ .

(٣) ابن تيمية ، منهاج السنة ، ٤٢٥/٤ .

الصحابة ﷺ في الدين والعقيدة الإسلامية ، والذي يكاد أن يطابق موقف مبغضي الصحابة ، فيعظمون الأمر على من قاتل أمير المؤمنين علياً ﷺ ، ويمدحون قاتل أخيه الخليفة عثمان ﷺ ، مع أنّ عثمان كان خليفة اجتمع المسلمون على بيعته وفي مقدمتهم علي بن أبي طالب ﷺ ، ولم يقتل مسلماً ولم يرتكب حداً وصبر حتى قُتل مظلوماً شهيداً من غير أن يدفع عن نفسه ، مبالغة في إقامة الحجة على الظالمين أعداء أصحاب رسول الله ﷺ.

أما أمير المؤمنين علي ﷺ فإنه « بدأ بالقتال أصحاب معاوية ولم يكونوا يقاتلونه ولكن امتنعوا من بيعته ، فإن جاز قتال من امتنع عن بيعة الإمام الذي بايعه نصف المسلمين أو أكثرهم أو نحو ذلك ، فقتال من قاتل وقتل الإمام الذي أجمع المسلمون على بيعته أولى بالجواز »[(١)] .

فإذا كان والي الشام باغياً بامتناعه عن البيعة والمطالبة بإقامة الحد على مرتكبيه ، فإنّ مقاتلة من قاتل الخليفة عثمان وقتله ، دون أن يكون لديه أي حجة يتأولها لذلك القتل المتعمد ، أولى من قتال الباغي المجتهد المتأوّل .

ثم إن معاوية لم يكن يُنافس على الخلافة من هو أولى بها منه وهو علي ﷺ ولا تسمى معاوية بأمير المؤمنين ولا سماه أحد بذلك إلى أن استشهد علي ﷺ «ولم يكن الذين مع معاوية يقولون أنه الإمام الخليفة وإنّ على علي وأصحابه مبايعته ، لأن توليته أصلح وهذا معلوم لعموم أهل العلم »[(٢)]، ومن أجاز قتال معاوية وأهل الشام قال: إنّهم بغاة والبغي ظلم « فإن كان مجرد الظلم مبيحاً للقتال فلأن يكون مبيحاً لترك المبايعة أولى وأحرى ، فإن القتال أعظم فساداً من ترك المبايعة بلا قتال »[(٣)] .

---

(١) ابن تيمية ، منهاج السنة ، ٤٥٨/٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ٣٣٠/٦ ، ٤٦٣/٤ ، ٥١٥/٤ ، ابن حبان ، الثقات ، ٢٨٤/٢ .

(٣) المصدر نفسه ، ٤٦٣/٤ .

ومما يجب الوقوف عنده في مفهوم **الطائفة الباغية** ، فهم الآية القرآنية التي أشارت إلى ذلك المفهوم ، والتي ظهر فيها أن قتال الطائفة الباغية مشروط بالقدرة والإمكان ، إذ ليس قتالهم بأولى من قتال المشركين والكفار .

فقد تكون المصلحة المشروعة أحيانا هي التأليف بالمال والمسالمة والمعاهدة كما فعله النبي ﷺ غير مرة والإمام إذا اعتقد وجود القدرة ولم تكن حاصلة كان الترك في نفس الأمر أصلح ، ومن رأى أن هذا القتال مفسدته أكثر من مصلحته **علم أنه قتال فتنة** ، فمن علم أن هذا قتال الفتنة الذي تر كه خير من فعله لم يجب عليه أن يعدل عن نص معين خاص ، إلى نص عام مطلق في طاعة أولي الأمر ولا سيما أن الله تعالى أمر عند التنازع بالرد إلى الله ورسوله[1] قال تعالى: ﴿ فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ﴾[2] .

فالبغي في قوله تعالى: ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلا أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ﴾[3] .

إنما هو أمر لسائر المؤمنين بقتال الفئة الباغية ، فليس في الآية أمر لأحدهما بأن تقاتل الأخرى ، وأن القتال الذي قام به أمير المؤمنين علي رضي الله عنه لم يكن مأمورا به، بل كان تركه أفضل ، أما إذا قاتل لكون القتال جائزا أو لكونه مجتهدا فيه، فهنا الكلام في وجوب القتال معه للطائفة الباغية أو الإمساك عن القتال في الفتنة ، هو موضع تعارض الأدلة واجتهاد العلماء والمجاهدين من المؤمنين[4]. وكل مجتهد مأجور فمن أصاب الحق له أجران ومن لم يصب الحق فله أجر واحد ما دام

---

(١) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ، ٤/٤٤٢ .

(٢) سورة النساء ، من الآية (٥٩) .

(٣) سورة الحجرات ، الآية (٩) .

(٤) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ، ٤/٤٤٢ .

الهدف واحداً ونية العمل خدمة الدين. والمتأوّل المخطئ مغفور له بالكتاب والسنة قال تعالى: ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾[1] .

وقد أمر النبي ﷺ بقتال الخوارج ، قبل أن يقاتلوا كما سيتضح ذلك بعد قليل . في مثل قوله ﷺ: « أينما لقيتموهم اقتلوهم فإن في قتلهم أجر ». أما قتال أهل البغي فإن الله تعالى قال فيهم: ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا **فأصلحوا بينهما** ﴾.

فلم يأمر سبحانه وتعالى بقتال الباغية ابتداء ، ولكن إذا اقتتلوا أمر بالإصلاح بينهم ثم إن بغت الواحدة قوتلت ، لأن القرآن الكريم نص على أخوّتهم مع وجود الإقتتال بينهم ، قال تعالى: ﴿ إنّما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ﴾ فالباغي قد يكون متأولاً معتقداً أنه على حق أو غير ذلك. ولا يوجد من ينزه معاوية رضي الله عنه ولا من هو أفضل منه من الذنوب فضلاً عن تنزيههم عن الخطأ في الاجتهاد[2] .

والبغي لا يقدح في الإيمان ولا يمنع المؤمن الباغي الجنة، فكيف إذا كان البغي بتأويل لأمور قائمة ولدفع أذى أناس ثبت أذاهم لله ولرسوله وللمؤمنين ؟ .

وحتى من « تعمّد البغي فهو ذنب من الذنوب والذنوب يُرفع عقابها بأسباب متعددة كالتوبة والحسنات الماضية والمصائب المكفرة وشفاعة النبي ﷺ ودعاء المؤمنين وغير ذلك »[3] .

الخلاصة في ذلك أن ما حصل من قتال بين المسلمين بعد استشهاد عثمان رضي الله عنه هو قتال فتنة اعتزله أكثر أكابر الصحابة، ولم يشاركوا به ولم ينكر عليهم أمير المؤمنين علي رضي الله عنه .

ـ وأن الفئة التي باشرت قتل عمّار ورغبت به هي الفئة الباغية ، ولا يُعمم

---

(١) سورة البقرة ، من الآية (٢٨٦) ، ابن تيمية ، منهاج السنة ، ٤٥٨/٥ .

(٢) ابن تيمية ، منهاج السنة ، ٤٥٤/٤ ، ٣٨٥/٤ ، مجموع الفتاوى ، ٥٦/٣٥ .

(٣) منهاج السنة ، ٣٩٣/٤.

ذلك على من لا يعرف عمّار ولا يرغب في قتله ، ولم يسمع بحديث عمار « تقتله الفئة الباغية » .

ــ وأن أمير المؤمنين ﷺ كان هو الخليفة الذي لا منازع له على منصب الخلافة من المسلمين كافة .

ــ وأنه في ذلك القتال كان هو الأقرب إلى الحق والأولى به لقوله ﷺ: «تمرق مارقة عند فرقة من المسلمين يقتلهما **أولى الطائفتين بالحق** »[1] .

ــ وقوله ﷺ: «**تكون أمتي فرقتان** فتخرج من بينهما مارقة **يلي قتلهم أولاهم بالحق** »[2] .

ــ وقوله ﷺ في حديث ذكر فيه قوماً: « يخرجون على فرقة مختلفة يقتلهم **أقرب الطائفتين من الحق** »[3] .

ــ وهذه الأحاديث تُبين أنّ المارقين عن الحق فئة ثالثة من غير محبي علي ومعاوية رضي الله عنهما .

ــ وأول ما يظهر في مثل هذه الأحاديث والآيات التي سبقتها هو إثبات الإيمان للطائفتين ، والشهادة لهما بسلامة النية ، وأنهم جميعاً يطلبون الحق إذ أن هدف الطائفتين خدمة الدين والدفاع عنه ، فدعوتهما واحدة، وهما فرقتان من أمة محمدﷺ كلاهما على الحق والهدى وإن كان بعضهم أقرب إلى ذلك من بعض .

ــ وأن قتال البصرة وصفين كان قتال فتنة ، لم يكن مقصد الأطراف فيه القتال وإنما كان هدفهم الأول إقامة الصلح بين المسلمين حتى حدثت أسباب خارجة عن إرادة الطرفين أدّت إلى القتال ، وأنّ أمير المؤمنين ﷺ ، لم يكن مسروراً

---

(١) مسلم ، صحيح مسلم ، ك الزكاة ، باب ذكر الخوارج وصفاتهم ، ح (١٧٦٧) .

(٢) المصدر نفسه ، ح (١٧٦٨) ، (١٧٦٩) .

(٣) المصدر نفسه ، ح (١٧٧٠) .

بنتائج ذلك القتال ولا بحصوله بل كان متألماً متوجعاً ظهر ذلك في أقواله وفي ما قام به من توقف عن أسر أحد ممن قاتله أو استحلال ماله أو اتباع من أدبر عنه أو الإجهاز على الجرحى ممن قاتله .

ــ بعكس ما حصل من سروره بقتال الخوارج[1] في النهروان وذلك لما ثبت من فضل لمن يقاتلهم ، بل إنه سجد شكراً لله تعالى الذي أكرمه بقتالهم . أما تألمه وتمنيه الموت وأنه لم يشهد ما حصل من قتال بين المسلمين في يوم البصرة الذي ذهب فيه الشهيدان طلحة والزبير أو صفين التي أريق فيها الكثير من دماء المسلمين ، فكلّه ظاهر وسبق الحديث عنه في مواضعه .

ــ كما أن أمير المؤمنين لما رجع من صفين تغيّر كلامه ورؤيته للأحداث حتى قال رضي الله عنه: «**لا تكرهوا إمارة معاوية فلو قد فقدتموه لرأيتم الرؤوس تتطاير عن كواهلها**»[2]. وروي أنّ علياً قال: « **لا تكرهوا إمارة معاوية والذي نفسي بيده ما بينكم وبين أن تنظروا إلى جماجم الرجال تندر عن كواهلها كأنها الحنظل إلا أن يفارقكم معاوية** »[3] .

وقوله : « **إن إمرته سلم وعافية** »[4] .

ــ وروي أنه سئل عن إمارة معاوية فأجابهم بهذه الأجوبة وقال لهم: « إن معاوية سيظهر عليكم ، قالوا: أفلا نقاتله ؟ قال: لا »[5] وفي رواية قال علي رضي الله عنه «إن معاوية سيظهر عليكم قالوا : فلم نقاتل إذاً ؟ قال : لا بدّ للناس من أمير بر أوفاجر»[6]

---

(١) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ، ٥٤/٣٥ . (٢) ابن تيمية، الفتاوى، ٥٤/٣٥ ، ابن أحمد، السنّة، ٢٢٣.

(٣) ابن تيمية ، الفتاوى ، ٥٤/٣٥ ، ابن أحمد ، السنّة ، ٢٢٣ .

(٤) الإمامة والسياسة ، ١٢٤.

(٥) ابن أحمد ، السنة ، ٢٢٣ ، الإمامة والسياسة ، ١٢٤ .

(٦) الهيثمي ، مجمع الزوائد ، ح (١٤٣٦٦) ، ٧٧٩/٥.

ـ وكان يمدح مواقف الصحابة الذين لم يشاركوا يوم البصرة ويـوم صفين وكان يقول لليالي صفين: « **لله در مقام قامه عبد الله بن عمر وسعد بن مالك ، إن كان براً إن أجره لعظيم ، وإن كان إثماً إنّ خطره ليسير** »[1] .

ـ وكان يقول: « يا حسن يا حسن ما ظنّ أبوك أن الأمر يبلغ إلى هـذا ودّ أبوك لو مات قبل هذا بعشرين سنة »[2]. وقوله رضي الله عنه عن البغي: « إن قوماً زعموا أن البغي كان منا عليهم ، وزعمنا أنه منهم علينا وإنما اقتتلنا على البغي ولم نقتتل على التكفير »[3] .

ـ والإشارات التي تشير على كراهية أمير المؤمنين لما جرى من قتال بين المسلمين كثيرة ومبثوثة في كثير من الكتب التي تحدثت عن تلك المرحلة يراها المنصفون المحبون لعلي ومعاوية رضي الله عنهما ولجميع الصحابة والعاملين على وحدة الأمة وسلامتها ، ويطمسها المبغضون للصحابة والعاملون على فرقة الأمة وإثارة الفتنة بين أبنائها .

ـ ومما يشفع لمعاوية ويشير إلى عذره فيما حصل من امتناعه عن البيعة فضلاً عمّا سبقت الإشارة إليه ، أنّه لم يكن متعمّداً ذلك وأنه كان جازماً باعتقاده أنه ماضٍ في كل ما قام به على الحق الذي لا يجوز له غيره .

ـ كما أنّه لم يكن يختار القتال وكان من أحرص الناس على أن لا يحصل بين المسلمين وأن الأمة يقع فيها أمور بالتأويل والنية الصالحة ، ينال الدماء والأموال وغيرها فلا يقع على المتأول حرج في ذلك أو ضمان ولا يقدح ذلك في الإيمان .

ـ وقد ورد في الأحاديث الشريفة الصحيحة إشارات إلى ذلك في قوله ﷺ:

---

(١) ابن تيمية ، منهاج السنّة ، ٢٠٩/٦ ، مجموع الفتاوى، ٤٣٩/٤، ٥٤/٣٥، قال: وقد روي عن علي من وجهين أو ثلاثة. الهيثمي ، مجمع الزوائد، ٢٤٦/٧، الطبراني، المعجم الكبير، ٤٤٦/٧.

(٢) ابن تيمية ، منهاج السنّة ، ٢٠٩/٦.

(٣) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ٣٠٨/٤.

« لا تقوم الساعة حتى تقتتل طائفتان عظيمتان **دعوتهما واحدة** » وقوله ﷺ عن قتال الخوارج: « تقتلهما أدنى الطائفتين إلى الحق » و« أولى الطائفتين بالحق » و « أقرب الطائفتين إلى الحق » .

ـ فبيّن أن كل طائفة منهما تتعلّق بالحق، ولكن طائفة أمير المؤمنين أدنى إليه كما أثبت قرب طائفة معاوية إليه ، وأنهم غير ملومين على القتال نظراً لاجتهادهم وبما أن معاوية لم يخالف نصاً من القرآن أو السنة ، فإن موقفه لا يخرج عن بلب الاجتهاد وطرق الفقه .

ـ وحديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، قال: قال رسول الله ﷺ: « يا عبد الله بن عمرو كيف بك في حثالة من الناس قد مرجت عهودهم ومواثيقهم وكانوا هكذا وخالف بين أصابعه قال فما تأمرني قال: تأخذ بما تعرف وتدع ما تنكر وتعمل لخاصة نفسك وتدع الناس وعوام أمورهم ، ثم أخذ بيده وأقبل يمشي به حتى وضع يده في يد أبيه قال: أطع أباك فلما كان يوم صفين قال له أبوه يا عبد الله أخرج فقاتل ، فقال يا أبتا تأمرني أن أخرج فأقاتل وقد سمعت ما سمعت يوم عهد إليّ رسول الله ﷺ ما يعهد ، قال أنشدك الله يا عبد الله بن عمرو ألم يكن آخر ما عهد إليك رسول الله ﷺ أن أخذ بيدك فوضعها في يدي ثم قال أطع أباك قال بلى »[1]، أي أن عمرو استنبط من هذا الحديث أنه لا يأمر ابنه بمعصية لأن رسول الله ﷺ قال له أطع أباك ، ورسول الله ﷺ لا يأمر إلا بالمعروف والخير والصلاح .

ـ فهذه الأحاديث تثبت قرباً من الحق لمعاوية بعد أمير المؤمنين ، لكون فعله ناشئاً عن الاجتهاد المثاب عليه: «**ولما بايع الحسن معاوية لم يكن لمعاوية همّ إلا الذين هم بالنهروان ، وأن معاوية شارك علياً فيهم ، فهو بعد علي أقرب إلى الحق**

---

(١) الهيثمي ، مجمع الزوائد ، ٢٣٩/٧ . الهيتمي ، تطهير الجنان ، ٤٥ ، ٤٨ .

المقتضي لمدح كل منهما »[1]، ومعاوية أول ما بدأ به في عـــام الجماعـــة هـــو قتـــال الخوارج الذين خرجوا من قبل على أمير المؤمنين علي ، ثم جـــددوا نشـــاطهم لقتـــال المسلمين من جديد .

ـ وفي حديث عبد الله بن عمرو ، أنه قال لأبيه ولمعاوية أنا معكـــم ولســـت أقاتل لأنه توقف عما توصلا إليه من تأويل لموقفهما ، لهذا قال له معاوية فما بـــالك معنا ؟ فذكر له الحديث الذي أمره فيه رسول الله ﷺ بطاعة أبيه ما دام حياً ، ممـــا يؤكّد أن الجميع كان يتحرى الصواب في ما يتخذه من مواقف ، ومن علَم دقة نظر معاوية وعمرو، علم أنهما لم تصدر عنهما تلك الأفعال إلا بعد مزيد من التحـــري والبحث ، فلذلك عذرهم فيما فعلوه أئمة المسلمين سلفاً وخلفاً لأن علياً ومـــن معـــه عذرهم أيضاً .

ـ وحينئذ فلا مساغ لأحد من المسلمين في الإعتراض على أحد من الفئتين بل الواجب على كل مسلم أن يعتقد أن علياً هو الإمام الحق وأن كلاً من الفئتين معذور مثاب مأجور ، ومن تشكك في شيء من ذلك فهو ضال جاهل أو معاند فلا يُلتفـــت إليه ولا يعول عليه[2] .

ـ ومما يفصح عن عذر معاوية رضي الله عنه في توقفه عن البيعة أنّه روى عن النبي ﷺ أنه قال: « كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا رجل يموت كافراً أو يقتـــل مؤمنـــاً متعمداً »[3] .

ـ وهذا يبيّن أنّ معاوية نظر في أمر قتـــلة عثمان رضي الله عنه ، فعدّهم ممن ارتكب الكبيرة بحق الله تعالى بجرأتهم على الدم المسلم ، وبحق الأمة بقتلهم إمامها العـــادل

---

(١) الهيتمي ، تطهير الجنان ، ٧٦.

(٢) المصدر نفسه ، ٥٠ .

(٣) المصدر نفسه ، ٥١ .

المجاهد بغير سبب أو ذنب ، وأنّ القصاص من هؤلاء القتلة كان يعدّه واجب أخـوّة الدين وحق ذوي القربى بعضهم على بعض ، ومن ثم حق الأمة التي أصيبت فـــي أمنها ووحدتها وحريتها عندما اعتدي على خليفتها الـــذي قـــادها علـــى منـــهج نبيها ﷺ.



أمير المؤمنين علي والخوارج[1]
بعد صفين

المقصود بالخوارج هم القوم الذين لم يقبلوا بالتحكيم والدعوة إلى الصلح بين أهل الشام وأهل الكوفة ، ثم خرجوا على أمير المؤمنين علي ﷺ لما رجع من صفين، وكان ذلك أول ما ظهروا وأنكروا تحكيم الرجال بالقرآن ، ورجعوا على غير الطريق الذي جاؤوا منه ، إذ أخذوا طريق البَر على جانب شاطئ الفرات وعادوا وهم أعداء متباغضون يقطعون الطريق بالتشاتم والتضارب بالسياط يقول الخوارج: يا أعداء الله أدهنتم في أمر الله ، ويقول الآخرون: فارقتم إمامنا وفرّقتم جماعتنا وساروا حتى أصبحوا قريباً من الكوفة ، فارقه الخوارج فيما بين اثني عشر ألفاً وثمانية آلاف[2]، ونادى مناديهم: أن أمير القتال شبث بن ربعي التميمي وأمير الصلاة عبد الله بن الكواء اليشكري والأمر شورى بعد الفتح والبيعة لله عز وجل .

ونزلوا أرضاً يقال لها حروراء[3]، وقالوا لأمير المؤمنين: انسلخت من قميص ألبسكه الله واسم سمّاك به الله ، ثم انطلقت فحكّمت في دين الله ، ولا حكم إلا لله فلمّا بلغ علياً ما عتبوا عليه وفارقوه عليه ، أمر فأذّن مؤذن أن لا يدخل عليه رجل إلا رجلاً قد حمل القرآن فلما أن امتلأت الدار من قراء الناس ، دعا بمصحف إمام

---

(١) الخوارج: جمع خارجة أي طائفة وهم قوم مبتدعون سمّوا بذلك لخروجهم عن الدين وخروجهم على خيار المسلمين . ابن حجر ، فتح الباري ك استتابة المرتدين ، باب قتل الخوارج ، شرح الحديث (٦٩٣٠) .

(٢) الطبري ، تاريخ، ٦/١١، ٦/١٩، ابن كثير، البداية والنهاية، ٧/١٦٥، ابن الأثير، الكامل، ٣/٢٩٣.

(٣) حروراء: مشتقة من الريح الحرور وهي قرية خارج الكوفة وقيل موضع على ميلين منها ، نزل بها الخوارج على علي ﷺ فنسبوا إليها وسموا الحرورية ، ياقوت ، معجم البلدان ، ٢/١٣٨.

عظيم فوضعه بين يديه فجعل يصكه بيده ويقول: أيها المصحف حدّث الناس فناداه الناس فقالوا: يا أمير المؤمنين ما تسأل عنه إنما هو مداد في ورق ونحن نتكلّم بما روينا منه فماذا تريد قال: أصحابكم هؤلاء الذين خرجوا بيني وبينهم كتاب الله يقول الله تعالى في كتابه في امرأة ورجل: ﴿ وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما ﴾[١] .

فأمة محمد ﷺ أعظم دماً وحرمة من امرأة ورجل ، ونقموا عليّ أن كاتبت معاوية وكتبت علي بن أبي طالب ــ بدلاً من أمير المؤمنين ــ وقد جاءنا سهيل بن عمرو ونحن مع رسول الله ﷺ بالحديبية حين صالح قومه قريشاً فكتب رسول الله ﷺ بسم الله الرحمن الرحيم – فذكر القصة – والله تعالى يقول: ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ﴾.[٢]

فبعث إليهم عبد الله بن عباس ، قال عبد الله بن شداد – راوي الحديث – فخرجت معه حتى إذا توسطت عسكرهم فقام ابن الكوا فخطب الناس فقال: يا حملة القرآن هذا عبد الله بن عباس فمن لم يكن يعرفه فأنا أعرفه ممن يخاصم في كتاب الله بما لا يعرفه هذا ممن نزل فيه وفي قومه ﴿ بل هم قوم خصمون ﴾[٣]، فردوه إلى صاحبه ولا تواضعوه كتاب الله، قال بعضهم: والله لنواضعنه، فإن جاء بحق نعرفه لنتبعنه ، وإن جاء بباطل لنبكتنه بباطله فواضعوا عبد الله الكتاب ثلاثة أيام فرجع منهم أربعة آلاف كلهم تائب فيهم ابن الكوا حتى أدخلهم على علي الكوفة فبعث علي إلى بقيتهم فقال: قد كان من أمرنا ، وأمر الناس ما قد رأيتم فقفوا حيث شئتم حتى تجتمع أمة محمد ﷺ بيننا وبينكم أن لا تسفكوا دماً حراماً أو تقطعوا

(١) سورة النساء ، الآية (٣٥) .

(٢) سورة الأحزاب ، الآية، (٢١) .

(٣) سورة الزخرف ، الآية (٥٨) .

سبيلاً أو تظلموا ذمة ، فإنّكم إن فعلتم نبذنا إليكم الحرب على سـواء[1] ﴿ إنّ الله لا يُحب الخائنين ﴾[2]. ثم خرج إليهم أمير المؤمنين بعد ابن عباس ، فأطاعوه ودخلـوا معه الكوفة ، ثم أشاعوا أن علياً تاب من الحكومة ، ولذلك رجعوا معه وبلغه ذلـك فأنكره وقال: أبعد إيماني برسول الله ﷺ وهجرتي معه، وجهادي فـي سـبيل الله أشهد على نفسي بالكفر![3] .

وخطبهم ذات يوم ، فقال رجل من جانب المسجد ، لا حُكم إلا لله فقـام آخـر فقال مثل ذلك ، ثم توالى عدة يُحكّمون ، فقال علي: الله أكبر كلمة حق يلتمس بـها باطل ! أما إنّ لكم عندنا ثلاثاً ما صحبتمونا ، لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيـها اسمه ولا نمنعكم الفيء ما قامت أيديكم مع أيدينا ، ولا نقاتلكم حتى تبدؤونا ثم رجع إلى مكانه الذي كان فيه من خطبته[4] .

لذلك أجمعوا على الخروج ، فقال لهم زيد بن حصيـن « إنكـم إن خرجتـم مجتمعين أتبعتم ولكن اخرجوا آحاداً مستخفين ، فأما المدائن فإنّ بها مـن يمنعكـم ولكن سيروا حتى تنزلوا جسر النهروان ، وتكاتبوا إخوانكم من أهل البصرة قـللوا: هذا الرأي »[5] .

فخرجوا يتسللون إلى النهروان وكتبوا لمن هو على مثل رأيهم فـي البصـرة وغيرها ليوافوهم في النهروان ، فوافى إليهم من كان كتبوا إليه من أهل البصـرة وغيرها واجتمع الجميع بالنهروان وصارت لهم شوكة ومنعة ، وهم جند مستـقلون

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٨/٦ ، ١٣/٦. ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٩٤/٧ ، ابن حجر ، فتح الباري ، ك استتابة المرتدين ، شرح الحديث (٦٩٣٠) .

(٢) سورة الأنفال ، الآية (٥٨) .

(٣) ابن حجر ، فتح الباري ، ك استتابة المرتدين ، شرح الحديث (٦٩٣٠) .

(٤) الطبري ، تاريخ ، ١٨/٦، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٩٥/٧ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٦٩/٣.

(٥) المصدر نفسه ، ١٩/٦ ، ٣٠١/٧ ، ١٧٠/٣ ، وينظر: ابن خياط ، تاريخ ، ١٩٧.

وفيهم شجاعة ، وعندهم أنهم متقربون بذلك فهم لا يُصطلى لهم بنار [١]. **فقبـــتلوا عبد الله بن خباب بن الأرت بعد أن سألوه عن عثمان وعلي رضي الله عنهما فذكرهمـــا بخير فذبحوه ذبحاً وقتلوا امرأته وقتلوا غيرها من النساء**[٢] .

فلما قطعوا السبيل وأخافوا الناس[٣] وقتلوا بعض المسلمين[٤]، وقتلوا رســـول الخليفة إليهم، أجمع الناس على حربهم وعزم الخليفة على وضع حد لهذا الخطر[٥]. وكان قد جمع جيشاً للنظر في أمر أهل الشام ، فلما فعل الخوارج ما فعلوا لم يكـــن بحاجة إلى إعداد قوة جديدة ، بل كان على أتم الاستعداد لمواجهة أي طارئ فقـــدّم بين يديه **قيس بن سعد الأنصاري** ، وأمره أن يأتي المدائن فينزلها حتى يأمره بأمره وبعث إليهم قيس بن سعد يُطالبهم بإخراج القتلة وقطاع السبل من بينهم وينصحـــهم بالعودة إلى ما كانوا عليه قبل صفين ، وتساءل عن حجتهم في اتهامـــهم بالشـــرك واستباحة دماء المسلمين فأجابوه « أنّ الحق قد أضاء لنا فلسنا نتابعكم أو تأتونا بمثل عمر ، فقال قيس: ما نعلمه فينا غير صاحبنا ، فهل تعلمونه فيكم ؟ وقال: نشـــدتكم بالله في أنفسكم أن تهلكوها فإنّي لأرى الفتنة قد غلبت عليكم »[٦] .

وبعد مراسلة قيس بن سعد لهم ومناشدتهم ودعوتهم لمراجعة موقفهم ورفضهم لذلك ، حاول معهم **أبو أيوب الأنصاري** أن يستخرجهم مما وقعوا فيـــه فوعظـــهم وذكّرهم، وقال: « ليست بيننا وبينكم فرقة ، فعلام تقاتلونا ؟ فقالوا : إنا لو بايعنـــاكم اليـــوم حكّمتم غداً قال : فإنّي أنشدكم الله أن تعجلوا فتنة العام مخافة ما يأتي فـــي قابل »[٧] .

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ، ٣٠٠/٧.

(٢) الطبري ، تاريخ ، ٢٣/٦ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٣٠١/٧، المسعودي، مروج الذهب، ٤١٥/٢.

(٣) المصدر نفسه .

(٤) الطبري ، تاريخ ، ٢٣/٦ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٣٠١/٧.

(٥) المصدر نفسه .

(٦) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ١٤٤/٣ ، الطبري ، تاريخ ، ٢٤/٦ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٧٣/٣.

(٧) المصدر نفســه .

وقد أسهم بعض الصحابة في محاولة إعادتهم إلى الطاعة وترك المشاقّة فخرج إليهم **البراء بن عازب** وبقي معهم يحاورهم ويذكرهم ثلاثة أيام(١) فلم يستجيبوا له وأصرّوا على موقفهم المعارض للوفاق والصلح ، وتأويلهم الفاسد لأمر التحكيم وبهذا يكون الصحابة ﷺ قد استنفذوا كلّ ما في وسعهم لتجلية الحقيقة للخوارج وبيان بطلان ما ذهبوا إليه من تأويلات ، كل ذلك شفقة على المسلمين وحرصاً على وحدة الصف وتوحيد الكلمة ورأب الصدع ، لكنهم لم ينجحوا في ما قاموا به لما واجههم به الخوارج من عناد واستخفاف بمقام الصحابة وفقههم وعلمهم .

وأمام هذا الإصرار، عَلِم الصحابة أنّ الخوارج معاندون لا يُبالون بترغيب ولا ترهيب ولديهم من الغرور ما جعلهم يعتقدون في أنفسهم أنّهم هم أهل العلم والفهم والإخلاص ولما علم منهم الصحابة تعمّد الخروج والرغبة في إثارة الفتنة وأنّه من غير الممكن أن يحيدوا عن ذلك ، استحلّوا قتالهم دفعاً لأذاهم وطمساً لفتنتهم ولا سيما بعد أن ضمن لهم أمير المؤمنين حقوقهم المالية وحريتهم الفكرية وأن يسالمهم ما لم يسفكوا الدماء . فلما رفض الخوارج كل هذه العروض شارك بعض الصحابة في حربهم ممن لم يشارك في يوم البصرة ولا يوم صفين منهم: أبو سعيد الخدري الذي كان معتزلاً ، فشارك في حرب الخوارج بحماس شديد مع أمير المؤمنين وكان يقول: « لقتال الخوارج أحب إليّ من عدتهم من أهل الشرك »(٢) .

وممن شارك في قتالهم من الصحابة ولم يكن شارك فيما قبلها من أحداث الفتنة في البصرة وصفين أبو أيوب الأنصاري الذي أسهم في مفاوضتهم ومحاولة ردهم إلى الطاعة حتى إذا علم إصرارهم على الفتنة وشق الصف قاتلهم بشدة لدرء فتنتهم ، فكان على الخيل وكان على الرجالة أبو قتادة الحارث بن ربعي الأنصاري وعلى أهل المدينة قيس بن سعد الأنصاري وكان عبد الله بن عباس من القادة فضلاً

---

(١) الخطيب ، تاريخ بغداد ، ١/١٨٨ ، ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ١/١٥٥ .

(٢) الخطيب ، تاريخ بغداد ، ١/١٩٢ .

عن أمير المؤمنين فكان حضور الصحابة في حرب الخوارج واضحاً وفي مقدمة الصفوف ودون أي تردّد، فلما بدأت المعركة واستحر القتال في الخوارج ، رفع أبو أيوب راية أمان بأمر من الخليفة ، وناداهم فقال: « من جاء هذه الراية منكم ممن لم يقتل فهو آمن ومن انصرف منكم إلى الكوفة أو إلى المدائن وخرج من هذه الجماعة فهو آمن ، إنه لا حاجة لنا بعد أن نصيب قتلة إخواننا منكم في سفك دمائكم»[1]، وكان الخوارج يوم النهر أربعة آلاف فخرج منهم خمسمائة حتى نزلوا الدسكرة ، وخرجت طائفة متفرقين حتى نزلت الكوفة وخرج إلى علي رضي الله عنه منهم نحو مائة ، فكان الذين بقوا مع عبد الله بن وهب الراسبي أمير الخوارج ألفين وثمانمائة ، فتنادوا الرواح الرواح إلى الجنة وهاجموا جيش أمير المؤمنين فلم يلبثوا إلا قليلاً حتى أُبيدوا ولم ينجو منهم إلا القليل[2] .

وبعد انتهاء تلك الموقعة قسّم الخليفة ما في عسكرهم من السلاح والدواب ثم أمر بمداواة الجرحى ، ورد المتاع والعبيد والإماء إلى أهليهم[3] .

وبهزيمة هذه المجموعة من الخوارج انطفأت نارهم وذهب أكثر قادتهم وبذلك خفت أوارهم، ولكنّ الجمر بقي تحت الرماد فما تسنح فرصة إلا ويرفع من بقي منهم راية فتنة ، تؤرث بعدها شراً ، وكانت تلك الموقعة سنة (٣٨هـ)[4] .

---

(١) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ١٤٣/٣ ، الطبري، تاريخ، ٢٦/٦، ابن كثير، البداية والنهاية، ٣٠٢/٧.

(٢) المصدر نفسه ، ابن خياط ، تاريخ ، ١٩٧ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) الطبري ، تاريخ ، ٣٠/٦ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٧٦/٣ .

أسباب مشاركة الصحابة واندفاعهم في قتال الخوارج

كان الصحابة ﷺ على بيّنة من أمرهم ، فمن اعتزل منهم اعتزل عن علم وورع ، ومن قاتل منهم قاتل عن علم وورع ، فكان الإخلاص لله تعالى غايتهم والسير على هدي كتابهم وهدي نبيهم ﷺ أمنيتهم .

ـ وهذا هو الدافع وراء من شارك منهم في حرب الخوارج ، إذ أنّ رسول الله ﷺ أشار إلى فضل من يجتنب الفتنة بين المسلمين وهذا ما سبقت الإشارة إليه في يوم البصرة ويوم صفّين ، وكما أشار إلى ذلك ﷺ، أشار إلى فضل من يقاتل قوماً أعطى رسول الله ﷺ مواصفاتهم وبيّن علاماتهم التي انطبقت على الخوارج الذين أطلقوا أيديهم وألسنتهم على المسلمين ، كان عبد الله بن عمر يراهم شرار خلق الله ، وقال إنّهم انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار فجعلوها على المؤمنين[(١)] .

ـ وقال أمير المؤمنين علي ﷺ: إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ حديثاً فوالله لأن أخِرّ من السماء أحبّ إلي من أن أكذب عليه ، وإذا حدثتكم فيما بيني وبينكم فإن الحرب خدعة ، وإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: « سيخرج قوم في آخر الزمان أحداث الأسنان سفهاء الأحلام يقولون: من خير قول البرية ، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإنّ في قتلهم أجراً لمن قتلهم يوم القيامة »[(٢)] .

ـ وقال ﷺ: « يخرج في هذه الأمة – ولم يقل منها – قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم يقرأون القرآن لا يجاوز حلوقهم – أو حناجرهم – يمرقون من الدين

---

(١) البخاري ، مع شرحه فتح الباري ، ك استتابة المرتدين والمعاندين ، باب قتل الخوارج والملحدين.

(٢) المصدر نفسه، ح (٦٩٣٠) .

مروق السهم من الرمية »[1] .

ـ وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وقد ذكر الحرورية فقال: قال النبي ﷺ: « يمرقون من الإسلام مروق السهم من الرمية »[2] .

ـ وسُئل سهل بن حنيف رضي الله عنه ، هل سمعت النبي ﷺ يقول في الخوارج شيئاً قال: سمعته يقول وأهوى بيده قِبل العراق: « يخرج منه قوم يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، يمرقون من الإسلام مروق السهم من الرمية »[3] .

ـ وقال ﷺ: « آيتهم رجل إحدى يديه – أو قال ثدييه – مثل ثدي المرأة – أو قال مثل البَضْعَة تَدَرْدر **يخرجون على حين فرقة من الناس** »[4] .

ـ قال أبو سعيد: أشهد سمعت من النبي ﷺ ، وأشهد أنّ علياً قتلهم وأنا معه جيء بالرجل على النعت الذي نعته النبي ﷺ[5] .

ـ وسألتْ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عبد الله بن شداد ، قالت ما شيء بلغني عن أهل العراق يقولون **ذو الثدي وذو الثدية**؟ قال: قد رأيته وكنت مع علي رضي الله عنه ، في القتلى فدعا الناس فقال: أتعرفون هذا ؟ فما أكثر من جاء يقول رأيته في مسجد بني فلان ورأيته في مسجد بني فلان يُصلي ، ولم يأتوا فيه بثبت يُعرف إلا ذلك [6] .

ـ ونظراً لوضوح أوصاف الخوارج التي تنطبق على ما جاء في هذه الأحاديث ، التحق بعض الصحابة في جيش أمير المؤمنين مثل أبي سعيد الخدري

---

(١) البخاري ، مع شرحه فتح الباري ، ك استتابة المرتدين والمعاندين ، باب قتل الخوارج ، ح (٦٩٣١).

(٢) المصدر نفسه ، ح (٦٩٣٢) .

(٣) المصدر نفسه، ح (٦٩٣٤) .

(٤) المصدر نفسه، ح (٦٩٣٣) .

(٥) المصدر نفسه. وينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٩١/٧ فما بعدها.

(٦) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٩٤/٧ .

وأبي أيوب الأنصاري وغيرهم ممن ظهرت أسماؤهم في حرب الخوارج، وقاتلوهم دون تردد مما يظهر إدراكهم لخطورتهم وخطورة ما يدعون له ويقومون به ، وأن هذه الأحاديث لم تدع عندهم مجالا للشك في شأنهم أو الريبة في أمرهم .

ـ لهذا ما أن انتهت موقعة النهروان مع الخوارج حتى كان هم أمير المؤمنين وأصحابه العثور على الرجل المخدج والتأكد من انطباق مواصفات الحديث على ذلك الرجل ، قال أبو جحيفة، قال علي رضي الله عنه: حين فرغنا من الحرب إن فيهم رجلا ليس في عضده عظم ، ثم عضده كحلمة الثدي عليها شعرات طوال عقف فالتمسوه فلم يجدوه قال: فما رأيت عليا جزع جزعا أشد من جزعه يومئذ فقالوا: ما نجده يا أمير المؤمنين فقال: ويلكم ما اسم هذا المكان قالوا: النهروان . قال: كذبتم إنه لفيهم فثورنا القتلى فلم نجده فعدنا إليه فقلنا يا أمير المؤمنين لم نجده قال: ما اسم هذا المكان قلنا النهروان قال: صدق الله ورسوله وكذبتم إنه لفيهم فالتمسوه فالتمسناه فوجدناه في ساقيه فجئنا به فنظرت إلى عضده ليس فيها عظم وعليها كحلمة ثدي المرأة عليها شعرات طوال عقف[1] .

ـ فلما وجدوه سجد علي رضي الله عنه سجودا طويلا وكبر أصحابه استبشارا بأجر جهاد هؤلاء الناكثين للبيعة المارقين عن الجماعة ، ولانطباق مبشرات الحديث الشريف على ما قاموا به ضد الخوارج ، وهذا الحديث من دلائل النبوة لما انطوى عليه من الإخبار بالغيب على أحداث جاءت تنطبق تماما على ما أشار عليه الحديث الشريف.

ـ يستخلص مما سبق من أمر الخوارج التي جاءت الأحاديث الصحيحة تحذر منهم وتدعو إلى جهادهم ؛ أن بينهم سمات مشتركة في التربية والأهداف والنوايا

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٢٩/٦ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٧٥/٣ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ٣٠٧/٧.

ومن السمات المشتركة بين الخوارج

ـ أن قادتها كانوا ممن يعارض الإصلاح ويدعو إلى استمرار القتال والفتنة.

ـ وأن أكثر قادتها كانوا على صلة مباشرة مع عبد الله بن سبأ مؤسس الحركة السبئية التي أثارت الفتنة بين المسلمين ومن هؤلاء القادة: حرقوص بن زهير السعدي الذي قتل في تلك الموقعة[١]، ويزيد بن قيس الأرحبي ، الذي تراجع عن رأيه قبيل المعركة بعد إقامة الحجة عليهم[٢]، وعبد الله بن وهب الراسبي وابن الكواء اليشكري[٣] وشريح بن أوفى العبسي وزيد بن حصين الطائي[٤]. وممن نجا من تلك الموقعة **ابن ملجم قاتل أمير المؤمنين والبرك الذي ضرب معاوية** . وجرح أبو بلال مرداس بن أدية وشبيب بن بجرة والمستورد بن علفة[٥]، وهم من دعاة الأفكار السبئية وأنصارها .

ـ استمرارهم على أخلاق حركتهم السبئية في الجرأة على دماء المسلمين ومثلما قالوا حين قتل عثمان ﷺ: كلنا قتله ، قالوا عندما قتل عبد الله بن خباب كلنا قتله[٦] وهذه سياسة اتبعوها للتعمية على الجناة في تلك الأحداث .

ـ تطاولهم على الصحابة وأهل السابقة ، فهم في خروجهم ذلك كانوا يزعمون أنهم أفقه من الصحابة وأحرص منهم على تطبيق الدين على عامة المسلمين .

ـ حرص أمير المؤمنين على استتابتهم وإعادتهم إلى الصف وحرصهم على الفتنة وتمزيق جماعة المسلمين .

ـ لم يكن من بينهم من له مظلمة يطالب بها أو من ضيق عليه في معاشه أو حريته فهو يدفع عنهما .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) الطبري ، تاريخ ، ١٣/٦ .

(٣) المصدر نفسه ، ٣/ ٢٩ .

(٤) المصدر نفسه ، ٦/ ١٨ .

(٥) ابن خياط ، تاريخ ، ١٩٧ .

(٦) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٣٠٢/٧ .

ـ إن اختفاء اسم عبد الله بن سبأ في هذه الموقعة لا يعني غيابه عما جرى من تدابير الفتنة ، بل لعله من المخططين والمنظرين لها ، ولكن لم يعد بإمكانه الإعلان عن شبهاته خوفا من المحاسبة ، ولا سيما بعد أن ثبت أنه ينتقص أبا بكر وعمر رضي الله عنهما .

ـ ما قام به الخوارج من اتهام لأمير المؤمنين بعدم الإخلاص فيما يقوم به وبالتالي الكفر وطلب التوبة منه ، ومعارضتهم للصلح مع أهل الشام وجرأتهم على دماء المسلمين وقطع السبل ؛ يوحي بوحدة التخطيط والتدبير للمؤامرة التي أودت بحياة عثمان رضي الله عنه وصنعت أسباب حرب البصرة ويوم صفين وأصرت وبشكل واضح على إيجاد أسباب حرب النهروان ، بقتل الأبرياء وقطع الطرق وتهديد سلامة المسلمين وأمنهم ، على الرغم من حرص أمير المؤمنين على تجنب قتالهم .

ـ ونظرا لانعدام أسباب القتال عند الخوارج ، فإنهم كانوا يخافون من أن يسود السلام بين المسلمين ، فتسقط كل مسوغات الفتنة وبذلك يسقط معها دعاتها الذين لا تبرز مكانتهم إلا في أجواء الفتنة .

ـ وهذه الحقيقة التي أدركها أمير المؤمنين رضي الله عنه ومن معه من الصحابة كانت وراء اندفاعهم في القتال والدعوة إليه دون أي تردد .

ـ وفي ما قام به الخوارج من قتل لعبد الله بن خباب وزوجته وبعض النساء المسلمات وحفظهم ورعايتهم لممتلكات أهل الذمة التي كانت قريبة من مواطن خروجهم ، ما يبعث على التساؤل عن أسباب ذلك ، ومن الذي غرس فيهم هذه المفاهيم ؟ وهل الأفكار السبئية التي ربت أتباعها على كراهية الصحابة واستباحة أعراضهم ودمائهم هي المسؤولة عن ذلك ؟ وعن معارضة وإفساد كل دعوات الإصلاح وإغلاق أبواب الفتنة ؟ الظاهر أن ذلك هو السبب الرئيس في كل ما حصل في تلك المرحلة .

المناوشات بعد صفين بين أهل الشام وأهل الكوفة

أثر السبئية في عزل قيس بن سعد عن مصر وتولية محمد بن أبي بكر عليها .

لم تحسم صفين الموقف لصالح أمير المؤمنين رضي الله عنه، على الصعيد العسكري ولا على الصعيد السياسي ، وإنما انتهت بموقف تصالحي فرضه واقع الأمة آنذاك والحرص على تضييق دائرة الخلاف بين المسلمين، وحقن الدماء وتوحيد الصف. وأفرزت صفين التحكيم الذي كان من أول نتائجه المباشرة الإعتراف بوالي الشام كقوة جديدة في أرض الخلافة أخذت تساهم في التأثير على مجريات الأحداث الداخلية ، وهذا ما لم يكن في عهد الخلفاء السابقين وإنما كان أحد النتائج غير المباشرة لمؤامرة اغتيال الخليفة عثمان رضي الله عنه وعدم وحدة الصف في التصدي لهؤلاء الخوارج. الذين أصبح لهم أثر كبير في صنع بعض الأحداث ، ولا سيما ما جرى في البصرة عندما « بيتوا عسكر طلحة والزبير وبذلوا السيف فيهم فدفع القوم عن أنفسهم ، وكل طائفة تظن ولا تشك أن الأخرى بدأتها بالقتال، واختلط الأمر اختلاطا لم يقدر أحد على أكثر من الدفاع عن نفسه ، والفسقة من قتلة عثمان لا يفترون عن شن الحرب وإضرامه ، **فكلتا الطائفتين مصيبة في غرضها ومقصدها مدافعة عن نفسها** ... ولا خبر عند أحد لعن الله من قتله والراضين بقتله »[1]، ثم كان لهم أثر واضح في الحرص على القتال واستمراره في صفين فلما فشلوا في ذلك ، بقبول أمير المؤمنين رضي الله عنه التحكيم ، بدأوا بالبحث عن إيجاد أحداث تساهم في استمرار البلبلة وانشقاق الصف داخل الخلافة ولا سبيل إلى ذلك ؛ إلا من خلال العمل على تولية بعض القادة الذين تربطهم بهم علاقات معرفة تسودها الثقة ، ولما كان أمير المؤمنين رضي الله عنه في الكوفة وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما في البصرة

---

(١) ابن حزم ، الفصل ، ١٥٨/٤ .

لم يعد أمامهم سوى مصر فاستهدفت جهودهم على توجيه الدعاية إلى ذلك الإقليم الذي كان منطلقا للمؤامرة الكبرى التي أودت بحياة عثمان رضي الله عنه، وموطنا لمؤسس ومنظر الحركة السبئية ، ووجود عدد من المؤيدين لأفكارها هناك ، فتمكنوا أيام استشهاد الخليفة ، من مؤازرة محمد بن أبي حذيفة بن عتبة ، حتى طرد والي مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح وتغلب عليها .

ولما كانت مصر قريبة من الشام ، لم يكن باستطاعة والي الشام الاطمئنان من جهتها ولا سيما بعد أن تولاها التيار الذي خرج على الخليفة وأسهم في قتله .

لذلك أولاها اهتماما كبيرا وأوكل إدارة الصراع في مصر إلى فاتحها وواليها السابق عمرو بن العاص رضي الله عنه ، الذي تمكن في النهاية من التخلص من محمد بن حذيفة سنة (٣٦هـ) والاتصال بمن ساءهم مقتل عثمان رضي الله عنه فاعتزلوا الأحداث في خربتا ينتظرون اجتماع الأمة واستقرار أمر الخلافة .

ولما فرغ أمير المؤمنين من أحداث البصرة أرسل أشهر قادته واليا على مصر وهو قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنهما ، الذي تمكن بحسن سياسته من دخول مصر وتولي مهامه وأخذ البيعة لأمير المؤمنين من أكثر أهلها وأثبت جدارة عالية في إدارة مصر واستقرارها واستتباب الأمن فيها ، و ذلك بإرضائه لجميع الأطراف فيها .

إلا أن استقامة قيس وحرصه على وحدة الأمة وخبرته السياسية والعسكرية لم ترض السبئية لأنه لم يعد لهم وجود في فلك ذلك القائد القدير ، فانعدم تأثيرهم في العمل على استمرار أجواء الفتنة .

وأما في الشام فإن قوة مصر تمثل خطرا عليهم في تلك المرحلة خشية من تجدد مواجهة جديدة مع أهل الكوفة ، فتصبح الشام بين فكي الكماشة . لذلك بادر معاوية باستطلاع توجهات قيس ورأيه فيما يحصل من أحداث على أرض الخلافة

فلم يجد عند قيس أي أمل في إمكانية تعاونه معه إلا عن طريق أمير المؤمنين ﷺ فأخذ يعمل على التخلص منه وإزاحته عن ولاية مصر ، حتى تم ذلك عندما أصدر أمير المؤمنين ﷺ قرارا بعزله عن مصر ، مما أوجد فرصة للخوارج للمشاركة في اختيار قائد جديد لمصر تربطهم به معرفة وعلاقة سابقة ، فأسهموا في إطلاق الشائعات على وجود اتصالات بين قيس ومعاوية ، مما أسهم في سرعة عزله والدعاية لمحمد بن أبي بكر وقدراته وخبرته في مصر حتى تم تعيينه واليا عليها فلما ولي محمد على مصر ، والتقى هناك بواليها قيس بن سعد الذي تعاون معه وزوده بنصائحه وإرشاداته ثم عاد إلى المدينة. ولكن الوالي الجديد لم يأخذ بما زود به من نصائح مهمة،مما أوقعه في أخطاء سياسية فادحة يأتي في مقدمتها استثارة أهل خربتا ومحاربتهم مما اضطرهم إلى الإستعانة بمعاوية ﷺ ، الذي كان يعتقد أن هذا الوالي من المحرضين على قتل الخليفة عثمان ، وممن يجب أن تقع عليه المحاسبة، وزاد الأمر تعقيدا ما كان يطلق هذا الوالي الشاب من تصريحات تستثير الخصوم ، حتى أوجد جبهة مضادة له ومتعاونة على إزالته ، تمثلت في أهل خربتا وأنصارهم في مصر ، وبما أمدهم به والي الشام من جيش على مقدمته فاتح مصر عمرو بن العاص ﷺ ، فتلاحقت الأحداث حتى قتل محمد بن أبي بكر في إحدى معاركه[1]، وضمت مصر إلى الشام وولي عمرو بن العاص عليها من جديد بعد أن تمكنت السبئية من عزله بدعايتها وإشاعاتها المصنوعة ضده ، وعلى النحو الذي تم تفصيله في ولاية قيس بن سعد على مصر .

وبهذا يمكن القول أن خسارة عسكرية وسياسية لحقت بقوة أهل الكوفة لفقدان مصر بعد عزل قيس عنها ، مما أربك الأجواء السياسية والعسكرية بين الشام والكوفة وأدى إلى قيام بعض الحملات العسكرية بينهما غايتها تثبيت النفوذ السياسي

---

(١) ينظر: الطبري ، تاريخ ، ٣٧/٦ فما بعدها .

على بعض الأقاليم ، مما أسهم في بعض المواجهات العسكرية المحـــدودة ، التـــي ضخمها أهل الأهواء من الذين يحرصون على استمرار الصراع بيـــن المســلمين ودونها بعض المؤرخين دون أن يبدوا فيها رأيا ، ولا ســيما إخبــاريوا المبتدعــة ومبغضو الصحابة ، الذين هولوا تلك الأخبار وأضافوا إليها ما يورث الكراهية بين المسلمين وأخذت تدرس في الجامعات في هذا العصر على أنــها حقــائق قطعيــة وغالبا ما ينتدب لتدريس مادة التاريخ الإسلامي من لا دين له ولا فقه ، مما أعــان على طمس الحقائق وأسهم في تزوير التاريخ الإسلامي وتشويه صورة الفـــاتحين الأوائل من سلف هذه الأمة .

ولما كانت نتائج التحكيم غير حاسمة ، نظرا لتداخل أحداث تلك المرحلة لـــم تنتــه المواجهات بشكل مطلق بين أهل الكوفة وأهـــل الشــام ، وإنمــا حصلــت مواجهات محدودة ، غالبا ما يكون سببها أن في بعــض الأقــاليم أنصــارا لأحــد الطرفين فيرغبون على أنصارهم في تثبيت سلطانهم على ذلـــك الإقليـــم ، ومــن المفترض في تلك الأحداث أن تكون سيرة القادة مع الناس آنذاك لينة رحيمة وديــة لكسب ولاء الناس وإخلاصهم لهم ، إذ أن هذا هو منطق الأشياء لأن العنف والشدة سيؤديان إلى نفور الناس وانضمامهم إلى الطرف الآخر ووقوفهم في وجـــه مــن يعاملهم بالقسوة والعنف .

إلا أن أكثر كتب التاريخ تأبى إلا أن تصور أحداث تلك المرحلة على غير مــا كان عليه أهلها من الأخلاق والدين والألفة والرحمة ، ومما يؤكد حرص الصحابــة على أمن المسلمين وراحتهم ما ذكر من إقرار علي لمعاوية على الشام بعد اقــتراح قدمه معاوية إلى أمير المؤمنين رضي الله عنهما[1] .

ومما ذكر من تلك المناوشات ، أن أمير المؤمنين استنفر أهل الكوفة بعد مقتل

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٣٧٦/٧ .

محمد بن أبي بكر وضمّ مصر إلى الشام ، وخطب الناس « وحثهم على الجهاد وواعدهم الجَرَعة بين الكوفة والحيرة فلما كان الغد ، خرج يمشي إليها حتى نزلها فلم يخرج إليه أحد من الجيش فلما كان العشي بعث إلى أشراف الناس فدخلوا عليه وهو حزين كئيب فقام فيهم خطيباً فقال: الحمد لله على ما قضى من أمر وقد ابتلاني بكم وبمن لا يُطيع إذا أمرت ولا يُجيب إذا دعوت ، أو ليس عجباً أن معاوية يدعو الجفاة الطغام فيتبعونه بغير عطاء ولا معونة ويجيبونه في السنة مرتين والثلاث إلى أي وجه شاء وأنا أدعوكم وأنتم أولو النهى وبقية الناس على المعونة والعطاء فتفرقون وتنفرون عني وتعصونني وتختلفون علي »[١] .

وروي أن معاوية أرسل **النعمان بن بشير** إلى عين التمر[٢]، فحصلت فيها مواجهة بين أنصار أمير المؤمنين والنعمان بن بشير قتل ثلاثة من أصحاب النعمان وواحد من أهل عين التمر ثم رجع النعمان بن بشير إلى الشام[٣]، فاستنفر أمير المؤمنين أهل الكوفة فتثاقلوا عليه فوبخهم في خطبة له روي منها قوله: « كلما سمعتم بمنسر[٤] من مناسر أهل الشام أضلكم ، أغلق بابه وانجحر كل امرئ منكم في بيته انجحار الضب في جحره والضبع في وجارها، **المغرور من غررتموه ولمن فاز منكم فاز بالسهم الأخيب لا أحرار عند النداء ، ولا إخوان ثقة عند النجاء إنا لله وإنا إليه راجعون ، ماذا منيت به منكم عمي لا تبصرون ، وبكم لا تنطقون وصم لا تستمعون ، إنا لله وإنا إليه راجعون** »[٥] .

---

(١) المصدر السابق ، ٣٣٠/٧ ، الطبري ، تاريخ ، ٣٩/٦ .

(٢) عين التمر: بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة بقربها موضع يقال شفاثا وهي على طرف البرية اقتحمها المسلمون في أيام أبي بكر على يد خالد بن الوليد (١٢هـ) ياقوت ، معجم البلدان ، ٣٦٩/٣.

(٣) البلاذري، أنساب الأشراف، ٢٠٦/٣ . الطبري، تاريخ، ٥٦/٦ ، ابن كثير ، البداية والنهاية، ٣٣١/٧.

(٤) المنسر: قطعة من الجيش تكون أمامه .

(٥) الطبري ، تاريخ ، ٥٦/٦ .

وهذه النشاطات كانت في سنة تسع وثلاثين ، وفيها سرح **معاوية سفيان بن عوف** في ستة آلاف رجل وأمره أن يأتي هيت والأنبار ، فعل سفيان ما أُمر به ثم رجع ، فأرسل أمير المؤمنين إلى هيت سعيد بن قيس ولكن لم تحصل مواجهة بينهما[١] .

وفي هذه السنة وصل **الضحاك بن قيس الفهري** من قبل معاوية ، إلى منطقة القُطْقُطانة قرب الكوفة ، ووصل **حجر بن عدي** من قبل أمير المؤمنين إلى تدمر فلحق بالضحاك هناك وكان حجر في أربعة آلاف والضحاك في ثلاثة آلاف فحصلت مواجهة محدودة بين أصحاب الضحاك بن قيس و أصحاب حجر بن عدي [٢] .

وفي هذه السنة حج بالناس عبيد الله بن العباس وقيل عبد الله بن العباس وقيل شيبة بن عثمان بن أبي طلحة ، اصطلح عليه أهل الكوفة وأهل الشام .

وفي سنة أربعين هجرية أرسل معاوية بُسر بن أبي أرطأة العامري القرشي في جيش إلى المدينة وكان فيها أبو أيوب الأنصاري ﵁ والياً لأمير المؤمنين فلما علم بقدوم بسر خرج من المدينة ولحق بأمير المؤمنين بالكوفة ، فلم تحصل مواجهة وأرغم أهل المدينة على البيعة لمعاوية فيما زعمت هذه الرواية[٣] .

إلا أنّ أخذ البيعة من الناس مرغمين تتعارض مع عدالة الصحابة ، كما أنّها مخالفة لسياسة تأليف الناس وكسبهم إلى جانبهم ، فضلاً عن أن معاوية لم يدع الناس لبيعته في حياة علي ﵁[٤] .

---

(١) المصدر نفسه ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٣٣٥/٧ .

(٢) الطبري ، تاريخ ، ٥٨/٦ .

(٣) الطبري ، تاريخ ، ٥٩/٦ ، البلاذري ، أنساب الأشراف ، ٢١٢/٣. ابن كثير ، البداية والنهاية ٣٣٤/٧ .

(٤) ينظر: ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ٣٩٣/٣ ، ابن أعثم ، الفتوح ، ٥٧/٤ .

ثم خرج بُسر من المدينة إلى مكة وكان فيها أبو موسى الأشعري رضي الله عنه فتوارى عن بُسر ، فأرسل إليه بُسر وقال: ما كنت لأقتل صاحب رسول الله ﷺ ثم خرج إلى اليمن وكان عليها عبيد الله بن عباس من قبل أمير المؤمنين وروي أنه قتل ابنين لعبيد الله بن عباس وبعض أنصار علي هناك. ثم رجع إلى الشام ، وكان أمير المؤمنين قد وجّه جارية بن قدامة السعدي قيل ففعل مثلما فعل بُسر وقتل بعض محبي عثمان رضي الله عنه في اليمن[١] .

قال ابن كثير: وهذا الخبر مشهور عند أهل السير وفي صحته عندي نظر[٢] ولا شك أن قتل الأبرياء لم يحصل في تلك المرحلة حتى في أيام البصرة وصفين عندما قامت الحرب بين الطرفين ، فكيف يقتل الأطفال والأبرياء في مرحلة الهدنة لذلك لا يمكن قبول مثل هذه الأخبار المناقضة لأعراف المسلمين وقيمهم ودينهم .

ولما خرج بُسر بن أبي أرطأة إلى اليمن ، ودعا أمير المؤمنين أهل الكوفة لحماية هذا الإقليم والحيلولة دون انضمامه إلى الشام ، قال زهير بن الأرقم خطبنا علي رضي الله عنه يوم جمعة فقال: نبئت أن بُسر قد طلع اليمن وإنّي والله لأحسب أنّ هؤلاء القوم سيظهرون عليكم ، وما يظهرون عليكم إلا بعصيانكم إمامكم وطاعتهم إمامهم وخيانتكم وأمانتهم وإفسادكم في أرضكم وإصلاحهم ، قد بعثت فلاناً فخان وغدر وبعثت فلاناً فخان وغدر وبعث المال إلى معاوية ، لو ائتمنت أحدكم على قدح لأخذ علاقته اللهم سئمتهم وسئموني وكرهتهم وكرهوني ، اللهم فأرحهم مني وأرحني منهم »[٣] . وعلة هذه الحالة هي كثرة مخالفتهم لأمير المؤمنين وتصارعهم فيما بينهم حتى كانوا سبباً في إحجام أمير المؤمنين عن كثير من الأمور ، ومن ذلك

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٦٠/٦ .

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٣٣٦/٧.

(٣) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة، ٣٤٠/٧ .

عندما أراده عدي بن حاتم على العمل على بسط سلطانه على الشام « فلم يرد عليه فكررها ثلاثاً ، فقال: أدن مني يا ابن حاتم ، فتخطيت الناس إليه حتى وضعت يدي على ركبتيه فقال لي: يا عدي إنّ معاوية مع قوم يطيعونه ، وأنا مع قوم يعصونـــي فأما الذين معي فأشد مكايدة من الذين مع معاوية ، فعذرته ورحمته رحمة شـــديدة ما رحمت أحداً مثلها قط »[1]، لذلك من الممكن أن تكون هذه الأمـــور مـــن أهـــم الأسباب التي جعلت أمير المؤمنيـــن يقبـــل بما كان يرفضه في بداية خلافتـــه من مهادنة أهل الشام .

المهادنة بين أمير المؤمنين علي ووالي الشام معاوية رضي الله عنهما (٤٠هـ)

وفي هذه المرحلة كان المسلمون محافظين على شعائر الإسلام والتـــي منـــها الحج فكان الحجاج من الطرفين يقدمان مكة للحج فأيّهما سبق إلى الحج فهو الأمير على الناس أيام الحج حتى تنتهي الفريضة ، فيؤدّون الشعائر معاً لا يُعكر أحد على أحد ، وببادرة طيبة للإصلاح بين المسلمين ، أرسلت **أم حبيبة رملـــة بنـــت أبـــي سفيان** أم المؤمنين رضي الله عنهما ، إلى أم المؤمنين أم سلمة رضـــي الله عنـــها قالت إحداهما للأخرى: نكتب إلى معاوية وعلي رضي الله عنهما أن يتوقفـــا عـــن إرسال هذه البعوث التي تروع الناس ، فقالت أم حبيبة: كفيتك أخي معاوية وقـــالت أم سلمة كفيتك علياً، فكتبت كل واحدة منهما وبعثت وفداً من قريـــش والأنصـــار فأما معاوية فأطاع أم حبيبة وأما علي فهم أن يطيع أم سلمة لكنه نُهي عن ذلك[2] .

وذكر ابن جرير الطبري في سنة (٤٠هـ) جرت بيـــن علي وبيـــن معاويـــة

---

(١) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٣٦١/٣ .

(٢) الصنعاني ، المصنف ، ٤٥٨/٥.

المهادنة بعد مكاتبات جرت بينهما يطول ذكرها ، على وضع الحرب بينهما ويكون لعلي العراق ولمعاوية الشام ، فلا يدخل أحدهما على صاحبه في عمله بجيش ولا غارة ولا غَزو ولما لم يعط أحد الفريقين صاحبه الطاعة كتب معاوية إلى علي: أما إذا شئت فلك العراق ولي الشام ، وتكفّ السيف عن هذه الأمة ولا تُهريق دماء المسلمين ، ففعل ذلك ، وتراضيا على ذلك ، فأقام معاوية بالشام بجنوده يجبيها وما حولها ، وعليّ بالعراق يجبيها ويقسمها بين جنوده[1] .

وهذه المهادنة التي من الممكن أن يكون للخوارج أثر كبير في تهيئة الظروف من حول أمير المؤمنين لقبولها ، لمواصلتهم المكائد والفتن وجلب المتاعب له بخروجهم المتكرر عليه ، وعيبهم لسياسته وإطلاقهم الشائعات على ما يقوم به .

ولم تقلل من مكانة أمير المؤمنين رضي الله عنه ، فكان يدعى بأمير المؤمنين ، وكان معاوية يدعى بالشام الأمير[2] . ولعل مما يرجح صحة خبر هذه المهادنة ، المعاناة والمشقة التي أصبح أمير المؤمنين يقاسيها من جنده وممن كان يزعم أنه من أنصاره ، لكنهم لا يجيبونه ولا ينصرونه واستخفوا بأوامره ونواهيه ، ولما أصبح يشاهد من الخيانة وقلة الأمانة ومن الانتقاص لسلف هذه الأمة ، فكان رضي الله عنه يخطب أهل الكوفة وينصحهم لكنهم خذلوه ، وبعد إحدى خطبه قام أبو أيوب الأنصاري فقال: « إن أمير المؤمنين قد أسمع من كانت له أذنان وقلب حفيظ ، إن الله قد أكرمكم به كرامة بيّنة فاقبلوها حق قبولها ، إنه أنزل ابن عم نبيكم بين ظهرانيكم يفقههم ويرشدكم ويدعوكم إلى ما فيه الحظ لكم .

أما حجر بن عدي الكندي . وحبّة بن جوين البجلي ثم العرني ، وعبد الله بن وهب الهمداني وهو ابن سبأ فإنّهم أتوا علياً فسألوه عن أبي بكر وعمر رضي الله

---

(1) الطبري ، تاريخ ، ٦/٦٠ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٧/٣٣٦ ، ابن الجوزي ، المنتظم ، ٣/٤٠٤.

(2) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٣/٤٠٧ .

عنهما فقال: أو قد تفرغتم لهذا ؟ وهذه مصر قد فتحت وشيعتي بها قد قتلت **وكتب كتابا يقرأ على شيعته في كل يوم فلم ينتفع بذلك الكتاب ، وكان عند ابن سبأ منه نسخة فحرفها**[1] . لهذا كره أمير المؤمنين ما صارت إليه الأمور في آخر خلافته ، لما رأى من « اختلاف الناس وتفرقهم وكثرة الشر الذي أوجب أنه لو استقبل من أمره ما استدبر ما فعل ما فعل »[2]، وقد بلغ من اشمئزازه إلى ما وصل إليه الحال الذي كان الخوارج وراء أكثر أسبابه أنه « أخذ المصحف فوضعه على رأسه ... ثم قال: اللهم إنهم منعوني أن أقوم في الأمة بما فيه فأعطني ثواب ما فيه ثم قال: اللهم إني مللتهم وملوني وأبغضتهم وأبغضوني وحملوني على غير طبيعتي وخلقي وأخلاق لم تكن تعرف لي ، اللهم فأبدلني بهم خيرا منهم وأبدلهم بي شرا مني اللهم أمث قلوبهم موث الملح في الماء ... يعني أهل الكوفة »[3] .

بعض خطب أمير المؤمنين رضي الله عنه في وصف ما آل إليه حاله آخر خلافته وذمه لأهل الكوفة

لا يختلف كثيرا ما ابتلي به أمير المؤمنين علي ، عما حصل للشهيد عثمان رضي الله عنه إلا في بعض الوجوه ، إذ أن الخوارج التي كانت تطلق ألسنتها وبهتانها على الشهيد عثمان وولاته ، هي نفسها التي كانت تثير الفوضى في أمصار خلافة أمير المؤمنين علي ، فكانوا يكثرون النقد لولاته ويعارضون كثيرا من اختياراته لهم كما حصل من الأشتر عندما ولى أمير المؤمنين البصرة لعبد الله بن عباس، وعندما بعث جرير بن عبد الله البجلي إلى معاوية ، وعندما اختار أبا موسى الأشعري إلى

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ٣/١٥٥.

(٢) ابن تيمية ، منهاج السنة ، ٦/٢٠٩.

(٣) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ٣/١٥٦ ، البداية والنهاية ٧/٣٩٠ .

التحكيم وغير ذلك كثير ، ومن عيبهم للولاة ما حصل لقيس بن سعد الأنصاري الذي ثبّت سلطان الخلافة في مصر ، وأرضى جميع سكانها واستقر له الأمر في ذلك الإقليم: فاستمر الخوارج في إطلاق الشائعات المشككة بإخلاصه وعمق ولائه لأمير المؤمنين ، ونقل الأخبار الموهومة عنه والتحدث بها ، حتى عزله أمير المؤمنين عن ذلك الإقليم، فأصبح هدفاً سهلاً لوالي الشام الذي تمكّن من ضمه إلى ولايته بعد رحيل سعد. وغير ذلك من الأحداث المؤثرة على سلطان أمير المؤمنين والتي أسهمت في تصدّع سلطانه وتشتت أمره ، ولما انكشف أمرهم لأمير المؤمنين نصحهم وأرشدهم ودعاهم إلى التوبة والاستقامة والإخلاص ، لكنهم واجهوه بالخروج على سلطانه كما فعلوا بالشهيد عثمان ﷺ، فأخذوا يعيبونه وينتقصونه حتى طلبوا منه أن يشهد على نفسه بالكفر[1]، وهذا شبيه بما حصل لعثمان ﷺ الذي كفّ يده ولسانه عنهم، لكن ذلك لم يُنجه منهم عندما تسوروا عليه بيته وقتلوه أما أمير المؤمنين علي ﷺ فإنّه عندما استنفذ معهم وسائل الإصلاح والمسامحة وبادروه بالنقد والانتقاص والعمل على إفشال كل عمل يقوم به ، وذلك بالإرجاف والشائعات وتخذيل الناس عنه وبالتثاقل عن نصرته واتهامه في علمه وإخلاصه.

فلما فعلوا كل هذا وقامت عليهم الحجة ، قاتلهم ﷺ فقتلهم وشردهم ولم يكف يده ولسانه عنهم بل عمل على التخلّص منهم ، فلما عجزوا عن مواجهته ، دبروا لاغتياله كما فعلوا بالشهيد عثمان ﷺ ، وليختم له بالشهادة على أيديهم أيضاً وليعلم أنّ قتلة عثمان هم قتلة علي ، إذ أنّ ابن ملجم هو أحد تلامذة ابن سبأ وأنصاره والمطيعين له ، وليتأكّد أنّ عامة ما حصل من تنازع وصدام بين الصحابة ﷺ هو من تدبير فرقة السبئية الماكرة الحاقدة ، وأنّ الصحابة الذين شاركوا في تلك المنازعات كانوا يتعاملون مع الأحداث بتجرّد وبراءة ونوايا صادقة ، وبحسب

---

(1) الطبري ، تاريخ ، ٢٥/٦ .

ما توصلوا إليه من علم مبني على اجتهاد منبثق من الكتاب والسنّة . وأمّا عامة من كان يسمع لفرقة السبئية فكانوا من الأوباش والغوغاء ومن لا علم لهم بالدين ، حتى أنّ أمير المؤمنين كان يحثهم على العلم فيجلس لهم ويقول سلوني ، هذه العبارة التي استغلها بعض ورثة السبئية ليطعنوا في الخلفاء الراشدين وعلماء الصحابة، فيقولوا: إنّ أمير المؤمنين كان لديه علوم لا يمتلكها غيره ولا يعرفها ، وذلك لكي يوجـدوا شرخاً بين الصحابة ومحبيهم وإلا فإنّ أمير المؤمنين كان يخاطب بقولـه سـلوني «أهل الكوفة ليعلمهم العلم والدين ، فإن غالبهم كانوا جهالاً لم يدركـوا النبـي ﷺ وأما أبو بكر فكان الذين حول منبره هم أكابر أصحاب النبي ﷺ الذين تعلموا مـن رسول الله العلم والدين »[١] ، وكذلك عمر وعثمان رضـي الله عنـهما ، فكـانت رعيتهم أعلم الأمة وأدينها ، وأما الذين كان علي يخاطبهم فهم من جملـة عـوام الناس من التابعين ، وكان كثير منهم من شرار التابعين ، وكان التابعـون فـي المدينـة ومكـة والشـام والبصـرة خيـراً منهـم ، ولهـذا كان علـي يذمّهـم ويدعو عليهم[٢] لأنّهم كانوا يتكلمون ولا يفعلون ، ويحرضون وعند الشدة يفـرون وهذا ما ظهر في انتقاصهم لأمير المؤمنين وطعنهم في أبي بكر وعمر رضـي الله عنهما قال سويد بن غفلة: « **مررت بقوم ينتقصون أبا بكر وعمر رضـي الله عنـهما فأخبرت علياً رضي الله عنه وقلت: لولا أنهم يرون أنك تُضمر ما أعلنوا ، ما اجترأوا على ذلـك منهم عبد الله بن سبأ فقال علي: نعوذ بالله رحمنا الله ، ثم نهض وأخذ بيدي وأدخلنـي المسجد فصعد المنبر ثم قبض على لحيته وهي بيضاء فجعلت دموعـه تتحـادر عليـها وجعل ينظر للقاع حتى اجتمع الناس ثم خطب فقال: ما بال أقوام يذكرون أخَوي رسـول الله ﷺ ووزيريه وصاحبيه وسيدي قريش وأبوي المسلمين ، وأنا بريء مما يذكـرون**

(١) ابن تيمية ، منهاج السنّة ، ٥/٥٠٨ .

(٢) المصدر نفسـه .

وعليه معاقب ، صحبا رسول الله بالحب والوفاء والجد في أمر الله ، يأمران وينهيان ويغضبان ويعاقبان ، ولا يرى رسول الله كرأيهما رأياً ، ولا يُحب كحبهما حباً لما يرى من عزمهما في أمر الله ، فقُبض وهو عنهما راضٍ والمسلمون راضون ، فما تجاوزا في أمرهما وسيرتهما رأي رسول الله ﷺ وأمره في حياته وبعد موته ، فقبضا على ذلك رحمهما الله ، فوالذي خلق الحبة وبرأ النسمة لا يحبهما إلا مؤمن فاضل ولا يبغضهما إلا شقي مارق ، وحبهما قربة وبغضهما مروق ... لعن الله من أضمر لهما إلا الحسن الجميل »[1].

وعلى إثر هذه الخطبة نفى عبد الله بن سبأ من الكوفة إلى المدائن وقال لا تساكني في بلدة أبداً[2]. وذلك بعد أن تشفع له قوم عندما أراد قتله . فكان مصاب أمير المؤمنين بأتباعه من أهل الكوفة كبيراً ، يزعمون أنهم يحبونه ويطعنون في إخوته من الصحابة ، وقوم يعتقدون فيه ما لا يجوز اعتقاده في بشر ، وآخرون يتهمونه على كل ما يأتي به ، وقد روي أنه خطب يوماً فذكر علمه بالقرآن فقال: « ما من آية في كتاب الله أنزلت في سهل أو جبل إلا وأنا عالم متى أنزلت وفيمن نزلت ، فقال رجل من القعود تحت منبره: يا لله وللدعوى الكاذبة ! وقال آخر إلى جانبه: أشهد أنك أنت الله رب العالمين ! قال المدائني راوي الخبر ، فانظر إلى هذا التناقض والتباين فيه »[3] ومن خطبه التي يحثهم فيها على الجهاد قوله:

إنّ الجهاد باب من أبواب الجنة فمن تركه ألبسه الله الذل وسيمَ الخسف[4]. فلما رأى خورهم وتقاعسهم وعدم إجابتهم قال: « ما لي أراكم أشباحاً بلا أرواح وأرواحاً بلا أشباح ونُسّاكاً بلا صلاح ، وتجاراً بلا أرباح وأيقاضاً نوماً وشهوداً

---

(١) الألوسي ، مختصر التحفة ، ٧ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ١٣٦/٦.

(٤) المصدر نفسه ، ٧٦/٢ .

غيباً ، وناظرة عمياء وسامعة صماء وناطقة بكماء »[١] . « أيتها النفوس المختلفة والقلوب المتشتتة الشاهدة أبدانهم والغائبة عنهم عقولهم أظأركم على الحق وأنتم تنفرون منه نفور المِعزى من وعوعة الأسد ! هيهات أن أطلع بكم سرار العدل، أو أُقيم اعوجاج الحق »[٢].

وحثهم على الجهاد يوماً فلم يُجيبوه ، فقال: « والله لولا رجائي الشهادة عند لقائي العدو ولو قد حمّ لي لقاؤه ، لقربت ركابي ثم شخصت عنكم فلا أطلبكم ما اختلف جنوب وشمال ، طعانين عيابين حيّادين رواغين إنّه لا غناء في كثرة عددكم مع قلة اجتماع قلوبكم لقد حملتكم على الطريق الواضح التي لا يهلك عليها إلا هالك من استقام فإلى الجنة ومن زال فإلى النار »[٣] .

وخطب واصفاً حاله مع أهل الكوفة فقال: « ما هي إلا الكوفة أقبضها وأبسطها ، إن لم يكن إلا أنت تهب أعاصيرك فقبحك الله »[٤] .

أي إن لم يكن لي من الدنيا ملك إلا ملك الكوفة ذات الفتن والآراء المختلفة فأبعدها الله ، وشبّه ما كان يحدث من أهلها من الإختلاف والشقاق بالأعاصير لإثارتها التراب وإفساد الأرض[٥] .

ومما يصوّر ما كان يعانيه أمير المؤمنين ﵁ ممن شايعه في بداية أمره وخذله في نهايته ، ما ذكره سفيان بن عوف بن المغفل الغامدي ، في وصف طاعة أهل الشام لمعاوية ﵁ فقال: « قام معاوية في الناس فخطبهم فقال: أيها الناس انتدبوا مع سفيان بن عوف فإنه وجه عظيم فيه أجر ، سريعة أوبتكم إن شاء الله ثم

(١) المصدر السابق ، ١٨٧/٧.

(٢) المصدر نفسه ، ٢٦٣/٨.

(٣) ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ٢٨٥/٧ .

(٤) المصدر نفسه ، ٣٣٢/١ .

(٥) ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ٣٣٢/١ .

نزل. قال فوالذي لا إله غيره ، ما مرّت ثالثة حتى خرجت في ستة آلاف ثم لزمت شاطئ الفرات ... فلما عدت إلى معاوية حدثته الحديث على وجهه – أي تفاصيل حملته هذه وما حقق فيها من نجاح بالعراق – فقال: كنت عند ظني بك ... قال: فوالله ما لبثنا إلا يسيراً حتى رأيت رجال أهل العراق يأتوننا على الإبل هراباً من عسكر علي »[1] .

ثم أمر أمير المؤمنين رضي الله عنه بتجهيز حملة ترد على ما قام به سفيان بن عوف وأوكل قيادتها إلى الحارث الأعور الهمداني الذي نادى في الناس: «أين من يشتري نفسه لربه ويبيع دنياه بآخرته ؟ أصبحوا غداً بالرحبة إن شاء الله ولا يحضر إلا صادق النية في السير معنا والجهاد لعدونا ، فأصبح وليس بالرحبة إلا دون ثلاثمائة فلما عرضهم قال: لو كانوا ألفاً كان لي فيهم رأي .

وأتاه قوم يعتذرون فقال: ﴿ وجاء المعذرون﴾ [2]، وتخلّف المكذبون ومكث أياماً بادياً حزنه شديد الكآبة... ثم خطبهم وضرب لهم مثل رسول الله ﷺ والأنصار فقام إليه رجل آدم طوال فقال: ما أنت بمحمد ولا نحن بأولئك الذين ذكرت! فقال أحسن سمعاً تحسن إجابة ثكلتكم الثواكل ما تزيدونني إلا غماً هل أخبرتكم أني محمد وأنّكم الأنصار إنما ضربت لكم مثلاً ، وإنما أرجو أن تتأسوا بهم »[3] .

وبلغ من تخاذلهم عنه وتوانيهم عمّا يأمر حداً جعله **يُثني على أهل الشام** ويذم أهل الكوفة دون أي تحفظ ، وقد استنفرهم يوماً فقال: « يا أهل الكوفة أُخرجوا إلى العبد الصالح عمرو بن عميس وإلى جيوش لكم قد أصيب منهم طرف ، أخرجوا

---

(١) ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ٨٦/٢ .

(٢) ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة، ٨٩/٢ ، سورة التوبة، من الآية، (٩٠).

(٣) ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ٨٩/٢ .

فقاتلوا عدوكم وامنعوا حريمكم إن كنتم فاعلين . فردوا عليه رداً ضعيفاً ورأى منهم عجزاً وفشلاً فقال: والله لوددت أنّ لي بكل ثمانية منكم – من أهل الكوفة – رجلاً منهم – من أهل الشام. ويحكم أخرجوا معي ثم فرّوا عني ما بدا لكم ، فوالله ما أكره لقاء ربي على نيتي وبصيرتي وفي ذلك روح لي عظيم ، وفرج من مناجاتكم ومقاساتكم ثم نزل »[1] .

وبيّن لهم أسباب نجاح أهل الشام واستقامة أمرهم ، وفشل أهل الكوفة وإدبار أمرهم، وذلك لاجتماع كلمتهم وطاعتهم لصاحبهم ، وأدائهم الأمانة وإصلاحهم بلادهم[2] .

وهذه شهادة عظيمة من أمير المؤمنين على استقامة أهل الشام وأمانتهم وصلاحهم ، وشهادة على أهل الكوفة بعكس ذلك ، ولا شك أنّ استقامة الناس وانضباطهم خُلق رفيع يؤدّي إلى فلاحهم وإعزاز شأنهم واجتماع كلمتهم ، ولم يكن أشياع أمير المؤمنين بحاجة للمربين أو المرشدين إذ أن أمير المؤمنين كان في الذروة من العلم والتربية ، ولكن وجود الخوارج ومن يسمع لهم من الغوغاء في الكوفة وفي جيوش أمير المؤمنين، كان وراء كل ما حصل من فتن وشغب وإشاعات في الكوفة ، أدّت إلى تشتت أمر أمير المؤمنين وهدم ما بناه لهم، ومتى يتم البناء في الكوفة إذا كان الصالحون فيها يشيدون صروحاً في العلم والزهد والورع والإقدام ، والخوارج السبئية يهدمون كل ذلك بما يثيرون من أحقاد وأباطيل وبهتان ، يطال الصالحين في خلافة أمير المؤمنين من العلماء والولاة والقادة ويُسبغون على زعماء الفتنة من الأوصاف التي توحي بامتلاكهم القدرات والإمكانيات القيادية إلى غير ذلك من ملابسات تؤدّي إلى الإرباك الذي حصل في خلافة أمير المؤمنين رضي الله عنه ، الذي كان يمتلك كل ما يحتاجه القائد من صفات القيادة

(١) المصدر نفسه ، ٢/١١٧ .

(٢) ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ١/٣٢٣ .

والعلم والحزم والورع والأمانة والدين ، وبين بعض قادته الذين لا همّ لهم إلا إثارة الفتن بين المسلمين وإفساد ذات بينهم والإبقاء على أجواء التوتر والشحناء إلى غير ذلك مما اتصف به الخوارج من تناقض بين ما يدعون إليه وبين سيرتهم في الحياة .

ولما كان أمير المؤمنين رضي الله عنه منصفاً شجاعاً، أنصف أهل الشام أمام أشياعه من أهل الكوفة فقال: « **وددت أن أبيع منكم برجل من أهل الشام ، بصرف الدراهم عشرة بدينار ، فقيل له نحن وأنت كما قال الأعشى:**

عُلّقها عرضاً وعلقت رجلاً   غيري وعلق أخرى غيرها الرجل

وأنت أيها الرجل علقنا بحبك وعلقت بأهل الشام ، وعلق أهل الشام بمعاوية »[1] .

والحقيقة أن لا قيمة لما قاله أهل الكوفة لأمير المؤمنين ، لأنهم لو علقوا به وأحبّوه لأطاعوه ولما خذلوه ، ولمّا لم يفعلوا ذلك كانوا أهلاً لما وصفهم به أمير المؤمنين رضي الله عنه.

ثم إن أمير المؤمنين كان يعرف لأهل الفضل فضلهم فشهد بما رأى كما أن أهل الشام وبما فيهم معاوية ، كانوا يعترفون بفضله ويقرون به ولكنّ وجود الغوغاء حال بينهم وبين نيل أمنيتهم في طاعة أمير المؤمنين ونصرته ، والتأدّب بآدابه والإرتشاف من علمه ، ولكن أمر الله كان قدراً مقدوراً .

ولكل ما سبق يمكن القول أن كلّ ما عاناه الشهيد عثمان رضي الله عنه على أيدي الخوارج السبئية ، عاناه أمير المؤمنين علي رضي الله عنه على أيديهم ، لهذا فإن مأساة المسلمين في الفتنة واحدة وعدوّهم واحد ، يسكن بين أظهرهم ويتكلم بألسنتهم ويوغر عليهم صدور أبناء جلدتهم .

ولما كان أمير المؤمنين رضي الله عنه يعتقد أنّ ما يراه في الخوارج والغوغاء ما هو

---

(١) ابن حجر الهيثمي ، مجمع الزوائد ، ١١/٣٥٦ ، ح (٣١٧٢٧) عن الليث بن سعد .

إلا نوع من أنواع الجهل الذي يجب عليه أن يزيله بإرشاده لهم وتعليمهم فلما لم يُجدِ ذلك معهم نفعاً ، أعرب لهم عما يتبعه من سياسة معهم وأنه قد استفرغ كلّ ما في وسعه في هذا الباب وأنّه قد نفد صبره عليهم فقال: «كم أداريكم كما تدارى البكارة[١] العَمِدة[٢]، والثياب المتداعية كلما خيطت من جانب تهتكت من آخر كلما أطل عليكم منسر[٣] من مناسر أهل الشام ، أغلق كل رجل منكم بابه ، وانجحر انجحار الضبة في جحرها ، والضبع في وجارها ، الذليل والله من نصرتموه ... إنكم والله لكثير في الباحات قليل تحت الرايات ... أضرع الله خدودكم وأتعس جدودكم ! لا تعرفون الحق كمعرفتكم الباطل، ولا تُبطلون الباطل كإبطالكم الحق»[٤]

وصف لهم كيف أحسن صحبتهم وصبر عليهم وسهر على راحتهم فقال: «لقد أحسنت جواركم وأحطت بجهدي من ورائكم ، وأعتقتكم من ربقة الذل وحلق الضيم ، شكراً مني للبر القليل ، وإطراقاً عما أدركه البصر وشهده البدن من المنكر الكثير »[٥] ويُبدي أمير المؤمنين أسفه على معرفتهم وسماع مشورتهم لما أورثه ذلك من غم وألم لا ينتهي فقال: «يا أشباه الرجال ولا رجال ، حلوم الأطفال وعقول ربات الحجال ، لوددت أنّي لم أركم ولم أعرفكم ، معرفة والله جرت ندماً وأعقبت سدماً قاتلكم الله لقد ملأتم قلبي قيحاً وشحنتم صدري غيظاً وجرعتموني نُغَبْ التهمام أنفاساً وأفسدتم علي رأيي بالعصيان والخذلان ، حتى قالت قريش: إنّ ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب »[٦] .

---

(١) البكار: جمع بَكْر وهو الفتي من الإبل .

(٢) العَمِدة: الإبل التي قد انشدقت أسنمتها لكثرة ركوبها .

(٣) القطعة من الجيش .

(٤) ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ١٠٢/٦ .

(٥) ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ٢٢١/١٩ .

(٦) المصدر نفسه ، ٧٥/٢ .

ثم يُبدي حيرته منهم وانعدام ثقته بهم وأسفه على الاعتماد عليهم فقال: « أيّها الناس المجتمعة أبدانهم ، المختلفة أهواءهم ... ما عزت دعوة من دعاكم ، ولا استراح قلب من قاساكم ... أي دار بعد داركم تمنعون ومع أي إمام بعدي تقاتلون المغرور والله من غريتموه ، ومن فاز بكم فقد فاز بالسهم الأخيب ، ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصل ، أصبحت والله لا أصدّق قولكم، ولا أطمع في نصركم ولا أوعد العدو بكم ما بالكم! ما داؤكم ؟ ما طبّكم ؟ والقوم رجال أمثالكم ، أقولاً بغير علم ، وغفلة عن غير ورع ، وطمعاً في غير حق »[1]. وبهذا يفقد فيهم أي أمل فينصرف عنهم وعن مخاطبتهم أو دعوتهم ، ويلجأ إلى الله تعالى أن يُبدله خيراً منهم ، فأكرمه الله بالشهادة في سبيله فلحق رضي الله عنه بربه وهو على ما كان عليه من الزهد والورع والتقى .



---

(١) ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ١١١/٢ .

علي ومعاوية رضي الله عنهما

لم يكن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ، ممن يوازي أمير المؤمنين علياً رضي الله عنه ولا من طبقته ، ولم يكن من مقاصد هذا البحث النظر في ذلك، ولكن الذي كان من أحد دوافع الكتابة في هذا الموضوع ، أن مبغضي الصحابة قد رفعوا مظلة حب علي وآله ، لا حباً به وإنّما للطعن في حملة الرسالة وحماتها أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وجعلوا مما حصل بين علي ومعاوية رضي الله عنهما مدخلاً لطمس كل ما سواه.

وأنّ هؤلاء عملوا على تأصيل المسائل الخلافية التي وقعت بين علي رضي الله عنه وبعض الصحابة للعمل على زيادة فجوة الخلاف بين أبناء الأمة الإسلامية وتغذية ذلك الخلاف وتهويله ، ليبقى حاجزاً يحول بين تنمية روابط الأخوة بين المؤمنين حتى أصبح الانطباع العام عند كثير من المسلمين أنّ علياً ومعاوية رضي الله عنهما لم يكن بينهما إلا السيف منذ أن ولدا إلى أن توفيا ، لكنّ الحقيقة غير ذلك وهي أنه لم يُذكر عنهما أي خلاف قبل استشهاد عثمان رضي الله عنه .

وأن معاوية لم يُذكر عنه أي أذى لأي مسلم قبل إسلامه وهو في مكة ولم يُذكر عنه أي مشاركة للمشركين في غزواتهم و حروبهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد ذُكر أنّ معاوية قال: أسلمت يوم عمرة القضاء ولكني كتمت إسلامي من أبي إلى يوم الفتح ، وكان أبوه كما هو معلوم رئيساً مطاعاً وذا مال جزيل ولما أسلم قال: يا رسول الله مرني حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين ، قال نعم. قال: **ومعاوية تجعله كاتباً تحت يديك قال نعم**[1]، وقد استكتبه النبي صلى الله عليه وسلم منذ أن أسلم . وقول أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: « لأُخرِجنّ ما في عُنقي لمعاوية قد استكتبه نبي

---

(١) مسلم ، صحيح مسلم ، ك فضائل الصحابة ، فضائل أبي سفيان بن حرب ، ح (٤٥٥٧) ابن كثير البداية والنهاية ، ٨/١٠ ، ١٢١/٨ .

الله ﷺ وأنا جالس ، فعلمت أن ذلك لم يكن من رسول الله ﷺ ولكن من الله »[1]
وما روي « أنّ معاوية أخذ الإداوة وتبع بها رسول الله ﷺ[2]، فرفع رأسه إليه وقال: « يا معاوية إن وليت أمراً فاتق الله واعدل » فيه الإشارة إلى ملك معاوية .
وهناك كثير من الآثار التي تؤكّد معرفة معاوية بمقام أمير المؤمنين رضي الله عنه ، وثناء الصحابة على معاوية ومنهم علي رضي الله عنه معروف أيضاً ، ومن ذلك قول أمير المؤمنين رضي الله عنه لأهل الكوفة: لا تكرهوا إمرة معاوية أو لا تتمنّوا موت معاوية فإنّكم لو فقدتموه رأيتم الرؤوس تندر عن كواهلها[3] .

ومن كُتب أمير المؤمنين علي إلى معاوية رضي الله عنهما « ... وأما ما ذكرت من ذكر الخلفاء فلعمري إنّ مقامهم في الإسلام كان عظيما ، وإنّ المصاب بهم لجرح عظيم في الإسلام ، وأما ما ذكرت من قتلة عثمان ، فإني نظرت في هذا الأمر ، فلم يسعني دفعهم إليك وقد كان أبوك أتاني حين ولّى الناس أبا بكر فقال لي: يا علي: أنت أحق الناس بهذا الأمر بعد رسول الله ﷺ وهات يدك حتى أبايعك فلم أفعل مخافة الفرقة في الإسلام فأبوك أعرف بحقي منك فإن كنت تعرف من حقي ما كان يعرفه أبوك فقد قصدت رشدك »[4] .

وكان ذلك رداً على كتاب من معاوية فيه ذكر لاستشهاد عثمان رضي الله عنه ومطالبة بالقصاص من قتلته ومنه « فأمكنا ممن قتله حتى نقتله به ونحن أسرع إليك إجابة وأطوعهم طاعة ... والذي لا إله غيره لنطلبن قتلة عثمان في الجبال والرمال حتى يقتلهم الله أو تلحق أرواحنا بعثمان والسلام »[5] .

---

(١) الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ١٢٩/١٢ .
(٢) المصدر نفسه ، ١٣١/١٢. وقال: رجاله ثقات.
(٣) البلاذري ، أنساب الأشراف، ٥٨/٥ ، ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ١٥١/٥٩ .
(٤) ابن حبان ، الثقات ، ٢٨٧/٢ .
(٥) المصدر نفسه .

وذكر ابن عساكر أن رجلاً جاء إلى أبي زُرعة الرازي فقال له: « إني أبغض معاوية قال له: لِم ؟ قال: لأنّه قاتل علياً بغير حق فقال له أبو زرعة: ربّ معاوية ربّ رحيم وخصم معاوية خصم كريم فما دخولك بينهما »[١]، ومما يروى من نوادر عقيل بن أبي طالب في هذا الباب ، أن رجلاً قال له عندما كان مع أهل الشام: إنّك لخائن حيث تركت أخاك وترغب إلى معاوية قال: أخون مني والله من سفك دمه بين أخي وابن عمي أن يكون أحدهما أميراً »[٢] ,

وقد كان معاوية يُجلّ أمير المؤمنين ويعرف له سابقته وهو على أحسن ما يكون معه فيما سوى مسألة استشهاد عثمان ﷺ . وقد سبق ذكر إجابته على سؤال أبي مسلم الخولاني عندما قال لمعاوية: لماذا تنازع علياً ؟ فأجابه: « إني لأعلم أنّه أفضل منّي وأحق بالأمر»[٣]. لولا وجود القتلة في جيشه .

ومن أقوال معاوية في أمير المؤمنين علي ﷺ ، لعقيل بن أبي طالب عندما ذكر بعض ورع علي فقال: « **ذكرت ما لا يُنكر رحم الله أبا حسن فلقد سبق من كان قبله وأعجز من يأتي بعده** »[٤] .

وقال: «**هيهات هيهات عقمت النساء أن يلدن مثله** »[٥]، ووصف معاوية زهده فقال: هو الذي يكنس بيوت الأموال ويُصلي فيها ، وهو الذي قال: يا صفراء ويا بيضاء غرّي غيري[٦] .

---

(١) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ٣٥٩/١٦ .

(٢) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ٧/٤ .

(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء ، ١٤٠/٣ . العمري ، الخلافة الراشدة ، ٥٢٦.

(٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٢٥٣/١٠.

(٥) المصدر نفسه ، ٢٥٤/١٠.

(٦) ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ٢٢/١. ابن عساكر، تاريخ دمشق ، ١٠٩/٦ ، ابن كثير، البداية والنهاية ، ٧٣/٨ .

وقال سعد بن أبي وقاص لمعاوية رضي الله عنهما: « إني سمعت رسول الله ﷺ يقول علي مع الحق أو الحق مع علي حيث كان ، قال من سمع ذلك ؟ قال: قاله في بيت أم سلمة قال: فأرسل إلى أم سلمة فسألها فقالت: قد قاله رسول الله ﷺ في بيتي ، فقال لسعد ما كنت عندي قط ألوم منك الآن ، فقال ولِم ؟ قال: لو سمعت هذا من النبي ﷺ لم أزل خادماً لعلي حتى أموت »[1] .

وهذا باب يطول الحديث فيه وهو جدير بأن يكون بحثاً مستقلاً ، لما فيه من إظهار لبعض الفضائل المطموسة في كتب التاريخ عن العلاقة فيما بين علي ومعاوية رضي الله عنهما ، والتي سيظهر فيها أنه كان هناك جانبا مشرقا للعلاقة فيما بينهما سوى جانب النزاع الذي انتشرت أخباره وهولت حتى غطت ما سواها من العلاقات الإيجابية في الجانب الآخر .

فإذا كان لبعض الصحابة أخطاء معدودة محدودة بتأويل واجتهاد ، فإن سلامة نواياهم كانت تشفع لهم وكثرة صوابهم يمحو تقصيرهم ويجبره لذلك: اتفق أهل السنة على وجوب منع الطعن على أحد من الصحابة بسبب ما وقع لهم من ذلك حتى لو عرف المحق منهم ، لأنهم لم يقاتلوا في تلك الحروب إلا عن اجتهاد وقد ثبت أن المجتهد المصيب يؤجر أجرين وأن المخطئ يؤجر أجرا واحدا[2] .

---

(١) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ٥٩/١٤٢ .

(٢) البخاري ، مع شرحه فتح الباري ، ك الفتن ، شرح الحديث (٧٠٨٣) .

استشهاد أمير المؤمنين علي رضي الله عنه (١٧ رمضان ٤٠ هـ)
ومحاولة اغتيال معاوية وعمرو رضي الله عنهما

ما كانت تقوم به الخوارج لم يكن عشوائياً ولا آنياً ، وإنما كان مخططاً لـه ومدروسة أبعاده ونتائجه ، وقد اتضح أن فكرة الخروج على الخلفاء والطعن على الولاة والأمراء لم تكن معروفة عند العرب المسلمين ، حتى جاء عبد الله بن سبأ بها من موروثه في الفكر اليهودي ، فهيأ لنفسه بذلك حصانة في دولة الخلافة الراشدة لكي يقول ما يشاء. ويُعيب ما يشاء تحت مظلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وبذلك تهيأت له الأسباب لبناء منظمة سريّة استخدمت كل الوسائل لعرقلة المسيرة العسكرية والسياسية في الخلافة الراشدة ، فكان من أبرز نتائج أعمال المنظمة السرّية الباطنية السبئية ، عزل عدد من ولاة عثمان رضي الله عنه ومن ثم استشهاده ، باستخدام سلاح الإعلام المضاد لتشويه كل ما له صلة بذلك الخليفة الراشدي العظيم .

ولما استفرغوا وسائلهم في نشر الشائعات وإلصاق التهم وتدبير المكائد بدلوا منهجيتهم إلى طريقة كيل المديح وتعظيم الأشخاص وإسباغ الأوصاف الأسطورية على من يريدون إبرازه وتقديمه في المجتمع من رجال الفتنة .

وقد فعلوا ذلك مع أمير المؤمنين علي رضي الله عنه فقالوا له : أنت هو الله ! تعالى الله عن ذلك ، فعلم أمير المؤمنين زيفهم وزورهم وخطورتهم ، فاتخذ بحقهم الإجراءات المناسبة حتى أحرق بعضهم بالنار كما اتضح ذلك .

فلما رأى الخوارج انكشاف أمرهم كاملاً عند أمير المؤمنين ولم يعد هناك ما يمكن تغطيته ، علموا أنه لا مناص من اغتيال علي وإلحاقه بعثمان رضي الله عنهما ولكن علموا أنهم إن اغتالوا علياً رضي الله عنه ، سيمهدون السبيل لخلافة معاوية ذلك

الأمير الذي لا يستطيعون خداعه أو العيش تحت ولايته ما دام عارفاً بهم ، بل هو الطالب لهم والداعي إلى القصاص منهم ، مما اضطرهم إلى توسيع مؤامرتهم وإقرار اغتيال معاوية مع علي رضي الله عنهما .

فلما تم ذلك نظروا وإذا بعمرو بن العاص رضي الله عنه في مصر وهو خصمهم الأول العارف بمكرهم ، المنكوب على أيديهم المصاب بمكائدهم . فأقروا اغتياله أيضاً .

وبذلك أعلنوا عن هويتهم وأنه لا فرق عندهم بين علي ومعاوية وعمرو رضي الله عنهم وأنّ كل من يعمل لعقيدته وأمّته هو عدو لهم وعائق أمام مخططاتهم يجب إزالته كما أُزيل عثمان رضي الله عنه ، ولعل هذه هي منهجية اليهود وأعداء الصحابة إلى هذا اليوم ، والتي يصدقها كل ما يجري في الأمة الإسلامية منذ سقوط الخلافة .

وبإقرار تلامذة ابن سبأ اغتيال هؤلاء القادة الثلاثة ، أقرّوا أوسع مؤامرة في التاريخ الإسلامي ، كان الهدف من ورائها إنزال ضربة قاصمة بالإسلام والمسلمين وفتح باب الفتنة والصراع الداخلي على أوسع نطاق ، لكي لا يغلق وفي الأمة روح من عقيدة أو رمق من قوة .

فانتدب لهذه الجريمة ثلاثة من تلامذة ابن سبأ وهم عبد الرحمن بن ملجم المرادي والبُرك بن عبد الله التميمي وعمرو بن بكير التميمي ، فتعاهدوا وتعاقدوا ليقتلن هؤلاء الثلاثة علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص رضي الله عنهم. فأما ابن ملجم الذي كان من المقربين لابن سبأ المجالسين له في مصر وفي الكوفة ، والذي كان من أصحابه في سفره من مصر إلى المدينة في جريمتهم الأولى ، قال: أنا لعلي ، وقال البُرك: أنا لمعاوية ، وقال ابن بكير: أنا أكفيكم عمرو بن العاص ، فتواثقوا أن لا ينكصوا واتعدوا بينهم أن يقع ذلك ليلة سبع عشرة من رمضان سنة أربعين. ثم توجه كل رجل منهم إلى البلد التي بها صاحبه فقدم ابن مُلجم الكوفة فاجتمع بأصحابه من الخوارج فأسرّ إليهم ، وكان يزورهم

ويزورونه ، حتى كان ليلة السابع عشر من رمضان ، قام أمير المؤمنين رضي الله عنه إلى صلاة الفجر ، فاعترضه ابن ملجم فضربه بالسيف « فأصاب جبهته إلى قرنه ووصل إلى دماغه » وعاش أمير المؤمنين بعدها يومين ثم توفي رضي الله عنه وأرضاه.(١)

فأُخذ ابن ملجم وقُتل بعد أن أثبت عداوته لله ولرسوله ﷺ وللصحابة رضي الله عنهم. وهكذا يلحق علي بأخويه الخليفتين الشهيدين عمر الفاروق وعثمان ذي النورين بعد حياة مفعمة بالجهاد وجلائل الأعمال ، ففقدت الأمة به بقية الراشدين ، وخليفة المسلمين وإمام المتقين رضي الله عنه ، أما البُرك بن عبد الله الخارجي ، فإنّه في تلك الليلة التي ضُرب فيها أمير المؤمنين قعد لمعاوية ، فلما خرج ليصلي الغداة شدّ عليه بسيفه ، فوقع السيف في أليته ، فأُخذ فقتل وعولج معاوية فعوفي من تلك الضربة . فقال يصف ذلك:

نجوت وقد بل المراديّ سيفه   من ابن أبي شيخ الأباطح طالب

وكان عمرو بن بُكير في الليلة التي ضُرب فيها أمير المؤمنين رضي الله عنه، قد جلس لعمرو بن العاص في مصر ينتظر صلاة الفجر في المسجد ، وكان عمرو بن العاص مريضاً تلك الليلة ، فأمّر خارجة بن حُذافة من بني عامر بن لؤي ، وكان صاحب شرطته ، فخرج ليصلي ، فشدّ عليه الخارجي فضربه فقتله ، وهو يظن أنه عمرو فأُخذ وقُتل (٢) .

واللافت في هذه المؤامرة ، عداء مبغضي الصحابة لمن يُصلي الفجر وحرصهم على التخلص من هذا النوع من المسلمين ، لأنهم هم الذين يكشفون

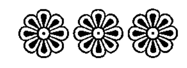
---

(١) ابن سعد ، الطبقات ، ٢٢/٣ . ابن خياط ، تاريخ ، ١٩٨ ، الذهبي ، عهد الخلفاء الراشدين ، ٦٠٧.

(٢) الطبري ، تاريخ ، ٦٦/٦ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٣٤٤/٧ . المسعودي ، مروج الذهب ٤٢٦/٢ ، وسمّى قاتل خارجة زادويه ، وقال: قيل عمرو بن بكير التميمي. ابن الأثير ، الكامل ١٩٨/٣ وروى أن معاوية اكتفى بقطع يد البُرك ورجله ولم يقتله وبقي حتى قتله زياد بن أبي سفيان في البصرة .

زيفهم وينقضون غزلهم ، ولا زال مصلّو الفجر العاملين بهدي الكتاب والسنة هدفاً لأعداء الدين في كل مصر وفي كل عصر .

أما أمير المؤمنين علي فقد ساق الله إليه الشهادة كما ساقها إلى أخويه من قبل عمر وعثمان رضي الله عنهما وبذلك نال مناه وحقق مبتغاه رضي الله عنه وأرضاه ، وبقي للخوارج واليهود وأعداء الصحابة ما يسوؤهم في الدنيا والآخرة .



بيعة الحسن بن علي وصلحه مع معاوية

بيعة الحسن وما قيل في الوصية

« كان علي بالعراق يدعى أمير المؤمنين، وكان معاوية بالشام يدعى الأمير»[1].

فلما أصيب أمير المؤمنين قيل له ألا توصي قال: ما أوصى رسول الله ﷺ فأوصي اللهم إنهم عبادك فإن شئت أصلحتهم وإن شئت أفسدتهم[2] .

وعن أبي جحيفة قال: قلت لعلي: «هل عندكم عن رسول الله شيء سوى كتاب الله ؟ قال والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما عندنا شيء سوى كتاب الله »[3] .

وقال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه : « إنّ هذه الإمارة لم يعهد إلينا رسول الله ﷺ فيها عهداً ليتبع أثره ، ولكنّا رأيناها تلقاء أنفسنا استخلف أبو بكر فأقام واستقام ثم استخلف عمر فأقام واستقام ثم ضرب الدهر بجرانه »[4] .

وأخرج البخاري قال: « **ذكروا عند عائشة أنّ علياً رضي الله عنهما كان وصيّاً فقالت: متى أُوصى إليه وقد كنت مسندته إلى صدري – أو قالت: حَجْري – فدعا بالطست ، فلقد انخنث في حجري فما شعرت أنه قد مات فمتى أوصى إليه ؟** »[5] .

وعن طلحة بن مُصرّف قال: « سألت عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما: هل كان النبي ﷺ أوصى ؟ فقال: لا ، فقلت: كيف كُتبَ على الناس الوصية ، أو أُمِروا بالوصيّة ؟ قال: أوصى بكتاب الله »[6] .

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٦/٦٤ ، ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ٥٩/١٤٦ .

(٢) ابن حنبل ، المسند ، ح (١٣٣٩) ، ابن أحمد ، السنة ، ح (١١٧٧) .

(٣) المصدر نفسه ، ح (١٣٣٩) و (١١٧٨) البخاري ، ك العلم ، ح (١١١) الصنعاني المصنف ، ٥/٤٣٤ .

(٤) الحاكم ، المستدرك ، ٣/١٠٤ .

(٥) البخاري ، مع شرحه فتح الباري ، ك الوصايا ، ح (٢٧٤١) .

(٦) المصدر نفسه ، ح (٢٧٤٢) .

وقيل لأمير المؤمنين علي رضي الله عنه: «ألا تستخلف علينا قال: ما استخلف رسول الله ﷺ فأستخلف ، ولكن إن يُرد الله بالناس خيراً ، فسيجمعهم بعدي على خيرهم كما جمعهم بعد نبيهم على خيرهم »[1] .

وبهذه الأحاديث الصحيحة يتأكّد زيف وبطلان ما يرويه بعض الجهلة ومبغضي الصحابة ، أن رسول الله ﷺ أوصى بالخلافة إلى علي رضي الله عنه، وأن ذلك يعد بهتانً وافتراءً لما يلزم منه خطأ كبير يقتضي تخوين الصحابة ، وممالأتهم بعده على ترك إنفاذ وصيته وإيصالها إلى من أوصى إليه ، وصرفهم إياها إلى غيره لا لمعنى ولا لسبب. قال ابن كثير: وكل ما يقال في ذلك هو من الهذيان ولا أصل لشيء منه[2] .

وما قام به أهل الكوفة من بيعة الحسن بن علي رضي الله عنهما هو اجتهاد منهم لا وصية فيه لا من أمير المؤمنين علي ولا من غيره ، كما أن الصحابة بايعوا علياً دون وصيّة من رسول الله ﷺ ولا من غيره من الخلفاء .

ولما استشهد أمير المؤمنين رضي الله عنه بايع الناس الحسن مكانه ، فكان ميله للصلح وجمع شمل المسلمين ظاهراً منذ يوم بيعته ، إذ كان يقول: تبايعون لي على السمع والطاعة، وتحاربون من حاربت وتسالمون من سالمت[3] وقيل إنّ أول من بايعه قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري ، على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ[4] .

وكان قيس بن سعد في حياة الخليفة علي رضي الله عنه يقود أربعين ألفاً من

---

(١) الحاكم ، المستدرك ، ٩٧/٣ . وقال صحيح الإسناد .

(٢) البخاري ، مع شرحه فتح الباري ، ك الوصايا ، شرح الحديث (٢٧٤١) ، ابن كثير ، البداية والنهاية ١٣٣ .

(٣) الإمامة والسياسة ، ١٣٣ .

(٤) ابن حجر ، المطالب العالية ، ٣١٨/٤ ، ابن الجوزي ، المنتظم ، ٤٠٦/٣ ، الإمامة والسياسة ، ١٣٣.

المقاتلين[1] وكان الحسن رضي الله عنه يعتقد أنّ قيساً لا يرى مصالحة معاوية، فخشي أن لا يوافقه إن أقدم على الصلح ، فقدم عليه في قيادة ذلك الجيش عبيد الله بن العباس[2].

وبعد استقرار بيعة الحسن خرج بالناس حتى نزل المدائن ، وبعث قيس بن سعد على مقدمته في اثني عشر ألفاً ، وأقبل معاوية من الشام حتى نزل مسكن وبينما كان الحسن في المدائن أُشيع أن قيساً قد قُتل، فاجترأ الناس على الحسن رضي الله عنه حتى نازعه بعضهم بساطاً كان تحته[3]، وطعنه رجل بخنجر ، فتحوّل إلى القصر الأبيض وسبّهم ، وقال: « لا خير فيكم قتلتم أبي بالأمس واليوم تفعلون بي هذا ، ثم كتب إلى معاوية بالصلح »[4]، وروي أنه « **بينما هو يصلي ، إذ وثب عليه رجل فطعنه بخنجر في وركه ، فتمرض منها أشهراً ثم قام على المنبر يخطب فقال : يا أهل العراق اتقوا الله فينا فإنا أمراؤكم وضيفانكم ونحن أهل البيت الذي قال الله عزوجل فيهم:** « إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيرا » فما زال يومئذ يتكلم حتى ما يُرى في المسجد إلا باكياً »[5] .

وروي عن الشعبي قال: حدثني سفيان قال : « قلت للحسن بن علي لما قدم من الكوفة إلى المدينة: يا مذل المؤمنين قال: لا تقل ذاك فإني سمعت أبي يقول: لا تذهب الأيام والليالي حتى يملك معاوية فعلمت أن أمر الله واقع ، فكرهت أن تهراق بيني وبينه دماء المسلمين »[6] .

وقيل إنه سمع علياً يقول : « لا تكرهوا إمارة معاوية فوالله لئن فقدتموه لترون

---

(١) الصنعاني ، المصنف ، ٤٦١/٥ .

(٢) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٤٠٦/٣ ، ابن حجر ، فتح الباري ، شرح الحديث (٧١٠٩) .

(٣) الطبراني ، المعجم الكبير ، ٩٣/٣ ، الذهبي ، العبر ، ٣٥/١ .

(٤) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٤٠٦/١ ، ابن حجر ، المطالب العالية ، ٣١٨/٤.

(٥) الطبراني ، المعجم الكبير ، ٩٣/٣ .

(٦) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ١٥١/٥٩ .

رؤوساً تندر عن كواهلها كأنها الحنظل »[١]. وروي أن علياً « لما رجع من صفين علم أنه لا يملك فتكلّم بأشياء لم يكن يتكلم بها قبل ذلك ، وقال أشياء لم يكن يقولها قبل ذلك »[٢] .

ومهما قيل في أسباب الصلح المباشرة ، فإن الحسن رضي الله عنه بحلمه وسماحته وكرمه وبما اتخذه من مواقف نبيلة أيام محنة أمير المؤمنين عثمان ، وما كان يواجه به أمير المؤمنين علي من دعوة إلى القعود وترك الناس ، وما كان يظهر عليه من تألّم وتوجه لما يصيب المسلمين من قتل في الفتنة ، كل ذلك يشير وبوضوح إلى رغبته الشديدة في إصلاح أمر الأمة وإطفاء الفتنة ، مهما كان الثمن الذي سيدفعه في سبيل ذلك. لا سيما وأنه على موعد مع الصلح العظيم منذ كان في الخامسة أو السادسة من عمره ، وذلك ببشارة رسول الله ﷺ للمسلمين بالخير العميم الذي سيتحقق على يدي السيد الحليم الحسن بن علي رضي الله عنهما عندما قال: « **إنّ ابني هذا لسيد ولعل الله أن يُصلح به بين فئتين من المسلمين** »[٣] .

وروى الإمام البخاري فقال: لما سار الحسن بن علي رضي الله عنهما إلى معاوية بالكتائب قال عمرو بن العاص لمعاوية: أرى كتيبة لا تولي حتى تدبر أخراها قال معاوية من لذراري المسلمين ؟ فقال: أنا فقال عبد الله بن عامر وعبدالرحمن بن سمُرة: نلقاه فنقول له الصلح قال الحسن: ولقد سمعت أبا بكرة قال: بينا النبي ﷺ يخطب جاء الحسن فقال النبي ﷺ « **ابني هذا سيد ولعل الله يصلح به بين فئتين من المسلمين** »[٤]. وبعد استشهاد علي رضي الله عنه سار معاوية بعساكر

---

(١) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ٥٩/١٥١ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) البخاري ، مع شرحه فتح الباري ، ك الفتن ، ح (٧١٠٩) .

(٤) المصدر نفسه .

الشام حتى نزل مسكن ، وسار الحسن بعساكر العراق حتى نزل المدائـــن فالتقيـا بمنزل من أرض الكوفة – وهي النخيلة[1] فلما نظر الحسن إلى كثرة ما معه مـــن الجند رغب في حقن دماء المسلمين وبما عند الله تعالى فبادر إلى طلب الصلح ، إلا أن ما في البخاري يؤكّد مبادرة معاوية إلى طلب الصلح ، وقد يكون بذلك وافق مـا كان أجمع عليه الحسن . وقد جاء وصف قوة جيش الحســـن رضي الله عنه فـــي صحيـح البخاري عن الحسن البصري قال: « استقبل والله الحسن بن علي معاوية بكتـــائب أمثال الجبال»[2]. **قال ابن حجر: والمحفوظ أن معاوية هو الذي بدأ بطلب الصلح**[3] وأنه لما شاهد أهل الشام كتائب الحسن بن علي رضي الله عنهما « قال عمرو بـــن العاص: إني لأرى كتائب لا تولي حتى تقتل أقرانها ، فقال له معاوية – وكان والله خير الرجلين – أي عمرو ، إن قتل هؤلاء هؤلاء وهؤلاء هؤلاء من لـــي بـــأمور الناس ، من لي بنسائهم ، من لي بضيعتهم ؟ فبعث إليه رجلين من قريش من بنـــي عبد شمس – عبد الرحمن بن سمرة ، وعبد الله بن عامر بن كريز فقال: إذهبا إلـــى هذا الرجل فاعرضا عليه وقولا له واطلبا إليه .

فأتياه فدخلا عليه فتكلما وقالا له وطلبا إليه ، فقال لهما الحسن بن علي: إنا بنو عبد المطلب قد أصبنا من هذا المال ، وإن هذه الأمة قد عاثت في دمائها. قالا: فإنه يعرض عليك كذا وكذا . ويطلب إليك ويسألك .

قال: فمن لي بهذا ؟ قالا: نحن لك به ، فما سألهما شيئاً إلا قالا: نحن لك بـــه فصالحه »[4] .

قال ابن بطال: هذا يدل على أن معاوية كان هو الراغب في الصلـــح وأنـــه

---

(١) الطبراني ، المعجم الكبير ، ٢٦/٣ ، البيهقي ، دلائل النبوة ، ٤٤٤/٦ .

(٢) البخاري ، مع شرحه فتح الباري ، ك الصلح ، ح (٢٧٠٤) .

(٣) المصدر نفسه ، ك الفتن ، شرح الحديث (٧١٠٩) .

(٤) المصدر نفسه ، ك الصلح (٢٧٠٤) .

عرض على الحسن ورغبه وحثه على رفع السيف وذكّره ما وعده به جده ﷺ من سيادته في الإصلاح به .

فقال له الحسن: إنا بنو عبد المطلب أصبنا من هذا المال، أي إنا جُبلنا على الكرم والتوسعة على أتباعنا من الأهل والموالي وكنا نتمكن من ذلك بالخلافة حتى صار ذلك لنا عادة .

وإن هذه الأمة ، أي العسكرين الشامي والعراقي « قد عاثت » أي قتل بعضها بعضاً فلا يكفون عن ذلك إلا بالصفح عما مضى منهم والتآلف بالمال .

وأراد الحسن بذلك كله تسكين الفتنة وتفرقة المال على من لا يُرضيه إلا المال فوافقاه على ما شرط من جميع ذلك والتزما له بكل ما أراد[١] .

وهذا الحديث من أعلام النبوة ، ومنقبة للحسن بن علي رضي الله عنهما ، فإنه ترك الملك لا لقلة ولا لذلة ولا لعلة بل لرغبته فيما عند الله لما رآه من حقن دماء المسلمين فراعى أمر الدين ومصلحة الأمة ، وفيه رد على من يتهم الصحابة من أهل الشام أو أهل الكوفة بأنهم غير مسلمين ، بشهادة النبي ﷺ للطائفتين بالإسلام وفيه فضيلة الإصلاح وحقن دماء المسلمين .

وفيه دلالة على رأفة معاوية بالرعية وشفقته على المسلمين ، وقوة نظره في تدبير الملك ، ونظره في العواقب ، وفيه ولاية المفضول الخلافة مع وجود الأفضل لأن الحسن ومعاوية ولي كلاً منهما الخلافة وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد في الحياة وهما بدريان وفيه جواز خلع الخليفة نفسه إذا رأى في ذلك صلاحاً للمسلمين[٢] .

وبعد الانتهاء من الصلح بين الحسن ومعاوية ، طلب معاوية من الحسن أن يُعلم المسلمين بما توصلا إليه من صلح .

---

(١) البخاري ، مع شرحه فتح الباري ، ك الفتن ، شرح الحديث (٧١٠٩) . (٢) المصدر نفسه .

فقام الحسن فخطب على المنبر « فحمد الله وأثنى عليه، قال الشعبي وأنا أسمع ثم قال: أما بعد فإنّ أكيس الكيس التقى وإنّ أحمق الحمق الفجور وإنّ هذا الأمر الذي أختلف فيهِ أنا ومعاوية ، إما كان حقاً لي تركته لمعاوية إرادة صلاح هذه الأمة وحقن دمائهم أو يكون حقاً كان لامرئ أحق به مني ففعلت ذلك « وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين »[1] ثم استغفر ونزل .

وفي رواية أنه قال: « أيها الناس إن الله هداكم بأولنا وحقن دماءكم بآخرنا وإن لهذا الأمر مدة والدنيا دول »[2] وذكر بقية الحديث .

وبهذا فاز الحسن بن علي رضي الله عنهما بشرف بشارة الرسول ﷺ له بالسيادة ، وبفضل الإصلاح بين الفئتين العظيمتين من المسلمين وأثبت أنه أكبر من أن تغره الدنيا وأسمى من أن يقع في براثنها ، فهذا أعظم ما في الدنيا وهو منصب الخلافة ، يزهد به وهو في عنفوان قوته وزهرة شبابه .

فيا له من موقف تصغر أمامه كل المواقف ، ويا له من درس من أبي محمد الحسن لكل أجيال هذه الأمة ولا سيما الذين يقتتلون على الدنيا ، ويمزقون أمة المسلمين وأرض المسلمين ، لكي يقفوا مع هذه المفخرة في التاريخ الإسلامي ، وقفة مع الحسن لاستقاء العبرة والعِظة ، بأن الحرص على مصلحة الأمة ووحدة الأمة هو السيادة وهو الشرف وهو القوة والبطولة ، فهل من سيد بطل في هذا العصر ، يسلك طريق المجد والخلود الذي سلكه أبو محمد الحسن بن علي رضي الله عنهما .

وبهذا الصلح العظيم يثبت أن ترك القتال بين المسلمين كان هو الأولى[3] وهو

---

(١) البخاري ، مع شرحه ، فتح الباري ، ك الفتن ، شرح الحديث (٧١٠٩) . البيهقي ، دلائل النبوة ٤٤٤/٦ ، الطبراني ، المعجم الكبير ، ٢٦/٣ .

(٢) ابن حجر ، فتح الباري ، ك الفتن ، شرح الحديث (٧١٠٩) .

(٣) ابن تيمية ، منهاج السنة ٥٣٧/١ . وينظر: مجموع الفتاوى ، ٣٠٦/٢٥ ، ٤٦٧/٤ .

طريق السيادة ومحل مرضاة الرسول ﷺ والأخذ بهديه وإرشاده .

وبعد ذلك دخل معاوية الكوفة وبويع بالخلافة سنة إحدى وأربعين[1] وسمي ذلك العام عام الجماعة، وكانت ولاية الحسن سبعة أشهر وسبعة أيام أقرّ فيها عمال أبيه. « ولم يكن لمعاوية همّ إلا الذين بالنهروان فجعلوا يتساقطون عليه فيبايعونه حتى بقي منهم ثلاثمائة أو نيف ، وهم أصحاب النخيلة »[2] وبقتال معاوية للخوارج الذين قاتلوا أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، يكون قد شارك في فضل وأجر من يقاتل هذه الطائفة ويدفع أذاها عن المسلمين ، كما أخبر بذلك النبي ﷺ في الأحاديث التي سبق ذكرها .

وبعد بيعة معاوية بالخلافة عام الجماعة ، عادت الأمة الإسلامية إلى ما كانت عليه من سيرتها بالفتوح والعمل على نشر الإسلام وتبليغه .

ولم يكن للمسلمين غزو وجهاد للروم منذ استشهاد عثمان رضي الله عنه « فأغزا معاوية الصوائف وشتاهم بأرض الروم ست عشرة صائفة تصيف بها وتشتو ثم تقفل وتدخل معقبتها ثم أغزاهم معاوية ابنه يزيد في سنة خمس وخمسين في جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ في البر والبحر ، حتى أجاز بهم الخليج – خليج القسطنطينية – وقاتلوا أهل القسطنطينية على بابها ثم قفل »[3]. ولم يزل معاوية على ذلك حتى مضى لسبيله ، وكان آخر ما وصاهم به أن شدُّوا خناق الروم فإنّكم تضبطون بذلك غيرهم من الأمم[4] . ومتابعة أخبار فتوح معاوية وسياسته

---

(١) ابن خياط ، تاريخ ، ٢٠٣ ، ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ١٤٧/٥٩ ، وقال: قيل سنة أربعين .

(٢) ابن حجر ، المطالب العالية ، ح (٤٥٠٤) وقال: صحيح الإسناد ، وينظر: ابن خياط ، تاريخ ، ٢٠٤ وقد ذكر أسماء قادة بقية الخوارج .

(٣) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ١٥٩/٥٩ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٣٢/٨ .

(٤) المصدر نفسه .

وفقهه لواقع الأمة التي كان يقودها ، أمر جدير بالدراسة والإهتمام لما أظهر فيه من القدرة الفائقة على قيادة الأمة والعودة بها إلى ما كانت عليه من الجهاد والتواصل والتراحم ، ونسيانه لكل أسباب الخلاف وما مرت به الأمة بعد استشهاد عثمان ﷺ ، والسير بها قدماً إلى الأمام . وإن لم يكن معاوية من طبقة الخلفاء الراشدين بزهدهم وورعهم وسابقتهم فإنه على الأقل من إخوانهم الصغار أو من تلامذتهم المتشبهين بهم ، وإن كان لا يقل عنهم في السياسة وقيادة الرعية والحلم والعفو.

وكان مقلداً للراشدين يجهد نفسه للالتحاق بهم ولكن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء فمَنْ من الناس يلحق بالراشدين الأربعة ﷺ ممن جاء من بعدهم ؟ .

ولكن معاوية إن لم يلحق بسيرته وهديه في ذات نفسه وفي أهله والمقربين إليه بسيرة الراشدين وهديهم ، فإنه لم يأت بعده من استطاع أن يصل إلى ما وصل إليه.

وقد روي « أنّ معاوية ﷺ عمل سنتين ما يخرم عمل عمر ﷺ ثم بَعُد »[١].

وبما أنّ أمير المؤمنين معاوية قد تعرّض لحملات من التشويه والإنتقاص والإتهام والتزوير أصبحت بمجملها مطعناً على عامة الصحابة ﷺ ثم على جميع أهل السنة والجماعة وعلى المسلمين عموماً ، فلا بدّ من وقفة قصيرة للإشارة إلى بعض فضائله ومزاياه ، **لا لتفضيله على أحد ممن سبقه من الخلفاء أو مساواته بهم** ولكن دفعاً للشبهات عن رجال الإسلام وأعمدته ، واعترافاً لأهل الفضل بفضلهم وإلجاماً لمبغضي الصحابة وأعداء الدين ، وخدمة للحقيقة . فلا يشك مسلم أنّ معاوية من أكابر الصحابة نسباً وقرباً وعلماً وحلماً فوجبت محبته كبقية إخوانه الصحابة الكرام،لأمور اتصف بها بالإجماع منها: شرف الإسلام وشرف الصحبة وشرف النسب وشرف مصاهرته له ﷺ وشرف العلم والحلم والإمارة ثم

---

(١) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ٥٩/١٥٠ .

الخلافة[1] وشهادة ابن عباس وغيره له بالفقه[2]إلى غير ذلـك مـن ذكـر جميـل ووصف حميد ناله معاوية رضي الله عنه بسيرته و هديه .

ومدح عبد الله بن عمر لمعاوية ثابت حيث قال: « **ما رأيت بعد رسول الله ﷺ أسود من معاوية قيل له ولا أبو بكر وعمر ؟ فقال: كان أبو بكر وعمر خير منـه وما رأيت بعد رسول الله ﷺ أسود من معاوية** »[3] .

لذلك قال الربيـع بن نافـع : « **معاوية بن أبي سفيان سـتر أصحـاب رسـول الله ﷺ فإذا كشف الرجل الستر اجترأ على ما وراءه** »[4].

وقال الإمام أحمد: « **إذا رأيت رجلاً يذكر أحداً من الصحابة بسوء فاتهمه على الإسلام** »[5] .

وما رواه العرباض بن سارية السُلمي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:« اللهم علّم معاوية الكتاب والحساب وقه العذاب »[6] .

وقوله ﷺ: « يا معاوية إن وليت أمراً فاتـق الله واعدل ، قال فما زلت أظن أني مُبتلى بعمل لقول رسول الله ﷺ ، حتى ابتليت »[7]. وقوله ﷺ: « اللهم علمه

---

(١) الهيتمي ، تطهير الجنان ، ٥ .

(٢) البخاري ، مع شرحه فتح الباري ، ك فضائل أصحاب النبي ﷺ ، باب ذكر معاوية ، ح (٣٧٦٥) و (٣٧٦٦) .

(٣) ابن تيمية ، منهاج السنة ، ٤/٤٣٠ و ٤/٤٤٤ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٧/١٣٣.

(٤) الخطيب ، تاريخ بغداد ، ١/٢٢٣ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٧/١٤٢ .

(٥) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٧/١٤٢ .

(٦) ابن حبان ، صحيح ابن حبان ، فضائـل معاويـة ، ح (٧١٦٦) ، ابـن تيمـية ، مجمـوع الفتاوى ٣٥/٦٤.

(٧) الهيثمي ، مجمع الزوائد ، ٥/١٨٥.

الكتاب والحساب ومكن له في البلاد »[١] .

ومما روي أن معاوية سمعه من رسول الله ﷺ وانتفع به ، قوله: سمعت من رسول الله ﷺ ما نفعني الله به قال: «**أعرضوا عن الناس ألم تر أنك إن اتبعت الريبة في الناس أفسدتهم أوكدت تفسدهم** »[٢] .

وقوله ﷺ:« لا قُدّست أمة لا يأخذ ضعيفها حقه من قويها وهو غير مضطهد»[٣] .

والآثار في هذا الباب كثيرة، والمقصود أن معاوية قد صحب النبي ﷺ فاستفاد منه آداباً وعلماً وسياسة وفقهاً وعبادة ، حتى شهد له الصحابة بالفضل والفقه والعبادة ، قال أبو الدرداء: « **ما رأيت أحداً أشبه صلاة بصلاة رسول الله ﷺ من إمامكم هذا يعني معاوية** »[٤] .

قال ابن تيمية فهذه شهادة ابن عباس له بالفقه وشهادة أبي الدرداء بحسن الصلاة وهما هما، والآثار الموافقة لهذا كثيرة[٥] .

وبلغ من اهتمامه بالرعية وعدله: **أن جعل في كل قبيل رجلاً ، يُصبح في كل يوم فيدور على المجالس ، هل ولد فيكم الليلة ولد ؟ هل حدث الليلة حدث، هل نزل بكم نازل؟ قال: فيقولون: نعم نزل رجل من أهل اليمن بعياله ، يسمونه وعياله ، فإذا فرغ من القبيل كله ، أتى الديوان فأوقع أسماءهم في الديوان**[٦] . قال قتادة: « **لو أصبحتم في مثل عمل معاوية لقال أكثركم هذا المهدي** »[٧] . وقال مجاهد : « **لو أدركتم**

---

(١) الطبراني ، المعجم الكبير ، ٤٣٩/١٩ ، المعجم الأوسط ، ١١٠/٣ ، ح (٢٢٢٥) .

(٢) المصدر نفسه ، ٣٦٥/١٩ ، ٣١٢/١٩ ، ٣٨٥/١٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ٣٨٨/١٩ .

(٤) ابن تيمية ، منهاج السنة ، ٢٣٥/٦ . (٥) المصدر نفسه .

(٦) ابن تيمية ، منهاج السنة ، ٢٣٤/٦. ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٣٣/٧ .

(٧) المصدر السابق ، ٢٣٢/٦ .

معاوية لقلتم هذا المهدي »[1] .

وذكر عمر بن عبد العزيز وعدله عند الأعمش فقال: كيف لو أدركتم معاوية ؟ قالوا في حلمه ؟ قال: لا والله في عدله[2] .

وسأل رجل المعافى بن عمران فقال: يا أبا مسعود أين عمر بن عبد العزيز من معاوية ابن أبي سفيان ؟ فغضب من ذلك غضبا شديدا وقال: لا يقاس بأصحاب رسول الله ﷺ أحد ، معاوية صاحبه وصهره وكاتبه وأمينه على وحي الله عزوجل وقد قال رسول الله ﷺ: « دعوا لي أصحابي »[3] .

وسئل عبد الله بن المبارك عن معاوية وعمر بن عبد العزيز أيهما أفضل فقال: لتراب في منخري معاوية مع رسول الله ﷺ خير وأفضل من عمر بن عبد العزيز وقال ابن المبارك: معاوية عندنا محنة ، فمن رأيناه ينظر إليه شزرا اتهمناه على الصحابة[4] .

وروي أنه قال: « **والله إن الغبار الذي دخل في أنف فرس معاوية مع رسول الله ﷺ ، أفضل من عمر بألف مرة ، صلى معاوية خلف رسول الله فقال رسول الله ﷺ: سمع الله لمن حمده ، فقال معاوية: ربنا لك الحمد ، فما بعد هذا الشرف الأعظم** » .

فإذا كان مثل ابن المبارك يقول في معاوية ذلك ، وأن تراب أنف فرسه فضلا عن ذاته أفضل من عمر بن عبد العزيز ألف مرة فأي شبهة تبقى لمعاند وأي دخل يتمسك به غبي أو جاحد[5] . بعد ثناء الصحابة

---

(١) الطبراني ، المعجم الكبير ، ٣٠٨/١٩.

(٢) ابن تيمية ، منهاج السنة ، ٢٣٣/٦ .

(٣) الخطيب ، تاريخ بغداد، ٢٢٤/١، الهيتمي، تطهير الجنان ، ١٢.

(٤) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٤٢/٨ ، ١٣٨/٨ .

(٥) الهيتمي ، تطهير الجنان ، ١٣ .

عليه[١]، وموافقة كثير منهم ومن فقهاء التابعين لاجتهاده واعتقاده حقيقة ما هو عليه من المطالبة بالقصاص من قتلة الشهيد عثمان رضي الله عنه وأن ما قام به كان اتباعاً لما توصل إليه من اجتهاد باعتبار الدليل الملجئ إلى ذلك لأن المجتهد أسير الدليل الذي انقدح له ، وذلك مما يثاب عليه معاوية ومن وافقه[٢] .

وقد بلغ من **حزم معاوية** أن سأل عمرو بن العاص فقال: ما بلغ من عقلك ؟ قال: ما دخلت في شيء قط إلا خرجت منه ، فقال معاوية: لكني ما دخلت في شيء قط وأردت الخروج منه[٣] .

أما حلمه فقد سئل عنه الأحنف بن قيس التميمي ، فقيل له من أحلم أنت أم معاوية ؟ قال : تالله ما رأيت أجهل منكم إن معاوية يقدر فيحلم ، وأنا أحلم ولا أقدر فكيف أقاس عليه أو أدانيه[٤] .

قال معاوية: إني لأستحي من ربي أن يكون ذنب أعظم من عفوي أو جهل أكبر من حلمي أو عورة لا أواريها بستري[٥] .

وقال إني لأستحي أن أظلم من لا يجد علي ناصراً إلا الله[٦] .

وقال الأخطل في معاوية:

وترى عليه إذا العيون لمحنه **سيما الحليم وهيبة الجبار**[٧]

وقال عبد الله بن الزبير: لا يبعدن الله ابن هند إن كانت فيه لمخارج لا تجدها في

---

(١) المصدر نفسه ، ٢٤ .

(٢) الهيتمي ، تطهير الجنان ، ٢٥ .

(٣) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ٩٧/٢ .

(٤) المصدر نفسه ، ١٢٧/٢.

(٥) المصدر نفسه ، ١٢٩/٢ . ابن الأثير ، الكامل ٢٦٣/٣ .

(٦) المصدر نفسه ، ٤١/١ .

(٧) المصدر نفسه ، ٤٩/١ .

أحد بعده ، والله إن كنا لنفرقه فيتفارق لنا ، وما الليث الحرب على براثنه بـأجرأ منه وما ابن ليلة من أهل الأرض بأدهى منه فيتخادع لنا[1] .

وقال ابن عباس: «إذا ذهب آل حرب ذهب الحلم من الناس»[2] .

ولعل من أبرز صفات معاوية السياسية أنه لا يبخس الناس أشـياءهم قـال يومـاً لجلسائه من أكرم أباً وأماً وجداً وجدة وعماً وعمة وخالاً وخالـة ؟ فقـالوا: أمـير المؤمنين أعلم ، فأخذ بيد الحسن بن علي رضي الله عنهما وقال: هذا[3] .

وكان يقول لبعض المنحرفين عنه: اقبلونا بما فينا فإن ما وراءنا شر لكـم وإن معروف زماننا هذا منكر زمان قد مضى ، ومنكر زماننا معروف زمان لم يـأت ولو قد أتى فالرتق خير من الفتق وفي كلٍ بلاغ ولا مقام على الرزية[4] .

وقال لقريش: ألا أخبركم عني وعنكم ؟ قالوا: بلى. قال: فأنا أطير إذا وقعتـم وأقع إذا طرتم ولو وافق طيراني طيرانكم سقطنا جميعاً. وقال: لو أن بيني وبيـن الناس شعرة ما انقطعت أبداً. قيل له: وكيف ذلك ؟ قال: كنت إذا مدوها أرخيتـها وإذا أرخوها مددتها[5] .

وكان يحب العرب ويذكر فضلهم في أكثر مجالسه ويقـول: ألا إن دروع هـذا الحي من قريش إخوانهم من العرب ، المتشابكة أرحامهم تشابك حلق الدرع التـي إن ذهبت حلقة منه فرقت بين أربع ولا تزال السيوف تكره مذاقة لحوم قريش مـا بقيت دروعها معها ، وشدت نطقها عليها ولم تفك حلقها منها فإذا خلعتها من رقابها كانت للسيوف جَزَراً . وقال عمر بن عتبة بن أبي سفيان : عقمت النساء أن يلـدن

---

(١) ابن بكار ، الموفقيات ، ٥١٦ .

(٢) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ٣٣٧/٤ . ابن الأثير ، الكامل ، ٢٦٢/٣ .

(٣) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ٧٣/٥ .

(٤) المصدر نفسه ، ٧٦/٤ .

(٥) المصدر نفسه ، ٣٤٠/٤ .

مثل عمي – معاوية – شهدت له يوماً ، وقد قدمت عليه وفود العـــرب ، فقضـــى حوائجهم وأحسن جوائزهم فلما دخلوا ليشكروه سبقهم إلى الشكر فقال لهم: جزاكـــم الله يا معشر العرب عن قريش أفضل الجزاء بتقدمكم إياهم في الحرب وتقديمكم لهم في السلم ، وحقنكم دماءهم بسفكها منكم ، أما والله لا يؤثر عليكم غيركم منـــهم إلا حازم كريم ، ولا يرغب عنكم منهم إلا عاجز لئيم ، شجرة قامت على ساق فتفـوع أعلاها واجتمع أصلها ، وعضد الله من عضدها ، فيا لها من كلمة لو اجتمعت وأيدٍ لو ائتلفت ! ولكن كيف بإصلاح ما يريد الله إفساده(١) .

ومن محاوراته لبعض الصحابة ، ما دار بينه وبين **المِسْوَر بن مخرمة** بـــن نوفل القرشي(٢)، قال معاوية ما فعل طعنك على الأئمة يا مســـور ؟ قـــال قلـــت: ارفضنا من هذا وأحسن فيما قدمنا له فقال: لتكلّمني بذات نفسك قال: فلم أدع شـــيئاً أعيبه عليه إلا أخبرته به فقال: لا تبرأ من الذنوب فهل لك من الذنوب ما تخاف أن تهلك إن لم يغفرها الله لك ؟ قال: قلت نعم إن لي ذنوباً إن لم يغفرهـــا الله هلكـت بسببها قال فما الذي يجعلك أحق أن ترجو أنت المغفرة مني ؟ فوالله لما ألـــي مـــن إصلاح الرعايا وإقامة الحدود والإصلاح بين الناس والجهاد في سبيل الله والأمـــور العظام التي لا يحصيها إلا الله ولا نحصيها أكثر مما تذكر من العيوب والذنـــوب . وإني لعلى دين يقبل الله فيه الحسنات ويعفو عن السيئات والله على ذلك ، وما كنت لأخيّرن بيـــن الله وغيره إلا اخترت الله على غيره مما سواه ، ففكرت حيـــن قال لي ما قال ، فعرفت أن قد خصمنـــي. قال : فكان المســـور إذ ذكـــره بعـــد ذلـــك دعـــا له بخير(١) . وثبت معاوية رضي الله عنه على ما عُرف عنه من الحلم والتســـامح مع الرعية والجهاد والجـــد مع أعداء المسلمين ، فعاش الناس في زمانه على أحســـن

---

(١) المصدر نفسه ، ٣/٣٨٧ .

(٢) ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ٣/١٣٩٩ .

(٣) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٨/١٣٢ .

وجه من السلم والعافية والعزة والرفاه والدين والأخوة حتى قيل: «**لا مدينة بعد عثمان ولا رخاء بعد معاوية**»(١) .

قال ابن تيمية: ولم يأتِ بعد الراشدين من هو خير من معاوية ولا كان الناس في زمان ملك من الملوك خيراً منهم في زمن معاوية إذا نسبت أيامه إلى أيام من بعده(٢) .

وبقي أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه على هديه وسمته ، حتى حضره ما يحضر كل حي ، **فمرض قبيل وفاته** فقال: إن أُعافى فقد عوفي الصالحون قبلي وإني لأرجو أن أكون منهم ، وإن ابتليت فقد ابتلي الصالحون قبلي ، وما أيأس أن أكون منهم ، وإن كان مرض مني عضو فما أُحصي صحيحي .

وإن كان وجَدَ مني بعض خاصتكم فقد كنت وصولاً لعامتكم ، فما لي أن أتمنى على الله أكثر مما أعطاني ، فرحم الله من دعا لي بالعافية. فارتجت الأصوات بالدعاء له فاستبكى وبكى ، وفي هذه الخطبة يتضح تسامح معاوية ورضاه فيما وصل إليه ، وشكره لله تعالى على ذلك وتسليمه لقدر الله تعالى ، كما يظهر تواضعه وإظهاره الافتقار والاحتياج إلى دعاء الرعية وأنه واحد من جملتهم محتاج إليهم .(٣)وكان من دعائه قُبيل وفاته: اللهم أقل العثرة واعف عن الزلة وعُد بحلمك على جهل من لم يرج غيرك ، ولم يثق إلا بك فإنّك واسع المغفرة ، يا رب أين لذي الخطأ مهرب إلا إليك (٤) .

ولما حضرته الوفاة أوصى أن يُكفّن في قميص كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كساه إياه

---

(١) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ١٥٢/٥٩ .

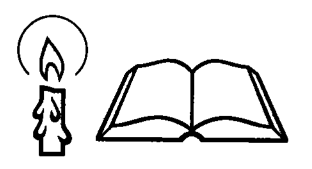
(٢) ابن تيمية ، منهاج السنة ، ٢٣٢/٦ ، ابن العربي ، العواصم من القواصم ، ٢١١ .

(٣) الهيتمي ، تطهير الجنان ، ٣٢ .

(٤) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ١٣٩/٣ .

وأن يجعل مما يلي جسمه ، وكانت عنده قلامة أظفار رسول الله ﷺ ، فأوصى أن تسحق وتجعل في عينيه وفمه وقال: افعلوا ذلك بي وخلوا بيني وبين أرحم الراحمين وتوفي في دمشق في شهر رجب سنة ستين من الهجرة[١] وقيل سنة تسع وخمسين[٢] رضي الله تعالى عنه وعن الصحابة أجمعين وعن التابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين ، وأسأل الله الكريم أن يرزقني وذريتي وجميع المسلمين حسن الإقتداء والإتباع وجميل المحبة لرسول الله ﷺ ولأصحابه الأكرمين ، وأن يهيء للأمة الإسلامية قادة ربانيين ؛ يقودونها على هدي كتابها ومنهج نبيها ﷺ فيحيون العمل بعقيدتها ويزيلون ذلها ويجمعون شملها ويوحدون صفها ؛ ويعيدون مجدها الذي بناه الصحابة الكرام ومن سار على دربهم بما قدموه من جهاد وتضحيات في سبيل الله تعالى .

﴿ رب أوز عنى أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ﴾[٣] .



---

(١) الهيتمي ، تطهير الجنان ، ٣٧. ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية ، ١١٥/٧.

(٢) ابن خياط ، تاريخ ، ٢٢٦.

(٣) سورة النمل ، الآية (١٩) .

الخـــاتـــمـــة

بعد الفراغ من هذه الجولة الواسعة في منعطفات تاريخ العصر الراشدي التي حفتها مخاوف كثيرة ؛ منها الخوف من الخطأ بحق أحد من أصحاب رســول الله ﷺ أو الوقوع في شراك مبغضي الصحابة التي نصبوها في كثــير مــن زوايــا تاريخنا وأدبنا الإسلامي المشرق ، فأصبح من يكتب عن تاريخ صدر الإسلام عامة والعصر الراشدي خاصة ؛ أشبه بمن يريد أن يتسلق شاهقاً في وقت هيجان ريــح عاصفة تقذفه بالرمال والحصى ، أو كمن يريد أن يقطع أرضاً قد زرعــها العــدو بالألغام والحفر ، فهو لا يكاد يحصل على موطئ قدم حتى يباشــر البحــث عــن موطئ جديد لقدمه الأخرى لكي يواصل سيره .

نعم هذه هي حال من يريد أن يكتب عن حقيقة ما حصل في أيام الصحابة من فتن ومكائد أدارها أعداؤهم بخبث ودهاء ، ولكن من يعتصم بالله تعالى لن يضــل ومن يلجأ إليه لا يخيب ، ومن يتوكل عليه فهو حسبه .

وهذا ما حاول الباحث فعله في هذا الموضوع ، إذ جعــل **الآيــات القرآنيــة الكريمة التي أوضحت صفات أصحــاب رســول الله ﷺ ، والأحــاديث النبويــة الشــريفة التي تثني عليهم وتدعو إلى محبتــهم والإقتداء بهم ، وإجماع الأمـــة على عدالتهم ونزاهتهم ، مناراً يُهتــدى بــه فــي مواضيــع هــذا الكتــاب وصفحاته** ، فأزالت هذه القاعدة بنورها كل خبث وشائــبة أراد أعداء الصحـــابة أن يجعلوا منها عائقاً بين الأمة وبين فهم حقيــقة تاريخ الصحابة الذي كانوا فيــه على المحجة البيضاء في اتفاقــهم واختلافــهم ، فاتضـــح أن الآيــات القرآنيــة والأحاديــث النبويــة تمثــل حصنــاً منيعــاً يحمي حقيقــة تاريخ الصحابة ﷺ وتؤكــد أن حبــهــم سنـــة والدعـــاء لهــم قربــة والإقتــداء بهــم وسيــلــة

والأخـــذ بآثارهـــم فضيـــلة [1] .

١ــ وتبين في هذا البحث أن **الإمساك عما شجر** بين الصحابة ﭬ وإحسان الظـن بهم جميعاً هو الأسلم والأولى ؛ إلا إذا ظهر مبتدع زائغ يعمل على تقبيح محاسـنهم وتشويه سيرهم ، فإنه يتوجب على كل مسلم مستطيع آنذاك أن يعمل علـــى نشـر فضائلهم والتعريف بمناقبهم .

٢ــ أن بغض الصحابة ﭬ أو شتمهم أمر مخالف لصريح القرآن وصحيح السـنة وعلامة على الزندقة والشك في الرسالة والنبوة ، واعتقاد ذلك والإصرار عليه يقود إلى الكفر والخروج من الملة كما قال ذلك الإمام مالك والشافعي وأحمد ﭭ .

٣ــ وعداء الصحابة يدفع أهله إلى مخادعة المسلمين وموالاة الكافرين والدفاع عن المرتدين ﴿ ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً ﴾[2] .

٤ــ وأنهم يستعينون بالكفار على المسلمين وذلك كلما ابتلي المسلمون بعدو مـــن الكافرين ، كما حصل أيام سقوط بغداد وغزو الصليبيين والتتار وغـــيرهم لبـــلاد المسلمين.

٥ــ وأن توحيد المسلمين ودعاوى التقريب بينهم إنما مفتاحه حب الصحابة جميعاً ومصداق ذلك الإقتداء بهم **والتخلق بأخلاقهم والتسمي بأسمائهم** ؛ لأنهم هم جيــل القدوة الذي صنع الوحدة وأعز الأمة ونشر عقيدتها وحمى دينها وضحى من أجلها.

٦ــ وأن أول امتحان تعرض له الصحابة ﭬ تمثل في وفاة رسول الله ﷺ ، وقـد أنجاهم الله من ذلك الامتحان باعتصامهم بالجماعة وإجماعهم على بيعة أبي بكـــر خليفة للمسلمين ، حيث بايعه الصحابة كافة وفي مقدمتهم علي بن أبي طالب وسـعد ابن عبـــادة رضي الله عنهما ، ولإصـــرارهم بعد الفراغ من البيـــعة على التمسك

---

(١) حادي الأرواح (٣٩٣) .

(٢) سورة المائدة الآية (٤١) .

بالإسلام كاملا غير منقوص لا فرق فيه بين الصلاة والزكاة .

٧- **واتضح أن الذي حصل في السقيفة** لم يزد على تبادل وجهات النظر والحوار وأن الشبهات التي تثار حول تخلف علي وسعد بن عبادة عن بيعة أبي بكر رضي الله عنه مناقضة للواقع الذي كان عليه الصحابة وتهدف إلى تأصيل الخلاف بين المسلمين .

٨- وظهر في هذا البحث **أن الصحابة** رضي الله عنهم **كان لهم تصورهم ورؤيتهم لما جرى من أحداث** ، ولا سيما بعد استشهاد عثمان رضي الله عنه فاتخذ كل منهم موقفه من خلال فهمه للأدلة الشرعية التي توصل إليها علمه ، وعلى هذا شارك من شارك منهم في الأحداث واعتزل منهم من اعتزل .

٩- **وأن الخلاف في زمن عثمان** رضي الله عنه لم يكن بسبب تقصير أو إهمال أو عجز منه أو من أحد من ولاته كما يزعم ذلك أعداء الصحابة ، وإنما كان بسبب ما افتراه وأشاعه عليه الخوارج وإخوانهم من الغوغاء ، وما قاموا به من الغدر والمكر والخداع والجرأة على الدم الحرام والبلد الحرام .

١٠- **وتبين أن عصر أمير المؤمنين عثمان** رضي الله عنه **من أزهى وأجمل وأعز عصور الخلافة وأكثرها رفاه ، وأن أسباب الفتنة مصنوعة لا** حقيقة لها ولا عذر لمن شارك فيها ، ولا حجة يدان بها الخليفة أو أحد من عماله بشكل يوجب الخروج على الخلافة فضلا عن حمل السلاح و استباحة دماء المسلمين .

١١- **وتأكد أن الذي تولى كبر هذه الفتنة هو عبد الله بن سبأ اليهودي الذي تظاهر** بالإسلام وكون منظمة سرية تتظاهر بالإسلام وتعمل على هدمه وإثارة الفتنة بين أهله تحت ذرائع شتى ، وقد نجح ابن سبأ في استثارة كثير من أهل الأهواء في الكوفة والبصرة ومصر ضد ولاة أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه أولا ثم ضده ثانيا

١٢- **وتبين أن كثيرا ممن استجاب لأفكار ابن سبأ** كان لا يعرف حقيقة دعوته أو أهدافها ، لذلك غرر بكثير من الغوغاء باسم الإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، هذه المهمة التي كان الصحابة أحرص على العمل بها وهم أهلها ولكن

الغوغاء لا يعقلون فوقعوا في شراك الحركة السبئية وأباطيلها ، كما هو حال غوغاء هذا العصر التي وقعت في شراك العلمانية وأحابيلها .

١٣ـ **واتضح بطلان سياسة السبئية** في تسويغ خروجهم على الخليفة عثمان رضي الله عنه وأن الحق معه في كل ما زعموه ضده .

١٤ـ **وظهرت قدرة الخليفة عثمان** رضي الله عنه **السياسية** الهائلة جلية عندما جرد السبئية والغوغاء من كل ما صنعوه من حجج ولفقوه من أباطيل للنيل من صحة سياسته أو الطعن في قدراته وإخلاصه وحسن قيادته ودقة اختياره للولاة .

١٥ـ **لجوء السبئية إلى اتباع التقية والباطنية والخداع لمواجهة سياسة عثمان** رضي الله عنه **وللتغرير بالغوغاء وتوسيع دائرة الفتنة** ، فبثوا إذاعاتهم وشائعاتهم بين الناس أنهم خارجون إلى الخليفة عثمان ليطالبوا ببعض حقوقهم أو للتظلم عنده من بعض الولاة ، فكان عامة من خرج معهم لا يعتقد إلا هذا ، ولكن ابن سبأ وخاصته كانوا قد أضمروا الإقدام على اغتيال الخليفة مستفيدين من التباس الأمور على المسلمين ومن الستار الذي أمنه لهم خروج الغوغاء الذين يرددون شعارات الإصلاح التي أطلقها ابن سبأ ليبعد الشبهة عمّا يدبر له من تآمر على الخلافة الراشدة .

١٦ـ **استعداد الصحابة التام للدفاع عن أمير المؤمنين عثمان** رضي الله عنه واستبسالهم من حوله حتى عزم عليهم أن يكفوا أيديهم وألسنتهم خشية من أن يكون سبباً في إثارة الفتنة وحرصاً منه على حقن دماء المسلمين ، وطمعاً في طمس كل ما يسوغ القتال والخروج على الخلافة وأملاً في احتواء هذه العاصفة ؛ التي تندب على طلل بائد وتضرب في حديد بارد ، إذ لا حقيقة لكل ما زعموه لتسويغ خروجهم .

١٧ـ **وتأكد أن السبئية ومن معهم من الغوغاء وأهل الأهواء لايقيمون حرمة لأحد من المسلمين** ؛ ولا مكانة عندهم لأهل السابقة ولا لأهل الجهاد والتضحية ولا لأهل القرآن وأهل العلم ، ولا لأمهات المؤمنين الطاهرات فقد آذوا الجميع وضيقوا

عليهم بفظاظة وغلظة لا توجد إلا عند من تتلمذ على أيدي اليهود وآمن بعقائدهم وتشرّب أفكارهم ، تماماً كما يفعله اليهود وامتداداتهم السياسية والعلمانية في هذا العصر مع المسلمين .

١٨ـ **محاولة الخليفة عثمان ﷺ محاورتهم واستصلاحهم** أثناء حصارهم له وإقامته الحجة عليهم ودحض كل ما أثاروه من مسائل وشبهات ، فكف العقلاء منهم وأهل الدين أيديهم وألسنتهم عن الخليفة ومنهم من عاد إلى بلاده ، وباء السبئية بالإثم واللعنة بإصرارهم على الحنث العظيم .

١٩ـ وتبين في حصار عثمان ﷺ أن قيادة الخوارج الروحية كانت لابن سبأ وبعض المقربين إليه ، وقد ظهرت أخلاقهم ونواياهم الشريرة على حقيقتها في مرحلة الحصار إذ اتضح البون الشاسع بين ما زعموه من التظلم والمطالبة بالإصلاح وبين أفعالهم القبيحة وإيذائهم لأمهات المؤمنين وللصحابة ، وإصرارهم على حرمان الخليفة المظلوم الشهيد عثمان ﷺ الصلاة في المسجد والاستقاء من المياه ومنع دخول الصحابة وأمهات المؤمنين إليه ، مما يؤكد اليد اليهودية الآثمة والخلق اليهودي الذي لا يعرف الشفقة أو الرحمة في حال ظهوره وهيمنته ، **ولعل ما يفعله اليهود الآن في فلسطين من اقتناص المسلمين من النساء والشيوخ والأطفال وغيرهم وتركهم ينزفون الدماء أمام أهليهم وذويهم دون الإجهاز عليهم أو السماح بإسعافهم حتى تزهق أرواحهم ما يؤكد ذلك الخلق ويظهره على حقيقته .**

٢٠ـ وأن سياسة الكف التي اتبعها الخليفة عثمان ﷺ هي التي كشفت نوايا السبئية وأخلاقهم ، وتجلى فيها الخلق الإسلامي السامي الذي لا يخرج عن الحق والإنصاف في كل أحواله .

٢١ـ فعلى الرغم من كل ما قامت به السبئية من الإيذاء والبهتان والكذب والإسفاف والاستفزاز وغير ذلك من الصفات التي تؤكد هويتهم ؛ على الرغم من كل ذلك **لا يستطيع حاقد أو عدو للصحابة أن يدون كلمة نابية واحدة صدرت من أمير**

المؤمنين عثمان ﷺ بحق خصومه ، فضلاً عن فعل مشين أو استغلال للسلطة وموقع القيادة الذي كان يشغله في الأمة ، وهذا ما أكد عظمة عثمان ﷺ وصحة سياسته التي تجلى فيها خلق المسلم الغيور على دينه الحريص على أمته المضحي بنفسه من أجل عقيدته .

٢٢ـ ولو عمل عثمان ﷺ بغير سياسة الكف واللين والمسامحة لقال الأفاكون أنه قتل المسلمين من أجل ملكه ومزق الأمة من أجل سلطته ولقيل أكثر من ذلك .

٢٣ـ فسياسة الكف واللين والحكمة والتمسك بالوحدة والجماعة التي اتبعها عثمان ﷺ في أحلك الظروف **هي التي قهرت السبئية وأسقطت أقنعتهم** وأبانت سوءاتهم وأظهرت زيفهم ، وهي التي حشدت الأمة فيما بعد للوقوف في وجه بغيهم وفسادهم فكانت مسوغات عثمان ﷺ في منع مقاتلة الخوارج صحيحة ، وتمسك بها بناء على ما لديه من هدي من رسول الله ﷺ، وما اتضح له من علامات الفتنة التي كان رسول ﷺ قد حدث بها وحذر أصحابه من الوقوع بها .

٢٤ـ وأن الصحابة ﷺ لا لوم عليهم في مقتل عثمان ﷺ وذلك لأمرين ، **الأول** : اتباع الخوارج سياسة التقية والباطنية التي لبّسوا بها على المسلمين عن حقيقة أهدافهم فلم يظن الصحابة أنهم يجترئون على دم الخليفة وقتله . **والثاني** : أنهم عرضوا أنفسهم على الخليفة للدفاع عنه وأصروا على ذلك ، لكن الخليفة واجههم بعزيمته عليهم أن يلقوا سلاحهم ويكفوا أيديهم وألسنتهم ، وأنه لن يكون أول من يخلف النبي ﷺ في أمته بسفك الدماء كل ذلك حرصاً على دماء الصحابة وحباً لهم

٢٥ـ إن اغتيال عثمان ﷺ كان هدفاً أساساً للسبئية لم يصرحوا به ولم يكن ليصرفهم عنه قتال الصحابة ودفاعهم عنه ، إذ أن السبئية ليس من أهدافهم قتال الصحابة لأن ذلك يوحد الصفوف ضدهم ، فقُتل عثمان ﷺ مظلوماً شهيداً صابراً وفياً باراً بأمته وعقيدته .

٢٦ــ وأن عبد الله بن سبأ الهمداني اليهودي الذي تظاهر بالإسلام هو المؤسس الأول للحركة المناهضة للصحابة والرافضة لقيادتهم ؛ مستعيناً على ذلك بالمكر والسرية والباطنية ، وأنه هو المسؤول المباشر عن اغتيال عثمان رضي الله عنه **، وأن التشكيك بذلك ما هو إلا استمرار للحرب غير المعلنة على التاريخ والفكر الإسلامي منذ ذلك العصر وإلى اليوم .**

٢٧ــ واتضح في هذا البحث أيضاً أن الصحابة في المدينة بايعوا علي بن أبي طالب رضي الله عنه أميراً للمؤمنين ، ولم يتخلف أحد منهم عن البيعة ولكن كثيراً منهم لم يشارك فيما جرى من أحداث في خلافته ولا سيما في يوم البصرة ويوم صفين خوفاً من الفتنة وحرصا على سلامة ما مضى لهم من جهاد مع رسول الله ﷺ وكانوا يرون القتال يوم البصرة ويوم صفين قتال فتنة ، ولوجود الخوارج في جيش أمير المؤمنين علي رضي الله عنه .

٢٨ــ بعد بيعة أمير المؤمنين علي قام بعزل ولاة عثمان كافة ، مما أوجد إرباكاً في الوضع الإداري العام في الخلافة إذ كان كثير من ولاة عثمان يمتلكون كفاءات نادرة ، **ولم يكن الولاة الذين اختيروا بكفاءة وخبرة الذين عزلوا** ، مما أسهم في إضعاف الموقف وانفضاض أكثر رجالات قريش عن الخليفة الجديد .

٢٩ــ وقد قاد الموقف من الخوارج بعد استشهاد عثمان رضي الله عنه إلى اختلاف اجتهادات الصحابة في هذه المسألة ، ففي الوقت الذي كان فيه **أمير المؤمنين علي** رضي الله عنه **يرى تأخير النظر في محاسبة الخوارج وإقامة الحد عليهم** ، حتى تهدأ الأمور ويستقر شأن الخلافة حيث كان كثير من الخوارج يحتمون في قوة قبائلهم ؛ وإن محاسبتهم ستثير تلك القبائل مما يزيد في اتساع دائرة الفتنة .

٣٠ــ كان بعض الصحابة وفي مقدمتهم **طلحة والزبير رضي الله عنهما لا يرون تأجيل القصاص من قتلة الخليفة عثمان** رضي الله عنه **إلى وقت غير محدد** وكانوا على

استعداد لتتبع القتلة والقصاص منهم ولو أودى ذلك بحياتهم ، وهذا ما قاموا به حيث قرر طلحة والزبير رضي الله عنهما المباشرة بتنفيذ القصاص مبتدئين ذلك بالخوارج الذين كانوا في مدينة البصرة .

٣١ـ **وقد نجح طلحة والزبير رضي الله عنهما في تحقيق أكثر أهدافهم في البصرة** وتمكنوا من تنفيذ حكم القصاص من الذين شاركوا بالخروج على الخليفة عثمان ولم ينجُ منهم سوى حرقوص بن زهير السعدي الذي فرّ إلى قبيلته .

٣٢ـ وبهذا النجاح الذي حققه طلحة والزبير ومعهم أم المؤمنين عائشة ﵄ مهدوا السبيل **للصلح** مع أمير المؤمنين علي وتوحيد الكلمة من جديد إذ لم يعد في البصرة أحد ممن يطالبون بالقصاص منه ، ولم يكن يؤخذ عليهم في تلك الحملة سوى انعدام التنسيق مع الخليفة علي ﵁ الذي كان يمنعهم منه ؛ شعورهم بهيمنة السبئية على جيشه وعدم طاعتهم له .

٣٣ـ **نجاح حملة البصرة ضد الخوارج يعد خطراً داهماً على عامة السبئية والغوغاء** الذين ساندوهم مما أسهم في تعاون الخوارج من جديد **واتخاذهم قرارات خطيرة** مثل اقتراح اغتيال علي خوفاً من تعاونه مع طلحة والزبير ﵄ وعودتهم إلى ما كانوا عليه من التناصر والتعاون قبل خروجهم من المدينة ، لكن هذا الاقتراح رفضه ابن سبأ لأنه يمهد السبيل لانتقال الخلافة إلى من لا يرى تأجيل القصاص فيهم لذلك عدلوا عن هذا الرأي وأقروا اغتيال طلحة والزبير وهذا ما تم لهم **وكان بعضهم قد حاولوا اغتيال أم المؤمنين عائشة رضي الله** عنها لكنهم فشلوا في ذلك.

٣٤ـ **كان يوم البصرة** ((**أو حرب الجمل**)) **بتدبير كامل من السبئية والغوغاء** ولم يكن علي وطلحة والزبير ﵃ يرون الحرب .

٣٥ـ **وأن ما حصل بين علي وطلحة والزبير ﵃ لم يكن على البيعة أو الخلافة**

أو على عرض من الدنيا ، وإنما كان بتدبير وتخطيط وغدر ومكر قامت به السبئية بغية إدامة الخلاف وتغذيته ؛ والحيلولة دون تطبيق الحدود وإقامة كتاب الله على قتلة الخليفة عثمان رضي الله عنه .

٣٦ـ وكان **طلحة رضي الله عنه يمثل أول وأهم هدف للسبئية فكان أول قتيل يوم البصرة ولم يكن الزبير رضي الله عنه يرى القتال في ذلك اليوم فانسحب ولم يشارك في القتال** ولم يلتق بأمير المؤمنين علي رضي الله عنه ولا بغيره ، وقام الخوارج باغتياله لطمس معالم جريمتهم في انتشار القتال وإفشال جهود الصلح ، التي نجحت تماماً بعد سفارة القعقاع بن عمرو رضي الله عنه .

٣٧ـ مما يؤكد أن **حرب الجمل كانت بتدبير من السبئية** ولم يكن أمير المؤمنين أمر بها أو أقرها ، وما أصابه من الحزن والألم لما حصل ولا سيما استشهاد أخويه طلحة والزبير رضي الله عنهما يؤكد ذلك . وكذلك ما قام به من الصلاة على قتلى الفريقين والدعاء لهم جميعاً ، وعدم إباحته قتل جريح أو أسر أحد ممن كان مع طلحة والزبير أو اغتنام شيء من أموالهم وعبيدهم وغير ذلك .

٣٨ـ **وأن ما قامت به أم المؤمنين عائشة** رضي الله عنها كان يهدف إلى الإصلاح بين المسلين ومنع الفتنة والدعوة إلى إقامة كتاب الله وتطبيق حدوده .

٣٩ـ **تفقد أمير المؤمنين علي رضي الله عنه للسيدة أم المؤمنين رضي الله عنها وزيارتها** والسلام عليها والاطمئنان على حالها والمبالغة في إكرامها والقيام على حاجاتها **وإكرام من كان قد دافع عنها عندما استهدفها الخوارج دليل قاطع على كذب وبهتان الروايات التي تروّج لشيء من الخلاف بينهما** ، تلك الفرية التي لا زال مبغضو الصحابة وبعض الجهلة يرددونها حرصاً على استمرار الخلاف وتنافر قلوب المسلمين .

٤٠ــ بعد انتهاء أحداث يوم الجمل في البصرة اتبع أمير المؤمنين سياسة المسامحة والعفو ، وأكثر من زيارة القبائل في البصرة ومواساة المصابين فيها وتلبية مطالبهم مما أسهم في تهدئة النفوس وظهور بوادر **الاستقرار والوحدة وتجاوز آثار ذلك اليوم ، وهذا ما كان يحذره السبئية مما حدا بهم إلى مغادرة البصرة** والخروج نحو الكوفة يشجعهم على ذلك وجود بعض أنصارهم هناك ولا سيما بعد مقتل رؤسائهم وقادتهم في البصرة ، فساروا دون إذن من أمير المؤمنين ، مما اضطره إلى السير خلفهم « ليقطع عليهم أمراً إن كانوا أرادوه وقد كان له ــ في البصرة ــ مقام » مما يعد أحد العوامل التي أسهمت في انتقال الخليفة علي رضي الله عنه إلى الكوفة .

٤١ــ **وأن ما حصل بين أمير المؤمنين علي ومعاوية** رضي الله عنهما لم يكن على الخلافة وقيادة المسلمين ؛ وإنما على أولوية تطبيق الحد على قتلة الخليفة عثمان رضي الله عنه وتقديم ذلك على البيعة وما تفرع عن ذلك من اجتهادات أدت إلى الخلاف .

٤٢ــ **واتضح في هذا الكتاب أن الخلاف الذي حصل بين أمير المؤمنين علي ومعاوية رضي الله عنهما لم يكن له أية خلفية** ، وأنه لم يكن بينهما صراع سياسي أو عائلي ، وأن مجرد ترديد هذه الشبهات يعد تشكيكاً في صحة إسلام الصحابة فضلاً عن أن علياً ومعاوية لم يُذكر عنهما أنهما كانا طرفاً في خلاف سياسي أو عائلي أو شخصي أو غير ذلك ، وأن الإسلام أزال كل آثار الجاهلية ولم يبق بين بني هاشم وبني أمية في ذلك العصر إلا أخوة الإسلام وسلامة قلوب المؤمنين ؛

٤٣ــ وأن ما حصل بينهما كان **بسبب الموقف من مقتل عثمان** رضي الله عنه وما تولد عن ذلك من موقف الخليفة علي رضي الله عنه الذي كان يرى أن توقف معاوية رضي الله عنه عن البيعة خروج على الخلافة وأن المطالبة بإقامة الحد على قتلة عثمان من اختصاص الخليفة وحده الذي كان يرى أن المصلحة في إرجائه ، وبين معاوية الذي ازداد

قناعة بوجوب التمسك بولايته ولا سيما بعد استشهاد طلحة والزبير رضي الله عنهما وما أصبح يراه من سطوة السبئية ومن معهم من الغوغاء في جيش الخليفة .

٤٤ـ وبناءً على هذا فإن **السبئية الذين قتلوا عثمان** ﷺ **وأثاروا القتال بين المسلمين في البصرة هم أنفسهم الذين هيأوا أسباب الخلاف** بين أمير المؤمنين علي الذي أوغروا صدره وصوروا له أن نزع معاوية عن ولايته من أولى أولويات الخلافة « وأشار عليه كثير من أمرائه ممن باشر قتل عثمان أن يعزل معاوية عن الشام »(١) وبين معاوية الذي كان على علم تام بخطورة مقاصد الخوارج السبئية وما يرمون إليه من العمل المستمر على إدامة أسباب الخلاف بين المسلمين .

٤٥ـ **أن عامة أخبار موقعة صفين مضطربة لا يعول عليها** ولاسيما في المصادر التاريخية ، وأن روايات أبي مِخنَف لوط بن يحيى هي التي تقدم صورة تلك الأحداث من وجهة نظر مبغضي الصحابة ورافضي قيادتهم وفاقدي الثقة بهم ، وأن عامة كتب التاريخ تناقلت تلك الأخبار من هذه الزاوية الموهومة ، وبالتالي لا يعول عليها ولا يمكن الثقة بأكثرها .

٤٦ـ **وأن تاريخ الطبري أسهم في تشويش أخبار تلك المرحلة عندما تبنى وجهة نظر واحدة واعتمد روايات أبي مخنف** لتغطية أخبار أحداثها التي فيها كثير من الروايات المنافية للعقل وللواقع وللحقيقة ، قام الطبري برواياتها دون تقديم أية مسوغات لذلك ، ومما زاد في ذلك التشويش نقل كثير من المؤرخين ما أورده الطبري من تلك الروايات دون تدقيق أو تمحيص .

٤٧ـ **وتبين أن عامة المسلمين لم يكن لديهم حماسة للقتال في صفين** ، ما عدا الخوارج السبئية والغوغاء .

٤٨ـ **وأن أهل الشام لم يقاتلوا مع معاوية لأنهم يفضلونه على أمير المؤمنين**

---

(١) ابن كثير البداية والنهاية ، ٨/ ١٠ .

علي ﷺ أو لأنه أولى بالأمر منه ؛ ولكن قاتلوا مع معاوية لظنهم أن جيش أمـــير المؤمنين فيه ظلمة يعتدون عليهم كما اعتدوا على عثمان ﷺ وأنهم يقاتلونهم دفعاً لصيالهم عليهم ، وقتال الصائل جائز ولم يبدؤوهم بالقتال حتى بـــدأهم أولئـــك .

٤٩ــ **فالنزاع لم يكن على منصب الخلافة** وإنما كان على مسألة الخوارج الســبئية والغوغاء وكيفية التعامل معهم ، ولم يشكك أحد منهم بعقيدة الآخر أو بدينـــه ولـــم يكفر بعضهم بعضاً ، لذلك كان أمير المؤمنين يقول : « إن قوماً زعموا أن البغـــي كان منا عليهم ، وزعمنا أنه منهم علينا وإننا اقتتلنا على البغي ولـــم نقتتـــل علـــى التكفير » وكان معاوية يقول في رسائله لأمير المؤمنين: « ادفع لنا قتلـــة عثمـــان نقتلهم به ثم نحن أسرع الناس إليك »

٥٠ــ **إن من أهـــم أحداث صفين هو عملية رفع المصاحف** التي ما إن رفعـــت حتى « بطلت الحرب » وأن الدعوة إلى ذلك كانت رغبة عامة اشترك بها رجـــال من الطرفين ، وأن ذلك كان عملاً نبيلاً حقن دماء المسلمين ورد كيد الماكرين مـــن دعاة الفتنة ، وكان أمير المؤمنين أول من أجاب إلى ذلك حيث قال : «نعم أنا أولى بكتاب الله منهم » ولهذا فإن الترويج للروايات التي تزعم أن تلك الدعـــوة كـــانت خدعة ، ما هو إلا صدىً للشائعات السبئية وامتداداً لأفكار مبغضي الصحابة .

٥١ــ وأن **التحكيم كان باتفاق الطرفين ورضاهما واختيارهما، وأن الحكمين مـــن أقدر الناس آنذاك على القيام بتلك المهمة** ، وأنهما كانا يتمتعان بكل الصفات التـــي تؤهلهم لذلك ولديهم من التجارب السياسية والإدارية والعلوم الفقهية ومـــن الـــورع والدين ما يؤهلهما للنظر في مصالح الأمة وجميع شؤونها ، وقد تمكنا من تحقيـــق أوسع قدر مما كان يرتجى من التحكيم حيث منعا نشوب قتال واسع مـــرة أخـــرى وأقرا الصلح وأعرضا عن بحث مسألتي القصاص من قتلة عثمان وبيعة معاويـــة رضي الله عنهما مما يدل على نباهتهما وفهمهما لما يحيط بهما من أوضاع .

٥٢ـ إن الرواية التي تتهم الحكمين هي رواية موضوعة تولى كِبْرها وباء بإثمها أبو مخنف لوط بن يحيى وأبو جناب الكلبي يحيى بن أبي حيـــة وهمـــا مبغضـــان للصحابة صنعا هذه الرواية لتنفير المسلمين من الصحابة رضي الله عنهم ؛ ولصرفهم عما قـــام به السبئيون من الغدر والمكر وتدبير الفتن ، فضلاً عما تحملـــه مـــن المغالطـــات التاريخية ومخالفتها لعدالة الصحابة رضي الله عنهم .

٥٣ـ أن الطائفتين اللتين اقتتلتا في البصرة وفي صفين كانتا من المؤمنيـــن وأن دعواهما واحدة لقوله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان **دعواهمـــا واحـــدة** » وأن علياً رضي الله عنه كان أقرب إلى الحق من معاوية رضي الله عنه لقوله ﷺ : « تمـــرق مارقـــة عند فرقة من المسلمين يقتلهما أولى الطائفتين بالحق » ولقوله ﷺ « يخرجون علـــى فرقة مختلفة **يقتلهم أقرب الطائفتين من الحق** »

٥٤ـ أن المارقين والناكثين والخارجين هم فئة ثالثة من غير محبي علي ومعاويـــة رضي الله عنهما ومن غير محبي الصحابة .

٥٥ـ أن عليـــاً رضي الله عنه كان متألماً حزيـــناً لما دبره السبئية في البصرة يوم الجمـــل ولما حصل يوم صفين ، فلما رجع من صفين تغير كلامه حتى قال: « لا تكرهـــوا إمارة معاوية » .

٥٦ـ ومدح مواقف الصحابة الذين لم يشاركوا في قتال البصرة وصفين وقال في ذلك: « لله درّ مقام قامه عبد الله بن عمر وسعد بن مالك ، إن كان بـــراً إنّ أجـــره لعظيم وإن كان إثماً إن خطره ليسير » .

٥٧ـ بعد أن **فشل الخوارج من تعطيل مسألة الصلـــح فـــي صفيـــن بعـــد رفـــع المصاحف** ، ومن إفساد مسألة التحكيم بعد الاتفاق عليها ، أعلنوا عـــن مقـــاصدهم الحقيقية فخرجوا على الخليفة الذي أصبح على بينة من أمرهم ، بعـــد أن اســـتنفد معهم كل وسائل الإصلاح مما اضطره إلى تقديم قتالهم على كـــل شـــيء فقاتلـــهم وقتلهم وأبطل أمرهم .

٥٨ـ بعد انتهاء أمر الخوارج عسكرياً على يد أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ، اتضح أن لهم أثراً واضحاً في الكوفة في من يزعم أنه كان من أنصاره ، فلما انطفأ أمرهم حاربوه بما حاربوا به عثمان رضي الله عنه وحاربوه بالشائعات وإذاعة الأباطيل عليه وتخذيل الناس عنه وخذلانه في المواقف الحرجة ، حتى ملهم رضي الله عنه وذمهم ودعا عليهم وتمنى فراقهم والتخلص منهم .

٥٩ـ **ولما تبين لأمير المؤمنين رضي الله عنه الحال التي عليها الخوارج على حقيقته هادن معاوية** رضي الله عنه ونهى عن قتال أهل الشام مما أسهم في توسيع دائرة الاستقرار وإخماد الفتنة .

٦٠ـ **إن الخلاف الذي حصل بعد استشهاد عثمان** رضي الله عنه **بين علي ومعاوية كان عارضاً** ولم يستمر ولم يخرج عن آداب المسلمين ، حيث كان معاوية يقر بفضل أمير المؤمنين وتقدمه على أهل عصره ويؤكد أحقيته بالخلافة ، كما أن أمير المؤمنين بعد صفين تغير كلامه في معاوية ونوه بفضله ورحمته وحسن سياسته .

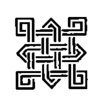
٦١ـ **فلما أحسّ الخوارج بإمكانية التقارب والصلح بين المسلمين** الذي سيؤدي إلى تطبيق الحدود عليهم ؛ **قاموا بتدبير مؤامرتهم الكبرى المتمثلة في إقرار اغتيال أمير المؤمنين علي ومعاوية وعمرو بن العاص** رضي الله عنهم استمراراً للمخطط الذي بدؤوه بقتل عثمان رضي الله عنه ، ولما نجح الخوارج السبئية في اغتيال الخليفة الرابع رضي الله عنه فإنهم ثلموا في الأمة ثلمة كبرى ، **ولكن حكمة الحسن** رضي الله عنه **وكراهيته للخلاف ومعرفته بالخوارج وحبه للمسلمين وحرصه على مصالحهم ؛ دفع به إلى التنازل عن الخلافة والإقدام على بيعة معاوية خليفة للمسلمين** ، فتمكن بذلك من توجيه ضربة قاصمة للخوارج لا تقل نتائجها عن نتائج ما حصل على يد علي رضي الله عنه من ضربات ماحقة لهم فحقق بذلك بشارة جده رسول الله ﷺ بالصلح بين المسلمين

وفاز بقولـــه ﷺ : « إن ابني هذا لسيد ولعل الله أن يصلح به بيـــن فئتيـن مـــن المسلمين » .

٦٢ـ **وكان لكفاءة معاوية وحسن قيادته وجميل سياسته** وعمق معرفته بالخوارج الأثر المتمم لما قام به أمير المؤمنين ضدهم ، **وما أقدم عليه أبو محمد الحسن بن علي رضي الله عنهما في ذلك المشروع البطولي الذي يكاد ينفرد به علـــى مـر التاريخ ، والذي تمثل بتنازله عن الخلافة ابتغاء لوجه الله تعالى ، على الرغم مما كان يمتلكه من قوة عسكرية وسياسية ، وليقيم الحجة على مـــن مزقــوا الأمـــة فأضاعوها لكي يحفظوا مصالحهم وتبقى لهم عروشهم .**

٦٣ـ **أتم معاوية ﷺ ما بدأه علي والحسن رضي الله عنهما عندمـــا تســامى عـن الأحقاد والضغائن ، فأسبغ سياسة الحلم والعفو والمسامحة والمصالحة على جميع أبنـاء الخلافة الإسلامية آنذاك ، حتى توحد الصف وعادت الأمة إلى ما كانت عليه من الألفـــة والمودة والإيثار ، فانطلقت لنشر الإسلام وفتح معاقل الشرك وقلاع الكفر وحماية ذلــك بالجهاد المتواصل والتفاني في خدمة الدين وتطبيق مبادئ الإسلام وأحكام الشرع علـــى واقع الحياة ، ففاز المسلمون بالقيادة والسيادة على العالمين في الدنيا ، ولأجر الآخـــرة أكبر لو كانوا يعلمون .**

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .





قائمة المراجع

ابن الأثير : أبي الحسن علي بن محمد الجزري ، ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م .
أُسد الغابة في معرفة الصحابة ، تحقيق : خليل مأمون شيحة (ط١) بيروت ، دار المعرفة ٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م .
الكامل في التاريخ(ط٣) بيروت، دار الكتاب العربي١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

ابن أحمد : عبد الله بن أحمد بن حنبل ، ت ٢٩٠ هـ / ٩٠٣ م .
السنة ، تحقيق : محمد بسيوني (ط١) بيروت ، دار الكتاب ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

ابن أعثم : أحمد بن محمد بن علي الكوفي ، ت ٣١٤ هـ / ٩٢٧ م .
الفتوح بإشراف : محمد عبد المعيد خان (ط ١) حيدر أباد دائرة ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨ م .

الإيجي : عظد الدين عبد الرحمن بن أحمد ، ت ٧٥٦ هـ / ١٣٥٥ م .
المواقف في علم الكلام ، (بلا . ط) بيروت ، عالم الكتب (بلا . تا) .

الباقلاني : أبو بكر بن الطيب ، ت ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ .
الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به ، تحقيق محمد زاهر الكوثري (ط٢) القاهرة ، مؤسسة الخانجي للطباعة والنشر ١٣٨٢ هـ ١٩٦٢م .

البخاري : محمد بن اسماعيل البخاري الجعفي . ت ٢٥٦ هـ / ٨٦٩ م .

التاريخ الكبير تحقيق: محمد الأزهر (بلا. ط) بيروت، مؤسسة الكتب الكتب الثقافية ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦ م .

التاريخ الصغير تحقيق : محمد ابراهيم زايد (ط١) بيروت ، دار المعرفة ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .

بدران : الشيخ عبد القادر بدران ، ت ١٣٤٦ هـ / ١٩٢٧ م .

تهذيب تاريخ دمشق الكبير (ط٢) بيروت: دار السيرة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

البزار : أحمد بن عمر بن عبد الخالق العتكي البزار ، ت ٢٩٢ هـ / ٩٠٤ م .

البحر الزخار المعروف مسند البزار ، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله (ط١) بيروت ، مؤسسة علوم القرآن ١٤٠٩ هـ / ١٩٨١ م .

البغدادي : عبد القادر بن طاهر التميمي ، ت ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م .

أصول الدين (ط٢) بيروت ، دار الكتب العلمية ١٤٠٠ هـ / ١٩٧٩م.

ابن بكار : الزبير بن بكار بن عبد الله ، ت ٢٥٦ هـ / ٨٦٩ م .

الأخبار الموفقيات تحقيق : سامي مكي العاني (ط١) بغداد مطبعة العاني ١٤٩٢ هـ / ١٩٧٢ م .

البلاذري : أحمد بن يحيى بن جابر ، ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م .

فتوح البلدان تحقيق: عبد الله أنيس الطباع ، بيروت ، مؤسسة المعارف ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .

أنساب الأشراف تحقيق سهيل زكار ورياض زركلي (ط١) بيروت دار الفكر ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م .

البيهقي: أبي بكر أحمد بن الحسين ٤٥٨ هـ / ١٠٦٥ م .

دلائل النبوة تحقيق: عبد المعطي قلعجي (ط١) بيروت ، دار الكتب العلمية ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

التبريزي : محمد بن عبد الله الخطيب ، ت ٧٤١ هـ / ١٣٤٠ م .

مشكاة المصابيح تحقيق ناصر الدين الألباني (ط٢) بيروت ، المكتب الإسلامي ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩ م .
الترمذي : أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي .
سنن الترمذي : دار الفكر ١٣٩٨ هـ .
ابن تغري بردي : جمال الدين أبي المحاسن يوسف الأتابكي ٨٧٤هـ/١٤٧٠ م .
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، تحقيق : محمد حسين محمد حسين شمس الدين(ط١) بيروت ، دار الكتب العالمية ١٤١٣هـ/١٩٩٢م
ابن تيمية : تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية .
الخلافة والملك ، مكتبة المنار(ط١) الأردن الزرقاء ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م
الصارم المسلول على شاتم الرسول ، المكتب الإسلامي بيروت (ط ١) ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م .
مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ، مطابع الرياض (ط١) ١٣٨١هـ .
منهاج السنة النبوية، تحقيق: محمد رشاد سالم(ط١)١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.
الجاحظ : أبي عثمان عمرو بن بحر ، ت ٢٥٥هـ / ٧٦٨م .
العثمانية ، تحقيق : عبد السلام هارون (ط١) بيروت دار الجيل ١٤١١هـ / ١٩٩١م .
ابن الجعد : علي بن الجعد بن عبيد الجوهري ، ت ٢٣٠ هـ/ ٩٤١م .
مسند ابن الجعد ،تحقيق عبد المهدي بن عبد القادر (ط١) الكويت مكتبة الفلاح ، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥ م .
ابن الجوزي : جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي البغدادي ت ، ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م .
المنتظم في تواريخ الملوك والأمم ، تحقيق : سهيل زكار (ط١)

بيروت ، دار الفكر ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م.
صفة الصفوة ، تحقيق : محمود فاخوري ، وتخريج الأحاديث محمد رواس قلعجي (ط٤) بيروت ، دار المعرفة ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م.
تلبيس إبليس ، تحقيق : الدكتور محمد الصباح (ط١) بيروت ، دار مكتبة الحياة ، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م .

الحاكم : أبي عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري ، ت ٤٠٥ هـ / ١٤١٤م.
المستدرك على الصحيحين في الحديث (بلا . ط) بيروت ، دار الكتب العلمية (بلا . تا) .

ابن حبان : محمد بن حبان بن أبي حاتم التميمي البستي ، ت ٣٥٤هـ / ٩٦٥م .
الثقات ، مراقبة عبد المعيد خان (ط١) مطبعة دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد ، ١٣٩٣ هـ / ١٠٧٣ م .
الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ، ترتيب الأمير علاء الدين علي المتوفي ٧٣٩هـ / ١٣٣٨ م . ضبط نصه كمال يوسف الحوت (ط١) بيروت ١٤٠٧هـ /١٩٨٧ م .

ابن حُبيش : عبد الرحمن بن عبد الله بن يوسف ، ت ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م .
الغزوات الظامنة الكاملة والفتوح الجامعة الحافلة الكائنة في أيام الخلفاء الثلاثة الأول ، تحقيق : سهيل زكار (ط١) بيروت، دار الفكر ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢ م .

ابن حجر : أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م .
تقريب التهذيب ، تحقيق : عادل مرشد (ط١) بيروت مؤسسة الأعلمي ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م .
فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، تحقيق: محب الدين الخطيب وأخرون (ط٢) القاهرة دار الريان ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .

المطالـــب العالية بزوائد الثمانيـــة تحقيـــق: حبيب الرحمـــن الأعظمي (بلا.ط) بيروت: دار المعرفة (بلا . تا) .

ابن أبي الحديد: عبد الحميد بن هبة الله بن محمد أبو حامد، ت ٦٥٦ هـ/١٢٥٨م.

شرح نهج البلاغة ، تحقيـــق : محمد أبو الفضـــل ابراهيـــم (بلا . ط) بيروت ، دار الجيل ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .

ابن حـــزم: علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي ، ت ٤٥٦ هـ / ١٠٦٣ م .

الفصل في الملل والأهواء والنحل(ط٢) بيروت، دار المعرفة ١٣٩٥هـ ١٩٧٥م .

ابن حمزة : ابراهيـــم بن محمـــد بن كمـــال الدين الدمشقي ١١٢٠ هـ / ١٧٠٨م

البيان والتعريـــف في أسباب ورود الحديـــث الشريف (ط١) بيـــروت المكتبة العلمية ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .

ابن حنبل : أبو عبد الله بن أحمد بن محمد ، ت ٢٤١ هـ / ٨٥٥ م .

المسنـــد ، تحقيق : أحمد شاكـــر (بلا . ط) القاهـــرة ، مكتبة التـــراث الإسلامي ١٤١٠ هـ/١٩٩٠م .

فضائل الصحابة ، تحقيق : وصي الله بن أحمد (ط١) بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣ .

الخطيب : أبو بكر أحمد بن علي البغدادي ، ت ٣٦٣ هـ / م ١٠٧٠ .

الكفاية في علم الرواية (بلا. ط) بيروت ، دار الكتب العلمية (بلا. تا).

ابن خلدون : القاضي عبد الرحمن ، ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م .

المقدمة (ط٤) مكة المكرمة دار الباز ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٧ م .

ابن خيـــاط : خليفة بن خياط شباب العصفري ، ت ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م .

تاريخ خليفة ، تحقيق: أكرم ضياء العمري (ط٢) بيروت، دار القلـــم ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧ م .

ابــن دريد : محمد بن الحسن الأزدي ، ت ٢٣١هــ .
الاشتــقاق ، تحقيــق : عبــد الســلام هارون ، مكتبة المثنــى (ط٢) ١٣٩٩هــ / ١٩٧٩م .
أبــو داود : سليمان بن الأشعث السجستاني ، ت ٢٧٥هــ / ٨٨٨ م .
سنن أبي داود ، بيروت : دار الجيل ١٤٠٨ هــ / ١٩٨٨ م .
عون المعبــود ، شرح سنن أبي داود ، محمــد شمس الحــق العظيم آبادي مع شرح ابن قيم الجوزية ، تحقيق : عبد الرحمن محمد عثمان (ط٣) بيروت ، دار الفكر ١٣٩٩هــ / ١٩٧٩ م .
ديورانـــت : قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدر .
(ج٢ . م١) الإدارة الثــقافية في جامعــة الدول العربية .
الــذهبــي : شمس الدين بن محمد بن أحمد بن عثمان ت ٧٤٨ هــ / ١٣٤٧م .
تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ؛ عهد الخلفــاء الراشديــن تحقيــق : عبد السلام تدمري (ط١) بيروت ، دار الكتــاب العــربي ١٤٠٧ هــ / ١٩٧٨ م .
سير أعلام النبلاء ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط وآخرون (ط٨) بيروت مؤسسة الرسالة ، ١٤١٢ هــ / ١٩٩٨ م .
ميزان الاعتدال في نقد الرجال ، تحقيق: علي محمد البخاري (بلا.ط) بيروت ، دار المعرفة ١٣٨٢ هــ / ١٩٩٢ م .
العبر في خبر من عبر ، محمد السعيد بسيوني (بلا . ط) دار الكتب العلمية ١٤٠٥ هــ / ١٩٨٥ م .
الــرازي : فخر الدين بن محمد بن عمر ، ت ٦٠٦ هــ / ١٢٠٩ م .
اعتقادات فرق المسلميــن والمشركين ، القاهــرة ، مكتبــة الكليــات الأزهرية ، ١٣٩٨ هــ / ١٩٧٧ م .

التفسير الكبير ومفاتيح الغيب (بلا.ط) بيروت ، دار الفكر، ١٤٠٥هـ/ ١٩٧٨م .

ابن سعد : محمد بن سعد بن منيع البصري ، ت ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ م .

الطبقات الكبرى ، إعداد: رياض عبد الله عبد الهادي (ط١) بيروت دار التراث العربي، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م .

السمهودي: عبد الرحمن بن أحمد ، ت ٩١١هـ / ١٥٠٥ م .

وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى (ط ٤) بيروت ، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤م .

السهيلي : عبد الرحمن بن أحمد الخثعمي ، ت ٥٨١هـ / ١١٨٥ م .

الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام ، تحقيق مجدي منصور الثوري(ط١) بيروت، دار الكتب العالمية، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ، ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م .

خلفاء رسول الله ﷺ علق عليه عبد الناصر هارون (ط١) بيروت، دار الرشيد ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م .

تاريخ الخلفاء (ط١) مصر ، مطبعة السعادة ١٣٧١هـ / ١٩٥٢ م .

الشافعي : محمد بن إدريس ت ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م .

كتاب الأم (ط٢) القاهرة ، دار المعارف ، ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م .

ابن شبة : عمر بن شبه النمري البصري ت ٢٦٢هـ / ٨٧٥ م .

تاريخ المدينة المنورة ، تحقيق علي دندل وياسين بيان (ط١) بيروت دار الكتب العلمية ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م .

الأشعري : أبو الحسن علي بن اسماعيل ، ت ٣٣٠ هـ / ٩٤١ م .

مقالات الإسلاميين ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد (ط٢) مكتبة النهضة المصرية (بلا . تا) .

الشهرستاني : أبو الفتح محمد عبد الكريم ، ت ٥٤٨ هـ / ١١٥٣م .

الملل والنحل ، علق عليه : أبو عبد الله السعيد (ط١) بيروت ، مؤسسة الكتب الثقافية ، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٤ م .

ابن أبي شيبة : عبد الله بن محمد بن أبي شيبة ابراهيم بن عثمان الكوفي العبسي ت ، ٢٣٥ هـ /٨٣٩ م .

مصنف ابن أبي شيبة في الأحاديث والآثار ، ضبطه سعيد اللحام (ط١) بيروت ، دار الفكر ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م .

الحنبلي : عبد الرحمن بن رجب بن أحمد ، ت ٧٩٥هـ / ١٣٩٣م .

لطائف المعارف لابن رجب .

الصالحي : محمد بن يوسف الصالحي ، ت ٩٤٢هـ / ١٥٣٥ م .

سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ، تحقيق : عبد العزيز عبد الحق حلمي (بلا . ط) القاهرة ، لجنة إحياء التراث الإسلامي ، مطابع الأهرام . ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م .

الصنعاني : أبي بكر عبد الرزاق بن همام ، ت ٢١١ هـ / ٢٦ ٨ م .

المصنف ومعه كتاب الجامع لمعمر بن راشد الأزدي رواية عبد الرزاق تحقيق : حبيب الرحمن الأعظمي (ط٢) بيروت ، المكتب الإسلامي ١٤٠٣ هـ١٩٨٣ م .

الطبراني : أبي القاسم سليمان بن أحمد ، ت ٣٦٠هـ / ٨٧٣ م .

المعجم الكبير ، تحقيق : حمدي عبد المجيد السلفي (ط١) (بلا . م) ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣ م .

الطبري : محمد بن جرير ، ت ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م .

تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم ، بيروت دار سويدان (بلا تا) ج (٥ ٦) طبعة دار الفكر(ط١) ١٤١٨هـ/١٩٩٨م

ابن أبي عاصم : أبي بكر عمر الشيباني ، ت ٢٨٧ هـ / ٩٠٠ م .
السُّنة (ط١) بيروت ، المكتب الإسلامي ١٤٠٠ هـ / ١٩٨١ م .
ابن عبد البر : أبو عمر يوسف بن عبد الله النمري ، ت ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م .
الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، تحقيق : محمد علي البجاوي (ط١) القاهرة ، مطبعة نهضة مصر (بلا . تا) .
الدرر في اختصار المغازي والسير ، تحقيق : شوقي ضيف (ط٣) القاهرة ، دار المعارف ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م .
ابن عبد ربه : أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي .
العقد الفريد، دار إحياء التراث العربي، بيروت (ط٢)١٤٢٠هـ ١٩٩٩م
العراقي : زين الدين بن عبد الرحيم ، ت ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ م .
التقييد والإيضاح ، شرح مقدمة ابن الصلاح ، تحقيق : عبد الرحمن محمد عثمان ، بيروت ، دار الفكر ١٤١٠ هـ / ١٩٨٢م .
ابن العربي : محمد بن عبد الله المعافري المالكي ، ت ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م .
العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ تحقيق : محب الدين الخطيب ، تخريج : محمود مهدي (ط٦) القاهرة دار الثقافة للنشر والتوزيع ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩١ م .
ابن عساكر : علي بن الحسين بن هبة الله بن عبد الله ، ت ٥٧١ هـ / ١١٧٥ م .
تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق : محب الدين العمروي (ط١) بيروت ، دار الفكر ، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م .
العظيم آبادي : أبي الطيب محمد شمس الحق .
عون المعبود شرح سنن أبي داود ، تحقيق : عبد الرحمن محمد عثمان (ط٣) بيروت ، دار الفكر ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩ م .
الغزالي : أبو حامد محمد بن محمد ، ت ٥٠٥ هـ / ١١١١ م.

فضائح الباطنية ، تحقيق : عبد الرحمن بدوي (ط١) الكويت، دار الكتب الثقافية (بلا . تا) .

الفيروزآبادي : مجد الدين محمد بن يعقوب ، ت ٨١٧ هـ / ١٤١٤ م.

القاموس المحيط ، إعداد : عبد الرحمن المرعشلي (ط ١) بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٧ م .

ابن قتيبة : أبي محمد عبد الله بن مسلم الدينوري ، ت ٢٧٦ هـ / ٨٩٩ م .

الإمامة والسياسة (منسوب) علق عليه ، خليل المنصور ، بيروت ، دار الكتب العلمية ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م .

القرطبي : محمد بن أحمد الأنصاري ، ٦٧١ هـ / ١٢٧٢ م .

الجامع لأحكام القرآن(ط١)بيروت، دار الكتب العلمية،١٤١٣هـ/١٩٩٣

القضاعي : محمد بن سلامة بن جعفر ، ت ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م .

عيون المعارف وتحقيق أخبار الخلائف ، تحقيق : عبد الرحيم محمد علي ، عمان ، دار الينابيع ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧ م .

مسند الشهاب ، تحقيق : حمدي عبد المجيد السلفي (ط١) بيروت مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .

القمي : علي بن ابراهيم .

تفسير القمي (ط١) النجف ــ العراق .

ابن القيم : شمس الدين محمد بن أبي بكر ، ت ٧٥١ هـ / ١٣٥٠م .

حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ، بيروت ، المكتبة العصرية للطباعة والنشر ، ١٩٩٣ م .

ابن كثير : عماد الدين أبي الفداء اسماعيل الدمشقي ، ت ٧٤٧ هـ ١٣٧٢ م .

مسند الفاروق ، تحقيق : عبد المعطي قلعجي (ط٣) المنصورة ، دار الوفاء ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م .

الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث(ط١) بيروت،دار الفكر (بلا.تا)
البدايـــة والنهاية ، تحقيق : أحمد أبو ملحم وآخرون (ط١) القاهـــرة ، دار البيان للتراث ، ١٤٠٨ هــ/ ١٩٨٨م .
ابن ماجة: محمد بن يزيد القزويني ، ت ٢٧٥ هــ / ٨٨٨ م .
سنـــن ابن ماجة ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي (ط١) بيروت ، المكتبة العلمية ، ١٣٧٣ هــ / ١٩٥٤ م .
الماوردي : علي بن محمد ، ت ٤٥٠ هــ / ١٠٥٨ م .
الأحكـــام السلــطانية والولايات الدينية (ط٣) القاهرة مطبعة البابي الحلبي ٣٩٣ هــ / ٧٩٦ م .
ابن المبارك : عبد الله بن المبارك ، ت ١٨١ هــ / ٧٩٧ م .
مسند عبد الله بن المبارك ، تحقيق: صبحي البدري (ط١) الرياض ، مكتبة المعارف ١٤٠٧ هــ / ١٩٨٧ م .
المحب الطبري : أبي جعفر أحمد بن عبد الله ، ت ٦٩٤ هــ / ١٢٩٥ م .
الرياض النضرة ، في مناقب العشرة المبشرين بالجنة (ط١) بيروت ، دار الندوة ، ١٤٠٨ هــ / ١٩٨٨ م .
المـــزي : جمال الدين أبي الحجاج يوسف المزي ، ت ٧٤٢ هــ / ١٣٤١ م .
تهذيب الكمـــال في أسمـــاء الرجال ، تحقيق : بشار عواد (ط٤) مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٦هــ / ١٩٨٥ م .
المسعودي : أبي الحسن علي بن الحسين ، ت ٣٤٦ هــ / ٩٥٧ م .
مروج الذهـــب ومعادن الجوهـــر ، شرحه عبد الأمير علي مهنا (ط١) بيروت ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، ١٤١١هــ/١٩٩١ م .
مسلــم : أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم النيسابوري، ت ٢٦١ هــ/٨٧٤م.
صحيح مسلم بشرح النووي ، دار الفكر ، ١٤٠١ هــ / ١٩٨١ م .

المجلسي : محمد باقر المجلسي .
بحـــار الأنوار الجامـــع لدرر أخبار الأئمة الأطهار ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ج (٨٥) .
ابن منظور : محمد بن مكرم الأفريقي ، ت ٦٢٦ هـــ /ى ١٢٢٨ م .
لسان العرب (ط١) بيروت ، دار صادر (بلا . تا) .
المنقـــري : نصر بن مزاحم ، ت ٢١٢ هـــ / ٨٢٧ م .
وقعة صفين (ط٣) بيروت ، دار الجيل ، ١٤١٠ هـــ / ١٩٩٠ م .
النسائـــي : أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي ، ت ٣٠٣ هـــ / ٩١٥ م .
فضائـــل الصحـــابة ، تحقيـــق : فاروق حمـــادة (ط١) الدار البيضاء ١٤٠٤هـــ / ١٩٨٤ م .
السنن الكبرى ، تحقيق : عبد الغفار سليمان البـــداري وسيـــد كسروي (ط١) بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤١١ هـــ / ١٩٩١ م .
الأصبهاني : أبو نعيم أحمد بن عبد الله ، ت ٤٣٠ هـــ / ١٠٣٨ م .
حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (ط٢) بيروت، دار الكتاب ١٣٨١هـــ .
النـــووي : أبي زكريا محي الدين بن شرف النووي ، ت ٦٧٦ هـــ / ١٢٧٧ م .
تهذيب الأسماء واللغات (ط١) بيروت ، دار الكتب العلمية (بلا . تا) .
صحيح مسلم بشرح النووي ، دار الفكر، ١٤٠١ هـــ / ١٩٨١ م .
ابن هشام : عبد الملك بن هشام الحميري ، ت ٢١٨ هـــ٨٣٣ م .
السيرة النبوية ، تحقيق : طه عبد الرؤوف (ط١) بيروت ، دار الجيـــل ١٤١١ هـــ / ١٩٩١ م .
الهنـــدي : علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين ، ت ٩٧٥هـــ / ١٥٦٧م .
كـــنز الـــعمال في سنن الأقوال والأفعـــال ، تحقيـــق : بكري حيـــاني وصفوت السقا، (ط١) مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٩هـــ / ١٩٨٩م .

الهيتمي : أحمد بن حجر الهيتمي المكي المتوفى سنة ٩٧٤ هـ ١٥٦٧ م .
الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة ومعه تطهير الجنان واللسان عن الخطور والتفوه بثلب سيدنا معاوية بن أبي سفيان دار الكتب العلمية بيروت ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م .

الهيثمي : نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي ، ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م .
مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (ط ٣) بيروت ، دار الكتاب العربي ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧ م .

الواقدي : محمد بن واقد ، ت ٢٠٧ هـ / ٨٢٢ م .
الردة مع نبذه من فتوح العراق وذكر المثنى بن حارثة الشيباني، تحقيق: يحيى الجبوري (ط١) بيروت، دار الغرب الإسلامي ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
المغازي، تحقيق:مارسدن جونس،القاهرة،دار المعارف١٣٨٤هـ١٩٦٤م

ابن الوزير : محمد بن ابراهيم الوزير اليماني ، ت ٨٤٠ هـ .
العواصم من القواصم في الذب عن سنة أبي القاسم ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط ، دار البشير عمان (ط١) ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .

اليعقوبي : أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح ، ت ٢٨٤هـ٨٩٧م.
تاريخ اليعقوبي ، تحقيق : عبد الأمير مهنا (ط١) مؤسسة الأعلمي ١٤١٣هـ / ١٩٩٣ م .

ابن أبي يعلى : أبي الحسن محمد ، ت ٥٢٦ هـ / ١٣٣٢ م .
طبقات الحنابلة وذيله لابن أبي رجب الحنبلي ، ت ٧٩٥ هـ / ١٣٩٢م.
(بلا . تا) بيروت ، دار المعرفة (بلا . تا) .

ياقوت : شهاب الدين الحموي البغدادي ، ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م .
معجم البلدان ، بيروت ، دار صادر ، ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م .

قائمة المصادر

الألباني : محمد ناصر الدين .

اروواء الغليل تخريج أحاديث منار السبيل (ط١) بيروت ، المكتب الإسلامي ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٧٩ م .

الآلوسي : شهاب الدين السيد محمود ، ت / ١٢٧٠ هـ / ١٨٦٤ م .

مختصر التحفة الاثني عشرية ،استانبول ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .

البرقعي : أبو الفضل بن رضا البرقعي .

كسر الصنم (نقض كتاب أصول الكافي) دار البيارق ــ عمان (ط١) ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م .

بيضون : ابراهيم بيضون .

الأنصار والرسول ﷺ ، إشكاليات الهجرة في الدولة الإسلامية الأولى (ط١) بيروت ــ معهد الإنماء العربي ــ١٤٠٩ هـ/ ١٩٨٩م.

الحجاز والدولة الإسلامية (ط١) بيروت ، المؤسسة الجامعية ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣م.

التباني : محمد العربي التباني السطيفي المغربي .

اتحاف ذوي النجابة بما في القرآن والسنة من فضائل الصحابة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥ م .

التليدي: عبد الله عبد القادر .

فضائل الصحابة والدفاع عن كرامتهم وبيان خطر مبغضيهم والطاعنين فيهم (ط١) بيروت ــ دار ابن حزم ــ ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م .

حميد الله : محمد حميد الله .

الوثائق السياسية من العهد النبوي والخلافة الراشدة ـ (ط٣) بيروت ـ دار الإرشاد ـ ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م .

الخربوطلي : علي حسني .

الإسلام والخلافة (بلا.ط) بيروت ، دار بيروت ، ١٣٨٨هـ ١٩٦٩م.

الخليفة : حامد محمد الخليفة .

الأنصار في العصر الراشدي ، رسالة دكتوراه ، قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٢ م .

دبوس : صلاح الدين .

الخليفة توليته وعزله(بلا.ط) بيروت، مؤسسة الثقافة الجامعية (بلا.تا).

الدميجي : عبد الله عمر سليمان .

الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة (ط١) الرياض ، دار طيبة ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .

الدوري : قحطان عبد الرحمن .

عقد التحكيم في الفقه الإسلامي،مطبعة الخلود بغداد (**ط١**)١٤٠٥/١٩٨٥م

رضا : محمد رشيد .

الخلافة أو الإمامة العظمى (بلا. ط) مطبعة المنار،١٣٤١هـ/١٩٢٢م.

الساعاتي : محمد عبد الرحمن البنا .

الفتح الرباني ، ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني مع شرحه بلوغ الأماني بيروت ، دار إحياء التراث العربي (بلا . تا) .

الصّلابي : علي محمد محمد الصلابي .

أبو بكر الصديق رضي الله عنه شخصيته وعصره ، دار البيارق (ط١) بيروت عمان ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١ م .

حسين : طه حسين .

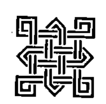
الشيخان (بلا . ط) مصر ، دار المعارف ، ١٣٧٩ هـ / ١٩٦١ م.
الفتنة الكبرى (بلا , ط) مصر ، دار المعارف ١٣٨٢هـ /١٩٦٢م.
العـقـاد : عباس محمود العقاد .
الديمقراطية في الإسلام (ط٤) مصر ، دار المعارف (بلا . تا) .
عـمـارة : محمـد عمارة .
الإسلام وفلسفة الحكم، (ط١) بيروت ، دار الشروق ١٤٠٩هـ/١٩٨٩.
المعتزلة وأصول الحكم(ط١) بيروت، المؤسسة العربية ١٩٧٧/١٣٩٨م
العمـري : أكرم ضياء .
عصر الخلافة الراشدة (ط١) الرياض ، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م .
الغيـث : استشهاد عثمان رضي الله عنه وحرب الجمل .
أبو فارس: محمد عبد القادر .
النظام السياسي في الإسلام (بلا ، ط) الجامعة الاردنية ١٤٠١ هـ ١٩٨٠ م .
الكاندهلوي: محمد يوسف ، ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥م .
حياة الصحابة ، تحقيق : نايف العباس ومحمد علي دولة (بلا . ط) القاهرة ، (بلا ، تا) .
لوبـون : جوستاف لوبون .
حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر، عيسى الحلبي القاهرة (بلا.ط).
محـمـد : مجدي محمد علي .
انتصار الحق مناظرة علمية (ط١) الرياض دار طيبة ١٤١٨هـ١٧٩٧م
الموسوي : حسين الموسوي .
لله ثم للتاريخ ، كشف الأسرار وتبرئة الأئمة الأطهار ، دار اليقين (ط١) ١٤٢١ هـ / ٢٠٠١ م .

النبراوي : فتحية عبد الفتاح .
عصر الخلفاء الراشدين، الدار السعودية الطبعة الثالثة،١٤١٥هـ ١٩٩٤م

هـــادي : ريان هاشم .
دور الأنصـــار السياسي في الدولة العربية الإسلامية « رسالة ماجستير مطبوعـــة علـــى الآلـــة الكاتبـــة » كليـــة الآداب ، جامعـــة الموصـــل قسم التاريخ ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦م .

جعيط : هشام جعيـــط .
الفتنة جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكـــر، ترجمـــة أحمـــد خليل (ط٢) بيروت ، دار الطليعة ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م .

ولهاوزن : يوليوس ولهاوزن .
الدولة العربية وسقوطها ، ترجمة يوسف العش (بلا. ط) مطبعة الجامعة السورية ، دمشق ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٦ م .



فهرس المحتويات

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

المبحث الأول

المبحث الثاني

المبحث الثالث